التفسير المظهري

تأليف

الشيخ القاضي محمد ثناء الله

العثماني الحنفي المظهري الپاني پتي

المتوفى ١٢٢٥هـ

وضع حواشيه وخرج آياته وأحاديثه

إبراهيم شمس الدين

الجزء السادس

المحتوى:

من أول سورة سبأ - إلى آخر سورة الرحمن

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: AL-TAFSĪR AL-MAẒHARI
(The exegesis of the Holy Qur'an)
Author: Al-qāḍi Muḥammad Ṯanā'ullāh al-Maẓhari
Editor: Ibrāhīm Šamseddīn
Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah
Pages: 3784 (7 volumes)
Year: 2007
Printed in: Lebanon
Edition: 1st

الكتاب: التفسير المظهري
المؤلف: الشيخ القاضي محمد ثناء الله العثماني المظهري
المحقق: إبراهيم شمس الدين
الناشر: دار الكتب العلميـــة ــ بيروت
عدد الصفحات: 3784 (7 أجزاء)
سنة الطباعة: 2007 م
بلد الطباعة: لبنـــان
الطبعة: الأولى (لونان)

ISBN 2-7451-4069-8
9 782745 140692 90000

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م-١٤٢٨ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢/١١/ ٨١٠ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة سبأ

آياتها أربع وخمسون وهي مكيّة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ
وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ
مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي
الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ
نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) ۞
وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي
السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ
عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ
(١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا
وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ
مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾ .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وقهراً فهو الحقيق بالحمد سرّاً وجهراً دون غيره وإنما يحمد غيره لأجل إضافة بعض النعم إلى غيره ظاهراً وبالمجاز ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ لأن نعماء الآخرة أيضاً له تعالى، وليس هٰذا من قبيل عطف المقيد على المطلق بل المعطوف عليه مقيد بكونه في الدنيا لما يدل الوصف بالموصول والصلة على أنه المنعم بالنعم الدنيوية فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته وتمام نعمته وكذا في الآخرة لأن نعماء الآخرة أيضاً له تعالى، وتقديم الظرف في الجملة الثانية للإشعار بأن الحمد في الدنيا قد يكون الله تعالىٰ بواسطة من يستحق الحمد لأجلها ولا كذلك نعم

الآخرة بل هي مختصة بالله تعالى، قيل الحمد في الآخرة هو حمد أهل الجنة كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] و ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي أحكم أمور الدين ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء وظواهرها ﴿يَعْلَمُ﴾ حال أو استئناف في مقام التعليل ﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المطر الذي ينفذ في مسام الأرض والأموات والكنوز ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والفلذات والأموات إذا حشروا والماء من الآبار والعيون ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والصواعق والملائكة والكتب والمقادير والأرزاق وأنواع البركات وأصناف البليات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمال العباد والدعوات ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ فينزّلُ ما يحتاجون إليه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرطين في شكر نعمته مع كثرتها هذه الجملة معطوفة على يعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ إنكار لمجيئها معطوف على جملة مقدرة مفهومة من قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فإنه يفهم منه وعد الله بالرحمة والمغفرة للحامدين يوم تأتي الساعة ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ رد لكلامهم وإثبات لما نفوه ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تكريره لإيجابه مؤكداً بالقسم وبتوصيف المقسم به بقوله ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ فإن عظم المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم وفيه إشارة إلى أن الساعة من الغيب وعلمه مختص بالله تعالى يكفي لإثباته شهادة تعالى ولا يجوز لأحد إثبات شيء من الغيب ولا نفيه إلا بتعليم من الله تعالى، قرأ حمزة والكسائي ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ على وزن فَعَّالٍ للمبالغة والباقون على وزن فاعل، وقرأ نافع وابن عامر(١) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره ما بعده والباقون بالجر على أنه صفة للرب ففيه تأكيد للرّدِ على إنكارهم فإن إنكارهم ليس إلا مبنياً على جهلهم واستبعادهم ممكناً مثل سائر الممكنات ثابتاً أتيانه بأخبار ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ﴾ قرأ الكسائي بكسر الزاء والباقون بضمها ومعناهما واحد أي لا يغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ﴾ أي مقدار ثقل ﴿ذَرَّةٍ﴾ أي نملة صغيرة كائنة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ موجهة في شيء من الأزمنة الماضية أو المستقبلة أو الحال والقول بأن المعنى لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ موجودة في الزمان الحال كائنة في السماوات أو الأرض يأباه المقام لأن الجملة واقعة تأكيداً لقوله.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بياناً لشمول علمه جميع الكائنات ماضياً كان أو مستقبلاً حتى يكون مؤكداً للإخبار بإتيان الساعة، وأيضاً حضور جميع الأشياء الموجودة في الحال بكسر لبعض من الخلائق كما ذكرنا في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] أنه قيل يا رسول الله ملك الموت واحد والزحفان يلتقيان من المشرق والمغرب وما بين ذلك من السقط والهلاك أنه حوى الدنيا الملك الموت حتى جعلها كالطست بين يدي فهل يفوته منها شيء، فالظاهر من هذه الآية أن الأزمنة كلها وما فيها من الزمانيات الماضية

(١) وأبو جعفر ورويس ـ أبو محمد ـ.

والمستقبلة حاضرة عند الله سبحانه وهو خارج عن الزمان كما أن الأمكنة والمكانيات حاضرة عنده تعالى وهو خارج عن المكان لا يجري عليه زمان كما لا يحويه مكان فالزمان مخلوق له تعالى حادث حدوثاً ذاتياً كما أن المكان مخلوق له فالماضي والمستقبل بالنسبة إليه سواء كما أن الأمكنة كلها بالإضافة إليه سواء. وقد نبه على ذلك بعض الأكابر من علماء الظاهر. قال الجلال الدواني رحمة الله عليه في رسالته الزوراء إذا اعتبرتَ الامتداد الزماني الذي هو محل التغيير والتبديل وعرض الحوادث الكونية بما يقارنه من الحوادث جملة واحدة وجدتَّه شأناً من شؤون العلة الأولى محيطاً لجميع الشؤون المتعاقبة، ثم إن أمعنتَ النظر وجدتَ التعاقب باعتبار حضور حدود ذلك الامتداد وغيبوبتها بالنسبة إلى الزمانيات الواقعة تحت حيطته، وأما المراتب العالية عليها فلا تعاقب بالنسبة إليها بل الجميع متساوية بالنسبة إليها متحاذية في الحضور لذاتها فما ظنك ما على شواهق العوالي ليس عند ربك صباح وإلا مساء. تنبيه إذا أخذت امتداد مختلف الأجزاء في اللون كخشب اختلف اللون في أجزائه ثم أمررته في محاذاة ذرة أو غيرها ممَّا يضيق حدقته عن الإحاطة بجميع تلك الامتدادات ليس تلك الألوان المختلفة متعاقبة في الحضور لديها لضيق حدقتها متقاربة في الحضور لديك لقوة إحاطتك. ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وانتهى كلامه.

فائدة: وقد يأتي على بعض الأكابر حالة يخرج فيه من حيز الزمان فيرى الماضي أو المستقبل موجوداً عنده ويشهد عليه ما رواه الشيخان في الصحيحين عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلّى رسول الله ﷺ والناس فقام قياماً طويلاً فذكر الحديث بطوله حتى قال قالوا يا رسول الله رأيناك تناولْتَ شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعتَ؟ فقال: «إني رأيتُ الجنة فتناولت منها عنقوداً ولو أخذتُه لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ورأيتُ النار فلم أر كاليوم منظراً قط أفظع ورأيتُ أكثر أهلها النساء»(١) الحديث، ولا شك أن دخول النساء في النار لا يكون إلا بعد القيامة وقد رآه النبيّ ﷺ موجوداً لا يقال لعل النبيّ ﷺ رأى صورة النار والجنة في عالم المثال مثل ما يرى النائم في المنام لأن قوله: «لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» صريح في أنه ﷺ رأى حقيقة الجنة والنار دون مثالهما، وما روى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ الجنة فرأيت امرأة أبي طلحة وسمعتُ خشخشة أمامي فإذا بلال»(٢) وما روى أحمد وأبو داود والضياء عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «لما عرج بي ربي عزَّ وجلَّ مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلتُ من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان باب ٩١، والكسوف باب ٩، والنكاح باب ٨٨، ومسلم في الكسوف حديث ١٧، والنسائي في الكسوف باب ١٧، ومالك في الكسوف حديث ٢، وأحمد في المسند ١/٢٩٨، ٣٥٨.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ١٠٦، والترمذي في المناقب باب ١٧، وأحمد في المسند ١/ ١٠٧، ٣/٩٩، ٥/٣٥٤، ٣٦٠.

الناس ويقعون في أعراضهم»[١] وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «عرضت عليَّ النار فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تعذب في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً ورأيتُ عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب»[٢] رواه مسلم.

وقال أكثر المفسرين معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي علمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي من الذرة ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ منه ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ جملة مؤكدة لنفي العزوب إن كان المراد بالعزوب العزوب عن علمه أو المراد بالكتاب المبين علمه تعالى أو اللوح المحفوظ الذي حاك عن بعض من علومه، وإن كان المراد عدم عزوب شيء من ذاته سبحانه فهذا تأسيس لا تأكيد وأصغر وأكبر مرفوعان بالابتداء ويؤيده القراءة بالفتح على إعمال لا التي لنفي الجنس، ولا يجوز العطف مرفوعاً على مِثقالُ ومفتوحاً على ذرة في محل الجر لامتناعها من الصرف لأن الاستثناء عنه هو ولا يجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً بمعنى لكن لأن الاستدراك والاستثناء المنقطع بعد النفي يكون إثباتاً فيكون المعنى لا يعزب مثقال ذرة ولا أصغر منه ولا أكبر ولكن يعزب في كتاب مبين وهذا فاسد، قال البيضاوي اللَّهم إذا جعل الضمير يعزب للغيب وجعل المثبت في اللوح خارجاً عنه لظهوره على المطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب إلا سطوراً في اللوح، وهذا التوجيه ضعيف كما يشعر به كلام البيضاوي لأن كونه في اللوح لا يخرجه عن الغيب والكلام في شمول علمه تعالى، ولا مساس لهذا التوجيه بالمدعى على أنه ورد في سورة يونس بلفظ ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] وَلاَ يتأتى هٰذا التوجيه هناك، وقيل هذا على طريقة المدح بما يشبه الذم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ [البروج: ٨] بالله كقولك في زيد لا عيب فيه إلاَّ أنه عالم يعني لا عيب فيه أصلاً والمعنى لا يعزب عنه مثقال ذرة إلا في كتاب مبين حكمه فكيف يغب عنه ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ علة لقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وبيان لما يقتضي إتيانها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما قصروا في أداء حقوق العبودية التي لا يمكن استيفاؤها ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن في الجنة لا تعب فيه ولا منّ عليه لما أتوا بها من الحسنات وتفضلاً.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ عطف على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مفعول ليجزي أي ليجزي الذين سعوا ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالإبطال وتزهيد الناس فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو معجّزين من التفعيل أي مثبطين عن الإيمان من أراده والباقون من المفاعلة أي مقدرين عجزنا أو سابقين لنا

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٣٥، وأحمد في المسند ٣/ ٢٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١٦، وأحاديث الأنبياء باب ٥٤، والمساقاة باب ٩، ومسلم في الكسوف حديث ٩، ١٠، والبر حديث ١٣٣ ـ ١٣٥، والتوبة حديث ٢٥.

فيفوتنا لظنهم بأن لا بعث ولا عقاب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ قال قتادة الرجز سوء العذاب، فمن بيانية ﴿أَلِيمٌ﴾ أي ذو ألم يعني مؤلم، قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب بالرفع هُنا وفي الجاثية على أنه نعت للعذاب والباقون بالجر على أنه نعت للرجز ﴿وَيَرَى﴾ بمعنى يعلم مرفوع عطفاً على مضمون بلى لتأتينكم وقيل منصوب معطوف على يجزي أي ليجزي الذين آمنوا وليعلم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، وقال قتادة هم أصحاب النبيّ ﷺ ومن تبعهم بإحسان أي يعلم عند مجيء الساعة أنه الحق عياناً كما علموه الآن برهاناً ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القرآن مفعول أول ليرى ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ بالرفع[1] مبتدأ وخبر والجملة ثاني مفعولي يرى وقُرِىء بالنصب على أنه ثاني مفعول يرى والضمير للفصل، وجملة يرى مستأنفة للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات ﴿وَيَهْدِيٓ﴾ الله أو الذي أنزل إليك عطف على الحق ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي الإسلام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وبينهما معترضات وضع المظهر موضع الضمير للتصريح على مناط الحكم يعني قال منكرو البعث بعضهم لبعض متعجبين منه ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ صفة لرجل أي يخبركم بأعجب الأعاجيب وهو أنه ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ كل منصوب على المصدرية لإضافته إلى المصدر الميمي يعني إذا متم وتمزق أجسادكم كل تمزق بحيث يصير تراباً أو على الظرفية بمعنى إذا مزقتم وذهبت بكم السيول كل مذهب وطرحته كل مطرح ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ منصوب بقوله ينبئكم بتضمين معنى القول يعني يقول: إنكم لفي خلقٍ جديدٍ وتقديم الظرف يعني ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ للدلالة على البعد والمبالغة، وعامله محذوف دل عليه ما بعده يعني ينبئكم بأنكم تبعثون ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يقول ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وذلك لأن ما قبله لم يقارنه وما بعد إنَّ لا يعمل فيما قبله، وذكروا النبيّ ﷺ بالتنكير مع كونه مشهوراً في قريش شائعاً أنباؤه بالبعث تجاهلاً به وبأمره بناءً على استبعاده وقصداً إلى التحقير ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ همزة استفهام دخلت على همزة الوصل فسقطت من اللفظ للاستغناء عنها ولعدم اللبس بالخبر فإن همزة الوصل ههنا مكسورة بخلاف ما إذا كانت همزة الوصل مفتوحةً نحو الله وآلذكر وآلآن فإن هناك لا تحذف بل تسهل أو تبدل ألفاً ويمد وسقطت من الخط أيضاً على خلاف القياس ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ منصوب على المصدرية بافترى إذ الافتراء نوع من الكذب وهو التعمد به ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه وزعم بعضهم بجعل الجنون قسيماً للافتراء أن بين الصدق والكذب واسطة وهي كل خبر لا يكون على بصيرة بالمخبر عنه وضعفه بَيّنٌ فإن الافتراء ليس مساوٍ للكذب بل هو أخص منه فإن الكذب خبر لا يطابق الواقع سواء كان عمداً أو خطأً ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إضراب من جملة مقدرة أي لم يفتر

---

(١) أجمع القراء على النصب، ولا خلاف بينهم في ذلك ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

وليس به جنة ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ المشتملة على البعث والعذاب ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾ فيها ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا، رد الله سبحانه عليهم ترديدهم وأثبت لهم ما هو أقبح من القسمين وهو البعيد من الضلال بحيث لا يرجى الخلاص منه وما هو مراده أي العذاب، وجعل العذاب مقارناً للضلال في الحكم مقدماً عليه في اللفظ للمبالغة في استحقاقهم له والبعد في الأصل صفة اتصال وصف به الضلال مجازاً كقوله شعر شاعر.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أعموا فلم يروا أي لم ينظروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ يعني إلى ما أحاط بجوانبهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني أن المشاهدات كلها تدل على كمال قدرة الصانع المختار وكمال قدرته يقتضي جواز البعث فكيف يحكمون باستحالته وكونه مكذباً فيه مفترى والمخبر على كمال صفات الكمال من العقل والصدق المعروف بينهم فكيف يحكمون عليه بالجنون والهزاء فما هو إلا ضلال بعيد، فهذه الجملة تعليل لقوله ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ ثم بعد شرح ضلالهم يخوفهم الله تعالى على ما هم عليه بقوله ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ﴾ قرأ الكسائي[1] بإدغام الفاء في الباء والباقون بالإظهار ﴿ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾ قرأ حمزة والكسائي يشأ يخسف يُسقط بالياء فيهن على الغيبة لذكر الله فيما قبل والباقون بالنون على التكلم ﴿عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات قرأ حفص كسفاً بتحريك السين والباقون بإسكانها قيل قوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ تمهيد للإنذار والتخويف والمعنى أعموا فلم يروا ما احاط بهم من السماء والأرض حيثما كانوا وأين ما ساروا مقهورين لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما ويخرجوا من ملكوتنا يعني قد رأوا ذلك فليخافوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون أو يسقط عليهم كسفاً من السماء كما أرسلنا حجارة من السماء على قوم لوط لتكذيبهم رسولنا وكفرهم بآياتنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي يرونه من السماوات والأرض ﴿لَآيَةً﴾ دلالةً واضحة على كمال القدرة وجواز البعث بعد الموت وجواز تعذيب من كفر بالله ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى الله بقلبه لكونه كثير التفكر والتأمل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ على كثير من عباده المؤمنين يدل على ذلك قوله تعالى حكاية عن سليمان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] ويندرج فيه النبوة والكتاب والملك وحسن الصوت وتلين الحديد وغير ذلك، وفضلاً منصوب على المفعولية ومنّا حال منه ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ بدل من فضلاً أو من آتينا بتضمين القول أي قلنا يا جبال أوبي معه أي سبح معه، والإياب الرجوع أي ارجعي في التسبيح كلما رجع داود فيه، أو الإياب هو التسبيح يقال أوَّبَ إذا سبح فإن المسبح يرجع إلى الله معرضاً عن غيره، وقال القتيبي أصله من التأويب في السير وهو أن يسير النهار كله وينزل ليلاً كأنه قال إذا أتى

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

النهار سيرى بالتسبيح معه، وقال وهب نوحي معه ﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾ معطوف على الجبال قرأ يعقوب[١] بالرفع حملاً على لفظه والباقون بالنصب حملاً على محله وجاز أن يكون النصب عطفاً على فضلاً أو على أنه مفعول معه لأوبي وجاز أن يكون بالعطف على ضميره، قال البيضاوي كان أصل النظم ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾ وهي تأويب الجبال والطير فبدل به هذا النظم لما فيه من الفخامة والدلالة على عظم شأنه وكبرياء سلطانه حيث جعل الجبال والطيور كالعقلاء المنقادين لأمره في نفاذ مشيئته فيها، قال البغوي كان داود إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال بصداها وعكفت الطير عليه من فوقه، وقيل كان داود إذا تخلل الجبال فسبح الله جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح، وقيل كان داود إذا لحقه فتور أسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطاً له ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ حتى كان الحديد في يده كالشمع والعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة.

قال البغوي: كان سبب ذلك على ما روي في الأخبار أن داود لما ملك بني إسرائيل كان من عادته أن يخرج للناس متنكراً فإذا رأى من لا يعرفه يقدم إليه ويسأله عن داود ويقول له ما تقول في داود واليكم هذا أي رجل هو فيثنون عليه ويقولون خيراً، فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي فلما رآه داود تقدم إليه على عادته فسأله فقال الملك نعم الرجل هو ولا خصلة فيه فراع داود ذلك، وقال ما هي يا عبد الله؟ قال إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله يسبب له سبباً يستغني به عن بيت المال فيتقوت منه ويطعم عياله فألان الله له الحديد وعلَّمه صنعة الدرع وإنه أول من اتخذها، ويقال إنه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف درهم فيأكلُ يطعم منها عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين ويقال إنه كان يعمل كل يوم درعا يبيعها بستة آلاف درهم فينفق منها ألفين على نفسه وعياله ويتصدق بأربعة آلاف درهم فيأكل ويطعم منها عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين، ويقال أنه كان يعمل كل يوم درعًا يبيعها بستو آلاف درهم فينفق منها ألفين على نفسه وعياله ويتصدق بأربعة آلاف على الفقراء والمساكين عن المقدام بن معديكرب قال قال رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يديه وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[٢] رواه البخاري وأحمد وذكر البغوي هذا الحديث بلفظ «كان داود لا يأكل إلا من عمل يده» ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ﴾ أي أمرناه أن اعمل أن مصدرية أو مفسرة ﴿سَٰبِغَٰتٖ﴾ أي دروعاً كوامل واسعات طوال يجرها لابسها على الأرض ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ السرد خرز الجلد واستعير لنسج الدرع يعني قدر في نسجها بحيث تناسب حلقها ومساميرها فلا تجعلها رقاقاً فتغلق ولا غلاظاً فتكسر الحلق ﴿وَٱعۡمَلُواْ﴾ يا داود وآله

---

(١) والصحيح أنه قرأ يعقوب بالنصب كالجماعة نعم روى الرفع عن روح بن مهران ولا يؤخذ به ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع باب ١٥، وأحاديث الأنبياء باب ٣٧.

﴿صَٰلِحًا﴾ خالصاً لله صالحاً لقبوله منصوب على المفعولية أو المصدرية ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً أمر المؤمنين بما أمر المرسلين فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]» الحديث رواه مسلم.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره ولسليمان الريح مسخرة أورد الجملة اسمية للدلالة على أن كونها مسخرةٌ لسليمان أمر ثابت عند العامة مذكور على الألسنة أو على تقدير فعل مجهول يعني سخر لسليمان الريح والباقون بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره وسخرنا لسليمان الريح والجملة معطوفة على مفهوم كلام سابق فإنه يفهم من قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ أنه سخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وقد ورد بهذا اللفظ في سورة الأنبياء ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ جملة مستأنفة أي جريها بالغدو يعني من الصباح إلى الزوال كان مسيرة شهر وبالعشي أي من الزوال إلى الغروب كان كذلك، قال الحسن كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر وبينهما مسيرة شهر ثم يروح من إصطخر فيبيت ببابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع، وقيل إنه كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ النحاس عطف على سخرنا لسليمان الريح أسال الله تعالى له النحاس المذاب من معدنه فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سماه عيناً، قال البغوي قال أهل التفسير أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام إلى اليمن كجري الماء وكان بأرض اليمن وإنما ينتفع الناس اليوم ما أخرج الله لسليمان عليه السلام ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ على تقدير كون الريح مرفوعاً الموصول مع الصلة مبتدأ خبره محذوف أي مسخرة ومن الجن حال من الضمير المستكن في يعمل عَطفُ جملة اسميةٍ على جملة اسمية، وعلى تقدير كونه منصوباً الموصول معطوف على الريح ومن الجن حال منه مقدم عليه تقديره وسخرنا له من يعمل بين يديه من الجن ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي بأمره وحكمه أو بإرادته وتسخيره متعلق بيعمل ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ أي من يعدل ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي عما أمرنا به من طاعة سليمان وأردنا ذلك ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قيل المراد به عذاب الآخرة وقيل المراد به الإحراق بالنار في الدنيا، قلتُ إن كان المراد بالإذن والأمر الأمر التكليفي فالمناسب أن يفسر العذاب بالعذاب في الآخرة لأنها هي دار الجزاء على التكليفات وإن كان المراد بالإذن الإرادة والتسخير كما هو الظاهر فالظاهر أن المراد به عذاب الدنيا، قال البغوي وذلك أن الله عزَّ وجلَّ وكل بهم ملَكاً بيده سوط من نار فمن زاغ منه عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته، لا يقال إن كان الله أراد من الجن العمل فكيف يتصور من الجن العدول عنه لأنه يلزم منه تخلف المراد عن الإرادة وهو محال لأن من في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ للتبعيض فالمعنى أن الله تعالى أراد أن يعمل لسليمان بعض الجن أي أكثرهم ولذلك وكل ملكاً يعذب من عدل من أمر سليمان وذلك في الظاهر سبب لأن يعمل لسليمان أكثر الجن، أو يقال معنى قوله من يزغ من أراد الزيغ منهم يضربه الملك حتى لا يزيغ.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ﴾ حال من فاعل يعمل أو مستأنفة ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قصوراً حصينة ومساجد رفيعة ومساكن شريفة سميت بها لأنها يذب عنها ويحارب عليها، قال البغوي فكان مما عملوا له بيت المقدس ابتدأه داود ورفعه قامة رجل فأوحى الله إليه أني لم أقض ذلك على يدك ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أقضي تمامه على يده فلما توفاه الله استخلف سليمان فأحب إتمام بيت المقدس فجمع الجن والشياطين وقسّم عليهم الأعمال فخصَّ كل طائفة منهم بعمل يستصلحها له، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام الأبيض من معادنه، فأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح وجعل اثني عشر ربضاً وأنزل بكل ربض منها سبطاً من الأسباط وكانوا اثني عشر سبطاً فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد وفرق الشياطين فرقاً فرقاً يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها والدر الصافي من البحر وفرقاً يقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها وفرقاً يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب من أماكنها فأتى بذلك التي لا يحصيها إلا الله عزَّ وجلَّ، ثم أحضر الصناعين وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحاً وإصلاح تلك الجواهر وثقب اللآلىء واليواقيت، وبنى المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده بأساطين المينا الصافي وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وجصص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر وبسط أرضها بألواح الفيروزج، فلم يكن يومئذ في الأرض بيت أبهى وأنور من ذلك المسجد كان يضيء في الظلمة كأنه القمر ليلة البدر، فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بني إسرائيل فأعلمهم أنه بناه الله تعالى وأن كل شيء فيه خالص لله واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «لمَّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً فأعطاه اثنين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة سأل حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه وسأل ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده فأعطاه إياه وسأل أن لا يأتي هذا البيت أحد يصلي فيه ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك»(١) رواه البغوي.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القباء بخمس وعشرين صلاة وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمس مائة صلاة وصلاته في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة»(٢) رواه ابن ماجه، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»(٣) متفق عليه.

---

(١) أخرجه بنحوه ابن ماجه حديث ١٤٠٨، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/٢١٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه حديث ١٤١٣.

(٣) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الصلاة في مسجد مكة باب ١، ٦، والصيد باب ٢٦، والصوم باب ٦٧، ومسلم في الحج حديث ٤١٥، ٥١١.

مسألة: هل يجوز تزيين المساجد بالذهب والفضة ونحوهما؟ قال بعضهم يكره ذلك لأن فيه إضاعة المال وقد قال رسول الله ﷺ «ما أمرت بتشييد المساجد»[١] رواه أبو داود عن ابن عباس، وقال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى، وقال عليه السلام: «إن من أشراط الساعة أن تزين المساجد»[٢] الحديث، وقال بعضهم هو قربة لما فيه من تعظيم المسجد وقصة سليمان عليه السلام في تزيين مسجد بيت المقدس يؤيد هذا القول، قال صاحب البداية وهذا إذا فعل من مال نفسه وأما المتولي فيفعل من مال الوقف ما يرجع إلى أحكام البناء دون ما يرجع إلى النقش حتى لو فعل يضمن.

وقال ابن همام ولا شك أن الدفع إلى الفقير أولى من تزيين المسجد وعند أكثر علمائنا لا بأس بأن ينقش المسجد بالجص والساج وماء الذهب وقوله لا بأس يشير إلى أنه لا يؤجر عليه لكن لا يأثم به كذا في الهداية، قال ابن همام ومحل الكراهة التكلف فيه بدقائق النقوش ونحوه خصوصاً في المحراب أو التزين مع ترك الصلاة أو عدم إعطائه حقه من اللفظ فيه والجلوس لحديث الدنيا ورفع الأصوات بدليل آخر الحديث وهو قوله وقلوبهم خاوية من الإيمان، قلت وحديث النبيّ ﷺ أولى بالاتباع من قصة سليمان لأن شرائع من قبلنا لا يجوز اتباعه إلا إذا لم يثبت في شريعتنا ما يخالفه، وأيضاً كان فيما فعل سليمان حكمة وهي أن تشتغل الشياطين عن إضلال الناس في أعمال شاقة والله أعلم، قال البغوي قالوا يعني أهل الأخبار فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه بخت نصر فخرَّب المدينة وهدمها ونقض المسجد وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدر والياقوت وسائر الجواهر فحمله إلى دار مملكته من أرض العراق. وبنى الشياطين لسليمان باليمن حصوناً كثيرةً عجيبة من الصخرة.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾: أي صوراً من نحاس وصفر وشبهٍ وزجاج ورخام، قيل كانوا يصورون السباع والطيور، وقيل كانوا يتخذون صور الملائكة والأنبياء والصالحين في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة وكانت مباحة في شريعتهم، قلتُ ولعل المراد به تماثيل غير ذي الروح لأن تماثيل الإنسان كانت تعبد قبل ذلك حيث قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صوَّرها نفساً فيعذبه في جهنم» قال ابن عباس فإن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا روح فيه[٣] متفق عليه، وهذا الحديث عام في كل مصور غير مختص بمصوري هذه الأمة وهو خبر لا يحتمل النسخ

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٢.
(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٣) أخرجه مسلم في اللباس حديث ٩٩، وأحمد في المسند ١/٣٠٨.

والتبديل، وعنه مرفوعاً «من صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ»[١] رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عنق من الناس يوم القيامة لها عينان تبصران وأذنان يسمعان ولسان ينطق يقول إني وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصورين»[٢] رواه الترمذي، وعنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى ومن أظلم ممن ذهب بخلق كخلقي فليخلقوا ذرةً وليخلقوا حبةً أو شعيرة»[٣] متفق عليه، وسياق هذه الأحاديث يدل على أن حرمة التصوير غير مختص بهذه الأمة، لا يقال إن عيسى كان يتخذ صورة من الطين، قلنا: كان ذلك بإذن الله كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وإنما المحرم على من يتخذ صورة فلا يستطيع أن ينفخ فيه الروح فيكلف أن ينفخ فيها وهو ليس بنافخ أبداً ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جفنة بمعنى القصعة ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ قرأ ابن كثير[٤] كالجوابي بإثبات الياء وصلاً ووقفاً وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل، جمع جابية وهو حوض ضخم كذا في القاموس مشتق من جبى الخراج يقال للحوض الكبير لما يجيء فيه الماء فهي من الصفات الغالبة، قال البغوي كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ ثابتات لها قوائم لا يحركن عن أماكنها لعظمهن لا ينزلن ولا يعطلن وكان يصعد إليها بالسلاليم وكانت باليمن ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾ أي قلنا له ولأتباعه اعملوا جملة مستأنفة يا ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ تنكيره للتقليل فإن الشكر الكثير بالنسبة إلى نعماء الله سبحانه خارج عن طوق البشر بل عن طوق كل مخلوق وهو منصوب على العِلّية، أي اعملوا بطاعتي لشكر نعمتي، أو على المصدرية لأن العمل بالطاعة شكر أو على أنه وصف للمصدر أي اعملوا عملاً شكراً أو على الحال أي حال كونكم شاكرين أو على المفعولية أي اعملوا شكراً، قال جعفر بن سليمان سمعتُ ثابتاً يقول كان داود نبي الله قد جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار إلا والإنسان من آل داود قائم يصلي ﴿وَقَلِيلٌ[٥] مِّنْ عِبَادِىَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ أي المتوفر على أداء الشكر بلسانه وجوارحه في أكثر أوقاته وتقلبه دائماً بلا فتور وذلك بعد فناء القلب ودوام الحضور، ومع ذلك لا يوفي حقه لأن توفيقه للشكر نعمة ليستدعي شكراً آخر لا إلى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى نفسه عاجزاً عن الشكر.

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير باب ٤٥، والبيوع باب ١٠٤، واللباس باب ٩٧، ومسلم في اللباس حديث ١٠٠.

(٢) أخرجه الترمذي في جهنم باب ١، وأحمد في المسند ٢/٣٣٦.

(٣) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٤) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

(٥) عن إبراهيم التيمي قال: قال رجل عند عمر اللهم اجعلني من القليل فقال ما هذا الدعاء الذي تدعو به قال إني سمعت الله يقول وقليل من عبادي الشكور وذكر آية أخرى فقال عمر كل أحد أفقه من عمر ـ ١٢ ـ منه برّد الله تربته ـ.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا﴾ أي حكمنا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على سليمان ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ قال البغوي قال أهل العلم كان سليمان عليه السلام يتحرز في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقلّ من ذلك وأكثر يدخل فيه طعامه وشرابه، فأدخل في المرة التي مات فيها وكان بدء ذلك أنه كان لا يصبح يوماً إلا نبتت في محراب بيت المقدس شجرة فيسألها ما اسمك، فتقول اسمي كذا فيقول لأيّ شيء أنت؟ فتقول لكذا وكذا، فيأمر بها فتقطع فإن كانت نبتت لغرس غرسها وإن كانت لدواء كتب حتى نبتت الخروبة فقال لها ما أنت؟ قالت الخروبة، قال لأيّ شيء نبت؟ قالت لخراب مسجدك، فقال سليمان ما كان الله ليخرّبه وأنا حيٌّ أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها في حائط كريم، وقال اللّهم أعم موتي على الجن ليعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب ما شاؤوا ويعلمون ما في الغد، ثم دخل المحراب فقام يصلّي متكئاً على عصاه فمات قائماً وكان للمحراب كوى بين يديه ومن خلفه وكانت الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كانوا يعملونها في حياته وينظرون إليه يحسبون أنه حيٌّ ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته، فمكثوا يدأبون له بعد موته حولاً كاملاً حتى أكلت الأرضة عصا سليمان فخر ميتاً فعلموا بموته، قال ابن عباس فشكرت الجن الأرضة فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشبة، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن يزيد قال قال سليمان لملك الموت إذا أمرتَ لي فأعلمني فأتاه فقال يا سليمان قد أمرتُ بك قد بقيت سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب فقام يصلّي متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكىء عليها فبقي كذلك حتى أكلها الأرضة فخر ثم فتحوا عليه وأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت يوماً وليلاً فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة.

﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي الجن أو آله ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي الأرضة التي يقال لها بالفارسية ديوك وهي دابة صغيرة تأكل الخشب والمراد بالأرض الثرى أضيف إليها الدابَّة، وقيل الأرض مصدر أرضت الخشبة بالبناء للمفعول أي أكلتها أرضة فهو من قبيل إضافة الشيء إلى فعله كما في بقرة الحرث ورجل الحرب ﴿تَأْكُلُ﴾ حال من دابة الأرض ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي عصاه من نسأتُ الغنم أي زجرتها وسقتُها ومنه نسأ الله في أجله أي أخره، قرأ نافع وأبو عمرو[1] بألف ساكنة بدل الهمزة وابن ذكوان بهمزة ساكنة والباقون بهمزة مفتوحة على الأصل فإنه مفعول تأكل وحمزة إذا وقف جعلها بين بين ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي سقط سليمان على الأرض ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ أي ظهرت ﴿ٱلْجِنُّ أَن﴾ مخففة من الثقيلة اسمه ضمير الشأن محذوف ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ ما غاب عنهم كموت سليمان ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي في التعب والمشقة مسخرين لسليمان وهو ميت يظنونه حيّاً، أن مع صلته بدل اشتمال

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

من الجن يعني ظهر عدم علمهم بالغيب على الناس لأنهم كانوا يشبهون ذلك على الإنس ويؤيد هذا التأويل قراءة ابن مسعود وابن عباس تَبَيَّنَت الإنس أي علمت ﴿أَن لَّوْ كَانُوا﴾ أي الجن ﴿يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، وقيل معنى الآية علمت الجِنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وهذا التأويل مستبعد جدًّا فإن الجن كانوا يعلمون جهلهم وإنما كانوا يدَّعون علمهم بالغيب عند الإنس، قال البغوي ذكر أهل التاريخ أن سليمان كان عمره ثلاثاً وخمسين سنة ومدة ملكه أربعون سنة ومَلَكَ وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين في ملكه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال حدثني فلان أن فروة بن مسيك الغطفاني قدم على رسول الله ﷺ فقال يا نبي الله إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عزو إني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام أفأقاتلهم؟ فقال ما أمرتُ فيهم بشيء بعد فنزلت ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ أي دلالة على كمال قدرتنا ووجوب شكرنا، قرأ البزي وأبو عمرو لسبأ بفتح الهمزة من غير تنوين لأنه صار اسم قبيلة فمنع عن الصرف للتأنيث مع العلمية وقنبل بإسكانها على نية الوقف والباقون بخفضها مع التنوين لأنه كان اسم رجل، قرأ حفص وحمزة والكسائي[1] مسكنهم بإسكان السين بغير ألف على الإفراد غير أن حمزة وحفص

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

يفتحان الكاف على القياس والكسائي[١] بكسرها حملاً على ما شذ من القياس كالمسجد والمطلِع والباقون بفتح السين وكسر الكاف وألف بينهما على الجمع، قال البغوي روى أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك الغطيفي قال قال رجل يا رسول الله أخبرني عن سبأ كان رجلاً أو امرأة أو أرضاً؟ قال: «كان رجلاً من العرب ولد له عشرة من الولد تَيامَنَ منهم ستة وتَشَاءَمَ منهم أربعة فأما الذين تيامنوا فكندة والأشعريون وأزد ومذحج وأنمار وحمير، فقال رجل وما أنمار قال «الذين منهم خثعم وبجيلة، وأما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان»[٢]، وكذا أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس مرفوعاً، وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من آية أو خبر محذوف تقديره الآية جنتان والمراد جماعتان من البساطين جماعة ﴿عَن يَمِينٍ﴾ البلد جماعة عن ﴿وَشِمَالٍ﴾ البلد أو يكون بستان لكل رجل عن يمين مسكنه وشماله ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ يعني من ثمار الجنتين ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ على ما رزقكم من النعمة والمعنى اعملوا بالطاعة، يعني قال لهم نبيهم ذلك أو لسانُ الحال يعني دل الحالُ على أنهم كانوا أحقاء أن يقال لهم ذلك ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ استئناف للدلالة على موجب الشكر يعني بلدكم هذا بلدة طيبة كثيرة الثمر ليست بسبخة، قال السديُّ ومقاتل كانت المرأة تحمل على رأسها المكتل وتمرُّ بالجنتين فيمتلىء المكتل بأنواع الفواكه من غير أن تمس شيئاً بيدها، وقال ابن زيد لم تكن تُرى في بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وكان الرجل يمر ببلدهم وفي ثيابه القمل فيموت القمل كلها من طيب الهواء فذلك قوله تعالى ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي طيبة الهواء ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ قال مقاتل رب غفور للذنوب إن شكرتم فيما رزقكم.

قال وهب أرسل الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً دعوهم إلى الله وذكَّروهم نعمه عليهم وأنذرهم عقابه ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ عنهم وكذبوهم وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة قولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا إن استطاع قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي سيل الأمر العرم أي الصعب من عرم الرجل فهو عارم إذا ساء خلقه وصعب أو سيل المطر الشديد قيل كان ماء أحمر أرسل الله عليهم من حيث شاء، وقيل العرم الوادي وأصله من العرامة وهي الشدة والقوة، وقيل العرم المسناة، وقيل العرم الجُرَاذُ الذكر أضاف إليه السبيل لأنه نقب عليهم سكراً ضربت لهم بلقيس، وفي القاموس عرمَةَ كفرحة سد يعترض به الوادي جمعه عَرِمٌ أو هو جمع بلا واحد أو هو الإحباس تبني في الأودية والجُرذُ الذكر والمطر الشديد ووادٍ ولكل فسر قوله تعالى: ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ قال البغوي قال ابن عباس وابن وهب وغيرهما كان ذلك يعني العرم السد بنته بلقيس وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم فأمرت بواديهم أفسد بالعرم وهو المسناة بلغة حمير فسدت بين الجبلين بالصخرة والقار وجعلت لها أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض وبنت من دونه بركة ضخيمة وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود في الحروف باب ١، والترمذي في تفسير سورة ٣٤، باب ١.

على عدة أنهارها يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء وإذا استغنوا سدوها فإذا جاء المطر اجتمع ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه في البركة فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث......[١] الأسفل فلا ينفد الماء حتى يثوب من السنة المقبلة فكان يقسم على ذلك فبقوا على ذلك بعد ذلك مدة فلما طغوا وكفروا سلط الله عليهم جُرَاذاً يسمى الخلد فنقب السدَّ من أسفله فغرق الماء جناتهم وخرَّب أرضهم، قال وهب وكانوا فيما يزعمون ويَجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخرّب سدهم فأرة فلم يتركوا فرجةً بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة فلمَّا جاء زمانه وما أراد الله عزَّ وجلَّ بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فأرةٌ حمراء كبيرة إلى هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت منها الهرة فدخلت في الفرجة التي كانت عندهما فتغلغلت في السد فثقبت وحفرت حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون بذلك، فلمَّا جاء السيل وجد خللاً فدخل فيه حتى قطع السد وفاض على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل فغرقوا وتمزّقوا حتى صاروا مثلاً عند العرب يقولون صار بنو فلان أيدي سبأ وأيادي سبأ أي تفرقوا وتبددوا فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ قرأ نافع وابن كثير بإسكان الكاف والباقون بضمها وهما لغتان، قال في القاموس الأكل بالضم وبالضمتين الثمر والرزق قرأ الجمهور أكلِ وأبو عمرو[٢] بالإضافة إلى ﴿خَمْطٍ﴾ فعلى قراءة الجمهور خمط صفة له ومعناه حامض أو مرٌّ أو عطف بيان أو بدل ومعناه ثمر الأراك وعلى قراءة أبي عمرو[٣] الخمط كل نبت أخذ طعماً مرّاً أو شجرة الأراك أو نحو ذلك فهو لفظ مشترك، قال في القاموس الخمط الحامض أو المرُّ من كل شيء وكلُّ نبت أخذ طعماً من مرارة وشجر رائحته كالسدر وشجر قاتل وكل شجر لا شوك له وثمر الأراك وقيل شجرة الأراك، وقال البيضاوي التقدير أكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في كونه بدلاً أو عطف بيان يعني على قراءة الجمهور وكون الخمط بمعنى الشجر، وقال البغوي الأكل الثمر والخمط الأراك وثمرة يقال له البرير هذا قول أكثر المفسرين، وقال المبرد كل نبت قد أخذ طعماً من المرارة، وقال ابن الأعرابي ثمر شجر يقال له نسوة الضبع على صورة الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به ﴿وَأَثْلٍ﴾ أي الطرفا معطوف على أكل لا على خمط إذ لا ثمر له، وقيل هو شجر يشبه بالطرفا إلا أنه أعظم ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وصف السدر بالقلة فإن جناه وهو النبق ممَّا يطيب أكله ولذلك يغرس في البساتين، وقال البغوي لم يكن السدر ذلك بل كان سدراً برّياً لا ينتفع به ولا يصلح ورقه لشيء وتسمية البدل جنتين للمشاكلة والتهكم ﴿ذَٰلِكَ﴾

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

(٣) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

منصوب المحل على المصدرية يعني جزيناهم ذلك الجزاء أو مرفوع على أنه مبتدأ ما بعده خبره يعني ذلك العقاب والتبديل ﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي بكفرانهم النعمة أو بكفرهم الرسل ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي[1] نجازي بالنون وكسر الزاء على التكلم والبناء للفاعل والكفور بالنصب على المفعولية والباقون بالياء التحتانية وفتح الزاء على الغيبة والبناء للمفعول والكفور بالرفع على أنه قائم مقام الفاعل يعني ما يناقش إلا هو وما نناقش إلا إياه.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على بدلنا يقال كان هذا سابقاً على التبديل فكيف ذكر بعده لأن الواو لمطلق الجمع دون الترتيب فلا ينافي كونه سابقاً عليه ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين أهل سبأ ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالأنهار والأشجار والتوسعة على أهلها وهي قرى الشام ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي متظاهرة تظاهر الثانية من الأولى لقربها منها ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي وقدَّرنا سيرهم فيها يعني كانوا يسيرون فيها وإذا ساروا كانوا يبيتون في قرية ويقيلون في أخرى وكانوا لا يحتاجون من حمل زاد من سبأ إلى الشام، قيل كانت أربعة آلاف وسبع مائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام، قال قتادة كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها وعلى رأسها مكتلها فتمتهن بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى تمتلىء مكتلها من الثمار وكان ما بين اليمن والشام كذلك ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ على إرادة القول يعني قلنا بلسان المقال أو الحال فإنهم لما مكنوا من السير كذلك كانوا كأنهم أمروا به ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ يعني متى شئتم ليلاً أو نهاراً ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي حال كونكم لا تخافون عدواً ولا سبعاً ولا جوعاً ولا عطشاً فبطروا وطغوا ولم يشكروا وقالوا لو كان بين جناتنا أبعد مما هي لكان أجدر أن تشتهيه.

﴿فَقَالُوا۟﴾ عطف على جعلنا يا ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بَعِّدْ بتشديد العين من التفعيل والباقون بالألف من المفاعلة ﴿بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي اجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوزات لنركب فيها الرواحل ونتزود الازواد ونربح في التجارات ونتفاخر على الناس فعجل الله لهم الإجابة، قرأ يعقوب ربُّنَا بالرفع على الابتداء وبعد بفتح العين والدال على صيغة الماضي كأنهم استبعدوا أسفارهم القريبة أشراً وبطراً ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالبطر والطغيان عطف على قالوا ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم تعجباً وضرب مثل فيقولون تفرقوا أيدي سبأ ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فرقناهم في كل وجه من البلاد كل تفريق، قال الشعبي لمَّا غرقت قراهم تفرقوا في البلاد، أما غسان فلحقوا بالشام ومرَّ الأزد إلى عمان وخزاعة إلى تهامة ومر آل خزيمة إلى العراق والأوس والخزرج إلى يثرب وهم آل أنمار وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الأوس والخزرج ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لعبر ودلالات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي وعلى البلاء والطاعة ﴿شَكُورٍ﴾ على النعم، قال مقاتل يعني مؤمني هذه الأمة صبور على البلاء شكور

---

(١) ويعقوب وخلف ـ أبو محمد ـ.

للنعماء وكذا قال مطرف، قلت بل هو صبور وشكور دائماً فإن الدنيا دار البلاء حتى أن النعمة أيضاً بلاء يبتلي به العبد هل يشكر عليه أم لا موته بلاء وحياته بلاء قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] فهو صبور دائماً عن المعاصي وعلى المصائب والطاعات وكل بلاء ومصيبة مكفرة للذنوب فهي كما يوجب الصبر يوجب الشكر ثم توفيق الصبر أيضاً نعمة من الله يوجب الشكر، وقال المجدد رضي الله عنه إيلام المحبوب ألذ من إنعامه فهو أولى بالشكر، قال الشاعر فإني في الوصال عبيد نفسي وفي الهجران مولى للموالي، قال رسول الله ﷺ «الإيمان نصفان فنصف في الصبر ونصف في الشكر»[1] رواه البيهقي في شعب الإيمان، قلت: فالمؤمن تامُّ الإيمان جامع للنصفين دائماً غير مقتصر على النصف دون النصف.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الناس كلهم كذا قال مجاهد وقيل المراد على أهل سبأ أي على الكفار منهم ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ قرأ أهل الكوفة صَدَّقَ بالتشديد يعني ظنَّ فيهم ظَنّاً حيث قال ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] فصدق ظنه وحققه بفعله ذلك بهم واتباعهم إياه أو وجده صادقاً وقرأ الآخرون بالتخفيف أي صدق في ظنه أو صدق بظن ظنه مثل فعلتهُ جمدك، ويجوز أن يعدى الفعل إليه بنفسه كما في صدق وعده لأنه نوع من القول، قال ابن قتيبة لما سأل إبليس النظرة فأنظره الله فقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [الحجر: ٣٩] ولم يكن مستيقناً وقت هذه المقالة أن ما قاله فيهم يتم وإنما قاله ظنّاً فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من أهل سبأ أو من الناس كلهم، قال السديُّ عن ابن عباس يعني أن المؤمنين كلهم لم يتبعوه في أصل الدين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الأعراف: ١٧] يعني المؤمنين فمن للبيان، وقيل من للتبعيض يعني بعض المؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ أي لإبليس ﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ اسم كان ومن زائدة والظرف المستقر أعني لَهُ خبره وعليهم متعلق بالظرف يعني لم يكن له قدرة على أن يوسوسهم ويعدهم ويمنيهم إلا بتسليطنا إياه عليهم حيث قلنا ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤] لشيء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي لنميز ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢١] فنجازي كلاً منها على حسب ما عمل، قال الحسن: إن إبليس لم يسل عليهم سيفاً ولا ضربهم بسوط وإنما وعدهم ومنَّاهم فاغتروا، فإن قيل هذه الآية تدل على كون علمه تعالى حادثاً وهو يقتضي الجهل سابقاً تعالى الله عن ذلك؟ أجيب بأن علمه تعالى قديم لكن تعلق العلم بالمعلوم حادث والمراد هاهنا بحصول العلم حصول متعلقه مبالغةً، ويرد عليه أن العلم ما لم يتعلق

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/٦٦، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٦١.

بالمعلوم لا ينكشف المعلوم عند العالم فإن العلم قبل التعلق بالمعلوم إنما هو العلم بالقوة لا بالفعل فكون تعلق العلم حادثاً يقتضي سبق الجهل فبقي المحذور، فأجيب بأن علمه تعالى قبل وجود الحادث كان متعلقاً به كاشفاً عنده تعالى كونه موجوداً وهذا لا يقتضي سبق الجهل بل سبق علمه تعالى بكونه معدوماً كما هو في الواقع فلا محذور، ومعنى الآية ليتعلق علمنا بذلك موجوداً كما تعلق به معدوماً لكن يلزم حينئذ كونه تعالى محلاً للتغير فالأولى إن يقال أن الزمان بجميع أجزائه وما فيها حاضر عند الله سبحانه متعلق علمه تعالى بها قديماً سرمداً وإنما التعاقب فيها بنسبة بعضها إلى بعض فزيد الذي هو موجود في وقت ومعدوم في وقت حاضر عند الله بكلا الحالتين كما أن كونه في مكان دون مكان حاضر عنده بلا تغير في ذاته تعالى فمعنى الآية لنعلم قديماً سرمداً من يؤمن ممن هو في شك وهذا لا يقضي مسبوقية علمه تعالى، كيف وأن السابقية والمسبوقية إنما يتصور فيما يجري عليه الزمان كما أن الفوقية والتحتية لا يتصور إلا فيما يحويه المكان ومن هو خالق للزمان والمكان منزه عنها كلها، لكن هذه الآية تدل على أن العلم تابع للمعلوم وكون المعلوم حادثاً لا يقتضي كون العلم به حادثاً فإن المعلوم محفوف بالزمان والعلم محيط به شتان ما بينهما، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الزمان والزمانيات ومن المؤمن والكافر ﴿حَفِيظٌ﴾ رقيب محافظ غير غافل عن شيء فيجازي كلاً على حسب عمله.

﴿قُلِ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿ٱدْعُوا۟﴾ أيها الكفار ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي زعمتموهم آلهة هما مفعولان لزعمتم حذف الأول لطول الموصول بصلته والثاني لقيام صفته مقامه أعني ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولا يجوز أن يكون هذا مفعوله الثاني لأنه لا يحصل به كلاماً مفيداً ولا لا يملكون لأنهم لا يزعمونه، والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع ضير يستجيبون لكم إن صح دعواكم كانَّ هذا الكلام يدل على الشرطية من القياس الاستثنائي تقديره إن صح دعواكم بأنهم آلهة من دون الله يستجيبون لكم إذا دعوتموهم لكنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ فهذه جملة مستأنفة تدل على الاستثناء ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر كائنة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يستجيبون لكم فلا يصح دعواكم وذكرهما للعموم العرفي أو لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام أو لأن الأسباب الظاهرية للشر والخير سماوية وأرضية ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي شركة ومن زائدة والجملة معطوفة على لا يملكون ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي لله تعالى ﴿مِنْهُم﴾ أي من شركائكم ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعينه على خلقها وتدبيرها.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ لأحد ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أن يشفع أو أذن أن يشفع له، واللام على الأول كما في قولك الكرم له وعلى الثاني كما في قولك جئتك لزيد، قرأ أبو عمر وحمزة والكسائي أذن بضم الهمزة على صيغة المجهول والباقون بفتحها على صيغة المعروف، وهذا ردٌّ لما قالت الكفار على سبيل التنزل أنه سلمنا أن الملائكة والأصنام لا يملكون شيئاً وليسوا شركاء الله لكنهم يشفعون لنا عند الله فقال الله تعالى لا تنفع شفاعة

أحد لأحد ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ والأصنام ليسوا أهلاً لأن يؤذن الشفاعة لانحطاط رتبتها عنها والكفار لا يستحقون لأن يؤذن لأحد في شفاعتهم لطغيانهم وكفرهم ولا يؤذن للأنبياء والملائكة إلا لشفاعة المؤمنين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب فَزَّعَ بفتح الفاء والزاء على البناء للفاعل والضمير المستكن عائد إلى الله، والباقون بضم الفاء وكسر الزاء على البناء للمفعول والجار مع المجرور قائم مقام الفاعل والتفزيع إزالة الفزع كالتمريض إزالة المرض، والضمير في قلوبهم راجع إلى الشافعين والمشفوع لهم المفهومين مما سبق وحتى غاية للجملة المقدرة المفهومة مما سبق أعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فإنه يفهم منه أن الشفعاءُ المشفوع لهم ينتظرون الإذن للشفاعة فزعين خائفين احتمال عدم الإذن أو فزعين من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله عز وجل هيبةً وجلالاً حين يأذن لهم في الشفاعة قلتُ وكذلك تأخذهم الغشية كلما قضى الله أمراً. روى البخاري عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِم قَالُوا مَاذَا قَالَ ربُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ فسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض (ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدر بين أصابعه) فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معه مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»[1]، وروى مسلم عن ابن عباس عن رجل من الأنصار أنه قال رسول الله ﷺ في حديث «ربُّنَا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذا السماء الدنيا ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قَالَ رَبُّكُمُ فيخبرونهم ما قال فليستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ هذه السماء الدنيا فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم فَيُرْمَون فما جاؤوا به على وجهه فهو حق لكنهّم يقذفون ويزيدون»[2] وروى البغوى عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرئيل فيكلم الله وحيه بما أراد ثم يمر جبرئيل على الملائكة كلما مرَّ بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبرئيل فيقول جبرئيل قال الحق وهو العلي الكبير، قال فيقولون كلهم مثل ما قال جبرئيل فينتهي

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٢، وتفسير سورة ٣٤، باب ١.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٣٤، باب ٣، وأحمد في المسند ١/ ٢١٨.

جبرئيل بالوحي حيث أمر الله»[١] والظرف يعني ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق بقوله ﴿قَالُوا﴾ يعني قال بعضهم لبعض حين ينكشف عنهم الفزع اللاحق بهم بالإذن في الشفاعة ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة ﴿قَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض ﴿الْحَقَّ﴾ مقول لقال المقدر يعني قال ربنا الحقَّ وهو الإذن في الشفاعة التي هو الحق يعني لمن هو أهلها وهم المؤمنون ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي ذو العلو والكبرياء لا يستطيع ملك مقرب ولا نبي مرسل أن يتكلم فيه إلا بإذنه.

قال البغوي قال بعضهم إنما يفزعون حذراً من قيام الساعة، قال مقاتل والكلبي والسدي كانت الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ خمس مائة وخمسين سنة، وقيل ست مائة سنة لم يسمع الملائكة فيها وحياً فلمَّا بُعِثَ محمد ﷺ بالرسالة وسمع الملائكة ظنوا أنها الساعة لأن محمداً ﷺ عند أهل السماوات من أشراط الساعة فيصعقوا ممَّا سمعوا خوفاً من قيام الساعة فلما انحدر جبرئيل يعني في بدء الوحي جعل يمر بأهل كل سماء فيكشف عنهم فيرتفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ يعنون الوحي ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فإن قيل على ما قال مقاتل وأمثاله كيف يرتبط قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ بما سبق من الكلام؟ قلتُ لعل وجه ارتباطه أنه متصل بقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ[٢] الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦] والمراد بالذين أوتوا العلم الملائكة وما بينهما اعتراض والمعنى ويرى الملائكة ما أنزل إليك من ربك من القرآن هو الحق ولذلك افزعوا عند نزوله خوفاً من قيام الساعة حيث كان نزوله عندهم من أشراط الساعة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وقال جماعة الموصوفون بذلك المشركون، قال الحسن وابن زيد حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند نزول الموت بهم إقامة للحجة عليهم قالت لهم الملائكة ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ على لسان رسله في الدنيا قالوا الحق فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار، قلت: وعلى هذا التأويل هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ يعني هم في شك إلى الموت حتى إذا فزع عن قلوبهم بعد الموت أقروا حين لا ينفعهم الإقرار.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ المطر ﴿مِّنَ السَّمَاوَاتِ﴾ والنبات من ﴿الْأَرْضِ﴾ استفهام تقرير أي حمل المخاطب على الإقرار بأن الله يرزق لا غيره وفيه تأكيد لقوله لا يملكون وهذه الجملة متصلة بقوله قل ادعوا ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فاعل لفعل محذوف أي يرزقكم الله إذ لا جواب سواه وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا وتوقفوا في الجواب مخافة الإلزام فهم مُقِرُّونَ بقلوبهم ذلك ﴿وَإِنَّا﴾ أي الموحدين ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي المشركين بالله ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إذ التَّوحيد نفي الاشتراك فهو نقيضه والضلال نفي الهداية فهو نقيضه وارتفاع النقيضين وكذا اجتماعهما

---

(١) أخرجه ابن كثير في تفسيره ٦/ ٥٠٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٠٢٨، والهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٤، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٣٦.

(٢) وفي الأصل: إلى صراطٍ مستقيم.

محال فهذه قضية منفصلة حقيقية عنادية والمفهوم مما سبق أن الله يرزق لا غير وهو يستلزم أن الموحد على هُدًى والمشرك ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فانعقد القياس الاستثنائي بأن الموحدين إما على الهدى أو في ضلال مبين لعدم الواسطة لكنهم على الهدى إذ لا يرزق إلا الله فليسوا في ضلال أو لكنهم ليسوا على ضلال فهم على الهدى.

أو يقال المشركون إما على الهدى أو في ضلال مُبين لعدم الواسطة لكنهم ليسوا على هدى فهم في ضلالٍ أو لكنهم في ضلال إذ لا يرزق إلا الله فليسوا على هدى فليس هذا الكلام مبنياً على الشك بل على حصر الاحتمالات وإبطال إحدى النقيضين لإثبات الآخر وإثبات أحدهما لإبطال الآخر كما هو دأب المناظرة وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال لأن صاحب الهدى كأنَّه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث شاء وصاحب الضلال كأنه منغمس في ظلام لا يدري أين يتوجه.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني ما أمركم به من التوحيد وترك الاشراك إنما هو نصيحة لكم وإلا فلا مضرة لأحد بعمل غيره ففي هذا الكلام حث وترغيب على ما أمر به من التوحيد وفي إسناده الإجرام إلى نفسه والعمل إلى المخاطب رعاية لحسن الأدب وإظهار النصح دون التعصب والتعنت ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي بيني وبينكم ﴿رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ثم ﴿يَفْتَحُ﴾ أي يحكم ويفصل ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بما يستحقه كل منا بإن يُدخل المحق الجنة والمبطل الدار ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ أي الحاكم الفاصل في القضايا المغلقة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يقضي به في الآية السابقة إلزام للكفار على سبيل المناظرة وفيما بعدها على سبيل النصيحة، وفي هذه الآية على طريقة التوبيخ يذكر حكم الله فيهم يوم القيامة.

﴿قُلْ أَرُونِيَ﴾ أي أعلموني ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ الموصول مع صلته مفعول ثان لأروني وشركاء مفعوله الثالث يعني الذين ألحقتموهم بالله في استحقاق العبادة أعلموني كونهم شركاء يعني بأيّ صفة جعلتموهم شركاء هل يخلقون شيئاً ويرزقون أو ينفعون أحداً أو يضرون يعني لا سبيل إلى القول بأنهم شركاء الله، في هذه الآية استفسار عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم وإقامة البرهان زيادة في تبكيتهم ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن الإلحاق بعد ظهور عدم المشاركة في شيء من الصفات ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني المستحق للعبادة ليس إلا ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صاحب العزة القاهرة والحكمة البالغة لا شريك له شيء في شيء من الصفات فكيف تلحقون به الجمادات النازلة في أدنى مراتب الممكنات المتسمة بالزلة الآبية عن قبول العلم والقدرة رأساً فالضمير عائد إلى المستحق للعبادة والله خبره، والحصر مستفاد من هذا التركيب والعزيز والحكيم صفتان لله أو خبران آخران وجاز أن يكون هُوَ للشأن والله مبتدأ والعزيز والحكيم صفتان له والخبر محذوف أي متوحد لاستحقاق العبادة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً﴾ صفة لمصدر محذوف أي إلا رسالة كافةً يعني عامةً شاملة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ فإنها إذا عمتهم وقد كفتهم أن يخرجوا منها أحد منهم فعلى هذا قوله للناس

متعلق بكافةً، وجاز أن يكون كافة حال من كاف الخطاب والتاء للمبالغة يعني ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ إلا جامعاً لهم في الإبلاغ، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهرٍ وجعلت لي الأرض كلها مسجداً وطهوراً فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحِلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيتُ الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثتُ إلى النّاس عامة»(١) متفق عليه.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونُصرت بالرعب وأحِلّت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة وخُتم بي النبيون»(٢) وجاز أن يكون المعنى أرسلناك كافة أي كافّاً تكفهم عن الكفر في الدنيا وعن الوقوع في النار في الآخرة، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري، وقيل للناس متعلق بأرسلناك وكافة حال من الناس قدّم عليه للاهتمام يعني أرسلناك لأجل إرشاد الناس كافة عامة أحمرهم وأسودهم وأكثر النحويين لا يجوّزون ذلك لأن ما في حيز المجرور لا يتقدم على الجار، وجملة ما أرسلناك حال من فاعل قُلُ أرُونِي غير ذلك على سبيل التنازع يعني قل هذه المقالات لإلزام الكفار وإرشادهم وإلى كونك مرسلاً إليهم كافتهم أو كافاً إياهم.

﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار حالان من كاف الخطاب مترادفان لكافة على تقدير كونه حالان داخلان تحت الاستثناء بحرف واحد على طريقة ما ضربتُك إلا ضرباً شديداً قائماً وما حسبك إلا راكباً مسرعاً وجاز أن يكونان حالان من الضمير في كافةً على تقدير كونه حالاً من الكاف ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعتقدون ذلك بل يحملون إرشادك إياهم على العناد والمخالفة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكفار لفرط جهلهم استهزاءً واستبعاداً ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي المبشر به والمنذر عنه أو متى هذا الموعود لقولك يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يخاطبون به الرسول ﷺ والمؤمنين والجزاء محذوف دلَّ عليه ما قبله يعني ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الوعد فأنبئوني عن وقته ﴿قُل﴾ لهم في الجواب ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي وعد يومٍ أو زمانُ وعدٍ والإضافة إلى اليوم حينئذ للتبين ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليهِ والمراد بذلك اليوم يوم القيامة وقال الضحاك يعني الموت لا تتقدمون ولا تتأخرون بأن يزاد

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الصلاة باب ٥٦، والجهاد باب ١٢٢، والتعبير باب ١١، ٢٢، والاعتصام باب ١، ومسلم في المساجد حديث ٣، ٥، ٦، ٧، ٨.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٥، والترمذي في السير باب ٥، وأحمد في المسند ٢/ ٤١٢.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٢٦.

في آجالكم أو ينقص وهذا جواب تهديد مطابق لما قصدوه بسؤالهم من الاستهزاء والإنكار.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ
مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ
أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم
بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن
نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٣٣) وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ
كَٰفِرُونَ (٣٤) وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا
مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ
فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٣٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ
أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا
كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ (٤٣) وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي بما تقدمه وهو التوراة والإنجيل قالوا ذلك حين سألوا أهل الكتاب عن الرسول ﷺ فأخبروهم إنا نجد نعته في كتبنا فغضبوا وقالوا ذلك وجاز أن يكون المراد ﴿بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ محمد ﷺ، وقيل المراد بالَّذِيُ بَينَ يَدَيهِ القيامة والجنة والنار وهٰذه الجملة معطوفة على ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ أو لكل مخاطب والمفعول محذوف يعني وَلَوْ ترى الظالمين ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ للحساب الظرف متعلق بترى وجاز أن يكون الظرف مفعولاً لترى والمعنى ولو ترى موضع محاسبتهم ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ يعني يتراجعون بينهم القول ويتحاورون والجملة حال من الضمير في موقوفون أو خبر بعد خبر للظالمون ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ أي الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أي الرؤساء ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ يعني لولا صدكم إيانا عن الإيمان بالله وبرسوله ودعاؤكم إيانا إلى الكفر ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بالنبيّ فأنتم أوقعتمونا في العذاب ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ﴾ في جوابهم ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ استفهام إنكار يعني نحن لم نصدكم ﴿عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ الهدى ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أثبتهم أنهم هم الذين صدوا أنفسهم حيث أثروا التقليد ومتابعة

الكفار بلا دليل وتركوا متابعة الرسول المؤيد بالمعجزات ولذلك أورد همزة الاستفهام على الاسم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ لم نصد أنفسنا ﴿بَلْ﴾ صدنا عن الهدى ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي مكركم إيانا في الليل والنهار وإضافة المكر إلى الظرف للاتساع، وقيل عنوا بمكر الليل والنهار طول السلامة وطول الأمل فهما صدنا ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ الظرف بدل من الليل والنهار ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ أن مفسرة للأمر أو مصدرية بتقدير الباء ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ﴾ أي أضمر الفريقان الندامة على الضلال والإضلال وأخفاها كل عن صاحبه مخافة التعيير أو المعنى أظهروها والهمزة تصلح للإثبات والسلب كما في أشكيته ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على ﴿رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ﴾ [البقرة: ١٦٦] ﴿ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ في النار، أورد المظهر موضع الضمير تنويهاً للذم وإشعاراً بموجب الأغلال ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي لا يجزون جزاءً ﴿إِلَّا﴾ جزاء ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا تعدية يجزى إما لتضمين فعل متعد نحو تؤتون أو لنزع الخافض.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سفيان عن عاصم عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكين خرج أحدهما إلى الشام وبقي الآخر فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه فكتب صاحبه يسأله ما عمل فكتب إليه أنه لم يتبعه من قريش أحد إلا رذالة الناس ومساكينهم فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال دلني عليه وكان يقرأ بعض الكتب. فأتى النبي ﷺ فقال إلى ما تدعو فقال إلى كذا وكذا فقال أشهد أنك رسول الله فقال وما علمك بذلك؟ قال إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم فنزلت ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ الآية فأرسل إليه النبيّ ﷺ أن الله قد أنزل تصديق ما قلتَ، من زائدة ونذير في محل النصب على المفعولية ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ حال بتقدير قد من نَذِير يعني إلاّ وقد قَالَ مُتْرفُو تلك القرية أي متنعميها خص المتنعمين بالتكذيب لأن الداعي إلى التكذيب والإنكار غالباً التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا والانهماك في الشهوات والاستهانة بالفقراء ولذلك ضموا التهكم والمفاخرة إلى التكذيب فقالوا ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ مقابلة الجمع بالجمع ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ منكم فنحن أولي منكم، ما تدعون إن أمكن لأنا أحباء الله حيث أعطانا ذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ إما لأن العذاب لا يكون أو لأن الله اكرمنا فلا يهيننا ﴿قُلْ﴾ يا محمد رداً لحسبانهم ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ في الدنيا ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امتحاناً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق الرزق لمن يشاء ابتلاءً وليس القبض والبسط في الدنيا مبنياً على التوهين والتكريم لأن الدنيا دار الابتلاء لا دار الجزاء ولذلك يختلف فيها أحوال الأشخاص المتماثلة في الخصائص والصفات ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للكرامة.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي﴾ أي متلبسة بالخصلة ﴿بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ قال الأخفش زلفى اسم مصدر كأنّه قال يقربكم عندنا تقريباً وجاز أن تكون الباء زائدة والتي محمولاً على أموالكم بإرادة جماعة أموالكم ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الاستثناء منقطع يعني

لكن ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فإيمانه وعمله يقربه عني كذا قال ابن عباس، وجاز أن يكون الاستثناء متصلاً من مفعول يقربكم يعني أن الأموال والأولاد لا يقرب إلى الله أحداً إلاّ المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويُعَلّمُ ولده الخير ويربّيه على الصلاح، أو من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف يعني إلا أموال من آمن وأولاده فإنها تقربه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ قرأ يعقوب جزآءً منصوباً منوناً على التميز أو على أنه مصدر لفعله الذي دل عليه والضعف مرفوعاً على أنه مبتدأ ولهم خبره والجملة خبر أولئك تقديره فأولئك لهم الضعف يجزون جزاء وعن يعقوب رفعهما[١] على أن الجزاء مبتدأ والضعف بدل منه ولهم خبره، وقرأ الجمهور جزاء بالرفع على أنه مبتدأ والضعف بالجر على أنه مضاف إليه إضافة المصدر إلى المفعول والمراد أن الله يضعف جزاء حسناتهم فيجزون بالحسنة الواحدة عشراً إلى سبعمائة إلى ما لا نهاية له ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ قرأ حمزة الغرفة على إرادة الجنس والباقون على الجمع، والغرف رفع الشيء وهي المنازل الرفيعة من الجنة، وقد ذكرنا ما ورد في الغرفات من الأحاديث في تفسير سورة الفرقان في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥] ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي في إبطال آياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مقدرين عجزنا أو ظانين أنهم يفوتوننا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ يعني يوسع عليه تارة ويضيق عليه أخرى فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق في شخصين فلا تكرار، وقال صاحب البحر المواج الأولى لرد فخرهم بالعباد وهذا لرد بخلهم حيث قال ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ في سبيل الله ما شرطية في محل النصب وقوله ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ بيانه وجواب الشرط ﴿فَهُوَ﴾ الرب ﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ أي يعطيه ما يخلفه إما بعجلة في الدنيا وإما بدخوله للآخرة فما لكم لا تنفقون أموالكم في سبيل الله وتبخلون بها وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي للتخصيص والتأكيد ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإن غيره وسط في إيصال رزقه وإطلاق الرازق على غيره إنما هو بالمجاز والرازق الحقيقي ليس إلا الله، فإن قلت يلزم حينئذ الجمع بين الحقيقة والمجاز في قوله: ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ قلنا المراد هاهنا عموم المجاز.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي الكفار ﴿جَمِيعًا﴾ المستكبرين والمستضعفين ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ عطف على يحشر، قرأ يعقوب وأبو جعفر[٢] وحفص يَحْشُرُهم ويَقُولُ بالياء والباقون بالنون فيهما ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار الذين كانوا يعبدون الملائكة ويقولون هم بنات الله ﴿إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ في الدنيا يقول ذلك تبكيتاً للمشركين وتقريعاً لهم وإقناطاً لهم من الشفاعة وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف لشركائهم والصالحون للخطاب منهم ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله والظرف متعلق بقوله ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي ننزهك تنزيهاً عن الشريك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا

---

(١) هذا ليس بشيء ـ أبو محمد ـ.

(٢) لا بل قرأ أبو جعفر بالنون ـ أبو محمد ـ.

﴿مِن دُونِهِمۖ﴾ يعني أنت الذي خص موالاتنا به دونهم يعني لا موالاة بيننا وبينهم كأنَّهُمُ بينوا بذلك براءتهم عن الرضاء بعبادتهم ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ أي الشياطين الذين زيّنوا لهم عبادة الملائكة.

وقيل كانت الشياطين يتمثلون لهم ويخيلون إليهم أنهم الملائكة فيعبدونهم ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ يعني أكثر الناس وهم المشركون أو المراد بالأكثر الكل والضمير للمشركين ﴿بِهِم﴾ أي بالجن ﴿مُّؤۡمِنُونَ فَٱلۡيَوۡمَ﴾ أي فذلك اليوم ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ يعني لا يملك بعض الخلائق من الجن والإنس والملائكة لبعضهم نفعاً إثابةً أو شفاعة ولا تعذيباً إذ الأمر كله لله ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بوضع العبادة في غير موضعه ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا عطف على ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على أهل مكة ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحات على لسان محمّد ﷺ ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون القرآن ﴿إِلَّآ إِفۡكٞ﴾ أي خبر غيره مطابق للواقع ﴿مُّفۡتَرٗىۚ﴾ يعنون أنه افترى محمد على الله أنه كلامه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ يعني أمر النبوة أو الإسلام أو القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ يعني بمجرد مجيئه عندهم من غير تدبر وتفكر ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي ظاهر سحريته فالأول باعتبار معناه وهذا باعتبار لفظه أو إعجازه وفي تكرير الفعلي والتصريح بذكر الكفرة وما في اللام من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم﴾ يعني كفار مكة ﴿مِّن كُتُبٖ﴾ فيها دليل على صحة الإشراك هذه الجملة مع ما عطف عليه حال من فاعل ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ يدعوهم إليه وينذرهم على تركه فمن أين يدَّعونَ بالشرك ويحكمون على القرآن بالإفك والسحر وعلى النبيّ بالكذب، وفيه تجهيل لهم وتسفيه لرأيهم ثم هددهم فقال ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأمم رسلنا وهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وأصحاب الأيكة هذا أيضاً حال بتقدير قد أو معطوف على قال الذين كفروا ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ يعني هؤلاء الكفار أي كفار مكة ﴿مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي عشر ما أعطينا الأمم الخالية من العدة والنعمة وطول العمر ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾ فحين كذبوا رسلي جاءهم نكيري حيث دمرناهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ لهم أي كيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك يعني هو واقع موقعه استفهام توبيخ فليحذر هؤلاء من مثله، ولا تكرير في كَذَّبَ لأن الأول للتكثير وللثاني للتكذيب أو الأول مطلق غير مقيد بالمفعول فإنه نزل منزلة اللازم والثاني مقيد تفصيل بعد الإجمال ولذلك عطف عليه بالفاء، وقال صاحب البحر المواج ضمير فكذبوا رسلي عائد إلى كفار مكة عطف على ما بلغوا فلا تكرار، قرأ ورش(١) نَكِيْري بإثبات الياء وصلاً لا وقفاً والجمهور بحذفها في الحالين.

---

(١) ويعقوب في الحالين ـ أبو محمد ـ.

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ
إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى
ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ
ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ
قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ
ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾
وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ أي أرشدكم وأنصح لكم ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي بخصلة واحدة وهي ما دل عليه قوله ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ ليس المراد بالقيام ضد الجلوس والرقود بل المراد به الانتصاب في الأمر والتصدي له كما في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ [النساء: ١٢٧] والمعنى أن تنتصبوا في التفكر خالصاً لوجه الله معرضاً عن التعصب والتقليد ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ يعني اثنين اثنين وواحداً واحداً فإن الازدحام يشوش الخاطر حالان من فاعل تقوموا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به عطف على تقوموا يعني قوموا إما اثنين اثنين فيتفكران ويعرض كل واحد منهما فكره على صاحبه وينظران بنظر الإنصاف أو يتفكر فرد فرد في نفسه بعدل ونصفة حتى يتضح له الحق.

وأن مع صلته إما في محل الجر بدلاً من واحدة أو بياناً له وإمّا في محل الرفع بإضمار هو وإما في محل النصب بإضمار أعني ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ متعلق بتفكروا بتضمين يعلموا إرشاد إلى مواد التفكر والمراد أن هذا أمر بديهي وهو أن صاحبكم محمداً ﷺ ليس به جنون فإنه ذو عقلٍ سليم ولُبٍّ عظيم وفهمٍ مستقيم لا ينكره إلا معاندٌ أو مجنونٌ، وبديهي أن من له عقل سليم لا يتصدى لأمر عظيم عبثٍ يُعادي بسببه الخلائق مع كونه متوحداً أصفر اليد من غير تحقيق ووثوق ببرهان من غير فائدة معتدة به من جلب نفع أو دفع ضرر، وجلب نفع أو دفع ضرر دنيوي غير موجود أما جلب النفع فمنفي حيث يقول ما سألتكم من أجر فهو لكم وكذا دفع الضرر لأن ضرر معاداة الخلائق موجود فما هذه الدعوى من محمد ﷺ إلا لجلب نفع متوقع في غير هذا الدار ودفع ضرر كذلك فيثبت بهذه المقدمات قوله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يلحق بكم في غير هذا الدار فهذه المقدمات يرشد إلى وجوب اتباعه لاسيما قد انضم ذلك إلى معجزات كثيرة.

قال ابن عباس لمّا نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] «صعد النبيّ ﷺ على الصفا فجعل ينادي «يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟» قالوا ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا

فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[(١)] [المسد: ١]» متفق عليه.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ يعني لا أسألكم شيئاً وقيل معناه ما سألتكم من أجرٍ بقولي: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧] وقولي: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي لفائدتكم لأن اتخاذ السبيل إلى الله ينفعكم وقربائي قرباكم، قلتُ بل قربى النبيّ ﷺ علماء الظاهر والباطن من أهل بيته وغيرهم ومودتهم تورث التقرب إلى الله سبحانه ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي[(٢)] بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ في غير هذا الدار الدنيا ولولا ذلك لم أرتكب تحمل تلك المشقة عبثاً فلا بد لكم أن تتبعوني وتعملوا ما يوجب لكم الأجر على الله عزَّ وجلَّ تفضلاً منه بناءً على وعده، قال رسول الله ﷺ «يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلتُ الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»[(٣)] متفق عليه عن معاذ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيجازي كل امرىء على حسب عمله واعتقاده ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي يلقيه وينزله على من يشاء أن يجتبيه من عباده، أو المعنى يرمي به الباطل فيدمغه أو المعنى يرمي به إلى أقطار الآفاق فيكون وعداً بإظهار الإسلام، روى أحمد عن المقداد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذلّ ذليل إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها أو يذلهم فيدينون لها»[(٤)] ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ بالرفع صفة محمولة على محل اسم إنَّ أو بدل من المستكن في يقذف أو خبر ثان لأن أو خبر محذوف أي هو علام الغيوب يعلم من هو أهل للاجتباء بالوحي ويعلم عاقبة أمر الإسلام حيث يدفع به الكفر ويظهره في الأقطار ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن والإسلام والتوحيد ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي ذهب الباطل يعني الشرك وزهق فلم يبق منه بقية تبدي شيئاً أو تعيده كما قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] وقال قتادة الباطل إبليس أي ما يخلق إبليس أحداً ولا يبعثه وهو قول الكلبي أيضاً وقيل الباطل الأصنام.

قال البغوي إن كفار مكة كانوا يقولون للنبيّ ﷺ إنك قد ضللت حتى تركت دين آبائك فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ يعني ما تدينتُ به من الدين إن كان ضلالاً كما تقولون ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ يعني وبال ضلال إنما يعود إلى نفسي فكيف أختار الوبال

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٦، باب ٢، وسورة ٣٤، باب ٢، وسورة ١١١، باب ١، ٢، والترمذي في تفسير سورة ١١١، وأحمد في المسند ١/ ٢٨١، ٣٠٧، ٣/ ٤٧٦، ٥/ ٦٠.

(٢) وأبو بكر ويعقوب وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٣) أخرجه البخاري في اللباس باب ١٠١، والجهاد باب ٤٦، والاستئذان باب ٣٠، والرقاق باب ٣٧، والتوحيد باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٤٨ ـ ٥١.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٤، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٣٠.

على نفسي مع أنه لا جنون بي ولا منفعة دنيوية يعود إلي ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ يعني إن كان هذا هداية فليس من قبل نفسي ولا من عند أحد من أهل هذا البلد لظهور أني أمي ما كتبتُ ولا قرأتُ على أحد فليس هو إلا مستفاداً من الله وحياً فيجب عليكم أن تتبعوني فتهتدوا كما أهتديتُ، فهذا استدلال على النبوة وهذا الوجه المقابلة بين الشرطين وقال البيضاوي في وجه المقابلة إن معنى قوله ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فإن وبال ضلالي عليها فإنه بسببها فإنها هي الضالة بالذات والأمارة بالسوء وإن اهديت فبهدايته تعالى فعلى هذا أوزان هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضالٍ ومهتدٍ وفعله وإن أخفاه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أيها المخاطب ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ وقت فزع الكفار عند الموت، وقال قتادة عند البعث وجواب لو محذوف يعني لرأيت أمراً فظيعاً ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لهم يعني فلا يفوتون الله بهرب أو تحصن أو بإعطاء فداء عن نفسه ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يعني من ظهر الأرض إلى بطنها كما قيل أو من الموقف إلى النار، وقال الضحاك هو يوم بدر فزعوا وأخذوا من مكان قريب بعذاب الدنيا لكن لا يناسب هذا التأويل قوله ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بمحمد ﷺ وقد مر ذكره في قوله ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ فإنهم لم يقولوا يوم بدر آمنّا به بل قال أبو جهل حين قتل وكان به رمق وأخذ ابن مسعود لحيته، وقال الحمد للّه الذي أخزاك يا عدو الله قال بماذا أخزاني هل زاد على رجل قتله قومه وهل كان إلاّ هذا، وإنما يقولون آمنّا به عند البأس إذا أخذته سكرات الموت وعند البعث من القبور إذا عاينوا العذاب وعند البعث إلى النار ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص[1] بضم الواو بغير مد ومعناه التناول يعني من أين لهم أن يتناولوا الإيمان والتوبة، والباقون التناؤش بالمد والهمزة، وإذا وقف حمزة جعلها بين بين لأن ذلك من النئش بالهمزة وهو الحركة في الإبطاء يعني أنى لهم أن يتحركوا ويطلبوا الإيمان والتوبة، وجاز أن يكون من النوش بمعنى التناوش فيكون أصله الواو ثم يهمز للزوم ختمها، فعلى هذا يقف حمزة بضم الواو ورد ذلك إلى أصله كذا قال الداني في التيسير، قال في القاموس النأش يعني بالهمز التناول كالتناوش والأخذ والبطش والنهوض والتأخير ولا يستقيم التأخير هاهنا ويستقيم غير ذلك والنوش يعني بالواو التناول والطلبُ والمشي والإسراع في النهوض ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فإن تناول الإيمان إنما هو في حين التكليف أنه بعد عنهم حين التكليف وهذا تمثيل حالهم في الاستخلاص بعدما فات عنهم وبعد عنهم مجال من يريد تناول الشيء من غلوة مثل تناوله على ذراع في الاستحالة، وعن ابن عباس أنه قال إنهم يسألون الرد إلى الدنيا فيقال وأنى لهم الرد من مكان بعيد أي من الآخرة إلى الدنيا.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالله وقد مر ذكره أو بمحمد وقد ذكر بقوله ما بصاحبكم

---

(١) وأبو جعفر ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

أو بالقرآن المذكور بقوله ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أو بالعذاب المفهوم من قوله ﴿وَأُخِذُواْ﴾ والجملة حال من فاعل قالوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ ذلك الوقت في أوان التكليف ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي من جانب بعيد من أمر النبيّ ﷺ وهو الشبه الذي تمحلوها في أمر الرسول ﷺ وحال الآخرة كما حكاه من قبل ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا محال الظن في لحوقه، قال مجاهد يرمون محمداً ﷺ بما لا يعلمون يقولون شاعر ساحر كذَّاب بلا تحقيق هذا تكلم بالغيب، وقال قتادة يرمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار وهذا معطوف على قوله وقد كفروا به على حكاية الحال الماضية أو على قالوا فيكون تمثيلاً لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيعوه من الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان والنجاة من النار أو الرجوع إلى الدنيا أو كل ما يشتهيه الطبع من المأكولات والمشروبات وغيرها التي كانت لهم ميسرة في الدنيا والظرف قائم مقام فاعل حيل أو هو مسند إلى مصدره أي حيل الحيلولة، قرأ ابن عامر والكسائي حيل بإشمام الضم للحاء والباقون بإخلاص الكسر ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ أي بأشباههم من كفار الأمم الخالية ﴿مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ﴾ من البعث ونزول العذاب بهم ﴿مُّرِيبٍ﴾ موقع للريبة أو ذي الريبة منقول من المشكك أو الشاك نعت به الشك للمبالغة.

تم تفسير سورة سبأ من التفسير المظهري في العشرين من
المحرم من السنة السابعة بعد ألف ومائتين سنة/ ١٢٠٧
من الهجرة ويتلوه تفسير سورة الملائكة إن شاء الله
تعالى وصلى الله على خير خلقه
محمد وآله وأصحابه
أجمعين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الملائكة(١)

آياتها خمس وأربعون وهي مكيّة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ
مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ
لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ
تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ
الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ
اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) وَاللَّهُ
الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ
يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا
تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ
ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن
تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ
مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما من غير مثال سبق من الفطرة بمعنى الشق العدم بإخراجها منه والإضافة محضة لأن فاطراً بمعنى الماضي فهو صفة لله

---

(١) هي سورة فاطر.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وسائط بين الله وأنبيائه والصالحين من عباده يبلغون إليهم رسالاته بالوحي أو الإلهام أو الرؤيا الصالحة أو بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار صنعه، وإضافة جاعل إلى الملائكة لفظية لأن جاعلاً قد عمل في رسلاً ولا يجوز إعماله في المفعول الثاني إلا أن يكون عاملاً في الأول لأنه من ملحقات أفعال القلوب لا يجوز اقتصارها على أحد المفعولين والمعنى يجعل الملائكة رسلاً في الحال أو الاستقبال إلى محمد ﷺ وخواص أمته فقوله جاعل بدل من الله وليس بصفة ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ بدل من رسلاً ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ صفات لأجنحة قال قتادة ومقاتل بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة أجنحة وبعضهم له أربعة أجنحة وليس هذا للحصر، ولدفع توهم الحصر قال الله تعالى ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ في الملائكة وغيرها ﴿مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ روى مسلم في الصحيح عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨] قال رأى جبرئيل في صورته له ست مائة جناح ورواه ابن حبان بلفظ «رأيتُ جبرئيل عند سدرة المنتهى له سبع مائة جناح ينشر من ريشه الدر والياقوت» والجملة مستأنفة للدلالة على أن تفاوتهم في ذلك إنما هو مقتضى مشيئته تعالى ومؤدى حكمته لا أمر يستدعيه ذواتهم والآية متناولة لزيادات الصور والمعاني كملاحة الوجه وحسن الصوت وسماحة النفس والعقل والفهم وغير ذلك فما قال ابن شهاب إن المراد به حسن الصوت، وقال قتادة الملاحة في العينين، وقيل هو العقل والتميز كل ذلك على سبيل التمثيل.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ أي ما يعطي أطلق الفتح وهو الإطلاق وأراد به الإعطاء تجوزاً إطلاقاً للسبب على المسبب ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ نعمة دينية كالإيمان والعلم والنبوة وتوفيق الحسنات أو دنيوية كالمطر والرزق والأمن والصحة والجاه والمال والولد ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي لا أحد يحبسها ويمنع من أعطائها ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ أي ما يمنعه ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ واختلاف الضميرين لأن الموصول الأول فسر بالرحمة فروعي معناه والثاني مطلق يتناولها والغضب فروعي لفظه وفيه إشعار بأن رحمته سبقت غضبه ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد إمساكه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما يشاء لا يقدر أحد أن ينازعه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ لا يفعل إلا بعلم وإتقان روى الشيخان في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان يقول دبر كل صلاة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(١) ولما بيَّن الله سبحانه أنه خالق لجميع الأشياء متصرف فيها على ما يشاء أمر الناس بشكر إنعامه فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا أهل مكة ودخل في العموم غيرهم ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ حيث أسكنكم الحرم ومنع منكم الغارات وجعل الأرض كمهد ورفع السماء بلا عمد وخلقكم وزاد في الخلق ما شاء وفتح

---

(١) أخرجه البخاري في الأذن باب ١٥٥، والاعتصام باب ٣، والقدر باب ١٢، والدعوات باب ١٧، ومسلم في الصلاة حديث ١٩٤، ٢٠٥، ٢٠٦، والمساجد حديث ١٣٧، ١٣٨.

أبواب الرزق ولا ممسك له، ثم أنكر أن يكون لغيره في ذلك مدخل حتى يستحق الإشراك به فقال ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ النبات، من الأولى زائدة فإن الاستفهام للإنكار بمعنى النفي وخالقٌ مبتدأ وغير الله فاعله على قراءة الرفع أو خالق مبتدأ محذوف الخبر تقديره هل لكم من خالق غير الله أو خبره غير الله أيضاً على قراءة الرفع أو خبره يرزقكم وغير الله وصف له أو بدل منه، قرأه حمزة والكسائي بالجر حملاً على لفظه والباقون بالرفع حملاً على محله أو خالق فاعل لفعل محذوف تقديره هل يرزقكم من خالق غير الله ويرزقكم في محل الجر أو الرفع صفة لخالق أو في محل النصب حال منه أو تفسير لما أضمر أو استئناف لا محل له من الإعراب ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أي وجه تصرفون من التوحيد إلى الإشراك مع اعترافكم بأنه الخالق والرازق لا غير.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ في البعث والتوحيد والعقاب فقاس بمن قبلك من الرسل يعني اصبر ولا تحزن حذف الجزاء وأقيم مقامه ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ إقامة للسبب مقام المسبب وتنكير الرسل للتعظيم المقتضي لزيادة التسلية والحث على الصبر يعني كذبت رسل ذو عدد كثير وآيات واضحات وأعمار طوال وأصحاب حزم وعزم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيجازيك على الصبر بالنصر والثواب وإياهم على التكذيب في الدارين بالعذاب، قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم على البناء للفاعل والباقون بضم التاء وفتح الجيم على البناء للمفعول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء حق كائن لا يحتمل الخلف ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا يلهيكم الاشتغال بزخارف الدنيا من طلب الآخرة والسعي لها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في حلمه وإمهاله ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ يعني الشيطان بأن ينسيكم عذاب الآخرة أو يمنّيكم المغفرة مع الإصرار على المعصية فإنها وإن أمكنت لكن ارتكاب الذنب بهذا الاحتمال يشبه تناول السم على احتمال الترياق أو رفعه الطبيعة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوة عامة قديمة حيث قال وعزتك[1] لأغوينهم أجمعين ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يعني استيقنوا بعداوته وكونوا على حذر من اتباع وسوسته في مجامع أحوالكم ولا تطيعوه وأطيعوا الله على رغم أنفه فإن مقتضى المحبة أن يفعل ما يرضاه المحبوب ويرضيه منه ومقتضى العداوة أن يفعل ما لا يرضاه ويغيظه والجملة تعليل للنهي السابق ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ أي أتباعه من الإنس إلى المعاصي واتباع الهوى والركون إلى الدنيا ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ متعلق بيدعو تقرير لعداوته، وبيان لغرضه، ثم بين حال موافقيه ومخالفيه فقال ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله واتبعوا الشيطان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وخالفوا الشيطان ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ﴾ أي رأى عمله السيء ﴿حَسَنًا﴾ معطوف على زين تقرير

(١) في القرآن الكريم: ﴿فبعزتك﴾.

له يعني من زين له قبح عمله يعني خذله الله حتى غلب همه وهواه على عقله واختل رأيه ووسوس له الشيطان فرأى السيىء حسناً والباطل حقاً كمن لم يزين له وهداه الله إلى الحق، ولم يجد الشيطان إليه سبيلاً حتى عرف الحق من الباطل واستحسن الأعمال واستقبحها على ما هي عليه فحذف الجواب لدلالة قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ الهمزة في أفمن زين للإنكار والفاء للعطف على المحذوف تقديره أتطمع أن تهتدي كل رجل فيكون المخذول من الله والمهدي سواء لا تطمع ذلك فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾ يعني لا تهلك نفسك ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على ضلالهم ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾ منصوب على العلية أي للحسرات على غيهم وضلالهم والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر وجمع الحسرات للدلالة على تضاعف اغتمامه على أحواله أو كثرة مساوىء أفعالهم المقتضية للتأسف، وعليهم ليس صلة لها لأن صلة المصدر لا تتقدمه بل صلة تذهب أو بيان للمتحسر عليه وقيل تقدير الكلام أتغتم بكفرهم فمن زين له سوء عمله فأضله الله تذهب نفسك عليهم حسرة يعني لا تغتم ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ﴾ عليهم حسرات فقوله تعالى فلا تذهب تدل على الجواب المحذوف وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ معترضة في مقام التعليل، قال الحسين[1] بن الفضل فيه تقديم وتأخير مجازه أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، قال البغوي قال ابن عباس نزلت الآية في أبي جهل ومشركي مكة وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال نزلت الآية حين قال النبيّ ﷺ: «اللّهم أعزّ دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام» فهدى الله عمر وأضل أبا جهل ففيهما نزلت، وقال سعيد بن جبير نزلت في أصحاب الأهواء والبدع، قال قتادة منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وأما أهل الكبائر فليسوا منهم فإنهم لا يستحلون الكبائر بل يعتقدون الباطل باطلاً وإن كانوا مرتكبين به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ عطف على ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ يعني وعد الله بالبعث حق والله أرسل الرياح وأحيا الأرض بعد موتها كذلك نشوركم بالبعث قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي[2] الريح على إرادة الجنس والباقون بصيغة الجمع ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة ولأن المراد بيان إحداثها بهذه الخاصة ولذلك أسند إليها ويجوز أن يكون إختلاف الأفعال للدلالة على استمرار الأمر ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم لأنه أدخل في الاختصاص لما فيها من مزيد الصنع إلى ﴿بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص[3] بتشديد الياء والباقون بالتخفيف

---

(١) في البغوي: الحسن بن الفضل.

(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٣) وأبو جعفر وخلف ـ أبو محمد ـ.

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكره أو بالسحاب فإنه سبب السبب ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ أي جعلناها مخضرة ذات نبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعد اغبرارها ويبس نباتها أسند موت نباتها وحياتها إليها مجازاً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إحياء النبات بعد اليبس ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ للأموات من القبور لاستوائهما في المقدورية إذ ليس بينهما إلا اختلاف المادة في المقيس عليه وذلك لا مدخل له فيها، وقيل التمثيل في كيفية الإحياء لما ورد في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم في كيفية البعث حيث قال: «ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل فينبت منه أجساد الناس»[1] الحديث، وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن وهب قال البحر المسجور أوله في علم الله وآخره في إرادة الله فيه ماء ثخين شبه ماء الرجل يمطر الله منه على الخلق أربعين يوماً بين الراجفة والرادفة فينبتون نبات الجنّة في حميل السيل ويجمع أرواح المؤمنين من الجنات وأرواح الكافرين من النار فيجعل في الصور يأمر الله إسرافيل فينفخ فيه فيدخل كل روح في جسده الحديث، وأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون»؟ قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيت، قالوا أربعون عاماً؟ قال: أبيتُ ثم يُنزّلُ الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يُركّب الخلق يوم القيامة»[2] وأخرج ابن المبارك عن سليمان قال يمطر الناس قبل البعث أربعين يوماً ماءً خاثراً، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين ومقدار ما بينهما أربعين عاماً ينبت منه كل خلق بلي من إنسان أو طير أو دابة ولو مرَّ عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على وجه الأرض فينبتون ثم يرسل الأرواح فتزوج بالأجساد.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي في الدنيا والآخرة قال الفراء من كان يريد أن يعلم لمن العزة فلله العزة جميعاً والظاهر أن معناه من كان يطلب لنفسه العزة فليطلبها من عند الله وليتعزز بطاعة الله فإن العزة كلها له ملكاً وخلقاً يؤتيها من يشاء وفيه رد على الكفار حيث طلبوا العزة بعبادة الأصنام قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢] وعلى المنافقين حيث طلبوا العزة من الكفار قال الله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. . . . . . . ثم بين أن ما يطلب به العزة إنما هوالتوحيد والعمل الصالح فقال ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله ﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وهي سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا إله إلا الله وتبارك الله ونحو ذلك وصعودها مجاز عن قبوله إياها كذا روي عن قتادة، أو المراد بها صعود الكتبة بصحيفتها إلى عرشه كما يدل عليه حديث ابن مسعود قال: «ما من عبد يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا إله

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١١٦، وأحمد في المسند ٢/١٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣٩، باب ٣، وسورة ٧٨، باب ١، ومسلم في الفتن حديث ١٤١.

إلا الله والله أكبر وتبارك الله إلا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بها وجه رب العالمين ومصداقه من كتاب الله عزَّ وجلَّ إليه يصعد الكلم الطيب»[١] رواه البغوي والحاكم وغيره، وروى الثعلبي وابن مردويه حديث أبي هريرة نحوه مرفوعاً ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ قال الكلبي ومقاتل الضمير المستكن في يرفعه راجع إلى الكلم والمنصوب إلى العمل المعنى أن العمل لا يقبل إلا أن يكون صادراً عن التوحيد، وقال سفيان بن عيينة إن المستكن راجع إلى الله عزَّ وجلَّ يعني أن العمل الصالح أي ما كان خالصاً لوجه الله لا يكون مشوباً برياء وسمعة يرفعه الله أي يقبله فإن الإخلاص سبب لقبول الأقوال والأعمال، والظاهر أن الضمير المستكن راجع إلى العمل الصالح لقربه والمنصوب إلى الكلم.

وهو مفرد ليس بجمع أريد به الجنس ولذا وصفه بالطيب أو يقال تقديره إليه يصعد بعض الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وذلك البعض ما كان منه بالإخلاص وإرجاع الضمير هكذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وعكرمة وأكثر المفسرين.

قال الحسن وقتادة الكلم الطيب ذكر الله والعمل الصالح أداء الفريضة فمن ذكر الله ولم يؤد الفريضة رد كلامه على عمله وليس الإيمان بالتمني ولا بالتجلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقه الأعمال فمن قال حسناً وعمل غير صالح، رد الله عليه قوله ومن قال حسناً وعمل صالحاً يرفعه القول ذلك بأن الله يقول: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وجاء في الحديث «لا يقبل قولاً إلا بعمل ولا قولاً ولا عملاً إلا بنية»[٢] قلت: ليس المراد بهذه الآية أن الإيمان بغير عمل لا يعتد به كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حقٌّ والنار حقٌّ أدخله الله الجنة على ما كان من عمل»[٣]. رواه الشيخان في الصحيحين عن عبادة بن الصامت، بل المراد أن الكلم الطيب يصعد إلى الله فإن كان معه عمل يرفع شأن تلك الكلمة ويزيد في ثوابها ومعنى قوله ﷺ «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل» يعني قول المنافق بلا عمل من القلب والجوارح لا يعتد به وكذا القول المقرون بالعمل لا يعتد بهما الأبنية أي باعتقاد وإخلاص من القلب، وقيل معنى الآية والعمل الصالح يرفع القائل أي درجته.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صفة لمصدر محذوف لأن الفعل لازم ليس بمتعد إلى مفعول به، أي يمكرون المكرات السيئات، قال أبو العالية يعني مكرات قريش للنبيّ ﷺ في

---

(١) أخرجه بنحوه ابن عدي في الكامل في الضعفاء ٥/ ١٦٧٨، والحاكم في المستدرك ١/ ٥١٤.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٣٤، وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات ٩٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في التهجد باب ١، والتوحيد باب ٨، وأحاديث الأنبياء باب ٤٧، والدعوات باب ٩، ومسلم في الإيمان حديث ٤٦، والمسافرين حديث ٩٩.

دار الندوة كما مر في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقال الكلبي معنى الآية الذين يعملون السيئات وقال مجاهد وشهر بن حوشب هم أصحاب الرياء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ﴾ أي الله سبحانه ﴿يَبُورُ﴾ أي يبطل حيث قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] والمعنى الله يبطل أعمال المرائين.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ معطوف على والله أرسل وهذا أيضاً دليل على القدرة على البعث فإن بدء الخلق ليس بأهون من إعادته ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني أصلكم البعيد تراب حيث خلق آدم منه وأصلكم القريب نطفة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً ما ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ إلا متلبساً ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ حال يعني إلا معلوماً له ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ يعني ما يقدر عمر أحد ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي لا ينقضي من عمر أحد شيء ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ يعني كل ذلك مكتوب في اللوح أو في الصحائف الكرام الكاتبين.

قال سعيد بن جبير: مكتوب في أم الكتاب عمر فلان كذا سنة ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاث أيام حتى ينقطع عمره، وقيل معناه لا يزاد في عمر أحد ولا ينقص إلا في كتاب يعني كتب في اللوح المحفوظ أن عمر فلان كذا سنة ثم يزاد عمره بعض الحسنات أو ينقص ببعض السيئات كل ذلك مكتوب في اللوح يؤيده قول ﷺ «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»[1] ورواه الترمذي عن سلمان الفارسي، وقيل: معناه لا يمد في عمر من هو طويل العمر ولا ينقص عمر غيره من عمره أي عمر طويل العمر بأن يعطى له عمر ناقص من عمره أو لا ينقص عمر المنقوص عمره بجعله ناقصاً، والضمير له وإن لم يذكر لدلالة مقابله عليه وللمعمر على التسامح اعتماداً على السامع كقولهم لا يثبت الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي كتابة الآجال والأعمال ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا﴾ يعني أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي شديد العذوبة وقيل هو ما يكسر العطش ﴿سَآئِغٌ﴾ سهل الانحدار ﴿شَرَابُهُۥ﴾ جملة ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ مع ما عطف عليه صفة للبحرين على طريقة، ولقد أمر على اللئيم يسبني ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة وقيل هو ما يحرق بملوحته، ضرب مثل المؤمن والكافر وبيان لكمال قدرته تعالى حيث خلق من جنس وآخر شيئان مختلفان في الخواص ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي من كل واحد من البحرين ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم أولا على سبيل الاستطراد بل لتمام التمثيل والمعنى أنه كما أنهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان فيما هو المقصود بالذات من الماء كذلك المؤمن والكافر إن اشتركا في بعض خواص الإنسانية لا يتساويان فيما هو المقصود من خلق الإنسان، وهو معرفة الله وعبادته حيث قال

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر باب ٦، وابن ماجه في المقدمة باب ١٠، والفتن باب ٢٢.

الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أو لتفضيل الأجاج على الكافر بما يشارك العذب في المنافع ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ أي من الملح دون العذب ﴿حِلْيَةً﴾ يعني اللؤلؤ والمرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ قيل نسب اللؤلؤ إلى البحرين لأنه يكون في بحر الأجاج عيون عذبة يمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من بين ذلك ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ عطف على ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾ ﴿فِيهِ﴾ أي في كل منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾ جمع ماخرة على وزن فاعلة من المخر وهو الشق يعني شاقات للماء تجريها مقبلات ومدبرات ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي من فضل الله بالتجارة فيهما واللام متعلق بمواخر ويجوز أن يكون متعلقاً بفعل دل عليه الأفعال المذكورة يعني جعل الله البحر هكذا لتبتغوا من فضله ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ أي ولكي ﴿تَشْكُرُونَ﴾ الله على ذلك عطف على لتبتغوا لأن حرف الترجي استعير لمعنى اللام وإيراد حرف الترجي باعتبار ما يقتضيه ظاهر الحال.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ صيفاً متصل بقوله ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١] وبما في سياقه وجملة ما يستوي معترضة ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ شتاء، حيث يقصر النهار ويمد الليل ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ أي كل واحد منهما ﴿يَجْرِى﴾ في السماء ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هي مدة دوره أو منتهاه أو يوم القيامة حين ينقطع جريها وجملة ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ بيان للتسخير ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ أي الذي فعل هذه الأشياء ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أخبار مترادفة وكونه تعالى فاعلاً لما ذكر موجب لثبوت تلك الأخبار ويحتمل أن يكون له الملك كلاماً مبتدءاً ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي الذين تعبدونها من الأصنام وغيرها كائنة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ من زائدة على المفعول به فضلاً أن يملك شيئاً آخر وهو لفافة دقيقة على النواة فمن لم يملك كيف يستحق العبادة ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ لقضاء حاجتكم ﴿لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنها جمادات، الجملة الشرطية مع ما عطف عليه، خبر ثان للموصول ولم يعطف للدلالة على استبداده لنفي الألوهية ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ﴾ على سبيل الفرض أو على تقدير كون بعضهم ذا شعور كإبليس ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ لعدم قدرتهم على الإنفاع أو لتبرئهم منكم ومما تدَّعون لهم من الألوهية كعيسى وعزير والملائكة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي ينكرون بإشراككم إياهم يقولون ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أي لا يخبرك بحقيقة الأمر مخبر ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي عالم وهو الله سبحانه فإنه هو الخبير بكل شيء على ما هو عليه، أو المعنى ولا ينبئك أيها المفتون بأسباب الغرور كما ينبئك الله الخبير بحقائق الأشياء.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ
بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا
يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ
فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ
﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ
مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ

﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ المحتاجون ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ دائماً في الوجود وتوابعه وفي البقاء وفي النجاة من النار والإثابة بالجنة وغير ذلك وتعريف الفقراء نظراً إلى افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به فإنه حَمَلَ الأمانة مع كونه ضعيفاً ظلوماً جهولاً، فهو أجوع من غيره ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ اللام للعهد أي المعروف بالاستغناء على الإطلاق والإنعام العام على الموجودات ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في نفسه مستحق الحمد من جميع خلقه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ إلى العدم دليل على كونه غنيّاً عنكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بقوم آخرين بدلكم أطوع منكم أو بعالم آخر غير ما تعرفونه ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٣٠﴾﴾ بمتعذر ولا متعسر.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ﴿وِزْرَ﴾ أي ثقل يعني إثم نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ أما قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] ففي الضالين المضلين فإنهم حملوا أثقال ضلالهم مع أثقال ضلاّل أنفسهم لأنهم أضلّوهم فكل ذلك أوزارهم وليس شيء منها من أوزار غيرهم، وأما ما رواه مسلم عن أبي موسى يرفعه «أنه يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها لهم ويضعها على اليهود والنصارى»[(١)] وما روي أيضاً من وجه آخر بلفظ «إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فداك من النار»[(٢)].

وروى الطبراني والحاكم وصححه أيضاً عن أبي موسى نحو الرواية الأولى وابن ماجه والطبراني أيضاً نحو الرواية الثانية، وأخرج ابن ماجه والبيهقي عن أنس «إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من المسلمين رجل من المشركين فيقال هذا فداك من النار»[(٣)] فتأويل هذه الأحاديث عندي أن المراد بالذنوب التي توضع على الكفار أنهم ارتكبوا بتلك السيئات قبل أمة محمد ﷺ وسنوا سنة سيئة واقتفى المتأخرون آثارهم في ارتكاب السيئات فلما غُفرت سيئات المؤمنين تفضلاً من الله تعالى بقيت سيئات الذين سنوا تلك السنة عليهم مضاعفة لأجل الارتكاب ولأجل إبداع السنة السيئة فالوضع كناية عن إبقاء ما لحق الكافر بما سنه من عمله السيىء الذي عمل بها فاقتفاه مسلم والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة حديث ٥١. (٢) أخرجه مسلم في التوبة حديث ٤٩.
(٣) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح ٥٥٥٢، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٧٦/٩.

﴿وَإِن تَدۡعُ﴾ نفس ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾ أثقلها أوزارها أحداً غيرها ﴿إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾ أي ليتحمل بعض أوزارها ﴿لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾ أي لم تجب تحمل شيء منه نفى الله سبحانه أن يحمل عنها غيرها ذنبه كما نفى أن يحمل عليها ذنب غيرها ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ أي المدعو دلَّ عليه قوله إن تَدۡع ﴿ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ أي ذا قرابتها، قال البغوي قال ابن عباس يلقى الأب والأم ابنهما فيقول يا بني احمل عني بعض ذنوبي فيقول لا أستطيع حسبي عملي ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ قال الأخفش معناه إنما تنفع بإنذارك ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ غائبين عن عذابه أو عن الناس في خلواتهم أو غائباً عنهم عذابه ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني الذين اجتنبوا المعاصي وأتوا بالواجبات خشية من عذاب الله هم المنتفعون بإنذارك واختلاف الفعلين للدلالة على استمرارهم على ذلك في جميع الأزمنة ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهر من دنس المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ إذ نفعه لها، جملة معترضة مؤكدة لخشيتهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فيجازيهم على تزكيته ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ عن الهدى أي الكافر أو الجاهل ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي المؤمن والعالم ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ أي الكفر ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ أي الإيمان ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ﴾ أي الجنة والثواب ﴿وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾ أي النار والعقاب ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل وقيل مثل للجهال والعلماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أن يهديه فيوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ومبالغة في الإقناط عنهم ﴿إِنۡ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ تخوفهم بالنار ولا تقدر على هدايتهم ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ حال من الضمير المرفوع والمنصوب أو صفة لمصدر محذوف أي محقين أو محقاً إرسالاً متلبساً بالحق ويجوز أن يكون صلة لقوله ﴿بَشِيرٗا﴾ للمؤمنين بالوعد الحق ﴿وَنَذِيرٗاۚ﴾ للكافرين بالوعيد الحق ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ أي نبيّ أو من ينوبه من العلماء والاكتفاء بالنذير للعلم بأن النذارة قرينة للبشارة قد قرن به من قبل أو لأن الإنذار لهم فإن دفع الضرر أهم من جلب النفع ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد فلا تغتم واصبر على أذاهم كما صبر قبلك من الأنبياء ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي كفار الأمم الخالية قبل كفار مكة ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ حال من فاعل كذب بتقدير قد ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات الشاهدات على نبوتهم كصحف إبراهيم ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ كالتوراة والإنجيل على إرادة التفصيل دون الجمع أو المراد بها واحد والعطف لتغاير الوصفين يعني فصبروا على تكذيبهم ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ أي إنكاري بالعقوبة أي هو واقع موقعه، قرأ ورش بإثبات الياء في الوصل فقط والباقون بحذفها وصلاً ووقفاً.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ أجناسها أو أصنافها على أن كلاً منها أصناف مختلفة أو مختلفاً هيئتها من الصفرة والخضرة والحمرة ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ﴾ أي ذو جدد أي خطط وطرائق، جملة اسمية هي مع ما عطف عليه حال من فاعل أخرجنا على طريقة أتيتُك والشمس طالعة ﴿بِيضٞ

﴿وَحُمْرٌ﴾ وصفر ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ بالشدة والضعف ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي صخور شديدة السواد عطف على بيض أي جدد بيض وحمر وسود غرابيب فغرابيب تأكيد لسود مضمر يفسره ما بعده لأنه تأكيد وحق التأكيد أن يتبع المؤكد وهذا نظير قوله والمؤمن عائذات الطير وفي مثله مزيد تأكيد باعتبار الإضمار والإظهار كذا قال البيضاوي، وقال الجلال المحلي يقال كثيراً سود غربيب وقليلاً غربيب وسود، قلت: لعل ذلك القليل عند إرادة مزيد التأكيد وجاز أن يكون عطفاً على جدد كأنَّه قيل من الجبال ذو جدد مختلف ألوانها ومنها غرابيب متحدة اللون ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على مِنَ الجبال ﴿وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ ذكَّر الضمير لأجل من وقيل تقديره وَمِنَ الناسِ وَالدواب والأَنْعَام ما هو مختلف ألوانه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف أي اختلافاً مثل اختلاف الثمار والجبال.

ولمَّا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى آخره ذكر أنواع المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع الدالَّة على صانعها وصفاته أتبعه بقوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يعني الذين تفكروا في خلق الله واستدلوا به على ذاته وصفاته وأفعاله وآلائه بخلاف الجهال ككفار مكة والذين تجاهلوا ولم يخلص علومهم إلى قلوبهم وأنفسهم كأحبار اليهود والنصارى، قال الشيخ العارف الأجل شهاب الدين السهروردي في هذه الآية تعريض إلى أنه من لا خشية له فهو ليس بعالم.

قلتُ: فإن معرفة المخشي بعظمته وجلاله والعلم بصفات كماله يستلزم الخشية وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم، قال البغوي قال ابن عباس يريد إنما يخافني من خَلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني فكل من كان أعلم بالله وصفاته كان أخشى منه، روى الشيخان في الصحيحين عن عائشة قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية»[1] وروى الدارمي عن مكحول مرسلاً قال قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾»[2] وروى البخاري في الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً»[3] فكمال الخشية للأنبياء ثم للأولياء وهم علماء الحقيقة ثم الأمثل فالأمثل قال مسروق: كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً، قال الشعبي العالم من يخشى الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالة على أنه عزيز في ملكه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب من عصيانه.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٥.
(٢) أخرجه الترمذي في العلم باب ١٩.
(٣) أخرجه البخاري في الكسوف باب ٢، تفسير سورة ٥، باب ١٢، والنكاح باب ١٠٧، والرقاق باب ٢٧، والأيمان باب ٣، ومسلم في الصلاة حديث ١١٢، والكسوف حديث ١، والفضائل حديث ١٣٤.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي يداومون على قراءته وإتباع ما فيه حتى صارت عنواناً لهم والمراد بكتاب الله القرآن أو جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الأمم والقراء العلماء منهم بعد اقتصاص حال المكذبين ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أداموها مع رعاية حقوقها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ يعني كيف ما اتفق من غير قصد إليهما، وقيل السر في النافلة والعلانية في المفروضة ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ﴾ أي يرجون تحصيل الثواب بالطاعة ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أي لن تكسر ولن تهلك بالخسران صفة للتجارة ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ﴾ الله متعلق بمعنى لن تبور يعني يرجون تجارة نافعة ليوفيهم بإنفاقها ﴿أُجُورَهُمۡ﴾ أي أجور أعمالهم أو متعلق بفعل محذوف دل عليه ما عد من أعمالهم يعني فعلوا ذلك ليوفيهم أو بيرجون، واللام للعاقبة يعني يرجون تجارةً لن تبور حتَّى يُوَفِّيَهُمُ الله أُجُورَهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ على ما يقابل أعمالهم، أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «يُوَفِّيَهُمْ أجورهم يدخلهم الجنة وَيَزِيدَهُم من فَضلِه الشفاعة لمن وجب له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا» ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ هذه الجملة في مقام التعليل لما سبق ويرجون خبر إن وجاز أن يكون لهذا خبران بتقدير الرابط يعني أنه غفور لفرطاتهم شكور لطاعاتهم، قال ابن عباس يغفر العظيم من ذنوبهم ويشكر القليل من أعمالهم أي يجازيهم عليه وعلى هذا يرجون حال من فاعل أنفقوا، أخرج عبد الغني أن هذه الآية نزلت في حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني القرآن ومن للبيان أو الجنس أو للتبعيض ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ أي أحقه مصدقاً لما تقدمه من الكتُب السماوية حال مؤكدة لأن حقيقته تستلزم موافقته إياها في العقائد وأصول الأحكام والأخبار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ عالم بظواهر الأشياء وبواطنها فهو عالم بأنك حقيق لأن يوحى إليك هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ منك ذلك ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والإرث انتقال الشيء من أحد إلى غيره، وقيل معنى أورثنا أخرنا ومنه الميراث لأنه آخر من سالف، ومعنى الآية أخرنا القرآن من الأمم الماضية وأعطينا ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ﴾ من للتبعيض متعلق باصطفينا أو بيان للموصول ظرف مستقر حال من الضمير المنصوب المحذوف الراجع إلى الموصول يعني الذين اصطفيناهم من عبادنا وإضافة العباد إلى نفسه للتشريف والمراد بالموصول علماء أمة محمد ﷺ من الصحابة ومن بعدهم أو الأمة بأسرها كذا قال ابن عباس، فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس وخصهم بكرامة الانتماء إلى سيد الأنبياء[1]:

طوبى لنا معشر الإسلام إن لنا ... من العناية ركناً غير منهدم

لمَّا دعا الله داعينا لطاعته ... بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

وقيل الجملة معطوفة على إن الذين يتلون والذي أوحينا اعتراض وعندي أن الجملة معطوفة على مضمون والذي أوحينا إليك وهو الحق يعني أنزلنا إليك الكتاب الحق ثم أورثناه منك الذين أصطفيناهم من عبادنا ﴿فَمِنْهُمْ﴾ من هو ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ مقصر في العمل قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا[2] يَتُوبُ عَلَيْهِمْۗ﴾ [التوبة: ١٠٦] وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] ﴿فَمِنْهُم﴾ من هو ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ يعمل على ظاهر الكتاب ولا يفوز إلى حقيقته قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢] ﴿وَمِنْهُمْ﴾ من هو ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي بإرادته فائز إلى حقائق القرآن قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ[3] وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال الله

---

(١) البيتان من البسيط، وهما للبوصيري في ديوانه، وفيه «بُشرى لنا»، بدل: «طوبى لنا»، ومطلع القصيدة:

أمن تذكّر جيرانٍ بذي سلم ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدمِ

(٢) وفي الأصل: إما أن يعذبهم وإمّا أن يتوب عليهم.

(٣) وعن صهيب سمعته يقول في المهاجرين هم السابقون الشافعون المدلون على ربهم والذي نفس محمد =

تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١١] والصنفان الأولان هم أصحاب الميمنة، وقيل المقتصد من يعمل بالقرآن في غالب الأوقات والسابق من ضم إلى العمل التعليم والإرشاد.

روى البغوي بسنده عن أبي عثمان النهدي قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذا فقال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له»[(١)] قال أبو قلابة (من رواة الحديث): فحدثتُ به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه، ورواه البغوي أيضاً مرفوعاً، وأخرجه سعيد بن منصور والبيهقي موقوفاً على عمر. وروى البغوي بسنده عن أبي ثابت أن رجلاً دخل المسجد فقال: اللّهم ارحم غربتي وآنس وحشتي وسُق إليّ جليساً صالحاً، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بك منك سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية فقال «أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم ثم يدخله الجنة ثم قرأ هذه الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]»[(٢)] ورواه أحمد وابن جرير والطبراني والحاكم والبيهقي وفيه «فأما الذين ظلموا فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته لهم الذين يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكورٌ»[(٣)]، قال البيهقي له طرق عن أبي الدرداء قال وإذا كثرت طرق الحديث ظهر أن للحديث أصلاً، قال البغوي وروي عن أسامة بن زيد في هذه الآية قال قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة» وكذا أخرج البيهقي عن أسامة وأخرج مثل ذلك عن كعب وعطاء أن الأصناف الثلاثة في الجنة، وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس في الآية قال هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزله فظالمهم مغفور له ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب، وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال:

= بيده انهم ليأتون يوم القيامة وعلى عواتقهم السلاح فيقرعون باب الجنة فيقول لهم الخزنة من أنتم فيقولون نحن المهاجرون فيقول لهم الخزنة هل حوسبتم فيجثون على ركبهم ويرفعون أيديهم إلى السماء فيقولون أي رب أبهذا نحاسب وقد خرجنا وتركنا الأهل والمال والولد ـ فيمثل لهم أجنحة من ذهب مجوصة بالزبرجد والياقوت فيطيرون فيدخلون الجنة فذلك قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إلى قوله لا يمسنا فيها لغوب ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم بمنازلهم في الجنة اعرف بمنازلهم في الدنيا وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه أفرغ بهذه الآية ثم قال ألا إن سابقنا أهل جهادنا الأوان مقتصدنا أهل حضرنا وظالمنا أهل بدونا ـ منه برّد الله مضجعه ـ.

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٦٠٠، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٥٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٩٢٥، والبغوي في تفسيره ٥/ ٣٠٢.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٤٩١.

(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٦٠٠، وابن كثير في تفسيره ٦/ ٥٣٣، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٥١.

«هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة»[١] وأخرج الفريابي عن البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ الآية قال أشهد على الله أنه يدخلهم الجنة جميعاً.

وأخرج ابن أبي عاصم والأصبهاني عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميّز العلماء فيقول يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم إلا لعلمي بكم ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم انطلقوا قد غفرت لكم»[٢] وأخرج الطبراني بسند رجاله ثقات عن ثعلبة بن الحكم قال قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى للعلماء إذا قعد على كرسيه لفصل عباده: «إني لم أجعل علمي وحكمي إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»[٣] وأخرج ابن عساكر عن أبي عمر الصنعاني (اسمه حفص بن ميسرة) قال: إذا كان يوم القيامة عزلت العلماء فإذا فرغ الله تعالى من الحساب قال لم أجعل حكمتي فيكم إلا بخير أريدكم، أريدكم ادخلوا الجنة بما منكم، وقال عقبة بن صهبان سألتُ عن عائشة عن قوله تعالى: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] فقالت يا بني كلهم في الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وأما المقتصد فمن اتبع أثره حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم فجعلت نفسها معنا، قلتُ: ويمكن حمل هذه الأصناف الثلاثة على المصطفين الأخيار من هذه الأمة أي الأولياء فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وهو من يمنع نفسه عن حقوقه كما يمنعه عن حظوظه كأهل الرياضات والمجاهدات الشاقة رهبانية ابتدعوها وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ يمنع نفسه عن حظوظه ويعطيه حقوقه فيصوم ويفطر ويصلي ويرقد وينكح ويأكل ويشرب ما أبيح له على ما هو السنة هم الذين قالت عائشة فيهم من اتبع أثره حتى لحق به، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ (بالخيرات) المستغرق في كمالات النبوة وهم الصحابة رضي الله عنهم والصديقون كما قالت عائشة وزعمت عائشة نفسها من الظالمين هضماً وزعمت المخاطبين منهم لأجل رياضاتهم، وبالجملة فالأحاديث كلها تدل على أن الأصناف الثلاثة من المؤمنين أو من العلماء فمن قال أريد بالظالم الكافر أو المنافق فقوله مردود. سئل أبو يوسف عن هذه الآية فقال كلهم مؤمنون وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ وأما الطبقات الثلاث فمن الذين اصطفى من عباده لأنه قال فَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ والكل راجع إلى الذين اصطفى من عباده وهم أهل الإيمان وعليه الجمهور، وقدم الظالم في الذكر لكثرة الظالمين وقلة السابقين وتوسط المقتصدين أو لأن الظلم بمعنى الميل إلى الهوى مقتضى الجملة والاقتصاد والسبق عارضان لكن الاقتصاد متوسط بين المنزلتين ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوريث أو

---

(١) أخرجه الترمذي في حديث ٣٢٢٥، وأحمد في المسند ٣/٧٨.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٢٦، والسيوطي في الدر المنثور ١/٣٥٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٨٩٠٠.

(٣) أخرجه ابن كثير في تفسيره ٥/٢٦٧، والسيوطي في الدر المنثور ١/٣٥٠، والألباني في السلسلة الضعيفة ٨٦٧.

الاصطفاء ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو أو مبتدأ خبره محذوف تقديره لهم جنات عدن وقوله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ صفة لجنات أو جناتٌ مبتدأ ويدْخُلُونَهَا خبره قرأ أبو عمرو بضم الياء وفتح الخاء على البناء للمفعول من الإفعال، والباقون بفتح الياء وضم الخاء من المجرد والضمير المرفوع في يَدْخُلُونَهَا راجع إلى الأصناف الثلاثة لما مرَّ من الأحاديث ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ حال مقدرة من فاعل يدخلونها أو بدل اشتمال من يدخلون أو مستأنفة أو خبر بعد خبر لجنات عدن أو صفة بعد صفة له ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف على محل أساور ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ عطف على يحلون أو على جنات عدن أو حال من فاعل يحلون أو معترضة، عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ «تلا قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، الآية فقال «إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤ منها ليضيء ما بين المشرق والمغرب»[(١)] رواه الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي، قال القرطبي قال المفسرون ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[(٢)] متفق عليه، وعن حذيفة قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»[(٣)] متفق عليه، وعن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[(٤)] متفق عليه، وروى الطيالسي بسند صحيح وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري نحوه وفي آخره «وإن دخل الجنة لم يلبسه» وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن كعب قال: لو إن ثوباً من ثياب الجنة لبس اليوم في الدنيا لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ أي يقولون ذلك كما دل عليه ما تقدم من الأحاديث ودل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ ويقولون ذلك أيضاً عند البعث من القبور لحديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور كأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون الحمدُ لله الذي أذهب عنا الحزن»[(٥)] رواه الطبراني، قال ابن عباس حزن النار وقال قتادة حزن الموت، وقال مقاتل لأنهم كانوا لا يدرون ما يفعل بهم، وقال عكرمة

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنة باب ٢٣، وأحمد في المسند ٣/ ٧٥.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٤٠، والنسائي في الطهارة باب ١٠٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٢، ٣٧١.

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة باب ٢٩، والأشربة باب ٢٨، ومسلم في اللباس حديث ٤، ٥.

(٤) أخرجه البخاري في اللباس باب ٢٥، ومسلم في اللباس حديث ١١، ٢١.

(٥) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٨٢، ٣٣٣، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤١٦، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٨٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢٨، ١٧٦.

خوف الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات، وقال الكلبي ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة، وقال سعيد بن جبير هم الخبز في الدنيا وقيل هم المعاش والمعاد، والحق إن المراد به جنس الحزن مطلقاً ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للذين ظلموا على أنفسهم ﴿شَكُورٌ﴾ للمقتصدين والسابقين ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ مصدر ميمي أي دار الإقامة ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي من إنعامه وتفضّله إذ لا واجب عليه شيء، أخرج البيهقي في البعث وابن أبي حاتم من طريق نفيع بن الحارث عن عبد الله بن أبي أوفى قال قال رجل يا رسول الله إن النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا فهل في الجنة من نوم؟ قال: لا إن النوم شريك الموت وليس في الجنة موت، قال فما راحتهم؟ فأعظم ذلك ﷺ وقال ليس فيها لغوب كل أمرهم راحة فنزلت ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كلال وإعياء من التعب، ذكر الثاني التابع للأول للتصريح بنفيه ومزيد التأكيد وجملة لا يمسنا حال من مفعول أحلّنا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عطف على ثم أورثنا ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ أو يستريحوا منصوب بأن مقدرة في جواب النفي تقديره لا يكون عليهم قضاء بالموت فيموتوا، روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»(١) وأخرج الشيخان عن أبي سعيد نحوه وفيه «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح»(٢) الحديث ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ طرفة عين بل ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وكلما خبت زيدوا سعيراً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي جزاءً مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي كافر بالله تعالى فإنه أشد كفراً ممن كفر نعمة منعم غير الله تعالى، قرأ أبو عمرو يجزى بضم الياء المثناة من تحت وفتح الزاء ورفع كل على غير تسمية الفاعل والباقون بالنون وفتحها وكسر الزاء ونصب كُلَّ على المفعولية ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي في النار عطف على ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أو حال من الضمير المجرور في لهم يعني يستغيثون بشدة وعويل يفتعلون من الصراخ وهو الصياح استعمل في الاستغاثة لجهد المغيث صوته يا ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ من النار ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ﴾ بدل من صالحاً ﴿ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ جملة ربنا إلى آخره مقول ليقولون محذوف بيان ليصطرخون وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير صالح أو الاعتراف به والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبونه صالحاً والآن ظهر خلاف ذلك، يقول الله تعالى في جوابهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم نترككم في دار التكليف ولم

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٤٣، وأحمد في المسند ٢/ ١٢١.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٩، باب ١، ومسلم في الجنة حديث ٤٠.

نعمركم ما يتذكر أي عمراً يتذكر فيه من تذكر من المؤمنين.

قال البغوى قال قتادة وعطاء والكلبي يعنى ثماني عشرة سنة وقال الحسن أربعون سنة وقال ابن عباس ستون سنة ويروى ذلك عن علي وهو العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم لحديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنة»[1] رواه البخاري، وكذا أخرج البزار وأحمد وعبد بن حميد عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج الطبراني وابن جرير عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة قيل أين أبناء الستين وهو العمر الذي قال الله أَوَلَمْ نُعَمركم ما يتذكر فيه من تذكر»[2] قلتُ: الظاهر أن ما يتذكر فيه من تذكر متناول لكل عمر يمكن للمكلف التفكر والتذكر فيه، ولعل معنى الحديث سلب كل عذر لكل امرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنةً فإنه لم يبق من عمره الطبيعي الأكثري شيء لما رواه الترمذي عن أبي هريرة وأبو يعلى في مسنده عن أنس كلاهما عن النبيّ ﷺ قال: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك»[3] وإلا فبعد البلوغ ليس له عذر معقول في ترك الصلاة وغيرها من الفرائض لاسيما الإيمان بالله ولولا كان ما يتذكر متناولاً لكل عمر يمكن فيه التفكر لما كان هذا القول جواباً لكل كافر بل لمن أدرك ستين سنة فما زاد والله أعلم.

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ فما أجبتموه والنذير محمد ﷺ كذا أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي وابن أبي حاتم وابن جرير عن زيد وهو قول أكثر المفسرين، وقيل القرآن، والمراد من تفسيرهم أن النذير محمد ﷺ والقرآن لهذه الأمة وغيرهما من الأنبياء والكتب لغيرهم، وقيل العقل وهذا على رأي من قال إن مجرد العقل كاف لوجوب الإيمان بالله حتى يحكمون بكفر شاهق الجبل إذا بلغ عاقلاً ولم يبلغه دعوة نبي وهذه الجملة معطوفة على مضمون ما سبق يعني عمرناكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير وهذا العطف يقتضي أن النذير ليس المراد به العقل لأن العطف يقتضي المغايرة ولا مغايرة بين مجيء العقل وعمر يصلح للتفكر إلا في المفهوم فإن المعقل مأخوذ في ذلك العمر وعديم العقل لم يعمر ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّر، وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع المراد بالنذير الشيب أخرجه عن عكرمة عبد بن حميد وابن المنذر وأخرجه ابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس يقال الشيب بريد الموت، قال البغوي وفي الأثر ما من شعرة تبيضّ إلا قالت لأختها استعدي فقد قرب الموت، وقيل النذير موت الأقارب والأقران ﴿فذوقوا﴾ العذاب ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع عنهم العذاب.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٥.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢٧٠، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٥٤، وابن كثير في تفسيره ٦/ ٥٣٩.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٢٣، وابن ماجه في الزهد باب ٢٧.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه أحوالهم جملة مستأنفة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل له لأنه إذا كان عالماً بمضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلم بغيره.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً وعلى هذا خطاب لجميع الناس، وقيل معناه لجعلكم أمة خلفت من قبلها ورأت فيمن قبلها ما ينبغي أن يعتبر به، وقيل الخليفة بمعنى المستخلف يعني جعلكم خلفاء في أرض خليفة بعد خليفة وقد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وخلائف جمع خليفة والخلفاء جمع خليف ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم فعليه وبال كفره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي أشد غضباً وبغضاً ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ في الآخرة والتكرير للدلالة على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين مستقل باقتضاء قبحه ووجوب التجنب عنه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني الأصنام أضاف الشركاء إليهم لأنهم جعلوهم شركاء لله أو لأنفسهم فيما يملكونه ﴿أَرُونِى﴾ تأكيد أو بدل اشتمال من أرأيتم لأنه بمعنى أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟﴾ مفعول ثان لرأيتم محمول على شركائكم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي من أجزاء الأرض بيان لما كأنه قال أخبروني عن هؤلاء الشركاء أخبروني أي جزء من الأرض استبدوا بخلقه ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي شركة مع الله ﴿فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ فاستحقوا بذلك شركة في ألوهية ذاتية أم منقطعة بمعنى بل، والهمزة إضراب عن خلق بعض الأرض بالاستقلال واستفهام عن الشركة في السماوات ثم أضرب عنه واستفهم فقال ﴿أَمْ﴾ يعني بل ﴿ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ قال مقاتل أعطينا كفار مكة ﴿كِتَـٰبًا﴾ ينطق على ما اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمْ﴾ الفاء في جواب شرط محذوف تقديره إن كان الأمر كذلك فهم يعني كفار مكة كائنون ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة على التوحيد والباقون بينات على الجمع يعني على حجج واضحات ﴿مِّنْهُ﴾ أي من ذلك الكتاب ﴿بَلْ﴾ إضراب عن الترديد السابق وإثبات لما عدا ذلك كلها بقوله ﴿إِن يَعِدُ﴾ أي ما يعد ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ يعني ليس عندهم علم على شركهم وكتاب ليستدل عليه به بل ما يعد الأسلاف الأخلاف إلا غروراً باطلاً ما يغرُّهم إلا بلا سند يشهد عليه ﴿وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي لئلا تزولا أو كراهة أن تزولا أو يمنعهما أن تزولا فإن الممكن حال بقائه لا بد له من علة تحفظه كما لا بد له في إيجاده من علة ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ بمقتضاء إمكانها إن لم يوجد من الله سبحانه إفاضة الوجود اللام للقسم ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ يعني ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي من بعد الله أي سواه أو بعد الزوال وجملة إن الله يمسك إلى آخره سدَّ مسدَّ الجوابين يعني لم يخلق شيئاً أحد غيره وليس لأحد شركة معد من الأولى زائدة والثانية للابتداء ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فبحلمه أمهل الكفار ولم يستعجل في عقوبتهم وبغفرانه غفر المسلمين ولولا إمهاله وغفرانه لم يمسك

السماوات والأرض فيسقط السماء عليهم وينخسف بهم الأرض بذنوبهم.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه أن قريشاً كانت تقول لو أن الله بعث منا نبيّاً ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها ولا أسمع لنبيها ولا أشد تمسكاً بكتابها منا فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا[1] بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ منصوب على المصدرية من أقسموا لأن الأيمان بمعنى الإقسام يعني أقسموا أقساماً بليغة أو من المحذوف تقديره أقسموا بالله جهدوا جهد أيمانهم أو حال من فاعل أقسموا يعني جاهدين في أيمانهم على طريقة مررتُ به وحده، قال البغوي بلغ قريشاً قبل مبعث النبي ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم رسلهم فكذبوهم فأقسموا ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول من الله ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ﴾ جواب قسم في اللفظ وجواب شرط أيضاً في المعنى ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ السالفة يعني من كان من الأمم السالفة على هدى فنحن نكون أهدى منهم قالوا ذلك لما رأوا تكذيب اليهود والنصارى بعضهم بعضاً ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ من الله يعني محمداً ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي تباعداً من الحق وهذا إسناد مجازي ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن الإيمان بدل من نفوراً ومفعول له أو حال ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي العمل القبيح.

قال الكلبي: هو اجتماعهم على الشرك، قلتُ: هو إرادتهم بالنبي ﷺ أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، أصله وإن مكروا المكر السيىء فحذف الموصوف استغناء بوصفه ثم بدل أن مع الفعل بالمصدر ثم أضيف، قرأ حمزة السيىء ساكنة الهمزة في الوصل لتوالي الحركات تخفيفاً كما سكن أبو عمرو الهمزة في بارئكم وإذا وقف أبدلها ياءً ساكنة أيضاً وهي قراءة الأعمش والباقون بخفض الهمزة ويجوز رومها وإسكانها في الوقف ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي لا يحل ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ يعني بمن مكر وقد حاق بهم يوم بدر فقتلوا، قال ابن عباس لا يحيق عاقبة الشرك إلا بمن أشرك يعني وبال شركهم راجع إليهم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله فيهم يعني استئصالهم إن أصرو على الكفر ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ يعني سنة الله لا تتبدل ولا تتغير فلم يبق من أهل مكة إلا من آمن منهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يشاهدوا آثار الماضين ولم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ مجزوم عطفاً على يسيروا أو منصوب بتقدير أن بعد النفي ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني قد شاهدوا في مسيرهم إلى الشام واليمن والعراق آثار الماضين ﴿وَكَانُوا﴾ حال بتقدير قد يعني والحال أنه قد كان الذين قبلهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي من أهل مكة ﴿قُوَّةً﴾ ومع ذلك قد أهلكوا ولم يغني عنهم قولهم شيئاً فما لهم أي لأهل مكة لا يعتبرون بهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ أي ليسبقه ويفوته ﴿مِن شَيْءٍ﴾

(١) وفي الأصل: (أقسموا) بغير واو.

من زائدة وشيء في محل الرفع فاعل ليعجزه ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ظرف مستقر صفة لشيء أو ظرف لغو متعلق بيعجزه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلها وبما يستحقها ﴿قَدِيرًا﴾ على كل شيء بما يشاء.

ولمَّا سبق من أن كفرهم يقتضي استئصالهم كما هو سنة الله في الذين من قبلهم وقد كانوا أشدَّ منهم قوةً ذكر سبب إمهالهم فقال ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ في الدنيا عاجلاً ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ نسمة تدب عليها بشؤم معاصيهم أو من دابة عاصية وهو الأظهر لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يؤخر مؤاخذتهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو ما بعد الموت أو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس يريد به جميع العباد أهل طاعته وأهل معصيته ﴿بَصِيرًۢا﴾ فيجازيهم على حسب أعمالهم.

تم تفسير سورة الملائكة من تفسير المظهري، (ويتلوها سورة يس إن شاء الله تعالى) وصلَّى الله على خير خلقه محمّد وآله وأصحابه أجمعين حادي عشر شهر صفر من السنة السابعة بعد ألف ومائتين

/سنة ١٢٠٧هـ/

من الهجرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يس

آياتها ثلاث وثمانون وهي مكيّة

سورة يس وتسمى معمة أخرج ابن مردويه والخطيب والبيهقي عن أبي بكر[١] الصديق عن النبيّ ﷺ أنَّه قال: «يس تدعى معمة تعم صاحبها خير الدارين»[٢] وتسمَّى الدافعة لأنها تدفع عن صاحبها كل سوء وتسمَّى القاضية لأنها تقضي كل حاجة مكية وهي ثلاث وثمانون آية.

﴿يسٓ (١) وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٤) تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ (٦) لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ
(٧) إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ (٨) وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ
خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ (٩) وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا
تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ
ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ (١٢) وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ
ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ (١٣) إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ
(١٤) قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ (١٥) قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ
إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (١٧) قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ
وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ (١٨) قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ (١٩)﴾

﴿يسٓ (١)﴾ أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يقرأ في

---

(١) وفي رواية عن أبي بكر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة يٰس تدعى في التوراة المعمة تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة وتكاثر عنه بلوة الدنيا والآخرة وتدفع عنها أطاويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كل حاجة من قرأها عدلت عشرين حجة ومن سمعها عدلت ألف دينار في سبيل الله ومن كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف بر وألف رحمة ونزعت عنه كل غل وداء. وعن أبي بكر الصديق قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من زار قبر والديه أو أحدهما في كل جمعة فقرأ عندهما يٰس غفر الله تعالى له بعدد كل حرف منها ـ ١٢ ـ منه نوّر الله تربته.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

المسجد فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه فإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم عمي لا يبصرون فجاؤوا إلى النبيّ ﷺ فقالوا ننشدك بالله والرحم يا محمد، ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة فدعا النبيّ ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت يس إلى قوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلم يؤمن من ذلك النفر أحد، قرأ حمزة وأبو بكر[1] بإمالة فتح الياء والباقون بإخلاصها وورش[2] وأبو بكر وابن عامر والكسائي يدغمون نون الهجاء في الواو ويبقون الغنة وكذلك في ن ق القلم غير أن عامة أهل الأداء من البصريين يأخذون في مذهب ورش هناك بالبيان والباقون بإظهار النون في السورتين. ويس كسائر المقطعات في المعنى والإعراب وقيل معناه يا إنسان بلغة طي يعني به محمداً ﷺ على أن أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره لكثرة النداء كما قيل من الله في أيمن الله كذا روي عن ابن عباس وهو قول الحسن وسعيد بن جبير وجماعة، وقال أبو العالية يا رجل وقال أبو بكر الوراق يا سيد البشر وروي عن ابن عباس أنه قسم ﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ أي المحكم بعجيب النظم وبديع المعاني الواو للقسم أو العطف إن جعل يس مقسماً به ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ جواب قسم. فإن قيل الغرض من الإخبار إما إفادة الحكم للمخاطب أو إفادة لازم الحكم يعني إفادة أن المتكلم عالم به وهاهنا لا يتصور شيء منهما فأيُّ فائدة في الإخبار؟ قلنا الغرض هاهنا إعلام الكفار ورد إنكارهم وإصرارهم حيث قالوا (لَسْتَ مُرْسَلاً) ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ متعلق بالمرسلين أي لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم وهو التوحيد والاستقامة في الأمور، أو ظرف مستقر خبر ثان لأن أو حال من المستكن في الجار والمجرور وفائدته المدح ووصف الشرع بالاستقامة صريحاً وإن دلّ عليه ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ التزاماً.

﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥﴾ قرأ حفص وابن عامر وحمزة والكسائي بنصب تنزيل بإضمار أعني بيان للصراط أو بإضمار فعله تقديره نَزَّلَ يعني القرآن تَنْزِيلَ العَزِيزِ في ملكه الرَّحِيم بخلقه حيث نزل الكتاب وأرسل الرسول فحذف الفعل وأضيف المصدر إلى الفاعل وقرأ البَاقون بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي القرآن ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلق بتنزيل أو بمعنى قوله لَمِنَ المرسلين ﴿مَّا أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ما نافية والجملة صفة لقوم أي لتنذر قوماً لم ينذر آباؤهم حيث لم يبعث بمكة نبي بعد إسماعيل عليه السلام فهم أشد إحتياجاً إلى الرسالة من غيرهم ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي لم ينذروا فبقوا غافلين، وقيل ما موصولة أو موصوفة والمعنى لِتُنْذِرَ قَوْماً بالذي أو بشيء أنذِرَ به أباؤُهُمُ الأبعدون فيكون مفعولاً ثانياً لتنذر أو مصدرية يعني لِتُنْذرَ قوماً إنذار آبائهم أي مثل إنذارهم وعلى هذه الوجوه قوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ متعلق بقوله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنفال: ١٠] أي أرسلناك إليهم لتنذرهم فإنهم

---

(١) والكسائي وخلف وروح ـ أبو محمد ـ.

(٢) ويعقوب وخلف ـ أبو محمد ـ.

غافلون ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ﴿فَهُمْ﴾ أي ذلك الآكثر ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال أبو جهل لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن فنزلت ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فكانوا يقولون هذا محمد فيقول أين هو أين هو لا يبصره، وقال البغوي نزلت في أبي جهل وصاحبه المخزوميين وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمداً يصلّي ليرضخن رأسه فرآه وهو يصلّي ومعه حجر ليدمغه فلمّا رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده، فلمّا عاد إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط قال رجل من بني مخزوم أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلّي ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له ما صنعت؟ فقال ما رأيتُهُ ولقد سمعتُ صوته وحال بيني وبينه شيء كهيئة الفحل(١) يخطر بذنبه ولو دنوتُ منه لأكلني فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي الأغلال وأصله إلى أذقانهم فلا يخليهم يطأطئون، وقال البغوي هي كناية عن الأيدي وإن لم يجر لها ذكر لأن الغل بجمع اليد إلى العنق معناه إنَّا جعلنا في أيديهم وأعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ الفاء للسببية فإن الأغلال سبب للإقحام يعني هم رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم لا يستطيعون النظر إلى شيء، وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق السدّي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن ناساً من بني مخزوم تواصوا بالنبي ﷺ ليقتلوه منهم أبو جهل والوليد بن المغيرة فبينا النبيّ ﷺ قائم يصلّي يسمعون قراءته أرسلوا إليه الوليد ليقتله فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلّي فيه فجعل يسمع قراءته ولا يراه فانصرف إليهم فأعلمهم فأتوه فلما انتهوا إلى المكان الذي هو يصلي فيه سمعوا قراءته فيذهبون إلى الصوت فإذا الصوت من خلفهم فيذهبون إليه فيسمعونه أيضاً من خلفهم فانصرفوا ولم يجدوا إليه سبيلا فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص(٢) بفتح السين والباقون بفتحها وهما لغتان ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي فأعميناهم من التغشية وهي التغطية ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الفاء للسببية، قال أهل المعاني هذا على طريق التمثيل ولم يكن هناك غلٌّ ولا سدٌّ، أراد الله سبحانه أنا منعناهم عن الإيمان بموانع فجعل الأغلال والسد مثلاً لذلك فهو تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا يغني عنهم الآيات والنذر مثلهم بالذين غلّت أعناقهم فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وبالذين جعل بينهم السد وبين ما يريدون رؤيته في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له ولو طأطؤوا رؤوسهم فرضاً يمنعهم السد عن الإبصار فهم لا يبصرون سبيل الهدى أراد أنا منعناهم عن إيذاء

---

(١) الذكر من كل حيوان.

(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

الرسول بحفظنا إياه، وجاز أن يكون جعلنا بمعنى نجعل أورد صيغة الماضي لتحقق الوقوع يعني نجعل في جهنم في أعناقهم أغلالاً ونجعل بين أيديهم سداً وذلك بجعلهم الله تعالى في توابيت من نار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] سبق تفسيره في سورة البقرة.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنذاراً تترتب عليه الفائدة ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ أي خاف عقابه أو المعنى إنما ينفع إنذارك لمن كان صالحاً لاتباع الذكر والخشية مستعداً لذلك لم يقل وخشي القهار المنتقم للدلالة على أن الخشية مع ملاحظة صفة الرحمة كمال الخشية وعين الإيمان وأن الإيمان بين الخوف والرجاء ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حال من فاعل خشي يعني غائباً عن عذابه قبل أن يعاينه أو غائباً عن الناس في خلوته ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ حسن وهو الجنة ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ عند البعث أو المراد إنا نعطي العلم والهداية بعد الجهل والضلال ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ الحسنة كعلم علموه وحبس وقفوه وسنة حسنة سنوه والسيئة كإشاعة باطل وتأسيس ظلم وتأييد كفر وبدعة ابتدعوها، قال النبيّ ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة يعمل بها من بعده فله أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة يعمل بها من بعده فإن له وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[١] رواه مسلم عن حديث جرير، وقال قوم معنى آثارهم في قوله نكتب ما قدموا وآثارهم خطوهم إلى المساجد، عن أبي موسى الأشعري قال قال: رسول الله ﷺ «أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى والذي ينتظر الصلوات حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام»[٢] متفق عليه، وعن جابر رضي الله عنه قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال لهم: «إنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟» قالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم»[٣] رواه مسلم، وروى البغوي عن أنس نحوه وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري نحوه ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ يعني كتبناه ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾ أي مثل لكفار مكة من قولهم هذه الأشياء على ضرب واحد أي مثال واحد وهو يتعدى إلى مفعولين لتضمنه معنى الجعل كأنه قيل واجعل لهم ﴿مَّثَلًا﴾ مفعول

---

(١) أخرجه مسلم في العلم حديث ١٥، والزكاة حديث ٦٩، والنسائي في الزكاة باب ٦٤، وأحمد في المسند ٤/٣٥٧، ٣٦٠، ٣٦١.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في الأذان باب ٣١، وأبو داود في الصلاة باب ٤٨، وابن ماجه في المساجد باب ١٥.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٢٨٠.

أول ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مفعول ثان بحذف المضاف تقديره اجعل مثلهم أصحاب القرية وهي أنطاكية أخرجه الفريابي عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن بريدة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة يعني قل حال أهل مكة مثل حال أهل أنطاكية ﴿إِذْ جَآءَهَا﴾ أي تلك القرية بدل اشتمال من أصحاب القرية ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يعني رسل عيسى عليه السلام، قال البغوي قال العلماء بأخبار القدماء بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية فلما قربا من المدينة فأتيا شيخاً يرعى غنمات له وهو حبيب صاحب عيسى عليه السلام فلمّا سلما عليه قال الشيخ لهما من أنتما؟ فقالا رسول الله يدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادة الرحمن، فقال معكما آيةٌ قال نعم نشفي المريض ونُبرِىء الأكمه والأبرص بإذن الله، فقال الشيخ إن لي ابناً مريضاً منذ سنتين قالا فانطلق بنا نطلع حاله، فأتى بهما إلى منزله فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً ففشا الخبر في المدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى وكان لهم ملك، قال وهب اسمه انطفس وكان من ملوك الروم يعبد الأصنام قالوا فانتهى الخبر إليه فدعاهما فقال من أنتما؟ قالا رسولا عيسى، قال وفيم جئتما؟ قالا ندعوك من عبادة من لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر، قال ولكما إله دون آلهتنا، قالا نعم من أوجدك وآلهتك قال قُوما حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما في السوق.

قال وهبٌ: بعث عيسى هذين الرجلين إلى أنطاكية فأتياها فلم يصلا إلى ملكها وطال مدة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبر أو ذكر الله فغضب الملك فأمر بهما فحبسهما وجلد كل واحد منهما مائتي جلدة، قالوا فلمَّا كُذّب الرسولان وضُرِبا بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفا على أثرهما لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضي عشرته وأنس به وأكرمه، ثم قال له ذات يوم أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل كلمتَهما وسمعتَ قولهما، فقال الملك حال الغضب بيني وبين ذلك، قال فإن رأى الملك، دعاهما حتى نطلع ما عندهما فدعاهما الملك فقال لهما شمعون من أرسلكما إلى هاهنا؟ قالا الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال لهما شمعون صفاه وأوجزا، فقالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال شمعون وما آيتكما؟ قالا ما تتمنَّاه فأمر الملك حتى جيء بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة فما زال يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجب الملك فقال شمعون للمَلِك إن أنت سألت إلهك حتى يصنع صنعاً مثل هذا فيكون لك الشرف فقال الملك ليس لي عنك من سر أن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون إذا دخل الملك على الأصنام يدخل ويصلي كثيراً ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم فقال الملك للرسولين إن قدر إلهكم الذي تعبدانه على إحياء ميت آمنا به قالا إلهنا قادر على كل شيء، فقال الملك إن هاهنا ميتاً مات منذ سبعة أيام ابن

لدهقان وأنا أخرتُه فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً فجاؤوا بالميت وقد تغير وأروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو ربه سراً فقام الميت وقال إني قدمتُ منذ سبعة أيام ووجدت مشركاً فأدخلتُ في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم مما أنتم فيه فآمنوا بالله، ثم قال فتحت أبواب السماء فنظرت فرأيتُ شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن الثلاثة؟ قال شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه فتعجب الملك فلمَّا علم شمعون أن قوله أثر بالملك أخبره بالحال فآمن الملك وآمن قوم وكفر آخرون، وقيل: إن ابنة الملك كانت توفيت ودفنت فقال شمعون للملك اطلب هذين الرجلين أن يحييا ابنتك فطلب منهما الملك ذلك فقاما وصليا ودعوا وشمعون معهما قرأ بسر فأحيا الله المرأة وانشق القبر عنها فخرجت وقالت أعلموا أنهما صادقان ولا أظنكم تسلمون ثم طلبت من الرسولين أن يرداها إلى مكانها فذرا تراباً على رأسها وعادت إلى قبرها كما كانت.

وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين فذلك قوله عزّ وجلَّ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾ بدل من إذ السابقة ﴿ ٱثْنَيْنِ﴾ قال وهب اسمهما يحيى ويونس ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾ قرأ أبو بكر بالتخفيف، والباقون بالتشديد ومعناهما واحد أي فقوينا ﴿بِثَالِثٍ﴾ أي برسول ثالث وهو شمعون كذا أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير ترك ذكر المفعول به لأن المقصود ذكر المعزز به وما لطف فيه من التدبير حتى عز الحق وزهق الباطل وإذا كان الكلام لغرض يجعل سياقه له ويرفض ما سواه، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال بلغني أن عيسى بعث إلى أهل القرية رجلين من الحواريين، وقال كعب الرسولان صادق وصدوق والثالث شاوم وإنما أضاف الله الإرسال إلى نفسه لأن عيسى بعثهم بأمره عزَّ وجلَّ ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ كلهم لأهل أنطاكية ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ قَالُوا۟﴾ أي أهل انطاكية ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مزية لكم علينا يقتضي اختصاصكم بالرسالة من الله ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ من وحي ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعوى الرسالة ﴿قَالُوا۟﴾ أي الرسل ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ استشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم ولذلك من قال الله يعلم أني فعلتُ كذا وهو كاذب كان غموساً وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم دون الأول ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ الظاهر البين بالآيات الشاهدة لصحته كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى يعنون أن إنكاركم لا يضرنا بعدما كان علينا من أداء التبليغ وإنما هو يعود عليكم بالمضرة.

ولمَّا حبس الله عنهم المطر بتكذيبهم الرسل ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ يعنون أن ما نزل بنا إنما هو بشؤمكم وذلك لاستغرابهم ما ادعوه واستقباحهم له وتنفرهم عنه فإن عادة الجهال أن يتمنوا كل شيء مالت إليه طباعهم ويتشاءموا ما كرهوه ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟﴾ عما تقولون ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة ونقتلنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم﴾ أي سبب

شؤمكم ﴿مَعَكُمْ﴾ وهو كفركم، وقال ابن عباس حظكم من الخير والشر معكم لا ينفك عنكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ وعظتم به وجواب الشرط محذوف والاستفهام للإنكار يعني أئن وعظتم تطيرتم بنا وتوعدتمونا بالرجم لا ينبغي ذلك بل كان ينبغي الاتعاظ والامتنان، قرأ أبو جعفر بفتح الهمزة الثانية وذُكرتم بالتخفيف تقديره اتطيرتم وتوعدتم لأن ذكرتم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي قوم عادتكم الإسراف في العصيان ومنها التشاؤم برسل الله والواجب التبرك بهم.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا
وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ
ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ
ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى
مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ
إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ
لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا
فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ
أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ
لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ
يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ
فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ
يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ وهو حبيب النجار أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة وقال السديُّ كان قصاراً وقال وهب كان حبيب رجلاً يعمل الحرير وكان سقيماً وقد أسرع فيه الجذام وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة وكان مؤمناً ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمسى فقسم نصفين فيطعم نصفاً على عياله ويتصدق نصفه فلمَّا بلغه أن قومه قصدوا قتل الرسل جاءهم و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبلغ الرسالة الجملة تأكيد للأول أو بدل يشتمل فائدة زائدة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدارين.

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ما استفهامية مبتدأ والظرف خبر له ولا أعبد حال من ضمير المتكلم والجملة معطوفة على قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم وفيه تلطف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح

حيث أراد لهم ما أراد لنفسه والمراد تقريعهم على تركهم عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ولذلك قال ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغةً في التهديد ثم عاد إلى السياق الأول فقال ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ الآية وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال كان حبيب في الغار يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم يعني قومه فأظهر دينه وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ فلما قال ذلك قالوا له وأنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي خلقني ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب[1] ما لي بسكون الياء والباقون بفتحها، قيل أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع إليهم لأن الفطرة أثر النعمة وكان عليه إظهاره وفي الرجوع معنى الزجر فكان أليق بهم، قيل إنه لمَّا قال اتَّبعُوا المرسلين أخذوه فرفعوه إلى الملك فقال له الملك أفأنت تتبعهم فقال وما لي لا أعبد الذي فطرني يعني أي شيء لي إذا لم أعبد خالقي ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عند البعث فيجازيكم أتخذ استفهام إنكار أي لا أتخذ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي دون الذي فطرني ﴿ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي﴾ أي لا تنفعني ﴿شَفَٰعَتُهُمۡ﴾ التي تزعمونها ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الإغناء ﴿ يُنقِذُونِ﴾ قرأ ورش[2] بإثبات الياء في الوصل والباقون بالحذف في الحالين أي لا ينقذوني من عذاب الله إن عذبني وفي نفي الإغناء عن الشفاعة في دفع الضرر والإنقاذ من العذاب مبالغة في نفي النفع عن شفاعتهم مطلقاً فإن قبول الشفاعة لدفع الضرّ أقرب من قبولها لنيل الرحمة والجملة الشرطية صفة لآلهة ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو[3] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِذٗا﴾ أي إذا اتخذ ما لا ينفع ولا يضر بوجه ما آلهة من دون من فطرني وهو يقدر على النفع والضر ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا يخفى على من له أدنى تميز كونه ضلالاً، والجملة تعليل للإنكار على اتخاذ الآلهة ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير[4] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ الذي خلقكم أيها القوم أو أيها الملك ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي فاسمعوا إيماني فعلى هذا هذه الآية من تتمة النصح فإن القوم إذا قيل لهم اتَّبِعُوا المرسلين كأنَّهُمْ قالوا هل آمنت أنت بهم فقال إني آمنتُ بربّكُمْ فاسمعوا إيماني ولو لم يكن هذا خيراً ما استأثرتُ به لنفسه وأضاف الرب إلى المخاطبين ولم يقل آمنت بربي ليكون أدعى لهم إلى الإيمان.

قال البغوي: فلمَّا قال ذلك وثب القوم وثبة رجل واحد فقتلوه[5] قال ابن مسعود وطؤوه بأرجلهم حتى خرج قصبة من دبره، وقال السديّ كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٢) ويعقوب في الحالين ـ أبو محمد ـ.
(٣) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٤) وأبو عمرو وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٥) روي أنه قدم عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ثم استأذن ليرجع إلى قومه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قاتلوك قال لو وجدوني نائماً ما أيقظوني فرجع إليهم فدعاهم إلى الإسلام فعصوه وأسمعوه من الأذى فلما طلع الفجر قام على غرفة فأذن بالصلاة وتشهد فرماه رجل من ثقيف بسهم فقتله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه قتله مثل عروة مثل صاحب يٰس دعا قومه إلى الله فقتلوه ـ ١٢ ـ منه نوّر الله ضريحه.

اللَّهم اهد قومي حتى قطعوه وقتلوه، وقال الحسن خرقوا خرقاً في حلقه فعلقوه من سور المدينة وقبره بأنطاكية فأدخله الله الجنة وهو حي فيها يرزق يعني حياة الشهداء، وقيل الخطاب للرسل فإنه لمَّا رأى أنه يقتل استشهد الرسل على ايمانه قبل أن يموت والتقدير فقال للرسل إني آمنت ﴿قِيلَ﴾ يعني قال الله تعالى لحبيب النجار رضي الله عنه لمَّا استشهد إكراماً وإذناً في دخول الجنة كسائر الشهداء ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقيل قال الله تعالى ذلك له قبل موته يعني ادخل قبرك الذي هو روضة من رياض الجنة وإنما لم يقل وقيل له لأن الغرض بيان المقول دون المقول له فإنه معلوم والكلام فيه والجملة مستأنفة في خير الجواب عن السؤال عن حاله عند لقاء ربه بعد تصلبه في نصر دينه والله أعلم.

ولما أفضى حبيب إلى الجنة ﴿قَالَ﴾ يا رب ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ما موصولة أو مصدرية والباء متعلق بيعلمون أي يعلمون بالذي غفر لي ربي به أو بغفران ربي إياي أو استفهامية والباء متعلق بغفر أي بأي شيء غفر لي يريد به الإيمان والمصابرة على إيذاء الكافرين، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم على اكتساب الإيمان والطاعة على دأب الصالحين في كظم الغيظ والترحم على الأعداء أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على حق.

قال البغوي فلما قتل حبيب غضب الله عليهم وعجل لهم النقمة فأمر جبرئيل فصاح بهم صيحةً واحدة فماتوا عن آخرهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي قوم حبيب ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من زائدة أي بعد إهلاكه ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأولى زائدة لتأكيد النفي والثانية للابتداء يعني ما أنزلنا لإهلاكهم جنداً من الملائكة كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقاره لإهلاكهم وإيماء بتعظيم الرسول عليه السلام ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ما نافية أي ما كان شأننا في إهلاك قوم إنزال جند فإن الأمر أيسر من ذلك وإنما أنزلنا الأجناد لنصرك بشارةً وإكراماً لك وتسكيناً لقلبك قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقيل ما موصولة معطوفة على جند يعني ما أنزلنا على قومه ما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة أو ريح أو أمطار شديدة ﴿إِن كَانَتْ﴾ أي ما كانت الأخذة أو العقوبة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بها جبرئيل، قرأ الجمهور بالنصب على أنه خبر كان وأبو جعفر بالرفع جعل الكون تامة بمعنى الوقوع، قال البغوي قال المفسرون أخذ جبرئيل بعضاً وأتى باب المدينة ثم صاح صيحةً واحدةً ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ أي ميتون، شبهوا بالنار لأن الحياة تتعلق بالحرارة الغريزية فإذا خمدت الحرارة الغريزية مات وجملة ما أنزلنا عطف على قوله ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ[1] يَسْعَىٰ﴾ وجملة ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ معترضة وجملة ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً﴾ تعليل والفاء للسببية يعني فاجئت الصيحة وقت خمودهم.

---

(١) وفي الأصل: من أقصا المدينة يسعى ـ ١٢ ـ.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ الظرف صفة للحسرة وجعلت الحسرة منادى تنبيهاً للمخاطبين على وجوب الحسرة عليهم وتنكيرها للتعظيم كأنَّه قيل يا حسرة أي حسرة تعالى فهذه من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها وهي ما دل عليه ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ استثناء مفرغ حال من الضمير المنصوب أو من رسول أو منهما والاستثناء يعني الشرط والجزاء يعني كلما يأتيهم رسول يستهزئون به، والجملة تعليل للحسرة فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء أن يتحسروا وأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين ويجوز أن يكون تحسراً من الله عليهم على سبيل الاستعارة لتعظيم جنايتهم على أنفسهم ويؤيده قراءة يا حسرتا، وقيل المنادى محذوف وحسرةً منصوب بفعل مقدر تقديره يا أيها المخاطبون تحسروا حسرةً على العباد، والحسرة شدة الحزن والندامة، قال البغوي فيه قولان أحدهما يقول الله يا حسرة وندامةً وكآبة على العباد يوم القيامة لما لم يؤمنوا بالرسل والآخر أنه من قول الهالكين، قال أبو العالية لما عاينوا العذاب قالوا يا حسرةً على العباد واللام في العباد للعهد والمراد بهم أهل أنطاكية أو كل من لم يؤمن بالرسل واستهزأ بهم فهو تعريض لأهل مكة ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ألم يعلموا وهو معلق عن قوله ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ لأن كم لا يعمل فيما قبلها وإن كانت خبرية لأن أصلها الاستفهام فهو يستدعي صدر الكلام والضمير في لم يروا لأهل مكة ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ بدل اشتمال من كم على المعنى أي ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم ألم يروا أنهم غير راجعين إليهم، ولمَّا كان في قوله ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ إيهاماً إلى أن الموتى لا يرجع أبداً ندفع ذلك الوهم قال ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾ يوم القيامة، قرأ عاصم وحمزة(١) لما بالتشديد هاهنا وفي الزخرف والطارق وأخفها ابن عامر إلا في الزخرف في رواية ابن ذكوان ووافق أبو جعفر في الطارق، والباقون بالتخفيف فمن قرأ بالتشديد فإن نافية ولمَّا بمعنى إلا ومن قرأ بالتخفيف فإن مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة وما مزيدة للتأكيد وجميعٌ فعيل بمعنى مفعول ولدينا ظرف له أو لمحضرون.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ قرأ نافع(٢) بالتشديد ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ بالمطر خبر للأرض والجملة خبر آية أو صفة للأرض إذ لم يرد بها معينة فهو كقوله ولقد أمر على اللئيم يسبني، والأرض مبتدأ خبرها آية أو خبر لكونها نكرة والآية مبتدأ والجملة معطوفة على قوله وإن كلٌّ لما، وجاز أن يكون أحييناها استئنافاً لبيان كونها آية ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾ جنس الحب كالحنطة والشعير ونحو ذلك ﴿فَمِنۡهُ﴾ أي من الحب ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ أي من

---

(١) وابن حجار ـ أبو محمد ـ.
(٢) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

أنواع النخيل والعنب ولذلك جمعهما دون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك وذكر النخيل دون التمر ليطابق الحب والأعناب لاختصاص النخيل بمزيد النفع وآثار الصنع ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي شيئاً من العيون فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه عند الأخفش من زائدة ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ متعلق بفجرنا ﴿مِن ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر ما ذكر وهو الجنات، وقيل الضمير لله على طريقة الالتفات والإضافة إليه لأن الثمر بخلقه، قرأ حمزة والكسائي[1] ثُمُرِهِ بضمتين وهو لغة فيه أو جمع ثمار ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر[2] عملت بغيرها ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ عطف على ثمره وما موصولة والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما وقيل ما نافية والمراد أن الثمر بخلق الله تعالى بفعلهم ويؤيد الأول قراءة الكوفيين بلا هاء فإن حذفه من الصلة أحسن عن غيرها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أينكرون إنعام الله فلا يشكرون وحيث كان إنكاراً على ترك فهو أمر بالشكر ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ أي الأنواع والأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ من النبات والشجر ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي الذكر والأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما خلق الله في البحر والبر ولم يطلع عليها أحداً.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ على قدرتنا ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي ننزع ونكشط وذلك أن الأصل هي الظلمة والنهار داخل عليها بطلوع الشمس فإذا غربت فكأنه سلخ النهار من الليل وظهرت الظلمة فانسلخ هاهنا مستعار من سلخ الجلد، والكلام في إعرابه مثل ما سبق في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ [يس: ٣٣] ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ عطف على نسلخ منه النهار فغاصوا وقت كونهم داخلين في الظلمة يعني يذهب بالنهار ويجيء بالليل ﴿وَالشَّمْسُ﴾ عطف على الليل ﴿تَجْرِي﴾ في فلكها مثل جري الحوت في الماء صفة للشمس بناء على تنكيره أو مبتدأ وخبر والجملة معترضة لبيان سبب وجود الليل والنهار ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ مصدر ميمي أو ظرف يعني تجري لاستقرار لها على نهج مخصوص أو لموضع استقرارها وهي منتهى دورها تشبهت بالمسافر إذا قطع مسيره أو مستقرها كبد السماء قبيل الزوال فإن حركتها توجد أبطأ بحيث يظن أن لها هُناك وقفة أو مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف ونهاية هبوطها في الشتاء، أو لمنتهى مقدر بكل يوم من المشارق والمغارب فإن لها في دورها ثلاث مائة وخمساً وستين مشرقاً ومغرباً تطلع كل يوم من مطلع وتغرب في مغرب ثم لا تعود إليهما إلى العام القابل أو لمنقطع جريها عند خراب الدنيا، وهذه التأويلات كلها مبنية على أنها في ظاهر الحال لا تستقر في وقت من الأوقات ويدل عليه قراءة ابن مسعود ما رواه البغوي عن عمر بن دينار عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿والشمس تجري لا مستقر لها﴾ لكن ورد في الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مستقرها تحت العرش»[3] رواه

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ. (٢) وخلف ـ أبو محممد ـ.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٣، ومسلم في الإيمان حديث ٢٥١.

البخاري في الصحيح، وروى البغوي عن أبي ذر عن النبيّ ﷺ أنه قال حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب هذه؟» قلتُ الله ورسوله أعلم، قال فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد ولا تقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها ويقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال: «مستقرها تحت العرش» متفق عليه.

ومعنى الحديث والله أعلم أن الشمس بعد غروبها قبل طلوعها تسجد تحت العرش فيؤذن لها في الطلوع من جانب المشرق فتطلع ويوشك أن لا يؤذن لها بالطلوع من المشرق بل يؤذن لها بالطلوع من المغرب فحينئذ تطلع من مغربها وهي آية من آيات الساعة، لا يقال إن مقدار الليل من وقت غروبها إلى طلوعها يتفاوت بتفاوت الأقاليم حتى أن تحت القطب الشمالي من وراء بلغار إذا كانت الشمس عند رأس السرطان يكون الليل بحيث لا يكون هناك وقت العشاء بل بعد غروب الشمس إذا غاب الشفق من جانب طلع الصبح من جانب فأيُّ وقت يتصور فيه الشمس ذاهبة تحت العرش ساجدة، قلتُ: ليس المراد أن الشمس تدوم ساجدة من وقت غروبها إلى وقت طلوعها فجاز أن يكون وقت من الأوقات يكون ظلمة الليل شاملة لجميع الأقاليم وذلك عند منصفها وحينئذ تذهب الملائكة الموكلون على الشمس بها إلى تحت العرش فتخر هناك ساجدةً ثم يؤذن لها بالطلوع واختلاف مقدار الليل باختلاف الأقاليم إنما يتعلق باختلاف مبدأ الليل ومنتهاه والله أعلم، والقول بأن الحديث من المتشابهات أو أن المراد بالسجود هو الانقياد أو نحو ذلك يأباه سياق الحديث ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري على هذا التقدير المتضمن للحكمة التي يكل الفطن عن إحصائها ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل معلوم.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ أي قدرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ أو قدرنا سيره في منازله قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والقمر بالرفع على أنه معطوف على الشمس يعني آية لهم الليل وآية لهم الشمس وآية لهم القمر والجملة الواقعة بعدها كالجملة الواقعة بعد الشمس وقرأ الباقون بالنصب بإضمار فعل فسره بقوله: ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل كل ليلة في واحدة منها لا يتخطئه ولا يتقاصر عنه فإذا كان في آخر منازله دقَّ واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ﴾ أي الشمراخ المعوج فعلون من الانعراج بمعنى الاعوجاج ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ العتيق قيل ما مر عليه حول فصاعداً ثم يكون القمر تحت شعاع الشمس في المحاق ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ أي يصح لها ويتيسر ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ قال البيضاوي أي في سرعة سيره وهذا مبني على ما قالت الفلاسفة إن القمر أسرع سيراً من الشمس فإن دورها يتم في شهر ودور الشمس يتم في سنة وعندي الأمر بالعكس كما سنبين إن شاء الله تعالى فالأولى أن لا يقيد السير بالسرعة بل يقال الشمس لا تدرك القمر في سيره المخصوص حتى يتحد سيرهما فإن ذلك يخل بتكون النباتات وتعيش الحيوانات أو في آثاره ومنافعه أو مكانه بالنزول إلى محله أو سلطانه فتطمس نوره، قلتُ: وجاز أن يكون المراد بالشمس النهار وبالقمر الليل وهذا

يستقيم المقابلة يعني لا ينبغي للنهار أن يدرك الليل أي يسبقها ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته كذا تستفاد من كلام البغوي ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض المضاف إليه أي كل واحد منهما، وقال البيضاوي تقديره كلهم والضمير للشموس والأقمار فإن اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما في الذات ولو بالاعتبار أو إلى الكواكب فإن ذكرهما مشعر بها ﴿فِي فَلَكٍ﴾ واحد من الأفلاك وهي السماء الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ كما يسبح السمك في الماء.

وهذا صريح في أن الشمس والقمر والكواكب سائرة في الفلك بقسر قاسر من الملائكة أو بالإرادة لا أنها مرتكزة في السماء كالمسامير لا تتحرك إلا بتحرك السماء حركة وضعية كما يقول به الفلاسفة بناءً على أن السباحة تستلزم الخرق والالتئام وزعموا أنه محال، فاستدلوا بتعدد الحركات للكواكب على تعدد السماوات على حسب تعدد الحركات فقالوا السماوات تسعة كلها منطبقة بعضها على بعض مثل قشور البصل وقالوا السماء التاسع الذي هو حاد للجميع يتحرك من المشرق إلى المغرب على منطقة وقطبين بحيث يتم دائرة سيره في كل يوم وليلة مرةً تقريباً وسائر. . . . . السماوات تسير بسيره قسراً ولكل منها حركة بالطبع من المغرب إلى المشرق على منطقة أخرى وقطبين آخرين ويحصل التقاطع بين الأقطاب الأربعة قطبي فلك الثوابت وقطبي فلك الأفلاك والشمس يلازم لمنطقة فلك الثوابت وينقسم منطقة فلك الثوابت إلى اثني عشر حصة يسمون كل حصة منها برجاً ويسمون ذلك الفلك فلك البروج، قالوا ذلك لمَّا رأوا أن الكوكب لا يتم دائرة سيرها في يوم وليلة، ولما رأوا أن الكواكب كلها غير السبعة التي يسمونها سيارات لا يختلف نسبة بعضها مع بعض قط وأن سيرها ينقص من الدائرة في اليوم والليلة قليلاً غاية القلة جداً حكموا بأن كلها مرتكزة في فلك واحد وهي السماء الثامنة فلك البروج وإن سيرها كان لا سير ولذا سموها ثوابت وفلكها فلك الثوابت، ولمَّا رأوا السبعة ينقص سيرها في اليوم والليلة من الدائرة نقصاناً ظاهراً بحيث يرون القمر يسير في ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين دائرة والشمس تسير في ثلاث مائة وخمس وستين يوماً ثلاث مائة وأربعاً وستين دائرة وهكذا أن أفلاكها سبعة كلها سائرة من المغرب إلى المشرق ولأجل ذلك يرى سيرها في اليوم والليلة ناقصة من الدائرة وكلما رأوا نقصان سيرها من الدائرة أزيد حكموا بكون سيرها أسرع فقالوا فلك القمر أسرع سيراً فإن سيرها إلى المشرق بقطع الدائرة في شهر وفلك الشمس يقطع في سنة ثلاث مائة وخمس وستين يوماً وهكذا حكموا في سائر السيارات، ولمَّا رأوا خمساً من الكواكب العطارد والزهرة والمشتري والمريخ والزحل تارةً سيرها أزيد من دائرة وتارةً أنقص من دائرة وتارةً سيرها دائرة تامة لا زائد ولا ناقص سموها خمسة متحيرة وأثبتوا لها تدويرات سير أعلاها يخالف سيراً أسفلها كل ذلك بُيِّنَ في علم الهيئة.

ولمَّا دلَّت النصوص القطعية على أن عدد السماوات سبع لا مزيد عليها بحيث يكفر جاحدها وعلى جواز الخرق والالتئام على الأفلاك بحيث يكفر جاحدها أيضاً بل على

وقوعها حيث قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] ونحو ذلك، ودلت الأحاديث الصحيحة على أن السماوات غير منطبقة بعضها على بعضها بل بين كل منها مسافة بعيدة بحيث يفسق جاحدها روى أحمد والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً حديثاً طويلاً وذكر رسول الله ﷺ «بعد ما بين الأرض والسَّماء وبين كل سماءين خمس مائة سنة»(١) وروى الترمذي وأبو داود عن العباس بن عبد المطلب مرفوعاً حديثاً طويلاً ذكر فيه رسول الله ﷺ «بعد ما بين الأرض والسماء وبين كل سماءين إما واحدة وإما اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة»(٢) ولعل اختلاف ذلك باعتبار اختلاف سير السائرين سرعة وبطئاً وجب القول ببطلان علم الهيئة وبأن من اعتقدها يخاف عليه الكفر بالكتاب والسنة وإذا ظهر جواز الخرق والالتئام في السماوات لا مانع من أن يقال إن الكواكب كلها في السماء الدنيا كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: ١٢] وإن كلاً منها في فلك يسبحون وأن سير أكثرها على مقدار واحد قريباً من الدائرة التامة وسير سبعة فيها على مقادير مختلفة على حسب ما يرى ولا مانع من القول بأن الخمسة تارة يسير زائداً وتارة ناقصاً على حسب إرادة الله تعالى وهي الخنس الجواري الكنس والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ أهل المدينة والشام ويعقوب ذُرِّيَّاتِهم بالجمع وكسر التاء والباقون ذُرِّيَّتَهُم على الإفراد بفتح التاء ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء، الظاهر أن المراد بالذرية أولادهم الذين يتبعونهم إلى تجاراتهم أو صبيانهم ونساؤهم الذين يستصحبونهم فإن الذرية يطلق عليهن لأنهن ترارعها، ورد في الحديث أنه ﷺ «رأى امرأة مقتولة فقال ما كانت هذه تقاتل الحق خالداً فقل له لا تقتل ذرية ولا عسيفاً(٣)»(٤) والمراد بالذرية في هذا الحديث النساء لأجل الامرأة المقتولة وفي حديث عمر «حجوا بالذرية لا تأكلوا أرزاقها وتذروا أرباقها(٥) في أعناقها» أي حجوا بالنساء كذا في النهاية، والمراد بالفلك السفائن الصغار والكبار وتخصيص الذرية بالذكر لأن استقرارهم في السفن أشق وتماسكهم فيها أعجب، وقال البغوي المراد به سفينة نوح عليه السلام والمراد بالذرية الآباء واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد، وقال البيضاوي وعلى تقدير أن يراد بالفلك سفينة نوح عليه السلام معنى الآية أن الله تعالى حمل آباءهم وحملهم وذريتهم في أصلابهم وتخصيص الذرية بالذكر لأنه أبلغ في الامتنان وأدخل في التعجب مع الإيجاز

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٨، والترمذي في تفسير سورة ٦٩، باب ١.
(٢) انظر الحاشية السابقة.
(٣) العسيف الأجير أو العبد.
(٤) أخرجه ابن ماجه في الجهاد باب ٣٠، وأحمد في المسند ٣/٤٨٨، ٤/١٧٨.
(٥) يعني مدن أريد فريضه حج كه مهل ارباقة بين قلادها كه ددكردن أنها ست يعني واجب ست ـ منه رحمه الله ـ.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي مثل الفلك مطلقاً أو مثل فلك نوح ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل فإنها سفائن البر أو من الفلك والسفن والرواق على هيئة سفينة نوح ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ مع اتخاذ السفائن ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ جزاء لشرط محذوف تقديره وإن نغرقهم فلا صريخ أي لا مغيث لهم يحرسهم عن الغرق أو فلا استغاثة كقولهم أتاهم الصريخ ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ عطف على لا صريخ لهم أي لا ينجون من الغرق، قال ابن عباس ولا أحد ينقذهم من عذابي ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا﴾ استثناء مفرغ منصوب على العلية لا ينقذون لشيء إلا لرحمة منا ولتمتيع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي زمان قُدِّر لآجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ
رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ
بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا
هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)
إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا
فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٩) ۞ أَلَمْ
أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ (٦٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ
(٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ
نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى
ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن
كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٠)﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال ابن عباس ما بين أيديكم يعني الآخرة فاعملوا لها وما خلفكم يعني الدنيا فاحذروها ولا تغتروا، وقيل ما بين أيديكم يعني وقائع الله فيما قبلكم من الأمم وما خلفكم عذاب الآخرة وهو قول قتادة، وقيل المراد به نوازل السماء ونوائب الأرض كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبا: ٩] وقيل المراد به عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقيل عكسه وقيل ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لتكونوا راجين رحمة الله وجواب إذا محذوف تقديره إذا قيل لهم اتقوا أعرضوا بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ من الأولى زائدة لتأكيد النفي والثانية للتبعيض ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ استثناء مفرغ

مثل قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١١] هذه الآية في مقام التعليل لما سبق يعني إذا قيل لهم اتقوا أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمرنوه والجملة الشرطية أعني قوله وإذا قيل لهم مع ما عطف عليه أعني وما تأتيهم من آية عطف على قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ [الحجر: ١١] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على الشرطية السابقة يعني كان المؤمنون يقولون لكفار مكة ﴿أَنفِقُوا۟﴾ على المساكين ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الأموال ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه وضع المظهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بكفرهم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ يعني أن الله لم يرزقهم مع قدرته عليه فنحن نوافق مشيئة الله فلا نطعمهم (قيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن وعبد بن حميد وابن المنذر عن إسماعيل بن خالد) وهذا قول باطل فإن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاءً فمنع الدنيا من الفقير لا بخلاً وأمر الغني بالإنفاق لا حاجةً إلى ما لهم ولكن ليبلو الغني بالفقير فيما فرض له في مال الغني ولا اعتراض لأحد على مشيئة الله وحكمه في خلقه ولا يدرك العقول كل حكمة في أفعاله ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله ويجوز أن يكون جواباً لهم من الله تعالى أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي القيامة والبعث عطف على الشرطية السابقة استفهام استبطاء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الإخبار بإتيانه جواب الشرط محذوف يعني فأنبئونا عن وقت إتيانه خطاب للرسول ﷺ وللمؤمنين ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ حال من فاعل يقولون يعني يقولون ذلك في حال ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ إستثناء مفرغ منصوب على المفعولية، قال ابن عباس يريد به النفخة الأولى فإن قيل إن الكفار لم يكونوا يعتقدون النفخة فكيف ينتظرونها؟ قلنا: هذه الآية كناية عن عدم تركهم المعاصي أبداً حتى يموتون أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون فإنهم لمّا لم ينتهوا عمّا نهوا عنه قبل ذلك فكأنّهم ينتظرون لأجل ترك المعاصي صيحة الصعق ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ صفة لصيحة واحدة والضمير راجع إلى الناس المفهوم مما سبق وكذا كل ضمير بعده ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ حال من الضمير المنصوب في تأخذهم أي يختصمون في أمور الدنيا من متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شيء من إتيانها، أصله يختصمون فسكنت التاء وأدغمت ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين على قراءة عاصم وابن ذكوان والكسائي(١)، وقرأ ابن كثير وورش وهشام(٢) ويعقوب بفتح الخاء بنقل حركة التاء إلى الخاء والإدغام وقرأ قالون وأبو عمرو باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد وقرأ قالون أيضاً وأبو جعفر بإسكان الخاء(٣) كأنهما جوّزا التقاء الساكنين إذا كان الثاني مدغماً(٤)، أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لتقومنّ الساعة وقد نشر

---

(١) ويعقوب وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٢) لا بل هو مع عاصم ومن معه ـ أبو محمد ـ.

(٣) مع تشديد الصاد ـ أبو محمد ـ.

(٤) قرأ حمزة بإسكان الخاء وتخفيف الصاد ـ أبو محمد ـ.

الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[١] وأخرج الفريابي عنه في هذه الآية قال تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون ويذرعون الثياب ويحلبون اللقاح وفي حوائجهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ عطف على تأخذهم ورابط الموصوف محذوف تقديره فلا يستطيعون بعدها والفاء للسببية ﴿تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الزبير بن العوام قال إن الساعة تقوم والرجل يذرع الثوب والرجل يحلب الناقة ثم قرأ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني لا يقدرون على أن يوصوا في شيء من أمورهم ولا أن يرجعوا إلىٰ أهلهم فيروا حالهم بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي ينفخ، ذكر صيغة الماضي لتيقن وقوعه عطف على مضمون فلا يَسْتَطِيعُونَ يعني يموتون من ساعتهم وينفخ في الصور مرةً ثانيةً وبين النفختين أربعون سنةً كذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون»، «قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيتُ قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون عاماً؟ قال أبيت»[٢] الحديث، وروى ابن أبي داود عن أبي هريرة حديثاً مرفوعاً وفيه بين النفختين أربعون عاماً ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي يخرجون والنسل في الأصل الانفصال عن الشيء يقال نسل الوبر من البعير ومنه يقال للولد النسل لانفصاله عن والده وقيل معناه يسرعون، في القاموس الماشي ينسِل بضم العين وكسره نسلاً ونسيلاً ونسلاناً يسرع. ﴿قَالُوا۟﴾ يعني يقول الكفار حين يبعثهم أورد لفظ الماضي لتيقن وقوعه ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ ينادون الويل يعني يا ويل احضر فإن هذا أوانك أو يقال إن المنادى محذوف تقديره لا يا أيها المخاطب ويلنا وهو مصدره لا فعل له من لفظه منصوب بفعل مقدر في معناه، قال في القاموس معناه حلول الشر، وقال بعض المحققين لم يرد في اللغة أن ويلاً وضع لهذا المعنى بل هو اسم لوادٍ في جهنم لما روى أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي وابن أبي الدنيا وهناد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ويل وادٍ في جهنم يهوي به الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره»[٣] وروى سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود قال الويل واد في جهنم يسيل من صديد أهل النار جعل للمكذبين، وأخرج ابن جرير عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ «الويل جبل في النار»[٤] وأخرج البزار بسند ضعيف عن سعد بن أبي وقاص قال قال رسول الله ﷺ: «إن في النار

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤٠، والفتن حديث ١٤٠، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦٩.

(٢) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي حديث ٣١٦٤، وأحمد في المسند ٣/ ٧٥.

(٤) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ٨٢.

حجراً يقال له ويل يصعد عليه العرفاء وينزلون»(١) ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۗ﴾ سكت حفص هاهنا سكتة لطيفة والوقف عليها عند غيره أحسن، قال ابن عباس وقتادة إنما يقولون هذا لأن الله يرفع العذاب عنهم بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بعد النفخة الآخرة عاينوا القيامة ودعوا بالويل، وقول ابن عباس هذا دفع لما قالت المعتزلة إن هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر فإنها تدل على أنهم كانوا كالنيام، وقال أهل المعاني إن الكفار إذا عاينوا جهنم بأنواع عذابها صارت عذاب القبر في جنبها كالنوم فقالوا: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ مبتدأ وخبر وما مصدرية بمعنى المفعول أو موصولة والرابط محذوف يعني هذا ما وعد به الرَّحمانُ وَصَدَقَ فيه المُرْسَلُونَ وجاز أن يكون صَدَقَ المرسلون جملة مستأنفة معطوفة على جملة فهذا إقرار منهم حين لا ينفعهم الإقرار، وقيل هذا قول الملائكة جواباً لهم، وقال مجاهد هذا قول المؤمنين في جوابهم وإنما عدل عن سن الجواب تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً بأن الذي يهمهم هو السؤال عن البعث دون الباعث كأنَّهم قالوا بعثكم الرحمن الذي وعدكم بالبعث وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم وليس الأمر كما تظنون أنه بعث النائم فيهكم السؤال عن الباعث بل هو البعث الأكبر ذو الأهوال، وجاز أن يكون هذا صفة لَمَرقَدِنَا ومَا وَعَدَ خبر محذوف أو مبتدأ خبره محذوف يعني ما وَعَدَ الرَّحْمَن حق وَصَدَقَ المرسَلُون وعلى هذا التأويل لا يلائم السكتة أو الوقف على مَرْقَدِنَا ﴿إِن كَانَتۡ﴾ أي ما كانت الفعلة في بعثهم ﴿إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخة الأخيرة ﴿فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٌ﴾ أي مجموعون ﴿لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ خبر بعد خبر وفي ذلك تهوين لأمر البعث والحشر واستغنائهما عن الأسباب التي ينوطان بها فيما يشاهدونه ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٌ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾ حكاية لما يقال لهم تصويراً للموعود وتمكيناً له في النفوس وكذا قوله.

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٍ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بسكون الغين والباقون بضمها وهما لغتان مثل السُّحُتِ وَالسُّحْتِ، واختلفوا في معنى الشغل قال ابن عباس في افتضاض الأبكار، وقال وكيع بن الجراح في السَّماع، وقال الكلبي في شغل عن أهل النار وعمَّا هم فيه لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم، وقال الحسن شغلوا بما في الجنة من النعيم عمَّا فيه أهل النار من العذاب، وقال ابن كيسان في زيارة بعضهم بعضاً وفي ضيافة الله تعالى، والأولى أن يقال في شغل ما يشتهون فالصوفية العلية الذين لا مقصود لهم إلا الله تعالى شغلهم الانهماك والاستغراق في التجليات الذاتية على حسب مدارجهم وغيرهم كان شغلهم بالسماع والرياح والأكل والشرب والجماع على حسب شهواتهم ورغباتهم، أخرج أبو نعيم عن شيخ طريقتنا أبي يزيد البسطامي أنه قال إن لله خواصاً من عباده لو حجبهم في

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٨٩، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٥٦٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥١٩، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٨٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٤٩٤٢.

الجنة عن رؤيته لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار، وفي تنكير شغل وإبهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ وتنبيه على أنه أعلى ممَّا يحيط به الأفهام ويعرب عن كنهه الكلام ﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبر بعد خبر لإن.

قرأ أبو جعفر فكهون بغير ألف حيث كان ووافق حفص في المطففين وفيه مبالغة والباقون بألف وهما لغتان مثل الحَاذِرِ والحَذِرِ يعني ناعمون متلذذون في النعمة من الفكاهة وقال مجاهد والضحاك معجبون بما هم فيه وعن ابن عباس قال هم فرحون ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي ظلل بغير ألف جمع ظلة والباقون ظلال بالألف وكسر الظاء جمع ظل وهو موضع الذي لا يقع عليه الشمس كشعاب أو ظلة وهو ما يترك عن الشمس كقباب ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يعني السرد في الحجال واحدتها أريكة قال البغوي قال ثعلب لا يكون أريكة حتى يكون عليها حجلة، وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال لا يكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان السرير بغير حجلة لا يكون أريكة، وإن كان حجلة بغير سرير لا يكون أريكة فإذا اجتمعا كانت أريكة وأخرج البيهقي عن مجاهد قال الأرائك من لؤلؤ وياقوت الجار والمجرور متعلق بقوله ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ هم مبتدأ خبره في ظلال وعلى الأرائك جملة مستأنفة أو خبر ثان أو الخبر متكئون والجاران صلة له أو هم تأكيد للضمير في شغل أو فاكهون وعلى الأرائك متكئون خبر آخر لإن، وأزواجهم عطف على هم للمشاركة في الأحكام أو في ظلال حال من المعطوف والمعطوف عليه.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي ما يطلبون لأنفسهم يقتنعون من الدعاء أو يتمنون من قولهم ادع على ما شئت بمعنى منّه علي أو ما يدعون في الدنيا من الجنة ودرجاتها، وما موصولة أو موصوفة مبتدأ وخبرها لهم ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدل منها ويجوز أن يكون خبراً لهم أو الخبر المحذوف أي هم سلامٌ أو مبتدأ محذوف الخبر أي لهم سلامٌ ﴿قَوْلًا﴾ يعني يقول الله قولاً أو يقال لهم قولاً كائناً ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ والمعنى أن الله يسلّم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك مطلوبهم ومقناهم ويحتمل نصبه على الاختصاص، أخرج ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني والآجري عن جابر قال قال النبيّ ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ فقال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحجب عنهم ويبقى نوره وبركته في ديارهم»(١) قال السيوطي إشرافه سبحانه وإطلاعه منزه عن المكان والحلول، قال البغوي يسلم عليهم الملائكة من ربهم وقال مقاتل يدخل الملائكة على الجنة من كل باب سلامٌ عليكمُ يا أهل الجنة من ربكم الرحيم يعطيهم السلامة أسلموا السلامة الأبدية.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ قال مقاتل والسديُّ والزجاج يعني اعتزلوا من الصالحين

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

يعني يُساق المؤمنون إلى الجنة والمجرمون إلى النار عطف على مضمون ما سبق، وقال الضحاك: إن لكل كافر في النار بيتاً يدخل ذلك البيت ويردم بابه بالنار فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن مسعود قال إذا ألقي في النار من هو مخلد فيها جُعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل الجحيم فما يرى أحدهم أنه يعذب غيره، وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن سويد بن عفلة نحوه ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ ألم آمركم على لسان المرسلين استفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات يعني قد عهدتُ إليكم والجملة في مقام التعليل لتميزهم من المؤمنين ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي لا تطيعوه في معصية الله أن مفسرة للعهد فإنه في معنى القول ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة تعليل للمنع عن طاعته فيما يحملهم عليه ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي﴾ عطف على ولا تعبدوا ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم أو إلى عبادته تعالى والجملة استئناف لبيان المقتضي للعهد بشقيه أو بالشق الأخير والتنكير للمبالغة والتعظيم أو للتبعيض فإن التوحيد سلوك بعض الطريق المستقيم ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ﴾ الشيطان ﴿مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ويعقوب بضم الجيم والباء وتشديد اللام وابن عامر وأبو عمرو بضم الجيم وسكون الياء، والباقون بضم الجيم والباء بغير تشديد وكلها لغات ومعناها الخلق والجماعة أي خلقاً ﴿كَثِيرًا﴾ جواب قسم محذوف رجوع إلى بيان معاداة الشيطان وظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقل فإنه إنما يأمر بالفحشاء والمنكر وترك عبادة الخالق الرازق الضارّ النافع إلى عبادة من لا يضر ولا ينفع وترك اتباع النبيّ الناصح المؤيد بالمعجزات إلى اتباع هوى النفس ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ عداوته مع وضوحها، الاستفهام للتوبيخ وجملة ولقد أضل معترضة للتوبيخ ويقال لهم لما دنوا من النار ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا﴾ ادخلوها وذوقوا حرها ﴿ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بكفركم في الدنيا ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ جملة فيها التفات من الخطاب إلى الغيبة، أخرج مسلم عن أنس قال كنا مع رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون فيما أضحك»؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم فيقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا بشاهد مني، فيقول كفَى بنفْسِكَ اليوم عليْكَ شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فينطق بأعماله ثم يخلَّى بينه وبين الكلام فيقول بُعْداً لكنَّ وسحقاً فعنكُنَّ أناضل»[1] وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال قالوا يا رسول الله «هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال «هل تضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟» قالوا لا قال: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليست في سحابة؟» قالوا لا، قال «فوالذي نفسي بيده لا تضارُّون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، فيأتي العبد فيقول أي فلان ألم

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ١٧.

أكرمك ألم أسودك[١] ألم أزوجك ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأتركك تترأس[٢] وتربع[٣]، قال بلى يا رب، فيقول أظننت أنك ملاقي؟ فيقول لا، فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول له مثل ذلك، ويقول مثل ذلك ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك وصلَّيتُ وصمتُ وتصدقتُ ويثني ما استطاع فيقال أفنبعث عليك شاهداً فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي، فيختم على فيه ويقول لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظمه بعمله ما كان ذلك قال وذلك المنافق وذلك بعذر عن نفسه وذلك الذي سخط الله عليه»[٤] وأخرج أحمد بسند جيد والطبراني عن عقبة بن عامر مرفوعاً «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل الشمال»[٥] وفي حديث معاوية بن حيدة عند أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي قال: «تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الغلام فأول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه»[٦] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال يُدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه فيعترف فيقول أي رب عملتُ وعملتُ فيغفر الله ذنوبه ويستره فيها، قال فما على الأرض خليقة يرى من تلك الذنوب شيئاً وتبدو حسناته والناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحده ويقول أي ربّ وعزتك كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل فيقول له عملتَ كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك فإذا فعل ذلك ختم على فيه، قال أبو موسى فإني أحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى ثم تلا: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآية، أخرج أبو يعلىٰ والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة عير الكافر بعمله فجحد وخاصم فيقال هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا، فيقال احلفوا فيحلفون ثم يصمتهم الله تعالى ويشهد عليهم ألسنتهم فيدخلهم النار»[٧].

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ يعني ولو شئنا طمس أعينهم ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي أذهبنا أعينهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق وهو معنى الطمس ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ عطف على طمسنا أي إلى الطريق اعتادوا سلوكهم وانتصابه بنزع الخافض أو بتضمين الاستباق معنى الابتداء أو جعل المسبوق إليه مسبوقاً على الاتساع أو على الظرفية ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الفاء للسببية والاستفهام للإنكار يعني فكيف يبصرون الطريق حينئذ أي لا يبصرون بسبب

---

(١) أي أجعلك سيداً.

(٢) أي تكون رأساً على قومك.

(٣) أي تأخذ ربع مما يحصل لهم من المغانم، وكان ذلك عادةَ الأمراء في الجاهلية.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣٠٢، والزهد حديث ١٦.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٥١.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣.

(٧) أخرجه بنحوه ابن كثير في تفسيره ٦/ ٣٣، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٨٩٧٩.

الطمس، قال البغوي هذا قول الحسن والسدّي، وقال ابن عباس وقتادة ومقاتل وعطاء ولو نشاءُ لفقأنا أعين ضلالتهم فأعميناهُمُ عن غيّهم وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى أبصروا رشدهم يعني لم نشأ ذلك فأنى يبصرون رشدهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ قرأ أبو بكر مكاناتهم بصيغة الجمع والباقون بالإفراد يعني ولو شئنا لجعلناهم قردةً وخنازير في منازلهم، وقيل يعني لو شئنا لجعلناهم حجارة وهم قعود في منازلهم أرواح لهم ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ أي ذهاباً ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا رجوعاً وضع الفعل موضعه للفواصل، وقيل ولا يرجعون عن تكذيبهم إلى التصديق ومعنى هذه الآية والآية السابقة على تأويل الحسن أنهم لكفرهم ونقضهم العهد أحقاء أن يفعل بهم ذلك لكنا لم نفعل لشمول الرحمة لهم في الدنيا واقتضاء الحكمة إمهالهم.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي من نطل عمره ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ قرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف والتشديد من التنكيس، والباقون بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف مخففاً من المجرد والتنكيس أبلغ والنكس أشهر ومعناه نقلبه ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ يعني كان في بدو الأمر لا يزال يتزايد قوةً ونجعله في الآخر بحيث لا يزال يتزايد ضعفاً حتى يموت ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ عطف على مضمون الشرطية السابقة والاستفهام للإنكار يعني ينبغي أن يعقلوا ويعلموا أن من قدر على ذلك قدر على الطمس والمسخ فإنه مشتمل عليهما وزيادة غير أنه على تدرج قرأ نافع وابن ذكوان[١] بالتاء على الخطاب لجري الخطاب قبله في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ والباقون بالياء على الغيبة جرياً على قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾.

قال البغوي قال الكلبي إن كفار مكة قالوا إن محمداً شاعر وما تقوله شعر فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ عطف على قوله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة يعني ما علمناه الشعر بتعليم القرآن فإنه غير مقفى ولا موزون وليس معناه مثل معنى الأشعار من التخيلات المرغبة والمنفرة والأقوال الكاذبة ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي ما يصح له أن يضيع وقته الشريف في إنشاء الشعر ورعاية الوزن والقافية، وأما ما روى الشيخان في الصحيحين من حديث البراء بن عازب قوله ﷺ: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[٢] ومن حديث جندب بن أبي سفيان «هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت»[٣] فاتفاقي من غير تكلف وتصنع وقعت لغير قصد منه إلى ذلك ومثله لا يعد شاعراً وقد يقع مثله كثيراً في تضاعيف المنثورات على أن الخليل ما عدَّ المسطور من الرجز شعراً. هذا وقد روي أنه ﷺ حرك الباءين من كذب وعبد المطلب وكسر التاء من دميت بلا إشباع

---

(١) وأبو جعفر ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٥٢، ٦١، ٩٧، ١٦٧، والمغازي باب ٥٤، ومسلم في الجهاد حديث ٧٨ ـ ٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٩، والأدب باب ٩٠، ومسلم في الجهاد حديث ١١٢.

وسكن التاء من لقيت، وقال البغوي ما كان يتزين له بيت شعر حتى إذا تمثل بيت شعر جرى على لسانه منكسراً[١]، وروى البغوي عن الحسن أن النبيّ ﷺ كان يتمثل بهذا البيت كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً، فقال أبو بكر يا نبي الله قال الشاعر كفى الشيب والإسلام بالمرء ناهياً فأعاد كالأول فقال أبو بكر أشهد أنك رسول الله يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، ورُوي عن المقدام بن شريح عن أبيه قال قلتُ لعائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ يتمثل شيئاً من الشعر؟ قالت كان يتمثل من شعر عبد الله بن رواحة قالت وربما قال: ويأتيك الأخبار من لم تزودي، وقال معمر عن قتادة بلغني أن عائشة سئلت هل كان النبيّ ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت كان الشعر أبغض الحديث إليه قالت ولم يتمثل بشيء من الشعر إلا ببيت أخي بني قيس بن مطرف[٢]:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزودي

فجعل يقول ويأتيك من لم تزود بالأخبار قال أبو بكر ليس هكذا يا رسول الله فقال «إني لستُ بشاعر وما ينبغي لي»[٣]، وقيل الضمير للقرآن أي وما يصح للقرآن أن يكون شعراً ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وإرشاد من الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ للفرائض والحدود والأحكام وإخبار الغيب من الماضي والمستقبل التي لا يمكن إتيانها من الشاعر بل من أحد من البشر ﴿لِّيُنذِرَ﴾ قرأ نافع وابن عامر[٤] ويعقوب بالتاء للخطاب أي لتنذر يا محمد بالقرآن وكذلك في الاحقاف ووافق ابن كثير في الأحقاف والباقون بالياء للغيبة متعلق بمضمون ما سبق يعني أنزلنا القرآن وأرسلنا محمداً لينذر القرآن أو الرسول ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي مؤمناً فإنه حي القلب يعقل الأشياء على ما هي عليه وأيضاً الحياة الأبدية بالإيمان وتخصيص الأبدية لأنه هو المنتفع به دون الكافر فإنه كالميت لا ينتفع به ولا يدرك الحسن من القبيح يحسب عبادة الأحجار واتباعَ الشيطان حسناً وعبادةَ الخالق واتباعَ الرسول الناصح المؤيد بالمعجزات قبيحاً فيكون في الآخرة بحيث لا يموت ولا يحيى وللإشعار بأنهم أموات في الحقيقة جعلهم في مقابلة مَنْ كَانَ حَيّاً وقال ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ عطف على لينذر أي لتجب كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً

---

(١) وعن عبدالله بن أبي الزناد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن مرداس أرأيت قولك أصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة فقال أبو بكر بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أنت بشاعر ولا راوية ولا ينبغي لك إنما قال بين عيينة والأقرع ـ منه رحمه الله ـ.

(٢) البيت من الطويل، وهو لطرفة بن العبد في ديوانه ص٤١.

(٣) أخرجه الترمذي في الأدب باب ٧٠، وأحمد في المسند ٦/٣١، ١٣٨، ١٤٦، ١٥٦، ٢٢٢.

(٤) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة لاستفهام الإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أينكرون البعث أو أينكرون خلق الله ولم يروا يعني قد رأوا وأقروا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي تولينا إحداثه دون غيرنا لانتفاعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ إسناد العمل إلى الأيدي استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص والتفرد بالأحداث ﴿أَنْعَامًا﴾ خصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ متملكون بتمليكنا إياهم أو متمكنون من ضبطها والتصرف فيها بتسخيرنا إياها لهم ﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾ أي سخرناها ﴿لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي مركوبهم يعني الإبل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي ما يأكلون لحمه ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الجلود والأصواف والأوبار والنسق له واستعمالها في الحرث وغير ذلك ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من ألبانها جمع مشربة بمعنى الموضع أو المصدر ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أينكرون فلاَ يشكرون لا بل يعترفونه ويكفرون كما يدل عليه قوله ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أشركوها به في العبادة بعدما رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة وعلموا أنه المتفرد بها، عطف على مضمون خلقنا لهم يعني أنعمنا عليهم وهم اتخذوا آلهة غيرنا، روى البيهقي والحكيم عن أبي الدرداء أنه قال قال رسول الله ﷺ: قال الله عزَّ وجلَّ: «إني والجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري»(١) ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ حال من فاعل اتخذوا يعني راجين أن ينصروهم فيما يهمُّهم من الأمور، والأمر بالعكس لأنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي أن يمنعوهم من العذاب ﴿وَهُمْ﴾ أي الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ معدون لحفظهم والذب عنهم في الدنيا وهي لا يسوق إليهم خيراً ولا يدفعون عنهم شراً، وقيل معناه يؤتى يوم القيامة بكل معبود من دون الله ومعه أشياعه الذين عبدوهم كأنهم جند محضرون في النار، الجملة حال من فاعل لا يستطيعون ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ الفاء للسببية يعني إذا سمعت الوعيد للكافرين ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ في الله بالإلحاد وفيك بالتكذيب والتهجين ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من عداوتك والعقائد الباطلة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأعمال والأقوال الشنيعة فيجازيهم عليه وكفى ذلك أن تتلى به وجملة إنا نعلم تعليل للنهي على الاستئناف.

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حامل ففتّه، فقال يا محمد أيبعث هذا بعد ما أرى؟ قال: «نعم يبعث الله هذا يميتك

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١١٦/٦.

ثم يحييك ثمّ يدخلك نار جهنم»[١] فنزلت ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ يعني العاص بن وائل ﴿أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخر السورة، وأخرج ابن أبي حاتم من طرق عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسديُّ والبيهقيُّ في شعب الإيمان عن أبي مالك وكذا ذكر البغوي أنها نزلت في أبي بن خلف الجمحي خاصم النبيّ ﷺ في إنكار البعث وأتاه بعظم قد بلي ففتته بيده وقال أترى يحيي الله هذا بعدما رم فقال النبيّ ﷺ: «نعم ويبعثك فيدخلك النار»[٢] فأنزل الله تعالى هذه الآية، الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أينكر الإنسان قدرتنا على الإعادة ولم ير يعني قد علم أنا خلقناه من نطفة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ الفاء للعطف وإذا للمفاجأة يعني خلقناه من نطفة ففاجأ وقت خصامه ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر أنه مجادل بالباطل لا يريد تحقيق الحق لظهوره حيث يعلم ويعترف ببدو خلقه وينكر ما هو أهون منه وهو الإعادة، وفيه تسلية ثانية بتهوين ما يقول له بالنسبة إلى إنكارهم الحشر وفيه تقبيح بليغ حيث أتى الكفر في مقابلة النعمة التي لا مزيد عليه وهي خلقه من أخس شيء وأمهنه شريفاً مكرماً، وقيل معنى فإذا هو خصيم مبين فإذا هو بعدما كان ماء مهيناً مميز منطيق قادر على الخصام معرب عما في نفسه وقيل فهو على مهانة أصله ودناءة أوله يتصدى مخاصمة ربه وينكر قدرته على إحياء الميت وجملة ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ إلى آخره بدل من قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً وهو نفي القدرة على إحياء الموتى وتشبيهه بخلقه موصوفاً بالعجز عمَّا عجزوا عنه ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ أي خلقنا إياه من مني وهو أغرب من إحياء العظم ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ حال من العظام استئناف بيان للمثل والرميم ما بلي من العظام فعيل بمعنى فاعل من رم الشيء صار اسماً بالغلبة فلذلك لم يؤنث أو بمعنى مفعول من رممته.

قال البيضاوي فيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء يعني بذلك أن عظم الميتة نجس وبه قال الشافعي، وكذا ذكر ابن الجوزي مذهب أحمد في التحقيق وذكر صاحب رحمة الأمة أن الصحيح من مذهب أحمد طهارة السنّ والريش والعظم، احتج القائلون بنجاسة عظم الميتة بهذه الآية وبقوله ﷺ: «لا ينتفع من الميتة بشيء»[٣] رواه أبو بكر الشامي بإسناده عن أبي الزبير عن جابر قال صاحب المغني وصاحب تنقيح التحقيق إسناده حسن ورواه ابن وهب في مسنده عن زمعة بن صالح عن أبي الزبير عن جابر ولفظه «لا تنتفعوا من الميتة بشيء ولا تنتفعوا بالميت» قال صاحب التنقيح زمعة فيه كلام وللحديث علة ذكرها ابن معور وغيره، قال صاحب الهداية شعر الميتة وعظمها لا حياة فيهما يعني فلا يحلهما الموت فلا يشتملهما الحديث الوارد في النهي عن الانتفاع بالميتة ويرد على هذا القول هذه الآية فإنها تدل على كون الحياة في العظم، فالأولى أن يقال إن المنجس إنما هو الدم المسفوح ولا دم في

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٤٢٩.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

العظم والعصب والشعر وإن كانت فيها حياة ولهذا موت ما لا دم له سائلاً من الحيوانات في الماء لا يفسده عن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: «كل طعام أو شراب وقعت فيه دابة ليس لها دم فماتت فيه فهو حلال أكله وشربه ووضوؤه»[١] رواه الدارقطني، قال الدارقطني لم يروه غير بقية عن سعيد بن سعيد الزبيدي وهو ضعيف وقال ابن عدي سعيد مجهول، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء»[٢] رواه البخاري، والحجة لنا حديث ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بشاة ميتة فقال: «ألا استمتعتم بجلدها؟» فقالوا يا رسول الله إنها ميتة، قال «إنما حرم أكلها»[٣] متفق عليه، وروى الدارقطني عن ابن عباس أنه قال إنما حرم رسول الله ﷺ من الميتة لحمها وأما الجلد والشعر والصوف فلا بأس به، وفيه عبد الجبار بن مسلم قال الدارقطني ضعيف لكن ذكره ابن حبان في الثقات قال ابن همام لا ينزل الحديث عن الحسن والعجب من ابن الجوزي أنه احتج بهذا الحديث على طهارة صوف الميتة وشعرها ولم يحتج بها على طهارة العظم واحتج على نجاسة العظم بحديث «لا تنتفعوا من الميتة بشيء»[٤] ولم يحتج بها على نجاسة الصوف والشعر، والحق إن المراد بقوله ﷺ «لا تنتفعوا من الميتة بشيء» لا تنتفعوا من الميت مما يؤكل لتنجسه باختلاط الدم المسفوح وأما العظم والشعر والصوف مما لا يختلط بالدم فلا بأس به ولا بأس بالجلد بعد الدباغ وإزالة الرطوبة وفي الباب أحاديث أخر منها ما روى الدارقطني عن ابن عباس قال سمعتُ رسول الله ﷺ «ألا كل شيء من الميتة حلال إلا ما أكل منها فأما الجلد والشعر والصوف والعظم فكل هذا حلال لأنه لا يزكى»[٥] وفيه أبو بكر الهذلي قال الدارقطني متروك وقال غندر كذاب وقال يحيى وعلي ليس بشيء، وروى الدارقطني عن أم سلمة قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا بأس بمسك الميتة إذا دبغ ولا بأس بصوفها وشعرها وقرونها إذا غسل بالماء»[٦] قال الدارقطني لم يأت به غير يوسف بن السفر وهو متروك يكذب وقال أبو زرعة والنسائي هو متروك وقال دحيم ليس بشيء وقال ابن حبان لا يحل الاحتجاج به بحال، وروى ابن الجوزي من طريق أبي يعلى عن حميد الشامي عن سليمان عن ثوبان أن رسول الله ﷺ اشترى لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج، قال ابن الجوزي الحديث لا يصح حميد وسليمان مجهولان قال أحمد لا أعرف حميداً وقال يحيى بن معين لا أعرف سليمان، وأيضاً المراد بالعاج الزبل قال ابن قتيبة ليس العاج هاهنا الذي يعرفه العامة

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه ١/ ٣٧، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١٧، والطب باب ٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع باب ١٠١، والذبائح باب ٣٠، ومسلم في الحيض حديث ١٠٣.

(٤) روي الحديث بلفظ: «لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب». أخرجه الترمذي في اللباس باب ٧، والنسائي في الفرع باب ٥، وابن ماجه في اللباس باب ٢٦، وأحمد في المسند ٤/ ٣١٠، ٣١١.

(٥) أخرجه الدارقطني في سننه ١/ ٤٨.

(٦) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٢٤، والدارقطني في سننه ١/ ٤٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢١٨.

ويخرطه من العظم والناب ذلك ميتة منهي عنه فكيف يتخذ لها منه سواراً إنما العاج الزبل قال ذلك الأصمعي، قال ابن همام قول الأصمعي ليس العاج الذي يعرفه العامة، يوهم أنه ليس من اللغة وليس كذلك قال في المحكم العاج أنياب الفيلة ولا يسمى غير الناب عاجاً، وقال الجوهري العاج عظم الفيل الواحد عاجة، فتأويل الأصمعي إنما هو لاعتقاده نجاسة عظم الفيل، قال ويظهر من القاموس أن العاج مشترك في الزبل وعظم الفيل وكذا يظهر من النهاية للجزري والزبل جلد السُّلحفاة البحرية أو البرية أو عظام ظهر دابة بحرية يتخذ منها الأسورة والأمغاط كذا في القاموس، وأخرج البيهقي عن بقية عن عمرو بن خالد عن قتادة عن أنس أنه ﷺ كان يمتشط بمشط من عاج، قال البيهقي ورواية بقية عن شيوخه المجهولين ضعيفة، قال ابن همام فهذه عدة أحاديث لو كانت ضعيفة حسن المتن فكيف ومنها ما لا ينزل عن الحسن وله الشاهد الأول من الصحيحين والله أعلم.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن قدرته كما كان لامتناع التغير فيه والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها جملة مستأنفة وقوله ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أي مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ حال من فاعل يحيي أي يعلم تفاصيل المخلوقات وكيفية خلقها فيعلم أجزاء الأشخاص المتغيبة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطرق تميزها وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التي كانت فيها أو إحداث مثلها ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أي هو أو منصوب على المدح بتقدير أعني، قال ابن عباس شجرتان يقال لإحداهما المرخ وللأخرى العفار فمن قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضروان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار يخرج منها النار يقول العرب في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار، وقال العلماء في كل شجر نار إلا العناب ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي ففاجئتم وقت إيقادكم ولا تشكون في أنها نار خرجت منه فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيته كان أقدر على إعادة العضاضة فيما كان عضاً فيبس وبلي ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الاستفهام للإنكار والعطف على محذوف تقديره أخلق السماوات والأرض كما تعترفون به وليس الذي خلقهما مع كبر جرمهما وعظم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ قرأ يعقوب[1] يقدر على صيغة المضارع ﴿عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصغر والحقارة بالإضافة إليهما أو مثلهم في أصول الذات وصفاتها وهو المعاد ﴿بَلَىٰ﴾ جواب من الله لتقرير ما بعد النفي أي هو قادر على أن يخلق مثلهم ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ يخلق خلقاً بعد خلق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع الممكنات عطف على مضمون بلى ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أن يوجد ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي فهو يكون، نصبه ابن عامر والكسائي عطفاً على يقول، قال البيضاوي هو تمثيل لتأثير قدرته في مراده تعالى بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعاً لمادة الشبهة وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخالق.

(١) أي رويس ـ أبو محمد ـ.

﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾ مصدر فعل محذوف والفاء للسببية يعني إذا علمتم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة وهو قادر على أن يحيي العظام وأنه إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون فسبحوا سبحان ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ﴾ أي الملك بمعنى القدرة زيدت الواو والتاء للمبالغة ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي تنزيه له عما ضربوا وتعجيب عمّا قالوا فيه معللاً بكونه مالكاً للملك كله قادراً على كل شيء ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عطف على قوله بيده وفيه وعد للمقرين ووعيد للمنكرين.

عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: «إقرأوا على موتاكم يس»[(١)] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وفي لفظ «يس قلب القرآن لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له اقرأوها على موتاكم»[(٢)] وذكره الجزري في الحصن الحصين بلفظ «يس لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له اقرأوها على موتاكم»[(٣)] وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس[(٤)] من قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات»[(٥)] سنده ضعيف رواه الترمذي.

تمَّ تفسير سورة يس من التفسير المظهري (ويتلوه سورة الصافات إن شاء الله تعالى) سلخ ربيع الأول سنة سبع بعد المائتين وألف سنة ١٢٠٧هـ وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنائز باب ٤، وأحمد في المسند ٥/ ٢٦، ٢٧.

(٢) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن باب ٧، والدارمي في فضائل القرآن باب ٢١، وأحمد في المسند ٥/ ٢٦.

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٤) وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ يس كل ليلة غفر له ـ رواه البيهقي بسند ضعيف وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ يس في ليله أصبح مغفوراً له ـ رواه أبو نعيم في الحلية بسند ضعيف وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ يس مرة فكأنما قرأ القرآن مرتين ـ رواه البيهقي بسند ضعيف وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ يَسٓ مرة فكأنما قرأ القرآن عشر مرات ـ رواه البيهقي بسند ضعيف وعن معقل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ يس ابتغاء وجه الله غفر له ما تقدم من ذنبه فاقرأوها عند موتاكم ـ رواه البيهقي بسند ضعيف وأخرج الطبراني من حديث أنس من داوم على قراءة يس كل ليلة ثم مات مات شهيداً ـ وأخرج الدارمي والطبراني من حديث أبي هريرة من قرأ يس ابتغاء وجه الله غفر له ـ أخرج الديلمي وأبو الشيخ بن حبان في فضائلها من حديث أبي ذر ما من ميت يموت فيقرأ عنده يس إلا هون الله عليه ـ وأخرج المحاملي في أماليه من حديث عبدالله بن الزبير من جعل يس امام حاجته قضيت له ـ وله شاهد مرسل عند الدارمي وفي المستدرك عن أبي جعفر محمد بن علي قال من وجد في قلبه قسوة فليكتب يس في جام من زعفران ثم يشربه ـ وأخرج ابن الضريس عن سعيد بن جبير أنه قرأ على رجل مجنون سورة يس فبرىء ـ وأخرج أيضاً عن يحيى بن أبي كثير قال من قرأ يس حين أصبح لم يزل في فرح حتى يمسي ومن قرأها إذا أمسى لم يزل في فرح حتى يصبح أخبر به من جرب ذلك ـ منه قدس الله سره ـ.

(٥) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن باب ٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الصافات

آياتها مائة واثنان وثمانون وهي مكيّة

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ
(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ
الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١)
بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا
هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ
الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا
عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ
(٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا
إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ
(٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١)﴾ أقسم بالملائكة الذين يصفون في مقام العبودية كصفوف المصلين، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها»، فقلنا يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف ويتراصون في الصف»(١) كذا قال ابن عباس والحسن وقتادة وقيل هم الملائكة تصف بأجنحتها في الهواء واقفةً حتى يأمر الله بما يريد وقيل هي الطير قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ [النور: ٤١] ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ يعني الملائكة تزجر السحاب وتسوقه، وقيل

(١) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ١١٩، وأبو داود في الصلاة باب ٩٣، وابن ماجه في الإقامة باب ٥٠، وأحمد في المسند ٥/ ١٠١.

الملائكة تزجر الناس عن المعاصي بإلهام الخير أو الشياطين عن التعرض لهم، وقال قتادة هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبيح ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾ هم الملائكة الذين يتلون ذكر الله أو آيات من الكتب السماوية على الأنبياء وذِكْراً منصوب على المفعولية وجاز نصبه على المصدرية من معنى التاليات، أو أقسم بنفوس العلماء الصافِّين أقدامهم في الصلاة الزاجرين عن الكفر والسيئات بالحجج والنصيحات التالين آيات ربهم رفيع الدرجات، أو بنفوس الغزاة المقاتلين في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص الزاجرين الخيل والعدو التالين لذكر الله لا يشغلهم مبارزة العدو عن ذكر الله، والعطف لاختلاف الدوات أو الصفات والفاء لترتيب الوجودِ فإن الصف كمال والزجر تكميل بالمنع عن الشر أو الإساقة إلى الخير والتلاوة إفاضة أو الرتبة كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] أدغم حمزة التاءات فيما يليها لتقاربها فإنها من طرف اللسان وأصول الثنايا وأبو عمرو على أصله في الإدغام الكبير، جواب القسم ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ﴾ يا أهل مكة ﴿لَوَٰحِدٌ﴾ رد لما قال كفار مكة ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ خبر بعد خبر لإن أو خبر مبتدأ محذوف أي هو والمراد بالمشارق مشارق الكواكب كلها أو مشارق الشمس في السنة فإنها ثلاث مائة وخمس وستون تطلع كل يوم من واحد وبحسبها يختلف المغارب ولذلك اكتفى بذكرها مع أن الشرق أدلُّ على القدرة وأبلغ في النعمة.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي القربى منكم فيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة وهي بيانية أي بزينة هي الكواكب أو إضافة المصدر إلى المفعول أي بأن زينا الكواكب فإنها كما جاءت اسماً كالليقة جاء مصدراً كالنسبة أو إلى الفاعل أي بأن زينها الكواكبُ، وقرأ حمزة ويعقوب[1] وحفص بتنوين زينةٍ وجر الكواكب على إبدالها منه أي بزينة هي الكواكب أو بزينة هي لها كأضوائها وأوضاعها، قال ابن عباس أي بضوء الكواكب وهذه القراءة يؤيد كون الإضافة في قراءة الجمهور بيانية وقرأ أبو بكر بتنوين زينَةً ونصب الكواكب على المفعولية فيؤيد كون الإضافة إلى المفعول أو منصوب بتقدير أعني أو على البدل من محل زينة ﴿وَحِفۡظًا﴾ منصوب على المصدرية بإضمار فعله أي وحفظناها حفظاً أو بالعطف على زينة بحسب المعنى كأنَّه قال إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً أي لأجل الحفظ ﴿مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ خارج من الطاعة برمي الشهب من الكواكب، وهذه الآية تفيد أن الكواكب كلها في السماء الدنيا وقول البيضاوي إن كون الثوابت في الكرة الثامنة وما عدا القمر من السيارات في الست المتوسطة بينها وبين سماء الدنيا إن تحقق لم يقدح في ذلك فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة متلألئة على سطحها الأزرق بأشكال مختلفة مبني على تجويز قول الفلاسفة، والحق إن قول الفلاسفة باطل بالكتاب والسنة والإجماع فإن كون السماوات سبعاً منصوص عليه بالكتاب فلا يجوز القول بالكرة

(١) لا بل هو كالجمهور ـ أبو محمد ـ.

الثامنة وتسميتها باسم غير السماء لا يفيد كتسمية الخمر بغير اسمها لا يفيد الحل، وأيضاً الدُّنْيَا صفة للسماء ومفهوم الصفة يقتضي حصر زينتها في السماء الدنيا ولولا ذلك الحصر لما وجه لتقييد السماء بالدنيا وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ يرد القول بكون الكواكب في سماء غير سماء الدنيا فإن رجم الشيطان ليس إلا من السماء الدنيا ولا سبيل للشياطين فوق سماء الدنيا والقول بأن الشهاب تخرج من الكواكب الثابتة في السماء الثامنة نافذة من السماوات السبع إلى سارق السمع من الشياطين يأباه العقل والنقل والله أعلم.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ قرأ حفص وحمزة[1] والكسائي بتشديد السين والميم أصله يَتَسَمَّعون فأدغمت التاء في السين والمعنى يطلبون السماع وفيه مبالغة في نفي السماع والباقون بسكون السين وتخفيف الميم من المجرد، وهذا كلام مبتدأ لبيان حالهم بعد ما حفظ السماء عنهم ولا يجوز جعله صفة لكلّ شيطان فإنه يقتضي حفظها من الشياطين الذين لا يسمعون ولا علة للحفظ على حذف اللام كما في جئتك أن تكرمني ثم حذف أن وإهدار عملها فإن اجتماع ذلك منكر ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ متعلق بلا يسمعون بتضمين معنى الإصغاء مبالغة لنفيه وتهويلاً لما يمنعهم عنه، والمراد بالملأ الأعلىٰ الملائكة أو أشرافهم مدبرات الأمور ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي يُرمون عطف على لا يسّمّعون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي من آفاق سماء الدنيا بالشهب إذا قصدوا المكث والإصغاء ﴿دُحُورًا﴾ مصدر بمعنى الطرد منصوب على المصدرية لأن القذف والدحور متقاربان أو على الحال بمعنى مدحورين أو بنزع الخافض أي بدحور وهو ما يطرد به ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ آخر ﴿وَاصِبٌ﴾ أي دائم أو شديد وهو عذاب الآخرة، وقال مقاتل لهم عذاب في الدنيا دائم إلى النفخة الأولى يحرقون ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ استثناء من فاعل لا يسمعون وبدل منه، وقيل استثناء منقطع والخطفة الاختلاس يعني من اختلس كلمةً من كلام الملائكة مسارقةً ولذلك عرّف الخطفة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أتبع بمعنى تبعه أي لحقه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وهو ما يرى كأنَّ كوكباً انقض وهو شعلة تخرج من كوكب لرجم مسترقي السمع من الشياطين.

وليس كما قالت الفلاسفة إنه بخار يصعد إلى الأثير ويشتعل فإن هذا قول باطل مبني على الظن والتخمين وإنَّ الظَّنَّ لا يغني من الحق شيئاً وهذا كقولهم في المطر أنه بخار يصعد من الأرض ويصل إلى الطبقة الزمهريرية من الهواء فيجمد ويكون غماماً ثم تصل إليه الحرارة من الشمس فيذوب ويقطر ماء، وهذه الأقوال الباطلة التي لا دليل عليها يأباه العقل فإن الأبخرة قد يصعد كثيراً لأجل شدة الحر ولا يكون مطراً إلى سنين وقد يكون أمطاراً متوالية متكاثرة في البرد من غير أن يدرك حينئذ صعود الأبخرة وأيضاً لو كان كذلك لذاب في بعض الأحيان الغمام كله ولم ير ذلك قط وأيضاً البخارات لا تزال تتصاعد دائماً فرؤية الشهاب في بعض الأحيان لا معنى له، وهذه الأقوال باطلة بالكتاب والسنة قال الله تعالى:

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [المؤمنون: ١٨] وقال الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣].

وهذه الآية ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ إلى قوله ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وروى البخاري عن قتادة قال «خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدي فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا يعلم»(١).

وروي أيضاً عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض» (ووصف سفيان بكفه فحركها وبدد بين أصابعه) «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحت حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعها من السماء»(٢).

وروى مسلم عن ابن عباس «ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى تبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ما قال فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى تبلغ أهل هذه السماء الدنيا فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم تعرفون فيه ويزيدون»(٣)، وروى البخاري عن عائشة قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فيسترق الشياطين السمع فيستمعه فيوحيه إلى الكهان فيكذبون معه مائة كذبة من عند أنفسهم»(٤) قال البيضاوي واختلف في المرجوم يتأذى فيرجع أو يحترق به لكن قد يصيب الصاعد مرةً وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ولهذا لا يرتدعون.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ الضمير المنصوب لمشركي مكة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ ممن خلقناهم ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ هم أشد خلقاً منهم والمراد بمَنْ خَلَقْنَا ما سبق ذكره من السماوات والأرض وما بينهما من الخلائق والمشارق والمغارب والكواكب والشهب الثواقب ومَنْ لتغليب العقلاء والاستفهام للتقرير، وقيل المعنى أمْ مَّنْ خَلَقْنَا من غيرهم من الأمم السالفة كعاد وثمود قد

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٣.
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٢، وتفسير سورة ١٥، باب ١، وسورة ٣٤، باب ١، والترمذي في تفسير سورة ٣٤، باب ١، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣.
(٣) أخرجه بنحوه مسلم في السلام حديث ١٢٣، ١٢٤.
(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٦.

أهلكناهم بذنوبهم فمالكم تأمنون من العذاب والتأويل الأول يوافق قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ[(١)] أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧] ويدل على إطلاقه قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ أي لاصق يتعلق باليد، وقال مجاهد والضحاك أي منتن فإنه فارق بين خلقهم وخلق السماوات والأرض فإن خلقها بلا مادة سبق وهذه الجملة متضمنة للسؤال المذكور على طريقة ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: ٢] بعد قوله ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ [النبأ: ١] والغرض من هذا الكلام الرد على منكر البعث فإنه شهادة عليهم بالضعف لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة فمن قدر على خلق السماوات وغيرها قادر البتة على ما لا يعتد به بالإضافة إليها واحتجاج عليهم بأن خلقهم الأول من الطين اللازب فمن أين ينكرون أن يخلقوا ثانياً من تراب حيث قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥] وإن الطين اللازب يحصل بضم الجزء المائي إلى الجزء الأرضي وهما باقيان قابلان للانضمام والفاعل لا تغير في قدرته فعلى ما ينكرون.

﴿بَلْ﴾ ابتدائية للانتقال من غرض إلى آخر وهو الإخبار بحاله وحالهم وليست للإضراب ﴿عَجِبْتَ﴾ العجب حالة يعتري للإنسان عند رؤية أمر لم يعهد مثله فيعبر عن تلك الحالة بقوله عجبت وبصيغة التعجب منه قوله ﷺ: «عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة في السلاسل»[(٢)]، وقوله سبحانه ما أعظم شأنه، ويطلق أيضاً على الشيء الذي لم يعهد مثله أنه عجب قال الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] وكثيراً يستعمل العجب فيما يراه الرجل حسناً غاية الحسن يقال أعجبني كذا ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٠٤] وقوله عليه السلام «عجب ربكم مِن شاب ليست له صبوة»[(٣)] وقوله ﷺ «عجب ربكم من إلكم وقنوطكم»[(٤)] وقد يستعمل فيما يراه قبيحاً غاية القبح يقال عجبت من بخلك وشرهك، وقال الشاعر شيئان عجيبان هما أبرد من شيخ «شيخ يتصبى وصبي يتشيخ»، وفيما يراه كثيراً غاية الكثرة يقال ما أكرمه وما أطفاه وما أشد استخراجه وما أجهله وما أشد بياضه فالمعنى أن هذا الشيء بهذا الحسن أو بهذا القبح أو بهذا الكرام أو الجهل أو البياض لم يعهد مثله، وقيل هي حالة يعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء وبناءً على ذلك قالوا لا يصح على الله العجب لإحاطة علمه بكل شيء، وقيل هي حالة يعتري للإنسان عند استعظامه الشيء، والصحيح أن مآل هذين التفسيرين إلى ما ذكرنا لأن الإنسان يستعظم ما لم يعهد مثله، وكذا ما يجهل بسببه يراه غير معهود مثله فلا حاجة إلى الصرف عن الظاهر. في قراءة حمزة والكسائي[(٥)] عَجِبْتُ، بضم التاء على صيغة

---

(١) وفي الأصل: أهم أشدُّ.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٤٤، وأبو داود في الجهاد باب ١١٤.

(٣) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٤/ ١٥١.

(٤) أخرجه القرطبي في تفسيره ١٥/ ٧٠.

(٥) وخلف ـ أبو محمد ـ.

المتكلم، وقال البيضاوي العجب من الله إما على الفرض والتخييل أو على معنى الاستعظام اللازم وقيل إنه مقدر بالقول يعني قل يا محمد بَل عَجِبْتُ وقال البغوي والعجب من الله إنكاره وتعظيمه والعجب من الله قد يكون بمعنى الإنكار والذم كما في هذه الآية وقد يكون بمعنى الاستحسان كما في الحديث «عجب ربكم من شاب ليست له صبوة»، وسئل جنيد عن هذه الآية فقال إن الله ما يعجب من شيء ولكن الله وافق رسوله فقال (وإن تعْجَبْ فَعَجبٌ قَوْلُهُمْ) أي هو كما تقوله، وقرأ الجمهور على صيغة المخاطب بفتح التاء يعني عَجِبْتَ أنتَ يا محمد من تكذيبهم إياك مع اعترافهم بكونك أميناً صدوقاً وشهادة المعجزات على صدقك وكون القرآن معجزاً أو عجبت من إنكارهم قدرة الله على البعث مع ظهور قدرته تعالى على كل شيء فإن هذا الأمر لم يعهد مثله قال قتادة عجب نبي الله ﷺ من هذا القرآن حين أنزل وضلال بني آدم بعده وذلك أن النبي ﷺ كان يظن أن من سمع لهذا القرآن يؤمن به فلمّا سمع المشركون وسخروا منه ولم يؤمنوا به عجب من ذلك رسول الله ﷺ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا محمد ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ حال من فاعل عَجِبْتَ بتقدير المبتدأ يعني وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ أي وعظوا بالقرآن ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتعظون أو المعنى إذا ذكرهم ما يدل على صحة الحشر لا ينتفعون به لبلادتهم وقلة فكرتهم ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ معجزة تدل على صدق الرسول ﷺ، قال ابن عباس ومقاتل هو انشقاق القمر ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية أو يستدعي بعضهم بعضاً أن يسخر منها.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي ويقولون ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ يعنون ما يرونه من المعجزة ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر سحريته وقالوا ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ قرأ نافع[(١)] وحمزة والكسائي بكسر[(٢)] الميم ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أصله أنُبْعَثُ إذَا مِتْنَا فبدل الفعلية بالاسمية، وقدم الظرف وكرر الهمزة مبالغة في الإنكار وإشعاراً بأن البعث مستنكر في نفسه وفي هذا الحال أولى بالإنكار فهذا أبلغ من قراءة ابن عامر بطرح الهمزة الأولى وقراءة نافع والكسائي[(٣)] ويعقوب بطرح الثانية ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ عطف على محل اسم إن بعد مضي الخبر أو على الضمير في مبعوثون فإنه مفصول عنه بهمزة الاستفهام والاستفهام لإنكار الجمع بين بعثهم وبعث آبائهم لزيادة الاستبعاد لبعد زمانهم، وسكن نافع[(٤)] وابن عامر الواو على معنى الترديد وعلى هذه[(٥)] القراءة لا يجوز العطف ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿نَعَمْ﴾ تبعثون أنتم وآباؤكم قرأ الكسائي بالكسر وهو لغة فيه ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ الدخور أشد الصغار حال من فاعل المقدر ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ﴾

---

(١) وحفص وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٢) هذا هو الصحيح وهكذا في الأصل في المتن لكن كتبه على الحاشية بالضم. وهو وهم كما مر في آل عمران.

(٣) وأبي جعفر ـ أبو محمد ـ.

(٤) أي قالون عنه والأصبهاني عن ورش وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

(٥) وفي الأصل: هذا القراءة ـ ١٢ ـ.

جواب شرط مقدر يعني إذا كانت البعث فإنما هي أي البعثة، وقيل هي ضمير مبهم موضحها خبرها يعني زجرة ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ أي صيحة واحدة أي نفخة الثانية والزجر الطرد والمنع بالصوت يقال زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها وأمرها في الإعادة كما أمر في الإبداء ولذلك رتب عليها ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ من مراقدهم أحياءً ﴿يَنظُرُونَ﴾ عطف على ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ﴾ يعني إنما البعثة زجرة ففاجئت وقت كونهم أحياءً ينظرون أي يبصرون أو ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا﴾ للتنبيه ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ أي هلاكنا مصدر لا فعل له من لفظه وجملة قالوا عطف على ﴿يَنظُرُونَ﴾ ويقولون ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم نجازى فيه بأعمالنا ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي يوم القضاء أو الفرق بين المحسن والمسيء ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل هذا جواب الملائكة وقد تم كلامهم على يوم الدين، وقيل هذا أيضاً من كلامهم بعضهم لبعض.

فحينئذ يقول الله سبحانه للملائكة ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يعني أشركوا ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] يعني اجمعوهم إلى الموقف للحساب والجزاء ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ يعني نظراءهم وأشياعهم وأتباعهم، أخرج البيهقي من طريق النعمان بن بشير قال سمعتُ عمر بن الخطاب يقول ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ يعني ضرباءهم الذين هم مثلهم يجيء أصحاب الربا مع أصحاب الربا وأصحاب الزنى مع أصحاب الزنى وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر وأزواج في الجنة وأزواج في النار، وأخرج البيهقي عن ابن عباس يعني أشباههم، وقال البغوي قال قتادة والكلبي يعني من عمل مثل عملهم فأهل الخمر مع أهل الخمر وأهل الربا مع أهل الربا وقال الضحاك قرناؤهم من الشياطين كل كافر مع شيطانه في سلسلة، وقال الحسن أزواجهم من المشركات ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا يعني الأوثان والطواغيت وقال مقاتل يعني إبليس واحتج بقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] واللفظ مخصوص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١] ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس دلوهم إلى طريق النار، وقال ابن كيسان قدموهم إلى النار والعرب تسمي السائق هادياً ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أي احبسوهم، قال المفسرون لما سيقوا إلى النار حبسوا عند الصراط فيقول الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ تعليل بقفوا، قال ابن عباس يسألون عن جميع أفعالهم وأقوالهم، وروي عنه عن لا إله إلا الله، أخرج مسلم عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا يزول قدما عبد عن الصراط حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه ما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه»[1].

وأخرج الترمذي وابن مردويه مثله عن ابن مسعود وأخرج الطبراني مثله عن معاذ بن

(١) أخرجه الترمذي في القيامة باب ١.

جبل وأبي الدرداء وابن عباس، وأخرج ابن المبارك في الزهد عن أبي الدرداء قال: إن أخوف ما أخاف إذا وقعت الحساب أن يقال لي قد علمت فما عملت، وأخرج أحمد في الزهد عنه قال أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة يقال ما عملت فيما علمتَ، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبقع بن عبد الله الكلاعي قال إن لجهنم سبع قناطير والصراط عليها فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى فيقولون ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ فيحاسبون عن الصلاة ويسألون منها فيهلك فيها من هلك وينجو من نجا، فإذا بلغوا الثانية حوسبوا عن الأمانة كيف أدوها وكيف خانوها فيهلك من هلك وينجو من نجا، فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سئلوا عن الرحم كيف وصلوها وكيف قطعوها فيهلك من هلك وينجو من نجا قال والرحم يومئذ متدلية إلى الهواء تقول اللّهم من وصلني فصله ومن قطعني فاقطعه ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي يقال لهم توبيخاً ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً تحريض على التناصر والغرض منه التهكم والتعجيز ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ قال ابن عباس أي خاضعون، وقال الحسن منقادون يقال استسلم لشيء إذا انقاده وخضع.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني الرؤساء والأتباع أو الكفرة والقرناء ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ حال من الفاعل والمفعول يعني يسأل بعضهم بعضاً توبيخاً ولذلك فسر بقوله يتلاَومون ويتخاصمون ﴿قَالُوا﴾ أي يقول الأتباع للرؤساء أو الكفرة للقرناء ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي عن أقوى الوجوه وأيمنها أو عن الدين أو عن الخير كذا قال الضحاك ومجاهد مستعار عن يمين الإنسان الذي هو أقوى الجانبين وأشرفهما وأنفعهما ولذلك سمي يميناً، وقال بعضهم المراد باليمين الحلف يعني كنتم تحلفون أن ما تدعوننا إليه من الدين هو الحق، وقيل معناه القوة والقهر يعني كنتم تكرهوننا وتقسروننا على الضلال، هذه الجملة وما بعدها بيان للتساؤل ﴿قَالُوا﴾ أي يقول الرؤساء أو الشياطين ما أضللناكم ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني كنتم كافرين ضالين باختياركم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ من قهر وغلبة تقريرٌ لما سبق ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أي مختارين الطغيان ﴿فَحَقَّ﴾ أي وجب ﴿عَلَيْنَا﴾ عطف على محذوف مفهوم مما سبق تقديره كنتم قومًا طاغين كما كنا طاغين ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ العذاب ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنا عليه عطف على فحَقَّ علينا ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ ضالين يعنون إن ضلال الفريقين ووقوعهم في العذاب كان أمراً مقضياً علينا وإنه غاية ما فعلنا بكم إنا دعونا إلى الغيّ لأنا كنا على الغي فأحببنا أن تكونوا مثلنا.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء للسببية يعني لمّا كان كلهم من الرؤساء والأتباع والكفرة والقرناء على الغي فهم ﴿يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ إنا مبتدأ والجملة خبر وكذلك في محل النصب على المصدرية أي فعلاً مثل ما نفعل بهؤلاء ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي بكل مشرك والمجرم هو المشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على يستكبرون ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ يعنون النبي ﷺ.

قال الله تعالى رداً عليهم ﴿بَلْ جَآءَ﴾ النبيّ ﷺ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي التوحيد الذي قام عليه البرهان ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني ليس هذا دعوى مبتدعاً بل ادعاه الأولون من الرسل وهذا يصدقهم ويطابق دعواه دعواهم ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المجرمون فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ بالإشراك وتكذيب المرسلين ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾ جزاءً إلا جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الموحدين استثناء منقطع إلا أن يكون الضمير في تجزون لجميع المكلفين فيكون استثناؤهم عما سبق باعتبار المماثلة فإن ثوابهم يضاعف إلى سبع مائة ضعف إلى ما شاء الله والمنقطع أيضاً بهذا الاعتبار.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ خصائصه من الدوام وتمحض اللذة ولذلك فسره بقوله ﴿فَوَٰكِهُ﴾ جمع فاكهة بدل أو بيان للرزق وهي ما يقصد به التلذذ دون التغذي والقوت ما يقصد به التغذي دون التلذذ والرزق يعمهما، وأهل الجنة لمّا كان خلقهم محفوظة عن التحلل كانت أرزاقهم فواكه خالصة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ في نيله يصل إليهم من غير تعب وسؤال بخلاف أرزاق الدنيا، الجملة عطف على الجملة أو حال أو خبر بعد خبر ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلق بالظرف المستقر يعني لهم رزق معلوم في جنات ليس فيها إلا النعيم أو متعلق بمكرمون أو حال من المستكن فيه أو خبر آخر لأولئك ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يحتمل الحال والخبر فيكون ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حالاً من المستكن فيه أو في مكرمون ويحتمل أن يتعلق على سرر بمتقابلين فيكون متقابلين حالاً من ضمير مكرمون ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ أي بإناء فيه خمر أو خمر كقول الشاعر، وكأس شربت على لذة، وعن الأخفش كل كأس في القرآن فهي الخمر، والجملة حال أو خبر ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ .

أي خمر جارية في الأنهار ظاهرة تراها العيون أو خارج من العيون وهو صفة الماء من عان الماء إذا نبع وصف به خمر الجنة لأنها تجري كالماء أو للإشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامع لما يطلب من أنواع الأشربة لكمال اللذة ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ بخلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب وبيضاء ولذَّةٍ صفتان لكأس، قال الحسن خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ووصفها بلذة للمبالغة أو لأنها تأنيث لذ بمعنى لذيد كطب ووزنه فعل.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي غائلة من غاله يغوله إذا أفسده ومنه الغول يعني ليس فيها شيء من أنواع الفساد كما في خمر الدنيا من المفاسد من ذهاب العقل ووجع البطن والصداع والقيء والبول ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي[1] بكسر الزاء من الإنزاف ووافقهما حفص في الواقعة والباقون بفتحَ الزاء فيهما ولا خلاف في ضم الياء يقال نُزِفَ الشارب على البناء للمفعول فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله وأنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه وأصله النفاد ونزف لازم ومتعد كذا في القاموس وأنزفتُ الشيء أبلغ من نزفتُه أفرد النزف بالنفي وعطف على ما يعمه لأنه من أعظم فساده ذهاب عقله وأشد على الشارب نفاد شرابه ﴿وَعِندَهُمْ﴾ عطف أو حال ﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي أزواج قصرن عيونهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم لحسنهم عندهن ﴿عِينٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هن عينٌ أي حسان الأعين يقال رجل أعين وامرأة عيناء ورجال ونساء عين ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾ للنعام، أخرج ابن جرير عن أم سلمة عنه ﷺ «العين الضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر»[2] وعنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ قال رقتهن كرقة الجلدة في داخل البيضة التي على القشر ﴿مَّكْنُونٌ﴾ بريشه لا يصل إليه غبار والبيضُ جمع بيضة لعوده على لفظه، قال الحسن شبههن ببيض النعامة لأنها تكفها بريشها من الريح والغبار فلونها أبيض في صفرة ويقال هذا أحسن ألوان النساء أن يكون بيضاء بصفرة والعرب تشبهها ببيض النعامة.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ أي بعض أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عما مضى عليه في الدنيا حال والجملة معطوفة على يُطافُ عليهم أي يشربون فيتحادثون على الشراب قال الشاعر[3]:

ومـا بـقـيـت مـن الـلـذات إلا أحـاديـث الـكـرام عـلـى الـمـدام

فإنه ألذ تلك اللذات إلى العقل والتعبير بالماضي للتأكيد ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الجنة بيان للتساؤل ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ في الدنيا ينكر البعث، قال مجاهد كان شيطاناً، وقال الآخرون كان من الإنس، وقال مقاتل كانا أخوين، وقال الباقون كانا شريكين أحدهما كافر اسمه مطروس والآخر مؤمن اسمه يهودا وهما اللذان قص الله خبرهما في سورة

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/٢٧.
(٣) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة في «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» لابن عرب شاه ص٥٠.

الكهف ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [النحل: ٧٦] ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ البعث استفهام للتوبيخ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ مجزيون بعد البعث كرر الاستفهام لغاية الاستبعاد والإنكار ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي أهل النار لأراكم ذلك القرين، وقيل القائل هو الله أو بعض الملائكة يقول لهم هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأراكم ذلك القرين ولتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم، قال ابن عباس إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى النار ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ هذا المؤمن على أهل النار ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي قرينه ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وسطه يسمى وسط الشيء سواء لاستواء الجوانب منه، أخرج هناد عن ابن مسعود في الآية قال فاطَّلَعَ ثم التفت إلى أصحابه فقال رأيتُ جماجم القوم تغلي ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ قرأ يعقوب بإثبات الياء في الحالين وورش وصلاً فقط والباقون بحذفها في الحالين يعني كدت لتهلكني بالإغواء أن مخففة من الثقيلة واللام فارقة ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ بالهداية والعصمة ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني لسنا ممن شأنه الموت إلا التي كانت في الدنيا فالمستثنى مفرغ منصوب على المصدرية من اسم الفاعل أو المعنى فما نحن نموت أبداً إلا التي كانت في الدنيا فالاستثناء منقطع والفاء للعطف على محذوف تقديره أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين والاستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على إقرار ما كان ينكره في الدنيا بقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ وذلك تمام كلامه لقرينه تقريعاً له وجاز أن يكون هذا معاودة إلى كلامه مع جلسائه تحدثاً بنعمة الله وتعجباً منها وتعريضاً للقرين بالتوبيخ، وقال بعضهم يقول أهل الجنة للملائكة حين تذبح الموت استبشاراً أو تبجحاً أفما نحن بميتين فتقول الملائكة لا فيقولون ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الخلود في النعيم ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ويحتمل أن يكون هذا من كلام الله كقوله تعالى ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ المنزل أو لمثل هذا النعيم لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام سريعة الزوال ﴿ٱلْعَٰمِلُونَ﴾.

﴿أَذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر لأهل الجنة ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ التي هي نزل أهل النار وهي شجرة مرة خبيثة كريهة الطعم يُكره أهل النار على تناولها يزقّمونه على أشد كراهية ومنه قولهم تزقَّم الطعام إذا تناوله على كره ومشقة، وانتصاب نزلاً على التميز والحال وفي ذكره دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقدم للنازل ولهم ما وراء ذلك ما يقصر عنه الأفهام وكذلك الزقوم لأهل النار. أخرج الترمذي وصححه النسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف من يكون طعامه»[١] وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو نعيم عن أبي عمران الخولاني في شجرة الزقوم قال بلغنا أن ابن آدم لا ينهش منها نهشة إلا نهشت منه مثلها ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا﴾ أي

---

(١) أخرجه الترمذي في جهنم باب ٤، وابن ماجه في الزهد باب ٣٨، وأحمد في المسند ١/ ٣٠١، ٣٣٨.

شجرة الزقوم ﴿فِتْنَةً﴾ أي محنةً وعذاباً في الآخرة أو ابتلاءً في الدنيا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أي الكافرين كانوا يقولون كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر، وقال ابن الزبعرى لصناديد قريش إن محمداً يخوفنا بالزقوم والزقوم بلسان بربر الزبد والتمر فأدخله أبو جهل في بيته وقال يا جارية زقِّمينا فأتتهم بالزبد والتمر فقال تزقموا هذا ما يوعدكم به محمد، وأخرج ابن جرير عن قتادة قال قال أبو جهل زعم صاحبكم هذا إن في النار شجرة والنار تأكل الشجر وإنَّا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجرة ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ أي قعر النار وأخرج نحوه عن السدي قال الحسن أصلها في قعر جهنم وأغصانها ترفع إلى دركاتها ﴿طَلْعُهَا﴾ أي ثمرها سمي طلعاً لطلوعه ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قال ابن عباس هم الشياطين بأعيانهم شبَّه بها لقبحه فإن الناس إذا وضعوا شيئاً بغاية القبح قالوا كأنه شيطان وإن كانت الشياطين لا ترى لأن قبح صورتها يتصور في النفس، وقال بعضهم الشياطين حيات هائلة قبيحة المنظر لها أعراف ولعلها سميت بها لذلك، وقيل هي شجرة قبيحة مرة منتنة تكون في البوادي تسميها العرب رؤوس الشياطين ﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا﴾ أي من الشجرة أو من طلعها الفاء للسببية تعليل لكونه فتنة ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ لغلبة الجوع أو الإكراه على أكلها والمَلأ حشو الإناء بما لا يحتمل المزيد عليه ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي على أكلها بعدما ملؤوا بطونهم وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم ويجوز أن يكون ثم لِمَا في شرابهم من مزيد الكراهة ﴿لَشَوْبًا﴾ خلطاً ومزجاً ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ متعلق بشوباً وحميم ماء حار شديدة الحرارة يعني يشربون الحميم فيصير في بطونهم شوباً له ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ قال البغوي وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج من الجحيم كما يورد الإبل إلى الماء ثم يردُّون إلى الجحيم يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤] وقرأ ابن مسعود ﴿إن مقيلهم لإلى الجحيم﴾.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ أي وجدوا ﴿ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي يسرعون، الجملة في مقام التعليل أي استحقوا تلك الشدائد تقليداً للآباء في الضلال مسرعين من غير نظر وبحث ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ﴾ عطف على إنهم ألفوا ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل مشركي مكة ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الخالية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي أنبياء أنذروهم من العواقب ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الاستفهام للتعجب والاستعظام والجملة الاستفهامية بتأويل المفرد مفعول لانظر والغرض منه التحقيق أي كان عاقبتهم العذاب في الدنيا والآخرة ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ استثناء من مضمون الجملة السابقة أي إلا الذين تنبهوا بإنذارهم فأخلصوا دينهم لله فإنهم نجوا من العذاب وقرىء بالفتح أي الذين أخلصهم لدينه، والخطاب مع الرسول ﷺ والمقصود خطاب قومه فإنهم أيضاً سمعوا أخبارهم ورأوا آثارهم.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ

مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ
أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟
بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾

ثم شرع في تفصيل القصص بعد إجمالها فقال ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد العام يعني ولقد ضل قبلهم قوم نوح فأرسلنا فيهم نوحاً منذراً فدعاهم إلى الإسلام فلم يؤمنوا حتى أَيِسَ من إسلامهم ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] فنادانا أي دعانا بإهلاك قومه فأجبناه أحسن الإجابة ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أي فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف ما حذف لقيام ما يدل عليه ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ عطف على فأجبناه المقدر ﴿وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي من أذى قومه ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ يعني لم يبق لأحد من قومه ذرية إلا لنوح، أخرج الترمذي وغيره عن سمرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قال: «حام وسام ويافث»[(١)] وأخرج من وجه آخر قال: «سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم»[(٢)] روى الضحاك عن ابن عباس أنه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه من الرجال والنساء إلا ولده[(٣)] ونساؤهم، الظاهر من قصة نوح في القرآن أنه غرق في الطوفان كل من كان في الأرض إلا من آمن بنوح وركب السفينة ثم لم يبق لأحد ذرية إلا لنوح متناسلين إلى يوم القيامة، قال سعيد بن المسيب كان ولد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والروم والفارس وحام أبو السودان ويافث أبو الترك والخوز ويأجوج ومأجوج وما هنالك يعني وما في بلاد الشرق من الهند وغير ذلك، قلتُ: وعندي أن نوحاً لم يكن مبعوثاً إلى كافة الناس فإن الإرسال إلى الناس كافةً كان من خصائصه ﷺ بل كان مبعوثاً إلى قومه خاصة فلم يؤمنوا فدعا عليهم فأهلكوا بالطوفان والمراد بالأرض في قوله تعالى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] أرضه المعهود فعلى هذا الحصر في هذه الآية إضافي يعني جعلنا ذريته هم الباقين من قومه ﴿وَتَرَكْنَا

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير حديث ٣٢٣٠.

(٢) أخرجه الترمذي حديث ٣٢٣١، ٣٩٣١، وأحمد في المسند ٥/٩، ١١، والطبراني في المعجم الكبير ٧/ ٢٥٤، ١٨/ ١٤٦.

(٣) لكن الظاهر عندي أن كل من كان في السفينة كانوا من ذرية نوح عليه السلام من أولاد سام أو حام أو يافث فان لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يقتضي أن يكون أولاده في هذه المدة الطويلة كثيرة جداً فلم يؤمن بهم إلا شرذمة قليلة وهم ركبوا السفينة ـ ١٢ ـ منه نوّر الله مرقده.

﴿عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ من الأمم هذا الكلام ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ جيء به على الحكاية والمعنى يسلمون عليه تسليماً ويقولون هذا القول، وقيل هو سلام من الله ومفعول تركنا محذوف تقديره تركنا عليه الثناء والذكر الجميل وفي العالمين متعلق بالظرف المستقر أي عليه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ يعني إنا نجزي كل محسن جزاء كذلك الجزاء أو الذي جزينا نوحاً بإبقاء الذكر الجميل والسلام قولاً من رب العالمين ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ يعني إنما جزيناه ذلك الجزاء بإيمانه وإحسانه وفيه بشارة للمحسنين من أمة محمد ﷺ ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ يعني غير المحسنين من قومه عطف على نجينا.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ عطف على قوله ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ يعني ممن شايعه في الإيمان وأصول الدين أو في الفروع أيضاً جميعها أو أكثرها ﴿لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وست مائة وأربعون سنة وكان بينهما هود وصالح عليهم السلام ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ يعني توجه إليه، والظرف متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة يعني تابعه وقت مجيئه أو بمحذوف وهو اذكر ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ من الاشتغال بغير الله تعالى خالياً عن الغير وحبه كما يدل عليه قصة ذبح ابنه لامتثال أمر ربه ﴿إِذۡ قَالَ﴾ بدل من إذ السابقة أو ظرف لجاء أو لسليم ﴿لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾ استفهام توبيخ، على عبادة الحجارة ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ هذا الاستفهام أيضاً توبيخ بعد توبيخ آلهةً مفعول به لتُرِيدُونَ ودُوْنَ الله صفة لآلهة وإفكاً مفعول له قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم عليه المفعول له لأن الأهم أن يقرر أن مبني أمرهم على الإفك والباطل، وجاز أن يكون إفكاً مفعولاً به وآلهةً بدل منه على أنها إفك في أنفسها مبالغة وأن يكون إفكاً حالاً بمعنى آفكين ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي بمن هو حقيق لكونه رباً للعالمين حتى تركتم عبادته أو أشركتم به غيره آمنتم من عذابه، والمعنى إنكار ما يوجب الظن فضلاً عن موجب القطع الذي يصد عن عبادته أو يجوز الإشراك به أو يقضي الأمن من عقابه على طريقة الإكرام وهو كالحجة على ما قبله.

﴿فَنَظَرَ﴾ عطف على قال ﴿نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ أي في مواقعها واتصالاتها أو في علمها أو في كتابها وهذا يدل على أن النظر في علم النجوم وتعليمه وتعلمه كان جائزاً في شريعته لكن صار منسوخاً في شريعتنا حيث قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»[1] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عباس ورواه رزين وزاد «المنجم كاهن والكاهن ساحر والساحر كافر» والمعنى أن ثلاثتهم في الكفر بمنزلة واحدة، ويمكن أن يقال إنما يحرم النظر في علم النجوم إذا أسند الحوادث إلى الكواكب وأما إذا أسندها إلى الله سبحانه وجعل اتصالات النجوم علامات بحسب جري عادة الله على خلق

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب باب ٢٢، ٥١، وابن ماجه في الأدب باب ٢٨، وأحمد في المسند ١/ ٢٢٧، ٣١١.

بعض الأشياء عند تلك الاتصالات كما أن الله تعالى يخلق الشفاء غالباً عند شرب الدواء ويخلق الموت عند شرب السم ويخلق أفعال العباد عند القصد المصمم منهم فلا بأس به، ولعل النبيّ ﷺ إنما نهى عن اقتباس علم النجوم لئلاً يسند الناس الحوادث إلى الكواكب. عن زيد بن خالد الجهني قال صلّى لنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأمّا من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب»[١] متفق عليه، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا اصبح فريق من الناس بها كافرين ينزّل الغيث فيقولون بكوكب كذا وكذا»[٢] رواه مسلم، وقد ذكر الإمام محمد الغزالي رحمه الله في كتابه المنقذ من الضلال أن علم الطب والنجوم أنزلهما الله تعالى على بعض الأنبياء ثم بقي العلمان بأيدي الكفرة، ويدل على إفادة علم النجوم علماً ظنياً (مثل الطب) إخبار المنجمين فرعون بولادة موسى وزوال ملكه على يديه.

وروى البخاري في الصحيح بسنده عن الزهري «أنه كان ابن الناطور (صاحب إيليا وهرقل) أسقُفاً[٣] على نصارى الشام يحدث أن هرقل لما قدم إيليا أصبح يوماً خبيث النفس فقال بعض بطارقته[٤] قد استنكرنا هيئتك (قال ابن الناطور وكان هرقل حزّاء[٥] ينظر[٦] في النجوم) فقال لهم حين سألوه إني رأيتُ الليلة حين نظرتُ في النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة، قالوا ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فليقتل من فيهم من اليهود فبينما هو على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان بخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلمّا استخبره هرقل قال اذهبوا فانظُرُوا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب فقال هم يختتنون، فقال هرقل ملك هذه الأمة قد ظهر ثم كتب هرقل إلى صاحب له برؤيته وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان باب ١٥٦، والاستسقاء باب ٢٨، والمغازي باب ٣٥، ومسلم في الإيمان حديث ١٢٥، وأبو داود في الطب باب ٢٢، ومالك في الاستسقاء باب ٤، وأحمد في المسند ٤/ ١١٧.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٢٦، وأحمد في المسند ٢/ ٤٢١.

(٣) أسقف رئيس دين النصارى وعالمهم.

(٤) هم خواص دولة الروم.

(٥) أي كاهناً.

(٦) ينظر في النجوم إن جعل خبراً ثانياً فلا بعد لأنه كان ينظر في الأمرين. وإن جعل تفسيراً للأول فالكهانة تارة يستند إلى إلقاء الشياطين وتارة يستفاد من أحكام النجوم ـ ١٢ ـ فتح الباري منه رحمه الله ـ.

حمص فلم يرم بحمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبيّ ﷺ وأنه نبي»[١]. قال الشيخ ابن حجر رواية الزهري موصولة لابن الناطور لا معلقة، قد بين أبو نعيم في دلائل النبوة أن الزهري قال لقيتُ ابن الناطور بدمشق في زمن عبد الملك بن مروان وأظنه لم يتحمل عنه ذلك إلا بعد أن أسلم. فإن هذا الحديث وأمثاله يدل على إفادة علم النجوم نوعاً من العلم، لكن لما كان الاشتغال به موجباً لما ذكرنا من المفسدة وهو إسناد الحوادث إلى الكواكب وكان اشتغاله إضاعة للأوقات لكونها غير نافعة في الدين نهى النبيّ ﷺ عن الاشتغال به والظاهر أن الاشتغال بعلم النجوم كان جائزاً في دين عيسى عليه السلام وإلا لم يشتغل به علماء النصارى والله أعلم.

ومن زعم أن علم النجوم باطل لا أصل له قال إن هذا القول من إبراهيم كان إيهاماً منه، قال ابن عباس كان قومه يتعاطون علم النجوم فعاملهم من حيث كانوا لئلا ينكروها عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزم الحجة عليهم في أنها غير مستحقة للعبادة وكان لهم من الغد عيد ومجمع فكانوا يدخلون على أصنامهم ويفرشون لهم الفراش ويضعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم زعموا التبرك عليه فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه وقالوا لإبراهيم تخرج غداً هنا إلى عيدنا ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ قال ابن عباس أي مطعون وكانوا يفرون من الطاعون، وقال الحسن أي مريض وقال مقاتل وجع، في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين منه في ذات الله قوله إني سَقِيمٌ وقوله بل فَعَلَه كِبَيرُهُمْ هذا»[٢] الحديث وذكر الثالث قوله لسارة أختي وقد مر الحديث في سورة الأنبياء، والمراد بالكذبات التعريضات والتّورية، قال الضحاك معناه سأسقم، وقيل تأويله أن من في عنقه الموت سقيم ومنه ما قيل إن رجلاً مات فجاءةً فقالوا مات وهو صحيح فقال أعرابي أصحيح من الموت في عنقه، وقيل أراد إني سقيم النفس لكفركم وقد ذكرنا تأويلات قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣] في سورة الأنبياء ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى عيدهم فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها كما قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي دخل عليها خفيةً من روغه الثعلبُ أصله الميل بحيلة، وقال البغوي لا يقال راغ حتى يكون صاحبه مخفياً لذهابه ومجيئه ﴿فَقَالَ﴾ إبراهيم استهزاءً ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ الطعام الذي بين أيديكم ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ بجوابي حال، والعامل فيه معنى الفعل في ما لكم أي ما تصنعون حال كونكم غير ناطقين ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي مال عليهم مستخفياً والتعدية بعلى للاستعلاء ولأن المراد الميل المكروه ﴿ضَرْبًۢا﴾ منصوب على المصدرية لأن في راغَ معنى ضرب أو بفعل محذوف أي فضرب

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي باب ٦.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٨، والنكاح باب ١٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٥٤، وأبو داود في الطلاق باب ١٦، والترمذي في تفسير سورة ٢١، باب ٣، وأحمد في المسند ٢/ ٤٠٣.

ضرباً ﴿بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي بيد اليمنى لأنه أقوى من اليسار وقيل أراد به القسم الذي سبق منه وهو قوله ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، يعني أقبل قوم إبراهيم إليه بعدما رجعوا ورأوا أصنامهم مكسورة وسألوا عن كاسرها بقولهم ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩] وظنوا أنه هو حيث قالوا ﴿سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] ﴿يَزِفُّونَ﴾ قرأ الأعمش وحمزة بضم الياء والباقون بفتحها قيل هما لغتان والمعنى يسرعون، وقيل معنى يُزِفُّونَ بالضم يحملون على الزفيف يعني كان يحمل بعضهم بعضاً على الإسراع ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ أي ما تنحتونه عن الأصنام استفهام للإنكار والتوبيخ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الجملة حال من فاعل تعبدون والتقيد بالحال إنكار بعد الإنكار والظاهر أن ما مصدرية يعني والحال أن الله خلقكم وخلق أعمالكم فما لكم تتركون عبادة الخالق وتؤثرون عبادة المحتاج إليكم فهذه الآية حجة لنا على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وقالت المعتزلة ما موصولة والمعنى خلقكم وما تعملونه يعني الأصنام فإن جوهرها بخلقه تعالى وشكلها وإن كان بفعلهم (ولذلك جعل من أعمالهم) في إقداره إياهم عليه وخلقه ما يتوقف عليه من الدواعي والعدَدِ أو مصدرية والمعنى عملكم بمعنى معمولكم ليطابق ما تنحتون، قلنا الوجه هو الأول لأن الأخيرين يقتضي الحذف والمجاز ولا شك أن معمولهم ليس إلا الشكل دون جوهر الأصنام وعلى التأويلين الأخيرين أيضاً يثبت أن الشكل مخلوق لله تعالى، ومعمول أي مكسوب للعباد وهو المقصود ﴿قَالُواْ﴾ فيما بينهم لما عجزوا عن المحاجة ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنًا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي في النار الشديدة التأجج كذا في القاموس، واللام بدل الإضافة والجملة معطوفة على جمل محذوفة معطوفة بعضها على بعض تقديره فاملؤوه حطباً واضربوه بالنار فإذا التهب ألقوه في الجحيم قال مقاتل بنوا له حائطاً من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملؤوه من الحطب وأوقدوا فيها ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ﴾ أي بإبراهيم عليه السلام ﴿كَيۡدًا﴾ أي شراً وهو أن يحرّقوه كيلا يظهر عجزهم للعامة فطرحوه فيها موثقاً يداه ورجلاه ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ أي الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً واضحاً على علو شأنه، حيث جعل النار عليه برداً وسلاماً ولم يحرق منه الأوثاق وكان ذلك بأرض بابل في زمن نمرود الجبار.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم حين خرج من النار سالماً ولم يؤمنوا به ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يعني أهجر دار الكفر، وأذهب إلى حيث أتجرد فيه بعبادة ربي ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ عطف على ما يفهم من قوله فجعلناهم الأسفلين يعني خرج من النار سالماً وقال ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ إلى ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصد قصدته حيث أمرني ربي وهو الشام، وحينئذ فَرَّ إبراهيم هارباً مع سارة من أرض بابل من خوف نمرود وكانت سارة من أجمل نساء عصرها ومرّ بحدود مصر، وفرعونها يومئذ صادف بن صادف. وفي شرح البخاري لابن الملقن اسمه سنان بن علوان أخو الضحاك وقيل اسمه عمرو بن امرىء القيس فغصب سارة من إبراهيم فحمل

صادف الجبار سارة إلى قصره وجعل الله الجدر والستور لإبراهيم كقشر البيضة ينظر إليها كيلا يقيد قلبه إليها وكان رجلاً غيوراً، فلمَّا همَّ بها زلزل القصر فلم يدر أن ذلك من أجلها فتحول إلى القصر الثاني فزلزل به فتحول إلى القصر الثالث فزلزل به فقالت سارة هذا من إلى إبراهيم رد إليه امرأته، وفي رواية فلمَّا مدَّ يده إليها شلت يده فاستغاث صادف بسارة وطلب الدعاء فدعت سارة فعادت اليد كما كانت فمد يده إليها ثانية فصارت مشلولةً فطلب الدعاء منها ثانياً وعهد أن لا يفعل لهذا الفعل فدعت سارة فمد يده إليها ثالثةً فشلت يده ثالثاً وحلف إن عوفي أن لا يفعل أبداً فدعت سارة فصحت يده وروى أحمد في مسنده والبخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ «بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له إن هاهنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال من هذه؟ قال أختي فأتى سارة، فقال يا سارةُ ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني فأرسل إليها، فلمَّا دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ فقال ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق ثم تناولها ثانياً فأخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق فدعا بعض خجبته فقال إنك لم تأتيني بإنسان إنما أتيتني بشيطان فأخدَمَها هاجر فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم قالت رد الله كيد الفاجر في نحره وأخدمني هاجر»(١) وفي المواهب اللّدنية أن في رواية صارت يد صادف مغلولةً حين مدها إلى سارة، فاستغاث صادف بإبراهيم عليه السلام فدعا إبراهيم فأطلق الله يده فأعطاه هاجر أم إسماعيل عليه السلام وقال لا سبيل لي إلى سارة بعد وكانت هاجر أمينة وخازنة وجليسة وقال حين وهبها ما أجرك الخطاب لإبراهيم إن وهبها له أو لسارة إن وهبها لها فسميت هاجر من ذلك ثم وهبها إبراهيم لسارة طلباً لرضاها فلم تلد سارة قبل ولادة إسماعيل وظنت بها العقم وقالت لإبراهيم إن هاجر امرأة مرغوبة فقد وهبتُها لك لعله يكون لك منها ولد فوطئها فولدت إسماعيل عليه السلام.

قلتُ: وذلك حين دعا إبراهيم ربه وقال ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ أي وهب لي ولداً كائناً من الصالحين، قال مقاتل لما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد.

﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٨، ومسلم في الفضائل حديث ١٥٤.

ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ يعني ذا أناءة وعقل كذا في القاموس، يعني إسماعيل عليه السلام وهو الصحيح وإليه ذهب ابن عمر، وهو قول سعيد بن المسيب والشعبي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن عطاء بن أبي رباح ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال المفدي إسماعيل، وأخرج الواقدي وابن عساكر من طريق عامر بن سعيد عن أبيه أنه كانت سارة تحت إبراهيم فمكثت عنده دهراً لا يرزق ولداً فلمَّا رأت ذلك وهبت له هاجر أمة قبطية فولدت له إسماعيل فغارت من ذلك سارة وقد ذكرنا القصة في سورة إبراهيم، ثم جاء إبراهيم بها وبإسماعيل بمكة وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت كذا في البخاري وذكرنا حديث البخاري أيضاً في سورة إبراهيم، وقالت اليهود والنصارى الغلام الذي أمر إبراهيم بذبحه هو إسحاق وهذا كذب منهم. قال البغوي قال محمد بن كعب القرظي سأل عمر بن عبد العزيز رجلاً من علماء اليهود (وحسن إسلامه) أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل ثم قال يا أمير المؤمنين إن اليهود يعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم يا معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله بذبحه، ويزعمون أنه إسحاق بن إبراهيم ومن الدليل عليه أن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في يدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجاج، أخرج سعيد بن منصور والبيهقي في سننه عن امرأة من بني سليم عن عثمان بن طلحة أنه كان قرنا الكبش معلقين بالكعبة وقال البغوي قال الشعبي رأيتُ قرني الكبش منوطين بالكعبة، وقال ابن عباس والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش تعلق بقرنيه وميزاب الكعبة قد وحش يعني يبس، قال الأصمعي سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسماعيل أو إسحاق قال يا أصمع أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة إنما كان إسماعيل وهو الذي بنى البيت مع أبيه، قال البغوي وكلا القولين يروى عن رسول الله ﷺ، قلتُ وقول البغوي هذا كناية عن أنه لم يثبت عن النبيّ ﷺ في الباب شيء إذ لو صح أحدهما لم يعتد بقول آخر، وما ذكر البغوي أنه ذهب من الصحابة عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس ومن التابعين وأتباعهم كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي وهو رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس إلى أنه إسحاق، وقال سعيد بن جبير أدى إبراهيم ذبح إسحاق بالشام فسار به مسيرة شهر في غدوة واحدة حتى أتى به المنحر بمنى فلمَّا أمره الله بذبح الكبش وذبحه سار به مسيرة شهر في روحة واحدة فطويت له الأودية والجبال، فلعل من قال منهم هذا القول اعتمد على أخبار اليهود والله أعلم.

والدليل على كون إسماعيل مأموراً بذبحه أنه هو المولود أولاً بعد الهجرة إلى الشام

إجماعاً وقد عطف الله قوله ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ على قوله ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ بالفاء لموضوع للتعقيب بلا تراخ وأما إسحاق فقد ولد بعد ذلك بتراخ والمأمور بذبحه إنما هو ذلك المبشر به لمَّا بلغ معه السعي، ولأن البشارة بإسحاق بعد ذلك معطوفة على البشارة بهذا الغلام فهو غير، ذلك دليل واضح على أنه غيره لا يقال إن البشارة التي بعد ذلك المعطوفة إنما هي بشارة بنبوة إسحاق لا بولادته كما قيل بشر إبراهيم بإسحاق مرتين مرةً بولادته ومرة بنبوته لأنه خلاف ظاهر الآية فإن الله تعالى قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ يعني بشرناه بنفس إسحاق حال كونه مقضياً بالنبوة والصلاح ولم يقل بشرناه بنبوة إسحاق وصلاحه والصرف عن الظاهر لا يجوز بلا ضرورة، ولأن سارة لمّا بشرت بإسحاق بشرت معه بيعقوب ولداً منه حيث قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فلا يتصور الأمر بذبحه مراهقاً قبل ولادة يعقوب.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ عطف على جملة محذوفة تقديره فولد له الغلام فلما بلغ معه السعي أي بلغ أن يسعى معه في أعماله ويعينه، وقال الكلبي يعني العمل لله وهو قول الحسن ومقاتل بن حبان وابن زيد قالوا هو العبادة، وقال ابن عباس وقتادة لما بلغ أن يسعى إلى الجبل معه وقال مجاهد عن ابن عباس يعني أنه شبَّ حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم، قيل كان سنه ثلاث عشرة سنة وقيل سبع سنين، والظرف أعني معه متعلق بمحذوف دل عليه السعي لا به لأن صلة المصدر لا يتقدمه ولا يبلغ فإن بلوغهما لم يكن معاً كأنَّه قال فلمَّا بلغ السعي فقيل مع من فقيل معه كذا قيل، والأولى أن يقال إنه ظرف مستقر حال من السعي ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ قرأ حفص بفتح الياء ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ يحتمل أنه رأى ذلك ويحتمل أنه رأى ما هو تعبيره، قال محمد بن إسحاق كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت بالشام حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي، وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته أمر في المنام أن يذبحه وذلك أنه رأى ليلة التروية كأنَّ قائلاً يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلمَّا أصبح روّى في نفسه أي فكر من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى في المنام ثانياً فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فمن ثم سمي عرفة كذا أخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال ابن إسحاق وغيره فلمَّا أمر إبراهيم بذبح ابنه قال لابنه خذ الحبل والمدية ننطلق إلى هذا الشعب نحتطب فلمَّا خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أمر به، قال مقاتل رأى في المنام ثلاث ليال متتابعات فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه إني أرى في المنام أني أذبحك وقال السديُّ لمَّا دعا إبراهيم فقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ وبشر به قال هو إذاً لله ذبيح فلمَّا ولد وبلغ معه السعي قيل له يعني من الله أوفِ بنذرك هذا هو السبب في أمر الله بذبح ابنه، وهذا القول ينافي الابتلاء، قال البغوي إنه قال إبراهيم لإسماعيل انطلق نقرب قرباناً لله عزَّ وجلَّ فأخذ سكيناً وحبلاً فانطلق معه حتى ذهب به بين

الجبال فقال الغلام يا أبت أين قربانك قال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو[١] بفتح ياء المتكلم في إني أرى وإني أذبحك والباقون بإسكانها فيهما ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي[٢] بضم التاء وكسر الراء من الإفعال من الرأي لا من الرؤية أي ماذا تشير وإنما استشاره ليعلم صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته والباقون بفتح التاء والراء وأبو عمرو يميل[٣] فتحة الراء ﴿قَالَ﴾ إسماعيل ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تُؤْمَرُ به فحذفا دفعةً أو على الترتيب أو افعل أمرك أي مأمورك والإضافة إلى المأمور، وهذا يدل على أن رؤيا الأنبياء وحي واجب الامتثال وقد روى عبد بن حميد عن قتادة أن رؤيا الأنبياء وحي، وروى البخاري في الصحيح عن أبي سعيد الخدري ومسلم عن ابن عمر وأبي هريرة وأحمد وابن ماجه عن أبي رزين والطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»، ولا شك أن رؤيا الأنبياء كلها صالحة لا تحتمل الفساد وأما رؤيا غيرهم فمنها صالحة ومنها دون ذلك ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ قرأ نافع[٤] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي استسلما وانقادا وخضعا لأمر الله، وقال قتادة أي أسلم إبراهيم ابنه وأسلم ابنه نفسه ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ أي صرعه على الأرض ﴿لِلْجَبِينِ﴾ قال ابن عباس أضجعه على جنبه على الأرض والجبهة بين الجنبين وكان ذلك عند الصخرة بمنى أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس، وأخرج البغوي عن عطاء بن السائب عن رجل من قريش عن أبيه عن النبيّ ﷺ أنه بالمنحر الذي ينحر فيه اليوم، قال البغوي قالوا قال له ابنه يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب واكفف عنّي ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فينقص أجري وتراه أمي فتحزن واستحد شفرتك وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون عليَّ فإن الموت شديد وإذا أتيتَ أمي فاقرأ عليها السلام مني وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها، قال إبراهيم عليه السلام: نِعْمَ العون أنتَ يا بني على أمر الله ففعل إبراهيم ما قال له ابنه ثم أقبل عليه وقبله وربطه وهو يبكي ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم يحك السكين وروي أنه كان يمرُّ الشفرة على حلقه ولا يقطع فشحذه مرتين أو ثلاثاً بالحجر كل ذلك لا يقطع، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السديّ أنه أمرَّ السكين بقوّته على حلقه مراراً فلم يقطع وضرب الله على حلقه صفحة من نحاس، قالوا فقال الابن عند ذلك يا أبت كبني لوجهي على جنبي فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك رقة تَحُولُ بينك وبين أمر الله وإني لا أنظر إلى الشفرة فأجزع ففعل

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٣) وورش يقلله ـ أبو محمد ـ.
(٤) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

ذلك إبراهيم ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أيضاً أن إبراهيم كبّه على وجهه.

وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله لمَّا أراد إبراهيم ذبح ابنه قال الشيطان لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً فتمثل الشيطان رجلاً فأتى أم الغلام فقال لها هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت ذهبا يحتطبان من هذا الشعب، قال لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت لا هو أرحم به وأشد حباً له من ذلك قال إنه يزعم أن الله أمره بذلك، قالت فإن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على أثر أبيه فقال يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال لا والله ما يريد إلا أن يذبحك، قال ولِمَ؟ قال يزعم أن ربه أمره بذلك، قال فليفعل ما أمر به ربُّه سمعاً وطاعةً فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم، فقال له أين تريد أيها الشيخ؟ قال أريد هذا الشعب لحاجة لما فيه، قال والله إني لأرى أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا فعرفه إبراهيم، فقال إليك عني يا عدو الله فوالله لأمضِيَنَّ لأمر ربي فرجع إبليس بغيظه، ولم يصب من إبراهيم وآله شيئاً ممَّا أراد وامتنعوا منه بعون الله عزَّ وجلَّ. وروى أبو الطفيل عن ابن عباس أن إبراهيم لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر سابقة فسبقه إبراهيم ثم ذهب الجمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أدركه عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله عزَّ وجلَّ وَتَلَّه للجبين.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ قال البغوي الواو زائدة وناديناه جواب لمَّا، وقال البيضاوي جواب لمَّا محذوف تقديره كان ما كان، فما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق بما لم يوفق غيرهما لمثله وإظهار فضلهما به على العالمين مع إحراز الثواب الجزيل إلى غير ذلك، قلتُ: وجاز أن تكون الواو للعطف على جواب لمَّا المحذوف تقديره فلما أسلما وتله للجبين منعنا عنه الذبح وناديناه ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ أن مفسرة ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ حيث أتيتَ من الفعل ما كان مقدوراً لك والمطلوب من التكليف والابتلاء هو الإتيان بالمقدور لا غير، وقيل كان رأى في المنام معالجة الذبح ولم ير إراقة الدم وقد فعل في اليقظة ما رأى في النوم وعلى هذا ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ حقيقة في معناه وعلى الأول مجاز، فإن قيل على التقدير الثالث ألم يكن ذبح الولد عليه واجباً وإنما كان الواجب عليه معالجة أسباب الذبح فما معنى قوله ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾ فإن الفداء لا يتصور إلا بعد الوجوب؟ قلنا على التقدير الثاني إذا كان معالجة الذبح واجباً أصالةً صار الذبح واجباً دلالة لكونه لازماً له عادة فصح إطلاق الفداء عليه وهذا نسخ للحكم قبل القدرة على إتيانه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠﴾ تعليل

لفرج تلك الشدة عنهما بإحسانهما يعني إنا نجزي المحسنين بإحسانهم جزاء مثل ما جزينا إبراهيم، وعفوناه عن ذبح الولد مع ما أعطيناه من الثواب العظيم وفضلناه به على العالمين ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الأمر بتذبيح ابنه ﴿لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الاختبار الظاهر الذي به يتبين المخلص من غيره أو المحنة والصعوبة البينة فإنه لا أصعب منها، وقيل المراد بالبلاء هو النعمة وهي أن فدى ابنه بالكبش.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ عطف على نادينا، روي أنه لما سمع إبراهيم النداء نظر إلى السماء فإذا هو بجبرئيل ومعه كبش أملح أقرن وقال هذا فداء لابنك فاذبحه دونه فكبر جبرئيل وكبر الكبش وكبر إبراهيم وكبر ابنه فأخذ إبراهيم الكبش وأتى المنحر من منى فذبحه والفادي على الحقيقة إبراهيم، وإنما قال وَفَدَيْنَاهُ لأنه المعطى له والأمر به على التجوز في الفداء أو الإسناد ﴿عَظِيمٍ﴾ أي عظيم الجثة سمين أو عظيم القدر في الثواب، وقال الحسين بن الفضل لأنه كان من عند الله، قال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيماً، وقال مجاهد سماه عظيماً لأنه متقبل، قال البغوي قال أكثر المفسرين كان ذلك في الجنة أربعين خريفاً وأخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ورُوي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي كان قربه ابن آدم هابيل. استدل الحنفية بهذه الآية على أنه من نذر بذبح ولده لزمه ذبح شاة، قال البيضاوي وليس فيها ما يدل عليه، قلتُ: قد ذكرنا المسألة في سورة الحج في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ[1]﴾ [الحج: ٢٩] وذكرنا أن القياس يقتضي أن لا يلزمه شيء لأنه نذر بالمعصية وبه قال أبو يوسف لكن استحسن أبو حنيفة أنه يلزمه شاة لأن الحقيقة إذا كانت مهجورة شرعاً تعين المجاز فلما نذر بذبح الولد حملناه على التزامه بدل أعني الشاة بدليل هذه الآية حيث جعل الله تعالى كبشاً فداء لابن إبراهيم عليهما السلام وبه أفتى ابن عباس كما ذكرنا هناك ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي على إبراهيم عطف على صدر القصة يعني ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وجاز أن يكون عطفاً على فَدَيْنَاهُ ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ من الأمم الثناء والذكر حذف المفعول لدلالة سياق الكلام وجاز أن يكون قوله ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ بتقدير هذا القول مفعولاً لتركنا ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للسلام ولعله طرح عنه إنا اكتفاء بذكره مرةً في هذه القصة ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ أي بأن نهب لك ولذلك سمي إسحاق ﴿نَبِيًّا﴾ أي مقضياً نبوته مقدراً ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا يقدح فيه عدم المبشر به وقت البشارة، فإن وجود ذي الحال ليس بشرط بل الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار المعنى بالحال فلا حاجة إلى تقدير المضاف يجعل عاملاً فيهما مثل وَبَشَّرْنَاه بوجود إسحاق أي بأن يوجد إسحاق نبياً من الصالحين ومع ذلك لا يصير نظير قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] فإن الداخلين مقدرون خلودهم وقت الدخول وإسحاق لم يكن مقدراً نبوة نفسه

(١) وفي الأصل: نذوركم.

وصلاحه حيث ما يوجد، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة ثناء عليه وتعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي أفضينا بركات الدين والدنيا عليه، وقيل باركنا أي على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ بكون ألف نبي من نسله أولهم يعقوب وآخرهم عيسى ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ﴾ في عمله أو على نفسه بالإيمان والطاعة ﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿مُبِينٞ﴾ ظاهر ظلمه وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأن الظلم في أعقابهما لا يضرهما.

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا﴾ أنعمنا بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عطف على ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ﴾ وبينهما معترضات ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي من فرعون يسومهم سوء العذاب وقيل من الغرق ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ يعني موسى وقومه ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ على فرعون وقومه ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾ البالغ في بيان أحكام الله وشرائعه ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ الطريق الموصل إلى الحق والصواب لمن يسلكه ﴿ عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ سبق مثل ذلك.

﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ﴾ قرأ ابن ذكوان برواية النقاش عن الأخفش بحذف الهمزة والباقون بتحقيقها ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ عطف على ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا﴾ روي عن عبد الله بن مسعود قال الياس هو الإدريس وفي مصحفه إن إدريس لمن المرسلين وهذا قول عكرمة وقال الآخرون هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، قال ابن عباس هو ابن عم اليسع، وقال محمد بن إسحاق هو الياس بن بشر بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران عليه السلام، وقال أيضاً محمد بن إسحاق والعلماء من أصحاب الأخبار لما قبض الله عزَّ وجلَّ قبله نبياً عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وظهر الشرك ونصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله فبعث الله إليهم إلياس نبياً وكانت الأنبياء من بني إسرائيل يبعثون بعد موسى بتجديد ما نسوا من التوراة، وبنو إسرائيل كانوا متفرقين في أرض الشام وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح الشام بوأها بني

إسرائيل وقسمها بينهم فأحل سبطاً منهم بعلبك ونواحيها وهم الذين كان منهم إلياس فبعثه الله إليهم نبيّاً وعليهم يومئذ ملك يقال له أجُبُ فداخل قومه وأجبرهم على عبادة الأصنام وكان يعبد صنماً يقال له بعل وكان طوله عشرون ذراعاً ولها أربعة وجوه، فجعل إلياس يدعوهم إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ وهم لا يسمعون منه شيئاً إلا ما كان من أمر الملك فإنه صدقه وآمن به فكان إلياس يقوّم أمره ويسدّده ويرشده، وكانت لأجب امرأة يقال لها إزبيل فكان يستخلفها على رعيته إذا كان غائباً في غزاة وغيرها وكانت تبرز وتقضي للناس وكانت قَتَّالة للأنبياء ويقال هي التي قتلت يحيى بن زكريا عليهما السلام ـ وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكتم إيمانه وكان قد خلص من يدها ثلاث مائة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قتلتهم وكانت في نفسها غير محصنة وكانت قد تزوجت سبعة من ملوك بني إسرائيل وقتلت كلهم بالاغتيال وكانت معمرة يقال إنها ولدت سبعين ولداً.

وكان لأجب هذا جار رجل صالح يقال له مزدكي وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها ومرمتها وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملِك وامرأته وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويغسلان فيها وكان أجُبُ الملِك يحسن جوار صاحبه مزدكي، ويحسن إليه وامرأته إزبيل تحسده لأجل تلك الجنينة وتحتال أن تغصبها منه لما تسمع الناس يكثرون ذكرها ويتعجبون من حسنها وتحتال أن تقتله والملك ينهاها من ذلك فلم تجد إليه سبيلاً، ثم إنه اتفق خروج الملِك إلى سفر بعيد فطالت غيبته فاغتنمت امرأته إزبيل وأمرت رجالاً يشهدوا على مزدكي أنه سبَّ زوجها أجَبُ فأجابوها إليه وكان في حكمهم في ذلك الزمان القتل على من سب الملِك، فأقامت عليه البينة وأحضرت مزدكي وقالت بلغني أنك شتمتَ الملِك فأنكر المزدكي وأحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور فأمرت بقتله وأخذت جنينته فغضب الله عزَّ وجل عليهم للعبد الصالح، فلمَّا قدم الملِك من سفره أخبرته الخبر فقال ما أحسنتِ ولا أرانا نفلح بعده فقد جاورنا منذ زمان وأحسَنَّا جواره وكففنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا فختمت أمره بأسوء الجوار قالت إنما غضبتُ لك وحكمتُ بحكمك، فقال لها ما كان يسعه حلمكِ فتحفظين له جواره قالت قد كانت ما كانت، فبعث الله إلياس إلى أجب الملك وقومه فأمره أن يخبرهم أن الله قد غضب لوليه حين قتلوه ظلماً وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما ولم يرد الجنينة إلى ورثة المزدكي أن يهلكهما يعني أجُب وامرأته في جوف الجنينة ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى تتعرى عظامهما من لحومهما ولا يتمتعان بهما إلا قليلاً، قال فجاء إلياس فأخبره بما أوحى الله إليه في أمره وأمر امرأته برد الجنينة فلمَّا سمع الملِك ذلك اشتد غضبه عليه ثم قال له يا إلياس ما أرى ما تدعو إليه إلا باطلاً وما أرى فلاناً وفلاناً (سمى ملوكاً منهم) قد عبدوا الأوثان إلا على مثل ما نحن عليه يأكلون ويتنعمون مملكين ما ينقص من دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل وما نرى لنا عليهم من فضل، قال وهَمَّ الملِك بتعذيب إلياس وقتله فلما أَحَسَّ إلياس الشرَّ رفضه وخرج عنه ولحق بشواهق الجبال وعاد الملك إلى عبادة

البعل وارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه[١] فدخل مغارة فيه يقال إنه بقي سبع سنين شريداً خائفاً يأوي إلى الشعاب والكهوف يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم في طلبه وقد وضعوا عليه العيون والله يستره.

فلمَّا تم سبع سنين أذن الله في إظهاره وشفاء غيظه منهم فأمرض الله عزَّ وجلَّ ابناً لأجُب وكان ذلك أحب ولده إليه وأشبههم به فأدنف[٢] حتى يئس منه فدعا صنمه بعلاً وكانوا قد فتنوا ببعل وعظموه حتى جعلوا له أربع مائة سادن، فوكلوهم به وجعلوهم أنبياء وكان الشيطان يدخل في جوف الصنم فيتكلم والأربع مائة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان ويوسوس إليهم الشيطان بشريعة من الضلال فيبينونها للناس بها ويسمونهم أنبياء، فلما اشتد مرض ابن الملِك طلب إليهم الملِك أن يتشفعوا إلى بعل ويطلبوا لابنه من قبله الشفاء فدعوه فلم يجبهم ومنع الله الشيطان فلم يمكنه الولوج في جوفه وهم مجتهدون في التضرع إليه، فلمَّا طال عليهم ذلك قالوا لأجُب إن في ناحية الشام آلهة أُخرى فابعث إليها أنبياءك فلعلها تشفع لك إلى إلهك بعل فإنه غضبان عليك ولولا غضبه عليك لأجابك، قال ومن أجل ماذا غضب عليَّ وأنا أطيعه قالوا من أجل أنك لم تقتل إلياس وفرطتَّ فيه حتى نجا سليماً وهو كافر بإلهك، قال أجب وكيف لي أن أقتل إلياس وأنا مشغول عن طلبه لوجع ابني وليس لإلياس مطلب ولا يعرف له موضع فيقصد فلو عوفي ابني لفرغتُ لطلبه حتى أجده فأقتله فأرضي إلهي، ثم إنه بعث أنبياءه الأربع مائة إلى الآلهة التي بالشام يسألونها أن تشفع إلى صنم الملك يشفي ابنه فانطلقوا حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذي فيه إلياس أوحى الله إليه أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويكلمهم وقال له لا تَخَفْ فإني سأصرف عنك شرهم وألقي الرعب في قلوبهم، فنزل إلياس من الجبل فلما لقيهم استوقفهم فلما وقفوا قال لهم إن الله عزَّ وجلَّ أرسلني إليكم وإلى من ورائكم فاستمعوا أيها القوم رسالة ربكم لتبلغوا صاحبكم فارجعوا إليه وقولوا إن الله يقول ألستَ تعلم يا أجب إني أنا الله لا إله إلا أنا إله بني إسرائيل الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم وقلة عملك حملك على أن تشرك بي وتطلب الشفاء لابنك من غيري ممن لا يملكون لأنفسهم شيئاً إلا ما شئتُ إني حلفتُ باسمي لأغضبنّك في ابنك ولأميتنه في فوره غداً حتى تعلم أن أحداً لا يملك له شيئاً دوني، فلمَّا قال لهم هذا رجعوا وقد ملئوا منه رعباً، فلما صاروا إلى الملك أخبروه بأن إلياس قد انحط عليهم وهو رجل نحيف طوال قد نحِل وتمعط[٣] شعره واقشعر[٤] جلده عليه جبة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال فاستوقفنا فلمَّا صار معنا قذف له في

---

(١) الشامخ العالي.

(٢) يعني مرض مرضاً شديداً لازماً.

(٣) أي سقط شعره من داء عرض له.

(٤) أي انقبض.

قلوبنا الهيبة والرعب وانقطعت ألسنتنا ونحن في هذا العدد الكثير فلم نقدر أن نكلمه ونراجعه، حتى رجعنا إليك وقصوا عليه كلام إلياس.

فقال أجب لا ننتفع بالحياة ما كان إلياس حيّاً ولا يطاق إلا بالمكر والخديعة فقيض له خمسين رجلاً من قومه ذوي القوة والبأس وعهد إليهم عهده وأمرهم بالاحتيال له والاغتيال[١] له وأن يطمعوه في أنهم قد آمنوا به هم ومن وراءهم ليستنيم[٢] إليهم ويغتر بهم فيمكنهم من نفسه فيأتون به ملكهم فانطلقوا حتى ارتفعوا ذلك الجبل الذي يسكن فيه إلياس ثم تفرقوا فيه ينادونه بأعلى أصواتهم ويقولون يا نبي الله أبرز إلينا وامتن علينا بنفسك فإنا قد آمنا بك وصدقناك وملكُنا أجُب وجميع الناس وأنت آمن على نفسك وجميع بني إسرائيل يقرؤون عليك السلام ويقولون قد بلغتنا رسالتك وعرفنا ما قلتَ فآمنَّا بك وأجبناك إلى ما دعوتَنا فهلم إلينا فأقم بين أظهرنا واحكم فينا فننقاد لما أمرتَنا وننتهي عما نهيتنا وليس يسعك أن تتخلف عنا مع إيماننا بك وطاعتنا فارجع إلينا، وكل هذا منهم مماكرةٌ وخديعةٌ فلمَّا سمع إلياس مقالتهم وقع في قلبه وطمع في إيمانهم وخاف الله إن هو لم يظهر لهم فألهمه الله التوقف والدعاء فقال اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لي في البروز إليهم وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم فما استتم قوله حتى حصبوا[٣] بالنار من فوقهم فاحترقوا أجمعين، قال فبلغ أجب وقومه الخبر فلم يرتدع[٤] من همه بالسوء واحتال ثانياً في أمر إلياس وقيض إليه فئةً أخرى مثل عددهم أولئك أقوى منهم وأمكن في الحيلة والرأي فأقبلوا حتى توقلوا[٥] قلل الجبال متفرقين وجعلوا ينادون يا نبي الله إنَّا نعوذ بالله بك من غضب الله وسطواته[٦] إنا لسنا كالذين أتوك قبلنا وإن أولئك فرقة نافقوا فصاروا إليك ليكيدوا من غير رأينا ولو علمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك مؤنتهم فالآن قد كفاك ربك أمرهم وأهلكهم وانتقم لنا ولك منهم، فلمَّا سمع إلياس مقالتهم دعا الله بدعوته الأولى فأمطر عليهم النار فاحترقوا عن آخرهم وفي كل ذلك ابن الملك في البلاء الشديد من وجعه.

فلمَّا سمع الملِك بهلاك أصحابه ثانياً ازداد غضباً إلى غضب وأراد أن يخرج إلى طلب إلياس بنفسه إلا أنه شغله من ذلك مرض ابنه فلم يمكنه فوجه نحو إلياس المؤمن الذي هو كاتب امرأته رجاء أن يأنس به إلياس فينزل معه وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءاً وإنما أظهر له لِمَا أطلع عليه من إيمانه وكان الملك مع اطلاعه على إيمانه مثنياً عليه لما هو

---

(١) القتل بالخديعة.
(٢) أي يسكن إليهم ويطمئن.
(٣) أي رموا بها.
(٤) أي لم يكف ولم يرتد.
(٥) أي صعدوا.
(٦) السطوة: البطش والقهر.

عليه من الكفاية والأمانة وسداد الرأي، فلمَّا وجهه نحوه أرسل معه فئة وأوغر[١] إلى الفئة دون الكاتب أن يوثقوا إلياس ويأتوه به إن أراد التخلف عنهم وإن جاء مع الكاتب وأثقاً به لم يروّعوه[٢] ثم أظهر مع الكاتب الإنابة وقد قال له: إنه قد آن لي وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذي فيه ابني وقد عرفتُ أن ذلك بدعوة إلياس ولستُ آمناً أن يدعو على جميع من بقي منا فنهلك بدعوته فانطلق إليه وأخبره أنا قد تُبنَا وأَنبنَا وأنه لا يصلحنا في توبتنا وما نريد من رضاء ربنا وخلع أصنامنا إلا أن يكون إلياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا ويخبرنا بما يرضى ربنا، وأمر قومه فاعتزلوا وقالوا له أخبر إلياس أنا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبد وأرخينا أمرها حتى ينزل إلياس فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها وكان ذلك مكراً من الملك، فانطلق الكاتب والفئة حتى علا الجبل الذي فيه إلياس ثم ناداه فعرف إلياس صوته فتاقَت[٣] نفسه إليه وكان مشتاقاً إلى لقائه فأوحى الله إليه أن ابرز إلى أخيك الصالح فألقه وجدد العهد به فبرز إليه وسلم عليه وصافحه فقال له ما الخبر فقال له المؤمن: إنه قد بعثني إليك هذا الجبار الطاغي وقومه ثم قص عليه ما قالوا، ثم قال له وإني خائف إن رجعتُ إليه ولستَ معي أن يقتلني فمرني بما شئتَ أفعله إن شئتَ انقطعتُ إليك وكنتُ معك وتركتُه وإن شئتَ جاهدتُه معك وإن شئتَ ترسلني إليه بما تحبُّ فأبلِغّه رسالتَك وإن شئتَ دعوتَ ربَّك أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، فأوحى الله إلى إلياس أن كل شيء جاءك منهم مكر وخديعة وكذب ليظفروا بك وإنَّ أجب الملِك إن أخبرته رسله أنك لقد لقيتَ لهذا الرجل ولم يأت بك اتهمه وعرف أنه قد واهن في أمرك فلم يؤمن أن يقتله، فانطلق معه وإني سأشغل عنكما أجب فأضاعف على ابنه البلاء حتى لا يكون له هم غيره ثم أميتُه على شر حال فإذا مات هو فارجع منه، قال فانطلقَ معهم حتى قدموا على أُجب فلما قدموا شدَّد الله الوجع على ابنه وأخذ الموت بِكَظَمه[٤] فشغل الله بذلك أجب وأصحابه عن إلياس فرجع إلياس سالماً إلى مكانه، فلمَّا مات ابن أجب وفرغوا من أمره وقلَّ جزعه انتبه لإلياس وسأل عنه الكاتب الذي جاء به فقال ليس لي به شغلني عنه موت ابنك والجزع عليه ولم أكن أحسبك إلا وقد استوثقتَ منه فأضرب عنه أُجب وتركه لما فيه من الحزن على ابنه.

فلمَّا طال الأمر على إلياس ومد الكون في الجبال واشتاق إلى الناس نزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأةٍ من بني إسرائيل وهي أم يونس بن متى ذي النون استخفى عندها ستة أشهر ويونس بن متى يومئذٍ مولود مرضع فكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتواسيه[٥] بذات يدها، ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت بعد تعوده فسحة الجبال فأحب اللحوق بالجبل فخرج

---

(١) من التوغير: أي الإغراء بالحقد.

(٢) الروع: الفزع.

(٣) أي: اشتاقت.

(٤) الكظم: محركة الحلق او الضم أو مخرج النفس.

(٥) أي تخدمه بمالها.

وعاد إلى مكانه فجزعت أم يونس لفراقه وأوحشها فقده ثم لم تلبث إلا يسيراً حتى مات ابنها يونس حين فطمته فعظمت مصيبتها فخرجت في طلب إلياس ولم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه ووجدته وقالت له إني قد فجعتُ بعدك بموت ابني فعظمت فيه مصيبتي واشتد لفقده بلائي وليس لي ولد غيره فارحمني وادع الله جلَّ جلاله ليحيي لي ابني وإني تركته مسجىً لم أدفنه قد أخفيتُ مكانه، فقال لها إلياس ليس هذا مما أمرتُ به وإنَّما أنا عبد مأمور أعمل بما يأمرني ربي فجزعت المرأة وتضرعت وأعطف الله قلب إلياس إليها فقال لها متى مات ابنك؟ قالت منذ سبعة أيام فانطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أخرى حتى انتهى إلى منزلها فوجد ابنها ميتاً له أربعة عشر يوماً فتوضأ وصلّى ودعا فأحيى الله يونس بن متى فلمَّا عاش وجلس وثب إلياس وتركه وعاد إلى موضعه. فلمَّا طال عصيان قومه ضاق إلياس بذلك ذرعاً فأوحى الله إليه سبع سنين وهو خائف مجهود فنادى الله إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه ألستَ أميناً على وحيي وحجتي في أرضي وصفوتي في خلقي فاسألني أعطيك فإني ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم، قال إلياس فإن تميتني فتلحقني بآبائي فقد مللتُ بني إسرائيل وملوني فأوحى الله إليه يا إلياس ما هذا باليوم الذي أعري عنك الأرض وأهلها وإنما قوامها وصلاحها بك وأشباهك وإن كنتم قليل ولكن سلني فأعطيك، قال إلياس فإن لم تمتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل، قال الله عزَّ وجلَّ وأيُّ شيء تريد أن أعطيك قال تمكنني من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشر عليهم سحابة إلا بدعوتي ولا تمطر عليهم قطرةً إلا بشفاعتي فإنه لا تذلهم إلا ذلك، قال الله عز وجل يا إلياس أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين، قال فست سنين قال أنا أرحم بخلقي من ذلك قال فخمس سنين، قال أنا أرحم بخلقي من ذلك ولكني أعطيك ثأرك ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك، قال إلياس بأيِّ شيء أعيش؟ قال أسخر لك جيشاً من الطير ينقل إليك طعامك وشرابك من الريف[1] والأرض التي لم تقحط، قال إلياس قد رضيتُ، قال وأمسك الله عنهم المطر حتى هلكت الماشية والدواب والهوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً وإلياس على حالته مستخف من قومه يوضع الرزق حيث ما كان وقد عرف ذلك قومه وكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في بيت قالوا لقد دخل إلياس هذا المكان فطلبوه ولقي منهم أهل ذلك المنزل شراً قال ابن عباس أصاب بني إسرائيل ثلاث سنين القحطُ فمر إلياس بعجوز فقال لها هل عندك طعام؟ قالت نعم لشيء من دقيق وزيت قليل، قال فدعا بهما ودعا فيه بالبركة ومسه حتى مَلأ جُرابها دقيقاً وملأ خوابيها زيتاً فلمَّا رأوا ذلك عندها قالوا من أين لكِ هذا قالت مرَّ بي رجل من حاله كذا وكذا فوصفته بصفته فعرفوه قالوا ذلك إلياس فطلبوه فوجدوه فهرب منهم، ثم إنه أوى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال لها اليسع بن أخطوب به ضرٌّ فأوته وأخفته فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به وأتبع اليسع

(١) أرض فيها زرع ونخل.

إلياس وآمن به وصدقه ولزمه وكان يذهب حيث ما ذهب وكان إلياس قد أسنَّ وكبر واليسع غلام شابٌ.

ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس أنك قد أهلكت كثيراً من الخلق فمن لم يعص من البهائم والدواب والطير والهوام لحبس المطر، فيزعمون والله أعلم أن إلياس قال يا رب دعني أكون أنا الذي أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء لعلهم أن يرجعوا أو ينزعوا عما هم عليه من عبادة غيرك فقيل له نعم، فجاء إلياس إلى بني إسرائيل، فقال إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً وهلكت البهائم والطير والدوابّ والهوام والشجر بخطاياكم وإنكم على باطل فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم عليَّ فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتم ودعوتُ الله ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء، قالوا أنصفت فخرجوا بأوثانهم فدعوها فلم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ثم قالوا لإلياس إنا قد أهلكنا فادع الله لنا فدعا لهم إلياس ومعه اليسع بالفرج فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون فأقبلت نحوهم وطبقت الآفاق ثم أرسل الله عليهم المطر فأغاثهم وحييت بلادهم فلمَّا كشف الله عنهم الضر نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم فأقاموا على أخبث ما كانوا.

فَلمَّا رأى ذلك إلياس دعا ربه تعالى أن يريحه منهم فقيل له فيما يزعمون انظر يوم كذا وكذا فاخرج فيه إلى موضع كذا وكذا فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه، فخرج إلياس ومعه اليسع حتى إذا كان بالموضع الذي أمر به أقبل فرس من نار وقيل لونه كلون النار حتى وقف بين يديه فوثب عليه إلياس فانطلق به الفرس، فناداه اليسع يا إلياس ما تأمرني به فقذف إليه إلياس بكسائه من الجوّ الأعلى وكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل فكان ذلك آخر العهد به، ورفع الله إلياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش فكان إنسياً ملكيّاً سماويّاً أرضياً.

وسلط الله على أجُب الملِك وقومه عدواً لهم فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى رهقهم[١] فقتل أجُب وامرأته أزبيل في بستان مزدكي فلم يزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمَّت عظامها، ونَبَّأ الله اليسع وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل وأوحى إليه فآمنت به بنو إسرائيل وكانوا يعظمونه وحكم فيهم قائم إلى أن فارقهم أليسع، روى السري بن يحيى عن عبد العزيز عن أبي الرواد قال إلياسُ والخضرُ يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ويوافيان الموسم في كل عام وقيل إن إلياس موكل في الفيافي والخضر موكل بالبحار هكذا ذكر البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ عذاب الله ﴿أَتَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿بَعْلًا﴾ اسم صنم كانوا يعبدونها سميت بها مدينتهم بعلبك، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة البعل الرب بلغة أهل

---

(١) أي: غشيهم.

اليمن ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ فلا تعبدونه وجملة أتدعون إلى آخره بيان أو بدل لما قبله ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص[1] بالنصب على البدل والباقون بالرفع على الاستئناف ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ في العذاب وإنما أطلق اكتفاءً بالقرينة أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ مستثنى من فاعل كذَّبوهُ لا من المُحضَرِينَ لفساد المعنى وقيل استثناء منقطع أو متصل من المحضرين إن كان المحضرين من قبيل توصيف الكل بوصف البعض كما في قوله تعالى: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فحينئذ يكون شاملاً للمستثنى منه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ لغة في إلياس كسيناء وسينين وإسماعيل وسمعين وميكائيل وميكائين، وقال الفراء هو جمع أراد إلياس وأتباعه من المؤمنين فيكون بمنزلة الأشعريين والأعجمين بالتخفيف لكن فيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه باللام، وقرأ نافع وابن عامر[2] آل ياسين بفتح الهمزة مشبعة وكسر اللام مقطوعة لأنها في المصحف مفصولة فيكون ياسين أبا إلياس وجاز أن يكون ياسين اسماً لإلياس والمراد بآل ياسين هو وأتباعه، وما قيل إن ياسين محمد ﷺ أو القرآن أو غيره من الكتب السماوية لا يناسب نظم سائر القصص وما قبله وما بعده من قوله ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ إذ الظاهر أن الضمير لإلياس، وفي قراءة ابن مسعود سلامٌ على إدريسين يعني إدريس وأتباعه لأنه قرأ إنَّ إدريس لمن المرسلين.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ من العذاب الذي نزل على قومه ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ وهي امرأته كائنة ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ الباقين في العذاب ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿الْآخَرِينَ﴾ من قومه ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ أي على منازلهم في أسفاركم إلى الشام فإن سدوم في طريقه ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ أو مساءً أو المعنى نهاراً أو ليلاً ولعلها وقعت قريباً من موضع النزول فيمر المرتحل عنه صباحاً والقاصد لها مساءً إن كان السير نهاراً أو بالعكس إن كان السير ليلاً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني ألستم ذوي العقول فتعتبروا والجملة معترضة.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ﴾ أي هرب وأصله هرب العبد من السيد لكن لما كان هربه من قومه بلا إذن ربه حسن إطلاقه عليه ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر عن طاوس أنه لمَّا وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم (يعني لمَّا تأخر عنهم العذاب) قبل أن يأمره الله به فركب السفينة، فوقفت فقال الملاحون هاهنا عبد أبق فاقترعوا فخرجت عليه فقال أنا الآبق ورمى بنفسه في الماء، وذكر البغوي قول ابن عباس ووهب نحوه وذكر أنهم اقترعوا ثلاثاً فوقعت القرعة على يونس، قال

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٢) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

البغوي وروي أنه لمَّا وصل إلى البحر كانت معه امرأته وابنان له فجاء مركب وأراد أن يركب معهم فقدم امرأته ليركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب ثم جاءت موجة أخرى وأخذت ابنه الأكبر وجاء ذئب وأخذ ابنه الأصغر فبقي فريداً فجاء مركب آخر فركبه فقعد ناحية من القوم فلمَّا مرت السفينة في البحر ركدت فاقترعوا، وقد ذكرنا القصة في سورة يونس فذلك قوله تعالى ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع والمساهمة إلقاء السهام على جهة القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة وأصله المزلق عن مقام الظفر ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ أي أخذه لقمة ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي داخل في الملامة أو آت بما يلام عليه أو مليم نفسه حال من مفعول التقَمَه.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ قال ابن عباس من المصلين، وقال وهب من العابدين قال الحسن ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً، قال الضحاك شكر الله له طاعته القديمة، قلتُ: ويمكن أن يكون هُو مصلياً في بطن الحوت بالإشارة لكونه حيّاً مفيقاً والأولى أن يقال ولولا أنه كان من المسبحين في بطن الحوت يعني ذاكراً له بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] كما نطق به القرآن ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ يعني لمات في بطنه وصار له قبراً فتبقى أجزاؤه مختلطةً بأجزاء الحوت حيثما كان في علم الله إلى يوم القيامة ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي المكان الخالي مما يغطيه من الشجر ونحوه ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ كالفرخ الممعط، وقيل كان قد بلي لحمه ورق عظمه ولم يبق له قوة. واختلفوا في مدة لبثه في بطن الحوت؟ قال البغوي قال مقاتل بن حبان ثلاثة أيام وكذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة، وقال البغوي قال عطاء سبعة أيام كذا أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وقال البغوي قال الضحاك عشرين يوماً، وقال السديُّ والكلبي ومقاتل بن سليمان أربعين يوماً كذا أخرج الحاكم عن ابن عباس وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك وعبد الرزاق وابن مردويه عن ابن جريج وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة، وأخرج عبد بن حميد في زوائد الزهد أنه بعض يوم، وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم والبغوي عن الشعبي أنه التقمه ضحًى ولفظه عشية ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي فوقه مظلة ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ قال البغوي قال الحسن ومقاتل كل نبت يمتد وينبسط على وجه الأرض ليس له ساق ولا يبقى على الشتاء نحو القرع والقثاء والبطيخ فهو يقطين وقال كان ذلك اليقطين بساق على خلاف العادة انتهى، وهو يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به، قلتُ: وكان قرعاً تغط من أوراقها عن الذباب فإنه لا يقع عليه كذا قال البغوي إنه قول جميع المفسرين وكذا أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة، وقال مقاتل بن حبان وكان يونس يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه يشرب لبنها بكرة وعشية حتى اشتد لحمه ونبت شعره وقوي فنام نومة فاستيقظ وقد يبست الشجرة فحزن حزناً شديداً إذ أصابه أذى الشمس فجعل يبكي

فبعث الله إليه جبرئيل فقال أتحزن على شجرة ولا تحزن على مائة ألف من أمتك وقد أسلموا وتابوا.

مسألة: لا يجوز ذكر زلة الأنبياء فإن زلاتهم توجب كمال الإنابة إلى الله ورفع درجاتهم ومن اعترض على أحد من الأنبياء فقد كفر قال الله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى»[(١)] متفق عليه، وفي رواية للبخاري «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»[(٢)] وعن أبي هريرة قال استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال والذي اصطفى محمداً على العالمين، وقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي فذهب اليهودي إلى النبيّ ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم فدعا النبيّ ﷺ فسأله عن ذلك فأخبره فقال النبيّ ﷺ «لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري كان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان فيمن استثنى الله»[(٣)] وفي رواية «فلا أدري أحوسب بصعقة يوم الطور أو بعث قبلي ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى»[(٤)] وفي رواية أبي سعيد قال: «لا تخيروا بين الأنبياء»[(٥)] متفق عليه، وفي رواية أبي هريرة «لا تفضلوا بين أنبياء الله»[(٦)] فان قيل ما المعنى والمرادُ بالنهي عن التفضيل بين الأنبياء مع كونه ثابتاً بالنص والإجماع قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأوّل شافع وأول مشفع»[(٧)] رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة وقال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر»[(٨)] رواه أحمد

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٢٤، ٣٥، وسورة ٦، باب ٤، وسورة ٣٧، باب ١، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٦، ١٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤، باب ٢٦، والترمذي في تفسير سورة ٣٩، باب ٩، وابن ماجه في الزهد باب ٣٣، وأحمد في المسند ٢/ ٤٥١.

(٣) أخرجه البخاري في الخصومات باب ١، وأحاديث الأنبياء باب ٣١، وتفسير سورة ٧، باب ٢، والرقاق باب ٤٣، والتوحيد باب ٣١، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٠، وأبو داود في السنة باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٤.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣٥، والخصومات باب ١، ومسلم في الفضائل حديث ١٥٩.

(٥) أخرجه البخاري في الخصومات باب ١، والديات باب ٣٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٣، وأبو داود في السنة باب ١٣، وأحمد في المسند ٣/ ٣١، ٣٣.

(٦) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣٥، ومسلم في الفضائل حديث ١٥٩.

(٧) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ٣، وأبو داود في السنة باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/ ٥٤٠.

(٨) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١، وابن ماجه في الزهد باب ٣٧، وأحمد في المسند ٣/ ٢.

والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد وقال عليه السلام «أنا قائد المرسلين ولا فخر وأنا خاتم النبيين ولا فخر وأنا أول شافع ومشفع ولا فخر»[١] رواه الدارمي عن جابر، قلتُ: معناه والله أعلم لا تفضلوا بين أنبياء الله بالظن والتخمين ما لم يأتكم علم من الله تعالى وأما بعدما ثبت ذلك بوحي من الله تعالى فلا بأس به، أو يقال لا تخيروا بين الأنبياء في نفس النبوة بأن تؤمنوا ببعض وتعظموه وتوقروه ولا تؤمنوا ببعض والله أعلم.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ قال البغوي قال قتادة أرسل إلى نينوى من أرض الموصل قبل أن يصيبه ما أصابه وكذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه وعن الحسن والمعنى وقد أرسلناه إلى مائة ألف، وقيل معناه أرسلناه إليهم ثانياً بعد خروجه من بطن الحوت، وقيل إلى قوم آخرين ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال مقاتل والكلبي معناه بل يزيدونَ، وقال ابن عباس معناه ويزيدونَ أو بمعنى الواو كقوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المرسلات: ٦] وقال الزجاج أو هاهنا على أصله معناه أو يزيدون على تقديركم وظنكم كالرجل يرى قوماً فيقول هؤلاء ألف أو يزيدون فالشك على تقدير المخلوقين. واختلفوا في مبلغ تلك الزيادة؟ فقال ابن عباس ومقاتل كانوا عشرين ألفاً رواه الترمذي عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «يزيدون عشرون ألفاً» وقال الحسن بضعاً وثلاثين ألفاً، وقال سعيد بن جبير سبعين ألفاً ﴿فَآمَنُوا﴾ يعني الذين أرسل إليهم يونس آمنوا به بعد معاينة العذاب ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أجلهم المسمى ولعله إنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص تفرقه بينهما وبين أصحاب الشرائع الكبر وأولي العزم من الرسل أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكور في آخر السورة.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۝١٥٠
أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا
لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٥٧
وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ
اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ۝١٦٣ وَمَا مِنَّا
إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا
ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا
الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝١٧٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ۝١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ۝١٧٧ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨
وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٨٢﴾

---

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة باب ٨.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ عطف على قوله ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ [الصافات: ١١] أمر رسول الله ﷺ أولاً عن وجه إنكارهم البعث بأن يسألهم سؤال تقرير أي الخلقين أشد أخلقهم أم خلق غيرهم من السماء والأرض والملائكة أو من سبقهم من عاد وثمود فإذا هم أقرُّوا بأنَّ خلق من سبقهم أشد لزمهم الخوف ممن انتقم منهم وأهلكهم بكفرهم وهو قادر على خلق من هو أشد منهم وعلى كل خلق وقادر على البعث والتعذيب ثم جاء بما يلائمه من القصص لبعضها ببعض، ثم أمره بالسؤال عن وجه القسمة حيث جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين في قولهم الملائكة بنات الله وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخر التجسيم وتجويز البنات على الله فإن الولادة مخصوصة بالأجسام القابلة للكون والفساد سريعاً وتفضيل أنفسهم على الله حيث جعلوا أخس الصنفين لله وأشرفهم لأنفسهم واستهانتهم الملائكة باتصافهم بالأنوثة، ولذلك كرر الله تعالى إنكار ذلك وإبطاله في كتابه مراراً وجعله مما تكاد السماوات يتفطرن من شؤم هذا القول وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً، والإنكار هاهنا مقصود على الأخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما وذلك أن جهينة وبني سلمة بن عبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله ولأن فسادهما مما يدركه العامة بمقتضى طباعهم حيث جعل المعادل لاستفهام عن أنفسهم ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ فيه استهزاء وإشعار بأنهم لفرط جهلهم يحكمون به كأنهم شاهدوا خلقهم ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي كذبهم الذي هو ظاهر البطلان وينفيه البرهان ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ عند جميع العقلاء قطعاً ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ قرأ أبو جعفر بهمزة الوصل المكسورة عند الابتداء وإسقاطها في الدرج وهي رواية عن نافع(١) إما على حذف همزة الاستفهام من اللفظ أو على الإخبار بتقدير قالوا يعني إنهم لكاذبون حيث قالوا اصطفى البنات، وقرأ العامة بهمزة مفتوحة للاستفهام داخلة على همزة الوصل إنكاراً واستبعاداً بتقدير يقال لهم اصطفى البنات على البنين ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أن لله البنات ولكم البنين والاصطفاء أخذ صفوة الشيء والبنات أخس الصنفين ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ عطف على محذوف تقديره أفلا تتفكرون فلا تتذكَّرُونَ أنه تعالى منزه عن ذلك حذفت إحدى التاءين ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ حجة واضحة نزلت عليكم من الله تعالى بأن الملائكة بناته يعني أن أسباب العلم منحصرة في ثلاثة العقل والحس والخبر الصادق والخبر لا يفيد العلم ما لم يبتني على الحس أو على الإعلام من الله العالم للغيب، فأنكر أولاً دلالة العقل بقوله: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩] فإنه مع قيام البرهان على امتناع الولد لله سبحانه لا يجوز درك انوثية الملائكة بالعقل الصرف ولا يجوز عاقل أن يثبت أخس الفريقين للخالق وأشرفهما للمخلوقين، وأنكر ثانياً دلالة الحس بقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ يعني لم يشهدوا ذلك، وأنكر ثالثاً الخبر الصادق إلى

---

(١) أي عن الأصبهاني عن ورش ـ أبو محمد ـ.

الحجة النازلة من الله العليم الخبير فإنه أعلم إفادة للعلم من غيره وأقوى فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ ولما كان هاهنا مظنة أن يقولوا الله علمنا بهذا كما أنهم إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قال ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الذي منزل من الله مخبر بأن الملائكة بناته ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿وَجَعَلُوا﴾ حال من الضمير المنصوب في استفتهم بتقدير قد أي استفتهم وقد جعلوا ﴿بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أخرج جويبر عن ابن عباس أنه قال نزلت هذه الآية في ثلاثة أحياء قريش سليم وخزاعة وجهينة، قال مجاهد وقتادة أراد بالجنة الملائكة سموها جنة لاجتنانهم عن الإبصار، قلتُ ذكرهم بهذا الاسم تحقيراً لشأنهم عن مرتبة البنوة الله سبحانه، وقال ابن عباس حي من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم إبليس قالوا هم بنات الله، وقال الكلبي قالوا (لعنهم الله) إن الله تزوج من الجن فخرج منها الملائكة تعالى الله عن ذلك، وقال بعض قريش إن الملائكة بنات الله فقال أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن كذا أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ جملة معترضة ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي قائلي هذا القول أو الإنس مطلقاً أو الجنة بمعنى يعم الملائكة وغيرهم ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يصفونه به من الولد والنسب جملة معترضة أخرى ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ استثناء متصل من ضمير إنهم إن أريد به ما يعم المؤمن والكافر أو منقطع إن أراد به القائلون بالولد.

﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة التفات من الغيبة إلى الخطاب والفاء قيل جزائية والشرط محذوف تقديره إذا جعلتم بينه وبين الجنة نسباً.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ من الأصنام ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على الله متعلق بقوله ﴿مُلِيمٌ﴾ أي بمضلين الناس بالإغواء أحداً ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ في علم الله يعني من سبق لهم فما علم الله القديم الشقاوة.

﴿وَمَا مِنَّا﴾ معشر الملائكة أحد ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ هذه الجملة بتقدير القول معطوف على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ [الصافات: ١٥٨] تقديره وقالت ما منَّا إلاَّ له مَقَامٌ معلومٌ في العبودية أو في السماوات يعبد الله فيه، قال رسول الله ﷺ: «أطت[١] السماء وحق لها أن تأط والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله»[٢] رواه البغوي، أو مقام معلوم في مراتب القرب لا يتجاوز عنه وكذا قال السدي ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ في القربة والمشاهدة، وقال أبو بكر الوراق ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ يعبد الله عليه كالخوف والرجاء والمحبة والرضاء، قلتُ: وأما الإنس فلا يزال يرتقي على معارج القرب

---

(١) الأطيط صوت الأقتاب يعني أواز بالات شتر قال في النهاية يعني أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلتها حتى ألمت وهذا أمثل وايذان بكثرة الملائكة وإن لم يكن به اطيط ـ ١٢ ـ نوّر الله مرقده ـ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٧٣.

قال رسول الله ﷺ حكايةً عن الله سبحانه «ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحببته»(١) الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة، وأما الملائكة فلا يتجاوزون عن مقاماتهم، عن زرارة بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ قال لجبرئيل هل رأيتَ ربَّكَ؟ فانتفض جبرئيل وقال يا محمد إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور لو دنوتُ من بعضها لاحترقتُ هكذا في المصابيح ورواه أبو نعيم في الحلية عن أنس إلا أنه لم يذكر فانتفض جبرئيل. عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق إسرافيل منذ يوم خلقه صافاً قدميه لا يرفع بصره بينه وبين الرب تبارك وتعالى سبعون نوراً ما منها من نور يدنو منه إلا احترق»(٢) رواه الترمذي وصححه وهذه الآية رد على عابدي الملائكة نظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ [المائدة: ٧٢] ﴿وَإِنَّا﴾ معشر الملائكة ﴿لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن مالك قال كان الناس يصلون متبدين فأنزل الله ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ فأمرهم أن يصفوا، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه، قال الكلبي صفوف الملائكة في السماء للعبادة كصفوف الناس في الأرض يعني في الصلاة، روى مسلم عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها فقلنا يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها قال: يتمون الصفوف الأولى ويتراصون في الصف»(٣) والمعنى وإنا لنحن صافون أقدامنا في أداء الطاعة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي المنزهون عما لا يليق به كاتخاذ الولد ونحو ذلك، وما في إن واللام وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص إنما هو للرد على من زعم أنهم بنات الله والحصر إضافي بالنسبة إلى الكفار يعني لسنا كهيئة الكفار مشركين مصغين في العبادة والتسبيح.

﴿وَإِن كَانُواْ﴾ وإنهم يعني كفار مكة كانوا ﴿لَيَقُولُونَ﴾ قبل مبعث النبي ﷺ ﴿لَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي كتاباً من الكتب التي أنزلت عليهم ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ يعني لأخلصنا له العبادة ولم نخالف ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي بالذكر الذي هو أشرف الأذكار لما جاءهم ﴿فَسَوْفَ﴾ الفاء للسببية فإن الكفر سبب للوعيد ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم وما يحل بهم من الانتقام، إن مخففة للمثقلة واللام هي فارقة وفي ذلك إيماء بأنهم كانوا يقولون مؤكدين للقول جازمين فيه فكم بين أولهم وآخرهم ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ بيان للكلمة ولذلك لم يعطف عليه، قلتُ وإنما يظهر التخلف لأجل شؤم العصيان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وقال الله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ﴿فَتَوَلَّ﴾ عنهم أي

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨، وأحمد في المسند ٦/٢٥٦.
(٢) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح ٥٧٣١.
(٣) تقدم الحديث مع تخريجه.

أعرض عنهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن عباس يعني الموت، وقيل يوم يأتيهم العذاب في الدنيا، وقال مجاهد يوم بدر وكذا أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدّي، وقال البغوي قال السديّ يوم يأمركم بالقتال وهو المراد بقول مقاتل نسختها آية القتال ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ مغلوباً مقتولاً معذباً، فيه دلالة على أنه كائن قريبٌ كأنَّه قدامه ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما قضينا لك من التأييد والنصرة في الدنيا والثواب في الآخرة وما يحل بهم في الدارين وسوف للوعيد لا للتبعيد.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه متى نزل ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قالوا متى هذا العذاب وأخرج جويبر عنه نحوه فنزل ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أيجهلون شأننا فبعذابنا يستعجلون ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ بفنائهم، قال الفراء العرب تكتفي بذكر الساحة من القوم، أو المعنى إذ نزل الرسول ﷺ مع جيشه بساحة الكفار ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي صباحهم مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ولما كثرت الهجوم والغارة في الصباح عادةً سموا الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر أتاها ليلاً وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغز حتى يصبح، قال فلمَّا أصبح خرجت يهود خيبر بمساحيها[١] ومكاتلها[٢] فلمَّا رأوه قالوا محمد والله والخميس فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحتهم فساء صباح المنذرين»[٣] رواه البغوي، وفي الصحيحين عن أنس أن النبيّ ﷺ كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر إليهم فإن سمع أذاناً كفَّ عنهم وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً فلمَّا أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبتُ خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم نبي الله ﷺ، قال فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم فلمَّا رأوا النبيّ ﷺ قالوا محمد والله محمد والخميس فلجأوا إلى الحصن فلمَّا رآهم رسول الله ﷺ قال: «الله أكبر الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[٤] ثم كرر الله سبحانه تأكيداً الوعيد العذاب فقال ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾ ﴿وَأَبْصِرْ﴾ العذاب إذا نزل بهم ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ فيه إطلاق بعد تقييد للإشعار بأنه يبصر وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أصناف المسرَّة وأنواع المساءة أو الأول لعذاب الدنيا والثاني لعذاب الآخرة.

---

(١) المساحي: جمع مسحاة، وهي المجرفة من الحديد، والميم زائدة، لأنه من السحو أي الكشف والإزالة.

(٢) المكتل: الزنبيل الكبير.

(٣) انظر الحاشية التالية.

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة باب ١٢، والأذان باب ٦، وصلاة الخوف باب ٦، والجهاد باب ١٣٠، والمناقب باب ٢٨، والمغازي باب ٣٨، ومسلم في الجهاد حديث ١٢٠، ١٢١، والترمذي في السير باب ٣، والنسائي في المواقيت باب ٢٦، والنكاح باب ٧٩، والصيد باب ٧٨، ومالك في الجهاد ٤٨، وأحمد في المسند ٣/١٠٢، ١١١، ١٦٤، ١٨٦، ٢٠٦، ٢٤٦، ٢٦٣.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أي الغلبة والقوة أضاف الرب إلى العزة لاختصاصه به إذ لا عزة إلا له أو لمن انتسب إليه رسوله والمؤمنون به، وفيه إشعار بأن صفاته تعالى مقتضيات لذاته، واجبات بالغير أي بذاته تعالى ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يصفونه به المشركون ممَّا حكى في السورة وقد أدرج فيه جملة صفاته السلبية والثبوتية مع الإشعار بالتوحيد ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ الذين وصفوه على ما هو عليه وهذا تعميم للرسل بالتسليم ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما هدى المؤمنين إلى معرفة ذاته وصفاته بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصرة الأنبياء وتدمير الأعداء، عن علي كرم الله وجهه أنه قال من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، رواه البغوي في تفسيره وعبد بن زنجويه في ترغيبه والحمد للّٰه رَبّ العالمين وصلّى الله تعالىٰ على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى أهل طاعته أجمعين.

تم تفسير سورة الصافات من التفسير المظهري (ويتلوه سورة صٓ)
في يوم السبت الثامن والعشرين من الجمادى أوّل
من السنة السابعة بعد
ألف ومائتين
١٢٠٧هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة ص

آياتها ثمان وثمانون وهي مكيَّة

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟
وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا
وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا
سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل
لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ
وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ
ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا
قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ
مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ
ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبيّ ﷺ فشكوه إلى أبي طالب فقال ابن أخي ما تريد من قومك؟ فقال: «أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم جزيةً» قال «كلمة واحدة» قال ما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» فقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشيء عجاب فنزل ﴿صٓ﴾ إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾[1] قيل هو قسم وقيل هو اسم السورة كما ذكرنا في سائر حروف التهجي، قال محمد بن كعب مفتاح اسمه الصمد وصادق الوعد، وقال الضحاك معناه صدق الله وروي عن ابن عباس صدق محمد رسول الله ﷺ وقيل هو أمر من المصاداة ولذا قرىء بالكسر على وزن ناد ومعناه عارض من الصدى فإنه تعارض الصوت الأول يعني عارض القرآن بعملك، والحق إنه من المتشابهات وقد ذكرنا تحقيقها في أوائل سورة البقرة ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قال ابن عباس أي ذي البيان لما يحتاج إليه في الدين من

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٣٨، باب ١، وأحمد في المسند ١/ ٢٢٧، ٣٦٢.

العقائد والشرائع والمواعيد أو ذي عظة، وقال الضحاك أي ذي الشرف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] والواو للقسم إن جعل ﴿صٓ﴾ اسم حرف مذكور للتحدي أو الرمز لكلام صدق محمد ﷺ أو غيره أو لفظ الأمر وللعطف إن جعل مقسماً به، قال الأخفش جواب القسم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: ١٤] وهذا بعيد جداً والظاهر أن الجواب محذوف دل عليه ما في ﴿صٓ﴾ من الدلالة على التحدي أو الأمر بالمعادلة أي أنه المعجز أو الواجب العمل به أو أن محمداً لصادق أو أن الأمر ليس كما يقول الكفار ويدل عليه قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ﴾ أي استكبار عن الحق وحمية جاهلية ﴿وَشِقَاقٍ﴾ خلاف وعداوة لمحمد ﷺ ولأجل ذلك لا يؤمنون به أو خلاف لما يقتضيه العقل والنقل، والتنكير فيهما الدلالة على شدتهما فهو إضراب عن الجواب المقدر، وقال قتادة هذا جواب القسم كما في قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ [ق: ١، ٢] وبل ابتدائية، وقال القتيبي بل لتدارك كلام ونفي آخر ومجاز الآية أن الله أقسم بصٓ والقرآن ذي الذكر إن الذين كفروا من أهل مكة في عزة وشقاق.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وعيد لهم على كفرهم استكباراً وشقاقاً ﴿فَنَادَواْ﴾ عند نزول العذاب استغاثة أو توبة واستغفاراً ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليس الحين حين مناص، جملة كم أهلكنا معترضة لبيان مآلهم بعد بيان حالهم يعني أنهم يهلكون كما هلك من قبلهم ولا هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم وتغير حكمه فخصت بلزوم الأحيان وحذف أحد المعمولين إما الاسم وإما الخبر والمحذوف هاهنا الاسم هذا مذهب الخليل وسيبويه.

وقال الأخفش هي النافية للجنس والخبر محذوف أي لا حين مناص كائن لكم، وقيل هي نافية للفعل والنصب بإضماره تقديره لا أرى حين مناص حاصلاً لهم، والوقف على لات بالتاء عند الزجاج(١) وعند الكسائي لاه بالهاء، وذهب جماعة إلى أن التاء زيدت في حين والوقف على لا ثم يبتدىء بحين وهو اختيار أبي عبيد وقال كذلك وجدتُّ في مصحف عثمان رضي الله عنه وهذا كقول الشاعر(٢):

والعاطفون تحين ما من عاطف ... والمطعمون زمان ما من مطعم

---

(١) وعند جميع القراء غير الكسائي.

(٢) البيت من الكامل، وهو لأبي وجزة السعدي في الأزهية ص٢٦٤، وخزانة الأدب ٤/ ١٧٥، ١٧٦، والدرر ٢/ ١١٥، ١١٦، ولعجز البيت روايات مختلفة، منها:

والمسبغون يداً إذا ما أنعموا

ومنها:

ونعم الذرا في النائبات لنا هُمُ

ومنها:

والمطعمون زمان أين المطعمُ

والمناص مصدر ميمي من ناصه ينوصه إذا فاته، وفي القاموس النوص التأخر والمناص الملجأ، قال ابن عباس كان كفار مكة إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب قال بعضهم لبعض مناص أي اهربوا وخذوا حذركم فلما أنزل الله بهم العذاب ببدر قالوا مناص فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليس الحين حين هذا القول، والجملة حال من فاعل نادوا أي استغاثوا والحال أن لا ملجأ ولا مهرب ولا اعتبر بهم كفار مكة.

﴿وَعَجِبُوٓا﴾ عطف على الظرف المستقر أعني في عزةٍ وشقاقٍ أو حال من الضمير المستكن فيه بتقدير قد تقديره بل الذين كفروا كائنون في عزة وشقاقٍ وقد عجبوا من ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي بشر من أنفسهم رسولاً إليهم لينذرهم ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذمّاً لهم وإشعاراً بأن كفرهم جسرهم على أن قالوا ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ فيما يظهر من المعجزات ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يقول ﴿أَجَعَلَ﴾ محمول على حذف قالوا استئناف في جواب ما قالوا حينئذ يعني قالوا اجعل ﴿ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ الاستفهام للتعجب يعني كيف جعل الألوهية التي كانت لجماعة لواحد ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ بليغ في العجب فإنه خلاف ما أطبق عليه آباؤنا ما نشاهد ونعاهد أن الواحد لا يفي علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة، قال البغوي وذلك أن عمر بن الخطاب لما أسلم شق ذلك على قريش وفرح بها المؤمنون فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش وهم الصناديد والأشراف وكانوا خمسة وعشرين رجلاً أكبرهم سنّاً الوليد بن المغيرة قال امشوا إلى أبي طالب، فأتوا أبا طالب وقالوا أنت كبيرنا وشيخنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإنا أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل أبو طالب إلى النبيّ ﷺ فدعاه فقال يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله ﷺ: «ماذا تسألون؟» قالوا ارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال النبي ﷺ: «أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟» فقال أبو جهل لله أبوك لنعطيكها وعشر أمثالها، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله»، فتفرقوا من ذلك وقاموا وقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً كيف يسمع الخلق كلهم إله واحد إنَّ هذا لشيء عجابٌ، قيل التعجيب ما له مثل والعجاب ما لا مثل له.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي الأشراف من مجلس أبي طالب الذين كانوا فيه ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من قريش وجملة انطلق عطف على قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴿أَنِ ٱمْشُوا﴾ أي قائلين أن امشوا من مجلسكم هذه ﴿وَٱصْبِرُوا﴾ أي اثبتوا ﴿عَلَىٰ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِكُمْ﴾ حيث لا ينفعكم المكالمة وأن هي المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التناول يشعر بالقول، وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع في القول وامشوا من مشيت المرأة إذا كثرت ولادتها ومنه الماشية أي اجتمعوا ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور من التوحيد ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ منا، هذه الجملة في مقام التعليل على قوله امشوا، قال البغوي وذلك أن عمر رضي الله عنه لما أسلم وحصل للمسلمين به قوة بمكانه قالت الكفار إن هذا لشيء يراد، قيل معناه هذا الذي نرى من زيادة أصحاب محمد ﷺ لشيء من الله يراد بنا فلا مرد له، وقيل يراد بأهل الأرض، وقيل بمحمد ﷺ أن

يملك علينا أو يقال إن هذا الذي يدعيه محمد من التوحيد أو الذي يقصد من الرياسة والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى أو يريده كل احد أو أن دينكم يطلب ليؤخذ منكم ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله محمد من التوحيد وكلمة هذا للتحقير ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس والكلبي ومقاتل يعنون بها النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يوحدون بل يقولون ثالث ثلاثة، وقال مجاهد يعنون ملة قريش ودينهم الذي لهم عليه أي ما سمعنا بهذا في الملة التي أدركنا عليه آباءنا، ويجوز أن يكون ظرفاً مستقراً في محل الحال أي ما سمعنا من أهل الكتاب ولا الكهان هذا أي التوحيد كائناً في الملة المترقبة التي هي آخر الملل ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي كذب اختلقه.

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي القرآن، الاستفهام للإنكار فهو بمعنى النفي فهو تأكيد لمضمون قولهم إن هذا إلا اختلاق ﴿مِن بَيْنِنَا﴾ وليس بأكبرنا ولا أكثر منا في المال والجاه وفيه دليل على أن منشأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوي، قال الله تعالى: ﴿بَل هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي القرآن حيث كذبوا الجائي به، إضراب للإنكار وإثبات للشك لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الدليل يعني ليس عندهم حجة يوجب علماً يقينياً بما يقولون إنه ساحر كذاب ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ ولو ذاقوا ما قالوا ذلك وسيذوقونها وحينئذ يزول عنهم الشك ولا ينفعهم، وبل للإضراب عن الشك وإثبات يقينهم واعتقادهم بانتفاء حقيقة القرآن فإثبات الشك إنما هو بالنظر إلى انتفاء الحجة عندهم وإثبات اليقين نظراً إلى جهلهم المركب وزعمهم الفاسد تعنتاً وعناداً، وقيل بل في الموضعين ابتدائية ليست للإضراب فالجملة الأولى جواب لكلام الكفار والثانية تأكيد للأولى ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي نعمة ربك يعني مفاتيح النبوة يعطوها من يشاؤوا يعني ليس الأمر كذلك فإن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده مانع لما أعطاه فإنه ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يغلبه شيء ﴿الْوَهَّابِ﴾ الذي يهب ما يشاء لمن يشاء، أم منقطعة بمعنى بل والهمزة قيل للإضراب من دعوى إلى دعوى أخرى والهمزة لإنكار ذلك الدعوى وكذلك أم في قوله ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لما أنكر عليهم التصرف في النبوة بأن ليس عندهم خزائن رحمته التي لا نهاية لها أردف ذلك بأنه ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء يسير من خزائنه فمن أين لهم أن يتصرفوا فيها ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في المعراج التي يتوصلون بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم فينزلوا الوحي إلى من يتصفون وهو غاية التهكم بهم والأمر للتوبيخ والتعجيز، قال قتادة ومجاهد أراد بالأسباب أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء وكل ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سببه.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ ما هذه للتقليل وجند خبر مبتدأ محذوف أي هؤلاء الذين يقولون هذا القول جند قليل ﴿مَهْزُومٌ﴾ عن قريب صفة لجند وكذا قوله ﴿مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي من أحزاب الكفار المتحربين على الرسل في القرون الماضية فقهروا وأهلكوا فمن أين لهم

التدابير الإلهية والتصرف في الأمور الربانية أو فلا تهتم بما يقولون، قال قتادة أخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنه سيهزم جند المشركين وقال: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥] فجاء تأويلها يوم بدر وهُنالك إشارة إلى بدر ومصارعهم والظاهر أنه إشارة إلى حيث وضعوا أنفسهم وأتوا بمثل هذا القول العظيم وتكذيبهم إياك.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ تأنيث قوم من حيث المعنى ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال ابن عباس ومحمد بن كعب ذو البناء المحكم وقيل أراد الملك السديد الثابت، قال القتيبي تقول هم في العز الثابت الأوتاد يريدون أنه الدائم الشديد، وقال الضحاك ذو القوة والبطش الشديد، وقال عطية ذو الجنود والجموع الكثيرة يعني أنهم كانوا يقوّون أمره ويشدون ملكه كما يقوي الوتد الشيء وأيضاً سميت الأجناد أوتاداً لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتدونها في أسفارهم وهي رواية عطية عن ابن عباس، وقال الكلبي ومقاتل الأوتاد جمع الوتد وكانت له أوتاد يعذب الناس عليها وكان إذا غضب على أحد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد وشد كل يد وكل رجل إلى سارية وتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت، وقال مجاهد ومقاتل بن حبان كان يمد الرجل مستلقياً على الأرض ثم يشد يديه ورجليه على الأرض بالأوتاد، وقال السدي كان يمد الرجل ويشده بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحيات، وقال قتادة كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب عليها بين يديه ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي أصحاب الغيظَة وهم قوم شعيب ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ اللام للعهد أي أولئك الأحزاب الذين مر ذكرهم في قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ الذين تحزبوا على الرسل ومشركو مكة حزب منها ﴿إِن كُلٌّ﴾ أي ما كل حزب منهم فعل شيئاً ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ بيان لما أسند إليهم من التكذيب على الإبهام مشتملاً على أنواع من التأكيد ليكون تسجيلاً على استحقاقهم أشد العذاب ولذلك رتب عليه ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي وجب عليهم وأنزل بهم عذابي الذي يستحق أن يعقب الكفر، قرأ يعقوب عقابي بالياء وصلاً ووقفاً والباقون بحذفها والاكتفاء على الكسرة، وفي قوله ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ إما مقابلة الجمع بالجمع أو جعل تكذيب واحد منهم تكذيباً لكلهم لاتحاد كلمتهم.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ أي ما ينتظر عطف على قوله وقال الكافرون أو حال ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي كفار قريش ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي نفخة الصور يعني لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم حين لا ينفعهم إيمانهم ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ صفة بعد صفة لصيحة، قرأ حمزة والكسائي[1] بضم الفاء والباقون بفتحها وهما لغتان بالفتح لغة قريش وبالضم لغة تميم، قال ابن عباس وقتادة معناه من رجوع، وقال مجاهد نظرة وقال الضحاك مثنوية أي صرف وقال الفراء وأبو عبيدة بالفتح بمعنى الراحة والإفاقة كالجواب بمعنى الإجابة وذهب بها إلى إفاقة المريض من غلبة

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

المرض، وبالضم ما بين الحلبتين وهي تحلب ناقة وتترك ساعة حتى يجتمع اللبن في الضرع بين الحلبتين يعني ما لها مهلة مقدار ما بين الحلبتين قيل هما مستعاران من الرجوع لأن اللبن يعود إلى الضرع بين الحلبتين وإفاقة المريض رجوعه إلى الصحة يعني لا رجوع إلى الدنيا بعد الصيحة أو إذا جاءت الصيحة لم ترد ولم تصرف أو لا نظرة قدر ما بين الحلبتين أو لا إفاقة ولا راحة حينئذ. قال الكلبي لمّا نزلت في الحاقة ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الإسراء: ٧١] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة: ٢٥] قالت كفار مكة استهزاء ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ فنزلت ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على قال الكافرون ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ والقط هي الصحيفة التي أحصت كل شيء كذا قال سعيد بن جبير عن ابن عباس يعني عجل لنا كتابنا في الدنيا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وروي عن سعيد بن جبير أنه قال يعنون عجل لنا حظنا ونصيبنا من الجنة التي يقول محمد، وقال الحسن وقتادة ومجاهد والسديُّ يعنون عقوبتنا ونصيبنا من العذاب، وقال عطاء هذا ما قاله النضر بن الحارث ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وعن مجاهد قال قِطّنا حسابنا ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ استهزاء وتكذيباً جملة مستأنفة وعطف عليه قوله ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ فإن ذكر الأنبياء يقتضي الصبر على ما يكرهه الطبع وحبس النفس على الطاعة وعن المعصية ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي ذا القوة والبطش الشديد على الطاعة ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي رجّاع إلى الله عما سواه وإلى الطاعة عن المعصية، قال ابن عباس أي مطيع، وقال سعيد بن جبير المسبّح بلغة الحبش، وهو تعليل للأيد دليل على أن المراد به القوة في الدين.

روى الشيخان في الصحيحين وأحمد والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «أحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام السدس الأخير من الليل»[١].

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ جملة سخرنا إلى قوله: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ بيان لكرامة داود عليه السلام عند الله فكأنه بدل اشتمال لداود أي اذكر كرامة داود عند الله حيث سخرنا له الجبال إلى آخره ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ حال وضع موضع مسبحات لاستحضار الحال الماضية والدلالة على تجدد التسبيح منه حالاً بعد حال ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ قال الكلبي غدوة وعشياً والإشراق هو أن تشرق ويتناهى ضوءها وفسره ابن عباس بصلاة الضحى، روى البغوي بسنده عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال كنت أؤمن بهذه الآية لا أدري ما هي حتى حدثتني أم هانىء

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في التهجد باب ٧، وأحاديث الأنبياء باب ٣٧، ٣٨، ومسلم في الصيام حديث ١٨٩، ١٩٠، وأبو داود في الصوم باب ٦٦، والنسائي في الصيام باب ١٤، ٦٨، وابن ماجه في الصيام باب ٣١، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٤، ٣/ ١٦٠، ١٦٤، ١٩٠، ٢٠٠.

بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل علينا فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلّى الضحى فقال: «يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق»[1] وأخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وأخرج ابن جرير والحاكم عن عبد الله بن الحرث عن ابن عباس أنه قال، ما عرفتُ صلاة الضحى إلا بهذه الآية وأخرجه سعيد بن منصور ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطف على الجبال يعني سخّرنا ﴿مَحْشُورَةً﴾ أي مجتمعة إليه من كل جانب تسبح معه ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من الجبال والطير ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي رجّاع إلى التسبيح بتسبيحه، والفرق بينه وبين ما قبله أنه يدل على الموافقة في التسبيح وهذا على المداومة عليها أو المعنى كل واحد من داود والجبال والطير له أي لله تعالى أواب.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود، قال البغوي قال ابن عباس كان داود أشد ملوك الأرض سلطاناً يحرس محرابه كل ليلة ست وثلاثون ألف رجل، روى البغوي عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً من بني إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود أن هذا غصبني بقراً فسأله داود فجحد وسأله الآخر البينة ولم تكن له بينة فقال لهما داود قوما حتى أنظر في أمركما فأوحى الله إلى داود في منامه أن يقتل الذي استعدى عليه فقال هذه رؤيا ولست أعجل حتى أثبت فأوحى إليه مرةً أخرى فلم يفعل، فأوحى إليه الثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة فأرسل داود إليه فقال إن الله أوحى إليّ أن أقتلك قال تقتلني بغير بينة؟ قال نعم والله لأنفذن أمر الله فيك، فلمّا عرف الرجل أنه قاتله قال لا تعجل حتى أخبرك إني والله ما أخذتُ بهذا الذنب ولكني كنت اغتلتُ والد هذا فقتلتُه فلذلك أُخذتُ فأمر به داود فقتله فاشتدت هيبته في بني إسرائيل عند ذلك لداود واشتد به ملكه، وكذا روى عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة وكمال العلم وإتقان العمل ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال البغوي قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به، قال ويروى ذلك عن أبي بن كعب قال فصل الخطاب الشهود والإيمان وهو قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح، وقال قال ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل هو البصيرة في القضاء وقال قال ابن عباس هو بيان الكلام يعني الكلام الذي يظهر به المقصود على المخاطب من غير التباس يراعى فيه الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإضمار والإظهار والحذف والتكرار ونحوها على ما بين في علم البلاغة ولا يكون فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل كما جاء في حديث أم معبد الذي ذكرناه في سورة التوبة في قصة الهجرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] في وصف كلام رسول الله ﷺ فصل لا نزر ولا هذر أي لا

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٣٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢١٥٢٥، والبغوي في تفسيره ٦/ ٤٤.

قليل مخلٌّ ولا كثير مملٌّ، وروي عن الشعبي أن فصل الخطاب هو قول الإنسان بعد حمد الله والثناء عليه أما بعد إذا أراد الشروع في كلام، قال البيضاوي إنما سمي به أما بعد لأنه يفصل المقصود عمَّا سبق مقدمة له من الحمد والصلاة.

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ استفهام ومعناه التعجبُ والتشويق إلى استماع القصة والجملة معطوفة على اذكر، والخصم في الأصل مصدر ولذلك يصلح للإطلاق على المثنى والمجموع والمراد ههنا متخاصمان وإنما أورد صيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾ مجازاً كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ﴾ [التحريم: ٤] وهو تفعل من السور كتسنم من السنام ومعناه إذ تصعدوا ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي القلعة سمي محراباً لأنه يحرب عليه أو المراد به المسجد لما أنه يحرب فيه من الشيطان، وجاز أن يكونوا جماعة كما يدل عليه الصيغة وضمائر الجمع، وإذ متعلق بمحذوف أي نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا أو بالنبأ على أن المراد به الواقع في عهد داود وأن إسناد أتى إليه على حذف المضاف أي قصة نبأ الخصم أو بالخصم لما فيه من معنى الفعل لا يأتي لأن إتيانه الرسول ﷺ لم يكن حينئذ، وهذا امتحان داود عليه السلام.

قال البغوي: اختلف العلماء في سببه؟ فقال قوم: سبب ذلك أنه عليه السلام تمنى يوماً من الأيام منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسأل ربه أن يمتحنه كما امتحنهم ويعطيه من الفضل ما أعطاهم، فروى السديّ والكلبي ومقاتل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم في بعض قالوا كان داود قسَّم الدهر ثلاثة أقسام يوم يقضي بين الناس ويوم يخلو فيه لعبادة ربه ويوم لنسائه وأشغاله، قلتُ: وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه جزَّ الدهر أربعة أجزاء فزاد ويوم للوعظ، قالوا وكان داود يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال يا رب أرى الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا من قبلي فأوحى الله إليه أنهم ابتلوا ببلايا لم تبتل بها فصبروا عليها ابتلى إبراهيم

بنمرود وبذبح ابنه وابتلي إسحاق بالذبح وبذهاب بصره وابتلي يعقوب بالحزن على يوسف، فقال يا رب لو ابتليتني بمثل ما ابتليتهم لصبرتُ أيضاً فأوحى الله إليه أنك مبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاحترس، فلمّا كان ذلك اليوم الذي وعده الله دخل داود محرابه وجعل يصلّي ويقرأ الزبور فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن وقيل جناحاه من الدر والزبرجد فوقفت بين رجليه فأعجبه حسنها فمد يده ليأخذها فيريها بني إسرائيل فينظروا إلى قدرة الله تعالى فلمّا قصد أخذها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها فامتد إليها ليأخذها فتنحت فتبعها فطارت حتى وقعت في كوة فذهب ليأخذها فطارت من الكوة فنظر داود أين تقع فيبعث من يصيدها، فأبصر امرأة في بستان على شط بركة لها تغتسل هذا قول الكلبي، وقال السدي رآها تغتسل على سطح لها فرأى امرأة من أجمل النساء خَلقاً فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظُلة فنقضت شعرها فغطت بدنها فزاده ذلك عجباً فسأل عنها فقيل هي تشائع بنت شائع امرأة أوريا بن حنانا وزوجها في غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود عليه السلام فذكر بعضهم أنه أحب أن يقتل أوريا ويتزوج امرأته فكان ذنبه هذا القدر.

وذكر بعضهم أنه كتب داود إلى ابن أخته أيوب أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وقدِّمه قبل التابوت وكان من قدِّم التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد وقدَّمه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أيضاً أن ابعثه إلى عدوّ كذا وكذا فبعثه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أيضاً أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منه بأساً فبعثه فقتل في المرة الثالثة، فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود فهي أم سليمان عليهما السلام، قال البغوي وعن ابن مسعود أنه قال كان في ذنب داود أنه التمس من الرجل أن ينزل عن امرأته قال أهل التفسير كان ذلك مباحاً لهم غير أن الله لم يرض له ذلك لأنه كان رغبةً في الدنيا وازدياد النساء وقد أغناه الله عنها بما أعطاه من غيرها، قال البغوي وروي عن الحسن أنه كان جزأ الدهر أربعة أجزاء كما ذكر عبد بن حميد وغيره وزاد فلمّا كان يوم وعظ بني إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه ويبكيهم ويبكونه فقالوا هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك وقيل إنهم ذكروا فتنة النساء فأضمر داود في نفسه أنه إن ابتلي اعتصم فلمّا كان يوم عبادته غلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد وأكب على التوراة فبينا هو يقرأ إذ دخلت عليه حمامة من ذهب كما ذكرنا، قال وكان قد بعث زوجها على بعض جيوشه فكتب إليه أن يسير إلى كان كذا وكذا مكاناً إذا سار إليه قتل ففعل فأصيب فتزوج امرأته، قال فَلمَّا دخل داود بامرأة أوريا لم يلبس إلا يسيراً حتى بعث الله إليه ملكين في صورة رجلين يوم عبادته فطلبا أن يدخلا عليه فمنعهما الحرس فتسورا المحراب عليه فما شعر وهو يصلّي إلا وهما بين يديه جالسين يقال كانا جبرئيل وميكائيل عليهما السلام.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ بدل من قوله إذ تسوروا ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي خاف داود من الخصم

لأنهما نزلا عليه من فوق في يوم الاحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من دخل عليه ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ أي نحن متخاصمان ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هذا الكلام على الفرض وقصد التعريض كأنّهم قالوا إن كنا خصمين بغى بعضنا على بعض ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي لا تجر يقال شط الرجل شططاً وأشط إشطاطاً إذا جار في حكمه والمعنى مجاوزة الحد، وأصل الكلمة من شطت الدار وأشطت إذا بعدت ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ سواء مصدر بمعنى الفاعل صفة للصراط أضيف إليه على طريقة إخلاق ثياب يعني اهدنا إلى طريق مستوي أي وسطه وهو العدل ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ أي على ديني وطريقي ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي امرأة العرب تكنى المرأة بالنعجة، وقال الحسن بن الفضل هذا تعريض للتنبيه والتفهيم إذ لم يكن هناك نعاج، والجملة الظرفية خبر بعد خبر لأن ﴿وَلِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون باسكانها ﴿نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ الجملة الظرفية منصوب على الحال والعامل فيه الظرف السابق ﴿فَقَالَ﴾ عطف على قوله: ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ قال ابن عباس أعطنيها، وقال مجاهد انزل لي عنها يعني طِلقها لأتزوجها وحقيقته ضمها إليّ واجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقيل معناه اجعلها كفلي ونصيبي ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ عطف على قال معناه غلبني في المخاطبة إياي محاجة، قال الضحاك يعني إن تكلم كان أفصح مني وإن حارب كان أبطش مني فالغلبة له لضعفي في يده وإن كان الحق معي، وقيل معناه غلبني في خطبة المرأة أي خطبتُ المرأة وخطبها هو على خطبتي فغلبني حتى تزوجها ﴿قَالَ﴾ داود بعد اعتراف صاحبه بذلك ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ وقيل معناه إن كان الأمر كما تقول فلقد ظلمك، والجملة جواب قسم محذوف قصد به المبالغة في إنكار فعل خليطه وتهجين طمعه والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة أي ظلمك بسؤال أن يضيف نعجتك إلى نعاجه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ أي الشركاء الذين خلطوا أموالهم جمع خليط ﴿لَيَبْغِي﴾ أي ليظلم ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً جملة وإن كثيراً عطف على لقد ظلمك ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وهم قليل وما مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم، فلمّا قَضَى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك وصعدا في السماء ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ﴾ أي علم وأيقن عطف على ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ يعني أن الله ابتلاه وامتحنه بتلك الحكومة هل يتنبه بها أم لا.

قال السدي بإسناده أن أحدهما لمّا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ الآية قال داود للآخر ما تقول فقال إن لي تسع وتسعون نعجة ولأخي نعجة واحدة وأنا أريد أن آخذها منه فأكمّل نعاجي مائة وهو كاره، قال إذاً لا ندعك فإن رمت ذلك ضربتُ هذا وهذا وهذا يعني طرف الأنف وأصله والجبهة، فقال يا داود أنت أحقُّ بذلك حيث لم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ولك تسع وتسعون امرأة، فلم تزل تعرضه للقتل حتى قتل وتزوجت امرأته فنظر داود فلم ير أحداً فعرف ما وقع فيه، وقال القائلون بتنزيه الأنبياء في هذه القصة أن ذنب داود إنما كان أنه تمنى أن يكون امرأة اوريا حلالاً له فاتفق غزو أوريا وتقدمُه في الحرب فلمّا بلغ قتله

داود لم يجزع عليه كما كان يجزع على غيره من جنده إذا هلك ثم تزوج امرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء ولو صغرت فهي عظيمة عند الله نظراً إلى رفعة شأنهم، وقيل كان ذنب داود أن أوريا كان خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها فلما غاب في غزاته خطبها داود فزوجت منه لجلالته فاغتم لذلك أوريا فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها وعنده تسع وتسعون امرأة، وذكر البغوي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن داود النبي حين نظر إلى المرأة فأهم قطع على بني إسرائيل فأوصى صاحب البعث فقال إذا حضر العدو فقرب فلاناً بين يدي التابوت وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به ومن قدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة فنزل الملكان يقصان عليه القصة ففطن داود فسجد فمكث أربعين ليلةً ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبهته وهو يقول في سجوده رب زلّ داود زلة أبعد ممّا بين المشرق والمغرب، رب إن لم ترحم ضعف داود ولم تغفر ذنبه جعلتَ ذنبه حديثاً في الخلوف من بعده، فجاءه جبرئيل من بعد أربعين ليلة فقال يا داود إن الله قد غفر لك الهم الذي هممتَ به فقال داود إن الرب قادر على أن يغفر لي الهمَّ الذي هممتُ به وقد عرفت أنّ الله عدل لا يميل فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال رب دمي الذي عند داود فقال جبرئيل ما سألتُ ربّك عن ذلك وإن شئت لأفعلن، قال نعم فعرج جبرئيل وسجد داود فمكث ما شاء الله ثم نزل فقال، سألتُ الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه فقال قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة فيقول له هب لي دمك الذي عند داود وَيَقُول هو لك يا رب فيقول إن لك في الجنّة ما شئتَ وَما اشتهيت عوضاً عنه»[(١)].

وروي عن ابن عباس وعن كعب الأحبار ووهب بن منبه قالوا جميعاً إن داود لمّا دخل عليه الملكان فقضى على نفسه فتحولا عن صورتيهما فعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه، وعلم داود أنه إنما عُنِيَ به فخر ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلاّ لحاجة ولوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجداً تمام أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربّه عزّ وجلّ ويسأله التوبةَ، وكَان من دعائه في سجوده سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بمَا يشاءُ سُبحان خالق النور سبحان الحائل بين القلوب سبحان خالِق النّور إلٰهي أنت خليت بيني وبين عدوي إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي سُبحانَ خالق النور إلٰهي أنت خلقتني وكان من سابق علمك ما أنا إليه صائر سُبحان خالق النور إلٰهي الويل لداود إذا كشف عنه الغَطاء فيقال هذا داود الخاطىء سبحان خالق النور إلٰهي بأيّ عين أنظر إليك يوم القيامة وإنّما ينظر الظالمون من طرف خفي سبحان خالق النور إلٰهي بأيّ قدمٍ أمشي أمامك وأقوم بين يديك يوم تزول اقدام الخاطئين سبحان خالق

(١) أخرجه البغوي في تفسيره ٦/٤٨، والطبري في تفسيره ٢٣/٩٦.

النور إلٰهي من أين يطلب العبد المغفرة إلا من عند سيّده سبحان خالق النور إلٰهي أنا الذي لا أطيق حرّ شمسك فكيف أطيق حرَّ نارك، سبحان خالق النور إلٰهي أنا الذي لا أطيق صوت رعدك فكيف أطيق صوت جهنم، سبحان خالِق النور إلٰهي الويل لداود من الذنب العَظيم الذي أصاب، سُبحانَ خَالق النور إلٰهي قد تعلم سرّي وعلانيتي فاقبل عذري سبحان خالِق النور، إلٰهي برحْمتكَ اغفر لي ذنوبي ولا تباعدني من رحمتك لهواي، سبحان خَالق النّور إلٰهي أعوذ بنُور وجهك الكريم من ذنوبي التي أوبقتني سبُحان خالق النور إلٰهي فررت إليك بذنوبي واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تخزني يوم الدّينِ سبحان خالق النور.

قال مجاهد فمكث داود أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعٰى من دموع عينيه حتّى غطى رأسه فنودي يا داود أجائع فتطعم أو ظمآن فتسقى أو عَار فتكسى فأجيب في غير ما طلب قال فنحب نحبة هاج لها العود فاحترق من حرّ جوفه ثمّ أنزل الله له التوبة والمغفرة، قال وهب إن داود أتاه نداء أني قد غفرتُ لك قال يا ربّ كيف وأنت لا تظلم أحداً قال اذهب إلى قبر أوريا فناده فأنا أسمعه نداءك فتحلل منه، قال فانطلق وقد لبس المسوح حتى جلس عند قبر أوريا ثم ناداه فقال لبّيك من هذا الَّذي قطع عنّي لذّتي وأيقظني؟ قَال أنا داود، قال ما جاء بك يا نبي الله قال أسألك أن تجعلني في حلٍّ ممَّا كان منّي إليك قال وما كان منك إليَّ قال عرضتُك للقتل، قال قد عرضتني للجنة فأنت في حل فأوحى الله إلى داود يا داود ألم تعلم أني حكم عدل لا أقضي بالتعنت ألاَ أعلمتَه أنّك قد تزوّجت امرأته، قال فرجع إليه فناداه فأجابه فقال: من هذا الذي قطع عني لذّتي قال: أنا داود قال: يا نبي الله أليس قد عفوتُ عنك؟ قال: نعم ولكن إنما فعلتُ ذلك بك لمكان امرأتك وقد تزوجتُها قال فسكت ولم يجبه ودعاه فلم يجبه عاوده فلم يجبه فقام عن قبره وجعل يحثو التراب على رأسه ثم نادى الويل لداود ثم الويل لداود ثم الويل الطويل لداود، سبحان خالق النور والويل لداود إذا نصب الموازين بالقسط سبُحان خالق النور الويل لداود، ثم الويل الطويل لداود حين يُؤخذ بذقنه فيدفع إلى المظلوم سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل لداود حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار سبحان خالق النور، فأتاه نداء من السماء يا داود قد غفرتُ لك ذنبك ورحمتُ على بكائك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك، قال يا رب كيف وصاحبي لم يعف عني؟ قال يا داود أعطيه من الثواب يوم القيامة ما لم تر عيناه ولم تسمع أذناه فأقول له رضيت عن عبدي داود فيقول يا رب من أين لي هذا ولم يبلغه عملي؟ فأقول هذا عوض عن عبدي داود فأستوهبك منه فيهبك لي، قال يا رب الآن قد عرفتُ أنّك قد غفرت لي فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لذنبه ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾ أي ساجداً على تسمية السجود ركوعاً لأنه مبدؤه، وقيل معناه خَرَّ أيْ سجد بعدما كان راكعاً كأنه أحرم بركعتي الاستغفار فسجد في الصلاة ﴿وَأَنَابَ﴾ أي رجع إلى الله بالتوبة، واستدلت الحنفية لهذه الآية على أنه من قرأ آية السجدة وركع على الفور

بنية سجود التلاوة أجزأه لأن الله سبحانه قال ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أطلق الركوع على السجود فعلم منه أن المقصود هو التعظيم لا خصوصية السجود ومعنى التعظيم فيهما واحد والحاجة إلى تعظيم الله تعالى إما اقتداءً بمن عَظَّمَ أو مخالفة لمن استكبر وهذا هو الظاهر، فلهذا سمي قياساً، وقالت الأئمة الثلاثة لعدم إجزاء الركوع عن السجود وهو الاستحسان، وجه الاستحسان أن الواجب التعظيم بجهة مخصوصة وهي السجود بدليل أنه لو لم يركع على الفور حتى طاعت القراءة ثم نوى أن يقع الركوع عن السجدة لا يجوز إجماعاً وتسمية السجود بالركوع في هذه الآية غير مسلم ولو سلم فهو مجاز محض وذلك لا يقتضي قيام أحدهما مقام الآخر، واختار أبو حنيفة رحمه الله هاهنا القياس على الاستحسان لقوة تأثيره وذلك باعتضاده بما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كانا أجاز أن يركع عن السجود في الصلاة ولم يرو من غيرهما خلاف ذلك ولا ترجيح للقياس الخفي بخفائه ولا للظاهر بظهوره بل يرجع في الترجيح إلى ما اقترن بهما من المعاني وقوة القياس الظاهر المتبادر بالنسبة إلى الخفي المعارض له في غاية العلة فلذا حصروا مواضع تقديم القياس على الاستحسان في بضع عشر موضعاً يعرف في الأصول هذا أحدها ولا حصر لمقابله.

مسألة: ولو ركع على فور تلاوة آية السجدة ولم ينو للتلاوة ثم سجد سقط سجدة التلاوة بالسجدة الصلاتية نوى أو لم ينو وكذا لو قرأ بعد آية السجدة آيةً أو آيتين عند أبي حنيفة رحمه الله خلافاً للجمهور، وفي ثلاث آيات اختلفت الرواية عن أبي حنيفة وفيما زاد على الثلاث لا ينوبه ركوع ولا سجدة صلاتية سواء نوى أو لم ينو.

مسألة: ويجب عليه قضاء سجدة التلاوة ما دام في الصلاة عند أبي حنيفة رحمه الله كذا قال جمهور الحنفية وظن محمد بن سلمة أن قيام السجدة الصلبية مقام سجدة التلاوة قياس، وفي الاستحسان لا يجوز، لأن السجدة الصلاتية قائمة مقام نفسها فلا يقوم مقام غيرها كصوم يوم من رمضان لا يجوز أن يقوم عن نفسه وعن قضاء يوم آخر فالقياس فيه مقدم على الاستحسان وأما قيام الركوع مقام سجدة التلاوة فالقياس يأبى عنه وهو الظاهر وفي الاستحسان يجوز وهو الخفي فهو من باب تقديم الاستحسان على القياس.

مسألة: يجب السجود على من تلا هذه الآية من ص عند أبي حنيفة رحمه الله وعند مالك سنة كقوله في مطلق سجود التلاوة وكذا عند أحمد في إحدى الروايتين، وقال الشافعي وأحمد في الرواية المشهور عنه أنها سجدة شكر تستحب في غير الصلاة ولا تجوز في الصلاة، احتج ابن الجوزي على أنها ليست من عزائم السجود بحديث ابن عباس قال رأيتُ رسول الله ﷺ يسجد في صَ[1] قال ابن عباس: وليست من عزائم السجود رواه ابن الجوزي من طريق الترمذي وقال: قال الترمذي هذا حديث صحيح قلتُ ورواه البخاري في الصحيح

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٧٩.

عن ابن عباس قال سجدة صّ ليس من عزائم السجود وقد رأيتُ النبيّ ﷺ يسجد فيها، وفي رواية قال مجاهد قلتُ لابن عباس أأسجد في صّ فقرأ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤] حتى أتى على قوله ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] فقال نبيكم ممن أمر أن يقتدى بهم[١]، وهذا يقتضي الوجوب فهو حجة لنا لا علينا وقول ابن عباس ليست من عزائم السجود موقوف يعارضه قوله نبيكم ﷺ أمر أن يقتدي بهم والمرفوع فعله ﷺ، واحتج ابن الجوزي أيضاً بحديث أبي سعيد الخدري قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوماً قرأ صّ فلمَّا مرَّ بالسجود نزل فسجد وسجدنا معه وقرأها أخرى فلما بلغ السجدة نشرنا للسجود فما رآنا قال «إنما هي سجدة توبة نبي ولكني أراكم قد استعددتم للسجود» فنزل فسجد وسجدنا». رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني وهذا أيضاً ممَّا لا حجة علينا فيه غاية ما في الباب أن يكون فيه دلالة على عدم وجوب سجود التلاوة مطلقاً كما قال به الجمهور وهو المختار عندي للفتوى وبه قال الطحاوي من الحنفية خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، ولنا أيضاً حديث أبي هريرة «أن النبيّ ﷺ سجد في صّ» رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني وحديث أبي سعيد «أن رسول الله سجد في صّ» رواه الطحاوي وأبو داود والحاكم وذكر البيهقي عن جماعة من الصحابة أنهم سجدوا في صّ. عن السائب بن يزيد قال صليتُ خلف عمر الفجر فقرأ بنا سورة صّ فسجد فيها فلمَّا قضى الصلاة قال له رجل يا أمير المؤمنين من عزائم السجود هذه فقال كان رسول الله ﷺ يسجد فيها، وعن أبي مريم قال لمَّا قدم عمر الشام أتى محراب داود فصلّى فيه فقرأ سورة صّ فلمَّا انتهى إلى السجدة سجد، وحديث ابن عباس أن النبيّ ﷺ سجد في صّ وقال: «سجدها داود توبةً ونسجدها شكراً»[٢] رواه النسائي من حديث حجاج بن محمد عن عمر بن ذر موصولاً ورواه الدارقطني ورواه الشافعي في الأم عن ابن عيينة عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ وروي من وجه آخر من حديث عبد الله بن بزيع عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ وأعله بابن بزيع، قال قال ابن عدي ليس ممن يحتج به وصححه ابن السكن كذا قال ابن حجر، قال ابن همام غاية ما فيه أنه ﷺ بين السبب في حق داود والسبب في حقنا كون الشكر سبباً لا ينافي الوجوب فإن الفرائض والواجبات إنما وجبت شكراً لتوالي النعم، وفي مسند أبي حنيفة روى أبو حنيفة عن سماك بن حرب عن عياض الأشعري عن أبي موسى أن النبيّ ﷺ سجد في صّ، وأخرج أحمد عن بكر بن عبد الله المزني عن أبي سعيد رضي الله عنه قال رأيتُ رؤيا وأنا أكتب سورة صّ فلَمَّا بلغتُ السجدة رأيتُ الدواة والقلم وكل شيء يحضرني انقلب ساجداً قال فقصصتُهَا على رسول الله ﷺ فلم يسجدها[٣] قال ابن همام فأفاد

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣٩.
(٢) أخرجه النسائي في الافتتاح باب ٤٨.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٧٨، ٨٤.

أن الأمر صار إلى المواظبة عليها كغيرها من غير ترك واستقر عليه بعد أن كان قد لا يعزم عليها فظهر أن ما رواه إن تمت دلالته كان قبل هذه القصة.

فصل

عن ابن عباس قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله رأيتُني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدتُ فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتُها تقول اللَّهم اكتب لي بها عندك أجراً وضع عني بها وزراً واجعلها لي عندك ذخراً وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود قال ابن عباس فسمعتُ رسول الله ﷺ «قرأ سجدةً ثم سجد فقال مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة»[1] رواه الترمذي (وقال هذا حديث غريب) وابن حبان والحاكم وكذا روى ابن ماجه إلا أنه لم يذكر «وتقبلها مني كما تقبلتَ من عبدك داود».

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ أي استغفر عنه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا﴾ بعد المغفرة ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ أي قرباً غير متكيف ومكانة حصلت، بكمال الندم والاستغفار بحيث لولا تلك الزلة لما حصلت وقيل معناه وإنَّ لَه زُلفى أي زيادة خير في الدنيا ومكانة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسن مرجع ومنقلب في الآخرة.

قلتُ: والظاهر أن من روى أن داود عليه السلام بعث مرة بعد مرةٍ أوريا إلى المغازي وأراد منه أن يقتل ليتزوج بعده زوجته فهو كذب مفترى حاشاه عن ذلك وعامة ما يدل عليه لفظ القرآن أنه عليه السلام ودَّ أن يكون له ما لغيره وكان له تسعاً وتسعين من أمثاله فنبهه الله بهذه القضية فاستغفر وأناب عنه، قال صاحب المدارك روي أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته وكان لهم عادة في المواساة بذلك كما كان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على امرأة أوريا فأحبها فسأله النزول له عنها واستحيى أوريا أن يرد قوله ففعل فتزوجها، قلت ولم يفعل داود عليه السلام مثل ما فعل نبينا ﷺ حين أعجبته زينب حيث قال لزيد ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فزوجها الله إياه ولأجل ذلك عاتب الله داود عليه السلام فاستغفر ربه وأناب ولفظ القرآن يؤيد هذه الرواية حيث أدعى المدعي بقوله: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ ولم يقل أراد قتلي وحكم داود بأنه قد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه والله أعلم.

قال البغوي قال وهب بن منبه إن داود لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا يرقأ دمعه ليلاً ولا نهاراً وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام يوم للقضاء بين بني إسرائيل ويوم لنسائه ويوم يسبح في الفيافي والجبال ويوم يخلو في داره فيها أربعة آلاف محراب فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة باب ٥٥، والدعوات باب ٣٣، وابن ماجه في الإقامة باب ٧٠.

نفسه فيساعدونه على ذلك فإذا كان يوم سياحتهم يخرج في الفيافي ويرفع صوته بالمزامير فيبكي ويبكي معه الجبال والحجارة والدواب والطير حتى يسيل أودية من بكائهم، ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته بالمزامير فيبكي ويبكي معه الحيتان ودواب البحر وطير الماء، والسباع فإذا أمسى رجع فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه أن اليوم نوح داود على نفسه فليحضر من يساعده فيدخل الدار التي فيها المحاريب فبسط ثلاث فرش من مسوح حشوها ليف فيجلس عليها ويجيء أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وفي أيديهم العصا فيجلسون في تلك المحاريب ثم يرفع داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه ويرفع الرهبان معه أصواتهم فلا يزال يبكي حتى يغرق الفرش من دموعه ويقع داود فيها مثل الفرخ ويضطرب فيجيء ابنه سليمان عليهما السلام فيحمله فيأخذ داود من تلك الدموع بكفيه ثم يمسح وجهه، ويقول يا رب اغفر لي ما ترى فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدنيا لعدله، قال وهب ما رفع داود رأسه حتى قال له ملَك أول أمرك ذنب وآخره مغفرة ارفع رأسك فرفع رأسه فمكث حياته لا يشرب ماءً إلا مزجه بدموعه ولا يأكل الطعام إلا بله بدموعه، وذكر الأوزاعي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ «إن مثل عيني داود كالقربتين تنقطان ماءً ولقد خدت الدموع في وجهه كخديد الماء في الأرض» قال وهب لمَّا تاب الله على داود قال يا رب غفرتَ لي فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فاستغفر منها وللخاطئين إلى يوم القيامة قال فرسم الله خطيئته في يده اليمنى فما رفع فيها طعاماً ولا شراباً إلا بكى إذا رآها وما كان خطيباً للناس إلا بسط راحته فاستقبل الناس ليروا رسم خطيئته وكان يبدأ إذا دعا فاستغفر للخاطئين قبل نفسه، وقال قتادة عن الحسن كان داود بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين يقول تعالوا إلى داود الخاطىء ولا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قطعة فلا يزال يبكي حتى يبل بدموع عينيه وكان يذر عليه الملح والرماد فيأكل ويقول هذا أكل الخاطئين، قال وكان داود قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر فلمَّا كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله وقام الليل كله، وقال ثابت كان داود إذا ذكر عقاب الله تخلعت أوصاله فلا يشدها إلا الأسى وإذا ذكر رحمة الله تراجعت، وفي القصة أن الوحوش والطير كانت تستمع إلى قراءته فلمَّا فعل ما فعل كانت لا تصغي إلى قراءته فروي أنها قالت يا داود ذهبت خطيئتك بحلاوة صوتك.

﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾ تقديره وقلنا يا داود معطوف على قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استخلفناك على الملك أو جعلناك خليفة[1] ممن قبلك من الأنبياء العالمين

---

(١) عن عمر بن الخطاب انه سأل طلحة والزبير وكعباً وسلمان ما الخليفة من الملك فقال طلحة والزبير ما ندري فقال سلمان الخليفة الذي يعدل في الرعية ويقسم بينهم بالسوية ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله ويقضي بكتاب الله فقال كعب ما كنت أحسب أن في المجلس أحداً يعرف الخليفة من الملك غيري. وعن سلمان أن عمر قال له أنا ملك أو خليفة فقال سلمان إن أنت جئت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فانت ملك غير خليفة فاستعبر عمر - وعن سليمان بن أبي =

بالحق ﴿فَٱحْكُم﴾ الفاء للسببية ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بحكم الله ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ عطف على فاحكم أي لا تتبع ما تهويه نفسك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ منصوب في جواب النهي ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن دلائله التي نصبها الله على الحق، فيه دليل على أنه من اتبع هواه اختل رأيه وضل في اجتهاده كما ترى في اثنين وسبعين فرقة ممن يدعي الإسلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي بسبب نسيانهم يوم الحساب فإن تذكر ذلك اليوم يقتضي ملازمته ومخالفة الهوى والجملة مستأنفة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ لا حكمة فيه أو ذوي باطل يعني مبطلين عابثين أو للباطل الذي هو متابعة الهوى بل للحق الذي هو الاستدلال على وجود الصانع وشكر نعمته بامتثال أوامره وانتهاء مناهيه جملة معترضة وكذلك قوله ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ حيث ينكرون البعث وينكرون ثواب المطيع لمن خلق وعذاب العاصي وذلك يقتضي كون خلقها عبثاً لا حكمة فيه ﴿فَوَيْلٌ﴾ التنكير للتعظيم والفاء للسببية ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضع المظهر موضع الضمير للذم والتقبيح ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ من للسببية ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة لإنكار التسوية بين الفريقين التي هي من لوازم خلقها باطلاً ليدل على نفيه، وبل للإضراب عما سبق من ظن بطلان خلق السماوات والأرض وكذا التي في قوله ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أنكر أولاً التسوية بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم ويجوز أن يكون تكريراً للإنكار الأول باعتبار الوصفين الأخيرين المانعين التسوية من الحكيم، وهذه الآية برهان عقلي تدل على وجوب القول بالحشر إذ لا تفاضل بينهما في الدنيا غالباً بل الغالب فيها عكس ما تقتضيه الحكمة، فلا بد أن يكون لهم محل آخر يجاوز فيها.

وقال مقاتل قال كفار قريش إنا نعطي في الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت هذه الآية ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي هذا القرآن كتاب من الله ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ كثير خير ونفعة ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي ليتفكروا فيها يعني تتفكر أنت وعلماء أمتك فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة أو يتفكر كل من له عقل فيعلم أنه من الله ولا يتصور إتيانه من البشر، قال الحسن تدبر آياته أتباعها ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ليتعظ به ذوي العقول السليمة أو يستحضروا ما هو المركوز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته بما نصب عليه من الدلائل فإن الكتب الإلهية بيان لما لا يعرف إلا من الشرع وإرشاد إلى ما لا يستقل به العقل ولعل التدبر للمعلوم الأول والتذكر للثاني.

= العوجاء قال قال عمر بن الخطاب ما أدري أخليفة أنا أم ملك قال قائل يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً قال ما هو قال الخليفة لا يأخذ إلا حقًّا فلا يضعه إلا في حق وانت بحمد الله كذلك والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا أو يعطي هذا فسكت عمر ـ وعن معاوية أنه كان يقول إذا جلس للمنبر يا أيها الناس إن الخلافة ليست بجمع المال ولا بتفريقه ولكن الخلافة العمل بالحق والحكم بالعدل وأخذ الناس بأمر الله ـ ١٢ ـ منه رحمه الله ـ.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾
فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ
وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا
لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ
كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ
لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾
وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ
الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا﴾ عطف على قوله ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ وما بينهما معترضات ﴿لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ سليمان ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ سليمان ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تعليل للمدح لأنه رجاع إلى الله تعالى بالتوبة أو إلى التسبيح مرجع له ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ ظرف لأواب أو لنعم والضمير لسليمان ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ أي في العشي، يعني بعد الظهر ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ الصافن من الخيل الذي يقوم على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابع وهي من الصفات المحمودة في الخيل، والجياد جمع جواد أو جود وهو الذي يسرع في جريه وقيل جمع جيد.

قال ابن عباس يريد الخيل السوابق قيل وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية أعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا سارت كانت خفافاً سراعاً، قال الكلبي غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين وأصابَ منهم ألف فرس، وقال مقاتل ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس ويرد هذا القول ما قال رسول الله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة»(١).

أخرج عبد بن حميد والفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي قال كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة فعقرها، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عوف عن الحسن قال بلغني أن الخيل التي عقر سليمان وكانت خيلاً ذوات أجنحة أخرجت له من البحر لم يكن لأحد قبله ولا بعده، وذكر البغوي عن عكرمة قال كانت عشرين ألف فرس لها أجنحة وقالوا فصلّى سليمان صلاة الظهر وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه فعرضت عليه تسع مائة فتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة ولم يعْلم بذلك هيبة له فاغتم لذلك.

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الخمس باب ١، وفضائل أصحاب النبي ﷺ باب ١٢، والمغازي باب ١٤، ٣٨، والنفقات باب ٣، والفرائض باب ٣، والاعتصام باب ٥، ومسلم في الجهاد حديث ٤٩ ـ ٥٢، ٥٤، ٥٦.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ﴾ عطف على جمل محذوفة تقديره إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد فاشتغل بها حتى فاته العصر فقال إني احببت ﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي آثرت حب الخير أي المال الكثير والمراد به الخيل التي شغله أو أطلق الخير على الخيل لأن العرب تعاقب بين اللام والراء فيقول ختلت الرجل وخترته أي خدعته وقيل سميت الخيل خيراً لأنه معقود في نواصيها الخير، قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»(١) روي هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما عن عدة من الصحابة، وكان الأصل أن يعدى أحببتُ بمعنى آثرتُ بعلى لكن لمّا أنيب مناب أنبت عدي بمن.

وقيل أحبَبْتُ بمعنى تقاعدتُ وحُبَّ الخير منصوب على العلية والمعنى تقاعدتُ لحب الخير، في القاموس أحب البقر برك فلم يثر ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ أي الشمس أضمرت من غير ذكرها لدلالة العشي عليها ﴿بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي غربت واستترت بما يحجبها عن الأبصار، قال البغوي يقال الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة والشمس تغرب من ورائه ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ بتقدير القول عطف على قال ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ﴾ وقال ردوها أي الصافنات عليَّ فردوها عليه ﴿فَطَفِقَ﴾ أي أخذ عطف على قال ردوها عليّ ﴿مَسۡحَۢا﴾ أي يمسح السيف مسحاً ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي بسوقها وأعناقها يعني قطعها من قولهم مسح علاوته إذا ضرب عنقه.

هذا قول ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل وأكثر المفسرين أخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال عقرها بالسيف، وأخرج الطبراني في الأوسط والإسماعيلي في معجمه وابن مردويه بسند حسن عن أبي بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «قطع سوقها وأعناقها بالسيف وكان ذلك بإذن الله تعالى توبةً عما غفل من ذكره وتقرباً إليه وطلباً لمرضاته»(٢) قال الحسن فلمَّا عقر الخيل أبدله الله خيراً منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره، وقال بعض المفسرين إنه ذبحها وتصدق بلحومها، وكانت لحوم الخيل حلالاً كما هو في شريعتنا عند الجمهور خلافاً لأبي حنيفة فإنه قال يكره، وقال قوم معناه أنه حبسها في سبيل الله وكوى سوقها وأعناقها بكي الصدقة، وقال البغوي حكي عن علي كرم الله وجهه في قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ يقول سليمان بأمر الله تعالى للملائكة الموكلين بالشمس رُدُّوهَا أي الشمس عَليَّ فردوها عليه حتى صلى العصر في وقتها وذلك أنه كان يعرض عليه الخيل للجهاد في سبيل الله ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ وقال الزهري وابن كيسان يمسح سوقها وأعناقها بيده يكشف الغبار عنها حبّاً لها وشفقة عليها، قال البغوي هذا قول ضعيف والمشهور هو الأول، قلتُ: ويأبى عن هذا القول ما قال سليمان تأسفاً ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾.

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤٣، ٤٤، والخمس باب ٨٢، والمناقب باب ٢٨، ومسلم في الزكاة حديث ٢٥، والإمارة حديث ٩٨، ٩٩.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٩٩، والسيوطي في الدر المنثور ٥/٣٠٩، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٥٧٢.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي اختبرنا وابتلينا ﴿سُلَيْمَنَ﴾ جواب قسم محذوف عطف على وهبنا ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إنه قال لأطوفن الليلة على تسع وتسعين امرأة» وفي رواية بمائة امرأة كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له الملك قل إن شاء الله فلم يقل ونسي فطاف عليهن فلم تحمل منهم إلا امرأة واحدةً جاءت بشق رجل، وايم الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[1] متفق عليه، قيل فجاءت القابلة بذلك الشق فألقت على كرسيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع عن ترك الاستثناء في المستقبل كذا قال طاوس، وهذا التأويل أولى الأقاويل لقوة حديث الصحيحين، والقول بتنزيه الأنبياء عن السوء ولأن الجسد جسم لا روح فيه فيصدق على هذا التأويل بلا تمحل، وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة أنه قال ولد لسليمان ابن فقالت الشياطين إن عاش لم ننفك من السخرة فسبيلنا أن نقتله أو نخبله فعلم ذلك سليمان فكان يقوده في السحاب خوفاً من غرة الشياطين فما شعر به إلا أن ألقي على كرسيه ميتاً فتنةً على زلته في أن لم يتوكل فيه على ربه.

وقال البغوي: ذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه قال سمع سليمان عليه السلام بمدينة في جزيرة البحر يقال لها صيدون بها ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه سبيلٌ لمكانه في البحر وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطاناً لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر إنما يركب إليه الريح فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها واستفاء ما فيها وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك يقال لها جرادة لم يروا مثلها حسناً وجمالاً واصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وأحبها حبّاً شديداً لم يحب شيئاً من نسائه وكانت على منزلتها عنده ولا تذهب حزنها ولا يرقى دمعها، فشق ذلك على سليمان فقال لها ويحكِ ما هذا الحزن الذي لا تذهب والدمع الذي لا يرقى قالت إن أبي أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصاب به فيحزنني ذلك، قال سليمان فقد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه وسلطاناً هو أعظم من سلطانه وهداك الإسلام وهو خير من ذلك كله.

قالت ذلك كذلك ولكني إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا صورته في دار التي أنا فيها وأراها بكرة وعشية لرجوتُ أن يذهب ذلك حزني وأن يسلّي عني بعض ما أجد في نفسي فأمر سليمان الشياطين فقال مثلوا لها صورة أبيها في دارها حتى لا ينكر منها شيئاً فماثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا روح فيه

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان باب ٣، والكفارات باب ٩، وأحاديث الأنبياء باب ٤٠، ومسلم في الأيمان حديث ٢٣، ٢٥.

فعمدت إليه حين صنعوه فاردّته وقمصته وعمّمته بمثل ثيابه التي كان يلبسها، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو عليه في ولائدها حتى تسجد له ويسجدن له كما كانت تصنع في ملكه وتروح عشية بمثل ذلك، وسليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً فبلغ ذلك آصف بن برخياء وكان صديقاً وكان لا يُرد عن أبواب سليمان أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل حاضراً كان سليمان أو غائباً فأتاه فقال يا نبي الله كبر سني ورق عظمي ونفد عمري وقد حان مني الذهاب فقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأثني عليهم بعلمي فيهم وأعلم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم فقال افعل.

فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيباً فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى على كل نبي بما فيه فذكر ما فضله الله حتى انتهى إلى سليمان فقال ما أحلمك في صغرك وأورعك في صغرك وأفضلك في صغرك وأحكم أمرك في صغرك وأبعدك عن كل ما تكره في صغرك ثم انصرف فوجد سليمان في نفسه من ذلك شيئاً حتى ملأه غضباً، فلما دخل سليمان داره أرسل إليه فقال يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم وعلى كل حال من أمرهم فلما ذكرتني جعلت تثني عليَّ الخير في صغري وسكتّ عما سوى ذلك من أمري في كبري فما الذي أحدثتُ في آخر أمري؟ فقال إن غير الله ليعبد في دارك منذ أربعين صباحاً في هوى امرأة فقال في داري فقال في دارك فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون لقد عرفتُ أنك ما قلت الذي قلتَ إلا عن شيء بلغك ثم رجع سليمان إلى داره وكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائدها ثم أمر شاب الطهارة، فأتى بثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا ينسجها إلا الأبكار ولا تغسلها إلا الأبكار ولم تمسها امرأة قد رأت الدم ثم لبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده فأمر برماد ففرش له ثم أقبل تائباً إلى الله حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذللاً لله وتضرعاً إليه يبكي ويدعو ويستغفر مما كان هو في داره فلم يزل كذلك حتى أمسى ثم رجع إلى داره.

وكانت له أم ولد يقال لها الأمينة كان إذا دخل مذهبه أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر وكان ملكه في خاتمه فوضعه يوماً عندها ثم دخل مذهبه، فأتاها الشيطان صاحب البحر واسمه صخر على صورة سليمان لا تنكر منه شيئاً فقال خاتمي يا أمينة فناولته إياه فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وخرج سيلمان فأتى الأمينة وقد غيرت حاله وهيئته عند كل من رآه فقال يا أمينة خاتمي فقالت من أنت؟ فقال أنا سليمان بن داود قالت كذبت قد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهو جالس على سرير ملكه فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته فجعل يقف على الدور من دور بني إسرائيل فيقول أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويسبونه ويقولون انظروا إلى هذا المجنون أيّ شيء يقول يزعم أنه سليمان، فلمّا رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى

السوق فيعطونه كل يوم سمكتين فإذا أمسى باع سمكة بأرغفة وشوى الأخرى فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدة ما كان عبد الوثن في داره، فأنكر آصف وعلماء بني إسرائيل حكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين فقال آصف يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيتُ؟ قالوا نعم، قال أمهلوني حتى أدخل على نسائه فأسألهن هل أنكرتن منه في خاصة أمره ما أنكرنا في عامة أمر الناس وعلانيته فدخل على نسائه فقال ويحكن هل أنكرتن من ابن داود ما أنكرنا فقلن أشده ما يدع منا امرأة في دمها ولا يغتسل من الجنابة فقال إنا لله وإنا إليه راجعون إن هذا لهو البلاء المبين ثم خرج على بني إسرائيل فقال ما في الخاصة أعظم ممَّا في العامة، فلمَّا مضى أربعون صباحاً طار الشيطان من مجلسه ثم مر بالبحر فقذف الخاتم فيه فبلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك حتى إذا كان العشي أعطاه سمكتيه وأعطاه السمكة التي أخذت الخاتم وخرج سليمان بسمكتيه فباع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها فاستقبله خاتمه في جوفها فأخذه فجعله في يده ووقع ساجداً وعكفت عليه الطير والجنُّ وأقبل عليه الإنس وعرف أن الذي كان قد دخل عليه لما كان أحدث في داره فرجع ملكه وأظهر التوبة من ذنبه وأمر الشياطين فقال آتوني بصخر فطلبته الشياطين حتى أخذته فأتي به فحاب(١) له صخرةً فأدخله فيها ثم شد عليه أخرى، ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر به فقذف في البحر هذا حديث وهب.

وقال السدي: كان سبب قصة سليمان أنه كان له مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة هي آثر نسائه وآمنهن عنده وكان يأتمنها على خاتمه إذا أتى حاجته، فقالت له يوماً إن أخي بينه وبين فلان خصومة وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك، فقال نعم ولم يفعل فابتلي بقوله فأعطاها خاتمه ودخل المخرج فجاء الشيطان في صورته فأخذه وجلس على مجلس سليمان وخرج سليمان فسألها خاتمه فقالت ألم تأخذه؟ قال لا وخرج منه ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً فأنكر الناس حكمه فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم حتى دخلوا على نسائه فقالوا إنا أنكرنا هذا فإن كان سليمان فقد ذهب عقله فبكى النساء عند ذلك، فأقبلوا حتى أحدقوا به ونشروا التوراة فقرؤوها فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة والخاتم معه ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت، وأقبل سليمان حتى انتهى إلى صياد من صياد البحر وهو جائع قد اشتد جوعه فاستطعمه من صيده وقال إني أنا سليمان فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجه فجعل يغسل دمه على شاطىء البحر فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه فأعطوه سمكتين مما قد حذر عندهم فشق بطنهما وجعل يغسلهما فوجد خاتمه في بطن إحداهما فلبسه فرد الله عليه ملكه وبهاءه وحامت عليه الطير فعرف القوم أنه سليمان فقاموا يعتذرون مما صنعوا، فقال ما

(١) أي: قطع وكل شيء قطع وسطه فهو محوب.

أؤاخذكم على عذركم ولا ألومكم على ما كان منكم هذا أمر كان لا بد منه ثم جاء حتى أتى ملكه وأمر حتى أتى بالشيطان الذي أخذ خاتمه، وجعله في صندوق من حديد ثم أطبق عليه وأقفل عليه بقفل وختم عليه بخاتمه وأمر به فألقي في البحر وهو حي كذلك حتى الساعة.

وروي عن سعيد بن المسيب قال احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله إليه احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي فابتلاه الله عزَّ وجلَّ وذكر حديثَ الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما ذكرنا، وقال الحسن ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه انتهى كلام البغوي.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وابن جرير عن السدي والنسائي وابن مردويه عن ابن عباس فذكروا القصة نحو حديث وهب بن منبه لكن في بعض الطرق أن صخر الجني لما جلس على سرير سليمان نفذ حكمه في كل شيء إلا فيه وفي نسائه وكذا قال الحسن فيما ذكر البغوي أنه ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه، وقال بعض المفسرين حديث الخاتم والشيطان والوثن في بيت سليمان من أباطيل اليهود لعنهم الله.

وقال البغوي إن في بعض الروايات أن سليمان لما افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه لملكه فأعاده سليمان إلى يده فسقط فأيقن سليمان بالفتنة فأتى آصف فقال لسليمان إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يتماسك في يدك أربعة عشر يوماً ففر سليمان إلى سربه وأخذ آصف الخاتم فوضعه في أصبعه فثبت فهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ فأقام آصف في ملكه على سيرته أربعة عشر يوماً إلى أن رد الله على سليمان ملكه فجلس على كرسيه فأعاد الخاتم في يده فثبت. قلت: والدليل على بطلان رواية وهب أن في تلك الرواية أنه غزا جزيرة يقال لها صيدون بها ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه سبيل لمكانه في البحر فخرج سليمان إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده، والقرآن ينطق أن تسخير الريح لسليمان إنما كان بعد تلك الفتنة والإنابة حيث قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ يعني بعد الفتنة والإنابة وقوله ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾ إلى آخره، قلتُ وعلى تقدير صحة تلك القصة لا يلزم سليمان صدور معصية فإن اتخاذ التماثيل كان جائزاً وسجود الصورة بغير علمه لا يضره.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ بيان للإنابة قدم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين بتقديم الاستغفار على السؤال. قرأ نافع وأبو عمرو[1] من بعدي بفتح الياء والباقون بإسكانها، في سياق هذا الكلام دلالة على أن فتنة سليمان إنما كان ابتلاءً من الله تعالى إياه لرفع درجاته في الدنيا والآخرة كفتنة أيوب عليه السلام ولم يكن فيها زلّة ومعصية من سليمان عليه السلام وإلا لبالغ في الندم

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

والاستغفار ولم يسأل غير المغفرة والتوبة ولقال الله سبحانه ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ﴾ ذلك كما قال في قصة داود عليه السلام، قال مقاتل وابن كيسان أي لا يكون من بعدي لأحد وقيل معنى من بعدي من سوائي كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال عطاء بن أبي رباح يريد هب لي ملكاً لا تسلبنه في آخر عمري وتعطيه غيري كما سلبتَه آنفاً، قيل سأل سليمان ذلك ليكون آيةً لنبوته ومعجزةً له قال مقاتل كان سليمان مِلِكاً ولكنه أراد بقوله: لا ينبغي لأحد من بعدي تسخير الرياح والطير والشياطين بدليل ما بعده، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع عليَّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذتُه فأردتُّ أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى ينظر له كلكم فذكرتُ دعوة أخي سليمان رَبِّ هب لي ملكاً لا ينبغي لاحدٍ من بعدي فرددته خاسئاً»(١) متفق عليه، قلتُ: ويمكن أنه أراد به لا ينبغي لأحدٍ من بعدي في المرتبة قال ذلك شفقة على الناس يعني من كان مثلي في انقطاع التعلقات عن الخلق واشتغال قلبه بحب الله ومعرفته لا يضره ولا يشغله عن الله شيء فكان له الدنيا وسيلة لكسب الحسنات ومن لم يكن كذلك كانت الدنيا له شاغلاً عن الله فكانت له سمّاً قاتلاً. فإن قيل الحديث يأبى عمّا قلتَ فإن النبيّ ﷺ كان أعلى مرتبةً من سليمان ولم يكن يعط ملكاً مثله ولذلك لم يربط العفريت بالسارية؟ قلنا نعم إنه صلّى الله عليه وسلّم كان أعلى مرتبةً من سليمان ولكن لا نسلم أنه لم يعط ملكاً مثله لأجل دعائه بل الله سبحانه خيَّره بين أن يكون نبيّاً مِلِكاً أو يكون نبياً عبداً فاختار كونه نبيّاً عبداً لكون الفقر أفضل عنده ودلَّ هذا الحديث أيضاً على أن الله تعالى مكنه على العفريت أن يربطه بالسارية لكنه ﷺ لم يربط باختياره حياءً من سليمان عليه السلام وكان النبيّ ﷺ نافذاً حكمه على الجن والإنس(٢):

تأتي بدعوته الأشجار ساجدة ... تمشي إليه على ساق بلا قدم

لكن كان عيش الفقراء وزيُّهم مرغوباً عنده، وكذا الخلفاء الراشدون جمعوا بين الخلافة والفقر وحازوا فضائل الفريقين صلّى الله تعالى عليه وعلى خلفائه وآله وأصحابه أجمعين ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ قرأ أبو جعفر الرياح على الجمع والباقون على الإفراد بإرادة الجنس، والجملة معطوفة على جملة محذوفة تقديره فاستجبنا دعاءه فسخرنا له أي ذلّلنا لطاعته الريح ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ الجملة صفة للريح على طريقة ولقد أمر على اللئيم يسبني، أو

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٧٥، وأحاديث الأنبياء باب ٤٠، وتفسير سورة ٣٨، باب ٢، وأحمد في المسند ٢/٢٩٨.

(٢) البيت من البسيط، وهو للبوصيري في ديوانه، ومطلع القصيدة:

أمن تذكر جيران بذي سلمِ ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدمِ

حال منه كقوله ﴿رُخَآءً﴾ لينةً لا تزعزع أو لا تخالف إرادته ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ ظرف لتجري يعني حيث أراد يقول العرب أصاب الصواب فأخطأ الجواب أي أراد الصواب ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ يبنون الحصون والقصور ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ يستخرجون له اللآلىء من البحر، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر كُلَّ بدل من الشياطين ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عطف على كل ﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ مشددين في القيود فصّل الشياطين إلى عملةٍ استعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء والغواص ومردة فرق بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر.

قلتُ: لعله لم يسلط على إبليس لما سبق له من الوعد بأنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي قلنا له، هذا الذي أعطيناك من الملك والبسط والتسلط على ما لم يسلط عليه غيرك عطاؤنا ﴿فَٱمْنُنْ﴾ أي فأعط من شئتَ ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عمن شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من المستكن في الأمر أي غير محاسب على منّه وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك قال الحسن ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه تبعة إلا سليمان فإنه إن أعطي أجر وإن لم يعط لم يكن عليه تبعة، وجاز أن يكون حالاً من العطاء أو صلة له وما بينهما اعتراض يعني عطاءً كثيراً لا يمكن إحصاؤه، وقال مقاتل هذا يعني تسخير الشياطين عطاؤنا أعطيناكه فامنن، يعني خذ منهم من شئتَ وَأمسِك منهم في وثاقك من شئتَ لا تبعة عليك في إطلاقها ولا في وثاقها ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ في الآخرة مع ما له من الملك العظيم في الدنيا ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وهو الجنة.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ عطف بيان لعبدنا والجملة عطف على واذكر عبدنا داود ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدل اشتمال من عبدنا ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها وأنَّ مع جملته حكاية لكلامه الذي نادى به ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾ قرأ أبو جعفر بضم النون والصاد ويعقوب بفتحهما والباقون بضم النون وسكون الصاد ومعنى الكل واحد أي بمشقةٍ وضُرٍ ﴿وَعَذَابٍ﴾ أي وألم، قال مقاتل وقتادة بِنُصُبٍ في الجسم وَعَذَابٍ في المال، وقد ذكرنا قصة أيوب ومدة بلائه في سورة الأنبياء عليهم السلام فلما انقضت مدة بلائه أمره الله تعالى أن ﴿ٱرْكُضْ﴾ جملة مستأنفة بتقدير قلنا له اركض ﴿بِرِجْلِكَ﴾ أي إضرب برجلك الأرض ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ﴾ اغتسل منه فذهب كل داء كان بظاهره ﴿وَشَرَابٌ﴾ اشرب منه فذهب كل ماء كان بباطنه وقيل نبعت عينان بركضتين حارة وباردة فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى، أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد قال ركض برجله اليمنى فنبعت عين وضرب بيده اليمنى خلف ظهره فنبعت عين فشرب من إحداهما واغتسل من الأخرى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ عطف على مفهوم كلام سابق أي فشفيناه ووهبنا له أهله ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ وَخُذْ﴾ عطف على اركضْ وعلى هذا وهبنا له إلى آخره جملة معترضة أو هي معطوفة على وهبنا بتقدير وقلنا له خذ ﴿بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ وهو ملء الكف من الشجر والحشيش ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ امرأتك ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك وكان قد حلف أن يضربها مائة سوط فأخذ مائة عود من إذخر أو غيرها وضربها ضربةً واحدةً ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفس

والأهل والمال تعليل لما وهب ولا يخل شكواه إلى الله تعالى من الشيطان في كونه صابراً فإنه لا يسمى جزعاً كتمني العافية وطلب الشفاء كما ذكرنا هُناك، ولشيخنا الشهيد رضي الله عنه هاهنا كلام رفيع وهو أنه عليه السلام صبر على البلاء سنين على ما ذكر في القصة، ثم لمَّا أراد الله سبحانه أن يكشف عنه الضُرَّ ألقى في روعه أن الله سبحانه يريد منك التضرع والدعاء في كشف البلاء وإظهار عجزك وافتقارك إلى جناب الكبرياء فاختار عليه السلام التضرع والدعاء على ما اقتضى طبعه من الصبر على البلاء ابتغاءً لمرضاة الله فارتقى من مقام الصبر إلى معارج الرضاء فشكر الله سبحانه على صبره بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ وعلى ارتقائه إلى مقام الرضاء بقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوب ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي مقبل بشراشره على الله تعالى.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الثلاثة عطف بيان لعبادنا، وقرأ ابن كثير عبدنا بناء على وضع الجنس موضع الجمع أو هو على معنى التوحيد وإبراهيم عطف بيان له وإسحاق ويعقوب معطوفان عليه ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين والمعرفة بالله كذا قال ابن عباس وقتادة ومجاهد عبَّر بالأيدي عن الأعمال في الطاعة، لأن أكثرها بمباشرتها وبالإبصار عن المعارف لأنها أقوى مباديها وفيه تعريض لبطلة الجهال فإنهم كالزمنا والعماة ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ أي جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة فيهم هي ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ فهو مرفوع أو هو منصوب بتقدير أعني أو مجرور على البدل من خالصة أي تذكرهم للدار الآخرة دائماً وتذكيرهم الناس كما هو دأب الأنبياء، وذلك التذكر سبب لخلوصهم في الطاعة وذلك لأن مطمح أنظارهم فيما يأتون ويذرون جوار الله والفوز بلقائه وذلك في الآخرة وجاز أن يكون المضاف محذوفاً أي ذِكْرى صاحب الدَّارِ وهو الله سبحانه وإطلاق الدار على الآخرة للإشعار بأنها هي الدار على الحقيقة والدنيا معبرة قرار فيها وما لا قرار فيها لا يسمى داراً. قرأ نافع وهشام[1] بإضافة خالصة إلى ذكرى للبيان أو لأنه مصدر بمعنى الخلوص فأضيف إلى فاعله، قال مالك بن دينار ونزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها، وقال مقاتل كانوا يدعون إلى الآخرة، وإلى الله عزَّ وجلَّ وقال السديّ أخلصوا بخوف الآخرة، وقال ابن زيد معناه على الإضافة أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة وجملة إنا أخلصناهُم مع ما عطف عليه تعليل لما سبق ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ لمن المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم في الخير والأخيار جمع خير كشر وأشرار، وقيل جمع خَيِّر على تخفيفه كأموات جمع مَيْتٍ أو مَيِّتٍ ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب استخلفه الناس على بني إسرائيل ثم استنبىء، قرأ حمزة والكسائي والليسع بلام مشددة وإسكان الياء تشبيهاً بالمنقول من ليسع والباقون بلام واحدة ساكنة وفتح الياء ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِۖ﴾ ابن عم اليسع أو بشر بن أيوب اختلف في نبوته

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

ولقبه فقيل فرَّ إليه مائة نبي من بني إسرائيل فآواهم وكفلهم، وقيل كفل لعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ حال من مفعول اذكر.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا
بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾
إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا
فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ
صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا
فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ
زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ
ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ
﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا
خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ
فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ
فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من أمورهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي شرف لهم أو هذا الذي تلي عليكم من القرآن ذكر جميل لهم، ثم شرع لما أعدَّ لهم ولأمثالهم فقال ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجع ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ عطف بيان لحسن مآب أو بدل منه وهي من الأعلام الغالبة لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ [مريم: ٦١] وانتصب عنها ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ على الحال والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل أي الكون والحصول وقوله ﴿ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ مرفوع على أنه أسند إليه مفتحة والعائد إلى الحال محذوف أي مفتحة لهم منها الأبواب أو اللام عوض عن المضاف إليها أي مفتحة لهم أبوابها أو على أنه بدل اشتمال من الضمير المستتر العائد إلى الجنات ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ أي وشراب كثير فحذف اكتفاء بالأول.

وقوله متكئين ويدعون حالان مترادفان أو متداخلان من الضمير في لهم لا من المتقين للفصل والأظهر أن يدْعُون استئناف لبيان حالهم فيها ومتكئين حال من ضميره والاقتصار على الفاكهة للإشعار بأن مطاعمهم لمحض التلذذ، فإن التغذي للتحلل ولا تحلل ثمة ﴿وَعِندَهُمْ﴾ نساء ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي قاصرات أطرافهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم

﴿أَتْرَابٌ﴾ مستويات الأسنان بنات ثلاث وثلاثين سنة جمع ترب، وعن مجاهد متواخيات لا يتباغضن كما تتباغض الضرات في الدنيا ولا يتغايرن، الجملة الظرفية حال أو خبر لضميرهم ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ ابن كثير هاهنا وفي قٓ بالياء التحتانية على الغيبة والضمير للمتقين، ووافقه أبو عمرو هاهنا، والباقون بالتاء الفوقانية فيهما على الخطاب للمؤمنين ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي لأجله فإن الحساب علة الوصول إلى الجزاء أو للمعنى في يوم الحساب ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي انقطاع، الجملة حال من رزقنا أو خبر بعد خبر لإنَّ ﴿هَٰذَا﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو خُذ هذا.

﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ أي الكافرين ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ مرجع ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لشر مئاب﴾ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من جهنم ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المهد والمفترش مستعار من فراش النائم والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم أو مهاد هو جملة ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ عطف أو حال هذا العذاب منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي ليذوقوا هذا فليذوقوه أو مبتدأ خبره محذوف أي هذا نزلهم فليذوقوه أو خبر مبتدأ محذوف أي العذاب هذا فليذوقوه أو مبتدأ خبره ﴿حَمِيمٌ﴾ كذا قال الفراء وعلى هذا جملة فليذوقوه معترضة، وعلى التأويلات السابقة حميمٌ خبر مبتدأ محذوف أي هو حميم، والحميم هو الماء الحار الذي انتهى حره ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ عطف على حميم قرأ حمزة والكسائي وحفص[1] بالتشديد على وزن فَعَّالٍ كالخبَّازِ والطبَّاخِ وخففها الباقون على وزن فعَالٍ كالعذاب. واختلفوا في معناه؟ قال ابن عباس هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرّها، وقال مجاهد ومقاتل هو الذي انتهى برده وقيل هو المنتن بلغة الترك، وقال قتادة هو ما يغسق أي يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة من قولهم غسقت أي انصبت والغساق انصباب، أخرج البيهقي عن عطية قال الغساق الذي يسيل من صديدهم وأخرج مثله عن إبراهيم وأبي رزين، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والضياء عن كعب قال الغساق عين في جهنم تسيل إليها حمة كل ذي حمة من حية وعقرب وغير ذلك فيستنقع يؤتى بالآدمي فيغمس غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده عن العظام وتعلق جلده ولحمه في كعبيه فيجرُّ لحمه كما يَجُرُّ الرجل ثوبه ﴿وَءَاخَرُ﴾ قرأ أبو عمرو[2] وأبو جعفر بضم الهمزة[3] على أنه جمع أخرى مثل الكبرٰى وكُبرُ واختاره أبو عبيد لأنه نعته بالجمع فقال أزواج والباقون بفتح الهمزة وألف بعدها على التوحيد أي عذاب آخر أو مذوق آخر ﴿مِن شَكْلِهِۦ﴾ صفة لآخر أو خبر له أي مثل الحميم والغَسَّاق وتوحيد الضمير على أنه لما ذكر أو للشراب الشامل للحميم والغساق أو للعذاب ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أجناس خبر لآخر أو صفة له أو للثلاثة أو مرتفع بالجار

---

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٢) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.
(٣) لا هو بالفتح كنافع ـ أبو محمد ـ.

والمجرور والخبر محذوف أي لهم.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ قال ابن عباس هو كلام خزنة النار للقادة من أهل النار وذلك أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل عليهم الأتباع قالت لهم الخزنة، وقيل هو كلام القادة بعضهم لبعض أي هذا يعني الأتباع فوجٌ أي جماعة مقتحم معكم النار، والاقتحام الدخول في الشيء رمياً بنفسه فيه، قال الكلبي: إنهم يضربون بالمقامع حتى يوقعوا أنفسهم في النار خوفاً من تلك المقامع، قلتُ وجاز ان يكون معناه أن النبيّ ﷺ وخلفاءه كانوا يحجزونهم عن النار ويمنعونهم عن ارتكاب موجبات دخولها وهم اقتحموا فيها حيث فعلوا موجبات دخلوها، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفرش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنَّه فيقتحمن فيها قال فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلمَّ عن النار هلمَّ عن النار فتغلبوني تقحمون فيها»[١] متفق عليه، وجملة ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ الخ بتقدير القول استئناف تقديره يقول بعض الطاغين بعضاً في شأن بعض هذا فوج مقتحمٌ معكم أو يقال للرؤساء في شأن الأتباع هذا فوجٌ إلى آخره فقالت القادة ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي بالأتباع دعاءٌ من المتبوعين على أتباعهم فهذه الجملة بتقدير القول متصل بما سبق ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ تعليل بقوله لا مرحباً بهم أي داخلوها بأعمالهم مثلنا وجاز أن يكون مرحباً بهم صفة لفوج أو حال أي مقولاً فيهم لا مرحباً بهم، يقال لمن يدعى له مرحباً أي أتيت رحباً من البلاد لا ضيقاً والرحب السعة وفيه تعظيم للجائي ويقال لمن يدعي عليه لا مرحبًا تحقيراً له وبهم بيان للمدعو عليهم ﴿قَالُوا﴾ استئناف آخر أي قال الأتباع للقادة ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ يعني بل أنتم أحق بما قلتم، أو بما قيل فينا لضلالكم وإضلالكم إيانا وعللوا ذلك بقولهم ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي العذاب أو الصلي لنا بدعائكم إيانا إلى الكفر ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي بئس المقر لنا ولكم جهنم ﴿قَالُوا﴾ استئناف آخر أي قالت الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ أي مضاعفاً على ما بهم من العذاب.

﴿وَقَالُوا﴾ عطف على ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا﴾ [ص: ٦١] يعني قالت كفار قريش وهم في النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ جملة لا نرى حال من ضمير المتكلم في النار والعامل معنى الفعل والأشرار جمع شرير والشر ضد الخير والخير ما يرغب فيه الكل، والشر ما يكرهه يعني كنا نكرههم ونحقرهم في الدنيا يعنون فقراء المؤمنين نحو عمّار وخبيب وصهيب وبلال وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين يسترذلونهم ويسخرون منهم ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي[٢] بهمزة الوصل على أنه صفة أخرى لرجالاً أو حال بتقدير قد أو خبر آخر لكنّا، وقرأ الحجازيون وابن عامر وعاصم

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٢٦، ومسلم في الفضائل حديث ١٧، ١٨.
(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

بالقطع على الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم في الاستسخار منهم، وقرأ نافع وحمزة والكسائي بضم السين كما مرَّ في المؤمنين والباقون بكسرها ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فلا نراهم.

قال الفراء هذا من الاستفهام الذي معناه التوبيخ والتعجب وأم معادلة لهمزة في جملة مقدرة مفهومة من قوله ما لنا لا نرى والتقدير ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخرياً أليسوا هاهنا أم زاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم وهم هاهنا، أو الهمزة اتخذناهم على القراءة الثانية بمعنى أيُّ الأمر ما فعلنا بهم من الاستسخار منهم أم تحقيرهم فإن زيغ البصر كناية عنه والمعنى إنكارهما على أنفسهم أو منقطعة والمراد الدلالة على أن استرذالهم والاستسخار منهم كان لزيغ البصر منَّا وقصور أنظارنا على رثاثة حالهم، وقال ابن كيسان يعني أم كانوا خيراً منا ولم نعرفهم وكانت أبصارنا تزيغ عنهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ بدل من حق أو خبر محذوف، ولما شبه تقاولهم وما جرى بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين سماه تخاصماً ولأن قول القادة لا مرحباً بهم وقول الأتباع بل أنتم لا مرحباً بكم تخاصم فسمي التفاؤل كله تخاصماً لاشتماله على ذلك.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ جملة قل مع المقولة مستأنفة وإنَّما لقصر القلب متصل بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] يعني لست بساحر كذاب إنما أنا منذر أنذركم بعذاب الله ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ عطف على أنه المتصل بقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشركة في ذاته ولا في صفة من صفاته ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ على كل شيء فيه وعيد للكفار ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ الذي يغفر ما يشاء من الذنوب صغائرها وكبائرها لمن يشاء وفي هذه الأوصاف تتميم وتقرير للتوحيد ووعد للموحدين ووعيد للمشركين، ودفع لتوهم انحصار وصفه بالقهر ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة يعني القرآن ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ وقيل يعني القيامة لقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١ ـ ٢] وقيل يعني ما أنبأ تكون من أني نذير من عقوبة من هذا صفته وأنه واحد في الألوهية لا شريك له فهو متصل بقوله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ صفة أخرى لنبأ أي أنتم لتمادي غفلتكم معرضون عنه مع أن العاقل لا ينبغي أن يعرض عن مثله وقد قامت عليه الحجج الواضحة إما على التوحيد فما مرّ وإما على النبوة فقوله ﴿مَا كَانَ لِىَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ أي الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإن الإخبار عن تقاول الملائكة وما جرى بينهم مطابقاً لما ورد في الكتب المتقدمة من غير سماع ومطالعة كتاب لا يتصور إلا بالوحي.

وقيل المراد باختصامهم اختصامهم في شأن آدم عليه السلام حين قال الله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] وفي

الحديث عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي يقول قال النبيّ ﷺ: «رأيتُ ربي في أحسن صورة قال فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلتُ أنت أعلم أي ربّ مرتين، فقال وضع كفه بين كتفي فوجدتُ برده بين ثديي فعلمتُ ما في السماء والأرض ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥] ثم قال فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلتُ في الكفارات، قال وما هن؟ قلتُ المشيء بالأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد خلف الصلوات وإسباغ الوضوء أماكنه في المكاره، قال من يفعل ذلك يعش بخير ويمت بخير وتكون خطيئته كيوم ولدته أمه، ومن الدرجات إطعام الطعام وبذل السلام وأن تقوم بالليل والناس نيام، قال قل اللّٰهم إني أسألك الطيبات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني وتتوب عليَّ وإذا أردتَّ فتنةً في قوم فتوفني غير مفتون، فقال رسول الله ﷺ فوالذي نفس محمد بيده إنهن لحق»[١] رواه البغوي في شرح السنة والتفسير ورواه الدارمي إلى قوله ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] وللترمذي عنه نحو ما روى البغوي وللترمذي عن ابن عباس ومعاذ بن جبل بمعناه مع تغير في العبارة، ولعل المراد باختصام الملأ الأعلى في الكفارات أن جمعاً منهم يبتدرون أن يكتبوها، يريد كل منهم أن يهييء بها وجه الرحمن أوّلاً كما في حديث رفاعة بن رافع «كنا نصلّي وراء النبيّ ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال «سمع الله لمن حمده»، فقال رجل وراءه ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه فلما انصرف قال «من المتكلم آنفاً؟» قال أنا، قال رأيت بضعةً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيُّهم يكتبها أول»[٢] رواه البخاري، إذ متعلق بعلم أو بمحذوف والتقدير من علم بكلام الملأ الأعلى إذ يختصمون ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ إنما مع جملته إما في محل الرفع على أنه أسند إليه يوحى وإما في محل النصب على العلّية، ويوحي حينئذ مسند إلى المصدر المفهوم من الفعل يعني ما أوحي إلي إلاّ الإنذار المبين أو ما أوحي إليَّ وحي إلا لأجل الإنذار فإنه هو المقصود من الإرسال، وقيل المراد بالنبأ العظيم قصة آدم وإبليس والإنباء به من غير سماع والمراد بالملأ الأعلى أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم.

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١﴾ بدل من إذ يختصمون مبين له فإن القصة التي دخلت إذ عليها مشتملة على تقاول الملائكة وإبليس في خلق آدم واستحقاقه للخلافة والسجود على ما مرَّ في البقرة، غير أنها اختصرت اقتصاراً على ما هو المقصود هاهنا وهو إنذار المشركين على استكبارهم على النبيّ ﷺ بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم، هذا ومن الجائز أن تكون مقاولته إياهم بواسطة ملك أو أن يفسر الملأ

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة ٤/ ٣٥.
(٢) أخرجه البخاري في الأذان باب ١٢٦، ومسلم في المساجد حديث ١٤٩.

الأعلى بما يعم الله والملائكة، وجاز أن تكون إذ منصوباً باذكر ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي أتممتُ خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أضاف الروح إلى نفسه تشريفاً لآدم أو تشريفاً للروح ﴿فَقَعُواْ﴾ فخروا ﴿لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ وقد مر الكلام فيه في البقرة ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عطف على قال ربك ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ أي تعظم تعليل للاستثناء ﴿وَكَانَ﴾ أي صار ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ باستكباره عن أمر الله تعالى أو استكباره عن المطاوعة أو كان منهم في علم الله تعالى ﴿قَالَ﴾ ربك ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ كلمة بيدي من المتشابهات فالسلف لا يأولونه ويؤمنون به ويكلون مراده إلى الله تعالى والخلف يأولونه ويقولون خلقتُه من غير توسط كأب وأم والتثنية لما في خلقه من مزيد القدرة وترتب الإنكار عليه للإشعار بأنه المستدعي للتعظيم أو بأنه الذي تشبث به في تركه وهو لا يصلح لكونه مانعاً إذ للسيد أن يستخدم بعض عبيده لبعض عبيده سيما وله مزيد اختصاص ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ همزة الاستفهام للتوبيخ والإنكار دخلت على همزة الوصل يعني أتكبرت من غير استحقاق ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي من الذين استحقوا التفوق توبيخ على الشق الأول وإنكار للشق الثاني قال إبليس ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أبداً المانع واستدل عليه بقوله ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ قد سبق الكلام عليه.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة وقيل من السماوات، وقال الحسن وأبو العالية من الخلقة التي أنت فيها، قال الحسن بن الفضل هذا تأويل صحيح لأن إبليس تجبَّر وافتخر بالخلقة فغيَّر الله خلقه فاسود وقبح بعد حسنه ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود لست بخير تعليل للأمر بالخروج ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لا يظن بأن اللعنة منتهية بيوم الدين بل معناه أن عليه اللعنة وحدها إلى يوم الدين ثم ينضم إليها العذاب ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الفاء للسببية، فان طرده لعداوة آدم سبب لطلبه الإنظار لإغواء بني آدم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ الفاء للسببية فإن سؤاله سبب لهذا المقال والجملة الاسمية تدل على أن إنظاره كان محكوماً عليه في علم الله القديم قبل سؤاله لا إجابة لدعائه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وهي النفخة الأولى وقد مرَّ بيانه في الحجر ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ هذه الفاء أيضاً للسببية، فإن إنظاره تعالى إياه سبب لعزمه على إغوائهم ولو لم يكن من الله إنظاراً لم يقدر على إغوائهم أجمعين، أقسم اللعين بعزته أي بسلطانه تعالى وقهرمانه حتى يكون وسيلةً لتسلطه على ما يريد ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم عن الضلالة أو أخلصوا قلوبهم لله على اختلاف القراءتين، فإن ابن كثير وأبو عمرو[(١)] وابن عامر قرأوا بكسر اللام والباقون بفتحها ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ قرأ عاصم وحمزة ويعقوب[(٢)] بالرفع[(٣)] على أنه خبر مبتدأ محذوف أي أنا الحق أو

(١) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.
(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.
(٣) لا هو بالنصب كأبي عمرو ـ أبو محمد ـ.

مبتدأ خبره محذوف، فالحق اسم من أسماء الله تقديره الحق يميني أو قسمي والباقون بالنصب بنزع الخافض، أي حرف القسم كقوله تعالى لأفعلن وجاز أن يكون تقديره فأحق الحق ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ جملة معترضة وقيل تكرار للقسم أقسم الله بنفسه وجواب القسم قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أي من جنسك ليتناول الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي لا أترك منكم ومنهم أحداً، والمراد بمن تبعك الكفار وإن كان التقدير أنا الحق أو أحق الحق فهذه الجملة جواب قسم محذوف وأجمعين تأكيد للضميرين.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على الإنذار أو على القرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جعل ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي من المتقولين القرآن من تلقاء نفسه أو المدعين لنفسه ما ليس له تكلفاً على ما عرفتم من حالي يعني لا أدعي النبوة بلا حقيقة وجملة قل ما أسألكم إلى آخره مقرى لمضامين الجمل السابقة أخرج البخاري عن عمر قال نهينا عن التكلف، وروى البغوي عن مسروق قال دخلنا على ابن مسعود فقال يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم قال الله تعالى لنبيه ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ قلتُ قوله ما أنا من المتكلفين تأكيد لمضمون قوله ما أسألكم عليه من أجر فإن من لا يسأل شيئاً من الأجر لا ضرورة له في أن يتكلف في المقال ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي عظة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ للثقلين أوحي إليَّ وأنا أبلّغه ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ يا كفار مكة جواب قسم محذوف ﴿نَبَأَهُ﴾ وهو ما فيه من الوعد والوعيد أو صدقه بإتيان ذلك ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة أي بعد الموت، وقال عكرمة يوم القيامة، قال الحسن ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

تم تفسير سورة صٓ من تفسير المظهري بتوفيق الله تعالى سادس رجب
من السنة السابعة بعد ألف ومائتين سنة ١٢٠٧هـ
ويتلوه تفسير سورة الزمر إن شاء الله تعالى
والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى
على خير خلقه محمد وآله
وأصحابه أجمعين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الزمر

آياتها خمس وسبعون - وقيل اثنان وسبعون[1] وهي مكيَّة

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا
لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى
ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ
﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ
مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى
ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ
عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم
مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا
رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا
يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا
يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا أو مبتدأ خبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صنعه، وهو على الأول صلة التنزيل أو خبر ثان أو حال عمل فيها معنى الإشارة أو التنزيل، والظاهر أن الكتاب على الأول السورة وعلى الثاني القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالحق أو بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله، وليس هذا تكراراً لأن الأول كالعنوان للكتاب والثاني لبيان ما فيه ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مخلصاً له الدين من الشرك والرياء، وتقديم الخبر لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام كما صرح

(١) هذا عند أهل الحجاز والبصرة.

به مؤكداً أو أجراه مجرى العلوم المقرر لكثرة حججه وظهور براهينه فقال ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ جملة معترضة للتنبيه أي أنا هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة فإنه المنفرد بصفات الألوهية والإطلاع على الأسرار والضمائر ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ يعني الكفرة الذين اتخذوا ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي من دون الله ﴿أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي قالوا ما نعبدهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾ كذلك قرأ ابن مسعود وابن عباس وحينئذ قالوا المقدر بدل من الصلة أو حال بتقدير قل من فاعل اتخذوا وقوله ﴿زُلْفَىٰ﴾ مصدر بمعنى قربى، قال البغوي اسم أقيم مقام المصدر كأنه قال ليقربونا إلى الله تقريباً أو حال والموصول مبتدأ خبره ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وبين المسلمين ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين بإدخال المحق الجنة والمبطل النار والضمير للكفرة ومقابليهم وجاز أن يكون خبر الموصول جملة قالوا ما نَعْبُدُهُمْ وجملة إن الله يحكم بينهم مستأنفة، وجاز أن يكون المراد بالموصول المعبودون بالباطل على حذف الراجع يعني الذين اتخذوهم من دونه أولياء من الملائكة وعيسى والأصنام إن الله يحكم بينهم، وجملة ما نَعْبُدُهُمْ بتقدير القول حال، أو بدل للصلة ولا يحتمل كونه خبراً أخرج جويبر عن ابن عباس في هذه الآية قال أنزلت في ثلاثة أحياء عامر وكنانة وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان ويقولون الملائكة بناته فقالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، وقال البغوي إنهم كانوا إذا قيل لهم من ربكم ومن خلقكم ومن خلق السماوات والأرض قالوا الله فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأوثان قالوا ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ بنسبة الولد إلى الله وبقوله الأصنام تشفع عند الله ﴿كَفَّارٌ﴾ لإنعام الله حيث يشرك به غيره، يعني إن الله لم يرد ولا يريد أن يهديهم ولو شاء لهداهم فلم يكذبوا ولم يكفروا جملة معترضة.

﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعموا ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ العائد إلى الموصول ضمير منصوب محذوف والموصول مع الصلة مفعول لاصطفى ومما يخلق حال منه والعائد إلى الموصول فيه أيضاً ضمير منصوب يعني لو أراد الله اتخاذ الولد لاصطفى ما يشاؤه مما خلق إذ لا موجود إلا وهو مخلوقه لقيام الأدلة على امتناع وجود واجبين ووجوب استناد ما عدا الواجب إليه ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقول مقام الولد له، فهذا الكلام في قوة أن يقال لو أراد الله أن يتَّخذ ولداً لا يتصور ذلك فحذف الجزاء وأقيم دليله مقامه وجاز أن يكون العائد إلى الموصول في ممَّا يخلقُ الضمير للمرفوع، والمعنى لو أراد الله أن يَتَّخِذَ وَلَداً إلاَّ اصطفى ولداً يقدر على خلق الأشياء وذا الحال لأنه يستلزم تعدد الآلهة فهو دليل على امتناع إرادة الله أن يتخذ ولداً ثم قرر ذلك بقوله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أن يكون له ولد ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ يعني أن الألوهية التي تتبع الوجوب مستلزم للتوحد في ذاته وصفاته وتنافي المماثلة والمشاركة فأنى يكون له ولد والولد لا يكون إلا من جنس الوالد ناشئاً من بعض أجزائه ﴿الْقَهَّارُ﴾ القهارية المطلقة تنافي المشاركة وقبول الزوال المحوج إلى الولد ثم استدل على ذلك بقوله ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي متلبساً بالحق غير عابث، بل ليكون دليلاً على الصانع ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ يغشي كل واحد منهما الآخر كأنه يلف عليه لف اللباس باللابس أو يغيب به كما يغيب الملفوف باللفاف أو يجعله كاراً عليه كروراً متتابعاً مثل أكوار العمامة، والحاصل أنه يخلق كل واحد منهما عقيب الآخر، قال الحسن والكلبي ينقص من الليل ويزيد في النهار وينقص من النهار ويزيد في الليل ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي﴾ في الفلك ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾ أي ليوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على كل شيء ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ حيث لم يعاجل في العقوبة ولم يسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة والمنفعة.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ يعني آدم عليه السلام خلقها من غير أب وأم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ استدلال آخر بما أوجده في العالم السفلي، وثمَّ للعطف على محذوف هو صفة نفس أعني خلقها أو على معنى واحدة أي من نفس وُحّدت ثم جعل منها زوجها فشفعها بها أو على خَلَقَكُمْ والعطف بثم لتفاوت ما بين الآيتين فإن الأول عادة مستمرة دون الثانية، وقيل معنى قوله: خلقكم من نفس أنه أخرجكم من ظهره كل ذرية ذرأها حين أخذ الميثاق ثم خلق منها حواء زوجها ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي قضى وقسّم لكم فإن قضاياه وقسمه يوصف بالنزول من السماء لما كتب في اللوح أو المعنى أحدث لكم بأسباب نازلة من السماء كأشعة الكواكب والأمطار، وقيل معناه خلق في الجنة مع آدم عليه السلام ثم أنزل منها لكم ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز حال من الأنعام ﴿يَخۡلُقُكُمۡ﴾ جملة مبينة لما سبق أي يخلق الإنس والأنعام فيه تغليب لذوي العقول على غيرهم ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عظاماً ثم يكسى لحماً، ثم ينفخ فيه الروح ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة أو الصلب والرحم والبطن ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي الذي فعل هذه الأفعال مبتدأ خبره ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ خبر ثان ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ خبر ثالث ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر رابع، أي لا يستحق العبادة أحد غيره لعدم اشتراك أحد في الخلق ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ الفاء للسببية والاستفهام للاستبعاد والتعجب يعني كيف تصرفون عن طريق الحق بعد هذا البيان الشافي وعن عبادته إلى عبادة غيره.

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ وعن إيمانكم شرط حذف جزاؤه وأقيم دليله مقامه تقديره إن تكفروا يعود وبال كفركم إليكم لا إلى الله تعالى: فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم وإنما أنتم تحتاجون إليه لتضرركم بالكفر وانتفاعكم بالإيمان ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ عطف على الشرطية يعني الكفر مبغوض غير مرضي له تعالى وإن كان بإرادته حيث قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وهو قول السلف، وعليه إجماع أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة، وذكر البغوي أنه قال ابن عباس والسديُّ معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وهذا القول مبني على أن يكون الرضاء بمعنى الإرادة مجازاً وإلا فالحق أنه لا يستلزم الإرادة ولا يرادفه، فإن إرادته

يتعلق بالخير والشر كله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ويستحيل تخلف المراد عن إرادته قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ أي تؤمنوا بربكم وتطيعوه ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ قيل في تفسيره يُثيبكم به وهذا حاصل المعنى فإن الرضاء يستلزم الإثابة أصله يرْضَاهُ سقطت الألف بالجزم فقرأ نافع[١] وعاصم وحمزة وهشام[٢] باختلاس حركة هاء الضمير إبقاءً على ما كان لأن ما قبله ساكن تقديراً وأبو عمرو[٣] وابن كثير وابن ذكوان والكسائي[٤] بإشباع الحركة لأنها صارت بحذف الألف موصولة بمتحرك وهي رواية أبي حمدان وغيره عن اليزيدي وفي رواية عن أبي عمرو[٥] بإسكان الهاء وبه قرأ يعقوب[٦] ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نفس ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمله فيه اشارة إلى أن وبال كفركم لا يتجاوز عنكم إلى غيركم فلا يتضرر به النبيّ ﷺ فدعوته إياكم إلى الإيمان ليس إلا لأجل أن ينفعكم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيجازي على أعمالكم على حسب نياتكم.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الكافر ﴿ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا﴾ أي راجعاً ﴿إِلَيْهِ﴾ مستغيثاً ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أي أعطاه أو جعله ذا حشم وأتباع والخول الحشم والأتباع قال رسول الله ﷺ في العبيد: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم»[٧] أو تعهده كما في الحديث «كان عليه السلام يتخولنا»[٨] أي يتعهدنا بالموعظة من قولهم فلان خائل مال وهو الذي يصلحه ويقوم به كذا في النهاية والقاموس ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ إما مفعول ثان لخوله إن كان بمعنى أعطاه أو مفعول له ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي الضرّ الذي كان يدعو الله إلى إزالته أو نسي ربه الذي كان يتضرع إليه وما حينئذ بمعنى من كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [الليل: ٣] ﴿مِن قَبْلُ﴾ النعمة ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي شركاء ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي دين الإسلام، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس[٩] بفتح الياء والباقون بضمها والضلال والإضلال لمّا ترتب على ذلك شُبّه بالعلة الغائيّة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهذا الكافر ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ في الدنيا إلى أجلك

---

(١) ويعقوب وابن وردان بخلاف عنه ـ أبو محمد ـ.
(٢) بخلاف عنه ـ أبو محمد ـ.
(٣) أي: الدوري بخلاف عنه ـ أبو محمد ـ.
(٤) وخلف وأبو جعفر بخلاف عنه.
(٥) بخلاف عن الدوري وهشام وابن حجاز أيضاً بخلاف عنهما ـ أبو محمد ـ.
(٦) لا بل هو بالاختلاس فقط كنافع.
(٧) بخلاف عنه ـ أبو محمد ـ.
(٨) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٢، والعتق باب ١٥، ومسلم في الأيمان حديث ٤٠.
(٩) لفظ الحديث: «كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظة»، أخرجه البخاري في العلم باب ١١، ١٢، ومسلم في المنافقين حديث ٨٢، ٨٣.

أمر تهديد وفيه إقناط للكافرين من التمتع في الآخرة ولذلك علله على سبيل الاستئناف بقوله ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ قيل نزلت في عيينة بن ربيعة، وقال مقاتل نزلت في أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ أي قائم بوظائف الطاعات، قال ابن عمر القنوت قراءة القرآن وطول القيام قرأ ابن كثير ونافع وحمزة بتخفيف الميم فالتقدير أمن هو قانت لله كمن جعل له أنداداً، وقرأ الباقون بتشديد الميم فأم حينئذ منقطعة والمعنى أَمَّنْ هو قانتٌ كمن جعل له أنداداً أو متصلة بمحذوف تقديره أَمَّنْ جعل لله أنداداً ولم يشكر نعمته خير أم مَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاته ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ في الصلاة حالان من الضمير في قانت ﴿يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ أي يخاف عذاب الآخرة استقصاراً لنفسه في العمل ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ غير معتمد على عمله يعني يجمع بين الخوف والرجاء ولا يجاوز في الخوف حده حتى يكون آيساً ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ولا في الرجاء حده حتى يكون آمنًا فإنه لا يأمن من مكر الله(١) إلا القوم الخاسرون، والجملتان واقعتان موقع الحال أو الاستئناف للتعليل، قال البغوي قال ابن عباس في رواية الضحاك نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق.

وأخرج ابن أبي سعيد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال نزلت في عمار بن ياسر وأخرج جويبر عن ابن عباس أنه قال نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة وأخرج جويبر عن عكرمة قال نزلت في عمار بن ياسر.

وقال البغوي قال الضحاك نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وعن ابن عمر أنها نزلت في عثمان وكذا أخرج ابن أبي حاتم عنه، وعن الكلبي أنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسلمان ووجه الجمع بين الأقوال أنها نزلت في جميعهم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ الله تعالى متصفاً بصفات الجلال والجمال فيحذر عذابه ويرجو رحمته فيعمل في طاعته ويتقي عن معاصيه ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك والاستفهام للإنكار أي لا يستوون فهذه الجملة تقرير للأول على سبيل التعليل، وقيل تقرير له على سبيل التشبيه يعني كما لا يستوي العالم والجاهل كذلك لا يستوي المطيع والعاصي، وقيل نفيٌ لاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية بعد نفيهما باعتبار القوة العملية على وجه الابلغ لمزيد الفضل قيل الذين يعلمون عمار والذين لم يعلموا أبو حذيفة المخزومي ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بأمثال هذه البيانات.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ أي آمنوا لو أحسنوا العمل يعني أتوه بالخشوع والخضوع كما قال رسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن

(١) في القرآن الكريم: ﴿فلا يأمن مكر الله . . .﴾.

تراه فإنه يراك»[١] ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بقوله أحسنوا ﴿حَسَنَةٌ﴾ في الآخرة يعني الجنة مبتدأ خبره للذين أحسنوا والجملة تعليل بقوله اتقوا ربكم وقيل في الدنيا ظرف مستقر حال من حسنة، وهو فاعل للظرف المستقر أعني قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ قال السديّ في هذه الدنيا حسنة الصحة والعافية وهذا القول ليس بسديد فإن الصحة والعافية كما يعطى المؤمن يعطى الكافر أيضاً بل قد ينعكس الأمر ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فلا عذر للمقصرين في الطاعة لمزاحمة الكفار ففيه كناية عن طلب الهجرة من البلد الذي يتعسر فيه الإحسان، ومن ثم قال ابن عباس في تفسيره ارتحلوا من مكة وعن مجاهد أنه قال في هذه الآية قال الله تعالى أرضي واسعة فهاجروا واعتزلوا، وقال سعيد بن جبير يعني من أمر بالمعاصي فليهرب والجملة إما معطوفة على قوله ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وإما على قوله ﴿ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ لكونها بمعنى هاجروا ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قيل يعني الذين صبروا على دينهم فلم يتركوه للأذى من الكفار أو صبروا على مفارقة الأوطان والمعارف، قيل نزلت الآية في جعفر بن أبي طالب وأصحابه مهاجري الحبشة حيث لم يتركوا دينهم فإذا اشتد فيهم البلاء صبروا وهاجروا واللفظ عام يعمهم وكل من صبر على البلاء وعلى مشقة الطاعة وحبس النفس عن المعصية، قال البغوي قال علي رضي الله عنه كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرون فإنهم يحثى عليهم حثياً، وروى الأصبهاني عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «تنصب الموازين ويؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل البلاء فلا تنصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصبُّ عليهم الأجر صبّاً بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية أنهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء وذلك قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢] وذكر البغوي نحوه وأخرج الطبراني وأبو يعلى بسند لا بأس به عن ابن عباس قال: «يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ثم يؤتى بالمصدق فينصب للحساب ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان فيصب لهم الأجر صبّاً حتى أن أهل العافية ليتمنون بالموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حيث ثواب الله لهم»[٣] وأخرج الترمذي وابن أبي الدنيا عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثوابَ لو أن جلودهم قرضت بالمقاريض»[٤] قلتُ: لعل المراد بأهل البلاء أهل العشق بالله بدليل أن الشهيد لم يعد من أهل البلاء مع أن أشد بلاء الدنيا القتل وهو قد صبر على بذل نفسه في سبيل الله.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣١، باب ٢، والإيمان باب ٣٧، ومسلم في الإيمان حديث ٥٧.

(٢) أخرجه القرطبي في تفسيره ١٥/ ٢٤١، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٢٣.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٨٢، وأنو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٩١.

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٥٩.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ
إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ
ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ
ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا
وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ
ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ
فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ
لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ
أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

﴿قُلْ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع(١) بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي موحداً له ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي أمرتُ بالإخلاص لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة لأن قصب السبق إنما هو بالإخلاص أو لكوني أول من أسلم من قريش ومن دان بدينهم والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقيده بالعلة وللإشعار بأن العبادة المقرونة بالإخلاص، وإن اقتضت لذاتها كونها مأموراً بها فهي أيضاً مقتضية لما يلزمه من السبق في الدين، وجاز أن تكون اللام زائدة كما في أردتُ لأن أفعل فيكون أمراً بالتقدم في الإسلام والبدء بنفسه في الدعاء إليه بعد الأمر به فإنه بُعث داعياً للناس إلى الإسلام وذلك يقتضي كونه أول المسلمين فإن دعوة غيره فرع اتصافه بنفسه وفيه إمالة لغيره إلى الإسلام يعني إني لا أدعوكم إلا إلى ما هو خيرٌ إذ لو لم يكن خيراً لما اخترتُه لنفسي وقد اخترتُه أولاً ﴿قُلْ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع(٢) وأبو عمرو وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك وسوء الأعمال ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه تحذيرٌ للمخاطبين عن العصيان، كما في الآية السابقة وإمالةٌ إلى الإسلام، قال البغوي هذه الآية نزلت حين دُعي إلى دين آبائه ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾ أمر بالإخبار عن إخلاصه في العبادة بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاص خائفاً على المخالفة من العقاب قطعاً لأطماعهم ولذلك رتب عليه قوله.

﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ تهديداً أو خذلاناً لهم وهذا جواب شرط محذوف تقديره إن

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٢) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

لم توافقوني في العبادة لله خالصاً فاعبدوا ما شئتم فسترون ما يترتب عليه من العذاب والخسران ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالضلال ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ يعني أتباعهم من الأزواج والأولاد والخدم بالإضلال ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حين أوردهم النار ظرف لخسروا من خسر التاجر إذا غبن في تجارته فإنهم بالضلال والإضلال بدلوا نصيبهم من الجنة بنصيبهم من النار وهو لازم وجاء هاهنا متعدياً، قال البغوي قال ابن عباس: وذلك (يعني خسران الأهل) أن الله جعل لكل إنسان منزلاً في الجنة وأهلاً فمن عمل بطاعة الله كان ذلك المنزل والأهل له ومن عمل بمعصية كان ذلك المنزل والأهل لغيره ممن عمل بالطاعة، قلتُ: فعلى هذا معنى خسر أهله أنه فوَّت أهله وقيل خسران الأهل إن كانوا من أهل النار فبالإضلال وإن كانوا من أهل الجنة فلذهابه عنهم ذهاباً لا رجوع بعده ﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾ أي خسران يوم القيامة ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ دون غير ذلك من أصناف الخسران، فإن خسران الدنيا سهل ويتبدل وفيه مبالغة في خسرانهم لما فيه من الاستئناف والتصدير بألا وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين ثم شرح الخسران بقوله ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ﴾ أطباق سرادقات من النار ودخانها ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ فرش ومهاد من النار إلى أن ينتهي إلى القعر، سمي السافلة ظللاً لكونها ظللاً لمن تحتهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب هو الذي ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ليجتنبوا ما يوقعهم فيه ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي اتقوني ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي وعذابي.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ البالغ في الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بني للمبالغة في المصدر كالرحموت ثم وصف به للمبالغة في النعت ولذلك اختص بالشيطان وفسره البغوي بالأوثان لأن تأنيث الضمير في قوله ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ وهو بدل اشتمال من الطاغوت يدل على أن المراد به الأوثان ﴿وَأَنَابُوا﴾ أي أقبلوا بشراشرهم ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ عمّا سواه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب على ألسنة الرسل في الدنيا وعلى ألسنة الملائكة عند حضور الموت يعني هم استحقوا أن يبشروا ولذلك فرع قوله ﴿فَبَشِّرْ﴾ يا محمد ﴿عِبَادِ﴾ قرأ أبو شعيب بياء مفتوحةٍ وصلاً ساكنة وقفاً وأبو حمدون وغيره عن اليزيدي مفتوحةً في الوصل محذوفةً في الوقف وهو قياس قول أبي عمرو حيث يتبع الرسم في الوقف والباقون[1] يحذفونها في الحالين، أخرج جويبر بسنده عن جابر بن عبد الله قال لمّا نزلت ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: ٤٤] الآية أتى رجل من الأنصار النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله إن لي سبعة مماليك وإني قد أعتقتُ لكل باب منها مملوكاً فنزلت ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ يعني يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ويستمعون كلام الرسول، وكلام الكفار فيتبعون كلام الرسول كان حق الكلام فبشرهم فوضع الظاهر أعني عبادي الذين يستمعون الخ موضعه للدلالة على أن مبدأ اجتنابهم من الطاغوت أنهم نقادون للأقوال يميزون بين الخبيث والطيب والقبيح والحسن وبين الحسن والأحسن، قال عطاء عن ابن عباس آمن أبو بكر

---

(١) ووقف يعقوب بالياء ـ أبو محمد ـ.

رضي الله عنه بالنبيّ ﷺ فجاءه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا فنزلت فيهم هذه الآية، والأحسن حينئذ بمعنى الحسن إذ لا حسن في أقوال الكفار، قال ابن زيد نزلت الآيتان في ثلاثة نفر كانوا من الجاهلية يقولون لا إله إلا الله زيد بن عمرو بن نفيل أو سعيد بن زيد وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي والأحسن قول لا إله إلا الله، وقال السديُّ يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيعملون به قيل هو أن الله ذكر في القرآن الانتصار من الظالم والعفو والعفو أحسنُ الأمرين وذكر العزائم والرخص والعزائمُ أحسن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ذوي العقول السليمة عن معارضة الأوهام والعادات وفي ذلك دلالة على أن الهداية تحصل بخلق الله تعالى وقبول النفس لها.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ﴾ في علم الله القديم كذا قال ابن عباس ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني خلقتُ هؤلاء للنار ولا أبالي ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يعني لا تقدر عليه، قال ابن عباس يريد أبا لهب وولده، الجملة الشرطية معطوفة على جملة محذوفة دل عليه الكلام تقديره ءأنت مالك أمرهم فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه من النار كرّرت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار والاستبعاد ووضع مَنْ في النار موضع الضمير لذلك، وللدلالة على أن من حكم عليه بالعذاب كالواقع فيه لامتناع الخلف فيه وأن اجتهاد الرسول ﷺ في دعائهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار ويجوز أن يكون أفأنت تنقذ جملة مستأنفة للدلالة عى ذلك والإشعار بالجزاء المحذوف تقديره أفمن حق عليه كلمة العذاب تهديد أفأنت تنقذ من في النار فإن من حق عليه كلمة العذاب كأنه في النار حالاً، ثم استدرك لدفع توهم كون سعيه ﷺ غير مفيد مطلقاً بقوله ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ يعني لكن الذين حق لهم كلمة الرحمة وسبق في علم الله أنهم يتقون ربهم، في إيراده بصيغة الماضي أيضاً إشعار بأن من حكم بأنهم يتقون فهم كالذين وقع منهم التقوى ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ منازل رفيعة في الجنة ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ منازل أرفع من الأولى ﴿مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ أي من تحت كل من الفوقانية والتحتانية ﴿ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِۖ﴾ أي وعدهم الله تلك الغرف وعداً مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله لهم غُرَفٌ في معنى الوعد ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لأن الخلف نقص، وهو على الله محال، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم»، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغهم غيرهم قال «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين»(١) وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في الباب في تفسير سورة الفرقان في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨، والرقاق باب ٥١، ومسلم في الجنة حديث ١١.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً، الاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات وأنَّ مع جملتها قائم مقام المفعولين لألم تر ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الظرف متعلق بسلكه على طريقة قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٠] وينابيع حال من الضمير المنصوب، قال الشعبي كل ماء في الأرض فمن السماء، وجاز أن يكون ينابيع مفعولاً ثانياً لسلكه على التوسع على طريقة أدخلته بيتاً في الدار والينبوع جاء للمنبع والنابع فعلى الأول للنابع وعلى الثاني للمنبع ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي أخرج بالماء ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أصنافه من بر وشعير وغيرهما أو كيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي ييبس ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ بعد خضرته ونضرته ﴿مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتاً منكسراً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإحداث والتغير ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ أي تذكيراً على وجود الصانع القديم القادر الحكيم الذي دبّره وسوّاه وعلى أنه مثل الحياة الدنيا فلا ينبغي أن يغتر بها ﴿لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إذ لا يتذكر بها غيره ومن لم يتذكر فليس من أولي الألباب بل كالأنعام بل أضل منها.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يعني أفاض في قلبه نوراً أدرك به الحق حقاً والباطل باطلاً فأذعن بكل ما جاء به النبيّ ﷺ بلا ارتياب، عبَّر عن تلك الحالة بشرح الصدر لأن الصدر محل القلب والروح القابل للإسلام فإذا كان قلبه قابلاً لأحكام الإسلام صار كظرف انشرح وتفسح حتى حال فيه المظروف ﴿فَهُوَ﴾ أي ذلك الشخص ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي بصيرة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على ما فهم مما سبق من قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ١٩، ٢٠] فإنه يفهم منه الفرق بين المؤمن والكافر والموصول مبتدأ وخبره محذوف يدل عليه ما بعده والإنكار راجع إلى مضمون الفاء، كأنه قال لما ثبت الفرق بين المؤمن والكافر فليس مَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإِسْلاَمِ وترتب عليه كونه على نور من ربه فآمن واهتدى كمن طبع الله على قلبه فقسى. عن ابن مسعودٌ قال: «تلا رسول الله ﷺ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من رَّبّه» قلنا يا رسول الله كيف انشرح صدره؟ قال «إذا دخل النور القلب انشرح صدره وانفسح»، قلنا يا رسول الله فما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله»[1] رواه البغوي والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ الفاء للسببية ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بالقاسية والمعنى من أجل ذكر الله أي إذا ذكر الله عندهم أو تُليت عليهم آياتُه اشتدت قساوتُهم وهو أبلغ من أن يكون عَنْ مكان من لأن القاسية من أجل الشيء أشد تأبياً من القبول من القاسي عنه بسبب آخر وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع ذكر شرح الصدر وأسنده إلى الله وقابله بقساوة

(١) أخرجه ابن كثير في تفسيره ٣/٣٢٨، والبغوي في تفسيره ٦/٧٢، والطبري في تفسيره ٨/٢١، والسيوطي في الدر المنثور ٥/٣٢٥، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/٢٥٨.

القلب وأسنده إلى القلب، فهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٥] وقيل بحذف المضاف تقديره من ترك ذكر الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قال مالك بن دينار ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب وما غضب الله على قوم إلا نزع منهم الرحمة.

روى الحاكم وغيره عن سعد بن أبي وقاص قال: أنزل على النبيّ ﷺ القرآن فتلا عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا، وأخرج ابن جرير عن عون بن عبد الله أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا لو حدثتنا فنزلت ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ تقرير لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النساء: ١٠٥] وما بينهما معترضات وفي الابتداء باسم الله وبناء نَزَّلَ عليه تأكيد للإسناد إليه وتفخيم للمنزل واستشهاد على حسنه ﴿كِتَٰبًا﴾ بدل من أحسن الحديث أو حال منه ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ صفة لكتاباً يعني يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى والدلالة على المنافع العامة والحسن المعجز ويصدق بعضه بعضاً ﴿مَّثَانِىَ﴾ صفة أخرى جمع مثناة اسم الظرف فإنه ثنى فيه ذكر الوعد والوعيد والأمر والنهي والإخبار والإحكام وصف به الكتاب باعتبار تفاصيله فهو كقولك القرآن سور وآيات والإنسان عروق وعظام ولحم وأعصاب أو جعل تميزاً من متشابهاً كقولك رأيتُ رجلاً جسيماً حسناً شمائل، أو جمع مثنية اسم الفاعل فإن آياته تثني على الله لصفاته الكمال ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خوفاً لما فيه من الوعيد الجملة صفة ثالثة لكتاباً ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي لذكر الله بالرحمة وعموم المغفرة، والإطلاق للإشعار بأن أصل أمره الرحمة وأن رحمته سبقت غضبه والتعدية بإلى لتضمين معنى السكون والاطمئنان وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها يعني إذا ذكر عذاب الله في آيات الوعيد من القرآن يخاف قلوب المؤمنين وتقشعر جلودهم، والاقشعرار انقباض وتغير في جلد الإنسان عند الخوف وإذا ذكر الله بالرحمة في آيات الوعد من القرآن تلين جلودهم وتسكن قلوبهم، لمَّا وصف الله القرآن بكونه مَثاني ثنى فيه ذكر الوعيد والوعد وصفه بما يتأثر به المؤمنون عند الوعيد والوعد فكان تقدير الكلام يخاف منه قلوب الذين يخشون ربهم وتقشعر جلودهم ثم تلين جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، عن العباس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت[١] عنه ذنوبه كما يتحاتت عن الشجر اليابسة ورقها»[٢] رواه الطبراني بسند ضعيف ورواه البغوي، وفي رواية للبغوي إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله حرمه الله على النار.

فإن قيل بعض أهل العشق من الصوفية الكرام يغشى عليه عند استماع القرآن فهل هو

---

(١) أي: تساقطت.

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٤/٢٦٦، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣١٠، والبغوي في تفسيره ٦/ ٧٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٥٨٧٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢١٤.

من الأحوال الحميدة أو القبيحة وقد شنع عليهم الإمام محيي السنة البغوي رحمة الله عليه في تفسيره فقال: قال قتادة هذا يعني ما ذكر من اقشعرار الجلد من خشية الله نعت أولياء الله نعتَهم الله بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان، أخبرنا عن عبد الله بن الزبير قال قلتُ لجدتي أسماء بنت أبي بكر كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن قالت كانوا كما نعتهم الله عز وجل تدمع عيونهم وتقشعر جلودهم قال فقلتُ لها إن ناساً إذا قرىء عليهم القرآن خرَّ أحدهم مغشيّاً عليه فقالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وروى البغوي أن ابن عمر مرَّ على رجل (من أهل العراق) ساقِطٍ فقال ابن عمر ما بال هذا؟ قالوا إنه إذا قرىء عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط فقال ابن عمر إنا لنخشى الله وما نسقط وقال ابن عمر إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم ما كان هكذا صنيع أصحاب رسول الله ﷺ؟ قلتُ وجه طريان هذه الحالة كثرة نزول البركات والتجليات مع ضيق حوصلة الصوفي وضعف استعداده وإنما لم توجد هذه الحالة في الصحابة رضي الله عنهم مع وفود بركاتهم لأجل سعة حواصلهم وقوة استعداداتهم ببركة صحبة النبيّ ﷺ وأما غير الصحابة من الصوفية فعدم طريان تلك الحالة عليهم إما لقلة نزول البركات وإما لسعة الحوصلة والعجب من الإمام الهمام محيي السنة البغوي رحمه الله كيف أنكر على أصحاب تلك الحالة وشنع عليهم.ونسي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣] وقد روى هو في تفسير تلك الآية عن النواس بن سمعان رضي الله عنه إذا أراد الله بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفةً أو قال رعدةً شديدة خوفاً من الله فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرئيل الحديث، وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ نحوه بلفظ «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق»(١) الحديث، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقول ابن عمر إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم وكذا استعاذة أسماء محمول على أنهما زعما غشي ذلك الرجل تكلفاً ومكراً ولذا نسباه إلى الشيطان وإنما كان إنكار تلك الحالة منهما لعدم طريان الحالة عليهما وعلى أمثالهما بناءً على وسعة الحوصلة وقوة الاستعداد، ويدل على ما قلتُ أنه ذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء عليهم القرآن فقال بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بنية باسطاً رجليه ثمُ يُقْرَا عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق حيث علَّقَ صدقه على رمي نفسه من ظهر بنية مرتفعة فعُلم منه أنه حمل صرعه على الكذب والتكلف، اعلم أن البشر أقوى إستعداداً

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

وأوسع حوصلة من الملائكة كما يشهد عليه قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] إلى قوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية، ولأجل ذلك يأتي حالة الغشي على الملائكة كلمّا سمعوا الوحي دون البشر وأما البشر فإذا تم نزوله لا يتغير حاله إلا نادراً وإذا تم عروجه وقصر نزوله يتغير غالباً وأعلم أن الصوفي متى كان في السكر يتغير حاله غالباً عند ذكر المحبوب في الشعر والتغني ولذلك يستحبون السماع لكن تغير الحال عند سماع القرآن أشرف منه حالاً لأن عند استماع القرآن وتلاوته تتنزل البركات الأصلية المتعلقة بالتجليات الذاتية والصفات الحقيقية ولا سبيل إليها لأكثر الصوفية المحتبسين في مقام ولأجل ذلك تراهم يتغير حالهم عند السماع ما لا يتغير عند تلاوة القرآن وأما الذين صعدوا ذروة الأفق الأعلى ثم دنا رب العزة وتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، لا تتغير أحوالهم إلا كما كان يتغير حال أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم تدمع عيونهم، وتقشعرُّ جلودهم ثم تلين جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخوف والرجاء أو أحسن الحديث ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ هدايته ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي يخذله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يخرجه من الضلالة.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا
سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ
إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ
إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي
عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ
مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ
ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أَفَمَن يَتَّقِي﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أيستوي الفريقان فَمَنْ يتَّقي ﴿بِوَجْهِهِ﴾ أي يجعله وقاية لنفسه، ومعناه أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيديه يتَّقي بهما وجهه لأنه أعزُّ أعضائه والكافر حين يلقى في النار تكون يداه مغلولتين إلى عنقه فلا يستطيع أن يتَّقي إلا بوجهه، قال مجاهد يجر على وجهه في النار منكوساً فأول شيء منه تمسه النار وجهه، وقال مقاتل هو أن الكافر يرمى في النار مغلولة يده إلى عنقه وفي عنقه صخرة مثل جبل عظيم من الكبريت فتشتعل النار في الحجر وهو

معلق في عنقه ويده ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ كمن هو آمنٌ من العذاب فحذف الخبَر كما حذف في نظائره ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لهم وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بموجب ما يقال وهو ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي وباله وجملة ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ حال بتقدير قد من فاعل يتقون وجاز أن يكون معطوفاً على مفهوم ما سبق أعني عذب ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي قبل كفار مكة كذبوا الرسل في إتيان العذاب ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي من الجهة التي لا يخطر ببالهم إتيان الشرِّ منها ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ﴾ أي الذل ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ كالمسخ والخسف والقتل وتسليط الريح والصيحة والرمي بالحجارة والغرق وغير ذلك ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المعد لهم ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي لو كان أهل مكة من أهل العلم والنظرة لاعتبروا بمن قبلهم أو المعنى لو كان المكذّبون يعلمون وبال التكذيب ما كذبوا.

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ﴾ أي لأجل انتفاعهم وتبصرهم ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمر دينه ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون به ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على المدح أو الحال من هذا إن قلنا إن المجرور مفعول به أو بتقدير في تنزيل هذا القرآن حتى يكون مفعولاً لتنزيل المقدر والاعتماد فيها على الصفة كقوله جاءني زيد رجلاً صالحاً ﴿غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ لا اختلال فيه بوجه ما فهو أبلغ من المستقيم واختص بالمعاني، قال ابن عباس غير مختلف، وقال مجاهد غير ذي لبس يعني لا ريب فيه، وقال السدي غير مخلوق، ويروى ذلك عن مالك بن أنس قال البغوي وحكي عن سفيان بن عيينة عن سبعين من التابعين أن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق يعنون أنه صفة من صفات الله تعالى ليس عين ذاته تعالى فيكون خالقاً ولا غيره منفكاً عنه فيكون حادثاً مخلوقاً، وهذا يدل على أن الكلام اللفظي قديم صفة من صفات الله تعالى إذ الكلام النفسي الذي يدل عليه الكلام اللفظي لا يوصف بكونه عربياً وأما تعاقب حروف الكلام اللفظي الدال على حدوثه فإنما لضيق المحل وحدوثه وأما الكلام القائم بذاته فتوهم التعاقب فيه قياس للغائب على الشاهد كما يتوهم النافون للرؤية اشتراط الجهة والمسافة وغير ذلك في رؤية البصر ليس كمثله شيء في ذاته ولا في اتصافه بصفاته ولا في شيء من صفاته وله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي علة أخرى مرتبة على الأولى أو بدل أو بيان للأولى.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ للمشرك والموحد ﴿رَّجُلٗا﴾ بدل من مثل بتقدير المضاف أي مثل رجل ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي مختلفون صفة لشركاء وهو فاعل للظرف المستقر أو مبتدأ خبره الظرف والجملة صفة لرجلاً يعني مثل الشرك على زعمه حيث يدعي آلهةً متعددةً مثل عبد مشترك في جماعة مختلفين يتجاذبونه ويتعاودونه في مهامهم المختلفة فهو في تحير وتوزع قلب ﴿وَرَجُلٗا سَلَمٗا﴾ أي خالصاً ومسلماً ﴿لِّرَجُلٍ﴾ لا منازع له فيه، قرأ ابن كثير وأبو عمر سالماً على وزن فاعلاً والباقون من غير ألف على وزن حسن يعني مثل المؤمن الموحد مثل عبد لواحد لا شريك فيه وليس لغيره إليه سبيل ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ﴾ أي ذانك العبدان

﴿مَثَلًا﴾ أي صفةً وحالاً ونصبه على التميز ولذلك وحده فالاستفهام للإنكار والتقرير يعني حمل المخاطب على الإقرار بأنهما لا يستويان حالاً، فإن الموحد حسن حالاً من المشرك وجملة هل يستويان تقديره قال الله هل يستويان مثلاً بيان لمقصود قوله: ضرب الله مثلاً ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني الحمد كله لله لا يشاركه فيه على الحقيقة أحدٌ غيره لأنه المنعم بالذات والمالك على الإطلاق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيشركون به غيره من فرط جهلهم، وقيل تقدير الكلام قل الحمد لله على نعمة التوحيد والاختصاص بالمولى الواحد الحميد وبل حينئذ ليست للإضراب بل هي ابتدائية حكاية عن حال الجاهلين.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي ستموت أبرز بلفظ الصفة المشبهة الدالَّة على الثبوت حالاً لكونه متيقن الوقوع ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي كفار مكة أو جميع الناس بصدد الموت فلا شماتة بالموت، قال المحلي نزلت لمَّا استبطؤوا موت النبيّ ﷺ، قال الفراء والكسائي الميّت بالتشديد من لم يمت وسيموت والميْت بالتخفيف من فارقه الروح ولذلك لم يخفف هاهنا ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ يعني أنت وكفار مكة، أو الناس أجمعون ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم وتقول: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وإنهم كذبوني وكنتُ على الحق في التوحيد وكانوا على الباطل في التشريك واجتهدتُ في الإرشاد والتبليغ ولجوا في العناد والتكذيب ويعتذرون بالأباطيل مثل قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقولهم ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] وقولهم ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤] ويختصم الناس بعضهم مع بعض فأول ما يقضى فيه الدماء أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة بالدماء»(١) وأخرج الترمذي وحسنه وابن ماجه والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «يأتي المقتول متعلق رأسه بإحدى يديه قاتله باليد الأخرى وتشخب أوداجه دماً حتى يأتي العرش فيقول المقتول لرب العالمين هذا قتلني فيقول الله للقاتل تعست ويذهب به إلى النار»(٢) وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «يجيء المقتول آخذاً قاتله وأوداجه تشخب دماً فيقول رب سل هذا فلم قتلني فيقول قتلتُه ليكون العزة لفلان قال هي لله تبارك وتعالى»(٣) وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود فذكر أنه يؤتى بالقاتل والمقتول فيقفان بين يدي الرحمن فيقال له لم قتلته فإن كان قتله لله قال قتلته ليكون العزة لله فيقال فإنها لله فإن كان قتله لخلقه

---

(١) أخرجه البخاري في الديات باب ١، والرقاق باب ٤٨، ومسلم في القسامة باب ٢٨، والترمذي في الديات باب ٨، والنسائي في التحريم باب ٢، وابن ماجه في الديات باب ١، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٨، ٤٤١، ٤٤٢.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٤، باب ١٥، والنسائي في التحريم باب ٢، والقسامة باب ٤٩، وأحمد في المسند ١/ ٢٤٠، ٢٩٤، ٣٦٤.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢٣٠.

من خلق الله يقول قتلتُه ليكون العزة لفلان فيقال فإنها ليست له فيقتل يومئذ كل خلق الله قتله ظالم غير أنه يذاق الموت عدة الأيام التي أذاقها الآخر في الدنيا، وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير عن أبيه لما نزلت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١] قال الزبير يا رسول الله أيكرر علينا ما بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال «نعم ليكررن عليكم ذلك حتى يصل إلى كل ذي حق حقه»[١] قال الزبير والله إن الأمر لشديد.

وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يختصم يوم القيامة الرجل والمرأة والله ما يتكلم لسانه ولكن يداها ورجلاها يشهدن عليها بما كانت تعيب لزوجها وتشهد يداه ورجلاه بما كان يوليها ثم يدعى الرجل وخدمه مثل ذلك ثم يدعى أهل الأسواق وما يوجد ثمة دوانيق ولا قراريط ولكن حسنات هذا يدفع إلى هذا الذي ظُلم وسيئات هذا الذي ظلمه توضع عليه ثم يؤتى بالجبارين في مقامع من حديد فيقال أوردوهم إلى النار»[٢] وأخرج أحمد بسند حسن عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ: «أول خصمين يوم القيامة الجاران»[٣] وأخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «من كان عنده مظلمة لأخيه فليحلله منها في الدنيا فإنه ليس ثمة دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن حسنات أخذ من سيئات صاحبه فتحمل عليه»[٤] وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟» قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ: «المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيقبض ويقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فيطرح عليه ثم طرح في النار»[٥].

قلتُ: أراد بالحسنات التي يأخذها المظلوم من الظالم أجر حسناته ما سوى الإيمان إذ المظالم وغيرها من السيئات ما عدا الكفر جزاؤه متناهٍ على أصول أهل السنة والجماعة فإن مرتكب الكبيرة عندهم لا يخلد في النار، والإيمان جزاؤه الخلود في الجنة وهو غير متناهٍ فلا يأتي ما هو متناهٍ على ما ليس بمتناهٍ، فالحاصل أنه إذا فنيت حسنات الظالم قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا وبقي عنده الإيمان المجرد أخذ من خطايا المظلومين ما عدا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٦٧.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٤/ ١٧٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٩، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٢٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٨٩٩٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٥١، والطبراني في المعجم الكبير ١٧/ ٣٠٣، ٣٠٩.

(٤) أخرجه البخاري في المظالم باب ١٠، والهبة باب ٢١، والرقاق باب ٤٨، وأحمد في المسند ٢/ ٥٠٦.

(٥) أخرجه مسلم في البر حديث٦٠، وأحمد في المسند ٢/ ٣٠٣، ٣٣٤، ٣٧٢.

الكفر لكونه غير متناه الجزاء فلا يوازن ما هو متناه الجزاء فيطرح على الظالم ثم طرح في النار إن لم يعف عنه حتى إذا انتهت عقوبة تلك الخطايا أدخل الجنة بإيمانه ويخلد فيها وقال البيهقي مثل ما قلتُ، وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى تقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء»[1] وفيه حتى للجماء من القرناء وللذرة من الذرة، وفي الباب أحاديث كثيرة لم أذكرها، وروى البيهقي عن الزبير بن العوام قال لمَّا نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ قلنا كيف نختصم وديننا وكتابنا واحد حتى رأيتُ بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفتُ أنه نزلت فينا، وعن ابن عمر نحوه وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال كنا نقول ربنا واحد ونبينا واحد وكتابنا واحد فما هذه الخصومة فلمّا كان يوم الصفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا، وعن إبراهيم قال لما نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قالوا كيف نختصم ونحن إخوان فلمَّا قتل عثمان قالوا هذا خصومتنا، ومقتضى هذه الأقوال أنهم كانوا يزعمون أن الاختصام في الدماء لا يكون إلا بين المؤمنين والكافرين فلمّا ظهر البغي والفساد بين المسلمين اتضح لهم أنه يكون بين المؤمنين أيضاً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الفاء للسببية فإن اختصام الكفار مع النبيّ ﷺ سبب لكونهم أظلم الناس، والاستفهام للإنكار يعني لا أحد أظلم ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فزعم أن له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي بما جاء به النبيّ ﷺ من القرآن وغيره ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ من غير توقف وتفكر في أمره بل مع الشواهد والأدلة القاطعة على صدقه ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ أي منزلاً ومقاماً ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ استفهام للتقرير فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ مع ما يتلوه تسلية للنبيّ ﷺ على تكذيب القوم حتى لا تهتم في الانتقام منهم فإن جهنم يكفيهم مجازاةً لأعمالهم.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أراد به الجنس ليتناول الرسل والمؤمنين يدل عليه قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بصيغة الجمع ويؤيده قراءة ابن مسعود الذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به، قال ابن عباس يعني رسول الله ﷺ جاء بلا إله إلا الله وصدَّق به أيضاً أي بلَّغه إلى الخلق وعلى هذا جمعية الخبر بناءً على أن المراد هو ومن تبعه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المؤمنون: ٤٩] وقال السدي الَّذِي جاء بالصدق جبرئيل وصدق به محمدﷺ تلقاه بالقبول، وقال الكلبي وأبو العالية الَّذِي جاءَ بالصّدقِ رسول الله ﷺ وصَدَّقَ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكذا ذكر الزجاج قول علي رضي الله عنه وكذا روى عن أبي هريرة وقال قتادة ومقاتلَ الَّذِيُ جَاءَ بالصِّدُقِ رسول الله ﷺ وَصَدَّقَ به المؤمنون وقال عطاء ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ الأنبياء ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾

(١) أخرجه مسلم في البر حديث ٦٠، والترمذي في القيامة باب ٢، وأحمد في المسند ٢/٢٣٥، ٣٠١، ٣٢٣، ٣٧٢، ٤١١.

الأتباع، قال صاحب المدارك والبيضاوي والوجه في العربية أن يكون جاء وصدَّق لفاعل واحد لأن التغاير يستدعي إضمار الذي وذا غير جائز أو إضمار الفاعل من غير تقدم ذكر وذا بعيد، قلتُ وكيف يحكم بعدم جواز حذف الموصول وقد روي عن علماء التفسير من الكلبي وأبي العالية وقتادة ومقاتل ما ذكرنا وورد في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه أمن يهجو رسول الله منهم ويمدحه وينصره سواء فإن التقدير أمن يهجو ومن يمدحه سواء وقال صاحب البحر المواج يمكن أن يقال إنه من باب اللف والنشر الإجمالي على طريقة ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] أو يقال تقديره والفريق الذي جاء بالصدق وصدَّق به وهو شامل للنبيّ ﷺ وأبي بكر وضمير جاء بالصدق راجع إلى الموصول نظراً إلى النبيّ ﷺ وضمير صدق به راجع إليه نظراً إلى أبي بكر ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ يسترها عليهم بالمغفرة خص الأسوأ بالذكر للمبالغة فإنه إذا كفَّر الأسوأ فغيره أولى فيه، ولذهب المعتزلة حيث يدل على عفو الكبيرة والإشعار بأنهم لاستعظامهم الذنوب يحسبون كل سيئة عملوها أسوء الذنوب ويقال افعل هاهنا للتفضيل مطلقاً لا على ما أضيف إليه ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي يعطيهم ثوابهم أي ثواب أعمالهم ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يعني يعدلهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم أو يقال أحسن هاهنا للزيادة المطلقة، قال مقاتل يجزيهم بمحاسن أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ﴾ إستفهام للنفي مبالغة في الإثبات يعني الله كافٍ ﴿عَبْدَهُۥ﴾ محمداً ﷺ وقرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي(١) عباده يعني أنبياءه أو محمداً ﷺ وأصحابه ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ عطف على معنى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ﴾.

تقديره الله كاف عبده ويخوفونك، وجاز أن يكون حالاً بتقدير وهم يُخوفُونكَ ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ قال البغوي وذلك أنهم خوَّفوا النبيّ ﷺ معرة الأوثان وقالوا لتكفنَّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنَّك منهم خبل أو جنون وكذا أخرج عبد الرزاق ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حتى غفل عن كفاية الله له وخوفه بما لا يضر ولا ينفع ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديهم إلى الرشاد ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ إذ لاراد لفضله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ الاستفهام للإنكار يعني الله غالب ينفع ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ منتقم من أعدائه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ

(١) وخلف ـ أبو محمد ـ.

ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ
حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟
لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ
عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ
لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ
مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً
مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ
أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ
سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني كفار مكة ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية وبداهة عدم صلاح الأوثان لها وكان أهل مكة يعترفون بذلك ﴿قُلْ﴾ يا محمد بعد اعترافهم لذلك ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ يعني أخبروني، بعدما اعترفتم بأن خالق العالم هو الله لا غير ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ﴾ قرأ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها ﴿ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي بشدة وبلاء ﴿هَلْ هُنَّ﴾ يعني أوثانكم ﴿كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ عني ﴿أَوْ﴾ ﴿أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ عني، قرأ أبو عمرو(١) كاشفات ممسكات بالتنوين فيهما ونصب ضرّه ورحمته على المفعولية والباقون بالإضافة استفهام إنكار يعني يلزمهم باعترافهم السابق إنكار كون الأصنام قادرة على كشف ضر أو إمساك رحمة، قال مقاتل فسألهم النبيّ ﷺ عن ذلك فسكتوا فقال الله تعالى لرسوله ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ يكفيني في إصابة الخير ودفع الضرّ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي المؤمنون لعلمهم بأنه نافع ولا ضارَّ إلا هو، عبَّر المؤمنين بالمتوكلين لأن شأنهم التوكل على الله ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على حالكم اسم للمكان استعير هنا للحال كما أن حيث وهُنا اسمان للزمان وقد يستعار أحدهما للمكان ﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ أي على مكانتي فحذف للاختصار والمبالغة في الوعيد والإشعار بأن حاله ﷺ لا يقف على حد بل الله سبحانه يزيده على مر الدهور قوةً ونصرةً ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم في الدارين فقال ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإن خزي أعدائه دليل على غلبته وقد أخزاهم يوم بدر ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم وهو عذاب النار ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأن يهتدوا به إلى مصالحهم في المعاش والمعاد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي

(١) ويعقوب ـ ابو محمد ـ.

متلبساً به هذه الجملة متصلة بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وما بينهما معترضات ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالكتاب ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ ينتفع نفسه به ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ طريق مصالح ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لا يتجاوز عنها وبال ضلاله ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي ما وكلت عليهم لتجبرهم على الاهتداء به إنما أمرت بالبلاغ وقد بلغت فلا يضرك ضلالهم.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي يقبضها عن الأبدان إما بأن يقطع تعلقها عنها بالكلية فلا يمكن لها التصرف فيه ظاهراً ولا باطناً وذلك حين موتها ونزعها عنها وإما بأن يقبضها ظاهراً بعض القبض بأن يسلب عنها الحسن والحركة الإرادية وذلك بأن يجعله الله تعالى متوجهاً إلى مطالعة عالم المثال عاطلاً عن عالم الشهادة ليستريح وذلك في المنام، فالتوفي بالمعنى الأول حقيقة بالثاني مجاز فيحمل الكلام هاهنا إما على عموم المجاز وهو القبض مطلقاً إما ظاهراً فقط أو ظاهراً أو باطناً وإما على تقدير الفعل كأنه قال والتي لم تمت يقبضها في منامها أي يقبض حسها وحركتها وما قيل إن للإنسان نفساً وروحاً فعند النوم تخرج النفس وتبقى الروح أريد بالنفس قوتها التي بها العقل والتميز يعني يسلب عنه تلك القوة وتبقى الروح التي بها الحياة والنفس، قال البغوي عن علي كرم الله وجهه قال يخرج الروح عند نومه ويبقى شعاعه في الجسد فبذلك يرى الرؤيا[(١)] فإذا انتبه من النوم عادت الروح إلى جسده بأسرع من لحظة، إن صح هذا الأثر فالمعنى عندي أن الروح تتوجه إلى مطالعة عالم المثال خارج البدن في عالم الملكوت وذلك خروجه عند نومه ويبقى شعاعه يعني تعلقه بالجسد كما كان فبذلك أي بخروجه يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عادت الروح أي توجهت إلى جسده بأسرع من لحظة ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردها إلى البدن حتى ينفخ نفخة البعث، قرأ حمزة والكسائي قضِيَ بضم القاف وكسر الضاد على البناء للمفعول والموت بالرفع والباقون على البناء للفاعل مسنداً إلى المستكن الراجع إلى الله والموت بالنصب على المفعولية ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي النفس النائمة إلى الإفاقة والإحساس ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي الوقت المضروب لموته، في الصحيحين عن البراء بن عازب قال: كان النبيّ ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول «اللّهم بك أموت وأحيي وإذا استيقظ قال الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»[(٢)] عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذ أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم يقول باسمك ربي وضعتُ جنبي

---

(١) عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال العجب من رؤيا الرجل انه يبيت فيرى الشيء ولم يخطر على باله فيكون رؤياه كالأخذ باليد ويرى الرجل رؤياً فلا يكون رؤياه شيئاً فقال علي رضي الله عنه أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين إن الله يقول الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، فالله يتوفى الأنفس كلها فما رأت وهي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهوى فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها فعجب عمر من قوله ـ ١٢ ـ منه رحمه الله ـ.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٧، ١٦، ومسلم في الذكر حديث ٥٨.

وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[١] وفي رواية «ثم ليضطجع على شقه الأيمن ثم ليقل»، وفي رواية «فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات وإن أمسكت نفسي فاغفر لها» ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التوفي والإمساك والإرسال ﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي دلالات على كمال قدرته وحكمته وشمول رحمته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها بالكلية عند الموت وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها وما يعتريها من السعادة والشقاوة والحكمة في توفيها عن ظواهرها وإرسالها حيناً بعد حين إلى توفي آجالها فيعلمون أن القادر على ذلك قادر على البعث، وهذه الآية في مقام التعليل لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ أم ابتدائية بمعنى الهمزة للإنكار أو متصلة معطوفة على جملة محذوفة تقديره أجعلوا لله شركاء أم اتخذوا من دونه شفعاء أو منقطعة بمعنى بل للإضراب، عن مضمون قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ والهمزة للإنكار ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للإنكار والتقدير أيشفعون لكم ولو كانوا على هذه الصفة التي تشاهدونهم عليها جمادات لا تعقل ولا تقدر، ولما كان هاهنا مظنة أن يقولوا إنا نعبد أشخاصاً مقربين لله تعالى وتلك الأصنام تماثيلهم قال الله تعالى ردَّ لهذا القول وتعليلاً لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ ثم قرر ذلك بقوله: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يملك أحد أن يتكلم في أمر إلا بإذنه ورضائه فهو مالك الشفاعة كلها ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيكون له الملك أيضاً حينئذ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾ أي نفرت وانقبضت ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني الأوثان ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يفرحون، قال البغوي قال مجاهد ومقاتل وذلك حين قرأ النبيّ ﷺ سورة والنجم وألقى الشيطان في أمنيته تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى ففرح به الكفار، وكذا أخرج ابن المنذر عن مجاهد، قال البيضاوي لقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى ينبسط له بشرة وجهه والاشمئزاز أن يمتلىء غمّاً وغضباً حتى ينقبض أديم وجهه والعامل في إذا معنى المفاجأة ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أمر الله سبحانه رسوله بالالتجاء إلى الله بالدعاء لمَّا تحير في أمرهم وعجز في عنادهم وشدة شكيمتهم فإنه القادر على الأشياء كلها العالم بالأحوال جميعها ما غاب عنَّا وما شاهدناه ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ فتنصر المحق وتخذل المبطل ﴿فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ عن أبي سلمة قال سألتُ عائشة بما كان رسول الله ﷺ يفتح الصلاة من الليل قالت: كان يقول «اللَّهم رب جبرئيل وميكائيل وإسرافيل فَاطِرَ السَّماوات والأرض عالم الغَيْب والشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ١٢، والتوحيد باب ١٣، ومسلم في الذكر حديث ٦٢.

﴿وَلَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وعيد شديد وإقناط بليغ لهم من الخلاص ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ في مراتب التعذيب فيه مبالغة بليغة في مقابلة قوله تعالى للمؤمنين ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] قال مقاتل ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا في الدنيا أنه نازل بهم في الآخرة، وجاز أن يكون المعنى أنهم يحتسبون أن الأوثان يشفع لهم أو لا يكون لهم بعث ونشور أو يكونوا في الآخرة أحسن حالاً من المؤمنين فيظهر خلاف ذلك، وقال السدي ظنوا أنها حسنات فبدت لهم أنها سيئات يعني كانوا يزعمون التقرب إلى الله بعبادة الأوثان فلمَّا عوقبوا عليها ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي بدأ مساوىء أعمالهم من الشرك والظلم إلى أولياء الله حين يعرض عليهم صحائفهم ﴿وَحَاقَ﴾ أي أحاط ﴿بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ما موصولة والمراد به العذاب أو مصدرية والمعنى حاق بهم جزاء استهزائهم.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ الكافر وقيل إخبار عن الجنس بما يغلب فيه ﴿ضُرٌّ﴾ شدة ﴿دَعَانَا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ بالفاء لبيان تناقضهم وتعكيسهم في السبب يعني يشمئزُّون عند ذكر الله وحده ويستبشرون عند ذكر الأصنام فإذا مسهم ضر دعوا مَن اشمأزوا بذكره دون مَن استبشروا به وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ﴾ أعطيناه ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ تفضلاً فإن التخويل مختص به ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مني بوجوه كسبه أو بأني أعطيتُه لما لي من استحقاقه أو من الله بي واستيجابي والضمير لما إن جعلتَ موصولة وإلا فلنعمة والتذكير لأن المراد شيء منها ﴿بَلْ هِىَ﴾ أي النعمة ﴿فِتْنَةٌ﴾ امتحان من الله أيشكر أم يكفر أو استدراج لهم ليكون سبباً لتعذيبهم، وقيل بل الكلمة التي قالها فتنة له موجب للتعذيب ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك قال البيضاوي: هذا دليل على أن المراد بالإنسان الجنس، قلتُ: وإن كان المراد بالإنسان الكافر فالمراد بأكثرهم كلهم أو يقال إن بعضهم كانوا يعتقدون أنهم على الباطل كأحبار اليهود وما كانوا ليؤمنوا تعنتاً وعناداً ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أي تلك الكلمة ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال مقاتل يعني قارون حيث قال ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ وصيغة الجمع بناءً على شموله لمن رضي بقوله ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ﴿مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي جزاؤها سمى جزاء السيئة سيئة نظراً للمقابلة ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي كفروا ﴿مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من كفار مكة ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ كما أصاب أولئك فأصابهم بأن قحطوا سبع سنين وقتل ببدر صناديدهم وأدخلوا النار إلا من تاب وآمن منهم ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فائتين ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ امتحاناً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء ابتلاءً، الاستفهام للإنكار والعطف على محذوف تقديره أيقولون هذا القول يعني إنَّما أوتيتُه على عِلْم ولم يعلموا أن توسعة الرزق وتضيقه من الله تعالى قد يوسع الرزق لمن لا يعلم وجوه الكَسب، وليس له استحقاق الكرامة أصلاً وقد يضيقه على عكس ذلك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الحوادث كلها من الله تعالى والأسباب إنما هي على مجرى العادة في الظاهر.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

روى الشيخان في الصحيحين «أن ناساً من أهل الشرك قَتَلُوا فأكثروا وزَنُوا فأكثروا ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا إن الذي تقول وتدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أنَّ لما عملنا كفارة فنزلت ما في سورة الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ونزلت ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾»[(١)] [الزمر: ٥٣] الآية. قرأ أبو عمرو[(٢)] وحمزة والكسائي بسكون الياء وحذفها وصلاً لاجتماع الساكنين والباقون بفتحها[(٣)]، وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس أنها نزلت في مشركي مكة كذا ذكر البغوي قول عطاء عن ابن عباس وكذا أخرج الطبراني عن ابن عباس بسند ضعيف أنه بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه كيف تدعوني إلى دينك وأنتَ تزعم أنه من قتل أو أشرك أو زنى يلقَ أثاماً يضاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يومَ القِيَامَةِ وأنا قد فعلتُ ذٰلك كله فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] فقال وحشي هذا شرط شديد لعلي لا أقدر على ذٰلك فهل غير ذٰلك فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فقال وحشي أراني بعد في شبهة فلا أدري يغفر لي أم لا فأنزل الله هذه الآية، زاد البغوي فقال المسلمون هذا له خاصةً أو للمسلمين عامةً؟ قال رسول الله ﷺ: «بل للمسلمين عامة»[(٤)] وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال كنا نقول ما للمفتتن توبة إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته فلمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ الآية، وذكر

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٩٣، والنسائي في التحريم باب ٢.

(٢) ويعقوب وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٣) وفي الأصل: بحذفها ولا شك أنه سباق قلم ـ.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٨/ ٢٣٩.

البغوي أنه روي عن ابن عمر أنه قال نزلت هذه الآية في عيّاش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً قوم أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا فيه فأنزل الله تعالى هذه الآيات فكتبها عمر بيده، ثم بعث بها إلى عيّاش بن ربيعة والوليد بن الوليد وأولئك النفر فأسلموا وهاجروا ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي أفرطوا بالجناية عليها بالكفر والمعاصي، قال البغوي روي عن ابن عمر أنه أراد بالإسراف الكبائر ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرته وتفضله إذا آمنتم وتبتم عن الشرك وهذا القيد ثابت بالإجماع وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] وبالروايات الواردة في سبب نزول الآية فالمعنى لا تتركوا الإيمان إياساً من رحمة الله بناءً على ما أسرفتم من قبل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ صغيرها وكبيرها إذا تبتم عن الشرك وآمنتم بالله وحده «فإن الإسلام يهدم ما كان قبله»[1] رواه مسلم عن عمرو بن العاص عن النبيّ ﷺ، ومورد هذه الآية وإن كان خاصاً فإنها نزلت في من ارتكب الكبائر في حالة الشرك ثم أسلم لكن لفظها عام يدل على أن العبد إذا آمَنَ (كما يدل عليه إضافته تعالى العبد إلى نفسه بناءً على عرف القرآن وإن كان ارتكب الكبائر بعد الإسلام) ليرجو أن يغفر الله له إن شاء وإن لم يتب كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] والتعليل في هذه الآية بقوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بصيغة المبالغة وإفادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في عبادي من الدلالة على الزلة والاختصاص المقتضيين للترحم وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم والنهي عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة وإطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب جميعاً ووضع اسم الله موضع الضمير للدلالة على أنه المستغني والمنعم على الإطلاق والتأكيد بالجمع والأحاديث الواردة في هذا الباب وإجماع الأمة.

روى مقاتل بن حبان عن نافع عن ابن عمر قال كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أو نقول ليس شيء من حسناتنا إلا وهي مقبولة حتى نزلت ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾ [محمد: ٣٣] قلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا الكبائر والفواحش، قال فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا قد هلك فنزلت هذه الآية ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾ فكففنا عن القولين فكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له، وروي عن ابن مسعود أنه دخل المسجد قاصٌّ يقصُّ وهو يذكر النار والأغلال فقام على رأسه فقال يا مذكر لم تقنط الناس ثم قرأ ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية، وعن أسماء بنت زيد قالت سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٩٢.

جَمِيعًاۚ﴾ ولا يبالي» رواه أحمد والترمذي وقال هذا حديث حسن غريبُ في شرح السنة يقول بدل يقرأ، وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجلٌ قتل تسعاً وتسعين إنساناً ثم خرج فأتى راهباً فسأله فقال ليس لك توبة قال فقتله وجعل يسأل فقال له رجل رأيت قريةً كذا وكذا فأدركه الموت فَنَاء بصدده نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى إلى هذه أن تباعدي فقال قيسوا ما بينهما فوجدوا إلى هذه أقرب بشبر فغفر له»[١] متفق عليه، وروى مسلم بن الحجاج هذا الحديث وفيه: «فدلَّ على راهب فأتى فقال إنه قتل تسعاً وتسعين نفساً فهل لي توبة فقال لا فقتله وكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفساً فهل له توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم فلا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختَصَمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأتاهم مَلك في صورة فجعلوه حكماً فقال قيسوا بين الأرضين فإلى أيتهما أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة» وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «كان رجل لم يعمل خيراً قط فأوصى لأهله إذا مات فحرقوه ثم ذروا نصفه في البر ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، قال فلمّا مات فعلوا ما أمرهم فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال له لم فعلتَ هذا؟ قال من خشيتك يا ربّ وأنتَ أعلم فغفر له»[٢] متفق عليه.

وروى البغوي عن ضمضم بن حوش قال دخلتُ مسجدَ المدينة فناداني شيخ فقال يا يماني (تعال ولا أعرفه) فقال لا تقولن لرجل والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة فقلتُ من أنتَ يرحمك الله قال أبو هريرة قال فقلت وإن هذه الكلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب أو لزوجته أو لخادمه قال فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين أحدهما مجتهد في العبادة والآخر كان مذنباً فجعل يقول له اقصر عما أنت فيه، قال فيقول خلّني وربي قال حتى وجده يوماً على ذنب استعظمه، فقال اقصر فقال خلني وربي أبعثت عليَّ رقيباً فقال والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الله الجنة أبداً، قال فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما فاجتمعا عنده قال للمذنب ادخل الجنة برحمتي وقال للآخر أتستطيع أن تحظر على عبادي رحمتي فقال لا يا رب فقال إذهبوا به إلى النار»، قال أبو هريرة والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[٣] وروى أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين» ذكر الحديث إلى آخره

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في التوبة حديث ٤٨.
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٥، وأحاديث الأنبياء باب ٥٠، ومسلم في التوبة حديث ٢٤.
(٣) أخرجه البغوي في تفسيره ٦/ ٨١.

بعينه، وعن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ: «لا أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية»(١) رواه أحمد بسند حسن وابن جرير والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان وفيه «فقال رجل يا رسول الله ومن أشرك فنكس ساعة ثم قال والله لا يغفر الله لفلان وإن الله قال من الذي يتألى(٢) عليَّ أني لا أغفر لفلان فإني قد غفرتُ لفلان وأحبطتُ عملك» أو كما قال رواه مسلم، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: ٣٢] قال رسول الله ﷺ «إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك لا ألماً»(٣) رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح غريب.

وفي حديث قدسي طويل عن أبي ذر عن النبيّ ﷺ «أفعل ما أريد عطائي كلام وعذابي كلام إنما أمري شيء إذا أردتُه أن أقول له كن فيكون»(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يا رب أنّى لي هذا فيقول باستغفار ولدك لك»(٥) رواه أحمد، وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «الميّت في القبر كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أب أو أم أو أخ أو صديق فإذا ألحقته كان أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن الله ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم»(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليغفر لعبده ما لم يقع الحجاب»، قالوا يا رسول الله وما الحجاب؟ «قال أن تموت النفس وهي مشركة»(٧) رواه أحمد والبيهقي في كتاب البعث والنشور، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «من لقي الله لا يعدل به شيئاً في الدنيا ثم كان عليه مثل جبال ذنوب غفر الله له»(٨) رواه البيهقي في كتاب البعث والنشور، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها يعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»(٩) متفق عليه، وروى مسلم عن سلمان نحوه وفي آخره «فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة» وعن عمر بن الخطاب

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٧٥.
(٢) أي: يقسم.
(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٥٣، باب ٩.
(٤) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٤٨، وابن ماجه في الزهد باب ٣٠، وأحمد في المسند ٥/ ١٥٤، ١٧٧.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٥٠٩.
(٦) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٧) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٧٤، والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٥٧.
(٨) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٩) أخرجه البخاري في الرقاق باب ١٩، ومسلم في التوبة حديث ١٨ ـ ٢١.

قال قدم على النبيّ ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبيّ ﷺ «أترون هذه طارحة ولدها في النار» فقلنا لا وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[١] متفق عليه، وعن أبي الدرداء أنه سمع النبيّ ﷺ يقص على المنبر وهو يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦] قلتُ وإن زَنى وإن سرقَ يا رسول الله فقال الثانية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦] فقلتُ الثانية وإن زنىُ وإن سرق يا رسول الله فقال الثالثة ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦] فقلتُ الثالثة وإن زنى وإن سرق يا رسول الله قال «وإن رغم أنف أبي الدرداء»[٢] رواه أحمد.

وعن عامر الرام قال بينا نحن عنده (يعني النبيّ ﷺ) إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال يا رسول الله مررتُ بغيضة شجر فسمعتُ فيها أصوات فراخ طائر فأخذتُهن فوضعتهنّ في كسائي فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي فكشفتُ لها عنهن فوقعت عليهن فلففتهن بكسائي فهن أولاء معي، قال «ضعهن» فوضعتهن وأبت أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون لرحم أم الأفراخ فراخها فوالذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها ارجع بهن فضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن فرجع بهن»[٣] رواه أبو داود، وعن عبد الله بن عمر قال كنا مع النبيّ ﷺ في بعض غزواته فمرَّ بقوم فقال «من القوم؟» قالوا نحن المسلمون وامرأة تخضب بقدرها ومعها ابن لها فإذا ارتفع وهج تنحت به فأتت النبيّ ﷺ فقالت أنتَ رسول الله؟ قال «نعم»، قالت بأبي أنت وأمي أليس الله أرحم الراحمين؟ قال «بلىٰ»، قالت أليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها؟ قال «بلى»، قالت إن الأم لا تلقي ولدها في النار فأكب رسول الله ﷺ يبكي ثم رفع رأسه إليها فقال: «إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد[٤] والمتمرد الذي يتمرد على الله وإلى أن يقول لا إله إلا الله»[٥] رواه ابن ماجه، وعن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «ما من عبدٍ قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قلتُ وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق، قلتُ وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق، قلتُ وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر»[٦] متفق عليه، وفي الباب أحاديث كثيرة تدل على أن مآل المؤمن إلى الجنة لا كما قالت المعتزلة إن مرتكب الكبيرة إن لم يتب يخلد في النار.

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة حديث ٢٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٤٤٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٨، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٦، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٦٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الجنائز باب ١.

(٤) الشديد العاتي.

(٥) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٥.

(٦) أخرجه البخاري في اللباس باب ٢٤، ومسلم في الإيمان حديث ١٥٤، وأحمد في المسند ٥/ ١٦٦.

وأما استدلال المرجئة بهذه الأحاديث على أن المعاصي صغائر كانت أو كبائر لا يضر مع الإيمان كما أن الطاعة لا تنفع مع الكفر فباطل مستلزم لإنكار الآيات والأحاديث الواردة في المناهي وكون الصغائر والكبائر مفضية إلى التعذيب والسخط من الله تعالى إلا أن تتداركه المغفرة، فالمذهب الحق قال أهل السنة والجماعة رضي الله عنهم إن الطاعة لا تنفع مع الكفر لأن الطاعة لا تكون طاعةً إلا إذا كانت خالصةً لله تعالى وإلا فهي معصية والإيمان شرط للطاعة كالوضوء للصلاة وأما المعصية فهي وإن كانت في نفسها مقتضية للتعذيب لكنها في مشيئة الله تعالى إن شاء غفر له وإن شاء عذبه فإن غفر له غفر له إما بالتوبة وإما بشفاعة من النبيّ ﷺ أو من أحد من أتباعه وإما بمحض فضل من الله تعالى وإن عذبه لا يكون تعذيبه مؤبداً إن كان المرء مؤمناً لأن الله تعالى وعد بالثواب على كل حسنة قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] والإيمان رأس الحسنات والخلف في الوعد محال ومحل الثواب الجنة لا محالة لكن المؤمن يرى ذنبه كأنه قاعد تحت جبل والفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه فقال به هكذا بيده فذبه عنه، رواه البخاري عن النبيّ ﷺ.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي ارجعوا إليه بالتوبة من الشرك ﴿وَأَسْلِمُواْ﴾ أي انقادوا ﴿لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في القبر أو بعد البعث فحينئذ لا ينفع الإيمان منكم كما يدل عليه قوله ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ عطف على جملة مستأنفة، وتقديره تعذبون ثم لا تنصرون ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ يعني القرآن فإنه أحسن من كل كلام أو المراد به العزائم دون الرخص ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه ﴿أَن تَقُولَ﴾ أي كراهة أن تقول أو لئلا تقول ﴿نَفْسٌ﴾ تنكير نفس لأن القائل به بعض الأنفس أو للتكثير وهو منصوب على العلية لقوله أنيبوا، وقال المبرد تقديره بادروا واحذروا أن تقول نفس ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ الحسرة الاغتمام وأصله يا حسرتي انقلبت الياء ألفاً في الاستغاثة وربما ألحقوا به ياء المتكلم بعد ألف الاستغاثة كذلك قرأ أبو جعفر[1] يا حسرتاي ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ ما مصدرية أي على تفريطي وتقصيري ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، قال الحسن أي قصرتُ في طاعة الله وقال مجاهد في أمر الله وقال سعيد بن جبير في حق الله وقيل في ذات الله على تقدير مضاف أي في طاعته أو في قربه وقيل معناه قصرت في الجانب الذي يردُّني إلى رضاء الله ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أن مخففة من الثقيلة واسمه ضمير الشأن واللام فارقة والجملة في محل النصب على الحال كأنَّه قال وأنا كنتُ ساخراً مستهزئاً بدين الله وكتابه ورسوله والمؤمنين ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ عياناً ﴿لَوْ﴾ للتمني ﴿أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ﴾ منصوب بعد الفاء في جواب التمني ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ معناه أتمنى كون بي رجعةً

(١) بخلاف عن ابن وردان.

إلى الدنيا فكوني من المحسنين في العقيدة والأعمال والعطف بأو للدلالة على أنه لا يخلو عن مثل هذه الأقوال تحيراً أو تعللاً بما لا طائل تحته.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ رد من الله عليه لما تضمنه قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإن معناه لم يهدني الله فإن كان المراد بها إراءة الطريق فالمعنى بلى قد هديتُك حيث أرسلتُ إليك رسولي وجاءك كتابي فكذبتَ بها وكان قوله لَوَ أَنَّ الله هداني إنكاراً لتبليغ الرسل كما جاء في الحديث «يُدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلَّغتَ فيقول نعم فيدعي أمته فيقال لهم هل بلَّغكم فيقولون لا ما جاءنا من بشير ولا نذير»[1] وقد ذكرنا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٦] وإن كان المراد بها خلق الهداية والإيصال إلى المطلوب فقولهم مبني على التشبث بالجبر وإنكار قدرتهم على كسب الإيمان والطاعة فمعنى الآية بلى قد خلقتُ فيك القدرة التي يترتب عليها العذاب والثواب فكذَّبتَ باختيارك لما جاءتك آياتي وهذا لا ينافي تأثير قدرة الله في أفعال العباد كما هو مذهب أهل السنة والجماعة فإن قيل فما وجه الفصل بين الرد والمردود، قلنا وجه ذلك أن تقديم هذه الآية مفرق القرائن وتأخير المردود يخل بالنظم المطابق للوجود لأنه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة وتذكير الخطاب نظراً إلى المعنى ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن وصفوه بما لا يجوز كاتخاذ الولد ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ الجملة حال من مفعول ترى لأنه من رؤية البصر ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والجملة تقرير لكونهم يرون ذلك ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾ من جهنم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ من الشرك ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي[2] وأبو بكر بمفازاتهم بالألف على الجمع والباقون بغير ألف على الإفراد أي بفلاحهم وتفسيرها بالنجاة تخصيص بأهم أقسامه وبالسعادة والعمل الصالح إطلاق للمسبب على السبب والباء للسببية صلة لينجي أو لقوله ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حال أو استئناف لبيان المفازة.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الخير والشر والإيمان والكفر هذه الجملة متصلة بقوله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ وما بينهما معترضات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي الأشياء كلها موكولة إليه وهو القائم بحفظها الجملة عطف أو حال ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ﴾ جمع مقلاد أو مقليد كمفتاح ومفاتيح أو منديل ومناديل ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني له مفاتيح خزائن السماوات والأرض بيده ملكوتها لا يتمكن من التصرف فيها غيره، قال قتادة ومقاتل مفاتيح السماوات والأرض

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ١٩، وأحاديث الأنبياء باب ٣، وابن ماجه في الزهد باب ٣٤، وأحمد في المسند ٣/ ٣٢، ٥٨.

(٢) وخلف ـ أبو محمد ـ.

بالرزق والرحمة وقال الكلبي خزائن المطر وخزائن النبات، وعن عثمان رضي الله عنه «أنه سأل النبيّ ﷺ عن المقاليد قال: «تفسيرها لا إله إلا هو والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير[(١)]»[(٢)] أخرجه أبو يعلى في مسنده وابن أبي حاتم في تفسيره والعقيلي في الضعفاء والطبراني في الدعاء والبيهقي في الأسماء والصفات من حديث ابن عمر، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، قلتُ: لعل المعنى أن صفات الله تعالى المذكورة في هذه الكلمات تفسير للمقاليد يعني من كان متصفاً بتلك الصفات فهو مالك خزائن السماوات والأرض بيده ملكوتها والتصرف ومن يعتقد بها ويذكرها يتأهل أن يفتتح له الخزائن إما عاجلاً أو آجلاً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ﴾ أي بالقرآن وبكلمات تمجيده وتوحيده أو بدلائل قدرته واستبداده بأمر السماوات والأرض ﴿أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ﴾ حصر الخسائر بهم لأن غيرهم ذو حظ من الرحمة والثواب فإن فات عنهم شيء من حظوظ الدنيا فهم مستبدلوها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت من الحظوظ في الآخرة وأما الكفار فإن كان لهم نصيب من خزائن الرزق والمطر في الدنيا فلا نصيب لهم في الشكر فلا نصيب لهم في خزائن الرحمة والحظوظ العاجلة تنقلب عليهم وبالاً واستدراجاً، وجاز أن تكون هذه الآية متصلة بقوله ﴿وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد مطلع على أفعالهم مجاز عليها وتغير النظم للإشعار بأن العمدة في فلاح المؤمنين فضل الله وفي خسران الكافرين كفرهم بآيات الله والتصريح بالوعد والتعريض بالوعيد قضية المكر والله أعلم.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَالسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ

---

(١) وروى قصة سؤال عثمان عن المقاليد من حديث أبي هريرة نحوه ومن حديث ابن عباس نحوه وزاد فيه من قالها إذا أصبح عشر مرات وإذا أمسى أعطاه الله ست خصال أما أولهن فيحرس من إبليس جنوده وأما الثانية فيعطى قنطاراً في الجنة وأما الثالثة فيزوج من حور العين وأما الرابعة فيغفر له ذنوبه واما الخامسة فيكون مع ابراهيم عليه السلام واما السادسة فيحضره اثنا عشر ملكاً عند موته فيبشرونه بالحق ويزفونه من قبره إلى الموقف فإذا أصابه شيء من أهاويل يوم القيامة قالوا لا تخف إنك من الآمنين ثم يحاسبه الله حساباً يسيراً ثم يؤمر به إلى الجنة يزفونه إلى الجنة من موقفه كما يزف العريس حتى يدخلونه الجنة بإذن الله والناس في شدة الحساب ـ منه نوّر الله ضريحه ـ ١٢ ـ.

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ١/٤٥٩، والسيوطي في الدر المنثور ٥/٣٣٤، وابن كثير في تفسيره ٧/١٠٣.

وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ
مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ
فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ
نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ
بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء فقالوا هذا لك يا محمد وكفّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنة، قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون: ١] إلى آخر السورة وأنزل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ وأخرج البيهقي في الدلائل عن الحسن البصري قال قال المشركون للنبيّ ﷺ تضلل آباءك وأجدادك يا محمد فأنزل الله هذه الآية إلى قوله ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وقال البغوي قال مقاتل إن كفار مكة دعوه إلى دين آبائه، فنزلت قرأ أهل الشام بنونين خفيفتين وأهل المدينة بنون واحدة خفيفة على الحذف فإنها تحذف كثيراً والباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام والهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف وغَيْرَ مفعول لأعبد قدم عليه لأنه محل الإنكار وتأمروني جملة معترضة تقديره أكفر فغير الله أعبد تأمروني بذلك، وجاز أن ينتصب غير بما دلَّ عليه تأمروني أعبد، لأنه بمعنى تُعَبِّدُوني من التفعيل على أن أصله تَأْمُرُونَني أن أعبد غير الله فحذف إن ورفع الفعل كقوله أحضر الوغى، ويؤيده قراءة أعبد بالنصب بالتقدير ألم يتضح عليكم التوحيد بعد تلك الدلائل فَتُعَبِّدُونني غير الله حيث تأمرونني أن أعبد غير الله ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ كلام على سبيل الفرض والمراد به إقناط الكفرة والإشعار على حكم الأمة، وبهذه الآية نحكم بأن الردة محبط لثواب جميع الحسنات كما أن الإسلام يهدم ما كان قبله من السيئات فإن أسلم بعد الردة في وقت صلاة صلاها فعليه أداؤه ثانياً وكذا يجب الحج ثانياً على من حج ثم ارتد ثم أسلم كذا قال الإمام ابن الهمام وقال البيضاوي إطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم لأن شركهم أقبح وأن يكون على التقييد بالموت كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

﴿أَعۡمَـٰلُهُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٧] وهذا القول باطل لأن القول بكونها من خصائص الأنبياء شنيع جداً تكاد السماوات يتفطرن من هذا القول إذ الكلام إنما هو على سبيل الفرض المحال وإنما المراد به الإشعار على حكم غيرهم وقوله: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٧] لا يدل على نفي الحبط إذا لم يوجد الموت على الكفر بل المطلق عندنا يبقى على إطلاقه لا ضرورة في حمله على المقيد والله أعلم.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ رد لما أمروه به والله منصوب باعبد والفاء إما زائدة وإما بتقدير أما وتقديم المعمول لقصد الحصر وبل للعطف على محذوف دل عليه قوله ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾ الخ تقديره لا تعبد غير الله بل الله اعبد أو بل أمَّا الله فاعبد ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ إنعامه عليك، وفيه إشارة إلى موجب الاختصاص.

أخرج الترمذي عن ابن مسعود قال مرَّ يهوديٌّ بالنبيّ ﷺ فقال كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه والأرضين على ذه والماء على ذه والجبال على ذه فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ يعني ما عرف الناس عظمة الله سبحانه حق عظمته حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق به ولم يعبدوه حق عبادته ولم يشكروه حق شكره وأنكروا البعث بعد الموت ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا﴾ يعني الأرضين السبع بجميع أبعاضها البادية والغارية ﴿قَبۡضَتُهُۥ﴾ القبضة المرة من القبض أطلقت على المقدار المقبوض بالكف تسمية المفعول بالمصدر، أو بتقدير ذات قبضته ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطۡوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ هذه الآية من المتشابهات المصروفة عن الظاهر لا يعلم تأويله إلا الله والغرض منه التنبيه على عظمته وكمال قدرته وحقارة الأفعال العظام التي يتخير فيها الأوهام بالإضافة على قدرته وعلى أن تخريب العالم أهون شيء عليه، وقال علماء البيان هذا الكلام وارد على طريقة التمثيل والتخيل من غير اعتبار القبضة واليمن حقيقة ولا مجازاً كقولهم شابَّت لمة الليل، ووجه نزول الآية بعد قول اليهودي تصديق ما حكاه اليهودي عن التوراة فإن كتب الله تعالى مصدقة بعضها لبعض، وفي الصحيحين حديث ابن مسعود بلفظ جاء حبر من اليهود إلى النبي ﷺ فقال يا محمد إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك أنا الله فضحك النبيّ ﷺ تعجباً ممَّا قال الحبر تصديقاً له ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ الآية، لعل وجه التطبيق بين رواية الترمذي ورواية الصحيحين أن الآية نزلت حينئذ فقرأها النبيّ ﷺ كما نزلت على اليهودي، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض»(١)، وروى مسلم عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ:

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣٩، باب ٢، والرقاق باب ٤٤، والتوحيد باب ٦، ١٩، ٢٦، ٣٦، ومسلم في المسافرين حديث ٦٩، والمنافقين حديث ١٩، ٢١، ٢٣.

«يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوي الأرضين بشماله»[١]، وفي رواية «يأخذهن بيده الأخرى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون» ـ وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «إذا كان يوم القيامة جمع الله السماوات والأرضين السبع في قبضة ثم يقول أنا الله أنا الرحمٰن أنا الملك أنا القدوس أنا المؤمن أنا المهيمن أنا العزيز أنا الجبار أنا المتكبر أنا الذي بدأتُ الدنيا ولم تك شيئاً أنا الذي أعيدها أين الملوك أين الجبابرة»[٢]، قال القاضي عياض القبض والطي والأخذ كلها بمعنى الجمع فإن السماوات مبسوطة والأرض مدحوة ممدودة ثم رجع ذلك إلى معنى الرفع والإزالة والتبديل، وقال القرطبي المراد بالطي الإذهاب والإفناء، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال عدت اليهود فنظروا في خلق السماوات والأرض والملائكة فلمّا فرغوا أخذوا يقدرونه فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وأخرج عن سعيد بن جبير قال تكلمت اليهود في صفة الرب فقالوا بما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس قال لمّا نزلت ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قالوا يا رسول الله هذا الكرسي هكذا فكيف العرش؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعد وأعلا من هذه قدرته عن إشراكهم أو ما يضاف إليه من الشركاء.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ يعني النفخة الأولى ﴿فَصَعِقَ﴾ أي مات ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قد ذكرنا المراد بالمستثنى في هذه الآية في سورة النمل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال الحسن إلاَّ من شاء الله يعني الله وحده ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ أي نفخة أخرى يحتمل النصب والرفع ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمون من قبورهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ يقلّبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوت أو ينتظرون ما يفعل بهم وبين النفختين أربعون يوماً وقد ذكرنا ما ورد فيه من الأحاديث في سورة النازعات ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ يعني أرض عرصات القيامة، عطف على نُفخَ فيه أخرى ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بنور خالقها، قال البغوي وذلك حين يتجلّى الربّ لفصل القضاء بين خلقه فما يتضارون في نوره كما لا يتضارون بالشمس في اليوم الصحو، وقال الحسن والسديُّ أي بعدل ربها قيل سماه نوراً لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما سمي الظلم ظلمة قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[٣] متفق عليه من حديث ابن عمر ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي صحائف الأعمال في أيدي العمال واكتفى باسم الجنس عن الجمع، أخرج البيهقي عن أنس عن النبيّ ﷺ قال الكتب كلها تحت العرش فإذا كان الموقف بعث الله تعالى ريحاً فتطيرها بالأيمان والشمائل أول خط فيها ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ

(١) أخرجه مسلم في المنافقين حديث ٢٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في المظالم باب ٨، والترمذي في البر باب ٨٣.

﴿بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤][١] وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود موقوفاً والديلمي عن أبي هريرة مرفوعاً عنوان كتاب المؤمن يوم القيامة حسن ثناء الناس ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قال السيوطي قال العلماء يكون الحساب بمشهد من النبيين، وغيرهم، وأخرج ابن المبارك عن سعيد بن المسيّب قال وليس من يوم إلا ويعرض على النبيّ ﷺ أمته غدوةً وعشيةً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ قال ابن عباس، الذين يشهدون للرسل على تبليغ الرسالة وهم أمة محمد ﷺ، وقال عطاء يعني الحفظة يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ[٢] مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾ [ق: ٢١] ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي جزاؤه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ قال عطاء يعني أنه تعالى عالم بأفعالهم لا يحتاج إلى كاتب وشاهد إنما الكتاب والشهود جرياً على العادة وإلزاماً للكفرة.

ثم فصل الله التوفية وقال ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي أفواجاً متفرقة بعضها على عقب بعض على تفاوت أقدامهم في الضلالة، قال أبو عبيدة والأخفش: زُمَراً أي جماعات في فرقة واحدتها زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه أو من قولهم شاة زمرة أي قليلة الشعر ورجل زمر قليل المروءة وهي الجمع القليل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ ليدخلوها ﴿فُتِحَتْ﴾ قرأ الكوفيون بالتخفيف والباقون بالتشديد على التكثير أي فُتحتْ ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ السبعة كلها وكانت مغلقة قبل ذلك ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعاً وتوبيخاً ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي وقتكم هذا أي وقت دخولكم النار، قال البيضاوي فيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وإنذار الكتب، قلتُ: هذه الآية لا تدل على عدم التعذيب على الإشراك بالله عند عدم الرسل بل على كمال التوبيخ بعد تمام الحجج فإن العقل وإن لم يكن مستقلاً في درك الشرائع لكن الدلائل المنصوبة على الوحدانية كافٍ لحكم العقل بالتوحيد فإذا أرسل الله سبحانه الرسل وأنزل الكتب وأوضح الطريق لم يبق العذر بوجه من الوجوه والله أعلم ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي كلمة الله بالعذاب وحكمه في الأزل أنهم من الأشقياء ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وضع المظهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك الحكم بالكفر ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبهم القائل لتهويل ما يقال لهم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام للجنس والمخصوص بالذم محذوف لما سبق ذكره يعني جهنم والفاء للسببية فإن الكلام السابق سبب للذم، وفيه إشعار بأن مثواهم الجهنم لتكبرهم عن الحق وذا لا ينافي كون دخولهم فيها لما حقت عليهم كلمة العذاب فإن تكبرهم وسائر مقابحهم مسببة عنه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٤/٤٦٦.

(٢) وفي الأصل: وجاءت كل أمة إلخ ـ ١٢ ـ.

رسول الله ﷺ: في حديث طويل: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال الجنة فيدخل به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار»[١] رواه مالك وأبو داود والترمذي.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ إسراعاً بهم إلى دار الكرامة، وقيل سيق مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين ﴿زُمَرًا﴾ على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلو الطبقة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾ قرأ الكوفيون بالتخفيف والباقون بالتشديد على التكثير ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ حال يعني وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم تعظيماً لهم كيلا ينتظروا ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا يعتريكم مكروه أبداً ﴿طِبْتُمْ﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي وهذا أما لعدم ارتكابهم المعاصي أو لطهارتهم عنها بالمغفرة أو بالعقوبة، قال قتادة إذا قطعوا النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض حتى إذا هذبوا وطيبوا دخلوا الجنة وقال لهم رضوان وأصحابه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وعن علي رضي الله عنه قال سيقوا إلى الجنة وإذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرةً تخرج من تحت ساقها عينان فيغتسل المؤمن من إحداهما فيطهر ظاهره ويشرب من الأخرى فيطهر باطنه وتلقته الملائكة على أبواب[٢] الجنة يقولون سَلاَمٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين، وقال الزجاج معناه كنتم طيبين في الدنيا عن خبائث الشرك والمعاصي، وقال ابن عباس معناه طاب لكم المقام ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾ الفاء للدلالة على أن طيبهم سبب لدخولهم وخلودهم هذا على التأويلات المتقدمة وأما على قول ابن عباس فطيب مقامهم سبب لدخولهم يعني لمَّا كانت الجنة مقاماً طيّباً استأهل أن تكون محلاً لهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أي مقدرين الخلود.

﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على محذوف وهو جواب إذا حذف للدلالة على أن لهم مع الدخول من الكرامة ما لا يسعه المقال تقديره حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها كذا ادخلوها ووجدوا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال أحد ولا يسعه المقال وقالوا شكراً لما أنعم عليهم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بدخول الجنة وبما أخفي لهم من قرة أعين ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة وإيراثها تحليهم إياها ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي يتبوأ كل منا في أيّ مقام أراد من جنته الواسعة وإذا أراد زيارة الأنبياء وأصحاب

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٦، والترمذي في تفسير سورة ٧، باب ٢، ومالك في القدر حديث ٢، وأحمد في المسند ١/٤٥.

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أنفق بزوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة وللجنة أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد فقال أبو بكر يا رسول الله فهل يدعى أحد منها كلها قال نعم وأرجو أن تكون منهم ـ ١٢ ـ نوّر الله ضريحه ـ.

الدرجات العلى تيسر لهم ذلك، أخرج الطبراني وأبو نعيم والضياء وحسنه عن عائشة قالت جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي ومن أهلي وولدي وإني لأكون في البيت فأذكرك ولا أصبر حتى آتيك فأنظر إليك فإذا ذكرت موتي وموتك عرفتُ أنك إذا دخلتَ وقفتَ مع النبيين وإني إن دخلتُ خشيتُ أن لا أراك فلم يرد عليه شيئاً حتى نزل جبرئيل بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩] ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجنة.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ محدقين محيطين حال ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ﴾ قيل هذا تسبيح تلذذ لا تسبيح تعتب لأن التكليف ساقط حينئذ وجملة يسبحون حال من فاعل حافين ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي بين الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ بالعدل، بإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار، قيل بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني يقول ذلك أهل الجنة شكراً حين تم وعد الله لهم، وقيل تقول ذلك الملائكة شكراً لله على إدخال أولياء الله الجنة وأعداء الله النار عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأُ كل ليلة بني إسرائيل والزمر»[١] رواه الترمذي والنسائي والحاكم.

تمت سورة الزمر غُرة رمضان سنة
١٢٠٧هـ ويتلوها إن شاء
الله تعالى سورة
المؤمن

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن باب ٢١، والدعوات باب ٢٢، وأحمد في المسند ٦/٦٨، ١٢٢.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المؤمن / غافر

آياتها خمس وثمانون وهي مكيَّة

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى
ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى
ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ
وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ
وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ
وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ
وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

روى البغوي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد[١] لأهله منزلاً فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات[٢] فقال عجبت من الغيث الأول فهذا أعجبُ وأعجبه فقيل له إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن، وقال البغوي قال ابن مسعود إذا وقعتُ في ال حَم وقعتُ في روضات أتأنق[٣] فيهن، وفي رواية إذا قرأتُ ال حَم وقعتُ في روضات دمثات، وروي أيضاً بسنده عن ابن عباس قال لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم، وقال البغوي قال إبراهيم كل أل حَم يسمين العرائس، وأخرج الحاكم عن ابن مسعود موقوفاً الحواميم ديباج[٤] القرآن ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ قد سبق الكلام في الحروف المقطعات، وقال البغوي قال السدي حم اسم الله الأعظم، وروي عن عكرمة

---

(١) يرتاد: أي يطلب مكاناً لرعي المواشي. والرائد الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث.

(٢) الدمث: الأرض السهلة الرخوة.

(٣) أستَرح فيهن.

(٤) پارچه أبريشمي.

عنه قال الرحم ن حروف الرحمٰن مقطعة، وقال سعيد بن جبير وعطاء الخراساني الحاء افتتاح أسمائه حكيم حميد حي حيان والميم افتتاح اسمائه ملك مجيد منانٌ، وقال الكسائي قضي ما هو كائن كأنهما أشار إلى أن معناه حُمَّ بضم الحاء وتشديد الميم، قرأ ابن كثير وقالون[١] وحفص وهشام بفتح الحاء في الحواميم كلها وورش وأبو عمرو بين بين والباقون بالإمالة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيل الكتاب أو مبتدأ خبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه، لعل تخصيص الوصفين بالذكر لما في القرآن من الإعجاز والحكمة الدال على القدرة الكاملة والحكمة البالغة ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ للمؤمنين مصدر تاب يتوب توبةً، وقيل التَّوبُ جمع توبة مثل دومة ودوم وحومة وحوم، قال ابن عباس غافر الذنب لمن قال لا إله إلا الله قابل التوب ممن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله صفتان لله تعالى والإضافة فيهما معنوية لأنه لم يرد زمان مخصوص بل الاستمرار وتوسيط الواو لإفادة الجمع بين محو الذنب وقبول التوبة أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر فيكون الذنب باقياً وذلك لمن لم يتب «والتائب كمن لا ذنب[٢] له» رواه ابن ماجه مرفوعاً عن ابن مسعود والحكيم عن أبي وابن النجار عن علي وابن عساكر والبيهقي عن ابن عباس فهو دليل على جواز المغفرة لمن لم يتب ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لم يقل لا إله إلا الله ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ قال مجاهد أي ذي السعة والغنى، وقال قتادة ذي النعم، وقيل ذي القدرة، وقال الحسن ذي الفضل، قيل غافر الذنب وما بعدها أبدال ليست بصفات وإضافة الثلاثة منها لفظية لا تفيد التعريف فلا تصلح كونها صفات وعلى هذا ذِي الطَّولِ أيضاً بدل لامتناع تقدم البدل على الصفة، وقال صاحب الكشاف

(١) وأبو جعفر ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

(٢) عن يزيد بن الأصم أن رجلاً كان ذا بأس وكان عمر يعد لبأسه وكان من أهل الشام وإن عمر فقده فسأل عنه فقيل له تتابع في هذا الشرب فدعا كاتبه فقال اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان سلام عليكم فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ثم دعا وأمر من عنده ليدعوا له أن يقبل الله عليه بقلبه وأن يتوب عليه ـ فلما أتت الرجل جعل يقرأها ويقول غافر الذنب قد وعدني الله أن يغفر لي وقابل التوب شديد العقاب قد حذرني عقابه ذي الطول الطول الخير الكثير إليه المصير فلم يزل يرددها على نفسه حتى بكى ثم نزع فأحسن النزع ـ فبلغ عمر أمره فقال هكذا فاصنعو إذا رأيتم أخا لكم زل زلة فسددوه ووفقوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه ـ وعن قتادة قال كان شاب بالمدينة صاحب عبادة وكان عمر محباً له فانطلق إلى مصر ففسد فجعله يمتنع من شر فقدم إلى عمر بعض أهله فسأله حتى سأله عن الشاب فقال لا تسألني عنه قال لم قال إنه فسد وخلع فكتب إليه عمر إلى فلان حٰمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم الآية فجعل يقرأها على نفسه فأقبل بخير وعن أبي إسحاق السبيعي قال جاء رجل إلى عمر فقال يا أمير المؤمنين إني قتلت فهل لي من توبة فقرأ عليه حٰمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب وقال اعمل ولا تيأس ـ ١٢ ـ منه نوّر الله مرقده ـ.

والبيضاوي هي كلها صفات كالأولين والإضافة فيها حقيقية لما ذكرنا أنه لم يرد زمان مخصوص وأريد بشَدِيدِ العقاب مشددة فالإضافة فيه أيضاً حقيقية إذ هو في الأصل الشديد عقابه فحذف اللام للازدواج والأمن من اللبس فهو معرف باللام وجعله وحده بدلاً مشوش للنظم وقال الزجاج شديد العقاب بدل ليس بصفة وبه قال صاحب المدارك للقطع بكونه نكرة وحذف اللام لا يجوز وعلى هذا ذي الطول أيضاً بدل، وما قال البيضاوي أولى من حيث المعنى لأن كلها توابع تدل على معانٍ في متبوعها أوردت للمدح والترغيب والترهيب والحثّ على ما هو المقصود منه والمقصود بالنسبة إنما هو الله لا غير ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإقبال الكلي على عبادته، قال صاحب المدارك هذا صفة أخرى كذِي الطول والظاهر أنه استئناف ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيجازي المطيع والعاصي.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي في دفع آيات الله بالتكذيب أو إثبات التناقض أو في الآيات المتشابهات بتأويلات مخالفة للمحكمات أو مخالفة لما تواتر عن النبيّ ﷺ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتمارون(١) في القرآن فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم فقولوه وما جهلتم فوكلوه إلى عالمه»(٢) رواه البغوي ورواه مسلم بلفظ أن عبد الله بن عمرو (يعني جد عمرو بن شعيب) قال «هَجَّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب»(٣) وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال «إن جدالاً في القرآن كفر»(٤) رواه البغوي ورواه البيهقي في شعب الإيمان والطيالسي من حديث عبد الله بن عمر ورواه أبو داود والحاكم وصححه عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «المراء في القرآن كفر»(٥) قال البيضاوي لما حقق الله سبحانه أمر التنزيل سجل بالكفر على المجادلين فيه بالطعن وإدحاض الحق كقوله ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥] فأما الجدال(٦) فيه لحل عقدة واستنباط حقائق وقطع تشبث أهل الزيغ وقطع مطاعنهم فيه فمن أعظم الطاعات ولذلك قال عليه السلام «إن

---

(١) أي: يتجادلون.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٨٥، وابن كثير في تفسير ٢/ ٩، ٩/ ٦٧، والبغوي في تفسيره ١/ ٢٦٠.

(٣) أخرجه مسلم في العلم حديث ٢، وأحمد في المسند ٢/ ١٩٢.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٥٨، ٤٧٨، ٤٩٤.

(٥) أخرجه أبو داود في السنة باب ٤.

(٦) قال في النهاية إنما جاء هذا في الجدال والمراء في الآيات التي ذكر فيها القدر ونحوه من المعاني على مذهب أهل الكلام وأصحاب الأهواء والآراء دون ما تضمنه من الأحكام وأبواب الحلال والحرام فإن ذلك قد جرى من الصحابة فمن بعدهم من العلماء وذلك فيما يكون الغرض منه والباعث عليه ظهور الحق ليتبع دون الغلبة والتعجيز ـ ١٢ ـ منه نوّر الله مرقده ـ.

جدالاً في القرآن كفر» بالتنكير مع أنه ليس جدالاً فيه على الحقيقة ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ يا محمد ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ يعني إمهالهم وإقبالهم في دنياهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة.

أخرج ابن أبي حاتم عن السديّ عن أبي مالك أنه قال نزلت في الحارث بن قيس السهمي يعني أنهم مؤاخذون عن قريب بكفرهم كالذين قبلهم كما قال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح كعاد وثمود يعني كذبوا نوحاً وغيره من الرسل هذه معللة بقوله ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ منهم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ قال ابن عباس أي ليقتلوه ويهلكوه وقيل ليأسروه والعرب تسمي الأسير أخيذاً ﴿وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ أي بمثل قولهم ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] و﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] ونحو ذلك ﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾ أي ليزيلوا ويبطلوا ﴿بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك جزاءً لهمهم عطف على جادلوا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عقابي فإنكم تمرون على ديارهم وترون أثره والاستفهام للتقرير والتعجيب ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وجوباً مثل وجوب إهلاكهم في الدنيا ﴿حَقَّتْ﴾ أي وجبت في الآخرة ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أو المعنى كما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة السابقة كذلك حقت كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ من قومك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بدل من كلمة ربك بدل الكل على قراءة كلمة ربك وبدل البعض على قراءة كلمات أو بدل الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى، وقال الأخفش تقديره لأنهم وبأنهم أصحاب النار.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ أي الطائفون به وهم الكروبيون وهم سادة الملائكة، قال ابن عباس حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمس مائة عام، ويروى أن أقدامهم في تخوم[1] الأرضين والأرضون والسماوات إلى حجزتهم وهم يقولون سبحان العزة والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت وسبحان الحي الذي لا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وقال ميسرة بن عبد ربه أرجلهم في أرض السفلى ورؤوسهم تحت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من التي تليها والتي تليها أشد خوفاً من التي تليها، وقال مجاهد بين الملائكة والعرش سبعون حجاباً من نور وروى محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام»[2] رواه أبو داود والضياء بسند صحيح، وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال إن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطير المسرع ثلاثين ألف سنة والعرش يكسى كل يوم سبعون ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من

(١) أي: حدودها ومعالمها.
(٢) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٨، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦، ٦/ ١١٧.

خلق الله والأشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة، وقال مجاهد بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب حجابٌ من نور وحجاب من ظلمة وحجاب من نور وحجاب من ظلمة، وقال وهب بن منبه إن حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش يقبل هؤلاء ويقبل هؤلاء فإذا استقبل بعضهم بعضاً هلَّل هؤلاء وكبر هؤلاء ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام أيديهم إلى أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم فإذا سمعوا تكبير أولئك وتهليلهم رافعوا أصواتهم فقالوا سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك أنتَ الله لا إله غيرك أنتَ الأكبر الخلق كلهم راجعون إليك، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنىٰ على اليسرى ليس منهم أحد إلا وهو يسبح بتحميدة لا يسبحه الآخر ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلاث مائة عام وما بين شحمة أذنه إلى عاتقه أربع مائة عام، واحتجب الله من الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجاباً من نار وسبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور وسبعين حجاباً من در أبيض وسبعين حجاباً من ياقوت أحمر وسبعين حجاباً من ياقوت أصفر وسبعين حجاباً من زبرجد أخضر وسبعين حجاباً من ثلج وسبعين حجاباً من ماء وسبعين حجاباً من برد وما لا يعلمه إلا الله تعالى، قال ولكل واحد من حملة العرش ومن حوله أربعة وجوه وجه ثور ووجه أسد ووجه نسر ووجه إنسان ولكل واحد منهم أربعة أجنحة أما جناحان فعلى وجهه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق وأما جناحان فيهفو بهما كما يهفو هذا الطائر بجناحيه إذا حركه ليس لهم كلام إلا التسبيح والتحميد والتكبير والتمجيد.

﴿يُسَبِّحُونَ﴾ الله أي يذكرونه بمجامع الثناء من صفات الجلال والإكرام متلبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال البيضاوي جعل التسبيح أصلاً والحمد حالاً لأن الحمد مقتضى حالهم دون التسبيح ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي يصدقون بأنه تعالى موجود واجب وجوده خالق للأشياء كلها أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أخبر الله تعالى عنهم بالإيمان إظهاراً لفضله وتعظيماً لأهله وإيماءً بأن الملائكة في العبودية والعجز والإيمان بالغيب كسائر الخلائق لا كما تزعم الكفار أنهم بنات الله وردّاً على المجسّمة، عن شهر بن حوشب قال: حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك وأربعة منهم يقولون سبحانك اللَّهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك قال فكأنهم يرون ذنوب بني آدم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه تنبيه على أن المشاركة في الإيمان يوجب النصح والشفقة، وإن تخالف الأجناس لأنها أقوى المناسبات كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون ربنا وجملة يقولون مع ما في حيزه حال من فاعل يستغفرون ﴿كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي وسعت كل شيء رحمتُك وعلمُك فأزيل عن أصله للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم والمبالغة في عمومها وقدم الرحمة لأنها المقصودة بالذات هاهنا ﴿فَٱغْفِرْ﴾ الفاء للسببية فإن سعة الرحمة سبب للمغفرة ﴿لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ أي رجعوا عن الكفر إلى الإسلام ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي دينك الذي بعثت به

رسلك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي احفظهم عنه، تصريح، بعد إشعار للتأكيد، قال مطرف أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة وأغش الخلق لهم الشياطين ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[١] أي إقامة ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ إياها ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ من صلح عطف على هم في أدخلهم ولما وعدتهم يعني وعدتهم ووعدت من صلح من آبائهم، ولعل المراد بالصلاح هاهنا نفس الإيمان فإن المؤمن صالح لدخول الجنة وإن كان مرتكباً للكبائر بغفران الله تعالى فإن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء، وإنما قلنا ذلك ليتحقق التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه ولو كان المراد بالصلاح صلاح العقائد والأعمال والأخلاق جميعاً كان من صلح داخلاً في الذين تابوا واتبعوا سبيل الله والله أعلم.

قال البغوي قال سعيد بن جبير يدخل المؤمن الجنة فيقول أين أبي أين أمي أين ولدي أين زوجي؟ فيقال إنهم لم يعملوا مثل عملك فيقول إني كنتُ أعمل لي ولهم فيقال أدخلوهم الجنة وهذا موقوف في حكم المرفوع وصريح في أن المراد بالصلاح في الآية نفس الإيمان ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يقدر على كل شيء ولا يمتنع عنه ما أراد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، ومن ذلك الوفاء بالوعد ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي العقوبات أو جزاء الأعمال السيئة وهذا تعميم بعد تخصيص أو مخصوص عن من صلح أو المعنى وقهم السيئات أي عن الأعمال السيئة في الدنيا ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم الجزاء أو في الدنيا ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ دليل على جزاء الشرط المحذوف أقيم مقامه تقديره ومن تق السيئات يفلح إذ قد رحمته ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي الرحمة أو الوقاية أو مجموعهما ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فإن قيل أيُّ فائدة في سؤال الملائكة للمؤمنين بإدخال الجنة بعد ما وعدهم الله تعالى به واستحالة الخلف في وعد الله وكذا في سؤال المؤمنين للنبي ﷺ بقوله «اللَّهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقاماً محمودا الذي وعدتّه»؟[٢] قلتُ الباعث على الدعاء حبهم إياهم لما ألقى الله تعالى في قلوبهم وفائدته استجلاب مزيد رحمة الله للمدعو لهم واستجلاب رضوان الله ورحمته للداعين لأجل المحبوبين لله تعالى والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ

---

(١) عن قتادة أنه قال إن عمر بن الخطاب قال يا كعب ما عدن قال قصور من ذهب في الجنة يسكنها النبيون والصديقون دائمة العدل ـ ١٢ ـ منه رحمه الله ـ.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان باب ٨، وتفسير سورة ١٧، باب ١١، وأبو داود في الصلاة باب ٣٧، والترمذي في الصلاة باب ٤٣، والنسائي في الأذان باب ٣٨، وابن ماجه في الأذان باب ٤.

مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ
لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ
﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ
﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا
يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ
ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ
فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ
وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى
عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى آخره متصل بقوله: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وما بينهما معترضات في مدح الملائكة الموصوفين بالإيمان المستغفرين للمؤمنين الذين هم أعداء الكافرين ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي يناديهم خزنة النار يوم القيامة وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم الأمارات بالسوء حين عرض عليهم سيئاتهم وعاينوا أجزاءها فيقال لهم ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ظرف لفعل دل عليه المقت الأول لا له لأنه مصدر وخبره ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ﴾ فلا تعمل في إذ تدعون لأن المصدر إذا أخبر عنه لم يجز أن يتعلق شيء يكون في صلته لأن الإخبار عنه يؤذن بتمامه وما يتعلق به يؤذن بنقصانه ولا للمقت الثاني لأنه عند حلول العذاب أو تعليل للحكم وزمان المقتين واحد ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا﴾ موتتين ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ أو مرتين ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي خلقتنا أمواتًا نطفًا في أصلاب الآباء ثم أحييتنا في أرحام الأمهات في الدنيا ثم أمتنا عند انقضاء الآجال ثم أحييتنا يوم القيامة كذا قال ابن عباس وقتادة والضحاك ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وقال السديُّ معناه أمتَّنا في الدنيا ثم أحييتنا في القبر للسؤال ثم أمتَّنا في القبر ثم أحييتنا يوم البعث، ومبنى هذا القول الزعم بأن الإماتة تقتضي الحياة قبل الموت، وهذا ليس سليماً لأن الإماتة جعل الشيء عديم الحياة ابتداء أو بالتصير كما قيل سبحان من صغر البيض وكبر الفيل وإن خص بالتصيرُّ فاختيار الفاعل أحد مفعوليه بأحد الوصفين تصيرٌ وصرف له عن الآخر والسؤال في القبر لا يستدعي حياةً مثل حياة الدنيا ولو استدعى ذلك لاستدعى عذاب القبر أيضاً مثل ذلك، ولزم انقطاع عذاب القبر عن الكفار إذا أميتوا في القبر بعد السؤال وليس كذلك ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ الفاء للسببية ولما كان سبب اعترافهم معاينتهم الحياة الثانية بعد الموت الثانية جعل

مجموع الموتتين والحياتين سبباً له ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ واحد أو نوع من الخروج من النار سريع أو بطيء ورجوع إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ طريق فنسلكه استفهام ومعناه التمني فيُنَادَونَ لا سبيل لكم إلى الخروج فحذف هذه الجملة لما يدل عليه قوله ﴿ذَٰلِكُم﴾ ويعني انتفاء سبيل للخروج وما أنتم فيه من العذاب ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ أي بسبب أنه ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ أي متوحداً أو توحد وحده فحذف الفعل وأقيم مقامه في الحالية ﴿كَفَرْتُمْ﴾ يعني إذا قيل لا إله إلا الله أنكرتم وقلتم ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ غيره ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ تصدقوا بالإشراك وإذا كان هذا سبباً لدخولكم في النار ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ يعني هذا الحكم لله خاصةً الذي هو المستحق للعبادة المنزه عن الشريك وهو قد حكم عليكم بالعذاب الشديد الدائم بسبب كفركم ولو كان له شريك مما عبدتموها أنجاكم من عذابه وكان لكم حينئذ سبيل إلى الخروج ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ من أن يشرك ويسوي به غيره.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على التوحيد وسائر ما يجب أن يعلم ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي مطراً يكون سبباً لرزقكم فيه رد لمعذرتهم بالجهل بعد رؤية ما كان صالحاً للاستدلال على التوحيد ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلى الله ويرجع عن التعصب والعناد وهذه الجملة مبتدئة خطاب للنبي ﷺ بعد ما تم الجواب لأهل النار ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يعني إذا سمعتم ما يؤول إليه أمر المشركين ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الطاعة والعبادة من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعني وإن غاظ ذلك أعداءكم الكافرين ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي رفيع درجات كماله بحيث لا يظهر بجنبها كمال، وقيل الرفيع هاهنا بمعنى رافع درجات أنبيائه في مراتب القرب إليه وفي الجنة بعضها فوق بعض ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكه ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي ينزل الوحي سماه روحاً لأنه يحيي به القلوب كما يحيي الأبدان بالأرواح ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ قال البغوي قال ابن عباس يعني من فضله فمن للابتداء، وقيل من قوله فمن للبيان ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ الثلاثة كلها أخبار لهو مترادفة لموصول دالة على توحيده وعلو صمديته وتمهيد للنبوة وإخبار مبتدأ محذوف أي هو ﴿لِيُنذِرَ﴾ متعلق بيلقي والمستكن فيه لله أو للروح أو لمن وهو أظهر وأقرب، ويؤيده قراءة يعقوب(١) بالتاء للخطاب أي لتنذر أنتَ يا محمد وحذف المفعول للدلالة على عموم دعوته وشمول إنذاره الثقلين ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي يوم يلتقي فيه الخلائق كلها أهل السماوات والأرض، وقال مقاتل وقتادة يوم يلتقي فيه الخالق والخلائق وقال ميمون بن مهران يلتقي فيه الظالم والمظلوم والخصوم، وقيل يلتقي العابدون والمعبودون، وقيل المرء مع عمله، أخرج الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال عن ابن عباس أنه قرأ ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] قال يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والسباع والطير فتشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من

(١) لا بل عن الحسن بالتاء ـ أبو محمد ـ.

الجن والإنس الحديث بطوله ذكر فيها نزول أهل السماوات السبع بعضهم عقيب بعض ونزول الله تعالى وهو من المتشابهات وذكرنا تأويلها في سورة الفرقان في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] وفي سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي خارجون من قبورهم، أو ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء أو ظاهرة نفوسهم لا يحجبهم غواشي الأبدان أو ظاهرة أعمالهم وسرائرهم ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ﴾ أي من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم ﴿شَىْءٌ﴾ تقرير لقوله ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم وذلك بعد فناء الخلق قبل البعث وحينئذ لا يكون أحد يجيبه فيجيب نفسه ويقول ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ﴾ المتوحد في جلال الذات وكمال الصفات المنزه عن الشريك في الألوهية وفي شيء من الممكنات ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ الذي قهر الخلق بالموت وبالتصرف فيها بما أراد.

رواه يعني كون السؤال والجواب من الله بعد فناء الخلق قبل البعث أبو هريرة في حديث طويل عن النبيّ ﷺ رواه الطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وغيرهم وأخرج ابن أبي داود في البعث عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ قال: «ينادي منادٍ بين الصيحة يا أيها الناس أتاكم الساعة ومدَّ بها صوته يسمعها الأحياء والأموات وينزل الله إلى السماء الدنيا ثم ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار»(١) وأخرج البيهقي عن أنس رفعه في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩] الآية فكان ممن استثنى الله ثلاثة جبرئيل وميكائيل وملك الموت فيقول الله (وهو أعلم) يا ملك الموت من بقي؟ فيقول وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرئيل وميكائيل وملك الموت، فيقول توف نفس ميكائيل، ثم يقول (وهو أعلم) يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرئيل وملك الموت، فيقول توف نفس جبرئيل ثم يقول (وهو أعلم) يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك ملك الموت وهو ميت، فيقول مت ثم ينادي أنا بدأتُ الخلق ثم أعيده أين الجبارون المتكبرون ثم ينادي لِمنَ المُلْكُ اليومَ، فلا يجيبه أحد فيقول هو لله الواحد القهار ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وسياق الآية يقتضي أنه حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم بعد إحياء الخلق ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أو حكاية لما دل عليه ظاهر الحال في ذلك الوقت من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط وسلب الإضافة المجازي للملك والحُكم إلى غيره تعالى وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائماً ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني حين يسلب الملك المجازي من غيره تعالى ويكون الملك خاصة له ظاهراً كما هو له خاصة دائماً على الحقيقة ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب بناءً على الوعد ولأن الحاكم حينئذ هو الله وحده ولا يتصور منه الظلم لأن الظلم ما يفعله

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٤٨.

أحد في غير ملكه بلا إذن مالكه وكل ما يفعله الله يفعله في ملكه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يحاسب الناس كلهم في قدر نصف يوم من أيام الدنيا بناءً على مشيئته وإلا فهو قادر على أن يحاسبهم دفعة في آن واحد إذ لا يشغله شأن عن شأن.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ عطف على الأخبار السابقة بتقدير يقال لك أنذرهم ﴿يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾ أي القيامة سمّيَت بها لإزوَافها أي قربها إذ كل ما هو آتٍ قريب ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ إذ بدل من يوم الآزفة ﴿لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ فإنها ترفع عن أماكنها من شدة الهول فتلتصق بحلوقهم فلا يعود حتى يترحوا ولا يخرج فيموتوا ﴿كَٰظِمِينَ﴾ مكروبين ممتلئين خوفاً وحزناً والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى تطيق به، القُلوُبُ مبتدأ ولَدَى الحَنَاجِرِ خبره والكاظمين حال من القلوب محمول على أصحابها وإنما جمع الكاظم جمع السلامة لأنه وصف بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين والضمائر إن كانت للكفار كان هذا وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي قريب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع مشفع لا مفهوم للوصف، إذ لا شفيع لهم أصلاً فما لهم من شافعين أوله مفهوم على زعمهم أن لهم شفعاء أي لو شفعوا فرضاً لا تقبل شفاعتهم ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي النظرة الخائنة كالنظرة إلى من حرم النظر إليها واستراق النظر إليها أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة يعني يعلم خيانة الأعين الجملة خبر آخر لهو في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ١٣] ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ من الضمائر، قيل يعني ما يتفكر الرجل بقلبه في جمال امرأة أجنبية بعدما ينظر إليها بشهوة مسارقةً ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه المالك على الإطلاق والحكيم والعليم بما ظهر وما بطن فلا يقضي إلا بما يقتضيه علمه وحكمته ولا يقضي إلا وهو حقه والجملة عطف على يعلم ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ قرأ نافع وهشام بالتاء للخطاب على الالتفات أو بإضمار قل والباقون بالياء للغيبة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان والشياطين والملوك الجبابرة ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لعدم قدرتهم على القضاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه بخائنة الأعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه بأنها لا تسمع ولا تبصر.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ عطف على محذوف تقديره أينكرون وبال الكفر ولم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ أي ما آل إليه أمر ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة للرسل كعاد وثمود ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة وتمكناً جيء بالفصل لمشابهة أفعل من بالمعرفة في امتناع دخول اللام عليه، قرأ ابن عامر أشد منكم على الالتفات ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من القلاع والمدائن الحصينة، وقيل المعنى أكثر آثاراً كقوله متقلداً سيفاً ورمحاً ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأهلكهم بالريح أو الصيحة أو نحو ذلك ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يمنع عنهم من العذاب، حيث لم يلتجئوا إليه، الجملة عطف أو حال ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات أو الأحكام الواضحات الصحة والصلاح ﴿فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ قادر على كل ما يريد غاية القدرة ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

أي شديد عقابه الجملة تعليل للأخذ القوي.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي المعجزات التسع ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة ظاهرة العطف لتغاير الوصفين أو لإفراد بعض المعجزات كالعصا تفخيماً لشأنه وتخصيصاً بعد تعميم ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعنون موسى عليه السلام تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وبيان لعاقبة بعض من كان قبلهم من الذين كانوا أشد بطشاً وأقرب زماناً ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي أعيدوا عليهم القتل ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟﴾ أي استبقوا ﴿نِسَآءَهُمْ﴾ كما كنتم فعلتم ذلك أولاً كي يصدوا عن مظاهر موسى عليه السلام ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل على كفرهم ولتعميم الحكم والدلالة على العلة ﴿إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي في ضياع فإنهم أرادوا إبطال أمر موسى فرد الله عليهم كيدهم وأهلكم وجعل موسى ومن تبعه ملوك الأرض ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه ﴿ذَرُونِىٓ﴾ قرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وقال البغوي، إنما قال هذا لأنه كان في خاصة قوم فرعون من يمنعه من قتل موسى خوفاً من الهلاك كانوا يقولون إنه ليس الذي تخافه بل هو ساحر ولو قتلتَه لظن الناس أنك عجزتَ عن معارضته بالحجة، قال البيضاوي فيه دليل على أنه تيقن بنبوة موسى فخاف من قتله أو ظن وأنه لو حاوله لم يتيسر له ويؤيده قوله ﴿وَلْيَدْعُ﴾ موسى ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منا فإنه تجلد وعدم مبالاة بدعائه، وكان قوله ذَرُوني أقتلُ مُوسٰى تمويهاً على قومه وإيهاماً بأنهم هم الذين يكفونه عن قتله وما كان يكفه إلا ما استقر في قلبه من هول أمر العصا ﴿إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كقير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي يغير ما أنتم عليه من عبادة الأصنام لقوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ قرأ يعقوب وأهل الكوفة أو ان والآخرون وأن وقرأ أهل المدينة والبصرة يُظهر بضم الياء وكسر الهاء من الإفعال والفساد بالنصب على المفعولية، والباقون بفتح الياء والهاء من المجرد ورفع الفساد على الفاعلية وأراد بالفساد تبديل الدين وعبادة الأوثان أو ما يفسد للدنيا من التجارب والتهارج.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لقومه لما توعده فرعون بالقتل ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدر الكلام بأنَّ تأكيداً وإشعاراً على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية وإضافته إليه وإليهم لأن حفظ موسى متضمنٌ ومتكفل لحفظهم أجمعين وحثّاً لهم على موافقته في الاستعاذة لما في تظاهر الأزواج من استجلاب الإجابة، ولم يذكر فرعونَ وذكر وصفاً يعمه وغيره لتعميم الإستعاذة ورعاية الحق والدلالة على الحامل له على الشر، وجاز أن يكون هذا خطاباً لفرعون وقومه وفي قوله رَبّكُم تنبيهٌ على التوحيد وإنكارٌ على إشراكهم.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى

يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن
يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾
وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ
مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ
كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى
لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى
تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ قال مقاتل والسديُّ كان قبطياً ابن عم فرعون وهو الذي حكى الله عنه في سورة القصص ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠] قيل كان اسمه حبيب وقال قوم كان إسرائيلياً ومجاز الآية وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون وكان اسمه جزئيل على ما روي عن ابن عباس وأكثر العلماء، وقال ابن إسحاق كان اسمه خبول ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أي تقصدون[1] قتله ﴿أَن يَقُولَ﴾ أي لأن يقول أو وقت أن يقول من غير رؤية وتأمل في أمره أو مخافة أن يقول ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ وحده وهو في الدلالة على الحصر مثل صديقي زيد ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الكثيرة الشاهدة على صدقه ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ حيث لا يقدر على إتيان تلك المعجزات إلا الذي خلقكم فإنه قادر على كل شيء دون غيره وأضاف الربَّ إليهم اشعاراً بأنه من خلقكم ورباكم قادر على أن يأخذكم بالعذاب، والجملة حال من فاعل يقول. ثم أخذ الرجل القائل بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ كما زعمتم ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطاه وبال كذبه حتى يحتاج في دفعه إلى قتله ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ كما تدل عليه المعجزات والشواهد ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فلا أقل أن يصيبكم بعضه وذلك البعض يكفي لهلاككم ففيه مبالغة في التحذير وإظهار الإنصاف وعدم التعصب ولذلك قدم كونه كاذباً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج ثالث ذو وجهين: أحدهما أنه لو كان مسرفاً لما

---

(١) عن علي أنه قال أيها الناس أخبروني بأشجع الناس قالوا لا نعلم قال أبو بكر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ قريش فهذا يجبئه وهذا يتلتله وهم يقولون أنت الذي جعلت الآلهة إلاهاً واحداً قال فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا يجبئه وهذا يتلتله وهو يقول ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ثم رفع عليٌ بردة كانت عليه فبكى حتى ابتلت لحيته ثم قال أنشدكم مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه ـ ١٢ ـ منه نوّر الله مرقده ـ ١٢ ـ.

هداه الله إلى البينات ولما عضده بالمعجزات وثانيهما إنه كان مسرفاً كذاباً خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله ولعله أراد به المعنى الأول وخيَّل إليهم الثاني ليلين شكيمتهم وتعريض به لفرعون بأنه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب والنجاة. عن عروة بن الزبير قال: قلتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: «بينا رسول الله ﷺ يصلّي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكبي رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر(١) فأخذ بمنكبيه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»(٢) رواه البخاري، ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين عالين حال من كم في لكم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض مصر ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ يعني لكم الملك والغلبة في الأرض فلا تبطلوا ملككم، وغلبتكم بالتعرض لعذاب الله بقتل نبيه فإنه إن جاءنا لا يمنعنا منه أحد، أدرج نفسه في الضمير لأنه كان منهم في القرابة وليريهم أنه معهم ومساهمهم فيما ينصح لهم ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ﴾ من الرأي أي ما أشيركم، وقال الضحاك ما أعلمكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أراه وأعلمه صواباً يعني قتله ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ طريق الصواب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾ في تكذيبه والتعرض له ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ تقديره إني أخاف عليكم عذاباً مثل عذاب يوم الأحزاب أي أيام الأحزاب يعني الأمم الماضية المكذبة للرسل وجمع الأحزاب مع التفسير الذي بعده أغنى عن جمع اليوم أو المعنى عذاب يوم حزب من الأحزاب ﴿مِثۡلَ﴾ جزاء ﴿دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ كقوم لوط ونمرود الجبار أي مثل جزاء ما كان عادتهم من التكذيب وإيذاء الرسل، وهذه الآية تدل على أنه كان في قوم فرعون علم بالأولين ﴿ ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ اللام زائدة لتقوية عمل المصدر والعِبَاد مفعول لظُلْماً يعني لا يريد أن يظلم عبداً فيعاقبهم بغير ذنب أو يترك الظالم منهم بغير انتقام أو ينقص من أجر حسنة لأحد أو يزيد في عقوبة أحد وبعدما خوَّفهم بعذاب الدنيا خَوَّفهم

---

(١) وعن عمرو بن العاص قال ما تنول من رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما طاف بالبيت فلقوه حين فرغ فأخذوا بمجامع ردائه وقالوا أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا فقال أنا ذاك فقام أبو بكر فالتزمه من ردائه ثم قال اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم إن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب رافعاً صوته بذلك وعيناه تسيحان حتى أرسلوه ـ وعن أنس بن مالك قال قد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله قالوا من هذا قالوا هذا ابن أبي قحافة ـ ١٢ ـ منه رضي الله عنه ـ.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٥، ومناقب الأنصار باب ٢٩، وتفسير سورة ٤٠، باب ١، وأحمد في المسند ٢/ ٢٠٤.

بعذاب الآخرة فقال ﴿يَـٰقَوۡمِ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع[١] وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ قرأ ابن كثير[٢] التَّنَادِي وصلاً ووقفاً بإثبات الياء وورش[٣] وصلاً فقط واختلف فيهما عن قالون[٤] والباقون بحذف الياء في الحالين ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ بدل من يوم التناد، قال مجاهد يعني فارّين غير معجزين، قيل المراد منه يوم ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قبل نفخة الصعق لما روى ابن جرير في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وعبد بن حميد وأبو الشيخ في كتاب العظمة عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ حديثاً طويلاً وذكر فيه ثلاث نفخات، قال: «فيأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول الله تعالى انفخ نفخة الفزع فينفخ فيفزع أهل السماوات والأرض إلا ما شاء الله فيأمره فيمدها فيطيلها ولا يفتر إلى أن قال فتذهل المراضع عمّا أرضعت وتضع الحوامل وتشيب الولدان وتطير الشياطين هاربةً من الفزع حتى تأتي الأقطار فتتلقتها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع وتولى الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً وهو الذي يقول الله يوم التناد»[٥] الحديث.

وقيل المراد يوم القيامة إذا دعي كل أناس بإمامهم أخرج أبو نعيم عن أبي حازم الأعرج رضي الله عنه أنه قال (يخاطب نفسه) يا أعرج ينادي يوم القيامة يا أهل خطيّات كذا كذا فتقوم معهم ثم ينادي يا أهل خطيّاتٍ أخرى فتقوم معهم فأراك يا أعرج تريد أن تقوم مع أهل خطيئة، وأخرج ابن أبي عاصم في السنة عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ألا ليقم خصماء الله (وهم القدرية) وإذا يُنادي أصحاب الجنة أصحاب النار وأصحابُ النار أصحاب الجنة وينادي أصحابُ الأعراف كما حكى الله تعالى في سورة الأعراف وإذا ينادى بالسعادة والشقاوة ألا إن فلان ابن فلان سعد سعادةً لا يشقى بعدها أبداً ألا إن فلان بن فلان شقي شقاوةً لا يسعد بعدها أبداً»[٦] أخرج البزار والبيهقي عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «يؤتى بابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتي الميزان ويوكّل به ملَك فإن ثقلت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعدَ فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبداً وإن خفت موازينه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوةً لا يسعد بعدها أبداً، وإذا ينادي ألا إني جعلتُ نسباً وجعلتم نسباً»[٧] أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا إني جعلتُ

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٢) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.
(٣) وابن وردان ـ أبو محمد ـ.
(٤) والحذف منه أقوى ـ أبو محمد ـ.
(٥) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١/١٤٨.
(٧) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

نسباً وجعلتم نسباً فجعلتُ أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان خير من فلانِ بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون، وإذا ينادى حين يذبح الموت يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت»[١] أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر قال قال النبيّ ﷺ: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي منادي يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم وأهل النار حزناً إلى حزنهم»[٢] وعن أبي سعيد نحوه وعند الحاكم وابن حبان عن أبي هريرة نحوه.

وقرأ ابن عباس والضحاك يَوْمَ التَّنَادّ بتشديد الدال أي يوم التنافر وذلك لأنهم هربوا فندوا في الأرض كما تند الإبل إذا شردت عن أربابها، أخرج ابن جرير وابن المبارك عن الضحاك قال إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها فتكون الملائكة على حافتها حين يأمرهم الربُّ فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفوا صفاً دون صف ثم ينزل الملك الأعلى بجنبته اليسرى جهنم فإذا رآها أهل الأرض نَدُّوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا إلى المكان الذي كانوا فيه، وذلك قول الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣].

وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ [الفجر: ٢٢، ٢٣] وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾ [الرحمن: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ [الحاقة: ١٦ - ١٧] يعني ما تشقق منها فبينما كذلك إذا سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب، وقيل معنى قوله تعالى يوم تولون مدبرين يوم تولون منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ يعصمكم من عذابه يعني غير الله لا يقدر على دفع عذاب الله قطعاً وإنما يدفع عذاب الله رحمته ولا يكون لهم من الله رحمة تعصمهم من عذابه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يضله عن طريق الجنة ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ إليه.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام على أن فرعونه فرعون موسى طال عمره أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد يعني جاء آباءكم يوسف، وقيل المراد يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام أرسل إليهم ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي قبل موسى ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ قال ابن عباس من عبادة الله وحده مخلصاً له الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ أي مات يوسف عليه السلام

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١/ ٢٣٠، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١، ١٣٨، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٨٤، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٦١٩.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٥١، ومسلم في الجنة حديث ٤٣.

﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ أي أقمتم على كفركم وزعمتم أن الله لا يجدد عليكم الحجة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي إضلالاً مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ في العصيان ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مشرك ﴿مُّرْتَابٌ﴾ أي شاك فيما يشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الموصول الأول، لأنه بمعنى الجمع ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ حجة واضحة بل إما بتقليد أو شبهة داحضة ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ من عند الله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ فيه ضمير من وإفراده نظراً إلى لفظه ويجوز أن يكون الذين مبتدأ وخبره كَبُرَ على حذف مضاف تقديره وجدال الذين يجادلون في آيات الله كبر مقتاً والذين مبتدأ وخبره بغير سلطان وفاعل كبر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على أن كاف اسم بمعنى مثل أي كبر مقتاً مثل ذلك الجدال فيكون قوله ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ استئنافاً للدلالة على موجب جدالهم وجاز أن يكون المعنى كذلك مثل إضلالهم يطبع الله، أي يختم بالضلال ويوثق ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ بحيث لا يدخله نور الإيمان قرأ أبو عمرو وابن ذكوان قلب بالتنوين على وصفه بالتكبر والتجبر لأنه صنيعهما كقولهم رأت عيني وسمعت أذني، أو على حذف المضاف تقديره على قلب كل ذي قلب متكبرٍ جبار والباقون بالإضافة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لوزيره هامان ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي بناءً عالياً لا يخفى على الناظر وإن بعد، ومنه التصريح بمعنى الإظهار ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أي الطرق ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي طرقها وأبوابها من سماء إلى سماء وكل ما يؤدي إلي شيء فهو سبب له كالرشاء والدلو للماء وأسباب الثاني بيان للأول وفي إيضاحها بعد إبهامها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ قرأ حفص بالنصب على جواب لعل بالفاء والباقون بالرفع عطفاً على أبلغ ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ الظاهر أنه أمر بالبناء كبناء نمرود وذكرناه في سورة النمل، وقال البيضاوي لعله أراد أن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله تعالى إياه، أو أن يرى الناس فساد قول موسى بأن إخباره من إله السماء توقف على اطلاعه ووصوله إليه وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء وهو ممَّا لا تقوى عليه الإنسان وذلك لجهله بالله وكيفية استنبائه ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ في دعوى الرسالة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي تزييناً مثل ذلك التزين يعني تزيين بناء الصرح للاطلاع على رب السماوات ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي كل عمل سيىء يأباه العقل السليم يعني أفسد الله بصيرته، فكان يرى كل عمل سيىء حسناً ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ سبيل الرشاد، قرأ الكوفيون ويعقوب بضم الصاد على البناء للمفعول والفاعل على الحقيقة هو الله سبحانه يُضِلُّ مَنْ يَشاء ويهدي من يشاء والباقون بفتح الصاد يعني صَدَّ فرعونُ الناسَ عن الهدى بأمثال هذه الشبهات والتمويهات، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ في إبطال أمر موسى ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي في خسار وضياع.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ

ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ
صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾
۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا
لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى
ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ
لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ
بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ
قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ
ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟
ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ
﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ من آل فرعون ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ قرأ ابن كثير[1] اتبعوني بإثبات الياء في الحالين وقالون وأبو عمرو[2] وصلاً فقط والباقون بحذف الياء في الحالين ﴿أَهْدِكُمْ﴾ أي أدلكم ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي سبيلاً يوصل سالكه إلى المقصود وفيه تعريض إلى أن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغيّ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ يسير يتمتعون بها مدة يسيرة ثم ينقطع ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ التي لا تزول فعليكم بما ينفعكم في الآخرة ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي في حال الإيمان فإن الإيمان شرط لجزاء كل عمل صالح لأن الله تعالى هو المالك للجزاء فلا بد للإيمان به على ما يرتضيه حتى يجزي ما عمل لوجهه خالصاً ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير وموازنة للأعمال بل إضعافاً مضاعفة فضلاً منه ورحمةً ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ﴾ قرأ الكوفيون[3] وابن ذكوان بسكون الياء والباقون بفتحها، والمعنى ما لكم كما تقول ما لي أراكم حزيناً يعني أخبروني كيف حالكم على خلاف ما يقتضيه العقل والعرف ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ من النار بالإيمان بالله وحده ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي إلى الشرك الذي يوجب النار، كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سنَةِ الغفلة واهتماماً بالمناولة ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه، لم يعطف النداء الثاني على الأول لأنه بيان لما قبله وعطفه الثالث على الثاني أو على الأول ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدل من

(١) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.
(٢) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٣) ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

تدعونني الأول أو بيان منه تعليل والدعاء يعدى بإلى وباللام كالهداية ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ﴾ أي بربوبيته ﴿عِلْمٌ﴾ بل عندي دليل قاطع على امتناعه ولا بد للإيمان من برهان على وجوده وربوبيّته ولا يصح الاعتقاد إلا عن إيقان ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب القادر على الانتقام ممن كفر به ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ لذنوب من شاء ممن آمن به فهو المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة والعلم والإرادة.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قيل لا في لا جرم رد لما دعوه إليه من عبادة الأصنام، وجَرَمَ فعل بمعنى حَقّ وفاعله أنَّ مع جملتها أي حَق عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلاً في الدارين لأنها جمادات لا دعوة لهم في الدنيا إلى العبادة وفي الآخرة تتبرّأ عن عابديها وليس لها ما يقتضي ألوهيتها أو حق عدم دعوةٍ مستجابةٍ لها أو عدم استجابة دعوة لها، قال السديُّ لا يستجيب لأحد في الدنيا ولا في الآخرة، وقيل جَرَمَ فعل من الجرم بمعنى القطع ولا للنفي كما أن بُدّاً من لا بُدَّ فعل من التبديد بمعنى التفريق والمعنى لا قطع لبطلان دعوة ألوهية الأصنام أي لا ينقطع في وقت مَّا فيكون معناهُ استَمرَّ كما في ما برِحَ وما زَالَ وحاصل معناه حقّاً، وفي القاموس لا جَرَمَ أي لاَ بُدَّ أو حَقّاً أو لا محالة أو هذا أصله ثم تحول إلى القسم فلذلك يجاب عنه باللام، يقال لاَ جَرَمَ لآتينك وقيل جَرَمَ بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه إلى كسب ذلك الدعاء إليه أن لا دعوه له بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته ولا على هذا أيضاً لرد ما دعوه إليه ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بعد الموت فيجازي كلاً بما يستحقه ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الضلالة الطغيان بالإشراك وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ملازموها ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أي سيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب حين لا ينفعكم الذكر ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصيحة ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليعصمني من كل سوء، قال ذلك لما توعدوه إذا ظهر مخالفته لدينهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يعلم المحق من المبطل.

ثم خرج المؤمن من بينهم فطلبوه فلم يقدروا عليه وذلك قوله عز وجل ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ عطف على جمل محذوفة تقديره فأراد آل فرعون قتله ففرَّ منهم فأرسل فرعون جماعة ليأخذوه فوقاه الله ﴿سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ﴾ أي ما أرادوا به ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي بفرعون وقومه واستغنى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك سوء العذاب أي الغرق في الدنيا والنار في الآخرة، وقيل حاق بآل فرعون يعني بالذين أرسلوا لطلب المؤمن من آل فرعون ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي القتل فإنه لمّا فرَّ إلى الجبل فاتبعه طائفة فوجدوه يصلّي والوحوش صفوف حوله فرجعوا رعباً فقتلهم فرعون.

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ﴾ جملة مستأنفة أو النار خبر محذوف ويعرضون

---

(١) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.

استئناف للبيان أو النَّارُ بدل من سُوءِ العذاب ويُعْرَضُوْنَ حال منها أو من الآل، قال ابن مسعود أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح إلى النار فيقال يا آل فرعون هذه مأواكم حتى تقوم الساعة، أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم، وقال مقاتل والسديُّ والكلبي يعرض روح كل كافر على النار بكرةً وعشيّاً ما دامت الدنيا يعني إلى قيام الساعة، ويؤيده ما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مَات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة»(١) وفيه دليل على بقاء النفس وعذاب القبر وقد دلت الأحاديث عليه وأنعقد عليه الإجماع ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر بهمزة الوصل وضم الخاء، يعني يقال لهم (ادخلوا يا) ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وقرأ الباقون بهمزة القطع وكسر الخاء من الإدخال أي يقال للملائكة أدخلوا آل فرعون ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ قال ابن عباس يريد ألوان العذاب غير الذي كانوا يعذبون به منذ غرقوا يعني في عالم البرزخ.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾ أي أهل النار ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك وقت مخاصمتهم في النار وجاز أن يكون الظرف عطفاً على غدواً ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ تفصيل للحاجة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَبَعًا﴾ والتبع يكون واحداً وجمعاً لتابع كَخَدَم جمع خادم على قول البصريين، وقيل معناه ذوي تبع بمعنى أتباع على الإضمار أو التجوز، وقال الكوفيون جمع لا واحد له وجمعه أتباع ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بالدفع استفهام بمعنى الأمر ونصيباً مفعول لما دل عليه مغنون أوله بالتضمين أو مصدر كشيئاً في قوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠] فيكون صلة لمغنون ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا﴾ أي نحن وأنتم ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد منا ﴿فِيهَآ﴾ أي في النار فكيف نغني عنكم ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ بدخول أهل الجنّة الجنة وأهل النار النار ولا معقب لحكمه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ حين اشتد عليهم العذاب ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وضع جهنم موضع الضمير للتهويل ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ شيئاً ﴿يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي خزنة جهنم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ على إضاعتهم أوقات الدعاء وأسباب الإجابة وعطف على محذوف تقديره أما علمتم في الدنيا ما لحقكم في الآخرة من العذاب ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ منذرين به ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ جاءتنا رسلنا مبشرين ومنذرين ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ أمر على سبيل الاستهزاء ومعناه الإقناط ﴿وَمَا دُعَٰٓءُ

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٩٠، ومسلم في الجنائز حديث ٦٥، ٦٦، والترمذي في الجنائز باب ٧٠، والنسائي في الجنائز باب ١١٦، وابن ماجه في الزهد باب ٣٢، ومالك في الجنائز حديث ٤٧، وأحمد في المسند ٢/١٦، ٥١، ١١٦.

ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي ضياع لإيجاب هذا قول من الله ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة وعلى هذا فهو حال أو معترضة.

لمَّا سبق قصة موسى وانتصاره وقومه على فرعون أعقبه ما استحقه الرسل والمؤمنون من النصر عموماً فقال ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال الضحاك بالحجة، وقال ابن عباس بالغلبة، والقهر، قال البيضاوي ولا ينتقض ذلك بما كان للكافرين من الغلبة أحياناً امتحاناً إذ العبرة بالعواقب وغالب الأمر.

وقيل بالانتقام من الأعداء في الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ يعني يوم القيامة يقوم الحفظة من الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكفار بالتكذيب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين بدلٌ من يوم يقوم ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لكونها باطلة، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر[1] لا تنفع بالتاء الفوقانية لتأنيث الفاعل والباقون بالياء لكون التأنيث غير حقيقي وللفصل ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي البعد من الرحمة حال من الظالمين ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي الدار السوآى يعني جهنم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ متصل بقصة موسى وبين ذلك اعتراض يعني آتينا موسى ما يهتدي به في الدين أي التوراة وذلك بعد إهلاك فرعون وقومه ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة بعد موسى ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ أي للهداية والتذكرة أو هادياً ومذكراً ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي لذوي العقول السليمة.

(١) وأبو جعفر ويعقوب ـ أبو محمد ـ.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى المشركين ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ لك بالنصر ﴿حَقٌّ﴾ لا يحتمل الخلف واستشهد بحال موسى وفرعون ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أمر تعبدي ليزيدنه درجته ويصير سنة لما بعده ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صلّ شاكراً لربك ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ قال الحسن يعني صلاة العصر وصلاة الصبح، وقال ابن عباس يعني الصلوات الخمس ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ينكرون القرآن ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي حجة ﴿أَتَاهُمْ﴾ من الله تعالى ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ﴾ كنى بالصدر القلب لكونه موضعه أي ما في قلوبهم ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ قال ابن عباس أي ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر والعظمة يعني يتكبرون عليك ويتعظمون أنفسهم عن إتباعك ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ قال مجاهد ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر لأن الله عز وجل يذلهم وقال ابن قتيبة إن في صدورهم إلا تكبر على محمد وطمع في أن يغلبوه وما هم ببالغي ذلك الكبر ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شرهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم تعليل للاستعاذة ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ فمن قدر على خلقها مع عظمها أولاً من غير أصل قدر على خلق الناس ثانياً من أصل وهو إزاحة لإشكال ما يجادلون فيه مما نطق به القرآن من أمر البعث ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لفرط غفلتهم واتباع أهوائهم وتقليد آبائهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: جاءت اليهود إلى رسول الله ﷺ فذكروا الدجال فقالوا أيكون منا في آخر الزمان فعظموا أمره وقالوا يصنع كذا وكذا فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال لَخَلْقُ السماوات والأرض أكبر من خلقِ النَّاسِ قال أي من خلق الدجال» وأخرج عن كعب الأحبار قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ قال هم اليهود فيما ينتظرونه من أمر الدجال. عن عمران بن حصين قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال»[١] رواه مسلم، وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «إنه لا يخفى عليكم أن الله ليس بأعور وأن مسيح الدجال أعور عين اليمنى كأنَّ عينه عنبة طافية»[٢] متفق عليه، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا قد أنذر أمته الأعور الكذاب إلا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه ك ف ر»[٣] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ما حدث به نبي قومه أنه أعور وأنه يجيء معه مثل الجنة والنار فالتي يقول إنها الجنة هي النار وإني أنذركم كما أنذر به نوح

(١) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١٢٦، ١٢٧.
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب ١٧، ومسلم في الفتن حديث ١٠٠.
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد باب ١٧، وأحاديث الأنبياء باب ٤٨، والمغازي باب ٧٧، ومسلم في الإيمان حديث ٢٧٤، والفتن حديث ١٠٣ ـ ١٠٥.

قومه»[١] متفق عليه، وعن حذيفة عن النبيّ ﷺ قال: «إن الدجال يخرج وإن معه ماءً وناراً فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه ماء بارد طيب»[٢] متفق عليه، وزاد مسلم «وإن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب»[٣] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدجال أعور العين اليسرى جعد الشعر معه جنته وناره فناره جنة وجنته نار»[٤] رواه مسلم، وعن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ فقال «يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم، إنه شابٌ قطط[٥] عينه طافية[٦] كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته، إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث[٧] يميناً وعاث شمالاً يا عباد الله فاثبتوا»، قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال «أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم، قلنا فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟ قال «لا أقدروا له قدره»[٨]. الحديث بطوله رواه مسلم، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فيتوجه قِبَلَه رجلٌ من المؤمنين فيلقاه المسالح مسالح[٩] الدجال فيقولون له أين تعمد؟ فيقول أعمد إلى هذا الذي خرج قال فيقولون له أو ما تؤمن بربنا؟ فيقول ما بربنا خفاء، فيقولون اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه فينطلقون به إلى الدجال فإذا رآه المؤمن قال يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، قال فيأمر الدجال به فيشبح فيقول خذوه وشجوه فيوسع ظهره وبطنه ضرباً، قال فيقول أما تؤمن بي؟ فيقول المسيح الكذاب قال فيؤمر به فيوشر[١٠] بالميشار[١١] من مفرقه حتى يفرق بين رجليه، قال ثم يمشي الدجال بين القطعتين

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١٠٩.
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠.
(٣) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١٠٥.
(٤) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١٠٤.
(٥) شديد الجعودة.
(٦) طافية هي الحبة التي قد خرجت من حد أخواتها فارتفعت عليها وقيل أراد حبة الطافية على الماء ـ منه رحمه الله.
(٧) أي: مفسد.
(٨) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١١٠، وأبو داود في الملاحم باب ١٤، والإمارة باب ٣٧، والترمذي في الفتن باب ٥٩، وابن ماجه في الفتن باب ٣٣، وأحمد في المسند ٤/ ١٨١، ٦/ ٤٥٤، ٤٥٦.
(٩) مسالح جمع مسلح وهم القوم الذين يحفظون الثغور من العدو وسموا مسلحة لأنهم يكونون ذوي سلاح ـ منه رحمه الله.
(١٠) أي: يقطع.
(١١) ما يقطع به الخشب.

ثم يقول له قم فيستوي قائماً ثم يقول له أتؤمن بي؟ فيقول ما ازددتُ فيك إلا بصيرة، قال ثم يقول يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس قال فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال، فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار وإنما ألقي إلى الجنة فقال رسول الله ﷺ هذا أعظم الناس شهادةً عند رب العالمين»[١] رواه مسلم، وعن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة»[٢] رواه مسلم، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ «يأتي الدجال وهو محرّم عليه أن يدخل نقاب المدينة فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه رجل وهو خير الناس أو من خيار الناس فيقول أشهد أنّك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ فيقول الدجال أرأيتم إن قتلتُ هذا ثم أحييتُه هل تشكون في الأمر؟ فيقولون لا فيقتله ثم يحييه فيقول والله ما كنتُ فيك أشد بصيرة مني اليوم فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه»[٣] متفق عليه، وعن أبي بكرة عن النبيّ ﷺ «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال لما يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان»[٤] متفق عليه.

وعن أبي بكر الصديق قال حدثنا رسول الله ﷺ قال: «الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال له خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة»[٥] رواه الترمذي، وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت قال النبيّ ﷺ: «يمكث الدجال في الأرض أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاضطرام السعفة في النار»[٦] رواه البغوي في شرح السنة والمعالم، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «يتبع الدجال من أمتي (لعل المراد بالأمة أمة الدعوة) سبعون ألفاً عليهم التيجان»[٧] رواه البغوي في شرح السنة والمعالم، قال البغوي ويرويه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «ويتبع الدجال يومئذ سبعون ألف يهودي كلهم ذو تاج وسيف محلى» وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت كان رسول الله ﷺ في بيتي فذكر الدجال فقال: «إن بين يديه ثلاث سنين سنة تمسك السماء فيها ثُلث قطرها والأرض ثُلث نباتها والثانية تمسك السماء ثُلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١١٣.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في الفتن باب ٢٧، والمدينة باب ٩، ومسلم في الفتن حديث ١١٢.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل المدينة باب ٩، والفتن باب ٢٦، وأحمد في المسند ٥/ ٤١، ٤٣، ٤٦، ٤٧.

(٥) أخرجه الترمذي في الفتن باب ٥٧، وابن ماجه في الفتن باب ٣٣، وأحمد في المسند ١/ ٤، ٧.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٤٥٤، ٤٥٨، وعبد الرزاق في المصنف ٢٠٨٢٢، والبغوي في تفسيره ٦/ ٩٩، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٤٨٩، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٨٨٣٠.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٢٠٨٢٥، والبغوي في تفسيره ٦/ ١٠٠، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٤٩٠.

والثالثة تمسك السماء قطرها كله والأرض نباتها كله فلا تبقى ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم إلا هلك، وإن من أشد فتنته أن يأتي أعرابياً فيقول أرأيتَ إن أحييت لك إبلك ألست تعلم أني ربك؟ فيقول بلى فيمثل له الشياطينَ نحو إبله كأحسن ما يكون ضروعاً وأعظمه أسنمة، قال ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه، فيقول أرأيتَ إن أحييتُ لك أباك وأخاك ألستَ تعلم أني ربك؟ فيقول بلى فيمثل له الشياطينَ نحو أبيه ونحو أخيه»، قالت ثم خرج رسول الله لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغم ممّا حدثهم قالت فأخذ بلحمتي الباب فقال «مهيم أسماء» قلتُ يا رسول الله لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال، قال «إن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه وإلا فإن ربي خليفتي على كل مؤمن»، فقلتُ يا رسول الله إنا لنعجن عجيناً فما نخبره حتى نجوع فكيف بالمؤمنين يومئذ، قال «تجزئهم ما يجزىء أهل السماء من التسبيح»[١] رواه أحمد والبغوي في المعالم، وعن المغيرة بن شعبة قال: «ما سأل أحد رسول الله ﷺ عن الدجال أكثر مما سألتُه وإنه قال لي «ما يضرك؟» قلتُ إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء، قال هو أهون على الله من ذلك»[٢] متفق عليه.

ولمّا قال الله سبحانه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نبه على أن الجاهل كالأعمى والعالم كالبصير فقال ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ والجاهل والعالم والمحسن والمسيء فلا بد أن يكون لهم محل يظهر فيه تفاوتهما ولا تفاوت لهما في الدنيا فهو ما بعد الموت والبعث وزيادة لا في المسيء لأن المقصود نفي مساواته للمحسن فيما له من الثواب والكرامة، والعاطف الثاني عطف الموصول مع ما عطف عليه على الأعمى والبصير لتغاير الوصفين في المقصود أو الدلالة بالصراحة والتمثيل ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تتذكرون، قرأ الكوفيون بالتاء الفوقانية على تغليب المخاطب أو الالتفات أو أمر الرسول بالمخاطبة والباقون بالتحتانية لأن أول الآيات وآخرها خبر عن قوم غيب والضمير للناس أو الكفار ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي القيامة ﴿لَأَاتِيَةٌ﴾ حتى يظهر تفاوت المحسن والمسيء ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي في إتيانها بناءً على استحالة خلف ما أخبر الله به ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها ولا يصدقون وعد الله لغفلتهم وشقاوتهم وقصور نظرهم على المحسوسات.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ قرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها قيل معناه اعبدوني دون غير ولمّا عبر عن العبادة بالدعاء قال موضع أُثيبكم ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ والقرينة على أن المراد بالدعاء العبادة وبالاستجابة الإثابة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي ذليلين، قرأ ابن كثير[٣] وأبو جعفر[٤] وأبو بكر سيدخلون

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/٤٥٦.
(٢) أخرجه البخاري في الفتن باب ٢٦، ومسلم في الفتن حديث ١١٥.
(٣) ورويس ـ أبو محمد ـ.
(٤) بخلاف عنه ـ أبو محمد ـ.

بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء، والظاهر أن المراد بالدعاء والعبادة كليهما السؤال فإن سؤال كل ما يحتاج المرء إليه وعدم التوجه إلى غيره تعالى في شيء من الأمور كمال العبودية والافتقار الاعتراف بصمديته تعالى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «يسأل أحدكم ربه حاجاته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع»(١) رواه الترمذي، وزاد في رواية عن ثابت البناني مرسلاً «حتى يسأل الملح وحتى يسأل شسعه إذا انقطع»(٢) عن النعمان بن بشير قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾»(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في مسانيدهم وقال الترمذي حديث حسن صحيح ورواه ابن شيبة في المصنف والحاكم في المستدرك في صحيحه وابن حبان في صحيحه عنه أنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول على المنبر فذكر الحديث.

أورد النبيّ ﷺ ضمير الفصل والخبر معرفاً باللام ويقصد في أمثال ذلك حصر المسند على المسند إليه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨] أي لا رازق سواه وقد يقصد قصر المسند إليه على المسند كما في قوله الكرم هو التقوى والحسب هو الإيمان يعني لا كرم إلا التقوى ولا حسب إلا الإيمان، وهاهنا يحتمل المعنيين والحصر إنما هو على سبيل المبالغة ولعل المراد هاهنا أن الدعاء والعبادة متحدان بالذات مختلفان بالاعتبار والمفهوم فإن كل دعاء وسؤال فهو عبادة وطاعة لأن في السؤال ذلٌّ وافتقار والعبودية في اللغة إظهار التذلل والافتقار والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولذا لا يستحقه إلا الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وكل عبادة وطاعة فهو سؤال، حيث قال رسول الله ﷺ: «أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»(٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف وقال الله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] قال الجزري في النهاية إنما سمي التهليل والتحميد دعاء لأنه بمنزلته في استيجاب ثواب الله وجزائه كالحديث الآخر «إذا اشغل عبدي ثناءه عليَّ عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أعطي السائلين»، وروى الترمذي ومسلم «من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيتُه أفضل ما أعطي السائلين» وفي رواية «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي»(٥) الحديث.

اعلم أن الدعاء منه ما هو فريضة وهو قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] في الفاتحة في الصلاة أو سنة مؤكدة كالدعاء في القعدة الأخيرة ومواقف الحج

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١١٧.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) أخرجه أبو داود حديث ١٤٧٩، والترمذي حديث ٣٢٤٧، ٣٣٧٢، وابن ماجه في الدعاء باب ١، وأحمد في المسند ٤/ ٢٧١.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ١١٧، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٢٨.

(٥) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن باب ٢٥، والدارمي في فضائل القرآن باب ٦.

وغير ذلك ومنه ما هو حرام أو مكروه وهو قصر السؤال على لذات الدنيا وسؤال ما هو معصية وسؤال ما هو مستحيل أو ما في معناه قال الله تعالى: ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢] وأما سؤال كل أمر يحتاج إليه العبد في الدنيا والآخرة والاستعاذة من كل شر فمأمور به مستحب بإجماع العلماء، وذهب طائفة من الزهاد إلى أنَّ ترك الدعاء أفضل سلاماً للقضاء، وقال طائفة إن دَعَا للمسلمين فحسن وإن خص نفسه فلا.

والحجة لنا الكتاب والسنة والإجماع عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»[١] رواه الترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه والحاكم، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»[٢] رواه الترمذي، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج»[٣] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[٤] رواه الترمذي، وابن حبان والحاكم وقال الترمذي حديث غريب، والمراد من هذه الأحاديث أنه من لم يسأل الله تعالى استكباراً غضب عليه حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لا تعجزوا في الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد»[٥] رواه ابن حبان والحاكم، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض»[٦] رواه الحاكم في المستدرك، وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سئل الله شيئاً أحبُّ إليه من أن يسأل العافية»[٧] رواه الترمذي ورواه الحاكم في المستدرك «فتحت له أبواب الجنة».

فصل: فيما وعد عن الاستجابة لمن يدعو الله منها هذا الحديث عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الإجابة»[٨] رواه ابن أبي شيبة،

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١، وابن ماجه في الدعاء باب ١، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦٢.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعاء باب ١.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١١٥.

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٢٤.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٤، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ١٩٤، ١٩٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٧٩.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٢، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٤٧، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٧٩.

(٧) أخرجه الترمذي حديث ٣٥٤٨، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٨.

(٨) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٨، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ١٩٦، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٧٩، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٢٢٣٩.

وعن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً»[١] رواه الترمذي وأبو داود والبيهقي في الدعوات الكبيرة، وعن أبي سعيد الخدري أن النبيّ ﷺ قال: «ما من مُسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله إياه بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا إذاً نكثر، قال الله أكثر»[٢] رواه أحمد، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل»، قيل يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول قد دعوتُ وقد دعوتُ فلم أر يستجاب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»[٣] رواه مسلم، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء»[٤] رواه الترمذي، ورواه أحمد عن معاذ بن جبل وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كفَّ عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»[٥] رواه الترمذي.

فصل: فيمن لا ترد دعوته: عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة الوالد ودعوة المسافر ودعوة المظلوم»[٦] رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حين يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها إليه فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الربُّ وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»[٧] رواه الترمذي، وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه مِلك مؤكل كلّما دعاه لأخيه بخير قال الملك الموكل به آمين ولك بمثله»[٨] رواه مسلم، وعن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «خمس دعوات تستجاب لهن دعوة المظلوم حتى ينتصر ودعوة الحاج حتى يُصدر ودعوة المريض حتى يبرأ ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب» ثم قال «وأسرع الدعوات إجابة دعوة الأخ بظهر الغيب»[٩] رواه البيهقي في دعوات الكبير، وعن عبد الله بن عمرو قال قال

(١) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٣، والترمذي في الدعوات باب ١٠٤، وابن ماجه في الدعاء باب ١٣.
(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١١٥، وأحمد في المسند ٣/ ١٨.
(٣) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٩٢.
(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١٠١، وأحمد في المسند ٥/ ٢٣٤.
(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١١٥، وأحمد في المسند ٣/ ٣٦٠، ٥/ ٣٢٩.
(٦) أخرجه الترمذي في البر باب ٧، وابن ماجه في الدعاء باب ١١.
(٧) أخرجه الترمذي في الجنة باب ٢، والدعوات باب ١٢٨، وابن ماجه في الصيام باب ٤٨، وأحمد في المسند ٤/ ١٥٤.
(٨) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٨٨.
(٩) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح ٢٢٦٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٣٠٩.

رسول الله ﷺ: «إن أسرع الدعاء إجابةً دعوة غائب لغائب»[1] رواه الترمذي وأبو داود.

فصل: في شرائط الإستجابة للدعاء منها تجنب الحرام في المأكل والمشرب والمكسوب، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»[2] رواه مسلم. ومنها حضور القلب عند الدعاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب لاه»[3] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، ومنها الجد في الدعاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهمّ اغفر لي إن شئتَ ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»[4] رواه مسلم.

فصل: في سنن الدعاء وآدابه: عن فضالة بن عبيد قال بينما رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل فصلّى فقال اللّهم اغفر لي وارحمني فقال رسول الله ﷺ «عجلتَ أيها المصلّي إذا صليتَ فقعدتَ فاحمد الله بما هو أهله وصل عليَّ ثم ادعه»، قال ثم صلّى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلّى على النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: «أيها المصلّي ادْعُ تجب»[5] رواه الترمذي وروى أبو داود والنسائي نحوه، وعن ابن مسعود قال كنتُ أصلّي (والنبيّ ﷺ وأبو بكر وعمر معه فلمّا جلستُ بدأتُ بالثناء على الله ثم الصلاة على النبيّ ﷺ ثم دعوتُ لنفسي فقال النبيّ ﷺ: «سل تعطه»[6] رواه الترمذي، وعن عمر بن الخطاب قال: «إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلّي على نبيك»[7] رواه الترمذي، وعن مالك بن يسار قال قال رسول الله ﷺ «إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها»، وفي رواية ابن عباس «سلوا الله ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم»[8] رواه أبو داود، وعن عمر قال كان رسول الله ﷺ «إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه»[9] رواه الترمذي، وعن عائشة قالت كان

---

(١) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٩.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة باب ٦٤، والترمذي في تفسير سورة ٢، باب ٣٦، والدارمي في الرقاق باب ٩، وأحمد في المسند ٢/ ٣٢٨.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٦٥.

(٤) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٨، وأحمد في المسند ٢/ ٤٥٨.

(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٦٤، والنسائي في السهو باب ٤٨.

(٦) أخرجه الترمذي في الجمعة باب ٦٣، والقيامة باب ١٠.

(٧) أخرجه الترمذي في الوتر باب ٢١.

(٨) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٣.

(٩) أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥٩٥.

رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك[١]، رواه أبو داود، وعن أنس قال كان رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه[٢]، وعن السائب بن يزيد عن أبيه أن النبيّ ﷺ كان إذا دعا رفع يديه مسح وجهه بيديه[٣]، رواه البيهقي في الدعوات الكبير، وعن عكرمة عن ابن عباس قال المسألة أن ترفع يديك حذو منكبيك أو نحوهما[٤]. رواه أبو داود، وعن ابن عمر أنه يقول إن رفعكم أيديكم بدعة ما زاد رسول الله ﷺ على هذا يعني إلى الصدر[٥]، رواه أحمد، وعن أبي بن كعب قال كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحداً فدعاه بدأ بنفسه[٦]، رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن غريب صحيح.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي لتستريحوا فيه بالنوم ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي يبصر فيه، وإسناد الإبصار إليه مجازي مبالغةً ولذلك عدل به عن التعليل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواقع النعم وعظم الفضل وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم يعني أنهم هم الذين يكفرون ولا يشكرون كقوله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وجملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ متصل بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ١٣] والله مبتدأ والموصول خبره أو خبر مبتدأ محذوف والموصول صفة له ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المخصوص بتلك الأفعال المقتضية للألوهية والربوبية، مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ لا غيره ﴿رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الجواهر والأعراض وأفعال العباد ﴿لَّآ إِلَٰهَ﴾ أي لا تستحق العبادة أحد ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ ليس أحد غيره موصوفاً بشيء من الصفات المقتضية للألوهية المستوجبة للعبادة ﴿فَأَنَّىٰ﴾ فكيف ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون من عبادته إلى عبادة غيره الأربعة كلها أخبار مترادفة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما أفك كفار مكة ﴿يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي مستقراً ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفاً فوقكم استدلال ثان بأفعال أخر مختصة به تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يعني خلقكم منتصب القامة بادي البشرة متناسب الأعضاء متهيئاً لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات، قال ابن عباس خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده وغيره يتناول بفيه ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الأطعمة اللذيذة، الله مبتدأ والموصول خبره أو خبر مبتدأ محذوف يعني هو والموصول صفة والجملة مقررة للجملة السابقة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن كل ما سواه مربوب مفتقر

(١) أخرجه أبو داود حديث ١٤٨٢، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٢٢٤٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٨٠٢١.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٧٠، ٣/ ٢٠٩، ٢١٦، ٢٥٩، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦٨.
(٣) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٤٨٩٢.
(٤) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٣.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٥٥.
(٦) أخرجه الترمذي حديث ٣٣٨٥.

بالذات معترض للزوال ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ المتفرد بالحياة الذاتية الذي يقتضي ذاته وجوده الوجوب والوجود وإن كانا صفتي كمال لكنهما ظلان من ظلال ذاته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر ثان لهو أي لا يستحق العبادة إلا من كان هذا شأنه ولا شيء كذلك إلا هو ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ أي فاعبدوه واسألوا منه حوائجكم، الفاء للسببية فإن ما ذكر من الصفات موجبات لعبادته ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الطاعة من الشرك والرياء ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ قيل معناه قائلين ذلك، وقال الفراء هو خبر وفيه إضمار الأمر مجازه: «فادعوه وقولوا الحمد لله رب العالمين» وروي عن مجاهد عن ابن عباس قال من قال لا إله إلا الله فليقل على إثره الحمد لله رب العالمين فذلك قوله عز وجل: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥] والله أعلم.

﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ
أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ
لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾
ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ
﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن
قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ
أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ
﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ
إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أخرج جويبر عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة وشَيبة بن ربيعة قالوا يا محمد ارجع عما نقول وعليك بدين آبائك وأجدادك فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ أي من الحجج والآيات فإنها مقويّة لأدلة عقلية منهية عنها ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أنقاد له وأخلص له ديني ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن

تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي أطفالاً والتوحيد لإرادة الجنس أو على تأويل كل واحد منكم ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ اللام متعلق بمحذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا وكذا في قوله ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ ويجوز عطفه على لتبلغوا قرأ نافع وأبو عمرو[(١)] وحفص وهشام بضم الشين والباقون بكسرها ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل الشيخوخة أو بلوغ الأشد ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ﴾ أي ويفعل ذلك لتبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي وقتاً معيناً لا يجاوزونه يريد أجل الحياة إلى الموت ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لتعقلوا ما في ذلك من الحجج والعبر ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا[(٢)] قَضَىٰٓ﴾ أي أراد ﴿أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج في تكوينه تجشم لحلفة الفاء الأولى للدلالة على أن ذلك نتيجة ما سبق من حيث أنه يقتضي قدرةً ذاتية غير متوقفة على العدد والمواد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني يقولون إنها ليست من عند الله أو يتولون خلاف سبيل الرسول والمؤمنين، الاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات وتقرير وفيه تعجيب ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ كيف صرفوا عن الحق، استفهام للتوبيخ وتكرير ذم المجادلة للتأكيد أو لتعدد المجادل أو المجادل فيه، روي عن محمد بن سيرين أن الأولى كانت في المشركين وهذه الآية نزلت في القدرية ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من الشرائع بدل من ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ فإن كان المراد به القدرية مجوس هذه الأمة فهم يكذبون ما ثبت بالكتاب والسنة من كون الله سبحانه خالقاً للأشياء كلها من الخير والشر والجواهر والأعراض قادراً على كل شيء يغفر لمن يشاء ما يشاء من الصغائر والكبائر ويعذب من يشاء يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يجب عليه شيء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣] وينكرون الصراط والميزان والشفاعة وغير ذلك، وجاز أن يكون الذين كذبُوا مبتدأ فيه معنى الشرط وخبره ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ بالرفع عطف على الأغلال أو مبتدأ خبره ﴿يُسْحَبُونَ﴾ أي يجرون ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ والعائد محذوف أي يسحبون بها وهو على الأول حال، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قرأ والسلاسل بالنصب على المفعولية ويسحبون بفتح الياء على البناء للفاعل قال وذلك أشد عليهم وهم يسْحَبونَ السَّلاَسِلَ ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يحرقون من شجر التَّنُّور إذا ملأه بالوقود، وقال مقاتل وقد بهم النار، وقال مجاهد يصيرون وقود النار والمراد تعذيبهم بأنواع العذاب ينقلون من بعضها إلى بعض تارة بالحميم وأخرى بالنار، أخرج الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية إلى قوله ﴿يُسْجَرُونَ﴾ فقال: «لو أن رصاصة مثل هذه (وأشار إلى جمجمة) أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمس

---

(١) وأبو جعفر ويعقوب وخلف ـ أبو محمد ـ.

(٢) وفي الأصل: وإذا أقضى ـ ١٢ ـ.

مائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن يبلغ أصلها أو قعرها»(١).

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام ﴿قَالُوا ضَلُّوا﴾ أي غابوا ﴿عَنَّا﴾ فلا نراهم وذلك قبل أن يقرن بهم آلتهم أو المعنى ضاعوا عنا فلم نجد منهم ما كنا نتوقع منهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ قيل هذا إنكار للإشراك مثل قولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقيل معناه لم نكن ندعو من قبل شيئاً ينفعنا أو يدفع عنا المكروه، وقال الحسن بن الفضل أي لم نصنع من قبل شيئاً أي ضاعت عبادتنا كما يقول من ضاع عمله ما كنتُ أعمل شيئاً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي إضلالاً مثل إضلال هؤلاء المشركين أو مثل إضلال القدرية ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أجمعين حتى لا يهتدوا إلى شيء ينفعهم ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي تبطرون وتتكبرون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهو الشرك والطغيان ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي تتوسعون في الفرح والعدول إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم ﴿خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق جهنم وكان مقتضى النظم فبئس مدخل المتكبرين ولما كان الدخول المقيد بالخلود سبب الثواء عبر بالمثوى.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على إيذاء المشركين ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرك وإهلاك الكافرين ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالة ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ إن شرطية أدغمت في ما الزائدة لتأكيد الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من القتل والأسر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فنجازيهم على أعمالهم وهو جواب ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وجواب ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف مثل فذلك، وجاز أن يكون هذا جواباً لهما بمعنى أن نعذبهم في حياتك أو لم نعذبهم فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب ويدل على شدته الاقتصار بذكر الرجوع في هذا المعرض.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ التنوين للتكثير والتعظيم ﴿مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أخرج أحمد وابن راهويه في مسنديهما وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك من حديث أبي لبابة أن النبيّ ﷺ سئل عن عدد الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» فقيل فكم الرسل منهم؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً»(٢) وأخرج ابن حبان من حديث أبي ذر نحوه، والمذكور في القرآن سبعة وعشرون ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ أي معجزة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بأمره وإرادته ليس لهم اختيار في إتيان بعضها والاستبداد بإتيان المقترح بها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قضاؤه بين الأنبياء والأمم ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ أي بنصر الأنبياء والمؤمنين وتعذيب الكفار ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ

(١) أخرجه الترمذي في جهنم باب ٦، وأحمد في المسند ٢/ ١٩٧.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٧٨، ١٧٩، ٢٦٦.

﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الكفار المعاندون باقتراح الآيات بغير ظهور الحق بالمعجزات.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ فإن من جنسها ما يؤكل كالغنم ومنها يؤكل ويركب وهو الإبل والبقر الجملة متصلة بقوله هو الَّذِي يُحيي ويُمِيتُ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها وجلودها ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بالمسافرة عليها عطف على قوله ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البر ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما قال على الفلك. ولم يقل في الفلك مزاوجة وتغير النظم في الأكل لأنه في حيز الضرورة إذ يقصد به التعيش والتلذذ والركوب والمسافرة عليها قد يكون لأغراض دينية واجبة أو مندوبة أو للفرق بين العين والمنفعة ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وجوده وكمال قدرته وفرط رحمته ﴿فَأَىَّ﴾ آية من ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ استفهام للإنكار على الإنكار، فإنها لكثرتها ولظهورها لا تقبل للإنكار وهو ناصب أيّ، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ تقديره ألم يخرجوا فلم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما بقي منهم من القصور والمصانع ونحوها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يعني فلم ينفعهم ذلك ما الأولى نافية أو استفهامية للإنكار منصوبة بأغنى والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة بها ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ عطف على ما أغنى ﴿رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات والآيات الواضحات ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ واستحقروا علم الرسل والمراد بالعلم ما يزعمونه علماً نافعاً وهو في الحقيقة إما جهل مركب كقول اليونانيين وغيرهم من الكفار في الإلهيات وبعض الطبيعيات والرياضيات، وكقول كفار مكة لن نبعث ولن نعذب كذا قال مجاهد وكقول اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] وإما علم متعلق بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧] فلما جاءتهم رسلهم معلوم الديانات وهي أبعد شيء من علمهم لبنائها على الإجمال في طلب الدنيا وترك اتباع الشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤوا بها واستهزؤوا بهم واعتقدوا أن علمهم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به، وإما علم بأشياء لا ينفعهم في الآخرة كعلم الطبيعي والرياضي والنجوم والسحر والشعبذة لأهل اليونان والهند وغيرهم. روي أن أفلاطون سأل عيسى ابن مريم عليه السلام امتحاناً لنبوته فقال إن كانت السماوات قسماً والحوادث سهاماً والإنسان هدفاً والرامي هو الله فأين المفر؟ فأجاب عيسى عليه السلام ففروا إلى الله فحينئذ أيقن أفلاطون بنبوته لكن قال إنما الأنبياء لأجل الناقصين ونحن كاملون لا حاجة لنا إلى الرسل، وعن سقراط أنه سمع موسى عليه السلام وقيل له لو هاجرت إليه فقال نحن قوم مهتدون لا حاجة لنا بمن يهدينا، وقيل معناه فَرِحُوا أي ضحكوا استهزاءً بما عندهم أي عند الأنبياء من العِلْمِ ويؤيده قوله تعالى ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وقيل ضمير فرحوا راجع إلى الرسل يعني لمَّا رأى الأنبياء تمادي جهل الكفار وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا من الله العلم وشكروا الله تعالى

عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم ﴿فَلَمَّا رَأَوۡا﴾ أي الكفار ﴿بَأۡسَنَا﴾ أي شدة عذابنا عند الموت ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ أي تبرأنا مما كنا نعبد من الأصنام ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ هذا إما من باب تنازع العاملين وإعمال أحدهما والإضمار في الثاني أو يكون اسم يك ضمير الشأن مستتراً فيه أو يكون يَكُ تامة وينفعهم بتقدير أن فاعل له ﴿لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أي عذابنا لامتناع قبوله حينئذٍ ولذلك قال لم يك بمعنى لم يصح ولم يستقم ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدرية من فعل محذوف للتأكيد، أي سن الله ذلك سنة ماضيةً في العباد أن الإيمان عند نزول العذاب لا ينفع وأن العذاب نازل على مكذبي الرسل، وقيل منصوب بنزع الخافض كسنة الله، وقيل على الإغراء أي احذروا سنة الله ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بذهاب الدارين، قال الزجاج الكافر خاسر في كل وقت ولكن يتبين لهم خسرانهم إذا العذاب.

تم تفسير سورة المؤمن من التفسير المظهري الثامن والعشرين من ذي الحجة من السنة السابعة بعد ألف ومائتين سنة ١٢٠٧هـ ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير سورة فصلت بعون الله تعالى والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة فصلت

آياتها أربع وخمسون وهي مكّيّة

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا
وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ
إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ
بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ
فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ
ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ
وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ إن جعلته مبتدأً فخبره ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ وإن جعلته تعديد الحروف فتنزيلٌ خبر محذوف، وقال الأخفش تنزيلٌ مبتدأ لتخصيصه بالصفة وخبره ﴿كِتَٰبٌ﴾ وهو على الأولين بدل منه أو خبر آخر أو خبر محذوف، ولعل افتتاح هذه السور السبع بحم وتسميتها به لكونها مصدرة ببيان الكتاب متشاكلة في النظم والمعنى قال رسول الله ﷺ: «أعطيتُ طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى»(١) رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي عن معقل بن يسار، وإضافة التنزيل للرحمن الرحيم للدلالة على أنه مناط المصالح الدينية والدنيوية ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي بينت بالأحكام والقصص والمواعظ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على المدح أو الحال من الضمير المجرور في آياته فإنه أضيف إليه فاعل فصلت مثل ميتاً في قوله تعالى: ﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] وفيه امتنان عليهم بسهولة قراءته وفهمه فإنه لو كان بغير لغتهم لما فهموه ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ نزل منزلة اللازم أي لقوم ذوي علم ونظرٍ لا لمن أعرض عنها، أو يقال مفعوله محذوف منوي أي لقوم يعلمون معانيَه ويفهمونه أو يكون

---

(١) أخرجه البغوي في تفسيره ٤/ ٢٦٢، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٨، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٩.

على طريقة من يسمع يخل بتقدير مفعوليه أي لقوم يعلمونه حقاً، والجملة صفة أخرى لقرآناً أو صلة لتنزيل أو لفصلت والأول أولى لوقوعه بين الصفات ﴿بَشِيرًا﴾ لأولياء الله ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأعدائه ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره وقبوله عطف على فصلت ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يستمعون تعنتاً وعناداً أو لا يقبلون يقال شفعت إلى فلان فلم يسمع قولي يعني لم يقبل والجملة بيان للإعراض.

﴿وَقَالُوا﴾ يعني مشركي مكة عطف على إعراض ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾[١] أغطية جمع كنان ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد فلا نفقه ما تقول ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثقل وصمم لا نسمع ما تقول والمعنى أنا في ترك القبول عنك بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ خلاف في الدين يمنعنا عن التواصل وللدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه بحيث استوعب المسافة المتوسطة ولم يبق فراغ أصلاً.

وهذه تمثيلات لامتناع القبول والمواصلة والمعنى أنا في ترك القبول والتواصل منك بمنزلة من بينهما حاجز قوي ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك أو في إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا أو في إبطال أمرك ﴿قُلْ﴾ يا محمد في جوابهم ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ قال الحسن علمه الله التواضع يعني ما أنا إلا واحد منكم لولا الوحي لم يكن عندي من العلم ما ترونه ولكن أوحي إليَّ ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فعليكم بإصغائه وتلقيه أو المعنى لستُ بملك ولا جني لا يمكنكم التلقي منه ولا أدعوكم إلى ما تأبى عنه العقول بل أدعوكم إلى التوحيد الذي يدل عليه العقل والنقل ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي توجهوا إلى الله بالطاعة ولا تميلوا عن طاعته ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما أنتم عليه من الشرك وسوء الأعمال ثم هددهم على ذلك بقوله ﴿وَوَيْلٌ﴾ كلمة عذاب مبتدأ خبره ﴿لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس الذين لا يقولون لا إله إلا الله وهي زكاة الأنفس والمعنى لا يطهرون أنفسهم عن الشرك بالتوحيد،

(١) عن عمر بن الخطاب قال أقبل قريش إلى النبي ﷺ فقال ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب قالوا يا محمد ما نفقه ما تقول ولا نسمعه إن قلوبنا لغلفًا وأخذ أبو جهل ثوبًا جمًا بينه وبين النبي ﷺ فقال يا محمد ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فقال لهم النبي ﷺ ادعوكم إلى خصلتين أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله فلما سمعوا شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ولوا على أدبارهم نفورا وقالوا أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب وقال بعضهم لبعض امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق أءنزل عليه الذكر من بيننا﴾ وهبط جبريل فقال يا محمد إن الله يقرئك السلام أليس يزعم هؤلاء أن على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا فليس يسمعون قولك كيف وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا لو كان كما زعموا لم ينفروا ولكنهم كاذبون يسمعون ولا ينتفعون وذلك كراهة له فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلا إلى النبي ﷺ فقالوا يا محمد اعرض عليهم الإسلام أسلموا من آخرهم فتبسم رسول الله ﷺ وقال الحمد لله بالأمس تزعمون أن قلوبكم في أكنة مما ندعوكم إليه وفي آذانكم وقرًا صبحتم اليوم مسلمين فقالوا يا رسول الله كذبنا بالأمس لو كن كذلك ما اهتدينا أبداً ولكن الله الصادق والعباد كاذبون عليه وهو الغني ونحن الفقراء إليه ـ ١٢ ـ منه برّد الله مضجعه.

وقال الحسن وقتادة لا يقرون بالزكاة ولا يرونه واجباً وكان يقال الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا ومن تخالف عنها هلك.

وقال مقاتل والضحاك لا ينفقون في الطاعة ولا يتصدقون وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم، قال البيضاوي فيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع وقد ذكرنا هذه المسألة في تفسير سورة المدثر في قوله تعالى ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣] الآية ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ حال مشعر بأن امتناعهم من الزكاة مبني على إنكارهم للآخرة فإن من لم يعتقد بالآخرة وثواب الزكاة فيها اعتقد إعطاء المال للفقير إضاعة لا محالة جعل الله سبحانه منع الزكاة مقروناً بالإشراك والكفر بالآخرة لأن المال أحب الأشياء إلى الأنفس فبذله في سبيل الله أول دليل على إيمانه ففيه حث للمؤمنين على إيتاء الزكاة وتهديد شديد على منعه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ قال ابن عباس غير مقطوع، وقال مقاتل غير منقوص، وقيل غير ممنون لي لا يمنُّ به عليهم من المن، وقال مجاهد غير محسوب.

وقال السدي نزلت الآية في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة يكتب لهم الأجر على حسب ما كانوا يعملون في الصحة، عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به أكتب له مثل عمله إذا كان طليقاً حتى أطلقه»[(١)] رواه البغوي في شرح السنة والتفسير، وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»[(٢)] رواه البخاري، وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ابتلي المسلم ببلاء في جسده قال للملك اكتب له صالح عمله الذي كان يعمل فإن شفاه غسله وطهره وإن قبضه غفر له ورحمه»[(٣)] رواه البغوي في شرح السنة، وعن ابن مسعود أنه قال يكتب للعبد من الأجر إذا مرض ما كان يكتب له قبل أن يمرض فمنعه منه المرض، رواه رزين.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ﴾ إستفهام توبيخ، والجملة الاستفهامية مستأنفة في جواب ما أقول لهم إن لم يستقيموا ولم يستغفروا ﴿لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي في مقدار يومين سميا بيوم الأحد والاثنين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ ولا يجوز له ند ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق الأرض في يومين ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي خالق لجميع ما وجد من الممكنات ومرب لها، جمع العالم (لاختلاف أنواعه) بالياء والنون تغليباً للعقلاء وجملة ذلك رب العالمين تعليل للتوبيخ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ أي فوق الأرض مرتفعة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٠٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣٧٤، وعبد الرزاق في المصنف ٢٠٣٠٨، والبغوي في تفسيره ٦/ ١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٣٤، وأحمد في المسند ٤/ ٤١٠، ٤١٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٢٥٨، والبغوي في شرح السنة ٥/ ٢٤١، والتبريزي في مشكاة المصابيح ١٥٦٠.

ليظهر للناظرين ما فيها من وجوه الاستبصار ويكون منافعها معرضة للطلاب ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي في الأرض بما خلق فيها من البحار والأنهار والثمار والأشجار والحيوانات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي أقوات أهلها أو الإضافة لأدنى ملابسة أي أقوات خلق فيها، قال الحسن: قسم في الأرض أرزاق العباد والبهائم بأن عَيَّنَ لكل ما يصلحه ويعيش به وقد قرأ ابن مسعود «وقسم فيها أقواتها» وقال عكرمة والضحاك قدر في كل بلد ما لم يجعل في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد، قال الكلبي قدر الخبز لأهل قطر والذرة لأهل قطر والسمك لأهل قطر والتمر لأهل قطر ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي في تتمة أربعة أيام يعني في يومين يوم الثلاثاء والأربعاء متصلين باليومين الأولين فهو كقولك سرتُ من البصرة إلى بغداد في عشرة وإلى كوفة في خمسة عشر ولم يقل في يومين للإشعار باتصالهما باليومين الأولين ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب أي استوت سواءً بمعنى استواءً أو قدر تقديراً سواءً والجملة صفة أيام، ويدل عليه قراءة يعقوب بالجر صفة لأربعة، وقيل حال من الضمير في أقواتها أو في فيها، وقرأ أبو جعفر سواءٌ بالرفع على أنه خبر محذوف أي هو ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلق بمحذوف أي هذا الحصر مبين للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها كذا قال قتادة والسديُّ أو بقدر أي قدر فيها الأقوات للطالبين لها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي قصد نحوها من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على غيره والظاهر أن ثم لتفاوت ما بين الخلقتين لا للتراخي في المدة لقوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٣٠] فإن دحوها متقدم على خلق الجبال من فوقها ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ لعله أراد مادتها والأجزاء المتصغرة التي ركبت منها وكان مادة السماء دخاناً بخاراً للماء كذا قال البغوي ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ بما خلقتُ فيكما من التأثير والتأثر وإبراز ما أودعتُكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة أو ليأت كل منكما في حدوث ما أريد توليده منكما، قال طاوس عن ابن عباس أي أعطيا ما خلقتُ فيكما من المنافع لمصالح العباد، وقال ابن عباس قال الله عزَّ وجلَّ أما أنت يا سماء فاطلعي شمسك وقمرك ونجومكِ وأنتِ يا أرض فشقي أنهارك وأخرجي ثماركِ ونباتكِ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ منصوب على الحال أي طائعتين أو كارهتين أو على الظرف، أي ائتيا وقت طوع أو كرهٍ أو على المصدر من طريق ضربتُه سوطاً أي ائتيا إتيان طوع أو كره، قال ابن عباس قال الله تعالى لهما افعلا ما أمرتكما وإلا ألجأتُكما إلى ذلك حتى تفعلاه كرهاً فأجابتا بالطوع وقالتا أتينا و﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ ولم يقل طائعتين لأنه ذهب به إلى السماوات والأرض ومن فيهن مجازه أتينا بما فينا طائعين، فيه تغليب للعقلاء أو لما وصفهما بالقول أجراهما في الجمع مجرى من يعقل والأظهر أن الكلام وارد مورد التمثيل وأراد بقوله ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إظهار كمال قدرته ووجوب وقوع مراده وبقوله ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ سرعة تأثرهما بالذات فهو تمثيل بأمر المطاع وإجابة المطيع الطائع كقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي فخلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن والضمير للسماء على المعنى أو مبهم وسبع سماوات حال على الأول وتميزٌ على الثاني في يومين يوم الخميس

والجمعة، قال المحلي ففرغ منها في آخر ساعة منه وفيها(خلق آدم) ولذلك لم يقل هاهنا سواء، قلتُ: لعل قول المحلي هذا مبني على ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة أنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق وآخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل»[(١)] والظاهر أن هذا الحديث وهم فيه الراوي فإن الثابت بالقرآن خلق السماوات والأرض في ستة أيام وذكر في هذا الحديث سبعة أيام، والصحيح أن بدء الخلق من يوم الأحد وهذا الحديث يدل على أنه من يوم السبت ومنطوق هذه الآية أن الله خلق الجبال رواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يوم الثالث والرابع وهذا الحديث يدل على أنه خلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين، والظاهر من سياق قصة آدم عليه السلام أن خلق آدم كان بعد زمان طويل من خلق السماوات والأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: ٣٠] الآيات، وفي قصة خلق آدم تعجين طينه أربعين يوماً فلو صح خلق آدم في آخر ساعة من الجمعة فذلك الجمعة بدء الخلق والله أعلم﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ﴾ قال عطاء عن ابن عباس خلق في كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار والجبال والبرد وما لا يعلم إلا الله، وقال قتادة والسديُّ، يعني خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها، وقال مقاتل أوحى إلى كل سماء ما أراد من الأمر والنهي وقيل أوحى في كل سماء الأمر الذي أمر به من فيها من الطاعة﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي كواكب﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظاً، وقيل مفعول له على المعنى كأنه قال وخصصنا السماء الدنيا بمصابيح زينةً وحفظاً ذلك الذي ذكرت من صنعه﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا

---

(١) أخرجه مسلم في المنافقين حديث ٢٧، وأحمد في المسند ٢/ ٣٢٧.

لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ عطف على قل أئنكم يعني إن أعرضوا أي كفار مكة عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ أي فحذرهم أن يصيبهم عذاب شديد مهلك والصاعقة المهلكة من كل شيء ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ﴾ يعني عاداً وثمود ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ جملة إذ جاءتهم الرسل حال من صاعقة عاد ولا يجوز جعله صفةً لصاعقة أو ظرفاً لأنذرتكم لفساد المعنى ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي من جميع جوانبهم واجتهدوا بهم من كل جهة أو من جهة الزمان الماضي بالإنذار عمَّا جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل بالتحذير عما أعد لهم في الآخرة وكل من اللفظين يحتملهما، أو من قبلهم ومن بعدهم إذ قد بلغهم خبر المتقدمين وأخبرهم هود وصالح عن المتأخرين داعين إلى الإيمان بهم أجمعين ويحتمل أن يكون عبارة عن الكثرة كقوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢] ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أن مخففة من الثقيلة بإضمار ضمير الشأن أو مفسرة لأنه بعد ذكر الرسالة وفيه معنى القول أو مصدرية والباء مقدرة أي بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ﴾ أي عاد وثمود ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل لأنزل ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾ برسالته ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ على زعمكم ﴿كَٰفِرُونَ﴾ إنما أنتم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا.

روى البغوي عن جابر بن عبد الله قال قال الملأ من قريش وأبو جهل قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فأتاه فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعتُ الشعر والكهانة والسحر وعلمتُ من ذلك علماً وما يخفى عليَّ إن كان كذلك.

فأتاه فلما خرج إليه قال أنت يا محمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنتَ خير أم عبد الله فبم تشتم آلهتنا وتضلّلُ آباءنا فإن كنتَ إنما تريد الرياسة عقدنا لك أولويتنا فكنتَ رأساً ما بقيتَ وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أيّ بنات قريش وإن كنتَ تريد المال جمعنا لك ما تستغني أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله ﷺ ساكت فَلمَّا فرغ قرأ رسول الله ﷺ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا﴾ إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ الآية فأمسك عتبة على فيه، فناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فاحتبس عنهم.

فقال أبو جهل يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وقد أعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه، فانطلقوا إليه فقال أبو جهل والله يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً وقال والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيتُه وقصصتُ عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ

صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فأمسكت بفيه وناشدتُه بالرحم أن يكف ولقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفتُ أن ينزل عليكم العذاب.

وقال: قال محمد بن كعب القرظي حدثت أن عتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد قال يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد وأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل منا بعضهن فنعطيه ويكف عنا (وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب محمد ﷺ يزيدون ويكثرون) قالوا بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه، فقام عتبة إلى رسول الله ﷺ فقال يابن أخي إنك منا حيث علمتَ من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيتَ بأمر عظيم فرقت جماعتهم وسفهتَ أحلامهم وعبتَ آلهتهم وكفّرتَ من مضى من آبائهم فاستمع مني أعرض عليك أموراً أتنظر فيها، فقال رسول الله ﷺ «قل يا أبا الوليد»، فقال يابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر منَّا مالاً وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا وإن كان هذا الذي بك مهيأ تراه لا تستطيع رده طلبنا لك الطب أو لعل هذا الشعر جاش به صدرك فإنكم لعمري بني عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا يقدر عليه غيركم، حتى إذا فرغ فقال له رسول الله ﷺ أو قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم.

قال فاستمع مني قال أفعل فقال: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ثم مضى فيها يقرأ فلمَّا سمع عتبة أنصت وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد، ثم قال قد سمعتَ يا أبا الوليد فأنتَ وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلمَّا جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال ورائي أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ بمثله قط ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة يا معشر قريش أطيعوني خلوا ما بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأٌ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب به فملكه ملككم وعزّه عزُّكم فأنتم أسعد الناس به، فقالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه قال هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي تعظموا على أهل الأرض بغير استحقاق ﴿وَقَالُوا۟﴾ لما خُوّفوا بالعقاب اغتراراً بقوتهم وشوكتهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يعني ليس أحد أشد قوة منا ندفع العذاب بقوتنا كان أحدهم يقلع الصخرة العظيمة من الجبل يجعلها حيث يشاء فقال الله تعالى ردّاً عليهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الاستفهام للإنكار والعطف على محذوف تقديره أقالوا ذلك ولم يروا أي لم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بمعجزاتنا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي يعرفون أنها حق وينكرونها عطف على قالوا ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ عطف على كانوا ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ عاصفاً شديد الصوت شديد البرد من الصر بمعنى البرد أي يصر أي يجمع ويقبض أو الصرة بمعنى الصيحة ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ .

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب بسكون الحاء والباقون بكسرها أي مشومات ذات نحوس في حقهم، قال الضحاك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ودامت الرياح عليهم من غير مطر، قيل كان آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وما عذب قوم إلا يوم الأربعاء ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ أي عذاب الهوان أضاف العذاب إلى الخزي إضافة الموصوف إلى الصفة مثل رجل الحرب وحاتم الجود بدليل ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ عطف على أرسلنا وهو في الأصل صفة المعذب وصف به العذاب للمبالغة مجازاً ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي دللناهم على الخير والشر بإرسال الرسل وبيناهم سبيل الهدى كذا قال ابن عباس ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الجهل والكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي صيحة من السماء مهلكة للعذاب والهوان والذل وإضافتها إلى العذاب ووصفه بالهون للمبالغة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ من تلك الصاعقة.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ قرأ نافع ويعقوب بفتح النون وضم الشين على صيغة المتكلم المبني للفاعل ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ بالنصب على المفعولية والباقون بضم الياء وفتح الشين على البناء للمفعول وأعداء الله بالرفع ﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يساقون ويدفعون إلى النار، وقال قتادة والسديُّ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، قال البيضاوي وهي عبارة عن كثرة أهل النار ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية ﴿إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ إذا حضروها وما زائدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال السديُّ وجماعة المراد بالجلود الفروج وقال مقاتل ينطق جوارحهم.

روى مسلم عن أنس قال: كنا مع رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مما أضحك»؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول بلى، قال فيقوله فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني فيقول كفى بنفسِكَ اليَوْم عَلَيْكَ شَهِيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فينطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكُنَّ وسحقاً فعنكنَّ أناضل»(١) وفي حديث أبي هريرة عند مسلم «فيختم على فيه ويقول لفخذه أنطق فينطق فخذه ولحمه وعظمه بعمله»(٢) ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي الذين يحشرون إلى النار ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ بعداً لكن وسحقاً فعنكن أناضل وهذا السؤال سؤال توبيخ ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ذي نطق ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قدَّم الظرف للحصر والاهتمام ورعاية الفواصل وهذه الجملة يحتمل أن تكون من تمام كلام الجوارح وأن يكون استئنافاً مثل ما بعده.

روى الشيخان في الصحيحين(٣) والبغوي عن ابن مسعود قال: «اجتمع عند البيت

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ١٦. (٢) أخرجه مسلم في الزهد حديث ١٧.

(٣) انظر البخاري في تفسير سورة ٤١، باب ٢، والتوحيد باب ٤١، ومسلم في المنافقين حديث ٨.

ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فقال أحدهم أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر يسمع ما جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، قال البغوي قيل الثقفي عبد يا ليل والقرشيان ختنا ربيعة صفوان بن أمية فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي آية، قال البغوي معناه تستخفون عند أكثر أهل العلم، وقال مجاهد تتقون، وقال قتادة تظنون يعني ما كنتم تستترون الفواحش من جوارحكم مخافة ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ كما كنتم تستترونها عن الناس مخافة الفضيحة، فالمعنى ما كنتم تظنون أن جوارحكم تشهد عليكم وفيه تنبيه ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك أجرأتم على ما فعلتم ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ أي ظنكم هذا مبتدأ وقوله ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي أهلككم خبران له ويجوز أن يكون ظَنُّكُمُ بَدلاً من اسم الإشارة وأرداكم خبره ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ثم أخبر عن حالهم فقال ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ في النار ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ لا خلاص لهم عنها ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي إن طلبوا العتبى وهو الرجوع إلى ما يحبون ويسترضون ربهم فما هم بمجابين إلى ذلك ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ أي بعثنا ووكلنا، وقال مقاتل هيأنا عطف على قوله في صدر السورة ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥] وبينهما معترضات ﴿لَهُمْ﴾ أي للكافرين ﴿قُرَنَآءَ﴾ جمع قرين ككرماء جمع كريم يعني نظراء من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض وهو القشر وقيل أصل القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا واتباع الشهوات ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب وإنكار البعث ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي كلمة العذاب ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ حال من الضمير المجرور أي كائنين في جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ صفة لأمم ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وقد عملوا مثل أعمالهم صفة أخرى لأمم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ بإيثار موجبات العذاب على موجبات الرحمة تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير لهم أو للأمم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ
أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى
ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾
وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ
وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا
ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ قال ابن عباس

كان بعضهم يوصي إلى بعض إذا رأيتم محمداً يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر واللغو، وقال مجاهد الغوا فيه بالمكاء والصفير، وقال الضحاك أكثروا الكلام فتخلطوا عليه ما يقول، وقال السديُّ صيحوا في وجهه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمداً على قراءته ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضع المظهر موضع الضمير تسجيلاً للكفر وللدلالة على شمول هذا الحكم لهم ولغيرهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي سيئات أعمالهم أو المعنى لنجزينهم جزاء كفرهم الذي هو أسوأ ما كانوا يعملون في الدنيا ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ أي الأسوأ ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ خبره ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء أو خبر محذوف ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي دار الإقامة ﴿جَزَآءً﴾ منصوب على المصدرية لفعله المقدر أي يجزون والجملة تأكيد لما سبق ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي القرآن ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي ينكرون الحق أو المعنى يلغون عند قراءة القرآن وذكر الجحود الذي هو سبب اللغو ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عطف على مضمون الكلام السابق أي عذبوا ذلك العذاب.

وقالوا يعني يقولون بعدما يلقون في النار ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعنون شيطاني النوعين الحاملين إياهما على الضلال والعصيان، وقيل هما إبليس وقابيل بن آدم لأنهما سنا الكفر والمعصية، قرأ ابن عامر وابن كثير ويعقوب وأبو بكر والسوسي أرنا بالتخفيف أي بسكون الراء هاهنا خاصة وقرأ الدوري باختلاس كسرة الراء والباقون بإشباعها[(١)] ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ في النار ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي في الدرك الأسفل من النار قال ابن عباس ليكونا أشد عذاباً منا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي التزموا المنهج المستقيم، قال المحلي نزلت في أبي بكر الصديق وثم لتراخيه عن الإقرار في الرتبة والمراد بالاستقامة الاعتدال وعدم الزيغ والإنحراف عن الحق بوجه من الوجوه لا في الاعتقاد ولا في الأخلاق ولا في الأعمال، قال في القاموس استقام اعتدل وقومته عدلته فهو قويم ومستقيم ومنه الصراط المستقيم للطريق السوي الذي يوصل سالكه إلى المطلوب البتة، فالاستقامة لفظ مختصر شامل لجميع الشرائع من الإتيان بالمأمورات والاجتناب عن المنهيات على سبيل الدوام والثبات، ومن هاهنا أجاب رسول الله ﷺ سفيان بن عبد الله الثقفي حين قال يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك؟ وفي رواية غيرك، قال «قل آمنتُ بالله ثم استقم»[(٢)] رواه مسلم، قال البغوي سئل أبو بكر الصديق عن الاستقامة فقال أن لا تشرك بالله شيئاً[(٣)]، وقال عمر بن الخطاب الاستقامة أن تستقيم على

---

(١) أي بكسرة كاملة ـ أبو محمد ـ.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٦٢، وأحمد في المسند ٤/ ٣٨٥.

(٣) روي عن أبي بكر الصديق أنه قال ما تقولون في هاتين الآيتين إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم قالوا الذين قالوا ربنا الله ثم عملوا بها واستقاموا على أمره فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم لم يذنبوا قال لقد حملتموها على أمر شديد الذين أمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم نقول بشر لا والذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلم يرجعوا إلى عبادة الأوثان ـ كذا في إزالة الخفا للشيخ =

الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب، وقال عثمان بن عفان أخلصوا العمل لله، وقال عليٌّ أدوا الفرائض، وقال ابن عباس استقاموا على أداء الفرائض، وقال الحسن استقاموا على أمر الله فاعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته، وقال مجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة أن لا إله إلاّ الله حتى تلحقوا بالله، وقال مقاتل استقاموا على المعرفة فلم يرتدوا، فكلها عبارات عما ذكرنا فإن قول عمر ليستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب وقول علي وابن عباس، وكذا قول الحسن شامل لجميع ما فرض الله إتيانه أو الاجتناب عنه في العقائد والأخلاق والأعمال، وقول أبي بكر لا تشرك بالله شيئاً وقول عثمان أخلصوا لله العمل بيان لعدم الرياء والسمعة في شيء من الأعمال وهو المعنى من قول مجاهد وعكرمة، فالاستقامة لا تتصور بدون فناء القلب والنفس وحصول المعرفة بالله على ما اصطلح عليه الصوفية وذلك قول مقاتل، وقال قتادة كان الحسن إذا تلا هذه الآية قال اللّهم أنتَ ربُّنا فارزقْنَا الاستقامة وكان الحسن رأس الصوفية ينتهي أكثر السلاسل إليه.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت كذا قال ابن عباس، وقال قتادة ومقاتل إذا قاموا من قبورهم، وقال وكيع بن الجراح البشرى تكون في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ أن مفسرة لأن ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ﴾ يتضمن معنى الوحي الذي فيه معنى القول أو مخففة من الثقيلة اسمه ضمير الشأن أو مصدرية يعني لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة كذا قال مجاهد ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خلفتم من أهلٍ وولدٍ فإنا نخلفكم في ذلك فالخوف غم يلحق لتوقع مكروه والحزن غم يلحق لوقوعه في مكروه من فوات نافع أو حصول ضار، وقال عطاء بن أبي رباح لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم يعني لاتخافوا العقاب ولا تحزنوا على صدور العصيان فإن الله يغفرها لكم ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان الرسل، أخرج أبو نعيم عن ثابت البناني أنه قرأ حم السجدة حتى بلغ إلى قوله ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فقال بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعث من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان لا تخف ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد قال فيأمن الله خوفه ويقر عينه ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني كنا معكم في الدنيا نحفظكم من الشياطين ونلهمكم بالخيرات ﴿وَ﴾ نحن أولياؤكم ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من اللذات والكرامات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب وهو أعم من الأول ﴿نُزُلًا﴾ كائناً ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ نزلاً حال من ما تَدَّعُونَ وفيه إشعار بأن ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطون مما لا يخطر ببالهم كالنزل للضيف، أخرج البزار وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ، «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً»[1] وأخرج ابن

= ولي الله المحدث وروى النسائي والبراز وأبو يعلى وغيرهم عن أنس قال قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا قد قالها ناس من البأس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حين يموت فهو ممن استقام عليها ـ ١٢ ـ منه رحمه الله ـ.

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٤، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٥٢٧، والزبيدي في =

أبي الدنيا عن أبي أمامة «إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الطير في الجنة فيخر مثل البختي حتى يقع على خوانه لم تصبه دخان ولا تمسه نار فيأكل منه حتى يشبع ثم يطير»[(١)] وأخرجه الترمذي وحسنه والبيهقي قال قال رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي»[(٢)] وعند هناد في الزهد عن أبي سعيد قلنا يا رسول الله إن الولد من قرة العين وتمام السرور فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال إذا اشتهى إلى آخره، وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي سعيد الخدري ولم يرفعه قال إن الرجل من أهل الجنة يتمنى الولد فيكون حمله ورضاعه وفطامه وشبابه في ساعة واحدة، وأخرج البيهقي مرفوعاً بلفظ إن الرجل يشتهي الولد في الجنة فيكون إلى آخره، وأخرج في التاريخ والبيهقي نحوه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ يعني لا أحد أحسن ﴿قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ﴾ الناس ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى عبادة الله وتوحيده ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ تفاخراً أو اتخاذاً للإسلام ديناً ومذهباً من قولهم هذا قول فلان لمذهبه، قال محمد بن سيرين والسديُّ هو رسول الله ﷺ، وقال الحسن هو المؤمن أجاب الله في دعوته ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ في إجابته ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وقالت عائشة أرى هذه الآية نزلت في المؤذّنين وقال أبو أمامة الباهلي دعا إلى الله يعني أذّن وَعَمِلَ صالحاً صلّى ركعتين بين الأذان والإقامة، قال قيس بن حازم عمل صالحاً هو الصلاة بين الأذان والإقامة، كن عبد الله بن معقل قال قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة بين كل أذانين صلاة قال في الثالثة بين كل أذانين صلاة لمن شاء»[(٣)] متفق عليه، وعن أنس بن مالك قال لا أعلم وقد رفعه أنس إلى النبيّ ﷺ قال: «لا يرد الدعاء بين الأذان والإقامة»[(٤)] رواه أبو داود والترمذي.

فصل في فضل الأذان

عن معاوية قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»[(٥)] رواه مسلم، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسمع مدى صوت المؤذّن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»[(٦)] رواه البخاري، وعن

=
إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٤١، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٥٥.

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٤١.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنة باب ٢٣، وابن ماجه في الزهد باب ٣٩، والدارمي في الرقاق باب ١١٠، وأحمد في المسند ٣/ ٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان باب ١٤، ١٦، ومسلم في المسافرين حديث ٣٠٤.

(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة باب ٤٤، والدعوات باب ١٢٨، وأحمد في المسند ٣/ ١١٩، ١٥٥، ٢٢٥، ٢٥٤.

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ١٤، وابن ماجه في الأذان باب ٥، وأحمد في المسند ٣/ ١٦٩، ٢٦٤، ٤/ ٩٥، ٩٨.

(٦) أخرجه البخاري في الأذان باب ٥، والتوحيد باب ٥٢، وبدء الخلق باب ١٢، والنسائي في الأذان باب ١٤، ومالك في النداء حديث ٥، وأحمد في المسند ٣/ ٣٥، ٤٣.

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين»[١] رواه أحمد وأبو داود والترمذي والشافعي، وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «من أذن سَبع سنين محتسباً كتب له براءة من النار»[٢] رواه الترمذي وابن ماجه وأبو داود، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة على كثبان المسك عبد أدى حق الله وحق مولاه ورجل أمَّ قوماً وهم به راضون ورجل ينادي بالصلوات الخمس كل يوم وليلة»[٣] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «المؤذن يغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطب ويابس وشاهد الصلاة يكتب له خمس وعشرون صلاة ويكفر عنه ما بينهما»[٤] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «ثنتان لا تردان أو قلما تردان الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً»[٥] وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من أذّن[٦] ثنتي عشرة سنة وجبت له الجنة وكتب له بتأذينه في كل يوم ستون حسنة وبكل إقامة ثلاثون حسنة»[٧] رواه ابن ماجه، وعنه قال كنا نؤمر بالدعاء عند أذان المغرب، رواه البيهقي في الدعوات الكبير.

فصل في جواب الأذان

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا عليَّ فإنه من صلّى عليَّ صلاة صلّى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي»[٨] رواه مسلم، وعن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر فقال أحدكم الله أكبر الله أكبر» الحديث، يعني يقول مثل ما يقول المؤذن «وحين يقول حي على الصلاة وحي على الفلاح يقول لا حول ولا قوة إلا بالله دخل الجنة»[٩] رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمر قال رجل يا رسول الله إن المؤذنين يفضلوننا فقال رسول الله ﷺ «قل كما يقولون فإذا انتهيتَ فسل تعط»[١٠] رواه أبو داود.

---

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة باب ٣٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٢، ٢٨٤، ٣٧٨، ٣٨٢، ٤١٩.

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة باب ٣٨، وابن ماجه في الأذان باب ٥.

(٣) أخرجه الترمذي في البر باب ٥٤، والجنة باب ٢٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦.

(٤) أخرجه النسائي في الأذان باب ١٤، وابن ماجه في الأذان باب ٥، وأحمد في المسند ٢/ ١٣٦، ٢٦٦، ٤١١.

(٥) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٣٩.

(٦) عن عمر بن الخطاب أنه قال لو أطقت الأذان مع الخلافة لأذنت ـ منه رحمه الله ـ.

(٧) أخرجه ابن ماجه في الأذان باب ٥.

(٨) أخرجه البخاري في الأذان باب ٧، ومسلم في الصلاة حديث ١٠، ١١.

(٩) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ١٢.

(١٠) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ٣٦، وأحمد في المسند ٢/ ١٧٢.

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ في الجزاء وحسن العاقبة ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفي يعني مهما أمكن للإنسان فلا بد أن يختار الخصلة الحسنة على الخصلة السيئة فليختر الصبر على الغضب والحلم على الجهل والعفو على الانتقام والسخاء على البخل والشجاعة على الجبن والعفة على العنتِ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى﴾ أي بالخصلة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ المراد بالأحسن هاهُنا الزائد في الحسن مطلقاً إذ لا حسن في السيئة أصلاً، قال ابن عباس أمر بالصبر في مقابلة من يغضب عليه وبالحلم في مقابلة من يجهل عليه وبالعفو في مقابلة من يسيء إليه، وقيل معناه لا تستوي الحسنة في جزئياتها ولا تستوي السيّئة في جزئياتها بل بعضها فوق بعض في الحسن والسوء فإذا اعترضك من بعض أعدائك سيئة فادفعها بأحسن الحسنات كما لو أساء إليك رجل فالحسنة أن تعفو عنه والتي أحسن أن تحسن إليه ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ إذا للمفاجأة أضيف إلى الجملة والعامل فيه معنى المفاجأة والمعنى فوجيء ذلك وقت صيرورة الذي بينك وبينه عداوة ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ الذي مبتدأ وكأنَّه خبر وإذا ظرف لمعنى التشبيه، وقوله ادفع إلى آخره جملة مستأنفة كأنه قيل كيف أصنع إذا أساء أحد إليَّ فقال ادفع، قال مقاتل بن حبان نزلت في أبي سفيان بن حرب وليس بسديد لأن الآية مكية وإسلام أبي سفيان كان بعد الفتح ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ جملة معترضة أي ما يؤتى هذه الخصلة وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على مخالفة النفس والهوى ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من التجليات الصفاتية والذاتية فإن النفس إذا تجلت عليها الصفات الحسنى انسلخت من صفاتها السوأى ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ عطف على ادفع وما زائدة اتصلت بأن الشرطية ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النزغ شبه النخس والشيطان ينزغ كأنه ينخس ويبعث على المعصية، وفي القاموس نزغه كمنعه طعن فيه ونزغ بينهم أفسد وأغرى ووسوس وهو فعل الشيطان أسند إلى نزغه مجازاً على طريقة جد جده وعلى هذا من للابتداء أو أريد بالنزغ المسند إليه الفارغ وصفاً للشيطان بالمصدر مبالغةً ومِنَ الشَّيطَان بيان له حال منه والمعنى وإن وسوس فيك الشيطان وحملك على الانتقام ومقابلة الإساءة بالإساءة ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شره ولا تطعه هذا جواب الشرط وجواب الأمر محذوف أي يدفع الله عنك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيتك وصلاحك.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ
ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ
إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ
أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ
حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿٤٣﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ فإن كل واحد منها تدل على وجوب وجود صانعها وصفاته الكاملة ووحدانيته ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنهما مخلوقان مأموران مثلكم ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير للأربعة المذكورة والمقصود تعليق الفعل بهما إشعاراً بأنهما من عداد ما لا يعلم ويختار ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإن السجود يختص لله تعالى وهذا موضع السجود عند الشافعي رحمه الله لاقتران الأمر به وهو مروي عن ابن مسعود وابن عمر، أخرج الطحاوي بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد يذكر أن عبد الله بن مسعود كان يسجد في الآية الأولى من ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ وأخرج بسنده عن نافع عن ابن عمر مثله ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الامتثال والسجود شرط حذف جزاؤه وأقيم علته مقامه تقديره فإن استكبروا لا يضره ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ أي لأن الذين ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ عندية غير متكيفة وهم الأنبياء والملائكة والأولياء ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ عطف أو حال أي لا يملُّون بل يتلذذون به قال رسول الله ﷺ «أرحني يا بلال»، قال أبو حنيفة رحمه الله هذا موضع السجود وهو المروي عن ابن عباس، أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه والطحاوي عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان يسجد في الآية الأخيرة من ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ تنزيل، وزاد في رواية رأى رجلاً يسجد عند قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فقال له قد عجلت، وأخرج الطحاوي عن مجاهد قال سألتُ عن ابن عباس عن السجود الذي في ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ قال اسجد بآخر الآيتين، وروى الطحاوي أيضاً بسنده عن أبي وائل أنه كان يسجد في الآية الأخيرة من حم وروي عن ابن سيرين مثله، وعن قتادة مثله قال صاحب الهداية هذا قول عمر، قال ابن همام كونه قول عمر غريب وأخذ أبو حنيفة هذا القول للاحتياط فإنه إن كان السجود عند تَعبُدوُنَ لا يضره التأخير إلى الآية الأخيرة وإن كان عند لا يسأمون لم يكن السجود قبله مجزيّاً.

وقال الطحاوي ما حاصله إن السجود في الآية الأخيرة هو مقتضى النظر وذلك أنا رأينا السجود المتفق عليه هو عشر سجدات منها الأعراف وموضع السجود منها قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

ومنها الرعد وموضع السجود منها ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] ومنها النحل وموضع السجود منها عند قوله ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٤٩] إلى قوله ﴿يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩] ومنها بني إسرائيل وموضع السجود منها عند قوله و﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] إلى قوله ﴿خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] ومنها مريم وموضع السجود منها عند قوله ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ

خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] ومنها الحج والمتفق عليه فيها عند قوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨] الآية ومنها الفرقان وموضع السجود منها عند قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] الآية ومنها النمل وموضع السجود منها ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ [النمل: ٢٥] الآية ومنها ﴿الٓمٓ ①﴾ [البقرة: ١] تنزيل وموضع السجود منها عند قوله ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [السجدة: ١٥] الآية ومنها ﴿حمٓ ①﴾ تنزيل وموضع السجود منها مختلف فيه فقال بعضهم ﴿يَعْبُدُونَ﴾ وبعضهم ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾.

وكان كل موضع من المواضع المذكورة موضع إخبار يعني من استكبار المتكبرين أو من خشوع الخاشعين ولزمنا مخالفة المتكبرين وموافقة الخاشعين وليس شيء منها بموضع أمر بالسجود وقد رأينا السجود مذكوراً في مواضع أخر بصيغة الأمر منها قوله تعالى: ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى﴾ [آل عمران: ٤٣] ومنها ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٨] وليس هناك سجود بالإجماع فالنظر يقتضي أن يكون كل موضع فيها الأمر بالسجود يحمل على الأمر بالعبادة والسجود الصلاتية وكل موضع فيها الإخبار يكون هناك سجدة التلاوة وهذا النظر يقتضي أن لا يكون في الحج سجدة ثانية لأنه بلفظ الأمر حيث قال الله تعالى: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧] ومن ثم قال أبو حنيفة هي سجدة صلاتية يدل عليها المقارنة بالركوع وأن لا يكون في هذه السورة عند الآية الأولى سجدةً لكونه بصيغة الأمر وأن يكون عند الآية الأخيرة لكونه بصيغة الإخبار، وهذا النظر يقتضي أن يكون في سورة ﴿صٓ﴾ سجدة تلاوة كما قال أبو حنيفة خلافاً لغيره لأن موضع السجود منها إخبار ليس بأمر وهو قوله ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] وكذا في سورة إذا السماء انشقت في قوله ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑳﴾ [الانشقاق: ٢٠] ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠] فإنه موضع إخبار وليس بأمر، غير أن هذا النظر يقتضي أن لا يكون في سورة النجم واقرأ سجدة لأن موضع السجود منهما قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ⑥②﴾ [النجم: ٦٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] وهما بصيغة أمر لكن أبو حنيفة رحمه الله ترك النظر هناك لاتباع ما قد ثبت عنده عن رسول الله ﷺ كما ذكرنا هُناك وقد قال مالك لا سجود في المفصل، قلتُ وقد ذكرنا في سورة الحج ما يدل على أن فيها سجدتين والله أعلم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي دلائل قدرته ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يابسة غبراء لا نبات فيها مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي تحركت ﴿وَرَبَتْ﴾ أي علت وانتفخت بخروج النبات ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ أي أحيا نباتها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإحياء والإماتة ﴿قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قال مجاهد يلحدونَ في آياتنا[1] بالمكاء والتصدية واللغو

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال إن هذا القرآن كلام الله فضعوه في مواضعه ولا تتبعوا فيه هواكم منه رحمه الله.

واللغط، وقال قتادة يكذبون آياتنا، وقال السدي يعاندون ويشاقون، قال مقاتل نزلت في أبي جهل، قلتُ: واللفظ يعم من يلحد بالتكذيب والإلغاء ومن يلحد بالتحريف والتأويل الباطل المخالف لتأويل السلف ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فلا يأمنوا عن الجزاء والانتقام ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره يفتخر هؤلاء الكفار ويعجبون بأنفسهم أَفَمَنْ يُلْقَى ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ أبو جهل وأمثاله ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أخرج ابن المنذر عن بشير بن فتح قال نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر وقيل من يأتي آمناً هو حمزة وقيل عثمان واللفظ يعمهم وغيرهم، ذكر الله سبحانه الإتيان آمناً في مقابلة الإلقاء في النار مبالغةً وكان القياس أن يقال أفمن يلقى في النار خير أم من يدخل الجنة لأن مفاد الكلام أن الآتي آمناً خير ممن يلقى في النار فكيف من يكرم ويدخل الجنة ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ [(١)] أيها الكفار ﴿مَا شِئْتُمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم على ما تعملون فيه تهديد شديد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ أي القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أن مع جملتها بدل من قوله إن الذين يلحدون أو مستأنف وخبر إن محذوف مثل معاندون أو هالكون أو يجازيهم بكفرهم وقيل خبره قوله من بعد ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ حال أو استئناف، قال الكلبي عن ابن عباس أي كريم على الله، وقال قتادة أعزّه الله فلا يجد الباطل إليه سبيلاً ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ قال قتادة والسديُّ الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه، قلتُ: وهو يعم شياطين الإنس والجن كما أن الروافض زادوا في القرآن عشرة أجزاء فلم يستطيعوا وردّ الله كيدهم وزادوا في بعض الآيات وبعض الألفاظ كما قالوا في قوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] على ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ونحو ذلك فإنهم فعلوا ذلك وأبطل الله عملهم فلم يلتحق بالقرآن، قال الزجاج معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه وعلى هذا معنى الباطل الزيادة والنقصان، وقال مقاتل لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ولا يجيء بعده كتاب يبطله أو ينسخه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ كامل الحكمة ﴿حَمِيدٍ﴾ يحمده كل مخلوق بما ظهر عليه من نعمة وهو حميد في نفسه لا يحتاج إلى أن يحمده غيره ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قيل هذا تسلية للنبي ﷺ بأنه ما يقول لك كفار مكة قد قيل مثله للأنبياء من قبلك أنه ساحر كذاب فاصبر كما صبروا ولا تغتم به، وقيل معناه ما أوحي إليك إلا مثل ما أوحي إليهم من التوحيد وأصول الدين والوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين وقيل مقول القول قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للمؤمنين ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ للكافرين والجملة على الأول مستأنفة.

---

(١) عن ابن عباس في قوله اعملوا ما شئتم قال لأهل البدر خاصة وعن ابراهيم النخعي ذكر أن السماء فرجت يوم بدر فقيل اعملوا ما شئتم ـ منه رحمه الله.

ولما قال الكفار اقتراحاً وتعنتاً هل أنزل القرآن بلغة العجم يعنون كما أنزلت التوراة والإنجيل نزلت ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي لو جعلنا هذا الذكر الذي تقرأه على الناس ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي مقروءاً بلغة العجم ﴿لَّقَالُوا۟﴾ يعني أهل مكة ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿فُصِّلَتْ﴾ بينت ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ بلغة العرب حتى فهمناها هذه الجملة متصلة بجمل واردة في صدر السورة في مدح القرآن أعني كتَابٌ فصلت آياته ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ قرأ هشام[1] أعجمي بهمزة واحدة من غير مد على الخبر يعني كتاب أعجميٌّ ورسول عَرَبيٌّ والباقون بهمزتين على الاستفهام للإنكار فقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي[2] بهمزتين محققتين والباقون بهمزة ومدة[3] وقالون وأبو عمرو[4] يشبعانها لأن من قولهما إدخال الألف بين الهمزة المحققة والملينة وورش[5] على أصله في إبدال الهمزة الثانية الفاً من غير فاصل بينهما وابن كثير أيضاً على أصله في جعل الثانية بين بين من غير فاصل وهكذا قرأ حفص[6] وابن ذكوان[7] في هذا المقام خاصة، قال مقاتل وذلك أن رسول الله ﷺ كان يدخل على يسار غلام لعامر الحضرمي وكان يهودياً أعجمياً يكنى أبا فكيهة فقال المشركون إنما يعلمه يسار فضربه سيده وقال إنك تعلّم محمداً فقال يسار هو يعلّمني فأنزل الله هذه الآية، وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال قالت قريش لولا أنزل هذا القرآن أعجمياً وعربياً فأنزل الله لقالوا لولا فصّلتْ آياته الآية وأنزل الله بعد هذه الآية فيه لكل لسان، قال ابن جرير والقراءة على هذا أعجمي بلا استفهام ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَشِفَآءٌ﴾ التنكير للتعظيم أي هدى وشفاء عظيم لما في الصدور من الجهل ورذائل أوصاف القلب والنفس وقيل شفاء من الأمراض والأوجاع ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ خبره ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي ثقل لقوله ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي ظلمة وشبهة، قال قتادة عموا عن القرآن وصموا عنه فلا ينتفعون به والأخفش جوز العطف على معمولي عاملين والمجرور مقدم فالموصول عنده عطف على الموصول في ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تمثيل لهم في عدم قبولهم وعدم استماعهم له بمن يُصاح به من مسافة بعيدة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ
لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

---

(١) ورويس بخلاف عنه ـ أبو محمد ـ.
(٢) وخلف وروح ـ أبو محمد ـ.
(٣) أي بهمزة سهلة ـ أبو محمد ـ.
(٤) وأبو جعفر ـ أبو محمد ـ.
(٥) بخلاف عنه ـ أبو محمد ـ.
(٦) وورش في وجه الثانية.
(٧) ورويس بخلاف عنه.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ
يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ
مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ
أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ
لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى
ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ
ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ
أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ
مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ﴾ جواب لقسم محذوف يعني اختلف قوم موسى بالتصديق والتكذيب كما اختلف قريش في القرآن ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عن المكذبين إلى يوم القيامة أو إلى أجل معلوم ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لفرغ من عذابهم وعجل إهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي المكذبين ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من التوراة أو من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ نفعه ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ﴾ مضرته ﴿رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فلا يضيع عمل المحسنين ولا يزيد على جزاء المسيئين أورد صيغة المبالغة تعريضاً على الكفار بأنهم هم الظلامون المبالغون في الظلم والله سبحانه لا يتصور منه الظلم أصلاً لأن الظلم أن يتصرف أحد في ملك غيره بغير إذنه.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ أي علم وقت قيامها يرد إليه يعني يجب على كل من سئل عنها أن يقول الله أعلم إذ لا يعلمها إلا هو ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي من أوعيتها جمع كِم بالكسر، قرأ نافع[1] وابن عامر وحفص ثمراتٍ على الجمع والباقون ثَمرَتٍ على التوحيد بإرادة الجنس، وما نافية ومن الأولى مزيدة للاستغراق وثَمرَاتٍ في محل الرفع ويحتمل أن تكون ما موصولة معطوفة على الساعة ومن بيانية بخلاف قوله ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ فإنها نافية ومن زائدة البتة ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أي أنثى ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾ أي إلا مقروناً بعلمه حسب تعلقه به والمراد أنه كما لا يعلم بالساعة غيره كذلك لا يعلم بما يخرج من الثمرات وما تحمل أنثى إلا هو، قوله إلاَّ بعلمه استثناء مفرغ يتوجه إلى الأفعال الثلاثة على سبيل التنازع أعمل الأخير وقدر في الأولين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي يوم ينادي الله المشركين بقوله ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ قرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها يسألهم الله تهكما وتوبيخاً أين شركائي التي كنتم تزعمونها آلهة ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي المشركون ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك الآن ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي من يشهد لهم بالشرك الجملة حال يعني يتبرؤون عنهم لمَّا عاينوا العذاب أو المعنى ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم غابوا عنَّا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ يعني لا ينفعهم أو غاب عنهم فلا يرون ﴿مَّا

---

(١) وأبو جعفر.

﴿كَانُوا يَدْعُونَ﴾ أي يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ ذلك اليوم يعني في الدنيا ﴿وَظَنُّوا﴾ أي أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي مهرب، الظن معلق عنه بحرف النفي وقيل جملة المنفي سدَّ مسد المفعولين.

﴿لَّا يَسْأَمُ﴾ أي يمل ﴿الْإِنسَانُ﴾ الكافر ﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ لا يزال يسأم الله تعالى المال والغنى والصحة ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي الشدة من الفقر والمرض ﴿فَيَئُوسٌ﴾ أي فهو يؤس من روح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ أي الكافر جواب قسم محذوف ﴿رَحْمَةً﴾ مالاً وعافية ﴿مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ جواب للقسم لفظاً وللشرط معنى يعني هذا حقي لما فيَّ من الفضل والعمل والعلم، أو هذا لي دائماً لا يزول ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي تقوم ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ قرأ أبو عمرو ونافع[(١)] بخلاف عن قالون بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يعني لئن قامت القيامة على التوهم لكان لي عند الله الحالة الحسنة من الكرامة وذلك لاعتقاده أن ما له من الدنيا إنما هو لاستحقاقه الكرامة الغير المنفك عنه ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جواب قسم محذوف والفاء للسببية ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ قال ابن عباس لنفتنهم على مساوىء أعمالهم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يمكنهم التقصي عنه.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾ الكافر ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿بِجَانِبِهِ﴾ أي ثنى عطفه، وقيل الجانب كناية عن النفس كالجنب في قوله تعالى: ﴿جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] يعني ذهب بنفسه وتباعد عنه بكليته لكمال الغلفة ﴿مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثير مستعار ممَّا له عرض وسيع للإشعار بكثرته والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة، يقال أطال في الكلام والدعاء وأعرض أي أكثر والعريض أبلغ من الطويل إذ الطول أطول الامتدادين فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله من ثم قال الله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولا منافاة بين قوله ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ وبين قوله ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ لأن الأولى في قوم آخرين ولعل الأولى في الكفار و ﴿لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] و﴿ومن يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون[(٢)]﴾ [الحجر: ٥٦] والثانية في الغافلين من المؤمنين، وجاز أن يكون كلا الآيتين في الكفار والمراد أنهم إذا مسَّهم شر دعوا مخلصين له الدين فإذا رأوا تأخراً في الإجابة يئسوا وقنطوا بخلاف المؤمنين الصالحين فإنهم لا يقنطون ويرون في تأخير الإجابة حكمة، قال رسول الله ﷺ: «إما أن يعجلها لهم وإما أن يدخرها لهم»[(٣)] أو يقال يؤوس قَنُوط بالقلب وذُو دُعَاءِ عَرِيُضٍ باللسان أو قنوط الصنم وذو دعاء من الله تعالى.

مسألة: من أحب أن يستجاب دعاؤه في الشدة فليكثر الدعاء في الرخاء[(٤)] كذا ورد في حديث رواه (   )[(٥)].

---

(١) وأبو جعفر.

(٢) وفي القرآن: إلا الضالون.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٤٨.

(٤) أخرجه بنحوه أبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/٢٩.

(٥) بياض في الأصل.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ هذه الجملة متصلة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ كان الأصل من أضل منكم فوضع الموصول موضع الضمير شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم لأنه في تأويل قوله إن كان القرآن من عند الله كان حقاً بلا شبهة وكان الكفر به شقاقاً بعيداً من الحق وأنتم قد كفرتم به فلا أضل منكم ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ قال ابن عباس يعني منازل الأمم الخالية ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني يوم بدر وكذا قال قتادة، وقيل في أنفسهم البلايا والأمراض، وقال مجاهد والسديُّ في الآفاق ما يفتح القرى على محمد ﷺ والمسلمين ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فتح مكة، وقال عطاء وابن زيد في الآفاق يعني في أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، قال البيضاوي في الآفاق يعني ما أخبرهم النبيّ ﷺ من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجه خارق للعادة ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حلّ بهم، أو ما في بدن الإنسان من عجائب الصنع الدالة على كمال القدرة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن من عند الله والرسول مؤيد من الله أو التوحيد مؤيد من الله ودين الله حق أو الله هو الحق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ الباء زائدة وربك في محل الرفع على الفاعلية ولا تزاد الباء في الفاعل إلا مع كفى ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل من الفاعل والمعنى أَوَلَمْ يكْفِ أن ربك على كُلّ شيء شَهِيدٌ، والاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أتشك في عاقبة أمرك ولم يكف أنه تعالى على كل شيء شهيد محقق فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة أو أنه تعالى مطلع فيعلم حالك وحالهم أو المعنى ألم ينته الإنسان عن المعاصي ولم يكف له رادعاً أنه تعالى مطلع على كل شيء لا يخفى عليه خافية فيجازيه عليها، وقال مقاتل أولم يكف بربك شاهداً على أن القرآن من الله شهادته على ذلك جعله معجزاً، وقال الزجاج معنى الكفاية أن الله تعالى قد بين من الدلائل ما فيه كفاية يعني أولم يكف بربك شاهداً لأنه على كل شيء شهيد لا يغيب عنه شيء.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ أي شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي من البعث والجزاء ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ علماً بإجمالها وتفصيلها مقتدر عليها لا يفوقه شيء منها أو أنه محيطٌ بكل شيء إحاطةً ذاتيةً غير متكيفة لا يفوته شيء منها.

تمت سورة فصلت تفسيرها من التفسير المظهري في اليوم الثامن والعشرين من شهر صفر من السنة الثامنة بعد الف ومائتين سنة ١٢٠٨هـ من الهجرة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير سورة الشورى والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشورى

آياتها ثلاث وخمسون وهي مكيَّةٌ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ قال البغوي سئل الحسن بن الفضل لم قِطع حٰمٓ عسق ولم يقطع كهيعص فقال لأنها سورة من سور أوائلها حٰمٓ فجرت مجرى نظائرها، ولأن ﴿حمٓ ۝١﴾ مبتدأ وعسق خبره ولأنهما عدا آيتين وأخواتها مثل ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] و﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] عدت آية واحدة، وقيل أهل التأويل لم يختلف في كٓهيعٓصٓ وأخواتها إنها حروف للتهجي لا غير واختلفوا في ﴿حمٓ ۝١﴾ وأخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلها فعلاً معناه حُمَّ أي قضى ما هو كائن، وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ح حلمه ومجده ع علمه س سناؤه ق قدرته أقسم الله بها، وقال شهر بن حوشب وعطاء بن أبي رباح: ح حرف يعز فيها الذليل ويزل فيها العزيز من فرس م ملك يتحول من قوم إلى قوم آخر ع عدو لقريش يقصدهم س سيىء بكدر فيهم ق قدرة الله النافذة في خلقه، وروي عن ابن عباس أنه قال ليس من نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحيت إليه ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ حيث قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب لقهره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المصيب في حكمه أي مثل ما في هذه السورة من المعاني أو إيحاء مثل إيحائها أوحى الله إليك وإلى الرسل من قبلك، ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي وأن إيحاء مثله عادته تعالى، قرأ الجمهور يوحي بكسر الحاء على المضارع المبني للفاعل والله فاعله وقرأ ابن كثير بفتح الحاء على البناء للمفعول على أن كذلك مرفوع على الابتداء أي مثل ذلك ويوحٰى خبره المسند إلى ضميره أو كذلك منصوب على المصدر ويُوحٰى مسند إلى إليك والله مرفوع على أنه فاعل لفعل محذوف دل عليه السؤال المقدر يعني من يوحي إليه فقال الله كما في قول الشاعر[1]:

---

(١) عجزه: =

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ ....

على البناء للمفعول، والعزيز الحكيم صفتان له مقررتان لعلو شأن الموحى به أو الله مبتدأ والعزيز وما بعد أخبار أو العزيز الحكيم صفتان وكذا قوله ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صفة بتقدير الذي أو حال ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ على خلقه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ حال آخر أو تذييل وهو على الوجوه الأخر جملتان مستأنفتان مقررتان لعزته وحكمته.

﴿تَكَادُ﴾ قرأ نافع والكسائي بالياء التحتانية لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي والباقون بالتاء الفوقانية لتأنيث ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي يتشققن من عظمة الله تعالى وعلو شأنه يدل عليه ذكره بعد قوله: ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وقيل يتفطرن من قول المشركين اتخذ الله ولداً نظيره في سورة مريم ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ [مريم: ٨٩ - ٩٠] وقيل يتشققن من كثرة الملائكة قال رسول الله ﷺ: «أطت[١] السماء وحقها أن تأط والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده»[٢] رواه ابن مردويه عن أنس ورواه البغوي بلفظ «ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد» قرأ البصريان وأبو بكر يَنْفطرنَ من الانفطار ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية وتخصيصها على الأول لأنه أعظم الآيات وأدلها على علو شأنه وعلى الثاني ليدل على أن الانفطار من تحتهن بالطريق الأولى وعلى الثالث لازدحام الملائكة على الفوق، وقيل الضمير للأرض فإن المراد بها الجنس وهذا على الثاني ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾ أي ينزهون عما يقول الظالمون من نسبة الولد وكل ما لا يليق بشأنه خضوعاً لما يرون من عظمة الله سبحانه ملابسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أداء لشكر نعمائه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المؤمنين أداء لحق المشاركة في الإيمان والجملة حال ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لأوليائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ شركاء وأنداداً ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم يحصى عليهم فيجازيهم بها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم﴾ يا محمد ﴿بِوَكِيلٍ﴾ بموكل بهم تحصل المطلوب منهم أو موكول إليك أمرهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ

=

وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

والبيت من الطويل، وهو للحارث بن نهيك في خزانة الأدب ١/ ٣٠٣، والكتاب ١/ ٢٨٨، وللبيد بن ربيعة في ملحق ديوانه ص٣٦٢، ولنهشل بن حري في خزانة الأدب ١/ ٣٠٣، ولضرار بن نهشل في الدرر ٢/ ٢٨٦، وللحارث بن ضرار في شرح أبيات سيبويه ١/ ١١٠.

(١) الأطيط: صوت الأقتاب، وأطيط الإبل أصواتها وحنينها. أي أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٩، وابن ماجه في الزهد باب ١٩، وأحمد في المسند ٥/ ١٧٣.

وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الإشارة إلى مصدر يوحي وقوله ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على المفعولية أو هو إشارة إلى معنى الآية المتقدمة فإنه مكرر في القرآن في مواضع فتكون الكاف مفعولاً به وقوله قرآناً عربياً حالاً منه ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهلها وهي مكة فإن أكثر قرى العرب خرجت منها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي العرب لينصروه في إعلاء كلمة الله أو قرى الأرض كلها مشرقها ومغربها وجنوبها وشمالها قال رسول الله ﷺ: «فضلتُ على الأنبياء بخمس بعثتُ إلى الناس كافةً وذخرتُ شفاعتي لأمتي ونصرتُ بالرعب شهراً أمامي وشهراً خلفي وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأحلت لي الغنائم ولم يحل لأحد قبلي»[١] رواه الطبراني بسند صحيح عن السائب بن يزيد.

وروى مسلم في الصحيح والترمذي عن أبي هريرة قوله ﷺ «فضلتُ على الأنبياء بست أعطيتُ جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً وأرسلت إلى الخَلق كافة وخُتم بي النبيون»[٢] ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي لتنذرهم بيوم القيامة الذي يجمع فيه الأولون والآخِرون حذف ثاني مفعولي تنذر الأول وأول مفعولي الثاني للتهويل والتعميم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له من الإعراب ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ تقديره (فريقٌ منهم في الجنَّةِ وفريُقٌ منهم في السَّعِير) وضمير منهم للمجموعين لدلالة الجمع عليه والجملتان منصوبتان على الحال منهم أي وينذرهم يوم يجمعون كائنين متفرقين في داري الثواب والعقاب أو مستأنفتان، عن عبد الله بن عمرو قال خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم قابض على كفيه ومعه كتابان قال «أتدرون ما هذان الكتابان»؟ قلنا: لا يا رسول الله فقال للذي في يده اليمنى «هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا في الأصلاب وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد منهم ولا ناقص منهم إجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة»، ثم قال للذي في يساره «هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا في الأصلاب وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم إجمال من الله

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٩، والطبراني في المعجم الكبير ٧/ ١٨٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣١٩٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٥، والترمذي حديث ١٥٥٣، وأحمد في المسند ٢/ ٤١٢.

عليهم إلى يوم القيامة»، فقال عبد الله بن عمرو ففيم العمل إذاً؟ فقال «اعملوا وسددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيَّ عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيَّ عمل، ثم قال فريقٌ في الجَنَّةِ وفريق في السعير عدل من الله عزّ وجل»(١) رواه البغوي وكذا روى الترمذي.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ عطف على مضمون فريقٌ في الجنَّةِ أي الأمة أي يفترقون فريقين قال ابن عباس على دين واحد، وقال مقاتل على دين الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالهداية إلى دين الإسلام ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الكافرون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي لا يدخلهم في رحمته فلا يكون لهم ولي يدفع عنهم العذاب ولا نصير يمنعهم من النار ولعل تغير المقابلة للمبالغة في الوعيد إذ الكلام في الإنذار ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ عطف على ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الآية، أم منقطعة بمعنى بل للإضراب والهمزة للإنكار يعني الكافرون لم يتخذوا الله ولياً ونصيراً بل اتخذوا ﴿مِن دُونِهِ﴾ كالأصنام والشياطين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ لا ينبغي ذلك أو المعنى ليس المتخذون أولياء ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جواب شرط محذوف مثل إن أرادوا أولياء فالله هو الولي يعني هو الحقيق بأن يتخذ ولياً ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ ليجزي كل نفس ما عملت ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذه الجملة في مقام التعليل لقوله هو الولي، وقال ابن عباس فالله وليك وولي من تبعك أي ناصرك وإياهم، والفاء حينئذ لمجرد العطف لا لجزاء الشرط.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ من أمر الدين ﴿فَحُكْمُهُ﴾ مفوض ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يحكم يوم القيامة بينهم فيميز المحق من المبطل، وقيل ما اختلفتم فيه من تأويل متشابه فارجعوا فيه إلى المحكم من الله ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي يحكم بينكم ﴿اللَّهُ﴾ أي قل لهم يا محمد ذلكم الله ﴿رَبِّي﴾ بدل من الله أو عطف بيان ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في رد كيد الأعداء وفي الأمور كلها ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي ارجع في المعضلات ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما، خبر آخر لذلكم أو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره ما بعده ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساء ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي جعل للأنعام من الأنعام أزواجاً أو جعل لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً، جملة جعل على التقدير الأولين حال بتقدير قد ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي يكثركم من الذرء وهو البث الضمير للمخاطبين والأنعام تغليباً ﴿فِيهِ﴾ أي في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجاً ليكون بينهم توالد وقيل فيه أي في الرحم وقيل في البطن، وقيل في بمعنى الباء أي يذرؤكم به، قيل معناه يكثركم بالتزويج ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ المثل زائد والمعنى ليس هو كشيء فأدخل المثل للتأكيد كقوله ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ [البقرة: ١٣٧] وقيل الكاف زائدة ومعناه ليس مثله شيء يزاوجه ويناسبه، قال ابن عباس ليس له نظير، وقيل هذا من باب الكناية نظيره قولهم مثلك لا يفعل كذا على قصد المبالغة في نفيه عنه فإنه إذا نفى عمَّنْ يناسبه ويسدُّ مسده كان نفيه عنه بالطريق الأولى وإذا

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي حديث ٢١٤١، وأحمد في المسند ٢/١٦٧، والبغوي في تفسيره ٦/١١٧.

كان كناية فلا يقتضي أن يكون له مثل فإن في الكناية لا يشترط تحقق المعنى الحقيقي كما يقال فلان طويل النجاد وإن لم يكن له نجاد أصلاً ونظيره قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] كناية عن كونه جواداً مع استحالة الجارحة، وقيل معنى مثله صفته، أي ليس كصفته صفة شيء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لكل ما يسمع ويبصر وكل سميع وبصير فسمعه وبصره مستعار منه تعالى كأنه ذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له كما أنه لا مثل له ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خزائن الرزق في السماوات والأرض، قال الكلبي المطر والنبات ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع ويضيق على وفق مشيئته ابتلاء وامتحاناً ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعل على ما ينبغي.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾
فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ
لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ
غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ
﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ
الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا
وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا
كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا
كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ
عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

﴿شَرَعَ لَكُم﴾ يا أمة محمد ﷺ ﴿مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني أن دين الإسلام الذي شرع الله لأمة محمد ﷺ ليس أمراً مبتدعاً بل هو دين الأنبياء كلهم فإن الحق لا يكون إلا واحداً وماذا بعد الحق إلا الضلال وما أنكر من أهل الكتاب إلا تعنتاً وعناداً، عن ابن مسعود قال: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطّاً ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله وقال «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» وقرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية»(١)، رواه أحمد والنسائي والدارمي، وذلك الدين هو الإيمان بالله وحده وبصفاته

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب، والدارمي في المقدمة باب ٢٣، وأحمد في المسند ١/ ٤٣٥، ٤٦٥.

وبأنبيائه وكتبه وملائكته والبعث بعد الموت وبكل ما جاء به الأنبياء والإتيان بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه؟.

وهذا أمر جامع للشرائع متفق عليها والنسخ في بعض الأحكام العملية لا يستلزم اختلاف الأديان ألا ترى أن النسخ قد يكون في دين نبي واحد فإن النبي ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم صلّى إلى الكعبة فكما أن هذا لا يقتضي اختلاف الأديان فكذلك الاختلاف في الفروع في شرائع الأنبياء لا يقتضي اختلاف الذين فإن مآل الكل الإتيان بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أن مفسرة لأوحينا ووصينا فإن فيها معنى القول أو مصدرية والمصدر منصوب بدل من ما وصى مفعول شرع أو مرفوع خبر مبتدأ محذوف أي هو يعني خذوا ما آتاكم الرسول بلا زيغ وانحراف ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ باتباع الآراء والأهواء أو بالتعصب والعناد فإن افتراق أمة محمد ﷺ إلى ثلاث وسبعين فرقة إنما نشأ باتباع الآراء والأهواء وهو المراد بما ذكرنا من حديث رسول الله ﷺ أنه خط خطاً وقال هذا سبيل الله وخطوطاً وقال: «هذه سبل على كل منها شيطان» وترك اليهود والنصارى الإيمان بمحمد ﷺ إنما نشأ من العناد والتعصب وعن علي رضي الله عنه قال لا تتفرقوا فالجماعة رحمة والفرقة عذاب.

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[١] رواه أحمد وأبو داود، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «يد الله مع الجماعة»[٢] رواه الترمذي بسند حسن، وعن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاذّة[٣] والقاصية[٤] والناحية[٥] وإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة»[٦] رواه أحمد ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من الدين القويم الناطق بالتوحيد وترك الأصنام ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي﴾ أي يصطفي ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى دينه أو إلى ما تدعوهم إليه أو إلى نفسه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ سواء وجد من المجتبى سعي وإرادة أو لا ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي يقبل إليه قالت الصوفية من يجتبيه ويجذبه إلى نفسه من غير اختياره فهو مراد الله وهم الأنبياء والصديقون ومن أناب إلى الله فهداه الله فهو المريد وهم أولياء الله الصالحون من عباده.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ عطف على شرع، قال ابن عباس يعني أهل الكتاب ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ من الكتب السّماوية السابقة بأن دين الأنبياء كلهم واحد وأن الذي أوحي إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة باب ٢٧، وأحمد في المسند ٥/ ٣٤٤.

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن باب ٧، والنسائي في التحريم باب ٦.

(٣) متفرقة.

(٤) دوروفته.

(٥) يكسورونده.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٣٣، ٢٤٣.

محمد ﷺ هو الذي جاء به إبراهيم وموسى وعيسى ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ قال عطاء بغياً بينهم على محمد ﷺ يعني تكبراً واستطالة، قال في القاموس بغى عليه يبغي بغياً علا وظلم وعدل واستطال ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ إلى دار الجزاء ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي بين من آمن ومن كفر في الدنيا باستئصال المبطلين واستيلاء المحقين ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي بعد أنبيائهم، وقيل بعد الأمم الخالية، وقيل المراد مشركي مكة الذين أورثوا الكتاب أي القرآن من بعدهم أي بعد أهل الكتاب ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ أي من كتابهم لا يعلمونه كما هو ولا يؤمنون به حق الإيمان أو من القرآن ﴿مُرِيبٖ﴾ مقلق أو مدخل في الريبة.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي للتفرق من أهل الكتاب ﴿فَٱدۡعُۖ﴾ الفاء في جواب أما المحذوف تقديره أما أنت فادع الناس إلى إقامة الدين وعدم التفرق واتباع ما أوتيت ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ أنت عليه ﴿أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ الزائفة ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ أي بجميع الكتب المنزلة لا كما قالت اليهود والنصارى ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠] ﴿وَأُمِرۡتُ﴾ بالعدل ﴿لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ في تبليغ الشرائع والحكم بين المتخاصمين الأول إشارة إلى كمال القوة النظرية وهذا إشارة إلى كمال القوة العملية ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾ خالق الكل ومتولي أمورهم ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ كل يجزي على حسب عمله ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أي لا خصومة ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ لأن أعمالكم لا يضرنا وأعمالنا لا يضركم إنما ندعوكم إلى الإسلام نصحاً لكم فلا وجه للخصومة والعداوة كان نزول هذه الآية في مكة قبل الأمر بالقتال والمعاداة فنسختها آية القتال، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] إلى قوله: ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ يوم القيامة فيحكم بيننا ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر: ١، ٢] قال المشركون بمكة لمن كان بين أظهرهم من المؤمنين قد دخل الناسُ في دين الله أفواجاً فأخرجوا من بين أظهرنا، فعلى كم تقيمون بين أظهرنا فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي في دينه، وأخرج عبد الرزاق أنه قال قتادة هم اليهود والنصارى قالوا كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم فهذه خصومتهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي بعدما استجاب الناس دعوته فأسلموا ودخلوا في دينه لظهور معجزته وحسن دعوته ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي خصومتهم باطلة زائلة أو المعنى ما يزعمونه حجة فهو في الحقيقة شبهة باطلة ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ من الله لمعاندتهم ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي جنس الكتب ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي متلبساً به بعيداً من الباطل وبما يحق به إنزاله من العقائد الحقة والأحكام ﴿وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ قال قتادة ومجاهد ومقاتل بالعدل سمي العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية، وقال ابن عباس أمر الله تعالى بالإيفاء ونهى عن البخس، وقيل المراد به الشرع فإنه توازن به الحقوق وتسوى بين الناس

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ قال الكسائي أي قريب إتيانها فاتبع الكتاب واعمل بالشرع وواظب على العدل قبل أن نفاجئك الساعة يوزن حينئذٍ أعمالك ويوفى جزاؤك، وقيل تذكير القريب كأنه بمعنى ذات قرب أو لأن الساعة بمعنى البعث وجملة لعل الساعة قريب سد مسد المفعولين ليدريك ولعل علق الفعل عن العمل، قال مقاتل ذكر النبيّ ﷺ الساعة وعنده قوم من المشركين فقالوا تكذيباً متى الساعة فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاء وظناً أنها غير آتية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون منها لاحتمال العذاب ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي يجادلون فيها ويشكون في إتيانها، في القاموس المرية بالكسر والضم الشك والجدل وما رآه مماراة شك، وأصل ذلك من مرنت الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلاً من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق فإن البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد إلى تجويزه مع كمال قدرة الله بعد دلالة الكتاب والسنة عليه وشهادة العقل على دار الجزاء فهو أبعد من الاهتداء إلى ما وراءه ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس حفيّ بهم، قال عكرمة بارّ بهم، قال السديُّ رفيق، وقال مقاتل لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جزاء لمعاصيهم، وقيل لطيف في إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه بلطف إدراكه، قيل لطيف بالغوامض علمه وعظيم عن الجرائم حلمه وينشر المناقب ويستر العيوب ويعطي العبد فوق الكفاية ويكلفه بالطاعة دون الطاقة ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ما يشاء فيختص كلاً من عباده بنوع من البر على ما اقتضته حكمته وكل من يرزق من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممن يشاء الله أن يرزقه، قال جعفر بن محمد عليهما السلام اللطيف في الرزق من وجهين أحدهما أنه جعل رزقك من الطيبات والثاني أنه لم يدفعه إليك بمرة واحدة ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ الباهر قدرته ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب والجملة حال أو تذييل.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض ويقال للزرع الحاصل منه، وفي القاموس الحرث الكسب وجع المال والزرع والمراد هاهنا ثواب الآخرة شبهه بالزرع من أنه ثمرة للعمل في الدنيا ولذلك قيل الدنيا مزرعة الآخرة أو شبهه بالكسب أي ما حصل منه فإنه يحصل بما يكسب في الدنيا ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي في كسبه وزرعه فنعطيه بالواحد عشراً إلى سبع مائة ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي يريد بعمله نصيباً من الدنيا ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ شيئاً على ما قسمنا له ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ عطف على نؤته عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١) متفق عليه، وعن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٤١، والعتق باب ٦، ومناقب الأنصار باب ٤٥، والنكاح باب ٥، والأيمان باب ٤١، ومسلم في الإمارة حديث ١٥٥.

بالسناء والرفعة والنصرة والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»[١] رواه البغوي.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة للإنكار يعني بل الهم ما زعموا شركاء لله سبحانه خصص الشركاء بهم لأنهم اتخذوها شركاء ﴿شَرَعُواْ﴾ أي تلك الشركاء ﴿لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس شرعوا ديناً غير دين الإسلام يعني الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا والجملة متصلة بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣] وقيل أم متصلة معادلة لجملة محذوفة مصدرة بالهمزة تقديرها أيقبلون ما شرع الله أم يقبلون ما شرع لهم شركاؤهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة كما قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الكافرين والمؤمنين وفرغ من تعذيب من كذبك في الدنيا والجملة معترضة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة وضع المظهر موضع المضمر لبيان استحقاقهم والتقدير أنهمُ لهمْ عَذَابٌ أليمٌ لما كانوا ينكرونه ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين يوم القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين مفعول ثان لترى أو حال ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أي من جزاء ما كسبوا من الشرك والمعاصي ﴿وَهُوَ﴾ أي جزاء ما كسبوا ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا حال مقدرة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ أي أطيب بقاعها وأنزهها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ أي ما يشتهونه ثابت لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت من نعيم الجنة ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي يصغر دونه ما لهم في الدنيا.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى
ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ
لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ
ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ
فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/١٣٤، والبغوي في شرح السنة ١٤/٣٣٥، والحاكم في المستدرك ٤/٣١١.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الثواب ﴿الَّذِى يُبَشِّرُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي يبشر بالتخفيف من البشرة والباقون من التفعيل ﴿اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ . ﴿قُل﴾ يا محمد لا ﴿أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على ما أتعاطاه من التبليغ والبشارة ﴿أَجْرًا﴾ أي نفعاً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾ حال من المودة أي إلا أن تؤدوني لقرابتي منكم والجملة معترضة، روى البخاري في الصحيح بسند عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعتُ طاوساً أنه قال سئل ابن عباس عن المودة في القربى فقال سعيد بن جبير القربى آل محمد، فقال ابن عباس عجلتَ إن النبيّ ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال إلا أن تصلوا بيني وبينكم من القرابة. قال البغوي وكذلك روى الشعبي عن ابن عباس قال المودة في القربى يعني أن تحفظوني قرابتي وتودوني وتصلوا رحمي، وإليه ذهب مجاهد وعكرمة ومقاتل والسدي والضحاك قال عكرمة لا أسألكم على ما أدعوكم أجراً إلا أن تحفظوني وقرابتي بيني وبينكم وليس كما يقول الكذابون، قال البغوي قال قوم هذه الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية فأمرهم بمودة رسول الله ﷺ وصلة رحمه فَلمَّا هاجر إلى المدينة وآواه الأنصار ونصروه أحب الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء عليهم السلام حيث قالوا ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء: ١٠٩] فأنزل الله ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فهي منسوخة بهذه الآية وبقوله ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] وغيرهم من الآيات وإلى هذا ذهب الضحاك بن مزاحم والحسين بن الفضل، قال البغوي وهذا قول غير مرضي لأن مودة النبيّ ﷺ كف الأذى عنه وكذا مودة أقاربه من فرائض الدين، قلتُ: لا شك أن مودة رسول الله ﷺ وأقاربه فريضة محكمة لا يحتمل النسخ لحديث أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(١) وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»(٢) روى الحديثين الشيخان في الصحيحين وعلى ذلك انعقد الاجماع، لكن يمكن إن يقال أن المنسوخ إنما هو ما أمر الله تعالى رسوله بسؤاله الأجر وروى ابن نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في معنى الآية إلا أن تودوا الله وتتقربوا إليه بطاعته، وهذا قول الحسن قال هو القربى إلى الله يقول إلا التقرب إلى الله والتودد إليه بالطاعة والعمل الصالح، وقال بعضهم معناه إلا أن تودوا قرابتي وعترتي وتحفظوني وهو قول سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب، أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قيل يا رسول الله من قرابتك؟ هؤلاء قال علي وفاطمة وأبناؤهما.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٨، والأيمان باب ٣، ومسلم في الإيمان حديث ٦٩، ٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٩، ونسلم في الإيمان حديث ٦٦، ٦٧.

واستدل الروافض بهذه الآية مع هذا الحديث على حصر الخلافة في علي وبطلان خلافة الخلفاء الثلاثة المرضيين رضي الله عنهم أجمعين، وجه احتجاجهم أنهم قالوا وجب حب عليّ بهذه الآية مع هذا الحديث وحب غير عليّ ليس بواجب ووجوب المحبة يستلزم ووجوب الطاعة فهو الإمام لا غير، وقولهم هذا باطل بوجوهٍ: أحدها أن هذا الحديث غير صحيح في إسناده حسين الأشعري شيعي غليط وهذه الآية مكيَّة ولم يكن لفاطمة حينئذ ولد، وثانيها إنا نسلم أن حب علي وفاطمة وأبنائهما واجب لكن لا نسلم أن حب غيرهم ليس بواجب كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «حب أبي بكر وعمر إيمان وبغضهما كفر»[1] رواه ابن عدي عن أنس، وقال رسول الله ﷺ: «حب أبي بكر وعمر من الإيمان وبغضهما كفر، وحب الأنصار من الإيمان وبغُضهم كفر وحب العرب من الإيمان وبغضهم كفر ومن سب أصحاب فعليه لعنة الله ومن حفظني فيهم فأنا أحفظه يوم القيامة» رواه ابن عساكر عن جابر، وقال رسول الله ﷺ: «حب الأنصار آية الإيمان وبغض الأنصار آية النفاق»[2] رواه النسائي عن أنس، وقال رسول الله ﷺ: «حب قريش إيمان وبغضهم كفر وحب العرب إيمان وبغضهم كفر ومن أحب العرب فقد أحبني ومن أبغض العرب فقد أبغضني»[3] رواه الطبراني في الأوسط عن أنس، وقولهم إن من وجب محبته يكون إماماً مفروض الطاعة باطل.

وقيل هذه الآية لوجوب محبته من حرم عليهم الصدقة وهم بنو هاشم وبنو المطلب الذين لم يتفرقوا في الجاهلية ولا في الإسلام، وقيل هم آل علي وعقيل وجعفر وعباس وفيهم قوله ﷺ «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي»[4] عن زيد بن أرقم قال قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد ألا يا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي»[5] قال البغوي قيل لزيد بن أرقم من أهل بيته؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل عباس فإن قيل كيف أمر رسول الله ﷺ بسؤال مودته أو مودة أقربائه أجراً على تبليغ الرسالة مع أن التبليغ كان عليه فريضةً ولا يجوز طلب الأجرة على أداء

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٣٢٦٦٢٥، ٣٢٧٠٣، ٣٤٠٤٥، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٣/ ٩٤٣.

(٢) أخرجه النسائي في الإيمان باب ١٩.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٩، ١٠/ ٢٧، ٥٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٣٩٢٥، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٥٥.

(٤) انظر الحاشية التالية.

(٥) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٣٦، ٣٧، والدارمي في فضائل القرآن باب ١، وأحمد في المسند ٣/ ١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩، ٤/ ٣٦٧، ٣٧١.

الفريضة بل على العبادة النافلة أيضاً لما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] قوله ﷺ «من عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له للآخرة نصيب» قلنا إطلاق الأجر على ما أمر النبي ﷺ بسؤاله على التبليغ إنما هو على المجاز والمشاكلة فإن الأجر للسائل على الحقيقة ليس إلا ما يكون نافعاً له مسؤولا لانتفاعه به وهاهنا ليس كذلك بل إنما سأل النبيّ ﷺ أمته مودته ومودة أقربائه وأمره الله سبحانه أن يسأل ذلك لكي ينتفع الناس بمحبته فإن محبة النبيّ ﷺ مثمرةٌ لمحبة الله تعالى وقربه وولايته وموجبة لكمال الإيمان، ومن هاهنا أقول إن الأولى أن يقال في تأويل الآية لا أسألكم أجراً إلا أن تودوا أقربائي وأهل بيتي وعترتي وذلك لأنه صلّى الله عليه وسلم كان خاتم النبيين لا نبي بعده وإنما انتصب للدعوة إلى الله بعده ﷺ علماء أمته من أهل الظاهر والباطن ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمر أمته بمودة أهل بيته لأن علياً رضي الله عنه والأئمة من أولاده كانوا أقطاباً لكمالات الولاية ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[1] رواه البزار والطبراني عن جابر وله شواهد من حديث ابن عمر وابن عباس وعليّ وأخيه وصححه الحاكم، ومن أجل ذلك ترى كثيراً من سلاسل المشايخ تنتهي إلى أئمة أهل البيت ومضى كثير من الأولياء في السادات العظام منهم غوث الثقلين محيي الدين عبد القادر الجيلي الحسني الحسيني وبهاء الدين النقشبندي والسيد السند مودود الجشتي وسيد معين الدين الجشتي وأبو الحسن الشاذلي وغيرهم ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي»[2].

وقال أكثر علماء التفسير الاستثناء منقطع والأجر مستعمل في معناه الحقيقي فالمعنى لا أسألكم أجراً قط ولكني أذكركم المودة في القربى وأذكركم قرابتي منكم كما ورد في حديث زيد بن أرقم «أذكركم الله في بيتي» ومما يدل على أن سؤال ﷺ مودة نفسه وأقربائه كان لينتفع بها أمته قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي من يكتب حسنةً والمراد بها حب رسول الله ﷺ ونوابه وإلا فلا مناسبة لهذه الجملة بما سبق لكن اللفظ عام يعم كل حسنة ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ وذلك أن حب آل رسول الله ﷺ (وهم مشايخ الطريقة) مثمر للمزيد في حب النبيّ ﷺ وحبه ﷺ مثمر للمزيد في حب الله تعالى من هاهنا قالت الصوفية يحصل للصوفي أولاً الفناء في الشيخ ثم الفناء في الرسول ثم الفناء في الله تعالى، والفناء عبارة عن شدة الحب بحيث يذهل نفسه عند ذكر المحبوب حتى لا يرى من نفسه ولا من غيره عنها ولا أثراً ما عدا المحبوب وقيل هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ومودته للنبي ﷺ،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٢٦، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٤٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١١٤، والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٦٦.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٣١، وأحمد في المسند ٣/ ١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩، ٥/ ١٨٢.

وقال البخاري في الصحيح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «ارقبوا محمداً في أهل بيته» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر ذنوب من يحب رسوله وأولياءه لعل هو المراد بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] أي من ذنب أوليائك وأحبائك ﴿شَكُورٌ﴾ على طاعته ومحبته.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم منقطعة والجملة متصلة بقوله ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ومعنى الهمزة الإنكار والتوبيخ وبل للإضراب عن أداء الأجر يعني أنهم لا يؤدون أجر الرسالة بل أيقولون يعني كفار مكة ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ محمد ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة أو القرآن ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ جملة معترضة أوردت استبعاداً لله للافتراء عن مثله بالإشعار على أنه لا يجترىء عليه إلا من كان مختوماً على قلبه جاهلاً بربّه فأمّا من كان ذا بصيرة معرفة بربه فلا وكأنه قال إن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترىء بالافتراء عليه، وقال مجاهد يربط على قلبك بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم وقولهم إنك مفتر، وقال قتادة يعني طبع على قلبك فينسينك القرآن وما أتاك فأخبرهم أنه لو افترى على الله لفعل به ما أخبر في هذه الآية ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ استئناف لنفي الافتراء عما يقوله بأنه لو كان مفتر لمحاه إذ من عادته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه أو بقضائه أو بوعده بمحق باطلهم وإثبات حقه بالقرآن أو بقضائه الذي لا مرد له، قال الكسائي فيه تقديم وتأخير مجازه والله يمحو الباطل وهو في محل الرفع وليس بمجزوم عطفاً على يختم لأن المحو غير معلق بالشرط بل هو وعد مطلق وإنما حذفت الواو في الخط باتباع اللفظ كما حذفت في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الإسراء: ١١] و ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] وقد فعل ذلك فمحى باطلهم وأعلى كلمة الإسلام، بما أنزل من آياته ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قال البغوي قال ابن عباس وكذا أخرج عنه الطبراني بسند ضعيف أنه قال لما نزل ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وقع في قلوب قوم منها شيء وقالوا هذا يريد أن يحثنا على أقاربه من بعده فنزل جبرئيل فأخبره أنهم اتهموه وأنزل الله هذه الآية فقال القوم يا رسول الله فإنا نشهد أنك صادق فنزل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس يريد أولياءه وأهل طاعته يقال قبلتُ منه الشيء إذا أخذته وجعلتُه مبدأ قبول وقبلتُ عنه أي عزلتُه عنه. قيل التوبة ترك المعاصي نيةً وفعلاً والإقبال على الطاعة نيةً وفعلاً، وقال سهل بن عبد الله التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة، وذكر البيضاوي عن علي كرم الله وجهه هي اسم يقع على ستة معان على الماضي من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما أذبتها في المعصية وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل ضحك ضحكت، وروى البغوي في شرح السنة عن ابن مسعود موقوفاً الندم توبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

فصل

عن حارث بن سويد قال دخلتُ على عبد الله أعوده فقال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لله أفرح بتوبة عبده من رجل (أظنه قال) في برية مهلكةٍ معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنزل فنام فاستيقظ وقد هلكت راحلته فطاف عليها حتى أدركه العطش قال أرجعُ إلى حيث كانت راحلتي فأموت عليه فرجع فأغفى فاستيقظ فإذا هي عنده عليها طعامه وشرابه»[١] رواه البغوي (. . .)[٢]، وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانقلبت وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد يئس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللّهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[٣] وروى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه»[٤] متفق عليه، وروى مسلم أيضاً عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»[٥] وروى ابن ماجه والبيهقي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[٦].

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغيرها وكبيرها بالتوبة وبلا توبة لمن شاء، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «قال رجل (لم يعمل خيراً قط) لأهله إذا مات فحرقوه ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه. . . . . . ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين فلما مات فعلوا ما أمرهم فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال له لم فعلتَ هذا؟ قال من خشيتك يا رب وأنتَ أعلم فغفر له»[٧] وروى أحمد عن أبي الدرداء أنه سمع النبيّ ﷺ يقول على المنبر _لمن خاف مَقَامَ رَبِهِ جَنَّتَانِ) قال قلتُ وإن زنى وإن سرقَ يا رسول الله؟ فقال الثانية (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّه جَنَّتَانِ) فقلتُ الثانية وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال الثالثة ولمن خَافَ مَقَامَ رَبّهِ جَنَّتَانِ، فقلتُ الثالثة وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ قال وإن رغم أنف أبي الدرداء»[٨] ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي[٩] وحفص بالتاء الفوقانية قالوا هو خطاب للمشركين والباقون

(١) أخرجه البغوي في تفسيره ٦/ ١٢٣، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٨، والقرطبي في تفسيره ١٠/ ٢٦٠.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) أخرجه مسلم في التوبة حديث ٧.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي باب ٣٤، ومسلم في التوبة حديث ٥٦.

(٥) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٤٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٧٥، ٣٩٥، ٤٩٥.

(٦) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٠.

(٧) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٥، وأحاديث الأنبياء باب ٥٠، ومسلم في التوبة حديث ٢٤.

(٨) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٩) وخلف ورويس ـ بخلاف عنه ـ.

بالياء التحتانية لأنه بين خبرين عن قوم غيب قبله عن عباده وبعده ويزيدهم من فضله ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ عطف على يقبل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي يستجيب الله دعاءهم إذا دعوا فحذف اللام كما حذف في وإذا كالوهم، وقال عطاء عن ابن عباس معناه ويثبت الذين آمنوا، قال البيضاوي معنى الاستجابة الإثابة على الطاعة فإنها كدعاء وطلب ومنه قوله ﷺ «أفضل الدعاء الحمد لله»[(١)] أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر والله أعلم روي عن إبراهيم بن أدهم إنه قيل له ما بالنا ندعو فلا نجاب؟ قال لأنه تعالى دعاكم فلم تجيبوه ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ أي يعطيهم زائداً على ما سألوه أو استحقوه ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس يشفعهم في إخوانهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ في إخوان إخوانهم ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في مقابلة ما للمؤمنين من الثواب والفضل والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ قال البغوي قال خباب بن الأرت فينا نزلت هذه الآية وذلك إنا نظرنا إلى بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنَّيناها فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ ﴿لَبَغَوْا۟﴾ أي لتكبروا وأفسدوا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بطراً أو لبغى بعضهم على بعض استيلاءً واستعلاء، وقال ابن عباس بغيهم طلبهم منزلةً بعد منزلةٍ ومركباً بعد مركب وملبساً بعد ملبس وأصل البغي التجاوز عن الاقتصاد فيما يتجزى كمية وكيفية ﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ﴾ أرزاقهم ﴿بِقَدَرٍ﴾ تقتضيه حكمته ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ الموصول مفعول لينزل وبقدر حال منه مقدم عليه ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعلم خفايا حالهم وما يؤول إليه أمرهم، أخرج الحاكم وصححه عن علي رضي الله عنه قال نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة وذلك أنهم قالوا لو أن لنا فتمنوا الغنى، وأخرج الطبراني عن عمرو بن حريث مثله روى البغوي بسنده عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ عن جبرئيل عن الله تعالى قال يقول الله عز وجل: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث المجرد وما تقرَّب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضتُ عليه وما زال عبدي المؤمن يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببتُه كنتُ له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيتُه وما ترددتُّ في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه، وإن من عبادي المؤمن لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه لا يدخله عجب فيفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو افتقرتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححتُه لأفسده ذلك، إني أدبر أمر

(١) أخرجه الترمذي حديث ٣٣٨٣، وابن ماجه حديث ٣٨٠٠.

عبادي بعلمي في قلوبهم إني عليمٌ خبير (   )[(١)(٢)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ﴾ عطف على قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ وما ذكر من الشرطية معترضة، قرأ نافع[(٣)] وابن عامر وعاصم بالتشديد من التفعيل والباقون بالتخفيف من الأفعال ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ أي المطر النافع الذي يغيثهم من الجدب[(٤)] ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أي أيئس الناس من نزوله ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي مطره أو رزقه في السهل والجبل من النبات والحيوان ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه وينشر ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد في نفسه وعلى إحسانه ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي من دلائل وجوده ووحدته وقدرته وصفات كماله ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنها بذواتها، وصفاتها تدل على وجود صانع قادر حكيم ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطف على السماوات أو على الخلق ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من حيّ، على إطلاق اسم المسبب للسبب فحينئذ يشتمل الملائكة والجن والشياطين والإنس وسائر الحيوانات أو المراد مما يدب على الأرض وما يكون في أحد الشيئين يصدق أنه فيهما في الجملة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فيجمعهم يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي بسبب معاصيكم وما شرطية أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط وكذلك جيء بالفاء في خبره على قراءة الجمهور، وقرأ نافع[(٥)] وابن عامر بما كسبته بغير الفاء وكذا هو في مصاحف المدينة والشام لم يذكر الفاء استغناء بما في الباء من معنى السببية ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ عطف على الجملة الاسمية أو معترضة، قال الحسن لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا إختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر»[(٦)] وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «وصب[(٧)] المؤمن كفارة لخطاياه»[(٨)] رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي، وروى البغوي بسنده عن علي رضي الله عنه قال: «ألا أخبركم بأفضل آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ حدثنا بِهَا رسول الله ﷺ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ وسأفسرها لك يا علي ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٠٢، ٤٧٧، ٩/ ٤٤٠، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٥/ ١٩٣٩.
(٢) بياض في الأصل.
(٣) وأبو جعفر.
(٤) القحط.
(٥) وأبو جعفر.
(٦) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٩.
(٧) الوصب: المرض والتعب.
(٨) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٣٤٧، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٢٨٧، والمتقي الهندي في كنز العمال ٦٧٠١.

الدنيا فبما كسبت أيديكم والله عزَّ وجلَّ أكرم من أن يثنى عليهم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أحكم أن يعود بعد عفوه»[١] رواه أحمد وغيره، قال البيضاوي الآية مخصوصة بالمجرمين فإن ما أصاب غيرهم فلأسباب أخر منها تعريضه للأجر العظيم بالصبر عليه، قال البغوي قال عكرمة ما من نكبة أصاب عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها أو درجة لم يكن الله ليبلغه إلا بها ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب حال من مفعول أصابكم أو عطف على جملة ما أصابكم وعطف على هذا قوله ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يحرسكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟
لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)
وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ
ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (٤٣) وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ
مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَىٰهُمْ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ
يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا
مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ (٤٨) لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ
إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ
قَدِيرٌ (٥٠) ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ
بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ
وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ
ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣)﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ قرأ ابن كثير[٢] الجواري بالياء وصلاً ووقفاً ونافع وأبو عمرو[٣]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٨٥.

(٢) ويعقوب. (٣) وأبو جعفر.

وصلاً فقط والباقون بحذفها في الحالين ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ السفن الجارية فيه ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي كالجبال صفة للجوار وكذا الجملة الشرطية التالية على طريقة وَلَقَدْ أَمرُّ على اللئيم يسبني ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجري بها ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ أي يبقين بعد سكونها ﴿رَوَاكِدَ﴾ أي ثوابت ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي ظهر البحر لا تجري ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ جملة معترضة أي آيات لكل مؤمن لأن من صفة المؤمن الصبر في الشدة والشكر في الرخاء قال رسول الله ﷺ: «الإيمان نصفان فنصف في الصبر ونصف في الشكر»(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عطف على فَيَظْلَلْنَ أي أو إنْ يشأ يُسْكِنِ الريح فيُوبقهُنَّ بدوام السكون أي يهلك أهلهن بإغراقها، وقيل عطف على يُسْكن الريح والتقدير أو يرسلها عاصفة فيُوبِقهُنَّ ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي بسبب ما كسب أهلها من المعاصي ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي وينج ناساً على العفو منهم، جملة معترضة أو معطوفة على ما سبق والتقدير إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد أو يرسلها عاصفة فيوبقهن أو طيبةً فَيَعْفُ عَنْ كَثير، وإنما حذف ما حذف اقتصاراً على المقصود ﴿وَيَعْلَمَ﴾ قرأ نافع(٢) وابن عامر بالرفع على الاستئناف والباقون بالنصب عطفاً على علة مقدرة لإسكان الريح والإيباق أي إن يشأ يسكن الريح لينتقم من أهل السفينة وليعلم ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالتكذيب والإبطال، وقيل هو معطوف على الجزاء ونصب نصب الواقع جواباً للأشياء الستة بتقدير إن عطف المصدر على المصدر يعني إن يشأ الله تعالى إسكان الريح وإهلاك قوم وإنجاء قوم وعلم من يجادل في آياتنا بأنه ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ من العذاب، الجملة سدَّت مسد المفعولين ليعلم معلق عنها يَعْلَم بحرف النفي أي يَعْلَم الذين يكذبون بالقرآن ولم يعتبروا بآيات الرحمن إذا صاروا إلى الله بعد البعث أن لا مهرب لهم من العذاب أو يعلموا حين يحيط بهم الرياح في البحر أن لا مهرب لهم من الغرق.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي فهو مَتَاعُ الحياة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ أي تمتعون به مدة حياتكم القريبة الفانية ليس منها زاداً للمعاد فأجملوا في طلبها واقتصروا على ما يكفيكم عمَّا يلهيكم ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب في دار الجزاء ﴿خَيْرٌ﴾ منها كمّاً وكيفاً وخالص منفعةً بلا شوب مشقة ﴿وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ روي عن علي رضي الله عنه أنه تصدَّق أبو بكر بماله كله فلامه جمع فنزلت هذه الآية، ما الأولى موصولة تضمنت معنى الشرط من حيث إن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية، وفي الآية بيان أن المؤمن والكافر يستويان في أن الدنيا متاع لهما يتمتعان بها فإذا صاروا إلى الآخرة كان ما عند الله خيراً للمؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ عطف على قوله ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قرأ حمزة والكسائي(٣) كبير الإثم على الواحد هاهنا

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/٦٦، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٦١.

(٢) وأبو جعفر. (٣) وخلف.

وفي سورة النجم والباقون كبائر بالجمع ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هي الكبائر وقال السديُّ هي الزنى، وقال مقاتل ما يوجب الحد وقد ذكرنا الكبائر، في سورة النساء ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ عطف على يجتنبون والظرف متعلق بيغفرون وبناء يغفرون على ضمير هُم خبراً للدلالة على أنهم أحقاء بالمغفرة حال الغضب والجملة معطوفة على الصلة والموصول إما مجرور عطفاً على الَّذِينَ آمَنُوا أو منصوب على المدح أو مرفوع ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ أي أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ﴾ مصدر كالفتيا بمعنى التشاور أي يتشاورون ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فيما يبدو لهم ولا يعجلون ولا شك أن المؤمن إذا استشار مؤمناً يشيره بما هو خير له في الدارين يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن»[(١)] رواه مسلم عن أبي هريرة والترمذي عن أم سلمة وابن ماجه عن ابن مسعود، وروى الطبراني في الأوسط بسند حسن عن علي رضي الله عنه «المستشار مؤتمن فإذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسه» وروى الطبراني في الكبير بسند حسن عن سمرة بن جندب «المستشار مؤتمن إن شاء أشار وإن شاء لم يشر» ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير عطف أو حال.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ أي الظلم والعدوان ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن ظلمهم من غير أن يعتدوا، قال ابن زيد جعل الله المؤمنين صنفين صنفاً يعفون عن ظالميهم وصنفاً ينتقمون منهم وهم الذين ذكروا في هذه الآية، قال إبراهيم في هذه الآية أنهم كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا قال عطاء: هم المؤمنون الذين أخرجوا من مكة بغياً عليهم يعني من غير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ثم مكنهم الله في الأرض حتى انتصروا ممن ظلمهم، وقال البيضاوي وصفهم بسائر أمهات الفضائل منها كراهة التذلل وهو لا يخالف وصفهم بالغفران فإنه يُنبىء عن عجز المغفور والانتصار عن مقاومة الخصم والحلم عن العاجز محمود عن المتغلب مذموم لأنه إجراء وإغراء على البغي، قلتُ: الباغي إن كان ظالماً متعدياً على حق الله تعالى وعلى عامة المؤمنين فالأولى بل الواجب هناك الانتقام وسدُّ باب الفتنة، وإن كان متعدياً على نفس أحد فالانتصار[(٢)] والانتقام ومن غير اعتداء له منه جائز

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١١٤، والترمذي في الزهد باب ٣٩، والأدب باب ٥٧، وابن ماجه في الأدب باب ٣٧، والدارمي في السير باب ١٣، وأحمد في المسند ٥/ ٢٧٤.

(٢) عن ابن عون قال كنت اسأل عن الانتصار وعن قوله تعالى ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل فحدثني علي بن زيد بن ضرعان عن أم محمد امرأة أبيه قال ابن عون وزعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة قالت قالت عائشة أم المؤمنين دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندنا زينب بنت جحش فجعل يصنع بيده شيئاً فقلت بيده حتى فطنته لها فامسك وأقبلت زينب تقحم لعائشة فنهاها فأبت أن تنتهي فقال لعائشة سبيها فسبتها فانطلقت زينب إلى علي فقالت إن عائشة وقعت بكم وفعلت فجاءت فاطمة فقال لها انها حبة أبيك ورب الكعبة وانصرفت فقالت لهم إني قلت كذا وكذا فقال لي كذا وكذا قالت وجاء علي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه في ذلك ـ أخرجه أبو داود منه برّد الله مضجعه ـ ١٢ ـ.

لكن العفو والإصلاح ودفع السيئة بالحسنة أفضل والله أعلم.

ولمَّا ذكر الله سبحانه جواز الانتصار منعهم عن التعدي فيه فقال ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ جملة معترضة سمي الجزاء سيئة لتشابههما في الصورة أو لأنه تسوء بمن تنزل به أو لأنه أسوأ من العفو، قال مقاتل يعني القصاص في الجراحات والدماء، وقال مجاهد والسديّ هو جواب القبيح إذا قال أخزاك الله فيقول أخزاك الله وإذا شتم أحد شتمه بمثلها من غير أن يعتدي، وقال سفيان بن عيينة قلتُ لسفيان الثوري ما قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ إن كان يشتمك رجل تشتمه أو يفعل بك فتفعل به فلم أجد عنده شيئاً فسألتُ هشام بن حجيرة عن هذه الآية فقال الجارح إذا جرح يقتص منه وليس هو أن يشتمك فتشتمه(١) ويؤيد قول هشام قوله ﷺ «المستبَّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان»(٢) رواه أحمد والبخاري في الأدب بسند صحيح عن عياض بن حمار وقوله ﷺ «لا يكون اللعَّانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»(٣) رواه مسلم وأبو داود عن أبي الدرداء، لكن قوله ﷺ «المستبَّان ما قالا فعلى البادي منهما حتى يعتدي المظلوم»(٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة يدل على كون البادي أظلم والمجيب له نوع رخصة ﴿فَمَنۡ عَفَا﴾ عن ظلم صاحبه ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين ظالمه ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي أن الله يأجره لا محالة، قال البغوي قال الحسن إذا كانت يوم القيامة نادى مناد من كان أجره على الله فليقم فلا يقوم إلا من عفا ثم قرأ هذه الآية ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المبتدين بالسبّ والمتجاوزين على المثل في الانتقام، وقال ابن عباس الذين يبدؤون بالظلم.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ المصدر مضاف إلى المفعول أي بعد ظلم الظالم إياه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المنتصرين ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمعاتبة والمؤاخذة ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالعقاب في الآخرة والمعاتبة والمؤاخذة في الدنيا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبدؤونهم بالإضرار ويؤذونهم في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم بغير حق ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ

---

(١) عن أبي هريرة أن رجلاً شتم أبا بكر والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يتعجب ويتبسم فلما أكثر رد عليه بعض قوله فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام فلحقه أبو بكر فقال يا رسول الله كان يشتمني وانت جالس فلما رددت بعض قوله غضبت وقمت قال انه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان ثم قال يا أبا بكر ثلاث هن حق ما من عبد ظلم مظلمة فيغفر عنها لله إلا أعزه الله ونصره وما فتح رجل باب عطية يريد بها سلبه إلا زاده الله كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاد الله بها أفلة ـ رواه أحمد منه نوّر الله ضريحه ـ ١٢ ـ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٦٢، ٦/ ٢٦٦.

(٣) أخرجه مسلم في البر حديث ٨٥، ٨٦، وأبو داود في الأدب باب ٤٥، وأحمد في المسند ٦/ ٤٤٨.

(٤) أخرجه مسلم في البر حديث ٦٩، وأبو داود في الأدب باب ٣٩، والترمذي في البر باب ٥١، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٥، ٤٨٨، ٥١٧.

﴿ٱلْحَقِّ﴾ في القاموس بغى يبغي بغياً عَلا وظلم وعدا عن الحق واستطال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَن صَبَرَ﴾ عطف على مَنِ انتَصَر وبينهما اعتراض أي من صبر على ظُلْم من ظَلَمَ عليه ﴿وَغَفَرَ﴾ الظالم ولم ينتصر مبتدأ حذف خبره أي فهو أفضل الناس وأقيمت علته مقامه وهي قوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والغفران ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من معزوماته بمعنى المطلوبات شرعاً، قال مقاتل يعني من الأمور التي أمر الله وقال الزجاج الصابر يؤتى بصبره الثواب فالرغبة في الثواب أتم عزم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ﴾ أي ناصرٍ يتولاه أي يلي هدايته ويمنعه من عذاب الله ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد خذلان الله إياه جملة معترضة ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أيها المخاطب ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي حين يرون العذاب ذكر بلفظ الماضي تحقيقاً ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ الجملة قائمة مقام المفعولين لترى أي تراهم قائلين هذا القول استفهام لفظاً ومعناه السؤال يسألون الرجعة إلى الدنيا ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار يدل عليها العذاب ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي خائفين متذللين متقاصرين ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي مما يلحقهم من التذلل ﴿يَنظُرُونَ﴾ حال بعد حال من فاعل يُعْرَضُونَ ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يبتدىء نظرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف كالصبور ينظر إلى السيف بمسارقة النظر خوفاً وذلةً في نفسه، وقيل من بمعنى الباء ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ يعني من تبعهم في الكفر بالتعريض للعذاب المخلد وقيل المراد بالأهل الحور فإنهم خسروهن بعدم وصولهم إليهن المعدة لهم في الجنة لو آمنوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف للخسران والقول في الدنيا أو للقول أي يقولون إذا رأوهم على تلك الحال ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم تمام كلامهم أو تصديق من الله بهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ أي يدفعون العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حال من أولياء ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الوصول إلى الحق في الدنيا وإلى الجنة في العقبى قد انسدَّ عليه طرق الخير كلها.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ أي أجيبوا داعي الله محمداً ﷺ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يرده الله بعد ما حكم به ومن صلة لمرد وقيل صلة يأتي أي من قبل أن يأتي يوم من الله لا يمكن رده وذلك يوم الموت أو يوم القيامة ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ مفر تلجؤون إليه ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون في صحائف أعمالكم وتشهد عليه ألسنتكم وجوارحكم أو ما لكم من منكر بغير ما بكم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ عن إجابتك يا محمد ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ حذف جزاء الشرط وأقيم تعليله مقامه تقديره فلا تحزن لأن ما أرسلناك عليهم رقيباً مؤاخذاً على إعراضهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد بلغت تعليل لقوله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أراد به الجنس ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي نعمة في الدنيا، قال ابن عباس يعني الغنى والصحة ﴿فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من القحط أو الفقر أو المرض ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب معاصيهم التي قدموه وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال بها ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ بليغ الكفران لما تقدم من نعم الله عليه

ينسى ويجحد بأقل شيء من الشدة جميع ما أسلف عليه من النعم ويذكر البليّة ويعظّمها ولا يتأمل في سببها، وهذا الحكم وإن اختص بالمجرمين جاز إسناده إلى الجنس لغلبتهم واندراجهم فيه وتصدير الشرطية الأولى بإذا والثانية بإن لأن إذاقة النعمة محققة من حيث إنها عادة الله تعالى تقتضيه رحمته الذاتية بخلاف إصابة البليّة وأقيم علة الجزاء مقامه ووضع الظاهر موضع الضمير في الثانية للدلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فله التصرف فيها كيف يشاء من إنعام وانتقام، الجملة متصلة بقوله ومن آياته الجوار ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تعليل لما سبق وقوله ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ الآية، قيل بيان للخلق يعني يهب لبعض الناس أنثى لا يكون له ولد ذكر، قيل من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر لأن الله تعالى بدأ بالإناث ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فلا يكون له أنثى ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ فيجمع له بينهما فيولد له الذكور والإناث ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فلا يولد له، وقيل الجملة بدل من يخلق بدل البعض ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بما يخلق ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يشاء فيفعل بحكمته واختياره.

قال البغوي: قالت اليهود للنبي ﷺ ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيّاً كما كلمه موسى ونظر إليه فقال لم ينظر موسى إلى الله عزَّ وجلَّ فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي ما صح له ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ وحياً وما عطف عليه منصوب على المصدرية لأن من وراء حجاب صفة كلام محذوف والإرسال نوع من الكلام وهو ما كان بتوسط الرسول وجاز أن يكون منصوباً على الحال ويكون المصدر بمعنى المفعول تقديره إلا موحي أو مستمعاً من وراء حجاب أو مرسلا والوحي في اللغة الإشارة السريعة، والمراد هاهنا كلاماً خفيا غير مركب من حروف مقطعة متعاقبة يلقيه تعالى في قلب النبي ﷺ في المنام أو اليقظة ويعبر عنه بالإلهام وهو تعم المشافهة به كما روي في حديث المعراج وما وعد به في حديث الرؤية في الآخرة والمهتف به كما اتفق لموسى على طوى والطور لكن قوله ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ يخصه بالأول فالآية دليل على جواز الرؤية لا على امتناعها، قلتُ: لكن ما ذكر البغوي في شأن نزول الآية يدل على نفي النظر إلى الله عند الوحي في الدنيا فالمراد بالوحي هاهنا إلقاء كلام بسيط في القلب وبقوله مِنْ وراء حجاب كلام مسموع بلا توسط الملك بغير معاينة كما اتفق لموسى في طوى والطور كذا قال البغوي ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ إما جبرئيل أو غيره من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرسول إلى المرسل إليه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بإذن الله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ قرأ الجمهور يُرسِلَ فَيُوحِيَ بالنصب عطفاً على وحياً بتقدير أن المصدرية وقرأ نافع بضم اللام وسكون الياء رفعاً على الاستئناف فتكلم الله حينئذ ينحصر فيما كان بلا واسطة الملك ويقابله إرساله الملك بكلامه إلى الأنبياء.

عن عائشة رضي الله عنها قالت إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد عليَّ فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي

ما يقول»، قالت عائشة ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً»[(١)] متفق عليه، وعن عبادة بن الصامت قال كان النبيّ ﷺ «إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه»[(٢)] رواه مسلم، وعن ابن عباس قال: «أقام رسول الله بمكة خمس عشر سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً وثمان سنين يوحى إليه وأقام بالمدينة عشراً وتوفي وهو ابن خمس وستين سنة»[(٣)] متفق عليه، وعن عائشة قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم»[(٤)] الحديث متفق عليه، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته فتكلم تارةً بغير وسيط وتارة بوسيط.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي إيحاءً كإيحائنا إلى سائر الرسل أو كما وصفنا لك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ أي كتاباً وهو القرآن كذا قال الكلبي ومالك بن دينار، وقال السديُّ سماه روحاً لأن القلوب تحيا به كما تحيا الأبدان بالأرواح، وقال الربيع الروح جبرئيل والمعنى أرسلنا إليك جبرئيل وما قال ابن عباس إنه النبوة وقال الحسن الرحمة فالمراد به أيضاً القرآن فإنه أثر النبوة والرحمة ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نوحيه إليك ظرف مستقر لروح أي روحاً كائناً من أمرنا ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي حال من كاف إليك ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ سدَّ مسد المفعولين لتدري وحرف الاستفهام علقه عن العمل ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ يعني شرائعه ومعاملة التي لا طريق إليه غير السمع فقال محمد بن إسحاق المراد بالإيمان في هذا المقام الصلاة كما في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] وهذا التفسير مبني على أن أهل العلم اتفقوا على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا ملهمين من الله تعالى بالإيمان بالصانع المتوحد بصفات الكمال المنزه عن النقص والزوال، وما قيل إن النبيّ ﷺ كان قبل الوحي يعبد الله على دين إبراهيم فشيء لا يصاعده العقل والنقل فإنه ﷺ كان أمياً لم يقرأ الكتاب ولم يكن دين إبراهيم شائعاً في قريش كانوا يعبدون الحجارة غير أنه صلى الله عليه وسلم يرغب إلى الخلوة، قلتُ: ويمكن أن يقال إنه ﷺ كان مؤمناً كاملاً محققاً بحقيقة الإيمان لكن لم يدر أنّ هذه الحالة إيمان والله أعلم.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ وقال ابن عباس يعني الإيمان وقال السديُّ يعني القرآن ﴿نُورًا﴾ لظلمة الجهل ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي نوصل به إلى العقيدة الحقة في الدنيا وإلى الجنة وإلى مراتب القرب في الآخرة ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ الناس كافة ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي باب ٢، وبدء الخلق باب ٦، ومسلم في الفضائل حديث ٨٧.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ٨٨، والحدود حديث ١٣، وأحمد في المسند ٥/٣١٧، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٧.

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في التعبير باب ١، وتفسير سورة ٩٦، باب ١، ٣، ومسلم في الإيمان حديث ٢٥٢، ٢٥٤، وأحمد في المسند ٦/١٥٣، ٢٣٢.

وهو الإسلام الموصل إلى الجنان والمراد بالهداية هاهنا إراءة الطريق ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الأول ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي أمور الخلائق كلها في الآخرة بارتفاع الوسائط والتعلقات وفيه وعد للمطيعين ووعيد للمجرمين والله أعلم.

تم تفسير سورة الشورى من تفسير المظهري يوم السبت ثالثة عشر من الربيع الأول من السنة الثامنة بعد الف ومائتين سنة ١٢٠٨هـ ويتلوه تفسير سورة الزخرف إن شاء الله تعالى وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الزخرف

آياتها تسع وثمانون وهي مكيَّة

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ
ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥
وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ
مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِي
نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ
عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ أي القرآن الذي هو مبين أي مظهر بإعجازه طريق الهدى من الضلالة فإنه يقتضي الإيمان به والإيمانُ به يوجب العلم بما يحتاج إليه الناس من الشرائع المثمرة للفلاح في الدنيا والآخرة، الواو للقسم أو للعطف إن كان حمٓ مقسماً به وجواب القسم ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي ذلك الكتاب ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً وهو من البدائع لتناسب المقسم به والمقسم عليه كقول أبي تمام، وثناك أنها أعريض ولعل إقسام الله تعالى بالأشياء استشهاد بما فيها من الدلالة عليه ﴿لَّعَلَّكُمۡ﴾ أي لكي ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ أي صيرناها مقروءاً بلغتكم لتفهموا معانيه وإلا فالقرآن من صفاته تعالى غير مخلوق ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن عطف على إنا ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي اللوح المحفوظ فإنه أصل كل كتاب لقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢] قال ابن عباس أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب بما يريد أن يخلق فالكتاب عنده ثم قرأ ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾ أي عندنا عندية وقرباً غير متكيف ولا مكاني، قيل تقديره محفوظاً لدينا من التغير ﴿لَعَلِيٌّ﴾ رفيع شأنه من أن يدركه أحد أو رفيع شأنه في الكتب السماوية لكونه معجزاً من بينها، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه القرآن في سائر الكتب السماوية بمنزلة المركز من الدائرة يرى كذلك بنظر الكشف فالمركز أصل وإجمال للدائرة بل هو أفضل وأوسع من تمام الدائرة وإنما يظهر بنظر الكشف أخصر لكونه أرفع وأبعد من الناظر كما أن القمر يظهر للناظر مركزاً لدائرة الهالة مع كونه أوسع منها ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم لا ينسخه غيره وهما خبران لأن وفي أم الكتاب متعلق بعليّ واللام لا تمنعه

أو ظرف مستقر حال منه، ولدينا بدل منه أو حال من أم الكتاب أو من المستكن في قوله في أم الكتاب.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنهملكم فنضرب عنكم الذكر أي القرآن يقال ضربتُ عنه وأضربتُ عنه إذا تركتُ وأمسكتُ عنه، وصفحاً مصدر من غير لفظه يقال صفحتُ عنه إذا أعرضتُ عنه والترك والإبعاد إعراض أو مفعول له أو حال بمعنى صافحين وأصله أن توفي الشيء صفحة عنقك والإنكار راجع إلى الإهمال وترك الذكر وهو إنكار لا يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب على لغتهم ليفهموه ويمكن أن يكون العطف على جملة أنه في أم الكتاب لعلي حكيم والإنكار راجع إلى معنى الفاء أي بعد كون القرآن كذلك نضرب عنكم الذكر ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قرأ نافع[1] وحمزة والكسائي أن بكسر الهمزة على أن الجملة الشرطية مخرجة للمحق مخرج المشكوك استجهالاً لهم وإشعاراً بأن الإسراف أمر لا يجوز العقل إتيانه فكأنَّه محال مفروض والجزاء محذوف دل عليه ما قبله والمعنى أن كنتم قوماً مسرفين نهملكم فنضرب عنكم الذكر صفحاً، وقرأ الباقون بفتح الهمزة تقديره لأن كُنتُمْ مسرفين وهو في الحقيقة علة مقتضية لترك الإعراض جعلها علة للإعراض وأورد عليها همزة الإنكار والمعنى أفنترك عنكم الوحيَ ونمسك من إنزال القرآن فلا نأمركم ولا ننهاكم من أجل إسرافكم في الكفر، قال البغوي قال قتادة والله لو كان هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ولكن الله عاد عليهم لعائدته ورحمته فكرره عليهم عشرين سنة أو ما شاء، وقال مجاهد والسديُّ معناه أفنعرض عنكم ونترككم فلا نعاقبكم بكفركم.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ يعني أرسلنا فيهم كثيراً من الأنبياء ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ أي وما كان يأتيهم على حكاية الحال الماضية عطف أو حال ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ من زائدة ونبي في محل الرفع ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ المستثنى المفرغ منصوب على الحال من المفعول أي إلا كائنين على صفة الاستهزاء أو على أنه صفة لمصدر محذوف أي ما يأتيهم من نبي إتياناً إلا إتياناً كانوا به يستهزئون أو على الظرف أي ما يأتيهم نبيٌّ في زمان إلاَّ كانُوا فيه يَستَهزئُونَ به كاستهزاء قومك بك تسليّة لرسول الله ﷺ ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم﴾ أي من المسرفين يعني أهل مكة فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة أشَدَّ حال من مفعول أهلكنا المحذوف...... تقديره فأهلكنا الأولين حال كونهم أشد من مشركي مكة ﴿بَطْشًا﴾ أي قوةً تميز نسبة أشد أو مفعول مطلق لأهلكنا من غير لفظه ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سبق في القرآن قصتهم العجيبة في إهلاكهم التي حقها أن يسير مسير المثل، وفيه وعد للرسول ﷺ ووعيد للمستهزئين بمثل ما جرى على الأولين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي كفار مكة جواب قسم محذوف ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

---

(١) وأبو جعفر وخلف.

﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لعله لازم لقولهم أو ما دل عليه إجمالاً أقيم مقامه تقريراً لإلزام الحجة عليهم فإنهم قالوا الله كما حكى عنهم في مواضع أخرى وهو الذي من صفته ما ذكر من الصفات ويجوز أن يكون هذا مقر لهم وما بعده استئناف ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي فراشاً كالمهد للصبي ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ يسلكونها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا إلى مقاصدكم أو إلى حكمة الصانع بالنظر في ذلك ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي بمقدار ينفع ولا يضر ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم أي حيينا ﴿بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ﴾ أي إخراجاً وإنشاءً مثل ذلك الإنشاء أي إنشاء الأرض بالمطر ﴿تُخْرَجُونَ﴾ تنشرون من قبوركم أحياء أي كذلك تخرجون جملة معترضة، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما بين النفختين أربعون»، قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون عاماً؟ قال أبيتُ ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق»(١) وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن جرير عن سعيد بن جبير قال يسيل وادٍ من أصل العرش فتنبت منه كل دابة على وجه الأرض ثم تطير الارواح فيؤمر أن يدخل الأجساد فهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] وأخرج أحمد وأبو يعلى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء طش عليهم»(٢).

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ أي أصناف الخلائق ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي ما تركبونه على تغليب المتعدى بنفسه على المتعدى بغيره إذ يقال ركبتُ الدابة وركبتُ في السفينة أو المخلوق للركوب على المصنوع له أو الغالب على النادر ولذلك قال ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي ظهور ما تركبون وجمعه للمعنى ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بتمليك المركب في البر والبحر وتسخيرها ﴿وَتَقُولُوا﴾ بألسنتكم حامدين على النعمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ أي أسبح سبحان ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين من أقرن الشيء إذا أطاقه وأصله وجده قرينه إذ الصعب لا يكون قريناً للضعيف جملة ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ حال من هذه أو من ضمير لنا ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي راجعون، وجه اتصاله بما سبق أن الركوب للنقل والنقلة العظمى هو الانقلاب إلى الله أو لأنه مخطر فينبغي أن لا يغفل عنه ويستعد للقاء الله هذه الجملة حال آخر، روى أبو داود والترمذي والنسائي والبغوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لمَّا وضع رجله في الركاب قال بسم الله فلمَّا استوى قال الحمد الله ثم قال ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ ثم حمد الله ثلاثاً وكبر ثلاثاً ثم قال لا إله إلا أنتَ ظلمتُ نفسي

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣٩، باب ٣، وسورة ٧٨، باب ١، ومسلم في الفتن حديث ١٤١.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٢٦٧.

فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنتَ، ثم ضحك فقيل له ما يضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال رأيتُ رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت وقال مثل ما قلتُ ثم ضحك، فقلنا ما يضحكك يا نبي الله؟ قال: عجبتُ لعبد إذا قال لا إله إلا الله ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[1]، قوله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ مع ما عطف عليه من الموصولات ومع صلاتها صفات للعزيز العليم وعلى تقدير الاستئناف أخبار لمبتدأ محذوف أو مفعول لأعني.

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أي وصفوه بأن له جزءاً معطوف على قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ وجه اتصاله به أن بين الكلامين تناقض فإنهم بعدما اعترفوا أنه خالق السماوات والأرض وصفوه بأن له جزءاً وما يتجزى يستحيل أن يكون واجباً ويستحيل أن يكون خالقاً، والمراد به قولهم الملائكة بنات الله إذ لا شك أن الولد ما يخلق من نطفة الوالد والنطفة جزءٌ منه ولذلك سمي الولد جزء أو بضعة قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»[2] رواه البخاري عن المسور بن مخرمة وعند أحمد والحاكم بلفظ «فاطمة بضعة مني يغضبني ما يغضبها ويبسطني ما يبسطها وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وصهري»[3] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي جهول ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر الكفران ومفرط الجهل حيث

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١١٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٢٥٢، وعبد الرزاق في المصنف ١٩٤٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ١٢، ٢٩.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٥٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٤٢٢٢، ٣٤٢٢٣.

لم يعرف ما ينبغي أن يسب إلى الله سبحانه وما لا ينبغي.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ الله سبحانه ﴿مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ عطف على يخلق أو حال من فاعله والجملة مستأنفة مقدرة بالقول تقديره قل لهم أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين، ومن ثم جاز الخطاب وأصفاكم وإلا فهو واقع بين كلامين مسندين إلى الغيب أعني ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ وأم منقطعة بمعنى الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجبُ، بل للإضراب عن قولهم إن لله ولداً يعني أنهم لم يقنعوا على أن جعلوا لله جزءاً حتى جعلوا له من مخلوقاته أجزاءً خسيسة مما اختير لهم وأبغض الأشياء إليهم بحيث إذا بشر أحدهم بها اشتد غمهم كما قال ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي بالجنس الذي جعل له مثلاً إذ الولد لا بد أن يماثل الوالد أو المراد بالمثل الوصف والحال ومعنى إذا بشر أحد بالوصف الذي جعل للرحمن وصفاً أي كونه إما أنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ شديد السواد من غاية الكآبة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء قلبه من الكرب الجملة الشرطية بتقدير المبتدأ حال من ضميرهم في المقدر تقديره وقل لهم أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وهم إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ قرأ حفص[(١)] وحمزة والكسائي بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين أي يربَّى، والباقون بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين أي يُنبت ويكبر في الحلية، يعني النساء فإن حسنهن منحصر في الصورة فيتزين بالحلية ليزددن حسنهن بخلاف الرجال فإن حسنهم غالباً بالمعاني والأوصاف وذلك غير محتاج إلى الحلية، وفيه إشمام بأن النشأ في الزينة من المعايب فعلى الرجال أن يجتنبوا من ذلك ويتزينون بلباس التقوى ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ﴾ أي في المحاجة باللسان وبالسنان ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي غير مظهر حجتهن لنقصان عقلهن وضعف أبدانهن وقلوبهن، قال قتادة ما تتكلم امرأة تريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. من ينشؤوا منصوب معطوف على بَنَاتٍ والهمزة كررت لتأكيد الإنكار والتوبيخ والتعجيب والمغايرة وإنما هي لاختلاف الصفات والمعنى أم اتخذ من مخلوقاته بناتٍ مبغوضات مكروهاتٍ موجبات لسواد الوجه ناشئات في الحلية ضعيفاتٍ قلباً وقالباً وعقلاً، وجاز أن يكون مرفوعاً مبتدأ محذوف الخبر معطوف على مبتدأ محذوف تقديره أمن كان شأنه ما ذكر ومن يُنَشَّؤُوا في الحلية ومن هو في الخصام غير مبين ولد الله سبحانه.

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ قرأ نافع وابن كثير[(٢)] عِنْدَ بالنون ساكنة وفتح الدال على الظرف والباقون بالباء المفتوحة والألف، وضم الدال على أنه جمع عبد والجملة عطف على قوله وجعلوا له من عباده جزءاً يعني أنهم وصفوا الله سبحانه بما لا يليق به تعالى من أنه له ولد من خلقه، وذلك تحقير لشأنه تعالى ووصفوا الملائكة الذين هم

---

(١) وخلف.

(٢) وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب.

خيار عباد الله ومقربوه قرباً غير متكيف بكونهم إناثاً وذلك تحقير لشأنهم ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ قرأ أهل المدينة ءأشهدوا بهمزتين الأولى للإنكار وتعليل التشنيع المذكور والثانية همزة الأفعال مضمومة مسهلة وسكون الشين على ما لم يسم فاعله وقالون من رواية أبي نشيط بخلاف عنه يدخل بين الهمزتين ألفاً والباقون بهمزة واحدة مفتوحة للاستفهام وفتح الشين، والمعنى على القراءة الأولى ءأحضروا خلقهم وعلى الثانية حضروا خلقهم حين خلقوا إناثاً ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ على الملائكة أنهم بنات الله ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها يوم القيامة توبيخاً، أخرج ابن المنذر عن قتادة قال قال ناس من المنافقين إن الله صاهر الجن فخرجت بينهم الملائكة فنزلت فيهم ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ وقال البغوي قال الكلبي ومقاتل لمَّا قال أهل مكة هذا القول سألهم النبيّ ﷺ ما يدريكم أنهم بنات الله قالوا سمعنا من آبائنا ونحن نعلم أنهم لم يكذبوا فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] عنها في الآخرة.

﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على قوله ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أن لا نعبد الملائكة ﴿مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ يعنون الملائكة قاله قتادة ومقاتل والكلبي، وقال مجاهد يعنون الأوثان استدلوا بنفي مشيئة عدم العبادة على امتناع النهي أو على حسنها وذلك باطل لأن المشيئة ترجح بعض الممكنات على بعض مأموراً كان أو منهيًّا حسناً كان أو قبيحاً ولذلك جهلهم فقال ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي بما يدعون من أنها بنات الله أو أنها راضٍ بعبادتها ﴿مِنْ عِلْمٍۖ﴾ مستند إلى حسٍ أو عقلٍ موجب للعلم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ تأكيد لما سبق أي يقولون قولاً باطلاً بالظن والتخمين، أبدى الله سبحانه وجوه فساد زعمهم وحكى شبهتهم المزيفة ثم نفى أن يكون لهم بها علم من طريق الحسن أو العقل ثم أضرب عنه إلى إنكار أن يكون لهم سند من جهة النقل فقال ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ أم متصلة معادلة بقوله ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ يعني أشهدوا وقت خلقهم أم علموا بكتاب سماوي آتيناهم ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن أو قبل ادعائهم ينطق على صحة ما قالوه ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي بذلك الكتاب ﴿بَلْ قَالُوٓاْ﴾ عطف على قول أم أتيناهم يعني ما شهدوا خلقهم وما أتيناهم كتاباً بل يتفوهون هذا القول تقليداً حيث قالوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ على دين وملة سميت أمة لأنها تؤم كالرحلة للمرحول إليه وقال مجاهد على إمام ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ يعني لا حجة لهم عقلية ولا نقلية وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهلة وسموا ذلك التقليد اهتداء ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ﴾ استثناء مفرغ صفة لقرية أي إلا في قرية قال ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ أي منعموها ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ بأن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم وأن مقدّميهم أيضاً لم يكن لهم علم مستند إلى شيء من أسباب العلم، وفي تخصيص المترفين إشعار بأن التنعم سبب للبطالة والصرف عن النظر الصحيح إلى التقليد ﴿قَٰلَ﴾ قرأ حفص[1] قال بصيغة الماضي على أنه خبر عما قاله النذير والباقون

---

(١) وابن عامر.

بصيغة الأمر حكايةً لأمر ماضٍ أوحى من قبل إلى النذير أو خطاب لرسول الله ﷺ ويؤيد الأول سياق الكلام حيث قال ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بلفظ الماضي ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ قرأ أبو جعفر جئناكم على الجمع والباقون جئتكم على الإفراد والهمزة لاستفهام الإنكار والواو للحال تقديره أتتبعون آباءكم ولو جئتكم ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ أي بدين وطريقة أهدى ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا﴾ أي قال الكافرون في جواب المنذرين ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي بما أرسلت به أنت ومن قبلك ﴿كَافِرُونَ﴾ وإن كان ذلك أهدى إقناطاً للنذير من أن ينظروا أو يتفكروا فيه ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالاستئصال ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وكذلك ننتقم ممن كذبك فلا تهتم بتكذيبهم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ أي بريء مصدر وضع موضع النعت مبالغةً ولذا لا يثنى ولا يجمع ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي من عبادتكم أو من معبودكم يعني اذكر وقت قوله ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالبرهان أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بد من التقليد فإنهم يعترفون به أشرف آبائهم ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي خلقني استثناء منقطع أو متصل على أن يعم أولي العلم وغيرهم فإنهم كانوا يعبدون الأوثان أو صفة على أن ما موصوفة أي إنني برآء من آلهة تعبدونها غير الذي خلقني ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ أي سيثبتني على الهداية أو يرشدني فوق ما أرشدني إليه ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي جعل إبراهيم هذه الكلمة أي كلمة التوحيد المفهومة من قوله إنني برآء إلى سيهدين ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي ذريته، قال قتادة لا يزال في ذريته من يعبد الله وحده وقال القرطبي جعل الله تعالى وصية إبراهيم باقية في نسله وذريته وقال ابن زيد يعني قوله ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] وقرأ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي اذكر قول إبراهيم لعل أهل مكة يرجعوا إلى دين إبراهيم ووصيته ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ إضراب عن قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني كفار مكة المعاصرين للنبيّ ﷺ ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ الذين ماتوا على الشرك يعني لم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي القرآن، وقال الضحاك الإسلام ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر الرسالة بالمعجزات أو مظهر التوحيد بالحجج والآيات أو مظهر أحكام الله سبحانه ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي القرآن قالوا هذا أي القرآن ﴿سِحْرٌ﴾ سموه سحراً لعجزهم عن معارضته ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.

أخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس قال لما بَعَثَ الله محمداً ﷺ أنكرت العرب ذلك وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] وأنزل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩] فلمّا كررت الآية عليهم قالوا وإن كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة حينئذ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي من إحدى القريتين مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ بالجاه والمال فإن الرسالة من الله منصب عظيم لا يليق إلا لعظيم ولم يعلموا أنها رتبة روحانية تستدعي عظم النفس بالتجلي بالفضائل والكمالات القدسية وكمال الاستعداد للتجليات الذاتية والصفاتية لا التزخرف بالزخارف الدنيوية، وأخرج ابن المنذر عن قتادة

قال قال الوليد بن المغيرة لو كان ما يقول محمد حقاً أنزل عليّ هذا القرآن وابن مسعود الثقفي فنزلت هذه الآية، وقال البغوي قال مجاهد يعنون عتبة بن ربيعة من مكة وعبد ياليل بالطائف وقيل الوليد من مكة ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ويرى هذا عن ابن عباس قال الله تعالى رداً عليهم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني النبوة استفهام إنكار فيه تجهيل وتوبيخ وتعجيب من تحكمهم ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أي ما به عيشهم من الأرزاق ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تعليل للتجهيل والتوبيخ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ تميز عن النسبة، يعني رفعنا درجات بعضهم فوق بعض بالمال والجاه فجعلنا بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً وبعضهم مالكاً وبعضم مملوكاً ﴿لِّيَتَّخِذَ﴾ متعلق برفعنا ﴿بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ مسخراً في العمل له والياء للنسبة، قال قتادة والضحاك أي يملك بعضهم بما لهم بعضاً بالعبودية والملك ولا يقدر أحدهم أن يزيد في معيشته وينقص في معيشة غيره ولا أن يعترض على الله فيما فعل من القبض ﴿رَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني النبوة وما يتبعها ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا فإذا لم يقدر أحدهم أن يختار لنفسه الرفعة في الدنيا فأنى لهم أن يجعلوا النبوة التي هي أعلى مراتب الإنسانية حيث شاؤوا والعظيم عند الله من رزق النبوة لا من رزق متاع الدنيا والجملة عطف أو حال.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

ولمّا كانت العظمة عند الكفار بكثرة حطام الدنيا بين الله سبحانه كون الدنيا عند الله حقيراً مبغوضاً بقوله ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ﴾ كلهم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني كفاراً لحبهم الدنيا العاجلة وغفلتهم عن الأخرى الآجلة أن مع صلته مبتدأ وخبره محذوف أي حاصل وجواب لولا قوله ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ أو علة كقولك وهبتُ له ثوباً لقميصه ﴿سَقْفًا﴾ قرأ ابن كثير(١) وأبو جعفر بفتح السين وسكون القاف على الواحد بإرادة الجنس والباقون بضم السين والقاف على الجمع للسَّقْفِ مثل رَهْنٍ

(١) وأبو عمرو.

ورُهُنٍ، قال أبو عبيدة ولا ثالث لهما وقيل هو جمع سقيف وقيل جمع سَقُوف جمع الجمع ﴿مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي مصاعد ودرج من فضة لم يذكر الصفة هاهنا اكتفاء بذكرها في المعطوف عليه أعني سقفاً ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يعلون السطوح ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا﴾ جمع سرير أي وجعلنا لهم سرراً من فضة ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ أي زينة عطف على سقف أو ذهباً كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣] فهو معطوف على محل من فضة، وذلك أي تخصيص الدنيا بالكفار لكونها مبغوضة عند الله والكافر مبغوضاً فيعطى المبغوض للمبغوض ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكورات من سقف الفضة ومعارجها وأبوابها وسررها وزخرفها ﴿لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام(١) بخلاف عنه لمَّا مشددةً فإن نافية ولمَّا بمعنى إلا والمعنى وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا لا بقاء لها ولا اعتداد لها عند الله والباقون بتخفيف لَمَا فإن مخففة من الثقيلة واللام فارقة وما زائدة ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي الدار الآخرة متحققة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في علمه وقضائه ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي فيه دلالةٌ على أن العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا وإشعاراً بما لأجله لم تجعل زخارف الدنيا كلها للمؤمنين وجعل بعضها لأعداء الله وذلك أنها مبغوضة لله تعالى حريَّة أن تجعل كلها للكافرين لولا مخافة اجتماع الناس على الكفر ولو كانت حسنة مرضية لله تعالى يعط الكافر منها شيئاً.

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء وفي رواية قطرة من ماء»(٢) رواه الترمذي والضياء، وعن المستورد بن شداد أحد بني فهر قال كنتُ في الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ «أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها؟ فقالوا من هوانها ألقوها، قال رسول الله ﷺ «فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»(٣) رواه البغوي، وأخرج أبو نعيم عن داود بن هلال الضبي قال: مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تزينت لهم إني قد قذفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك ما خلقتُ أهون عليَّ منك كل شأنك صغير وإلى الفنا تصير قضيتُ عليك يوم خلقتُك أن لا تدومي لأحد ولا يدوم لك أحد وإن بخل بك صاحبك وشح عليك طوبى للأبرار الذين أطلعوني عن قلوبهم على الرضاء وأطلعوني من ضميرهم على الصدق والاستقامة طوبى لهم ما عندي من الجزاء إذا وفدوا إليَّ من قبورهم يسعى امامهم والملائكة حافُّونَ بهم حتى أبلغ بهم إلى ما يرجون من رحمتي، وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ما كان من الله عزَّ وجلَّ»(٤) رواه الضياء، وروى ابن ماجه عن أبي هريرة والطبراني

---

(١) وابن جماز.
(٢) أخرجه الترمذي في الزهد باب ١٣.
(٣) أخرجه البغوي في شرح السنة ١٤/٢٢٧.
(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ١/٩٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ٦٠٧٣، ٦٠٨٤.

في الأوسط بسند صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه بلفظ «إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً»[١] والبزار عن ابن مسعود نحوه بلفظ «إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكر الله» والطبراني في الكبير بسند صحيح عن أبي الدرداء مرفوعاً نحوه بلفظ «إلا ما ابتغي به وجه الله عزَّ وجل» وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له»[٢] رواه أحمد والبيهقي بسند صحيح ورواه البيهقي عن ابن مسعود موقوفاً، وعن ابن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وسنته فإذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة»[٣] رواه أحمد والطبراني والحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٤] رواه أحمد ومسلم في الصحيح والترمذي وروى البيهقي والحاكم عن سلمان والبزار عن ابن عمر، يعني أن المؤمن وإن كان في نعيم فالدنيا بالنسبة إلى ما أعد له في الآخرة من الثواب سجن وسنة والكافر وإن كان في ضر وبلاء فالدنيا بالنسبة إلى ما أعد له في الآخرة من العذاب جنة والله أعلم.

فإن قيل روى صاحب مسند الفردوس عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا والدنيا والآخرة حرام على أهل الله»[٥] ما معنى ذلك قلتُ معناه عندي والله أعلم أن حب الدنيا حرام على أهل الآخرة يعني على المؤمنين لا الانتفاع بمتاع الدنيا حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] فمن ارتكب بحب الدنيا أضر بآخرته قال رسول الله ﷺ: «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[٦] رواه أحمد والحاكم في المستدرك بسند صحيح عن أبي موسى والآخرة يعني حظوظ الآخرة حرام على أهل الدنيا يعني من همه الدنيا لا غير يعني الكفار وفيهم قال الله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] والدنيا والآخرة يعني حبهما حرام على أهل الله وهم الذين امتلأ قلوبهم من حب الله تعالى لا تلتفت قلوبهم إلى شيء من الدنيا

(١) أخرجه ابن ماجه حديث ٤١١٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٧١، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٨٨، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٢١١.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣١٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٨٨.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد حديث ١، والترمذي حديث ٢٣٢٤، وابن ماجه حديث ٤١١٣، وأحمد في المسند ٢/ ١٩٧.

(٥) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٦٠٧١، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤٩٣.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٧٥، ٤١٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣٧٠، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٠٨، ٣١٩.

والآخرة غير الله سبحانه. روي أن رابعة البصرية أخذت في إحدى يديها ظرفاً من ماء وفي الأخرى قطعة من نار فقيل لها أين تريدين قالت أريد أن أطفىء نار جهنم وأحرق الجنة كيلا يعبد الناس الله تعالى طمعاً في الجنة ولا خوفاً من النار بل خالصاً لوجهه تعالى، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه وكان هذا مبنياً على السكر منها بل لا بد للمؤمن أن يطمع في الجنة لا لنفسها بل لكونها محلاً لرحمة الله تعالى ويتعوذ من النار لكونها محلاً بسخط الله تعالى وغضبه نعوذ بالله منها. فإن قيل التمتع بحطام الدنيا مالم يكن محرماً لحق الله تعالى ولا لحق العبد جائز لما ذكرنا وطلب المعاش جائز بل فريضة حيث قال رسول الله ﷺ: «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»[1] رواه الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود فما معنى الدنيا وحبها قلتُ معنى حب الدنيا إيثارها على الآخرة والانهماك في اكتسابها ولذاتها بحيث يغفل عن اكتساب الثواب واجتناب العذاب والحرص على جمع المال وطول الأمل وزعم الأغنياء خيراً من الفقراء وتعظيم الأغنياء فوق تعظيم الفقراء لأجل غناه لا لدفع مضرة أو مكافأة إحسان أو لغير ذلك من غرض مشروع أو أن يريد عُلواً في الأرض أو فساداً، وأما طلب المعاش وكسب الأموال من ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾ [النور: ٣٧] للإنفاق على نفسه حتى يتقوى على عبادة ربه وعلى عياله أداء لحقوقهم وللإنفاق في سبيل الله فليس بمكروه بل منها ما هو واجب ومنها ما هو مُستحب ومنها ما هو مباح، قال رسول الله ﷺ «أيما رجل كسب مالاً من حلال فأطعم نفسه أو كساها فمن دونه من خلق الله كان له به زكاة»[2] رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي سعيد ولكن المسنون الإجمال في طلب الدنيا قال رسول الله ﷺ: «أجملوا في طلب الدنيا فإن كلاً ميسر لما خلق له»[3] رواه ابن ماجه والحاكم.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[4] أي من يعرض عن القرآن ويتعامى عنه لفرط اشتغاله

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٩٠، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ١٣١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٩٢٠٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٣٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٩٢٠٢، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٣/ ٩٨٠.

(٣) أخرجه ابن ماجه حديث ٢١٤٢، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٢٦٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٥٣٤.

(٤) عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشاً قالت قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً يأخذه ـ فقيضوا لأبي بكر طلحة بن عبيد الله فأتاه وهو في القوم فقال أبو بكر إلى ما تدعوني قال أدعوك إلى عبادة اللات والعزى قال أبو بكر ما اللات قال ربنا قال ما العزى قال بنات فقال أبو بكر فمن أمهم فسكت طلحة ولم يجبه فقال طلحة لأصحابه أجيبوا الرجل فسكت القوم فقال طلحة قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فانزل ومن يعش عن ذكر الرحمٰن نقيض له شيطاناً ـ ١٢ ـ.

باللذات وانهماكه في الشهوات يقال عشوتُ إلى فلان عشواً إذا قصدته مهتدياً وعشوتُ عنه إذا أعرضت عنه كما يقال عدلتُ إلى فلان وعدلتُ عنه أي ملتُ إليه وعنه ورغبتُ فيه ورغبتُ عنه، قال الخليل بن أحمد أصل العشو النظر ببصر ضعيف ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ قرأ يعقوب يُقَيِّضْ بالياء التحتانية على صيغة الغائب والضمير فيه راجع إلى الرحمن والباقون بالنون على التكلم والتعظيم أي نصبتُه له شيطاناً ونضمه إليه ونسلط عليه ﴿فَهُوَ﴾ أي الشيطان ﴿لَهُۥ قَرِينٌ﴾ لا يفارقه ويزين له السيئات ويخيل إليه أنه على الهدى ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي يمنعونهم جمع الضمير نظراً إلى معنى من الموصولة وهم العاشين ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي سبيل الهدى جملة معترضة ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي العاشون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي على الهداية الجملة حال من الضمير المنصوب من ليصدونهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ غاية لحسبانهم، قرأ أهل العراق غير أبي بكر جاءنا على الإفراد يعني إذا جاء العاشي والباقون جاءانا على التثنية يعني إذا جاء العاشي وشيطانه وقد جعلا في سلسلة واحدة ﴿قَالَ﴾ أي العاشي لشيطانه ﴿يا﴾ للتنبيه أو المنادى محذوف تقديره يا قرين ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي بعد المشرق من المغرب فغلَّب المشرق وثنى وأضيف البعد إليهما أو المراد مشرق الصيف ومشرق الشتاء ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت لي، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه إذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشيطان فلا يفارقه حتى يصير إلى النار، قال الله تعالى ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي في الآخرة ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ إذ تبين لكم أنكم أشركتم وظلمتم أنفسكم في الدنيا وإذ بدل من اليوم ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في موجبه ويجوز أن يسند الفعل إليه يعني لن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في أمر صعب معاونتهم في تحمل إعيائه وتقسمهم بمكائده شدائده لأن لكل واحد منكم ومن شياطينكم الحظ الأوفى والأوفر من العذاب وجاز أن تكون جملة ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ حالاً من فاعل قال يا ليتني ويكون فيها التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب.

﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين والاستفهام للإنكار والتعجب والفاء للعطف على محذوف تقديره أنت تريد أن تهديهم فأنت تسمع الصم يعني لست تقدر على هداية هؤلاء الكفار بعد تمرنهم على الكفر واستغراقهم في الضلال بحيث صار ظلمة الكفر عليهم غشاوةً على أعينهم ووقراً في آذانهم كأنهم لا يسمعون كلامك ولا يبصرون طريقاً تهديهم إليه ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ إن شرطية اتصلت بما الزائدة المؤكدة بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة والمعنى فإن نقبضك قبل تعذيبهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعدك في الدنيا وفي الآخرة علة لجزاء محذوف أقيم مقامه يعني لا تحزن ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ في الدنيا ﴿ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ من العذاب ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ نحو ما ذكر يعني لا تعجب فإنا على تعذيبهم مقتدرون لا يفوتوننا نعذبهم متى شئنا والمراد به مشركو مكة انتقم الله منهم يوم بدر

وهذا قول أكثر المفسرين، وقال الحسن وقتادة عنى به أهل الإسلام من أمة محمد ﷺ وقد كان بعد النبيّ ﷺ نقمة شديدة فأكرم الله نبيه ﷺ وذهب به ولم يره في أمته إلا الذي يقر عينه وأبقى النقمة بعده وروي أن النبيّ ﷺ أرى ما يصيب أمته بعده فما رُئي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله، قلتُ: لعل ذلك مقتل حسين عليه السلام وما فعل بعد ذلك بنو أمية، وعن عبد الرحمن بن مسعود العبدي قال قرأ علي بن أبي طالب هذه الآية فقال قد ذهب نبيه وبقيت نقمته في عدوه ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ من الوحي المتلو وغير المتلو فاحفظه وأعمل به الفاء للسببية والجملة متصلة بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وبينهما معترضات ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج له، هذه الجملة في مقام التعليل للأمر بالاستمساك.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَذِكْرٌ لَكَ﴾ أي شرف لك ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ قريش[١] الجملة حال من فاعل استمسك قال البغوي روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ كان إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك لم يجب بشيء حتى نزلت هذه الآية وكان بعد ذلك إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك قال «لقريش»، وكذا روي عن علي رضي الله عنه وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي اثنان»[٢] وعن معاوية قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»[٣] وقال مجاهد القوم هم العرب والقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص عن العرب حتى يكون الأكثر لقريش ولبني هاشم، وقيل ذلك شرف لك بما أعطاك من الحكمة ولقومك المؤمنين بما هداهم الله ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ يوم القيامة عن القرآن وعما يلزمكم من القيام بحقه جملة معترضة ﴿وَسْأَلْ﴾ عطف على فاستمسك ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ قال البغوي

---

(١) وعن عدي بن حاتم قال كنت قاعداً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا إن الله علم ما في قلبي من حبي لقومي فشرف فيهم فقال وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون فجعل الذكر والشرف لقومي في كتابه ثم قال وانذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فالحمد لله الذي جعل الصديق من قومي والشهيد من قومي والأئمة من قومي ـ إن الله قلب العباد ظهراً وبطناً فكان خير العرب قريشاً وهي الشجرة المباركة التي قال الله في كتابه مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة يعني قريشا أصلها ثابت وفرعها في السماء يقول أصلها محرم وفرعها في السماء أي الشرف الذي شرفهم الله بالإسلام الذي هداهم له وجعلهم اهله ثم أنزل فيهم سورة من كتابه بمكة لإيلاف قريش إلى آخرها قال عدي بن حاتم ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عن قريش بخير قط إلا سره حتى يتبين ذلك السرور للناس كلهم في وجهه وكان كثيراً ما يتلو هذه الآية وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ـ ١٢ ـ منه برّد الله تربته.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٩، والبغوي في شرح السنة ١٤/٦٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٤٧٩٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/٣٩٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/١٤٢، ١٤٣، والطبراني في المعجم الكبير ١٩/٣٣٨.

اختلف العلماء في هذا المسؤول؟ قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه لمَّا أسري بالنبيّ ﷺ بعث الله له آدم وولده من المرسلين فأذن جبرئيل قم أقام وقال يا محمد تقدم فصل بم فلمَّا فرغ من الصلاة قال جبرئيل سل يا محمد ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ لا أسأل قد اكتفيتُ، وهذا قول الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد قالوا جمع له الرسل ليلة أسري به أن يسألهم فلم يشك ولم يسأل وقال أكثر المفسرين معناه واسأل أمم من أرسلنا من قبلك وعلماء دينهم يعني مؤمني أهل الكتاب وهذا قول ابن عباس في سائر الروايات ومجاهد وقتادة والضحاك والسديّ والحسن والمقاتلين ويدل عليه قراءة ابن مسعود وأبيّ بن كعب واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعباده غير الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ يريد باقتصاصه تسلية الرسول ﷺ ومناقضة قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] والإستشهاد بدعوة موسى إلى التوحيد ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الدالة على رسالته منها العصا واليد البيضاء ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بها أول ما رأوها بلا تأمل فيها لمَّا ظرف مضاف إلى جملة بعدها متعلقة بمعنى المفاجأة الذي هو عامل في إذا يعني لما جاءهم بآياتنا فوجيء وقت كونهم يضحكون وجملة فوجيء عطف على قوله ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من آيات العذاب كالسنين والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس فإنها كانت آيات على صدق موسى عليه السلام ﴿إِلَّا هِىَ﴾ أي إلا آية هي ﴿أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي من قرينه التي كانت قبلها وجملة ما نريهم حال من ضمير منها والأظهر إن يقال أن كل واحدة منها كانت بالغة أقصى درجات الإعجاز بحيث يحسب الناظر إلى كل واحدة منها أنها أكبر من غيرها والمراد وصف الكل بالكبر كقولك رأيتُ رجالاً كل واحد منهم أفضل من غيره، وكقول الشاعر[1]:

---

(١) البيت من البسيط، وهو للعرندس الكلابي في معجم الشعراء ص ١٧٣، وأمالي القالي ١/٢٣٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص١٥٩٣.

من تلق منهم فقد لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

أو يقال بأن كل واحد منها مختصة بنوع من الإعجاز مفضلة على غيرها بذلك الإعتبار ﴿وَأَخَذْنَٰهُم﴾ يعني آل فرعون ﴿بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لكي يرجعوا عن كفرهم وجملة وأخذناهم عطف على﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني قال فرعون وقومه لموسى ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ قرأ ابن عامر بضم الهاء في أَيُّهُ وصلاً والباقون بفتحها على الأصل وقرأ أبو عمرو[1] والكسائي بالألف وقفاً على الأصل والباقون أَيُّهُ بغير ألف، أطمعوا موسى عليه السلام في إيمانهم وعلقوا الإهتداء بهدايته على دعائه وكشف الضرّ عنهم ومع ذلك لم يسموه نبيّاً وسموه ساحراً كما كانوا يسمونه قبل ذلك وذلك من شدة شكيمتهم على الكفر وفرط حماقتهم، قال الزجاج دعوه بذلك الاسم لما تقدم له عندهم من التسمية، وقيل إنما قالوا هذا تعظيماً وتوقيراً له لأن السحر كان عندهم علماً عظيماً وصفةً ممدوحةً كأنّهم قالوا يا أيها العالم الكامل الحاذق وهذا عندي غير سديد لأنهم اتهموه بالسحر أول مرة حين أنكروا نبوته و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٦ ـ ٧٧] وقيل معناه يا أيها الذي غلبنا بسحره ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أن يكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ متعلق بادع أي بما أخبرتنا عن عهده إليك بكشف العذاب إذا دعوته ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إن كشف عنا العذاب هذه جملة مستأنفة فدعا موسى عليه السلام بكشف العذاب عنهم فكشف الله عنهم العذاب قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ بدعاء موسى عليه السلام ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فاجؤوا نقض عهدهم بالإيمان وأصروا على كفرهم حين كشفنا عنهم العذاب.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ في مجمعهم وفيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم مخافةً أن يؤمن بعضهم، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار النيل ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس عطف على ملك مصر ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ قرأ نافع[2] وأبو عمرو والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني من تحت قصوري أو تحت أمري أو بين يدي في البساتين حال وجاز أن تكون هذه مبتدأ والأنهار صفة له وتجري خبره والجملة حال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ بهذه المملكة والبسطة من ﴿هَٰذَا﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير لا يستعد للرياسة من المهانة وهي القلة ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يفصح كلامه للثقة التي كانت في لسانه عليه السلام بعدما زالت معظمها بدعائه عليه السلام حين قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧ ـ ٢٨] وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها للتقرير إذ قدم من أسباب فضيلته، وقال البغوي أو بمعنى بل على قول أكثر المفسرين، وقال الفراء الوقف على قوله أم وفيه إضمار تقديره أفلا تبصرون أم

---

(١) ويعقوب.

(٢) وأبو جعفر.

تبصرون وبعده كلام مبتدأ فَأمُ على هذا متصلة، وقيل أم متصلة على إقامة المسبب مقام السبب فإن قوله أَنَا خَيْرٌ معناه تعلمون أنا خيروا العلم يكون خيراً مسبب للتبصر فكانً قال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أم تبصرون فتعلمون أني خير ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ﴾ أي على موسى ﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ الفاء للسببية فإنَّ طعن فرعون في موسى عليه السلام بالحقارة كان سبباً لتنديهم على فوات العز والجاه قرأ حفص ويعقوب أسورة جمع سوار والباقون أساورة جمع الجمع قيل أصله أساوير عوض التاء من الياء وقد قُرىء به، قال مجاهد كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب يكون ذلك دلالةً لسيادته فقال فرعون فهلاً ألقى رب موسى على موسى أسورة من ذهب إن كان سيداً يجب علينا طاعة ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ متتابعين يتابع بعضهم بعضاً يشهدون له بصدقه ويعينونه على أمره.

﴿فَٱسْتَخَفَّ﴾ أي فرعون عطف على نادى ﴿قَوْمَهُۥ﴾ القبط أي وجدهم جهالاً، وقيل حملهم على الخفة والجهل يقال استخف رأيه إذا حمله على الجهل وأزاله عن الصواب، وقيل أي طلب منهم الخفة في مطاوعته ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به من نقض العهد مع موسى عليه السلام ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا بالإفراط في العناد والعصيان يقال أسف فلان إذا اشتد غضبه الظرف متعلق بقوله ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وهو معطوف على أطاعوه وعطف عليه قوله ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ في بحر النيل ﴿أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام قال الفراء هو جمع سليف كرُغُفٍ ورَغيُفٍ من سلُف يسلُف بضم اللام فيهما أي تقدم أو جمع سالف كصُبُرٍ جمع صابر أو جمع سلف كخَشَبٍ والباقون بفتحهما مصدر نعت به أو جمع سالف كخَدَمٍ وجمع خَادِمٍ يعني جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون ﴿وَمَثَلًا﴾ عبرةً وعظةً ﴿لِّلْءَاخِرِينَ﴾ وقيل سلفاً لكفار هذه الأمة إلى النار ومثلاً لمن بقي بعدهم وقيل مثلاً للآخرين أي قصة عجيبة يسير مسير الأمثال لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون والله أعلم.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا
ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ
قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى
وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ
يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ
مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ

﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

أخرج أحمد بسند صحيح والطبراني عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»[١]، فقالوا ألست تزعم أن عيسى كان نبيّاً وعبداً صالحاً وقد عُبدَ من دون الله فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ أي ضربه قريش مثلاً، وأخرج ابن مردويه والضياء في المختار عن ابن عباس قال جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبي ﷺ فقال يا محمد إنك تزعم أن الله قد أنزل إليك ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال نعم قال قد عُبِدَتِ الشمس والقمر والملائكة وعزير فكل هؤلاء في النار مع آلهتنا فنزلت؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١] ونزلت ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ إلى قوله ﴿خَصِمُونَ﴾ ﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ قرأ أهل المدينة والشام والكسائي يَصُدُّونَ بضم الصاد أي يعرضون عنه ويكون لازماً ومتعدياً أي يعرضون عنه ويمتنعون أو يمنعون الناس عنه والباقون بكسر الصاد وقيل معناه مثل معنى مضموم العين، قال الكسائي هما لغتان مثل يعرشُونَ بضم الراء وكسرها أي يصيحون كذا قال سعيد بن المسيب، وقال الضحاك يتعجبون، وقال قتادة يجزعون وقال القرطبي يضجرون، قال قتادة لَمَّا ضُرِبَ ابنُ مريم مثلاً إذا قَومُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ يقولون ما يريد منا محمد إلا أن نعبده ونتخذه إلهاً كما عَبَدَت النصارى عيسى ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا﴾ قرأ الكوفيون بتحقيق الهمزتين وألف بعدهما والباقون بتسهيل الثانية وبعدهما ألف ولم يدخل أحدهم الفاً بين المحققة والمسهلة ﴿خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ يعنون محمداً ﷺ فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا، وقال ابن زيد والسديُّ أم هُوَ يعنون عيسى عليه السلام قالوا يزعم محمد أن كل مَن عبد من دون الله في النار نرضى أن يكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة في النار ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ أي للجدل والخصومة بالباطل لا للتميز بين الحق والباطل لأنهم قد علموا أن محمداً ﷺ لا يريد عبادة نفسه أو قد علموا أن قوله ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ المراد منه الأصنام فإن ما لغير ذوي العقول ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ شداد الخصومة حراص على اللجاج اعتادوا بالخصومة، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما منك قوم بعد هدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم قرأ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ رواه البغوي وكذا روى أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرك.

﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي عيسى ﴿إِلَّا عَبۡدٌ﴾ لله ليس ابنه ﴿أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ بالنبوة والزلفى ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا﴾ أي أمراً عجيباً كالمثل السائر وآية وعبرة يعرفون به قدرة الله على ما يشاء حيث خلقه من غير أب ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَوۡ نَشَآءُ﴾ إلى آخره جملة معترضة لبيان قدرة الله تعالى ﴿لَجَعَلۡنَا

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣١٨/١، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠٤/٧، والسيوطي في الدر المنثور ٢٠/٦.

﴿مِنكُم﴾ أي لخلقنا منكم أي من الإنس أو المعنى لأهلكناكم وجعلنا بدلكم ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي يخلفونكم في الأرض يعمرون الأرض ويعبدونني ويطيعوني، وقيل يخلف بعضهم بعضاً يعني أن حال عيسى وإن كان عجيباً فنحن قادرون بما هو أعجب منه وإن الملائكة مثلكم من حيث إنها ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليداً كما جاز خلقها إبداعاً فمن أين لها استحقاق الألوهية والانتساب إلى الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي نزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها قرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة (وإنه لعلم الساعة) بفتح العين واللام أي أمارة وعلامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»[١] رواه الشيخان في الصحيحين، وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: «اطلع النبيّ ﷺ ونحن نتذاكر فقال «ما تذكرون؟» قالوا نذكر الساعة قال «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم، وفي رواية وفي العاشرة وريح تلقى الناس في البحر»[٢] رواه مسلم، وعن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال فذكر حديثاً طويلاً في قصته إلى أن قال: «إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كتفه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه مثل جمان كاللؤلؤ»[٣] الحديث رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتَّى لا يقبل أحد حتى تكون السجدة الواحد خيراً من الدنيا وما فيها»[٤] رواه الشيخان في الصحيحين وأخرجه مسلم من حديثه أيضاً «لينزلَنّ ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرنَّ الصليب وليقتلنَّ الخنزير وليضعنّ الجزية وتترك القلاص فلا يسعى عليها وليذهبنَّ الباغض وليدعنَّ إلى المال فلا يقبله أحد»[٥]، وروى مسلم من حديث جابر «فيقول أميركم تعال صل لنا فيقول إن بعضكم على بعض أمراء مكرمة لهذه الأمة»[٦] وذكر البغوي «فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر فيتأخر الإمام فيقدمه

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٩، ومسلم في الإيمان حديث ٢٤٩، وابن ماجه في الفتن باب ٣٣، وأحمد في المسند ٢/ ٣٣٦، ٣/ ٣٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن حديث ٣٩، ٤٠، وأبو داود في الملاحم باب ١٢، والترمذي في الفتن باب ٢١، وابن ماجه في الفتن باب ٢٨، وأحمد في المسند ٤/ ٦، ٧.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١١٠، وابن ماجه في الفتن باب ٣٣، وأحمد في المسند ٤/ ١٨٢.

(٤) أخرجه البخاري في المظالم باب ٣١، والبيوع باب ١٠٢، وأحاديث الأنبياء باب ٤٩، ومسلم في الإيمان حديث ٢٤٢.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٤٣.

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٤٧، وأحمد في المسند ٤/ ٢١٧.

عيسى ويصلّي على شريعة محمد ﷺ ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به»، وقال الحسن وجماعة الضمير راجع إلى القرآن يعني أن القرآن لعَلَم للساعة يعلّم بقيامها ويخبركم بأحوالها وأهوالها ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ الفاء للسببية يعني لما كان عيسى سبباً للعلم بقيام الساعة أي فلا تشكنَّ فيها قال ابن عباس لا تكذبوا بها ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ قرأ أبو عمرو[١] بالياء وصلاً فقط والباقون بحذفها وصلاً ووقفاً يعني اتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي وقيل هو قول الرسول ﷺ أمر أن يقوله تقديره وقل اتبعوني ﴿هَٰذَا﴾ الذي أدعوكم إليه ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه تعليل لقوله اتبعوني ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ أي لا يمنعكم ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن متابعتي، الجملة معطوفة على قوله اتَّبِعُونِي ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر عداوته حيث أخرجكم عن الجنة وعرضكم على البلية ويصدكم عن اتباع الحق والوصول إلى الجنة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات أو بآيات الإنجيل أو بالشرائع الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي بالعلوم الحقة الباء بمعنى مع أو للتعدية ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ متعلق بمحذوف تقديره وجئتكم لأبين لكم ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وذلك أن اليهود صاروا بعد موسى عليه السلام إحدى وسبعين فرقة باختلاف الأهواء فلمّا جاء عيسى عليه السلام صدهم عن العقائد الباطلة وهداهم إلى الحق والصواب، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[٢] رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه بسند صحيح، قال الزجاج الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه وبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الفاء للسببية فإن مجيء عيسى بالحكمة سبب للتقوى ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلّغه عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ دون غيره بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى مجموع الأمرين وهذا تتمة كلام عيسى أو استئناف من الله تعالى يدل على المقتضى للطاعة في ذلك.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة عطف على قال قد جئتكم ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي بين قوم عيسى كما مرَّ في الحديث أنهم تفرقوا إلى اثنين وسبعين فرقة أو من بين النصارى واليهود ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي هلاك عظيم ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم باتباع الهوى ورفض ما نطق به الكتاب والسنة من المتحزبين ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي من نار جهنم، الفاء للسببية فإن اختلافهم سبب للويل والهلاك عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتي كما أتى على نبي إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى أن من كان منهم من أتى أمه علانية لكان من أمتي

---

(١) وكذا أبو جعفر ويعقوب في الحالين.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة باب ١، والترمذي في الإيمان باب ١٨، وابن ماجه في الفتن باب ١٧، وأحمد في المسند ٢/ ٣٣٢، ٣/ ١٢٠، ١٤٥.

من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا من هي يا رسول الله؟» قال «ما أنا عليه وأصحابي»[١] رواه الترمذي وفي رواية أحمد وأبي داود عن معاوية «ثنتان وسبعون في النار واحدة في الجنة وهي الجماعة» ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ يعني قريشاً أو الذين ظلموا يعني لا ينتظرون شيئاً ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل من الساعة أي إتيانها يعني أنها آتية لا محالة فكأنهم ينتظرون إتيانها ﴿بَغْتَةً﴾ فجاءه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي غافلون عنها لاشتغالهم بالدنيا وإنكارهم لها والجملة حال من فاعل ينظرون أو مفعول تأتيهم ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا﴾ المتحابين ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ روى البغوي عن علي رضي الله عنه قال في هذه الآية خليلان مؤمنان وخليلان كافران فمات أحد المؤمنين فقال يا رب إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ويخبرني أني ملاقيك يا رب فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما فيقول ليثن أحدكما على صاحبه فيقول نعم الأخ ونعم الخليل ونعم الصاحب، قال ويموت أحد الكافرين فيقول يا رب إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك فيقول بئس الأخ وبئس الخليل وبئس الصاحب»، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[٢] رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن عبدين تحابا في الله عزَّ وجلَّ واحد في المشرق وآخر في المغرب لجمع الله بينهما يوم القيامة يقول هذا الذي كنت تحبه فيَّ»[٣] رواه البيهقي في شعب الإيمان والله أعلم.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ هذه الجملة بتقدير القول مستأنفة أخرى تقديره يقول الله للمتحابين المتقين يومئذ ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ روى البخاري عن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال سمعتُ أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا فزع فنادى مناد ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾، فيرجوا الناس فيتبعها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صفة للمنادى ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حال من فاعل آمنوا أي الذين آمنوا مخلصين غير أن هذه العبارة آكد فيئس الناس كلهم منها غير المسلمين ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي نساؤكم المؤمنات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي تسرون سروراً يظهر حباره أي أثره على وجوهكم أو تزيَّنون من الحبر وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراماً بليغاً والحبرة فيما وصف مجمل، وهذه الجملة أيضاً خطاب للمنادى أنتم مبتدأ وأزواجكم

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ١٨.
(٢) أخرجه مسلم في البر حديث ٣٨، والترمذي في الزهد باب ٥٣، والدارمي في الرقاق باب ٤٤، ومالك في الشعر حديث ١٣.
(٣) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح ٥٠٢٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٤٦٤٦.

معطوف عليه وتحبرون خبره وجاز أن يكون أنتم تأكيداً للضمير المستتر في ادخلوا وأزواجكم معطوف على الضمير المستتر وجملة تحبرون حال من ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ أي يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴿بِصِحَافٖ﴾ جمع صحفة وهي القصاع الواسعة ﴿مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ جمع كوب وهو إناء مستدير مدور الرأس لا عرى به، الجملة مستأنفة وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿وَفِيهَا﴾ أي في الجنة عطف على يطاف ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ قرأ أهل المدينة والشام وحفص هكذا وكذا هو في مصاحفهم والباقون تشتهي بحذف ضمير المفعول ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ أي لكل واحد منهم ما تشتهيه نفسه فالصوفي الذي مشتهاه الوصل والعريان بلا كيف ودوام رؤية الله سبحانه فله ذلك وأما غيره فله من نعماء الجنة ما يشتهيه، روى البغوي عن عبد الرحمن بن سابط قال قال رجل يا رسول الله أفي الجنة خيل فإني أحب الخيل؟ فقال «إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير في أيّ جنة شئت ولا فعلتَ»، قال أعرابي يا رسول الله في الجنة إبل فإني أحب الإبل، فقال «يا أعرابي إن يدخلك الله الجنة أصبتَ فيها ما اشتهتْ نفسك ولذت عينك»(١) وروى الترمذي والبيهقي عن بردة نحوه، وأخرج الطبراني والبيهقي بسند جيد عن عبد الرحمن بن ساعدة والترمذي عن أبي أيوب الفصل الأول أعني ذكر الخيل ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ الجنة خبر للمبتدأ والموصول صفة لها أو الجنة صفة للمبتدأ والموصول خبره والجملة حال من فاعل ادخلوا، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «كل من أهل النار يرى به منزلته من الجنة حسرة فيقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين وكل من أهل الجنة يرى منزلته من النار فيقول ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله يقول شكراً»(٢) قال وقال رسول الله ﷺ «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة فذلك قوله تعالى ﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»(٣) ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ الجملة الظرفية حال، أخرج البزار والطبراني عن ثوبان قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا ينزع رجل من أهل الجنة من ثمرها إلا أعيد في مكانها مثلها»(٤) أخرج البزار عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى لمَّا أخرج آدم من الجنة زوَّده من ثمار الجنة وعلمه صفة كل شيء فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير»(٥) وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود أنه كان بالشام فذكروا الجنة فقال إن العنقود من عناقيدها من هاهنا إلى صنعاء وأخرج ابن أبي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٥٢، والبغوي في شرح السنة ١٥/ ٢٢٢.
(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٨٥، وابن كثير في تفسيره ٣/ ٤١٢.
(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٣، والبغوي في تفسيره ٢/ ٢٣١.
(٤) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٨، ٣/ ١٧.
(٥) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥٦.

الدنيا عن ابن عباس قال إن الثمرة من ثمار الجنة طولها اثني عشر ذراعاً ليس لها عجم.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكاملين في الإجرام وهم الكافرون لأنهم جعلوا قسيماً للمؤمنين ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ هذه الجملة وما بعده مستأنفتان ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف عنهم من فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ أي آيسون من النجاة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا﴾ عطف على خبر أن ﴿يَا مَالِكُ﴾ اسم لخازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾ أي ليمتنا ربك فنستريح ﴿قَالَ﴾ الله تعالى أو قال مالك بعد ألف سنة ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ مقيمون في العذاب لاخلاص لكم بموت ولا غيره، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس في هذه الآية قال يمكث عنهم ألف سنة ثم يجيبهم ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ وأخرج هناد والطبراني وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال إن أهل النار ينادون مالكاً «يا مالك ليقض علينا ربك» فيذرهم أربعين عاماً لا يجيبهم ثم يرد عليهم ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ ثم ينادون ربهم ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فيذرهم مثل الدنيا مرتين لا يجيبهم ثم يجيبهم ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] قال فما يتكلم القوم بعدها بكلمة وما هو إلا الزفير والشهيق، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن محمد بن كعب أنه قال لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] فيجيبهم ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فيجيبهم الله ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: ١٤] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فيجيبهم ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ثم يقولون:

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم الله ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] فيجيبهم الله ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يتكلمون بعدها.

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالإرسال والإنزال وهذا تتمة الجواب إن كان في قال ضمير الله وإلا فجواب عنه فكأنَّه تعالى تولّى جوابهم بعد جواب الملائكة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لما في اتباعه خلاف النفس ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ﴾ أم منقطعة بمعنى الهمزة للإنكار والإضراب عن كراهة الحق والترقي فيه يعني بل أحكموا ﴿أَمْرًا﴾ مكراً برسول الله ﷺ أو أمراً في تكذيب الحق ورده ولم تقتصروا على كراهيته ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون أمراً في مجازاتهم.

أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي فقال واحد منهم ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال الآخر إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ أم منقطعة للإنكار والإضراب يعني بل أيحسبون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ﴾ سرهم أي حديث نفسهم بذلك ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي تناجيهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعها ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أي الملائكة الحفظة أيضاً ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمون ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الواو وسكون الدال ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ منكم فإن النبي أعلم بالله وبما يصح له وبما لا يصح وأولى بتعظيم ما يوجب تعظيمه ومن يعظم الوالد يعظم ولده قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها»(١) وفي رواية «فمن أغضبها أغضبني»(٢) رواه البخاري عن مسور، ولا يلزم من ذلك جواز البنوة لله سبحانه وعبادته له إذ المحال قد يستلزم المحال بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] غير أن لو مشعرة بانتفاء الطرفين وأن لا يشعر به ولا بنقيضه فإنها لمجرد الشرط، والمقصود أن إنكاره ﷺ للولد ليس لعناد بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به كذا قال السديُّ، وقيل معناه إن كان لله ولد في زعمكم فأنا أول العابدين لله الموحدين له من أهل مكة يعني لستُ قائلاً كما زعمتم، وقيل العابدين بمعنى الآنفين أي الجاحدين المنكرين لما زعمتم، وقيل معناه أنا أول من غضب للرحمن أن يقال له ولد، في القاموس عَبَدٌ بالتحريك الغضب والحرب الشديد والندامة وملامة النفس والحرص والإنكار عَبِدَ كَفَرِحَ في الكل والمناسب في المقام الغضب والإنكار، قال البغوي وروي عن ابن عباس إن كان بمعنى ما كان للرحمن ولد فأنا أولُ العابدين الشاهدين بذلك يعني أن نافية ليست بشرطية ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ١٠٩، وأبو داود في النكاح باب ١٢، والترمذي في المناقب باب ٦٠، وأحمد في المسند ٤/٣٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ١٢، ٢٩.

﴿ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من كونه ذا ولد فإن هذه الاجسام لطول بقائها براء عما يتصف به سائر الاجسام من توليد المثل فما ظنك بمبدعهما وخالقهما ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ يا محمد ﴿يَخُوضُواْ﴾ في باطلهم مجزوم في جواب الأمر ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فيه العذاب يعني يوم القيامة وهو دليل على أن قولهم جهل واتباع هوى وإنهم مطبوع على قلوبهم يعذبون في الآخرة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ قال قتادة يعني يعبد في السماء والأرض لا إله غيره أي لا مستحق لأن يعبد فيهما غيره والظرف متعلق به لأنه بمعنى المعبود أو متضمن لمعناه كقولك هو حاتم في البلد ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بمصالحهم هذا بمنزلة الدليل على استحقاقه العبادة وهذه جملة معترضة مؤكدة لما سبق وكذا ما عطف عليه ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ من كائنات الجو ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي العلم بوقت قيامها ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للجزاء، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي يدعونه الكفار وهم الأصنام ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي دون الله ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاء عند الله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ﴾ منهم ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي يقول لا إله إلا الله استثناء منقطع، وجاز أن يكون متصلاً والمراد بهم الملائكة فإنهم كانوا يعبدون الملائكة أيضاً ويقولون إنها بنات الله ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي يعتقدون بقلوبهم ما يشهد به ألسنتهم ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ أي الكفار العابدين لغير الله ﴿مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ لتعذر إسناد الخلق إلى الجمادات ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ يعني إذا اعترفوا بأن الله خالقهم لا غير فأين يصرفون عن عبادته إلى غيره ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ قرأ عاصم وحمزة بالجر وكسر الهاء عطفاً على الساعة يعني عنده علم الساعة وعلم قوله والباقون بالنصب وضم الهاء عطفاً على سرهم أو على محل الساعة أو بإضمار فعله يعني قال محمد ﷺ شاكياً إلى ربه قيله ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار مكة ﴿قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي فأعرض عن دعوتهم آيساً عن إيمانهم ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ يعني بيننا وبينكم متاركة تسلمون منا ونسلم منكم ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ جزاء عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم تسلية لرسول الله ﷺ. قرأ أهل المدينة والشام بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة، قال مقاتل نسختها آية السيف.

تم تفسير سورة الزخرف من التفسير المظهري (ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير سورة الدخان) يوم الأربعاء الرابع والعشرين من الربيع الأول سنة ثمان بعد ألف ومائتين سنة ١٢٠٨هـ الحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الدخان

آياتها تسع وخمسون وهي مكيَّة

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ
أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ
هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ
﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ
ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ
عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى
وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى
لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ
ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ المظهر للحلال والحرام أي القرآن والواو للعطف إن كان حٰمٓ مقسماً به وإلا فللقسم والجواب قوله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ لما فيها نزول القرآن السبب للمنافع الدينية والدنيوية وفيها نزول الملائكة والرحمة وإجابة الدعاء وهي ليلة القدر كذا قال قتادة وابن زيد قالا أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السماء الدنيا ثم نزل به جبرئيل عليه السلام على النبيّ ﷺ نجوماً في عشرين سنة، وما قيل إنها ليلة النصف من شعبان فليس بشيء لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١] وما روي عن القاسم بن محمد عن أبيه أو عمه عن جده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينزل الله جلَّ ثناؤه ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لكل نفس إلا إنساناً في قلبه شحناء أو مشركاً بالله»[1] رواه

---

(١) أخرجه البغوي في تفسيره ٦/٢٤٣، وشرح السنة ٤/١٢٧.

البغوي لا يدل على نزول القرآن في تلك الليلة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الناس عن عذاب الله في القرآن جملة مستأنفة أو بدل اشتمال من قوله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ .

﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ أي يفعل ويقضى ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي محكم أو متلبس بالحكمة أو إسناده مجازي يعني حكيم صاحبه جملة مستأنفة أو صفة ثانية لليلة وفيه تنبيه على أن كونها مفرق الأمور المحكمة يستدعي أن ينزل فيه القرآن الذي هو من عظمائها ، قال البغوي قال ابن عباس يكتب من أم الكتب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحجاج يحج فلان ويحج فلان وقال الحسن ومجاهد وقتادة يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل وعمل وخلق ورزقٍ وما يكون في تلك السنة ، وقال عكرمة هي ليلة النصف من شعبان يبرم فيه أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أحد، روى البغوي عن محمد بن الميسرة بن الأخفش أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له ولقد أخرج اسمه في الموتى»(١) وروى أبو الضحى عن ابن عباس أن الله يقضي الأقضيه في ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا وهو مزيد تفخيم الأمر ويجوز أن يكون حالا من كُلُّ أمر أو من الضمير المستكن في حكيم وجاز أن يكون مفعولاً به ليُفرقُ بدلاً من كل أمر، وجاز أن يكون المراد بالأمر طلب الفعل على سبيل الاستعلاء وقع مصدراً ليُفْرَق أو لفعله مضمراً من حيث إن الفرق به أو حالاً من إحدى ضميري أنزلناه يعني أمرينِ أو مأموراً به ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ محمداً ﷺ ومن قبله من الرسل بدل اشتمال لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي إنا أنزلنا القرآن لأن من عادتنا الإنذار وإرسال الرسل بالكتب إلى العباد.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول له للإرسال أو لتفريق كل أمر حكيم أو مفعول به لمرسلين، قال ابن عباس رأفة مني بخلقي ونقمة عليهم بما بعثنا عليهم من الرسل ووضع المظهر موضع الضمير للإشعار بأن الرّبوبية اقتضت ذلك ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي يسمع أقوال العباد ويعلم أحوالهم وهو وما بعده تحقيق لربوبيته فإنها لا تحق إلا لمن له هذه الصفات ﴿رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قرأ أهل الكوفة رب بالجر على أنه بدل من قول ربك والباقون بالرفع على أنه خبر آخر لإن أو صفة للسميع العليم أو خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ شرط حذفت جزاؤه يعني إن كنتم من أهل الإيقان في العلم أو ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ في إقراركم إذا سئلتم من خلقها فقلتم الله علمتم أن الأمر كما قلنا أو إن كنتم مريدين اليقين فأيقنوا ذلك أو إن كنتم موقنين بأن الله رب السماوات والأرض فأيقنوا أن محمداً رسول الله ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يستحق العبادة غيره إذ لا خالق سواه جملة

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٨٠، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٢٧٨٠، وابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٣٢، والقرطبي في تفسيره ١٦/ ١٢٦.

مقررة لقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أو خبر آخر لإن ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ كما تشاهدون خبر آخر لأن أو حال من هو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خبر آخر لإن أو بدل من هو ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ من البعث أو من القرآن إضراب من الإيقان ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من الضمير في الظرف أي يلهون بالقرآن ويستهزئون بك يا محمد فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة.

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ يا محمد، الفاء للسببية ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ يوم مفعول به لارتقب. واختلفوا في هذا الدخان؟ قال ابن عباس وابن عمر والحسن رضي الله عنهم أنه من أشراط الساعة، أخرج ابن جرير والثعلبي والبغوي من حديث حذيفة يقول قال النبيّ ﷺ «أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا» قال حذيفة يا رسول الله ما الدخان؟ فتلا هذه الآية «يوم تأتي السماء بدخان مبين يملأها بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلةً فأمّا المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأما الكافر كمنزلة السكران تخرج من منخره وأذنيه ودبره»(١).

وأخرج الطبراني بسند جيد عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل سمع فيه والدابة والثالثة الدجال»(٢) له شواهد قوله ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾ مقدر بالقول وقع حالاً وقوله ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وعد منهم بالإيمان إن كشف عنهم العذاب تقديره يقول الكافرون من الناس هذا القول ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي من أين لهم التذكر والاتعاظ بهذه الحالة الاستفهام للإنكار والجملة مستأنفة قول من الله تعالى في جواب هل يتذكرون ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ يعني والحال أنه قد جاء أمثالهم قبل ذلك ﴿رَسُولٌ﴾ عظيم الشأن ظاهر البرهان ﴿مُّبِينٌ﴾ يظهر لهم ما هو أعظم منها في إيجاب الادكار من الآيات والمعجزات ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ يعني قال بعضهم هو معلم علمه بشر وهو غلام أعجمي لبعض ثقيف وقال بعضهم هو مجنون ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ﴾ بقدر أربعين يوماً جواب لقولهم ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ ﴿قَلِيلًا﴾ أي كشفاً قليلاً أو زماناً قليلاً وهو ما بقي من أعمارهم أو ما بقي من عمر الدنيا ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى الكفر تعليل لقلة زمان الكشف.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ إلى يوم القيامة ظرف لما دلَّ عليه قوله ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لا لمنتقمون لأن إن يحجز عنه وأنكر ابن مسعود هذا التفسير، روى البغوي عن أبي الضحى عن مسروق قال بينما رجل يحدث في كندة فقال يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام ففزعنا فأتيتُ ابن مسعود وكان متكئاً فغضب فجلس فقال من علم فليقل ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٣٧، ٦/٢٩، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٨٦٤٤، ٣٨٦٤٥.
(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

﴿٨٦﴾ [ص: ٨٦] وإن قريشاً أبطؤوا عن الإسلام فدعا عليهم النبيّ ﷺ فقال: «اللّهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»(١) فأخذتهم سنة حتى أهلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان فجاءه أبو سفيان فقال يا محمد جئتَ تأمر بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله فقرأ ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾ حتى استسقى لهم النبيّ ﷺ ثم عادوا إلى الكفر كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ أي يوم بدر ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وأخرج البغوي عن ابن مسعود قال خمس قد مضين اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان، وروى البخاري في الصحيح عن ابن مسعود قال: «إن قريشاً لما استعصوا على النبيّ ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل يا رسول الله استسق لمصر فإنها قد هلكت فاستسقى فسقوا فنزلت ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ فلمَّا أصابتهم الرفاهية عادوا إلى ما كانوا فأنزل الله ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ يعني يوم بدر.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا﴾ أي امتحنا وبلونا جواب قسم محذوف ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ أي قبل كفار مكة ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ معه ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ﴾ عظيم الشأن عطف أو حال ﴿كَرِيمٌ﴾ على الله أو على المؤمنين أو في نفسه لشرف نسبه وفضل حسبه وهو موسى عليه السلام ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ أن مصدرية أي بأن أدوا إليَّ بني إسرائيل وأرسلوهم معي وأطلقوهم ولا تعذبوهم أو بأن أدوا إليَّ حق الله من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله والمراد بعباد الله فرعون وقومه، وجاز أن تكون أن مفسرة لأن مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة ففيه معنى القول أو مخففة من الثقيلة ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٞ﴾ على وحيه أو غير متهم لدلالة المعجزات على صدقي والجملة تعليل لأدوا ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ عطف على أدُّوا أي لا ترفعوا عليَّ بالامتهانة وترك الطاعة وأن كالأولى في وجوهها ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو(٢) بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي برهان بين على صدقي الجملة علة للنهي ولذكر الأمين مع الأداء وتعلي مع السلطان مناسبة بينة فلما قال ذلك توعدوه بالرجم فقال ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ أي من أن ترجموني، قرأ ورش(٣) بالياء وصلاً فقط والباقون بحذفها في الحالين، قال قتادة أن تقتلوني بالرجم، وقال ابن عباس تشتموني وتقولوا ساحر والظاهر هو الأول لأن موسى عليه السلام لو استعاذ من الشتم لما شتموه وقد قالوا ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي﴾ قرأ ورش بفتح الياء والباقون بإسكانها أي إن لم تصدقوني ﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ قرأ ورش بالياء(٤) والباقون بحذفها أي فكونوا بمعزل مني لا عليَّ

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٥٨، والترمذي في تفسير سورة ٤٤، باب ١.
(٢) وأبو جعفر. (٣) ويعقوب في الحالين.
(٤) فصلاً فقط ويعقوب في الحالين.

ولا لي ولا تتعرَّضوا لي بسوء ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ بعدما كذبوه ولم يتركوه وآذوه ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي مشركون تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به ولذلك سمي دعاءً.

﴿فَأَسْرِ﴾ الفاء جزائية والجملة مقدرة بالقول يعني فأجاب الله وقال إن كان الأمر كذلك فأسر، قرأ نافع وابن كثير[١] بوصل الهمزة من سرى يسري والباقون بهمزة القطع من الإسراء ﴿بِعِبَادِى﴾ أي المؤمنين وهم بنو إسرائيل ﴿لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه إذا علموا بخروجكم جملة مستأنفة ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ﴾ إذا خرجت عنه وأصحابك ﴿رَهْوًا﴾ حال من البحر أي مفتوحاً ذا فجوة واسعة أو ساكناً على هيئته ولا تضربه بعصاك حتى يلتئم قال قتادة لمَّا قطع موسى البحر عطف ليضرب البحر بعصاه حتى يلتئم وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده فقيل له اترك البحر رهواً كما هو قيل رهواً مصدر بمعنى الفاعل ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ الجملة مستأنفة في مقام التعليل ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾ أي تركوا كثيراً ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي محافل مزينة ومنازل حسنة ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي متنعمين جملة كم تركوا معترضة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال الكلبي معناه كذلك أفعل بمن عصاني وقيل معناه الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ عطف على المقدر تقديره سلبناها منهم وأورثناها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي بني إسرائيل أو عطف على تركوا ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ عطف على مضمون الكلام السابق أي أهلكوا كفاراً فما بكت وهذا مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم وعدم الاعتداد بوجودهم كقولهم في نقيض ذلك ﴿بَكَتْ عَلَيْهِمُ﴾ السماء وكسفت عليهم الشمس وقيل هو على الحقيقة وذلك بخلاف المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض، روى الترمذي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يصعد منه عمله وباب ينزل منه رزقه فإذا مات فقداه وبكيا عليه»[٢] وروى ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩] قال نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء ينزل منه رزقه ويصعد فيه عمله فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء فقد بكى عليه وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلّي فيها ويذكر الله فيها بكى عليه، وأخرج البغوي وأبو يعلى وابن أبي حاتم عن أنس عن النبيّ ﷺ نحوه وحديث ابن عباس رواه الترمذي وفي آخره وتلا ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أخرج ابن جرير عن شريح بن عبينة الحضرمي قال قال رسول الله ﷺ: «ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها مواكبه إلا بكت عليه السماء والأرض، ثم قرأ رسول الله ﷺ فما بكت عليهم السماء والأرض ثم قال إنهما لا يبكيان على كافر»[٣] ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ ممهلين إلى وقت آخر عطف على هلكوا.

---

(١) وأبو جعفر.
(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٤٤، باب ٢.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٥/٢٥.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾
وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾
كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ
﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ
أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ
ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ يعني قتل الأبناء واستبقاء النساء واستعباد الرجال واستعمالهم في الأعمال الشاقة ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل اشتمال من العذاب أو جعله عذاباً لإفراطه في التعذيب على المجاز أو على حذف المضاف أي من عذاب فرعون فهو بدل الكل أو حال من العذاب أي واقعاً من جهتيه أو خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ أي متكبراً ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في العتو والشرارة وهو خبر ثان أي كان متكبراً مسرفاً أو حال من الضمير في عالياً أي كان رفيع الطبقة من بينهم والجملة معترضة أو مستأنفة ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ يعني موسى وبني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال أي عالمين بأنهم أحقاء بذلك أو اخترنا بني إسرائيل على علم منَّا بأنهم يزيغون في بعض الأحوال ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على عالمي زمانهم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ قال قتادة نعمة بينة وقال ابن زيد ابتلاؤهم بالرخاء والشدة وقرأ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار قريش إذ الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والإنذار عن مثل ما حل بهم ﴿لَيَقُولُونَ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ولا قصد فيه إلى إثبات موتة ثانية كما في قولك حج زيد الحجة الأولى ومات، وقيل لمَّا قيل لهم إنكم تموتون موتة تعقبها حياة كما تقدمتكم موتة كذلك قالوا إن هي أي الموتة التي تعقبها الحياة إلا الموتة الأولى دون الثانية ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي مبعوثين بعد الموت ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ الذين ماتوا خطاب للنبي ﷺ والمؤمنين جزاء شرط محذوف أي إن كان البعث بعد الموت

ممكناً فأتوا بآبائنا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّا نبعث بعد الموت، شرط مستغن عن الجزاء بما مضى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والشوكة والكثرة من قوم تبع ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ خير منهم استفهام إنكار وتقرير يعني لستموا خيراً من قوم تبع وقوم تبع كانوا خيراً منهم، وتبع اسم رجل سمي تبع لكثرة اتباعه قيل كانت التبايعة رجالاً كل واحدٍ سمي تبعاً لأنه يتبع صاحبه، ذكر محمد بن إسحاق وغيره عن ابن عباس وغيره قالوا كان آخر التبايعة هو أسعد أبو كرب بن مليك ذكر البغوي قصته في تفسير هذه الآية وذكرتُ القصة في تفسير سورة قٓ لأني قد سبق مني تفسير تلك السورة، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه لأنه قد أسلم وكذّبه قومه وقال محمد بن إسحاق في المبتدأ وابن هشام في التيجان أن بيت أبي أيوب الذي نزل فيه رسول الله ﷺ مقدمة المدينة بناه تبع الأول اسمه تَبّان بن سعد وذكرتُ قصته في سورة الجمعة والله أعلم ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الكافرة كعاد وثمود ونحوهم عطف على قوله: ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ استئناف أو حال بإضمار قد أو خبر للموصول إن استؤنف به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي مشركين تعليل وبيان للجامع المقتضي للإهلاك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي بين الجنسين ﴿لَٰعِبِينَ﴾ أي لاهين فاعلين فعلاً عبثاً باطلاً والجملة ما خلقنا السماوات الخ حال من مضمون الكلام السابق المتضمن لإنكار البعث تقديره أنكروا البعث والحال أنه ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين بل خلقناهما للاستدلال بهما على وجودنا وصفات كمالنا والابتلاء ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي لإظهار الحق من التوحيد ووجوب الطاعة لنثيب المطيع ونعذب العاصي هذه الجملة تأكيد ومقرر لما سبق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إنها خلقت للاستدلال والابتلاء لقلة نظرهم وانهماكهم في الدنيا ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي يوم القيامة الذي يفصل فيها الحق من الباطل والمحق من المبطل بالجزاء ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ أي ميقات حشرهم وجزائهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ هذه الجملة مقررة لما سبق من أن خلقها للاستدلال والابتلاء ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى﴾ بدل من يوم الفصل أو ظرف لما دلَّ عليه الفصل لا له للفصل أي يوم لا ينفع ﴿مَوْلًى﴾ من قرابة أو غيره ﴿عَن مَّوْلًى﴾ أي مولى كان ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء بجلب منفعة أو دفع مضرة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي يمنعون من العذاب والضمير لمولى الأول باعتبار المعنى لأنه عام ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ بالعفو وقبول الشفاعة وهم المؤمنون، فإنه يشفع بعضهم لبعض ويؤذن لهم في الشفاعة ومحل المستثنى الرفع على البدل من المستتر في يُنْصَرُونَ أو النصبُ على الاستثناء ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يستطيع واحد أن ينصر من أراد تعذيبه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال إن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول تزقموا فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد فنزلت ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي كثير الإثم وهو الكافر هذه الجملة إلى آخرها وما بعدها وهو قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الحجر: ٤٥] إلى آخرها بيان لما سبق من ذكر الفصل، والفرق بين المحق والمبطل ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ خبر آخر لأن وهو ما يذوب في النار من المعدنيات وقيل دردي الزيت الأسود

كذا في القاموس ﴿يَغْلِي﴾ خبر آخر لإن قرأ ابن كثير[١] وحفص بالياء التحتية على أن الضمير للطعام أو الزقوم لا للمهل إذ الجملة حال من أحدهما والباقون بالتاء الفوقانية على أن الضمير للشجرة ﴿فِي ٱلْبُطُونِ﴾ أي بطون الكفار ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ أي غلياناً مثل غليانه، روى البغوي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اتقوا الله حق تقاته فلو أن قطرة من الزقوم قطرت على الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم فكيف بمن هو طعامه ليس له طعام غيره»[٢] وأخرج الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي نحوه وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو نعيم عن أبي عمرو الخولاني في هذه الآية قال بلغنا أن ابن آدم لا تنهش منها نهشة إلا نهشت منه مثلها ﴿خُذُوهُ﴾ أي يقال للزبانية خذُوهُ أي الأثيم وجملة يقال خبر آخر لأن ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر وأبو عمرو بكسر التاء والباقون بضمها وهما لغتان أي ادفعوه قهراً والعتل الأخذ بجامع الشيء وجرُّه بقهر ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وسطه ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ كان أصله صُبُّوا فَوقَ رَأسِهِ الحميم فقيل صُبُّوا فوق رأسِهِ عَذاباً هُوَ الحمِيمُ للمبالغة أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف وزيدت من للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع ﴿ذُقْ﴾ تقديره قائلين ذُق هذا العذاب ﴿إِنَّكَ﴾ قرأ الكسائي بفتح الهمزة أي لأنك والباقون بكسرها على الابتداء ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ في زعمك، قال البغوي قال مقاتل إن خازن النار يضرب على رأسه فينقب رأسه عن دماغه فيصبُّ فيه ماءً حميماً قد انتهى حرُّه ثم يقال ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ وذلك أن أبا جهل كان يقول أنا أعزُّ أهل الوادي وأكرمهم، ويقول هذا خزنة النار على طريق الاستخفاف والتوبيخ، وأخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة قال لقي رسول الله ﷺ أبا جهل فقال إن الله أمرني أن أقول لك ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [القيامة: ٣٤] قال فنزع ثوبه من يده وقال ما يستطيع لي أنتَ ولا صاحبك من شيء لقد علمت أني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكون وتمارون فيه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ قرأ أهل المدينة والشام بضم الميم على أنه مصدر ميمي أي في إقامة والباقون بفخ الميم أي موضع إقامة ﴿أَمِينٍ﴾ يأمن فيه صاحبه عن الآفات والانتقال ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من مقام جيء به للدلالة على نزاهته واشتماله على ما يستلذ به من المآكل والمشارب ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير في الجار والمجرور أو استئناف السُّنْدُس ما رقّ من الحرير والإستَبرَقُ مَا غلظ منه، أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن كعب قال لو أن ثوباً من ثياب الجنة ليس اليوم في الدنيا لصعق من ينظر إليه

(١) ورويس.
(٢) أخرجه الترمذي في جهنم باب ٤، وابن ماجه في الزهد باب ٣٨، وأحمد في المسند ١/ ٣٠١، ٣٣٨.

وما حملته أبصارهم، وأخرج الصابوني في الماتين عن عكرمة قال إن الرجل من أهل الجنة ليلبس الحلة فتكون في ساعته سبعون لوناً ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الجملة حال بتقدير قد أو عطف على خبر إن أي ألزمناهم وقرنّاهم بهن ولذلك عدي بالباء وليس من عقد التزويج لأنه لا يقال زوجتُه بامرأة، قال أبو عبيدة جعلناهم أزواجاً بهن كما تزوج النعل بالنعل أي جعلناهم اثنين اثنين والحور النساء النقيات البياض يحار فيهن الطرف من بياضهن وصفاء لونهن جمع حوراء والعين جمع العيناء وهي العظيم العينين، أخرج الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الحور العين من الزعفران»[١] وأخرج البيهقي مثله عن أنس مرفوعاً وعن ابن عباس موقوفاً وعن مجاهد كذلك، وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال إن الله تبارك وتعالى لا يخلق الحور العين من تراب إنما خلقهن من مسك وكافورٍ وزعفرانٍ، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن حوراً بزقت في بحر لعذب ذلك البحر من عذوبة ريقها»[٢] وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال لو أن حوراً أخرجت كفها بين السماء والأرض لافتتن الخلائق بحسنها ولو أخرجت نصيفها لكان الشمس عند حسنه مثل الفتيلة في الشمس لا ضوء لها ولو أخرجت وجهها لأضاء حسنها ما بين السماء والأرض وأخرج هناد عن حبان بن أحيلة قال إن نساء أهل الدنيا إذا أدخلن الجنة فضلن على الحور العين بأعمالهم في الدنيا.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ اشتهوها ﴿ءَامِنِينَ﴾ من نفادها ومضرتها الجملة حال آخر، أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر في تفاسيرهما عن ابن عباس قال ما في الدنيا تمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بل يحيون دائماً حال آخر ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الاستثناء منقطع أو متصل والضمير للآخرة والموت أول أحوالها أو الجنة والميت يشارفها بالموت ويشاهدها عنده فكأنه فيها، أو الاستثناء للمبالغة في تعميم النفي وامتناع الموت فكأنَّه قال لا يذوقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموت الأولى في المستقبل كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ الجملة حال من فاعل لا يذوقون بتقدير قد أو عطف على إخبار إن ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر لفعله المقدر أي فضلوا فضلاً منه وأعطوا كل ذلك عطاءً منه لاحقاً على الله تعالى، عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلا برحمة الله»[٣] رواه مسلم

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٣٧.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٥٣٥، وابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٤٧.

(٣) أخرجه مسلم في المنافقين حديث ٧٧، وأحمد في المسند ٢/ ٥٠٩، ٣/ ٣٩٤.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاص من المكاره وفوز بالمطالب.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ حال من الضمير المنصوب أي متلبساً بلغتك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يفهموا أو يتذكروا الجملة متصلة بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] وهو فذلكة للسورة ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ جزاء شرط محذوف تقديره وإن لم يتذكروا، فارتقب أي فانتظر يا محمد ما يحل بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بك أو فانتظر نصرك إنهم منتظرون قهرك بزعمهم، روى الترمذي بسند ضعيف عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك»(١) وروي أيضاً عنه بسند ضعيف قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة غفر له»(٢) وروى ابن الضرير عن الحسن مرسلاً «من قرأ سورة الدخان في ليلة غفر له ما تقدم من ذنبه» وروى الطبراني بسند ضعيف عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ «من قرأ ﴿حمٓ ۝١﴾ الدخان في ليلة جمعة أو يوم جمعة بنى الله له بيتاً في الجنة»(٣).

تم تفسير سورة الدخان من التفسير المظهري بفضل الله وحسن توفيقه يوم الأحد الثامن والعشرين من شهر الربيع الأول من السنة الثامنة بعد ألف ومائتين من الهجرة صلى الله تعالى على صاحبها ويتلوه تفسير سورة الجاثية إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين

(١) أخرجه الترمذي حديث ٢٨٨٨.
(٢) أخرجه الترمذي حديث ٢٨٨٩.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٣١٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية

آياتها سبع وثلاثون وهي مكيَّة

﴿حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ② إِنَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ③ وَفِي
خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ④ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ⑤ تِلْكَ ءَايَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ
اللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ⑥ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ⑦ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑧ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑨ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا
يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑩ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ⑪ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑫ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ⑬ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑭
مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑮﴾

﴿حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ﴾ إن جعلت حمٓ مبتدأ خبره ﴿تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ﴾ وإن جعلتها تعديداً للحروف وكان تنزيل مبتدأ خبره ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ في إنتقامه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره وعلى التأويل الأول من الله صلة لتنزيل، وقيل حمٓ مقسم به وتنزيل الكتاب صفة وجواب القسم ﴿إِنَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ﴾ دالة على قدرة الله ووحدانيته ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن تكون الآية على ظاهرها وأن يكون المعنى إن في خلق كما في قوله ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي في خلق كل منكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى أن صار إنساناً ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ جاز أن يكون عطفاً على الضمير المجرور والأحسن أن يقال إنه معطوف على خلقكم فإن بثه وتنوعه واستجماعه لما يتم به معاشه إلى غير ذلك ﴿ءَايَٰتٌ﴾ دلائل على وجود الصانع المختار ووحدته وكمالاته قرأ حمزة والكسائي[1] ويعقوب آيات منصوباً بكسر التاء عطفاً على اسم إن والباقون بالرفع عطفاً على محلها، ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أنه لا إله إلا الله وأن البعث حق ﴿وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ صيفاً وشتاءً وفي ذهابها ومجيئها ﴿وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن

(١) وخلف.

رِّزۡقٖ﴾ أي مطر سماه رزقاً لكونه سببه ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ أي جعلها مخضرة بعد يبسها ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ باختلاف جهاتها وأحوالها، قرأ حمزة والكسائي الريح على الإفراد باعتبار الجنس والباقون على الجمع باعتبار جهاتها قبولاً ودبوراً وجنوباً وشمالاً ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ الدلائل فيؤمنون أو المعنى لقوم أولي عقل فإن الكفار كالأنعام بل هم أضل قرأ حمزة والكسائي ويعقوب آيات منصوباً بكسر التاء والباقون بالرفع وهو عطف على معمولي عاملين مختلفين كلمة في مع معنى الابتداء أو كلمة إنَّ والمجرور مقدم ألا يضمر في أو ينصب آياتٍ على الاختصاص أو ترفع بإضمار هي، قال البيضاوي اختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور والظاهر أنه لتفنن العبارة وإلا فالإيمان والإيقان واحد وهو من ثمرات العقل فإن العقل السليم يقتضي الإيمان بمبدع السماوات والأرض وما بينهما ﴿تِلۡكَ﴾ الآيات آيات الله دلائل قدرته مبتدأ وخبر ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ حال عاملها معنى الإشارة أو خبر ثان ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ متلبسين به أو متلبسة به ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ﴾ الفاء جزائية تقديره فإن لم تؤمنوا بآيات الله فبأي حديث بعد الله أي بعد كتاب الله ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وجوده ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ أي كفار مكة أي لا يؤمنون قرأ ابن عامر(١) وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب(٢) بالتاء الفوقانية على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب والباقون بالتحتانية على الغيبة.

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٖ﴾ كثير الإثم أريد به النضر بن الحارث هذه الجملة إلى آخرها معترضة ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفه لأثيم ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ حال من الآيات أو من الضمير المرفوع ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ عطف على يسمع وثم لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ عن الإيمان ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة وحذف ضمير الشأن أي كأنه ﴿لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ الجملة في موضع الحال أي يصر مشابهاً لغير السامع ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ الفاء للسببية والبشارة خبر يظهر السرور على بشرته واستعمل هاهنا تهكماً في خبر يظهر الحزن على بشرته ﴿عَلِمَ﴾ عطف على يسمع ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا﴾ يعني إذا بلغه شيء من القرآن الظرف متعلق بقوله ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ الضمير لشيء لأنه بمعنى الآية أو لآياتنا بمعنى آياتنا كلها هُزُواً مهزوّاً به يعني بادر إلى الاستهزاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ﴾ أي لكل أفاك ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ ذو إهانة في القبور، جملة مستأنفة ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ حال من هم في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ﴾ والوراء اسم للجهة التي يوازيها الشخص من خلف أو قدام وجهنم قدام باعتبار أنهم متوجهون إليه وخلفه من حيث إنه بعد آجالهم ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ أي لا يدفع ﴿عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ﴾ من الأموال والأولاد ﴿شَيۡـًٔا﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا﴾ يغني عنهم ﴿مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ أي ما عبدوه من الأصنام أو الذين اتبعوهم من الرؤساء ما مصدرية أو موصولة وجملة لا يغني إلى آخرها حال آخر من ضمير

---

(١) وخلف.

(٢) أي: رويس.

لهم في أولئك لهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ حال آخر ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿هُدًى﴾ أي ما به البداية من الضلالة جملة معترضة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ وهو أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بالرفع على أنه صفة عَذَابٌ والباقون بالجر على أنه صفة رجْزٍ وجملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطف على هذا هدى.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ مبتدأ وخبر أي جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيره ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ الأرزاق بالتجارة والغوص والصيد من فضله حال من المفعول المحذوف لتبتغوا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عطف على لتبتغوا أي لتشكروا هذه النعمة وجملة ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ متصل بما سبق من آيات قدرته تعالى وما بينهما معترضات ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ عطف على سخر ﴿مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجم وماء وثلج وغيرهما ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من حيوان ونبت ومعدن وعين ونهر ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد أو حال يعني جعلها مسخراتٍ لأمورٍ يعود نفعها إليكم ﴿مِّنْهُ﴾ حال من ما أي سخرها جميعاً كائنة من تعالى أو خبر لمحذوف، أي هي جميعاً منه أو خبر لما في السماوات مع ما عطف عليه سخَّرَ لكم وتكرير لتأكيد الأول أو خبر لما في الأرض قال ابن عباس جميعاً منهُ أي كل ذلك رحمة منه وقال الزجاج كل ذلك تفضل منه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عجائب صنعه تعالى فيؤمنون.

قال البغوي قال ابن عباس وقتادة إن رجلاً من بني غفار شتم عمر رضي الله عنه بمكة فهم عمر أن يبطش به فأنزل الله ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ حذف المقول لدلالة جواب الأمر عليه وهو قوله ﴿يَغْفِرُوا﴾ أي قل لهم اغفروا إن تقل لهم اغفروا يغفروا أي يعفوا ويصفحوا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يتوقعون ولا يخافون ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي وقائعه بأعدائه من قولهم أيام العرب لوقائعهم يعني لا يتوقعون الأوقات التي وقتها الله لنصر المؤمنين وثوابهم، وقال البغوي قال القرظي والسديُّ نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذى شديد من المشركين، قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية ثم نسختها آية القتال ﴿لِيَجْزِيَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالنون على التكلم والتعظيم والباقون بالياء التحتانية أي ليجزي الله وقرأ أبو جعفر بضم الياء التحتانية وفتح الزاء على البناء للمفعول والفعل حينئذ مسند إلى مصدره أي ليجزى الجزاء كذا، قال الكسائي والمراد بالجزاء ما يجزى به فإن الإسناد إلى المصدر سيما عند وجود المفعول به ضعيف وقال أبو عمرو وهو لحن والجار والمجرور متعلق بقوله يغفروا ﴿قَوْمًا﴾ يعني يجزي المؤمنين على صبرهم على أذية الكفار أو يجزي الكافرين جزاءً كاملاً لا ينقص منه بالانتقام في الدنيا أو يجزي كليهما ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الخير أو الشر ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي يعمل لنفسه فإن ثوابه لها ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي يعمل عليها لأن وباله يعود عليه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يعني بعدما استحققتم الثواب أو العقاب بالأعمال ترجعون إلى ربكم فيجازيكم عليها إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾
وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى
بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ
وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ
ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ
إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ
ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة والإنجيل والزبور ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ حيث جعلنا فيهم أهل الحكم من العلماء والملوك ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ خصها بالذكر لكثرة الأنبياء فيهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المن والسلوى وغيرهما من الأطعمة اللذيذة الحلال ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ بمراتب القرب إلى الله تعالى إرجاع الضمير إلى بني إسرائيل باعتبار كون الأفضلين بعضهم وهم الأنبياء ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على عالمي زمانهم، قال ابن عباس لم يكن من العالمين أحد في زمانهم أكرم على الله ولا أحب إليه منهم وهذه الآية تدل على أن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي أدلة بينة في أمر الدين بحيث حصل لهم العلم بكل ما يجب به العلم والاعتقاد وحصل لهم العلم بمبعث محمد ﷺ وعلاماته حتى عرفوه (كما يعرفون أبنائهم) ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في أمر الدين أو في أمر محمد ﷺ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحال ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي عداوة وحسداً أو اتباعاً للهوى والشهوات لا بناءً على علم مستند إلى دليل وهذا يدل على أن افتراق اليهود والنصارى إلى إحدى وسبعين فرقة أو اثنان وسبعين فرقة لم يكن مبنياً على دليل وكذلك افتراق أمة محمد ﷺ إلى ثلاث وسبعين ليس مستنداً إلى دليل بل إنما هو باتباع الوهم في مقابلة النصوص القاطعة كالمعتزلة تشبثوا بأذيال الفلاسفة زعماً منهم بأن العقل كاف في كثير من الإدراكات والمجسمة قالوا الموجود لا يكون إلا جسماً أو باتباع الحسد والعناد كالروافض والخوارج ونحو ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ بالمؤاخذة والمجازاة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ أي طريقة حقة وصراط مستقيم بعث عليها الرسل كلها على شَرِيعَةٍ مفعول ثان لجعلنا ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي أمر الدين ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ أي يا محمد الشريعة الحقة الفاء للسببية ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ خطاب للنبي ﷺ والمراد به الخطاب لأمته يعني لا يتبع أمتك أهواء الذين ليس لهم علم من الكتاب سواء كان لهم جهل مركب

كالفلاسفة أو جهل بسيط مثل رؤساء قريش كانوا يقولون للنبي ﷺ ارجع إلى دين آبائك فإنهم كانوا أفضل منك أو كان لهم علم لكنهم تركوا العمل بالكتاب عمداً أو أوَّلوه بتأويلات فاسدة فكأنَّهم لا يعلمون مثل أحبار اليهود وعلماء الفرق الضالة بالأهواء من أهل الإسلام ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني إن الذين يستتبعونك إلى غير الطريق الحق إن اتبعتَهم ﴿لَن يُغْنُواْ﴾ أي لن يدفعوا ﴿عَنكَ مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ منصوب على المفعولية ومِنَ الله حال مقدم عليه بيان له أو على المصدرية أي شيئاً من الإغناء وَمِن في مِن عَذَابِ الله للتبعيض الجملة في مقام التعليل للنهي عن اتباع أهوائهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إذ المجانسة علة الانضمام فلا تتخذ أنتَ منهم أولياء ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فاتخذه ولياً بالتقوى واتباع الشريعة قيل هذان الجملتان كناية عن قوله وإنهم لا يضرونك لأن الظالمين بعضهم أولياء بعضهم والله ولي المتقين وكم بين الولايتين فلا يضرنك لقوة ولاية الله ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن أو اتباع الشريعة ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ أسباب تبصر ﴿لِلنَّاسِ﴾ يظهر به وجوه فلاحهم في الدارين ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الله ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بأنه من الله تعالى.

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ عطف على ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان والتوبيخ ومعنى بل الإضراب عن إيقانهم بأن القرآن بصائر وهدى يعني أنهم لا يوقنون ذلك بل حسب ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ﴾ أي اكتسبوا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي نجعلهم مثلهم وهو ثاني مفعولي نجعل نزلت في نفي من مشركي مكة قالوا للمؤمنين إن كان ما تقولون أي البعث حقّاً لنفضلن عليكم في الآخرة كما فُضّلنا في الدنيا ﴿سَوَآءً﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص بالنصب على البدل من قوله ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل إشتمال أو على الحال من الضمير في الكاف أو على المفعولية والكاف حال ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ فاعل لسَوَاءً والضميران للموصول الأول وإن كان الضميران للثاني فسواء حال من الموصول الثاني وجاز أن يكون الضميران للفريقين وسَوَاء بدل من كالذين آمنوا أو حال من الموصول الثاني وضمير الأول، وقرأ الباقون سَوَاءٌ بالرفع على أنه خبر محياهم ومماتهم مبتدأ والجملة بدل من المفعول الثاني وجاز كون الجملة مفعولاً ثانياً أو استئناف يبين المقتضي للإنكار أو حال والضميران للفريقين والمعنى إنكار أن يستووا بعد الممات في الكرامة أو ترك المؤاخذة كما استووا في الرزق والصحة في الحياة الدنيا، وقيل الضميران للفريقين والجملة مستأنفة والمعنى المؤمن مؤمن محب لله تعالى في الدنيا والآخرة والكافر مبغوض لله تعالى في الدنيا والآخرة ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا بالمساواة قال البغوي قال مسروق قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام أخيك تميم الداري لقد والله ذات ليلة أصبح أو كرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله يركع بها ويسجد ويبكي ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ليدل على وجوده وقدرته وصفات كماله كأنه دليل على ما سبق يعني خلق هذه الأشياء ليس على سبيل اللهو والعبث بل هو متلبس بالحق

المقتضي انتصار المظلوم من الظالم والتفاوت بين المسيء والمحسن فإذا لم يكن ذلك في المحيا لا بد أن يكون بعد الممات ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ عطف على قوله بالحق لأنه في معنى العلة أو على علة محذوفة مثل ليستدل الناس بها على الصانع وقدرته وعدله وليقوموا على طاعته ولتجزى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ محسنة ومسيئة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو تضعيف عذاب وتسميته ظلماً مع أن فعل الله تعالى لا يكون ظلماً لأجل المشاكلة فإنه لو فعله غيره لكان ظلماً كالابتلاء والاختيار.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الفاء للعطف على محذوف تقديره أتهتم أن تهديهم فرأيت ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ ومن شرطية وجملة اتَّخذَ مع ما عطف عليه شرط علقت رأيت عن العمل ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾ جزاؤه وهواه مفعول أول لاتخذ وإلهه مفعول ثان يعني جعل هواه معبوده، فإنه ترك امتثال أو امر الله والانتهاء عن مناهيه واتبع هواه فكأنَّه يعبده، قال ابن عباس والحسن وقتادة ذلك الكافر إتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئاً إلا ركب لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه ولا يحرم ما حرم الله، وقال الآخرون معناه اتخذ معبوده هواه فيعبد ما تهويه نفسه أخرج ابن جرير وابن المنذر وكذا اذكر البغوي قول سعيد بن جبير أنه كانت العرب يعبدون الحجارة والذهب والفضة فإذا وجدوا أحسن من الأول رموه وكسروه وعبدوا الآخر فنزلت هذه الآية قال الشعبي إنما سمي الهوى لأنَّه يهوي صاحبه في النار ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي عالماً بضلاله وفساد استعداده وقيل على ما سبق في علمه بأنه ضآل قبل أن يخلقه. روى أحمد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي فقالوا له ما يبكيك ألم يقل لك رسول الله ﷺ «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني» قال بلى ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عزَّ وجلَّ قبض بيمينه قبضة والأخرى باليد الأخرى وقال هذه لهذه وهذه لهذه ولا أبالي» ولا أدري في أيّ القبضتين أنا[1] ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يسمع الموعظة ولا يتفكر في الآيات ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا ينظر بعين الاستبصار والاعتبار، قرأ حمزة غشْوَةَ بفتح الغين وسكون الشين والباقون غشاوةً وجاز أن تكون من موصولة وهي مع صلتها أول مفعولي رأيت وثانيهما محذوف، تقديره أرأيته تهتدي وعلى هذا قوله ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ معطوف على قوله رأيت والاستفهام للإنكار ومعناه لا تهديه أحد بعد إضلال الله إياه وجملة أفرأيت معترضة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الصافات: ١٥٥] عطف على محذوف تقديره ألا تعقلون فلا تذكرون.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة قال كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على مضمون الكلام السابق أي ضل الكافرون باتباع الهوى وقالوا ﴿مَا هِىَ﴾ أي الحياة شيئاً ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ﴾ في بعض الأوقات ﴿وَنَحْيَا﴾ في بعضها بيان لقصر الحياة على الحياة الدنيا، وقوله

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/٦٨.

نموت ونحيا لا يدل على تعاقب الحياة بعد الموت فإن الواو للجمع المطلق كذا قال الزجاج ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ عطف على نَمُوتُ وَنَحيَا أي ما يهلكنا الأمر والزمان فإن بمرور الزمان يهرم المرء ويموت وحاصل ذلك إنكار الصانع الواجب وجوده والدهر في الأصل مدة بقاء العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ثم يعبر عنه عن كل مدة مديدة بخلاف الزمان فإنه يطلق على المدة قليلةً كانت أو كثيرةً ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فإن العلم إنما يحصل بالبداهة أو بالبرهان ولا شيء من ذلك بل البرهان قائم على وجود الصانع القديم الحكيم الجملة حال من فاعل قالوا ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي يحكمون بلا علم وبلا دليل تأكيد لما سبق، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[(١)] رواه مسلم، وروى البغوي بلفظ، «قال الله تعالى لا تقل ابن آدم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أرسل الليل والنهار وإن شئتُ قبضتها»[(٢)]، ومعنى الحديث أن سب الدهر منكم مبني على زعمكم أن الدهر فاعل للنوائب والحوادث، وجالب الحوادث ومُنَزّلها في الواقع هو الله تعالى لا غيره فسبّكم يرجع إلى الله تعالى، وقيل معنى قوله عليه السلام فإن الله هو الدهر إن الله داهر دهرٍ أي خالق الدهر وما فيها فسبُّكم الدهر زعماً منكم بأنه الخالق للأشياء مشرك فاجتنبوه والله أعلم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي حال كونها واضحات الدلالة على خلاف معتقدهم وعلى البعث بعد الموت أو مبينات لذلك ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ متشبث لمعارضها شيئاً ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى البعث وهذا شرط مستغن عن الجزاء بما مضى سماه حجةً على حسبانهم أو على أسلوب قوله: تحيتهم بينهم ضرب وجيع، وأنه يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مطلقاً وجملة إذا تتلى عليهم عطف على ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ إلى أيّ وقت شاء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا أراد كما دلت الحجج ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ للجزاء إلى ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كلمة إلى زائدة أو بمعنى اللام أي ليوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لأن وعد الله حق ومن قدر على الإبداء قادر على الإعادة، والحكمة تقتضي المجازاة والجملة تأكيد لما سبق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قدرة الله على ذلك لقلة تفكرهم وقصور نظرهم على ما يحسبونه جملة ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ إلى آخرها مستأنفة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ

---

(١) أخرجه مسلم في الألفاظ حديث ٥.

(٢) روي الحديث بلفظ: «لا تقولوا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر» أخرجه بهذا اللفظ البخاري في الأدب باب ١٠١، ومسلم في الألفاظ حديث ٤، ومالك في الكلام حديث ٣، وأحمد في المسند ٢/٢٥٩، ٢٧٢، ٢٧٥، ٣١٨.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تعميم للقدرة بعد تخصيصها والجملة عطف على خلق الله السموات والأرض ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من الأول والظرف متعلق بقوله ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي يظهر خسرانهم بأن يصيروا إلى النار ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ عطف على يخسر قال البغوي جاثيةً يعني باركةً على الركب وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء، قال علي رضي الله عنه أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى وقد ذكرنا في سورة الحج في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] قال سلمان الفارسي إن في القيامة ساعة وهي عشر سنين يخر الناس فيها جثاةً على ركبهم حتى إبراهيم ينادي نفسي لا أسألك إلا نفسي، وقيل معنى ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي مجتمعة من الجثوة وهي الجماعة، ذكر الجزري في النهاية حديث ابن عمر أن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً أي جماعة تتبع نبيها وتروى هذه اللفظة جثى بتشديد الياء جمع جاث وهو الذي يجلس على ركبتيه، وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والبيهقي عن عبد بن ثانية قال: قال رسول الله ﷺ: «كأني أراكم بالكوم دون جهنم جاثين»(١) ثم قرأ سفيان ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ قال ابن حجر المراد بالكرم المكان العالي الذي عليه أمة محمد ﷺ ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ قرأ يعقوب بالنصب على أنه يدل من كل أمَّةٍ أو تأكيد وما بعده صفة أو مفعول ثان والجمهور بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي صحيفة أعمالها ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] عن أنس عن النبي ﷺ قال: «الكتب كلها تحت العرش فإذا كان الموقف بعث الله الريح فتطيرها بالأيمان والشمائل أول خط فيها اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً»(٢) رواه البيهقي ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ صفة ثانية أو خبر ثان لقوله ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ بتقدير القول أي يقال لهم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ إلى قوله ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ومستأنفة ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أي صحائف أعمالكم التي كتبها الكرام الكاتبون بأمرنا أضاف إلى نفسه لتلك الملابسة وكِتَابُنَا صفة لهذا والخبر ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي يشهد عليكم بما عملتم أو هما خبران

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٧٩، ٦/ ٣٦، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٥٣، وابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٥٥، والقرطبي في تفسيره ١٦/ ١٧٤.

(٢) أخرجه بنحوه العقيلي في الضعفاء ٤/ ٤٦٦.

لهذا أو ينطق حال والعامل معنى الإشارة ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق بلا زيادة ونقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي نستكتب الحفظة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقيل معنى نستنسخ أي نأخذ نسخة وذلك أن الملكين يرفعان عمل الإنسان فيثبت الله منه ما كان له ثواب أو عقاب ويطرح منه اللغو نحو قولهم هلم واذهب وهذه الجملة في مقام التعليل لينطق.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ التي جملتها الجنة والجملة تفصيل لما أجمل في قوله ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي الظفر الظاهر لخلوصه عن الشوائب ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الاستفهام لإنكار النفي وتقرير المنفي والفاء للعطف على محذوف تقديره ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحذف قوله، فيقال لهم، وقوله ألم يأتكم رسلي اكتفاءً بالمقصود واستغناءً للقرينة ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها هذه الجملة مع ما عطف على مضمون ما سبق يعني قد أتاكم رسلي وتُليت عليكم آياتي فاستكبرتم عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي قوماً عادتكم الكفر والإجرام وكانت المقابلة يقتضي أن يكون الكلام وأما الذين كفروا فيدخلهم ربهم في غضبه الذي من جملتها جهنم لكن عدل إلى هذا تنبيهاً على موجب الغضب.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ عطف على قوله استكبرتم يعني وإذا قيل لكم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ يحتمل الموعود والمصدر يعني الموعود أو متعلق الوعد وهو البعث حَقٌّ لا محالة ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ قرأ حمزة بالنصب عطفاً على اسم إن والباقون بالرفع عطفاً على محله ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي في إتيانها لاستحالة الخلف فيما أخبر الله به ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي أيّ شيء الساعة استغراباً لها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصله نظن ظناً فأدخل حرف النفي والاستثناء لإثبات الظن، ونفي ما عداه كأنَّه قال ما نحن إلا نظن ظنّاً أو ننفي ظنهم فيما سوى ذلك أو يقال تنكير الظن للتحقير ومعناه أن نظن إلا ظناً ضعيفاً في مرتبة الوهم فإن الظن قد يطلق على العلم كما في قوله تعالى: ﴿الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦] وقد يطلق على الوهم فالمراد بالأول مطلق العلم وبالثاني الوهم وأكّد نفي الظن بقوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا أي ظهر لهم قبحها أو جزاء ما عملوا عطف على مضمون ما سبق يعني أما الذين كفروا فيدخلهم ربهم في غضبه ويبدلهم سيئات ما عملوا ﴿وَحَاقَ﴾ أي نزل ﴿بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي جزاء استهزائهم.

﴿وَقِيلَ﴾ عطف على بدا لهم ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أي نترككم في العذاب ترك المنسي ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي كما تركتم عدته ولم تبالوه وإضافة اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه أي يوم لقاء ربكم أو يوم لقاء جزاء أعمالكم ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها هاتان الجملتان إما معطوفتان على مقول قبل أو حالان من مفعول ننساكم ﴿ذَٰلِكُم﴾ للترك في العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ أي بسبب أنكم ﴿اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي مهزواً بها يعني استهزأتم بها ولم تتفكروا فيها ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي حسبتم أن لا

حياة سواها ولا حساب جملة ذلكم إلى آخرها مستأنفة ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة[١] والكسائي بفتح الياء وضم الراء على البناء للفاعل والباقون بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول عطف على قوله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٦] ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ العتبى بالضم الرضا هكذا في القاموس والاستعتاب الاسترضاء، أي لا يطلب منهم أن يرضوا ربهم بالتوبة لفوات أوانه قال رسول الله ﷺ: «لا بعد الموت من مستعتب»[٢] أي ليس بعد الموت من استرضاء لأنها بالأعمال وقد انقضت زمانها، وفي النهاية العتبى الرجوع عن الذنب والإساءة، قال البغوي أي لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعة الله تعالى وتقديم المسند إليه مع أن الخبر فعل يدل على التخصيص فإن الكفار لا يستعتبون بخلاف المؤمنين ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ أي الوصف بالجميل على وفائه الوعد في المؤمنين والمكذبين ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدل من الله ﴿وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كرر لفظ الرب لأن ربوبية كل شيء نعمة مستقلة من الله تعالى دالَّة على كمال قدرته، ذكر العاطف بين الأرض والسماوات لتغايرهما وترك العاطف في رب العالمين للاتحاد معنى فإن السماوات والأرض معظم أفراد العالم فكأنَّه بمعنى العالمين ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي آثار عظمته وكبريائه ظاهرة فيهما أو يقال الظرف متعلق بمحذوف أي يحكم بهذا الحكم أهل السماوات وأهل الأرض فيهما ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغلبه أحد ولا يجوز لأحد أن يستكبر عليه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما قدر وقضى، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار» وفي رواية «قذفته في النار»[٣] رواه مسلم.

تم تفسير سورة الجاثية من التفسير المظهري ويتلوه تفسير سورة الأحقاف
إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين وصلى الله على خير خلقه
محمد وآله وأصحابه أجمعين في التاريخ الثاني والعشرين
من الربيع الثاني سنة ثمان بعد الف
ومائتين (سنة ١٢٠٨هـ)

---

(١) وخلف.
(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٣) أخرجه أبو داود في اللباس باب ٢٥، وابن ماجه في الزهد باب ١٦، وأحمد في المسند ٢/٣٧٦، ٤١٤، ٤٢٧، ٤٤٢.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأحقاف

آياتها خمس وثلاثون وهي مكيَّة

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا
خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ
غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ
ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ
إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟
بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ١١ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا
عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ١٢﴾

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ٢﴾ مرَّ تفسيره في سورة الجاثية ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا﴾ خلقا متلبّساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ دليلاً على وجود الصانع القديم الحكيم وعلى البعث للمجازاة على ما تقتضيه الحكمة والعدالة ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي بتقدير أجل مسمى تنتهي إليه السماوات والأرض أي يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ أي عن الإنذار وعما أنذروا به في القرآن من عذاب يوم القيامة ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون في جوازه عقلاً ووجوبه سمعاً بشهادة المعجزات ولا يستعدون لحلوله ويدعون من دون الله آلهة بلا دليل ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَءَيْتُم﴾ الاستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار ﴿تَدْعُونَ﴾ أي ما تعبدونه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أصناماً ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟﴾ ما استفهامية في محل النصب على أنه مفعول لخلقوا أو في محل الرفع بمعنى أيُّ شيء الذي خلقوه ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بيان لما ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أم منقطعة أي بل ألهم مشاركة مع الله ﴿فِى﴾ خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الموصول مع صلته مفعول أول لأرأيتم وجملة أروني إلى آخرها مفعول ثان والمعنى

أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمل هل يتعقل أنهم خلقوا شيئاً من أجزاء العالم أو يتصور منهم أن يكونوا شركاء لله في الخلق يعني لا يتصور ذلك فكيف تحكمون باستحقاقها للعبادة وتخصيص الشرك بالسماوات احتراز عمّا يتوهم أن للوسائط شركة في إيجاد الحوادث السفلية ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ﴾ من عند الله ناطق بالشرك ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ القرآن الناطق بالتوحيد ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾ أخرج أحمد عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قال الخط، قال مجاهد وعكرمة أي رواية، وقال قتادة خاصة، وقال الكلبي بقية، في القاموس الأثر البقية من الشيء ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ الأنبياء الأولين مستنداً إلى الوحي القطعي يدل على الشرك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الله أمر بعبادة الأوثان شرط مستغن عن الجزاء بما مضى يعني لا دليل على استحقاقها العبادة عقلاً ولا نقلاً.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ عطف على مقولة القول يعني لا أحد أضل ﴿مِمَّن يَدْعُوا﴾ أي يعبد ويطلب حاجاته ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ إذا دعاه لو سمع دعاءهم فرضاً أن يعلم سرائرهم ويراعي مصالحهم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي ما دامت الدنيا ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لأنها إما جمادات لا تسمع ولا تعقل وإما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم كعيسى وعزير والملائكة ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ يوم القيامة عطف على لا يستجيب ﴿كَانُوا﴾ أي كان المعبودون ﴿لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يضرونهم ولا ينفعونهم ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ مكذبين قائلين تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون يعني ليسوا في الدارين على منفعة إذ لا ينفعهم في الدنيا ويضرهم في الآخرة فلا أضل ممن عبدها وترك عبادة الله السميع البصير الخبير القادر المجيب، وقيل الضمير في قوله كانوا بعبادتهم كافرين للعابدين القائلين ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أو على يدعو في ﴿مِمَّن يَدْعُوا﴾ يعني ومن أضل ممن قال للحق هذا سحر مبين إذا تتلى عليه ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي لأجله وفي شأنه والمراد به الآيات ووضعه موضع ضميرها، ووضع الذين كفروا موضع ضمير المتلو عليهم للتسجيل عليها بالحق وظهور الصدق وعليهم بالكفر والانهماك في الضلالة ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي فوراً حين مجيئها إليهم من غير نظر وتأمل ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر في كونه سحراً ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ محمد من قبل نفسه، أم منقطعة استفهام للإنكار والتعجيب وإضراب عن قولهم إنه سحر إلى قولهم إنه مفترى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ فرضاً لكي تتبعوني ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لا تقدرون أن تردوا عني شيئاً من عذاب الله فكيف أجترىء على الله وأعرض نفسي للعقاب من غير توقع نفع ولا دفع ضرر من قبلكم ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي الله أعلم ﴿بِمَا تُفِيضُونَ﴾ أي تخوضون ﴿فِيهِ﴾ من تكذيب آياته والقول بأنه سحر أو مفترى ﴿كَفَىٰ بِهِ﴾ الباء زائدة والضمير في محل الرفع على الفاعلية ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يعني أن الله يشهد لي بالصدق والبلاغ بخلق المعجزات وعليكم بالكذب والإنكار وهو وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وإشعار بحلمه عنهم وعدم استعجالهم بالتعذيب مع عظم جرمهم.

﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي بديعاً مثل نصف ونصيف يعني لستُ بأول الرسل أدعي ما لم يدعه أحد قبلي بل قد بعث قبلي كثير من الرسل فلم تنكرون نبوتي بعد شهادة المعجزة، أولستُ أقدِر على ما لم يقدر الرسل من قبلي وهو الإتيان بالمقترحات كلها ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ ما إما موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة ولا لتأكيد النفي المشتمل على ما يُفْعَلُ بي والتقدير ما أدري ما يفعل بي ولا ما يفعل بكم، قيل معناه ما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بِكُمْ يوم القيامة، فلما نزلت هذه الآية فرح المشركون وقالوا واللات والعزى ما أمرنا وأمر محمد عند الله إلا واحد وما له علينا مزيةٌ وفضلٌ ولولا أنه ابتدع ما يقول من ذات نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به فأنزل الله ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فقالت الصحابة هنيئاً لك يا نبي الله قد علمنا ما يفعل بك وإذاً ما يفعل بنا فأنزل الله ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ [الفتح: ٥] الآية وأنزل ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: ٤٧] فبين الله ما يفعل به وبهم، قال البغوي وهذا قول أنس وقتادة والحسن وعكرمة قالوا إنما قال هذا قبل أن يخبره بغفران ذنبه عام الحديبية فنسخ ذلك وهذا القول عندي غير مرضي إذ لا يخلو سورة من القرآن غالباً (مكيةً كان أو مدنية) من الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين، وكان من أول ما يوحى إلى رسول الله ﷺ أن ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] يعني بعذاب الله إن لم يؤمنوا وفي هذه السورة ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤] الآية وكيف يكون عاقبة المسلمين والمشركين غير معلوم له ﷺ وغير مذكور في الكتاب فإنه يقتضي اعتراض الكافرين ما أمرنا وأمر محمد عند الله إلا واحد وما نرى لك علينا من فضل فأيُّ فائدة في ترك دين الآباء واتباع الرسل ونزول قوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وقوله ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ [الفتح: ٥] بعد بضع عشر سنة تأخير للبيان عن وقت الحاجة وذلك محال، فإن قيل روى البغوي بسنده عن خارجة بن يزيد قال كانت أم العلاء الأنصارية تقول لما قدم المهاجرون اقترعت الأنصار على سكناهم فطار لنا عثمان بن مظعون رضي الله عنه في السكنى فمرض فمرضناه ثم إنه توفّي فجاء رسول الله ﷺ فدخلتُ فقلتُ رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي أن قد أكرمك الله فقال النبيّ ﷺ «ما يدريك أن الله قد أكرمه» قلتُ لا والله لا أدري، فقال النبيّ ﷺ «أما هو فقد أتاه اليقين من ربّه وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم»، قالت فوالله لا أزكي بعد أحداً أبداً، قالت ثم رأيتُ لعثمان بعد في النوم عيناً تجري فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «ذاك عمله» وهذا الحديث يؤيد قول من قال معناه ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة وإلا فما معنى لهذا الحديث؟ قلنا مقتضى هذا الحديث أنه لا يجوز الحكم قطعاً على شخص معين بالنجاة أو بالهلاك لأنه ادعاء علم الغيب ولا علم على البواطن والسرائر إلا لله سبحانه غير أن الرجل إذا كان ظاهر حاله خيراً يرجو له الخير

ومعنى قوله ﷺ «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم» أنه قد علمني الله علوم الأولين والآخرين ومع ذلك ما أدري تفصيلاً ما يُفْعَلُ بي ولا بكُمْ في جزاء كل عمل مخصوص فكيف دريت أنتِ في حق رجل معين أن الله قد أكرمه، وقيل مثل هذا التأويل في الآية أيضاً قالوا معنى الآية ما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكُمْ في الدارين إذ لا علم لي بالغيب وهذا لا يقتضيه سياق الآية بل سياق الآية أن الكفار كانوا يريدون من النبيّ ﷺ أن يتبعهم في الدين ويطمعونه بجمع الأموال له وإنكاح الأزواج بلا سوق مهر ويؤذونه ويخوّفونه على ترك الاتباع فمقتضى سياق الآية أن النبيّ ﷺ أخبرهم بأنه لا يطمع منهم ولا يخافهم ويعلم أنهم غير قادرين على ما أرادوا بل الخير والشر كلاهما من الله تعالى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد فمعنى الآية ما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بِكُمُ من النصر والخذلان وأنا لا أتبعكم على شيء من التقادير.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من القرآن لا أتركه أبداً، قال البيضاوي جواب عن اقتراح الكفار الإخبار عمّا لم يوح إليه من الغيوب أو عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا من أذى المشركين وبه قال البغوي، قال جماعة قوله ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا وأما في الآخرة فقد علم أنه في الجنة ومن كذَّبه فهو في النار. ثم اختلفوا فقال ابن عباس لمَّا اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى رسول الله ﷺ فيما يرى النائم وهو بمكة أرض سباخ ونخل رفعت له يهاجر إليها فقال له أصحابه متى تهاجر إليها فسكت فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أنزل في مكاني أو أخرج وإياكم إلى الأرض التي رفعت لي، وقال بعضهم معنى ما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكُم أي إلى ماذا يصير أمري في الدنيا إما أن أُخْرَجَ كما أخرجت الأنبياء من قبلي منهم إبراهيم عليه السلام أو أُقْتَلَ كما قتل بعض الأنبياء من قبلي منهم يحيى عليه السلام، وأنتم أيها المصدقون تخرجون معي أو تتركون أم ماذا يفعل بكم، وما أدري ما يُفْعَلُ بكم أيها المكذبون أترمون بالحجارة كما رمي قوم لوط أم يخسف بكم كما خسف بقارون أم أيُّ شيء يفعل بكم مما فعل بالأمم المكذّبة ثم أخبره الله عزَّ وجلَّ أن يظهر دينه على الأديان كلها فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] وقال في أمته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فأخبره ما يصنع به وبأمته هذا قول السديّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ للكافرين من عذاب الله ﴿مُّبِينٌ﴾ بين الإنذار بالشواهد المبينة والمعجزات المصدقة يعني لستُ مدعياً لعلم الغيب ولا مسلطاً عليكم أكرهكم على الإيمان.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ماذا حالكم ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حال بتقدير قد أي وقد كفرتم به أيها المشركون ويجوز أن تكون الواو للعطف على فعل الشرط وكذا الواو في قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال قتادة والضحاك هو عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف من ولد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم

السلام. روى البخاري والبيهقي عن أنس ومحمد بن إسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سلام عنه والإمام أحمد ويعقوب بن سفيان عن عبد الله بن سلام والبيهقي عن موسى بن عقبة وعن ابن شهاب قال عبد الله بن سلام لَمَّا سمعتُ رسول الله ﷺ وعرفتُ صفته واسمه وهيئته والذي كنا نتوقع له فكنتُ مسرّاً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلمَّا قدم نزل معنا في بني عمرو بن عوف فأخبر رجل بقدومه وأنا في رأس نخلة أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلمَّا سمعتُ بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرتُ فقالت لو كُنْتَ سمعتَ بموسى بن عمران ما زدتَّ، قال قلتُ لها أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به قالت فذاك إذن، قال ثم خرجتُ إلى رسول الله ﷺ فلمَّا أن رأيتُ وجهه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذَّاب فكان أول ما سمع من النبيّ ﷺ قوله: «يا أيها الناس أطعموا الطعام وأفشوا السلام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»، فقال يا محمد إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع[1] الولد إلى أبيه أو إلى أمه وما هذا السواد الذي في القمر؟ فقال أخبرني بهن جبرئيل آنفاً، قال جبرئيل، قال نعم، قال ذاك عدو اليهود من الملائكة أما أول أشراط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة نزعت وأما السواد الذي في القمر فإنهما كانا شمسين قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٢] فالسواد الذي رأيت هو المحو فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلَموا وكتم إسلامه.

ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال أرى اليهود قد علمت أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم وإنهم قوم بُهت[2] وإنهم إن يعلموا بإسلامي من قبل أن تسألهم عني بهتوني ويقولون فيَّ ما ليس فيَّ فأحب أن تدخلني بعض بيوتك، فأدخلَه رسول الله ﷺ بعض بيوته وأرسل نبي الله ﷺ إلى اليهود فدخلوا عليه فقال «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله وقد جئتكم بالحق فأسلموا فقالوا ما نعلمه، فقال أيُّ رجل فيكم عبد الله؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال أرأيتم إن أسلم، قالوا أعاذه الله من ذلك، قال لابن سلام: أخرج عليهم، فخرج فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يا معشر اليهود اتقوا الله وأقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقّاً تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة اسمه وصفته فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه، قالوا كذبتَ أنت أشرنا وابن أشرنا وانتقصوا، قال هذا الذي كنتُ أخاف يا رسول الله ألم أخبرك أنهم قوم بُهت

---

(١) نزع إلى أبيه في الشبه أي ذهب.
(٢) بهت: جمع بهوت، كصبر وصبور، مبالغة في البهت، وهو الكذب، ثم سكن الهاء تخفيفاً.

أهل غدر وكذب وفجور فأظهر إسلامه وإسلام أهل بيته وأسلمت عمته ابنة الحارث فحسن إسلامها.

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن عوف بن الأشجعي قال انطلق النبيّ ﷺ وإني معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم فقال لهم رسول الله ﷺ يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم انصرف فإذا رجل من خلفه فقال كما أنت يا محمد وأقبل، فقال أيُّ رجل تعلموني منكم يا معشر اليهود؟ قالوا والله ما نعلم فينا رجلاً كان أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك، قال فإني أشهد بالله إنه لنبي الله الذي تجدونه في التوراة قالوا كذبتَ ثم ردوا عليه وقالوا شرّاً فأنزل الله تعالى هذه الآية. وأخرج الشيخان عن سعيد بن أبي وقاص قال ما سمعتُ النبيّ ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قال الراوي عن مالك (وهو عبد الله بن يوسف شيخ البخاري لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث، وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن سلام قال فِيَّ نزلت وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّن بَنِي إسرائيل وعلى هذا التقدير الآية مدنية لأن إسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة ولفظة مثل في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ زائدة والضمير للقرآن والمعنى شَهدَ شَاهِدٌ عليه أي على كونه يعني القرآن من عند الله أو المعنىَ وَشَهدَ شَاهِدٌ على مثل ما قلتُ أي على كون القرآن من عند الله ﴿فَـَٔامَنَ﴾ عبد الله بن سلام ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ عن الإيمان يا معشر اليهود.

وأنكر مسروق نزول الآية في عبد الله بن سلام وقال والله ما نزلت فيه لأن آل حم نزلت بمكة وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة، ونزلت الآية في محاجة كانت من رسول الله ﷺ لقومه، ومعنى قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أنه شهد موسى وشهادته ما في التوراة خبر بعثة محمد ﷺ على مثْلِهِ أي مثل القرآن وهو ما في التوراة من المعاني المصدقة للقرآن فَآمَنَ موسى عليه السلام وَاستكبرتم عن الإيمان يا معشر قريش وجواب الشرط وهو قوله ﴿إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٥٢] محذوف تقديره فمن أضل منكم أو ألستم ظالمين يدل عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهي جملة مستأنفة فإن قيل أفعال الشرط أعني كَانَ مِن عند الله وَكَفرتمُ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّنْ بَنِي إسرائيل فَآمَنَ وَاسْتكبرتم كلها مجزوم وقوعها، فما وجه استعمال حرف إن فيها وهي تستعمل في موضع الشك؟ قلتُ: إن الواو في الجمل كلها للجمع واستعمل كلمة إن للتوبيخ وإيراد المجزوم موقع الشك للدلالة على أنه لا يجوز عند العقل السليم الكفر مع كونه من عند الله والاستكبار مع شهادة أهل العلم وإيمانه فهو نظير قوله: ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥] والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ الآية ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ منهم أي في حقهم ﴿لَوۡ كَانَ﴾ دين محمد ﷺ ﴿خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة قال قال أناس من المشركين نحن أعزُّ ونحن خير فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان فنزلت

هذه الآية، وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها رنين فكان عمر يضربها على إسلامها حتى تفتن، وكان كفار قريش يقولون لَو كَانَ خَيراً ما سبقتنا إليه رنين فأنزل الله في شأنها هذه الآية، وأخرج ابن سعد نحوه عن الضحاك والحسن وقال البغوي بناءً على نزول الآية السابقة في عبد الله بن سلام أنه قال الذين كفروا من اليهود للذين آمنوا من اليهود لو كان دين محمد خيراً ما سبقونا إليه يعني عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ﴾ أي بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان ظرف لمحذوف مثل ظهر عنادهم أو ضلوا وهو معطوف على قوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وعطف على محذوف تعلق به الظرف قوله ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ الفاء للسببية فإن هذا القول مسبب لظهور عنادهم وضلالهم وهو كقولهم ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] يعني أكاذيب الأولين يعني اختلق هذا أهل الزمان السابق ثم تلقاه منهم محمد.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي قبل القرآن وهو خبر لقوله ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى به حال من الضمير المستكن في قبله﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله على الناس ليفوزوا إلى فلاح الدارين والجملة معترضة ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ من الله تعالى ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لمحمد ﷺ بإعجازه صفة لكتاب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير كتاب في مصدق أو منه لتخصيصه بالصفة وعاملها معنى الإشارة وفائدتهما الإشعار بالدلالة على أن كونه مصدقاً للتوراة كما دل على أنه حق دل على أنه وحي وتوقيف من الله، أو مفعول به لمصدق بحذف مضاف أي مصدق ذا لسان عربي وهو محمد ﷺ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ قرأ نافع والبزي بخلاف عنه وابن عامر ويعقوب بالتاء للخطاب أي لتنذر يا محمد والباقون بالياء للغيبة أي لينذر الكتاب أو الله أو الرسول متعلق بمفهوم هذا كتابٌ أي أنزل لتنذر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ مصدر لفعل محذوف أي وليُبشر بشرى أو مفعول له معطوف على محل لينذر وهذا لا يجوز إلا على قراءة لِيُنْذِرَ بصيغة الغائب ويكون الضمير لله تعالى حتى يكون فاعله وفاعل الفعل المعلل به واحداً وهو أنزل وجاز أن يكون خبر المبتدأ محذوفاً أي هو والجملة عطف على جملة قبلها ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا

وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا
وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾
۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾
تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ قد ذكرنا تفسير الاستقامة في تفسير ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ [السجدة: ١] السجدة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعد الموت عن لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات محبوب والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المستكن في أصحاب والعامل فيه معنى الإشارة والجملة في مقام التعليل لنفي الخوف ﴿جَزَآءًۢ﴾ مصدر لفعل دلَّ عليه الكلام أي جوزوا جزاءً ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من اكتساب الفضائل العلمية والعملية.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ اللام للعهد والمراد به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، روي عن ابن عباس أن الآية نزلت في أبي بكر وهو المروي عن علي رضي الله عنه قال نزلت في أبي بكر أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع من المهاجرين أبواه في الإسلام غيره، وقال السديُّ والضحاك نزلت في سعد بن أبي وقاص وقد ذكرنا قصته في تفسير سورة العنكبوت، وقيل اللام للجنس وإن كان نازلاً في أبي بكر أو سعد وذلك لا يقتضيه سياق الآية كما سنشير إليه ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ متعلق بمحذوف أي أن يحسن بوالديه وهما أبو قحافة عثمان بن عمرو أم الخير بنت الخير بن الصخر بن عمر ﴿إِحْسَٰنًا﴾ كذا قرأ الكوفيون من الإفعال فهو منصوب على المصدرية وقرأ الباقون حُسْناً من المجرد فهو بدل اشتمال لقوله ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ منصوب على محله ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي ذات كره فهو حال من فاعل حملته أو حملاً ذاكره فهو مصدر وهو المشقة قرأ أهل الحجاز وهشام وأبو عمرو بفتح الكاف في الموضعين والباقون بضمها وهما لغتان، وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ﴾ جملتان معترضتان في مقام التعليل للأمر بالإحسان وفيه إشعار بمزية استحقاق الأم في الإحسان قال رسول الله ﷺ: «صل أمَّك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك»(١) وقد مر الحديث في سورة العنكبوت.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ وهو الفطام والمراد به الرضاع تسمية الملزوم باسم اللازم وقرأ يعقوب وفَصْلُه وهما بتقدير المضاف مبتدأ بعده خبره أي مدة حمله ورضاعه ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس باب ٢٥، وابن ماجه في الزهد باب ١٦، وأحمد في المسند ٢/٣٧٦، ٤١٤، ٤٢٧، ٤٤٢.

معترضة أخرى لبيان شدة المشقة في مدة طويلة يستدل بهذه الآية على أن أقل مدة الحمل ستة[1] أشهر لقوله تعالى: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] فإنه إذا ذهب منها عامين بقي للحمل ستة أشهر وعليه اتفق الأئمة في أقل مدة الحمل. واختلفوا في أكثرها؟ فقال أبو حنيفة سنتان وعن مالك روايات أربع سنين وخمس سنين وسبع سنين، وقال الشافعي أربع سنين وعن أحمد روايتان المشهور كمذهب الشافعي والأخرى كمذهب أبي حنيفة، وجه قول أبي حنيفة قول عائشة الولد لا يبقى في بطن أمه أكثر من سنتين ولو بقدر فلكة مغزل وفي رواية ولو بقدر ظل مغزل، قال ومثله لا يقال إلا سمعاً إذ المقدرات لا تدرك بالرأي، قلتُ: يحتمل أن يكون قولها على تقدير الصحة مبنيّاً على التجربة في جريان العادة كقول مالك والشافعي، قلتُ: والاستدلال بهذه الآية على أقل مدة الحمل مبني على كون اللام في الإنسان للجنس وإن كان للعهد فلا لأنها حينئذ بيان لواقعة حال، والاستدلال بهذه الآية على مذهب أبي حنيفة أن مدة الرضاع ثلاثون شهراً لا يجوز وقد مرَّ الكلام فيه وفي غيرها من مسائل الرضاع في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] روي عن عكرمة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أنه قال إذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعته أحد وعشرين شهراً وإذا حملت ستة أشهراً رضعته أربعة وعشرين شهراً والله أعلم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ متعلق بفعل محذوف معطوف على وضعته تقديره وربَّياه حَتَّى إذا بلغ ﴿أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ عطف على بلغ يعني وبلغ كمال عقله كان أبو بكر صحب النبيّ ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنةً وذلك بلوغ الأشد وكان النبيّ ﷺ حينئذ ابن عشرين سنة في تجارته إلى الشام فَلَمَّا بلغ الأربعين سنةً أمن بالنبي ﷺ ودعا ربه ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ قرأ ورش والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها والمعنى ألهمني وقيل معناه الكف أي إجعلني بحيث أزع نفسي يعني أكفه من الكفران ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ الهداية للإسلام أو ما يعمه وغيره ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ نكر صالحاً للتعظيم أو لأنه أراد نوعاً من الجنس يستجلب رضاء الله، قال ابن عباس فأجابه الله تعالى فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه ودعا أيضاً ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾

---

(١) عن قتادة عن أبي الحرب بن أبي الأسود الدؤلي قال رفعت إلى عمر امرأة ولدت بستة أشهر فسأل عنها أصحاب النبي ﷺ فقال علي لا رجم عليها ألا ترى أنه تعالى يقول ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ وقال ﴿وفصاله في عامين﴾ فكان الحمل منها ستة أشهر فتركها عمر ثم بلغنا أنها ولدت آخر بستة أشهر وعن نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره إني لصاحب المرأة التي أتى بها عمر وضعت لستة أشهر فأنكر الناس ذلك قلت لعمر كيف تظلم قال كيف قلت اقرأ ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ قلت كم الحول قال سنة قلت كم السنة قال اثنا عشر شهرا قلت وأربعة وعشرون شهرا حولان كاملان يؤخر الله من الحمل ما شاء ويقدم فاستراح عمر إلى قوله وعن أبي عبيدة مولى عبد الرحمن بن عوف قال رفعت امرأة إلى عثمان ولدت لستة أشهر فقال عثمان قد رفعت إلي امرأة ما أراها إلا جاءت بشر فقال ابن عباس إذا كملت الرضاعة كان الحمل ستة أشهر اقرأ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً فدرأ عثمان عنها ـ منه نوّر الله مرقده ـ.

فأجابه الله فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعاً كذا قال ابن عباس، وأدرك أبو قحافة صحبة النبيّ ﷺ وابنه أبو بكر وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وابن عبد الرحمان أبو عتيق ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عن الكفر وعن كل ما لا يرضاه الله أو يشغل عنه ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المخلصين قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ إلى آخره دليل على أن اللام في الإنسان للعهد فإنه لو كان للجنس لا يستقيم ذلك لأن تأخير النعمة القديمة إلى بلوغ أربعين سنة لا يجوز فالآية حكاية عن الواقع فإنه رضي الله عنه آمَنَ وهو ابن أربعين سنة والمعتبر من الشكر ما كان بعد الإيمان، فإن قيل المروي أن أباه أبا قحافة أسلم يوم الفتح وكان أبو بكر حينئذ ابن ستين سنة وكان نزول الآية قبل الهجرة لأن السورة مكية وحين بلغ أبو بكر أربعين سنة كان أبو قحافة كافراً فكيف يوصي الله بالإحسان به وكيف يقول أبو بكر ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؟ قلنا: قد روي أن أبا بكر أسلم وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وأسلم أبواه بعد ذلك بسنتين وكان أبو بكر حينئذ ابن أربعين سنة فلعل هذه الرواية هي الصحيحة وعلى تقدير نزول الآية بمكة وإسلام أبي قحافة بعد الفتح قلنا الوصية بالإحسان للوالدين الكافرين أيضاً جائزة قال الله تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت: ٨] والمراد حينئذ بنعمتك أنعمت علي ما يعم نعمة الدين والدنيا والله أعلم، قلتُ: وعلى تقدير كون اللام للجنس يقال معنى الآية أنه إذا بلغ الإنسان أشده يعني بلغ مبلغ الرجال شكر الله تعالى على كمال جسده ثم إذا بلغ أربعين سنة شكر الله سبحانه على كمال عقله والله أعلم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إن كان المراد بالإنسان الجنس، فالإشارة إلى عامة الموصوفين بالصفات المتقدمة ظاهر وإن كان المراد به أبو بكر أو سعد فالمشار إليه هو ومن كان مثله في الصفات المذكورة فذكر حكم أبي بكر وسعد في ضمن العموم على سبيل الكناية وهو أبلغ من الصريح فإنه كدعوى الشيء مع بينة وبرهان ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ فإن المباح حسن ولا يثاب عليها أو هي من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها يعني نتقبل عنهم ما عملوا أحسن مما عمله غيره ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فلا نعاقبهم على شيء منها، قرأ حمزة والكسائي(١) وحفص نتقبّلُ ونَتَجَاوَز بالنون على التكلم والتعظيم وأحْسَنَ منصوباً على المفعولية والباقون بالياء على الغيبة والبناء للمفعول وأحْسَنُ مرفوعاً على أنه مسند إليه ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ خبر بعد خبر لأولئك أو حال من الضمير المجرور في عنهم وعن سيئاتهم أي كائنين في أعدادهم أو مثابين أو معدودين فيهم ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه فأن يتقبل ويتجاوز وَعْدٌ أي وعدتُّ وعد الصدق وإضافة الوعد إلى الصدق من قبيل حاتم الجود ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا والجملة مستأنفة لبيان جزاء الإنسان المذكور.

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ إذا دعواه إلى الإيمان بالله والإقرار الموصول مبتدأ خبره أولئك والجملة مستأنفة أُخرى لبيان حكم من خالف المذكورين ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ وهي كلمة كراهية،

(١) وخلف.

قرأ نافع وحفص[١] بالتنوين وكسر الفاء وقرأ ابن كثير وابن عامر[٢] بفتح الفاء بغير تنوين والباقون بكسر الفاء بغير تنوين ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ قرأ هشام بنون واحدة مشددة والباقون بنونين مكسورتين وقرأ نافع وابن كثير[٣] بفتح الياء والباقون بإسكانها والاستفهام للإنكار والتوبيخ في مقام التعليل للتأفيف ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبري حيّاً بعد الموت ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ الجملة حال من فاعل اخرج وهاهنا جملة محذوفة معطوفة على هذه الجملة تقديره ولم يخرج أحد منهم ﴿وَهُمَا﴾ أي أبواه ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي يقولان الغياث بالله منك أو يسألانه تعالى أن يغيثه بالتوفيق للإيمان الجملة حال من والديه ﴿وَيْلَكَ﴾ مصدر لفعل محذوف أي هلكت هلاكات والجملة مقدرة بالقول أي ويقولان له ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ بالله وبالبعث بعد الموت ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ هذه الجملة في مقام التعليل للأمر بالإيمان ﴿فَيَقُولُ﴾ ذلك الولد الكافر لوالديه ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الوعد ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ﴾ أي أكاذيب ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أخرج البخاري من طريق يوسف بن ماهك قال كان مروان على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا فقال مروان هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن أنزل عذري. وروي أنه غضب عبد الرحمن بن أبي بكر بقول مروان وقال هذا سنة الهراقلة أن يرث الأبناء ملك الآباء، وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ وعن ابن عباس مثل قول مروان وقال نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ثم أسلم عبد الرحمن وحسن إسلامه، وقال البغوي قال ابن عباس والسديُّ ومجاهد نزلت في عبد الله وقيل في عبد الرحمن بن أبي بكر كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام وهو يأبى ويقول أحيوا لي عبد الله بن جدعان وعامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما تقولون، قلتُ وقول من قال إنها نزلت في عبد الرحمٰن بن أبي بكر إنما نشأ من قول مروان وقد سمعتَ أن قول مروان إنما كان مبنيّاً على العناد. قال البغوي وأنكرت عائشة أن يكون هذا في عبد الرحمن بن أبي بكر وقالت إنما نزلت في فلان سمت رجلاً، وقال الحافظ ابن حجر ونفي عائشة أصح إسناداً وأولى بالقبول، وقال البغوي والصحيح أنها نزلت في كافر عاق لوالديه المسلمين كذا قال الحسن وقتادة، وقال الزجاج قول من قال نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، يبطله قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ أي وجب وثبت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنهم أهل النار فإن عبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي مع أمم كافرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بيان لأمم وجملة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ صفة لأمم وفي أمم متعلق بحقّ وهو صلة للموصول والموصول خبر لاسم الإشارة والجملة خبر لقوله ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تذييل.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي من جزاء ما عملوا من الخير أو من أجل ما عملوا

(١) وأبو جعفر. (٢) ويعقوب.
(٣) وأبو جعفر.

قال البغوي قال ابن عباس يريد من سبق إلى الإسلام فهو أفضل ممن يخلف عنه ولو بساعة وقال مقاتل ولكل فضائل بأعمالهم فيوفيهم جزاء أعمالهم، وقيل ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين درجات منازل ومراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم فجازيهم عليها قال ابن زيد في هذه الآية درجات أهل النار يذهب سفالاً ودرجات أهل الجنة يذهب علُوّاً ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام وعاصم[١] بالياء على الغيبة والباقون بالنون على التكلم والتعظيم وهو معطوف على علة محذوفة لفعل محذوف تقديره فعلنا ذلك أو فعل الله ذلك لِحكَم ومصالح وليوَفّيهُمْ ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ أي جزاء ما عملوا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب حال من الضمير المنصوب.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي يعذبون بها أصله يعرض النار عليهم فقلب مبالغة كقولهم عرضتُ الناقة على الحوض ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ مقدر بالقول أي يقال لهم أذهبتم وهو ناصب اليوم، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ءأذهبتم بالاستفهام فقرأ ابن ذكوان[٢] بهمزتين محققتين بغير مد وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب[٣] وهشام[٤] بهمزة ومد[٥] وهشام[٦] أطول مداً على أصله وابن كثير[٧] يسهل الثانية[٨] على أصله والباقون بهمزة واحدة على الخبر، قال البغوي كلاهما فصيحتان لأن العرب تستفهم للتوبيخ وتترك الاستفهام ﴿طَيِّبَاتِكُمْ﴾ ولذائذكم ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ باستيفاء ما كتب لكم حظّاً منها في الدنيا ﴿وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فما بقي لكم منها شيء ﴿فَالْيَوْمَ﴾ الفاء للسببية عطف على استمتعتم ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي العذاب الذي فيه ذل وهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله.

قال البغوي وبّخ الله الكافرين بالتمتع في الدنيا فآثر النبيّ ﷺ وأصحابه الصالحون اجتناب اللذات الدنيا رجاءً لثواب الآخرة، روى الشيخان في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه قال دخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثَّرَ الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف، قلتُ يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله، فقال «أو في هذا أنت يا ابن الخطّاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»، وفي رواية «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»[٩] وفي الصحيحين عن عائشة ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ[١٠]، وروى البخاري عن أبي سعيد

---

(١) ويعقوب.
(٢) وروح.
(٣) أي: رويس.
(٤) بخلاف عنه.
(٥) أي: همزة سهلة.
(٦) وأبو جعفر.
(٧) ورويس.
(٨) أي: بغير إدخال.
(٩) أخرجه البخاري في المظالم باب ٢٥، والنكاح باب ٨٣، ومسلم في الطلاق حديث ٣٤.
(١٠) أخرجه البخاري في الأطعمة باب ٢٣، ومسلم في الزهد حديث ٢٢، وأحمد في المسند ٦/٩٨.

المقبري عن أبي هريرة أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية فدعوه فأبى أن يأكل وقال خرج النبيّ ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير[١]، وروي عن عائشة قالت لقد كان يأتي علينا شهر ما توقد فيه نار وما هو إلا الماء والتمر غير أن جزى الله النساء من الأنصار خيراً ربما أهدين لنا شيئاً من اللبن[٢]، وروى أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير[٣]، وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «لقد أخِفْتُ في الله وما يخاف أحد ولقد أُوذيتُ وما يؤذى أحد ولقد أتت عليَّ ثلاثين من بين ليلة ويوم وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»[٤] قال الترمذي ومعنى الحديث حين خرج النبيّ ﷺ هارباً من مكة ومعه بلال إنما كان مع بلال من الطعام ما تحمل تحت إبطه، وروى البخاري عن أبي هريرة قال رأيتُ سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته، وروى البخاري عن أنس أنه مشى إلى النبيّ ﷺ بخبز شعير وإهالة سبخة، ولقد رهن النبيّ ﷺ درعاً بالمدينة عند يهودي وأخذ منه الشعير لأهله ولقد سمعتُه يقول ما أمسى عند آل محمد صاع بر ولا صاع حب وإن عنده تسع نسوة وروى الترمذي عن أبي طلحة قال شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه عن حجرين، وقال الترمذي هذا حديث غريب، وروى مسلم عن عبد الرحمن قال «جاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو وأنا عنده فقالوا يا أبا محمد والله ما نقدر على شيء لا نفقة ولا دابة ولا متاع، فقال لهم ما شئتم إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان وإن شئتم صبرتم فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»، قالوا فإنا نصبر لا نسأل شيئاً»[٥] وروى أحمد عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما بعث به إلى اليمن قال: «إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين»[٦] وروى البيهقي في شعب الإيمان عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من رضي من الله باليسير من الرزق رضي الله عنه بالقليل من العمل»[٧] وروى البغوي عن عبد الرحمن بن عوف أنه

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة باب ٢٣. (٢) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٦/ ٢٤٤.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٣٨، وابن ماجه في الأطعمة باب ٤٩، وأحمد في المسند ١/ ٢٥٥، ٣٧٤.

(٤) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٣٤، وابن ماجه في المقدمة باب ١١.

(٥) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٣٧، وأحمد في المسند ٢/ ١٦٩.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٤٣، ٢٤٤.

(٧) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٦٥٠، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٢٦٣، والعجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٣٦٤.

أتي بطعام وكان صائماً فقال قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه وإن غطي رجلاه بدا رأسه قال وأراه قال وقتل حمزة وهو خير مني ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط أو قال أعطينا الدنيا وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام، وروي عن جابر بن عبد الله أنه رأى عُمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يديَّ فقال ما هذا يا جابر؟ قلتُ «اشتهيتُ لحماً فاشتريتُه فقال عمر فكلما اشتهيت يا جابر اشتريت أما تخاف هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقد روى القصة من حديث ابن عمر، وفي رواية من حديث جابر أما يجد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه، وروى رزين عن زيد بن أسلم قال استسقى يوماً عمر فجيء بماء قد شيب بعسل فقال إنه طيب لكني أسمع الله عزَّ وجلَّ نفى على قومه شهواتهم فقال أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فأخاف أن تكون حسناتنا عجلت(١) لنا فلم يشربه.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هود عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ عاداً، إذ مع ما أضيف إليه بدل اشتمال من أخا عاد أي اذكر وقت إنذاره ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي في الأحقاف قال ابن عباس: الأحقاف بين عمان ومهرة، وقال مقاتل منازل عاد كان باليمن في حضرموت بموضع يقال لها مهرة تنسب إليها الإبل المهرية وكانوا أهل عهد سيارة في الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم وكانوا من قبيلة آدم، قال قتادة ذكر لنا أن عاداً كانوا حيّاً باليمن كانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال له يشجر والأحقاف جمع حقف وهو المستطيل المعوج من الرمال قال ابن زيد هي ما استطال من الرمل كهيئة الجبل ولم يبلغ أن

(١) عن سالم بن عبد الله بن عمر أن عمر كان يقول ما نعني بلذات العيش أن نأمر بصفار المغرب فتسمط ونأمر بلباب الحنطة فيخبز لنا ونأمر بالزبيب فينبذ لنا في الأسفان حتى إذا صار مثل عين اليعقوب أكلنا هذا وشربنا هذا ولكنا نريد أن تستبقى طيباتنا لأنا سمعنا الله يقول ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ وعن قتادة قال ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول لو شئت كنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسا ولكني استبقى طيباتي وذكر لنا أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام صنع له طعام لم ير مثله قال هذا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير قال خالد بن الوليد الجنة فاغرورقت عينا عمر فقال لإن كان حظنا من هذا الحطام وذهبوا بالجنة لقد بانوا بونا بعيدا وعن حميد بن هلال قال كان حفص يكثر عشيان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وكان إذا قرب طعاما نفاه فقال له عمر ما لك ولطعامنا فقال يا أمير المؤمنين إن أهلي يصنعون طعاما هو ألين من طعامك فأختار طعامهم على طعامك فقال ثكلتك أمك ما تراني لو شئت أمرت بشاة فتية سمينة فألقى عنها شعرها ثم أمرت بدقيق فتنخل في خرقة فجعل خبزا مرققًا وأمرت بصاع من زبيب فجعل في سفن حتى يكون كدم الغزال فقال حفص إني أراك تعرف لين الطعام فقال عمر ثكلتك أمك والذي نفسي بيده لولا كراهية أن ينقص من حسناتي يوم القيامة لأشركتكم في لين الطعام وعن الحسن قال قدم وفد أهل البصرة على عمر مع أبي موسى فكان له كل يوم خبز ملث فربما وافقناها بلبن وربما وافقناها القدائد اليابسة قد دقت وربما وافقناها باللحم الفريض وهو قليل قال وقال لنا عمر إني والله لقد أرى تقديركم وكراهيتكم طعامي إنا والله لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأدقكم عيشاً اما والله ما أجهل عن كراكر واسمنة وعن هلى وهياب سلابى ولكن وجدت الله عيّر قوماً بامرحفاة فقال أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ـ ١٢ ـ منه برّد الله مضجعه ـ.

يكون جبلاً، وقال الكسائي هي ما استدار من الرمال ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي مضت الرسل جملة معترضة أو حال من فاعل أنذر يعني والحال أنه أنذر ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي قبل هود نوحٌ وغيره ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي بعده صالحٌ وإبراهيم ولوط وغيرهم مثل إنذار هود ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أن مفسرة لأنذر أو مصدرية بتقدير أنباء فإن النهي عن الشيء إنذار عن مضرته ﴿إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو[1] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتم غير الله ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي عظيم بلاؤه ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾ استفهام تقرير ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ أي لتصرفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب على الشرك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعيدك شرط مستغن عن الجزاء بما مضى ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ لوقت عذابكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي يأتيكم في وقت مقدر له من المستقبل ولا يستلزم عدم وقوع العذاب الآن كوني كاذباً ولا مدخل لي فيه فاستعجلوا ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم من التوحيد والأحكام والأخبار بنزول العذاب إن لم تؤمنوا ﴿وَلَٰكِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو والبزي[2] بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لا تعلمون أن الله هو العليم القدير والرسل إنما بعثوا منذرين مبلغين لا معذبين ولا مقترحين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير عائد إلى ما تعدنا وهو العذاب أو مبهم تفسيره ﴿عَارِضًا﴾ أي هيئة سحاب يعرض أي يبدو في عرض السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ وقد كانوا قد حبس عنهم المطر قبل ذلك سنتين (وقد مرَّت قصتهم في سُورة الأعراف وغيرها) استبشروا بها ﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ الذي نراه ﴿عَارِضٌ﴾ سحاب عرض ﴿مُّمْطِرُنَا﴾ أي يأتينا بالمطر قال الله تعالى أو قال هود ليس هذا سحاباً ممطراً كما زعمتم ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿رِيحٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي أو بدل من الموصول ﴿فِيهَا عَذَابٌ﴾ صفة لريح ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة عذاب ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي تهلك ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مرت به من أنفسهم وأموالهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي رب الريح فجاءت الريح الشديد تحمل الفسطاط وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة وأول ما عرفوا أنها عذاب إذا رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من رجال عاد وأموالهم تطير بهم الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فجاءت الريح ففلقت أبوابهم وصرعتهم وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال وكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال فاحتملتهم فرمت بهم في البحر ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ﴾ عطف على قال الله أو قال هود المحذوف، قرأ عاصم وحمزة ويعقوب[3] بضم الياء للغيبة على البناء للمفعول ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بالضم عندهم على أنه مفعول ما لم يسم فاعله والباقون بالتاء للخطاب يعني لا ترى يا محمد أو يا مخاطب مطلقاً وَمَسَاكِنَهُمْ عندهم بالنصب على المفعولية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي جزاء مثل جزائهم ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ روي أن هوداً عليه السلام

(١) وأبو جعفر. (٢) وأبو جعفر.
(٣) وخلف.

لما أحس بالريح اعتزل بالمؤمنين في الخطير، عن عائشة قالت: «ما رأيتُ رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه»(١) متفق عليه، وفي رواية عند البغوي فقلتُ يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيها المطر وإذا رأيتَه عرف في وجهك الكراهية فقال «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا»(٢)، وعنها قالت: «كان النبيّ ﷺ إذا عصت الريح قال اللّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلتْ به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطِرت سري عنه فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: «لعله يا عائشة كما قال عاد فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارضٌ ممطرنا»، وفي رواية ويقول إذا رأى المطر رحمةً»(٣) متفق عليه، وفي رواية عند أبي داود والنسائي وابن ماجه والشافعي كان النبيّ ﷺ إذا أبصرنا شيئاً من السماء ترك عمله واستقبله وقال «إني أعوذ بك من شر ما فيه»(٤) الحديث، وعن ابن عباس ما هبت الريح قط إلا جثا النبيّ ﷺ على ركبتيه وقال: «اللّهم اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً»(٥) الحديث، رواه الشافعي والبيهقي.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ
ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ
إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾
يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ
دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤٦ باب ٢، والأدب باب ٦٨، ومسلم في الاستسقاء حديث ١٦، وأبو داود في الأدب باب ١٠٤، وأحمد في المسند ٦/ ٦٦.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) أخرجه مسلم في الاستسقاء حديث ١٥. (٤) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ١٩٠.

(٥) أخرجه البغوي في شرح السنة ٤/ ٣٩٣، وتفسيره ٤/ ٦٢، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ١٦٥، والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٢١٤.

يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ يعني عاداً ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ من القوة والمال ما موصولة أو موصوفة وإن نافية وهي أحسن هاهنا من ما لئلا يلزم التكرار لفظاً أي في الذي (أو في شيء مكَّنَّاكم فيه)، أو شرطية والجواب محذوف والتقدير ولقد مَكَّنَّاهُمْ في الذي أو في شيء إنْ مَكَّنَّاكُمْ فيه كان بغيكم أكثر أو زائدة يعني مَكَّنَّاهُمْ فيمَا مَكَّنَّاكُمْ فيه والأول أظهر لقوله تعالى ﴿أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ [مريم: ٧٤] ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا﴾ [غافر: ٨٢] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ بمعنى إسماعاً ﴿وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ قلوباً ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على مانحها ويواظبوا على شكرها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ من زائدة يعني لم ينفعهم شيء منها شيئاً من النفع ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ظرف جرى مجرى التعليل من حيث إن الحكم مرتب على ما أضيف إليه فهو علة لما أغنى ﴿وَحَاقَ﴾ أي نزل ﴿بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحجر ثمود وأرض سدوم قرى قوم لوط والمراد أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي كررنا الحجج والبينات ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لكي يرجعوا يعني أهل مكة عن كفرهم تعليل للصرف وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ فهلا منعهم من عذاب الله ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي الذين اتخذوهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي آلهة يتقربون بها إلى الله حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، أول مفعولي اتخذوا الراجع إلى الموصول محذوف وثانيهما قُرباناً وآلهة بدل أو عطف بيان أو آلهة مفعول ثان، وقرباناً حال أو مفعول له على أنه بمعنى التقرب أو مفعول مطلق أي اتخاذ تقرب إلى الله ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عن نصرهم عند نزول العذاب وامتنع أن يستمدوا بهم امتناع الاستمداد بالضآل ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذ الذين هذا شأنهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ كذبهم وصرفهم عن الحق.

وقيل ذلك إشارة إلى انتفاء نصرهم وهو مبتدأ وإفكهم بحذف المضاف خبره والمعنى وذلك أي انتفاء نصرهم أثر إفكهم أي افترائهم والجملة معترضة لبيان سبب المشار إليه ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي افتراؤهم أنها آلهة.

أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال إن الجن هبطوا على النبيّ ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا أنصتوا قالوا صه وكانوا تسعة أحدهم زذبعة فأنزل الله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ﴾ أي أهلنا ﴿إِلَيْكَ﴾ هذه الجملة إلى آخرها معترضة لتسلية النبي ﷺ نفراً وهي جماعة دون العشرة وجمعه أنفار ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال ابن عباس كانوا سبعة من جن نصيبين فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم وقال الآخرون كانوا تسعة.

قال البغوي روى عاصم عن زر بن حبيش أن زذبعة من التسعة الذين استمعوا القرآن ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حال من نفر ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن أو الرسول ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ قال بعضهم لبعض اسكتوا نسمعه ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أي أتم وفرغ من قراءته ﴿وَلَّوْا۟﴾ انصرفوا ﴿إِلَىٰ

﴿قَوۡمِهِم﴾ من الجن ﴿مُّنذِرِينَ﴾ مخوّفين داعين بأمر رسول الله ﷺ وقد ذكرنا القصة بوجوهها في سورة الجن لما سبق مني تفسيرها ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، قال عطاء كان دينهم اليهودية، قلتُ: لعل معنى قولهم أنزل من بعد موسى ناسخاً للتوراة بخلاف الإنجيل والزبور فإنهما لم يكونا ناسخين لكثير من أحكام التوراة حيث قال الله تعالى في عيسى عليه السلام ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨] وقال حكاية عنه ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٥٠] ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية حال من فاعل أنزل أو صفة ثانية لكِتَاباً وكذا قوله ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ من العقائد ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ من الشرائع ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ محمداً ﷺ إلى الإسلام ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ ما كان حقاً لله بخلاف المظالم فإنها لا تغفر بالإيمان ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فاستجاب لهم من قومهم نحو سبعين رجلاً من الجن فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فوافقوه في البطحاء فقرأ عليهم القرآن فأمرهم ونهاهم وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس جميعاً وقد ذكرنا اختلاف العلماء في حكم مؤمن الجن في سورة الجن ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لا يعجز الله فيفوته إذا أراد الله تعذيبه ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾ يمنعونه من عذاب الله هذه الجملة حال من فاعل ليس بمعجز والجملة الشرطية أعني من لا يجب داعي الله إلخ معترضة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الذين لم يجيبوا داعي الله ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فإن الهداية منحصرة في اتباع الرسول.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أينكرون هؤلاء الكفار عن البعث بعد الموت ولم يروا أي لم يعتقدوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ﴾ أي لم يتعب ولم يعجز ﴿بِخَلۡقِهِنَّ﴾ فإن قدرته ذاتية لا تنقص ولا تنقطع بالإيجاد أبد الآبدين ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ الباء زائدة واسم الفاعل في محل النصب على أنه مفعول ثان ووجه دخول الباء على خبر أنَّ المفتوحة إنّ أَنَّ مع جملتها قائم مقام مفعولي يَرَوا والنفي في أفعال القلوب يتوجه إلى المفعول الثاني، هذه قراءة الجمهور وفي قراءة ابن مسعود قادراً بغير الباء وقرأ يعقوب يقدر بصيغة الفعل المضارع ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ منصوب بقول مضمر تقديره يقال لهم ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا﴾ إشارة إلى العذاب بالنار الذي ينكرونها في الدنيا ﴿بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ﴾ أي الكفار في الجواب ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ يقسمون بالله ويعترفون به حين لا ينفعهم الإقرار ﴿قَالَ﴾ أي يقول الله تعالى حينئذ ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ الفاء للسببية فإن كونها حقاً مع إنكارهم إياها في الدنيا سبب للذوق ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أي بسبب كفركم في الدنيا ومعنى الأمر هو الإهانة والتوبيخ وجملة ويوم يعرض الخ متصلة بقوله ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ [الأحقاف: ٢٠] وما بينهما معترضات.

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد على أذى الكفار الفاء للسببية يعني إذا علمتَ أنهم يذوقون عذاب النار فاصبروه لا تهتم للانتقام ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ أي صبراً مثل صبر ﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ أي أولي الصبر والثبات والجد ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قبلك فإنك من جملتهم. واختلفوا فيهم؟ قال ابن زيد كل رسول كان صاحب عزم فإن الله لم يبعث نبياً إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال عقل ومن للتبيين، وقال بعضهم الأنبياء كلهم أولو عزم إلا يونس بن متى لعجلة كانت منه ألا ترى أنه قيل للنبي ﷺ ولا تكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ وقيل إلا يونس وإلا آدم لقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥] وقال قوم هم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً. قال الله تعالى بعد ذكرهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال الكلبي هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشفة مع أعداء الله وقيل هم ستة: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء، وقال مقاتل هم ستة: نوح صبر على أذى قومه، وإبراهيم صبر على النار، وإسحاق صبر على الذبح، ويعقوب صبر على فقد ولده وذهب بصره، ويوسف صبر في البئر والسجن، وأيوب صبر على الضرّ، وقال ابن عباس وقتادة هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى أصحاب الشرائع مع محمد ﷺ وعليهم أجمعين خمسة، قال الشيخ محيي السنة البغوي ذكرهم الله على التخصيص في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ [الأحزاب: ٧] وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال الشيخ أحمد المجدد للألف الثاني رضي الله عنه هم ستة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسيد الرسل محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم، أما الخمسة فلما ذكر من تخصيصهم للميثاق وكونهم أصحاب الشرائع ومن جاء خلفهم أيَّدَ شرائعهم وأما آدم فلا جرم يكون هو صاحب شريعة جديدة لكونخه مقدماً على غيره.

روى البغوي عن مسروق قال قالت لي عائشة قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم إلا الصبر على مكروهها والصبر على محبوبها ولم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم وقال فاصبر كما صبر أولو العزم من الرُّسُلِ وإني والله ما بدا لي من طاعته وإني والله لأصبرنَّ كما صبروا وأجهدن كما جهدوا ولا قوة إلا بالله»[(١)].

عن ابن مسعود قال: «كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول اللَّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[(٢)] متفق

(١) بياض في الأصل.
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، والمرتدين باب ٥، ومسلم في الجهاد حديث ١٠٤.

عليه، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي لا تدع على كفار قريش بنزول العذاب عليهم فإنه نازل بهم في وقته لا محالة، كأنه ضجر وضاق قلبه بكثرة مخالفات قومه فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم فأمر بالصبر وترك الاستعجال ثم أخبر عن قرب العذاب فقال ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا زماناً ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ استقصروا من هوله مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة ولأن ما مضى وإن كان طويلاً فهو إذا انقضى صار كأن لم يكن وجملة كأنهم واقع موقع التعليل لعدم الاستعجال في تعذيب الكفار ثم قال ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي هذا الذي وعظتم به أو هذه السورة أو هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ من الله إليكم أي كفاية أو تبليغ الرسول وتنكير البلاغ للتعظيم والتفخيم، وقيل بلاغ مبتدأ خبره لهم وما بينهما اعتراض أي لهم وقتٌ يبلغون إليه كأنهم إذا بلغوه رأساً رأوا ما فيه استقصروا مدة عمرهم ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ الاستفهام للإنكار أي لا يهلك بالعذاب أحد ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن الاتعاظ أو الطاعة، قال الزجاج تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلاَّ القَومُ الفاسقون، ولهذا قال قوم ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية.

الحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالىٰ على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين تم تفسير سورة الأحقاف من التفسير المظهري الثالث عشر من الجمادى الأول من السنة الثامنة بعد الف ومائتين سنة ١٢٠٨هـ ويتلوه تفسير سورة محمد ﷺ إن شاء الله تعالىٰ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة محمد

صلّى اللّه عليه وسلّم وهي سورة القتال

آياتها ثمان وثلاثون

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي منعوا الناس عن الدخول في الإسلام إذ امتنعوا عن الدخول فيه وسلوك طريقه ﴿أَضَلَّ﴾ الله ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي جعلها ضائعة محبطة حيث لم يقصدوا بها وجه الله، ولم يجعل لها ثواباً وإنما يجزون بها في الدنيا فضلاً من الله وأراد بالأعمال ما كان منها حسناً في الظاهر كإطعام الطعام وصلة الأرحام وفك الأسارى وحفظ الجوار وقال الضحاك أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ وجعل الدبرة عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ صلّى الله عليه وسلم تخصيص للمنزل عليه مما يجب الإيمان به تعظيماً له وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم بدونه وأنه الأصل منه وشامل لجميع الإيمانيات ولذلك أكده بقوله ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ اعتراضاً على طريقة الحصر وجاز أن يكون حالاً، قيل حقيته كونه ناسخاً لا ينسخ ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي غفرها وسترها بالإيمان

وأعمالهم الصالحة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم في الدنيا بالنصر على الأعداء وتوفيق الطاعة والحفظ عن المعاصي وتسلط الشيطان وفي الآخرة بالخلود في النعيم ورضوان الله تعالى، وقال ابن عباس يعني عصمهم أيام حياتهم، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ﴾ هم مشركو مكة، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هم الأنصار، وقلتُ واللفظ عام ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من الإضلال والتكفير والإصلاح مبتدأ خبره ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي الشيطان ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي القرآن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي ضرباً مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ أي يبين ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ الضمير راجع إلى الناس أو إلى المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب لأجل الناس حتى يعتبروا أمثال الفريقين جعل الله تعالى اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار والإضلال مثلاً لخيبتهم واتباع الحق مثلاً للمؤمنين تكفيراً لسيئات مثلاً لفوزهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه مضافاً إلى المفعول للتأكيد والاختصار عبر به عن القتل إشعاراً بأنه ينبغي أن يضرب الرقبة ما أمكن فإنه مفض إلى القتل غالباً دون غيره من الجراحات ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي أكثرتم قتلهم وأغلظتموهم من الثخين بمعنى الغليظ ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي فأمسكوا عنهم وأسروهم وشدوا وثاقهم واحفظوهم كيلا يفروا والوثاق بالفتح والكسر ما يوثق به ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي فاما تمنون عليهم بالإطلاق بعد الأسر وشد الوثاق منّا أو يفدون فداءً، قال البغوي اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قوم هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وإلى هذا القول ذهب قتادة والضحاك والسديُّ وابن جريج وهو قول الأوزاعي وبه قال أبو حنيفة رحمه الله في رواية، قلتُ قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ لا يصلح ناسخاً لهذه الآية وقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] مخصوص بالبعض حيث جاز استرقاق الأسارى بالإجماع واستبقاؤهم ذمة لنا عند أبي حنيفة ومالك فبقي ظني الدلالة في الباقي فلا يصلح ناسخاً لهذه الآية لكونها قطعية، وذهب الآخرون إلى أنها محكمة والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو يمن عليهم فيطلقهم بلا عوض أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين وإليه ذهب ابن عمرو به قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء وهو قول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال ابن عباس لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عزَّ وجلَّ في الأسارى ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ وهذا هو الأصح والاختيار لأنه عمل به رسول الله ﷺ والخلفاء بعده قلتُ فهذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: ٦٧] فإنها نزلت في غزوة بدر سنة اثنين وقد منَّ رسول الله ﷺ على الأسرى بعد ذلك في الحديبية سنة ست وغير ذلك، عن أنس «أن ثمانين

رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غزوة النبيّ ﷺ وأصحابه فأخذهم سلماً فاستحياهم وفي رواية فأعتقهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ رواه مسلم وقد ذكرنا مسائل أحكام الأسارى وأختلاف العلماء وما ورد في الباب من الأحاديث في سورة الأنفال في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ﴾ أي أهل الحرب أي المحاربين ﴿أَوْزَارَهَا﴾ يعني أثقالها وهي الأسلحة يعني تنقطع الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسالم، وقيل الأوزار الآثام والمعنى يضع أهل الحرب من المشركين أثامها بأن يتوبوا من كفرهم ويُؤمنوا بالله ورسوله، وقيل حتى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يسلموا والمعنى اثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يدخل أهل الملل كلها في الإسلام جعل الله سبحانه انقطاع الحرب غاية للضرب أو الشد أو المن أو الفداء أو للمجموع يعني هذه الأحكام جارية حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم وذلك عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام. عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ: «لا يزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم. حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[١] رواه أبو داود، وروى البغوي عن النبيّ ﷺ بلفظ «الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال»[٢] ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي الأمر فيهم ذلك أو مبتدأ خبره محذوف أي ذلك ثابت أو مفعول لفعل محذوف أي افعلوا بهم ذلك فهو تأكيد لما سبق ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي لانتقم من الكفار بأن يهلكهم من غير تعب منكم في الجهاد ﴿وَلَٰكِن﴾ أمركم بالقتال ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي ليبلوا المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فيستوجبوا الثواب والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم بالعقوبة بأيديهم كي يرتدع بعضهم من الكفر ويستوجب بعضهم النار، والجملة بيان لحكمة شرعية القتال مع القدرة على اسئصالهم بلا تجشم قتال من المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قرأ أهل البصرة وحفص قُتِلُوا بضم القاف وكسر التاء على البناء للمفعول من المجرد وهم الشهداء والباقون قَاتَلُوا بالألف من المقاتلة وهم المجاهدون ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ خبر للمبتدأ الموصول المتضمن لمعنى الشرط أي لا يبطل أعمالهم بارتكاب المعاصي بل يكفر سيئاتهم ويثيب على حسناتهم، أخرج البزار والبيهقي والأصفهاني في الترغيب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء ثلاثة: رجل خرج بنفسه وماله محتسباً في سبيل الله يريد أن يقاتل ويقتل يكثر سواد المسلمين فإن مات أو قتل غفرت له ذنوبه كلها وأجير من عذاب القبر ويؤمن من الفزع الأكبر ويزوج من الحور العين

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٣٥، والزيلعي في نصب الراية ٣/ ٣٧٧، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٠٦٦٦.

ويحل حلة الكرامة ويوضع على رأسه تاج الوقار، والثاني رجل خرج بنفسه وماله محتسباً يريد أن يَقْتُلَ فإن مات أو قُتل كانت ركبتيه مع إبراهيم خليل الرحمن بين يدي الله في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مليكٍ مُقْتَدِرٍ، والثالث رجل خرج بنفسه وماله محتسباً يريد أن يقتل ويقتل فإن مات أو قتل جاء يوم القيامة شاهراً سيفه واضعه على عاتقه والناس جاثون على الركب يقولون ألا افسحوا لنا فإنا بذلنا لنا دماءنا وأموالنا لله حتى يأتوا منابر من نور تحت العرش فيجلسون عليها ينظرون كيف يقضي بين الناس لا يجدون غمّ الموت ولا يفتنون في البرزخ ولا يفزعهم الصيحة ولا يهمهم الحساب ولا الميزان ولا الصراط ولا هم يسألون شيئاً إلا أعطوا ولا يشفعون في شيء إلا شفعوا ويعطون من الجنة ما أحبُّوا ويتبوؤون من الجنة حيث أحبُّوا»(١) والله أعلم.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال ذكر لنا أنه نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يوم أحد وقد نشب فيهم الجراحات والقتل وقد نادى المشركون بوعيد أعل هبل فنادى المسلمون الله أعلى وأجل، فقال المشركون إن لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»(٢).

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الدنيا إلى الرشد وفي الآخرة إلى الدرجات العلى ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم في الدارين أما في الدنيا فلمن لم يقتل أدرجوا في القتلى تغليباً، أو لأنهم لما خرجوا للقتال ورضوا بأن يقتلوا أعطوا ثوابهم في الدارين وأما في الأخرى فلمن قُتل ولمن لم يُقْتَلْ بأن يكفر سيئاتهم ويقبل حسناتهم ويرضى خصماؤهم. أخرج أبو نعيم في الحلية عن سهل بن سعد والبزار والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قالا قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يقضي الله تعالى عنهم يعني ديونهم يوم القيامة رجل خاف العدو على بيضة المسلمين وليس عنده قوة فادَّان ديناً فابتاع به سلاحاً وتقوى به في سبيل الله فمات قبل أن يقضيه هذا يقضي الله عنه، ورجل مات عنده أخوه المسلم فلم يجد ما يكفنه منه فاستقرض فاشترى به كفناً فمات وهو لا يقدر على قضائه فهذا يقضي الله عنه يوم القيامة، ورجل خاف على نفسه العنت فتعفف بنكاح امرأة فمات ولم يقض فإن الله يقضي عنه يوم القيامة»(٣) وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن قال قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى الخلائق يوم القيامة فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجمع تتاركوا المظالم بينكم وثوابكم على الله تعالى»(٤) ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ أي يبين لهم منازلهم في الجنة

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٩١، والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ٩٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ١١٧٣٤.

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة ١١/ ٦٤، والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ٨٤، ٨٥، والطبري في تفسيره ٤/ ٦٩، ٥/ ١٦٨.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٢٥٤.

(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٦، وابن حجر في المطالب العالية ٤٦٥٧.

حتى يهتدوا إلى مساكنهم من غير استدلال كأنهم سكانها منذ خلقوا فيكون المؤمن أهدى إلى منزله ودرجته وزوجته وخدمه منهم إلى منزله وأهله في الدنيا هذا قول أكثر المفسرين، عن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ يقول: «والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم»[١] رواه في حديث طويل ابن جرير في تفسيره والطبراني وأبو يعلى والبيهقي في البعث وغيرهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي تنصروا دينه ورسوله ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾ على عدوكم ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدة مع الكفار.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ مصدر لفعل واجب إضماره وتعساً أي فتعسوا تعساً والجملة خبر للموصول أو مفسر لناصبه، قال ابن عباس معناه بُعداً لهم، وقال أبو العالية سقوطاً لهم، وقال الضحاك خيبة لهم، وقال ابن زيد شتّاً لهم، قال الفراء نصب على المصدر على سبيل الدعاء، وقيل معناه في الدنيا العثرة وفي الآخرة التردي في النار ويقال للعاثر إذا لم يريدوا قيامه تعساً وضده لعا، وفي القاموس التعس الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ لأنها كانت في طاعة الشيطان عطف على ناصب تعساً ﴿ذَٰلِكَ﴾ التعس والإضلال ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني القرآن لما فيه من التوحيد والتكاليف المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ كرره إشعاراً بأن ذلك من لوازم الكفر.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ يعني أهل مكة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره ألم يخرجوا فلم يسيروا في الأرض ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ جواب للنفي أو معطوف عليه أي فلم ينظروا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ من الأمم المكذبة للرسل ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ﴾ أي استأصل ﴿عَلَيۡهِمۡۖ﴾ على أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم جملة مستأنفة ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ يعني أهل مكة وضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل علي كفرهم ﴿أَمۡثَٰلُهَا﴾ أي أمثال تلك العاقبة أو العقوبة أو الهلكة لأن التدمير يدل عليها ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر للمؤمنين والقهر على الكافرين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي وليهم وناصرهم فيؤيدهم ويوفقهم ويسدد أمرهم ويدفع عنهم خطرات الشيطان حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذين قدر عليهم الكفر وسلطان الشيطان ﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ بمتاع الدنيا أياماً قلائل ﴿وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ﴾ صفة لمصدر محذوف وما مصدرية أي أكلاً، كل ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ حريصين غافلين عن المنعم تاركين شكره غير خائفين عن العاقبة ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى﴾ أي منزل ومقام ﴿لَّهُمۡ﴾ الجملة حال من فاعل تأكلون ﴿وَكَأَيِّن﴾ أي كثير مبتدأ ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أي أهل قرية حذف المضاف وأجري على المضاف إليه أحكام المضاف فقال ﴿هِيَ أَشَدُّ

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

قُوَّةً﴾ صفة لقرية روعى لفظ القرية وأنّث الضمير ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي أخرجك أهلها أسند الإخراج إليهم باعتبار التسبيب فإن النبيّ ﷺ إنما خرج من مكة لأجل إيذاء أهلها، أخرج أبو يعلى وذكره البغوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لمَّا خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إليَّ ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك» فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ خبر مبتدأ روعي في الضمير فإن المراد من القرية أهلها ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ حكاية حال ماضية أي فلم يكن لهم حينئذ ناصر ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أيستوي المؤمن الذي الله مولاه والكافر الذي لا مولى له أصلاً فمن كان ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي على يقين مستندٍ إلى حجة من عند ربه أي إلى القرآن أو ما يعمه والحجج العقلية كالنبي ﷺ والمؤمنين ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ﴾ أي زين لهم الشيطان ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ فعبدوا الأوثان بلا شبهة لهم فضلاً عن حجة.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ
خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ
وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ
تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾
فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ
ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟
أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الضمير الراجع إلى الموصول محذوف أي وُعِد بها المتقون، مثل الجنة أي صفتها العجيبة مبتدأ محذوف الخبر تقديره يتلى عليكم فيما بعد وقيل خبره كَمَنْ هو خالدٌ في النار وتقدير الكلام أمثل أهل الجنَّة كمثل مَنْ هُوَ خالِدٌ في النار أو أمثل الجنة كمثل جزاء مَنْ هُوَ خَالِدٌ في النَّارِ فعري عن حرف الإنكار وحذف ما حذف استغناءً يجري مثله تصويراً لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع للهوى بمكابرة من يسوي بين الجنة والنار وقيل خبره ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾ صفة لأنهار ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الجملة إن لم يكن خبر المثل فهو إما استئناف لشرح المثل أو حال من العائد المحذوف أي مثل الجنة التي وعد بها المتقون كائنة فيها أنهار من ماء غير آسن، قرأ ابن كثير بالقصر والباقون بالمد وهما لغتان أي غير متغير طعمه ولا ريحه كما تتغير مياه الدنيا بطول المكث ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كما

يتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة وغيرها ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ﴾ أي لذيذة تأنيث لذّ أو مصدر نعت به بإضمار أي ذات لذة أو تجوز للمبالغة ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لا يكون فيها كراهة ريح ولا غائلة سكر وخمار بخلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل وغيرها.

عن معاوية بن حيدة قال سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم يشق الأنهار منها»(١) رواه الترمذي وصححه والبيهقي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من جبل مسك»(٢) رواه ابن حبان والحاكم والبيهقي والطبراني وابن أبي حاتم، وعن مسروق قال أنهار الجنة تجري من غير أخدود، رواه ابن المبارك والبيهقي، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض لا والله إنها سابحة على وجه الأرض حافتاه خيام اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر»(٣)، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «سيحان وجيحان والفرات والنيل كلها من أنهار الجنة»(٤) رواه مسلم، وعن عمرو بن عوف قال قال رسول الله ﷺ «أربعة أنهار الجنة النيل والفرات وسيحان وجيحان وأربعة جبال من جبال الجنة أحد والطور ولبنان ودرقان» (٥)(. . .)(٦).

وعن كعب الأحبار قال نهر النيل هو نهر العسل ونهر دجلة نهر اللبن ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة ونهر سيحان نهر الماء في الجنة، رواه البيهقي وذكر البغوي قول كعب نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ونهر الفرات نهر لبنهم ونهر مصر نهر خمرهم ونهر سيحان نهر عسلهم وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ صنف عطف على فيها أنهار، عن ابن عباس قال ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة ألا وهي في الجنة حتى الحنظل رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر في تفسيرهما، وعن ابن عباس قال ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ومسدد في مسنده وهناد في الزهد والبيهقي، وعن ثوبان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا ينزع رجل من أهل الجنة من ثمرها إلا أعيد في مكانها مثلها»(٧) ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فهو راضٍ عنهم أبداً مع إحسانه إليهم بما ذكر بخلاف السيد للعبد في الدنيا فإنه قد يسخط عليه عطف على الصنف المحذوف أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنة باب ٢٧، والدارمي في الرقاق باب ١١٢، وأحمد في المسند ٥/ ٥.
(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٣٢.
(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٨، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٠٥.
(٤) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٢٦، وأحمد في المسند ٢/ ٢٨٩، ٤٤٠.
(٥) أخرجه بنحوه المتقي الهندي في كنز العمال ٣٥٣٣٥، والطبراني في المعجم الكبير ١٧/ ١٨.
(٦) بياض في الأصل.
(٧) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٨، ٣/ ١٧.

مغفرة من ربهم ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ هذا على تقدير كون مثل الجنة مبتدأ محذوف الخبر أو كون خبره فيها أنهار خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد في تلك الجنة ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أو بدل من قوله ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ﴾ وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من زُيِّنَ سُوءُ عَمَلِهِ ممن هو على بينة من ربه في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ عطف على هو خالدٌ نظراً إلى لفظة من، وجمع سُقُوا نظراً إلى معناه ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ لشدة الحر فخرجت من أدبارهم.

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون عند النبيّ ﷺ فيستمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه ويستمع المنافقون ولا يعونه فإذا خرجوا سألوا المؤمنين ماذا قال آنفاً فنزلت ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ عطف على والذين كفروا يتمتعون وما بينهما معترضات وهم المنافقون يستمعون قول النبيّ ﷺ فلا يعونه ولا يفهمونه تهاوناً به وتغافلاً أو لما لا يعتقدونه حقّاً ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا﴾ إفراد ضمير يستمع نظراً إلى لفظة من وجمع ضمير خرجوا وقالوا نظراً إلى المعنى ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا﴾ أي ما الذي ﴿قَالَ﴾ محمد ﴿آنِفًا﴾ الساعة من قولهم أنف الشيء لما تقدم منه مستعار جارحة الأنف ومنه استأنف وائتنف وهو ظرف بمعنى وقتاً مؤتنفاً أو حال من الضمير في قال، قرأ ابن كثير في رواية بالقصر والباقون بالمد ومعناهما واحد قالوا ذلك استعلاماً أو استهزاءً ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلذلك تهاونوا بكلام الرسول ﷺ ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولذلك استهزؤوا به ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بكلام الرسول ﷺ وهم المؤمنون ﴿زَادَهُمْ﴾ الله بكل كلام من الرسول ﷺ ﴿هُدًى﴾ علماً وبصيرة وشرح صدر ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي وفقهم للعمل بما أمروا به أو بين لهم ما يتقون به من النار، قال سعيد بن جبير أتاهم ثواب تقواهم.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون يعني كفار مكة ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بدل اشتمال من الساعة والاستفهام للإنكار والمعنى أن الساعة آتية بغتة لا محالة فهم لا ينتظرون إلا الساعة، والجملة الاستفهامية جزاء شرط محذوف تقديره إن لم يتوبوا ولم يتسارعوا في الطاعة فلا ينتظرون للتوبة والطاعة إلا وقت إتيان الساعة وحينئذ لا ينفعهم التوبة ولا يستطيعون الطاعة، عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ما ينتظر أحدكم إلا غنى مطغياً أو فقراً منسيّاً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال والدجال شر غائب منتظر أو الساعة والساعة أدهى وَأَمَرُّ»(١) (. . .)(٢) ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تعليل على إتيان الساعة أي أماراتها وعلاماتها منها شق القمر قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] ومنها الدخان ومنها مبعث النبيّ ﷺ، روى مسلم وابن ماجه عن سهل بن سعد قال: «رأيتُ النبيّ ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام «بعثتُ أنا والساعة

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/٢٥٢، والبغوي في تفسيره ٦/١٧٨.
(٢) بياض في الأصل.

كهاتين»[١] وروى أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه عن أنس نحوه، وعن أنس قال لأحدثنكم بحديث سمعتُه من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أشراط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الزنى ويكثر شرب الخمر ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد»[٢] وفي رواية «يقل العلم ويظهر الجهل»[٣] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال: «بينما النبيّ ﷺ يحدث إذ جاء أعرابي فقال متى الساعة؟ قال «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة»، قال كيف إضاعتها؟ قال إذا وُسّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[٤] رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا اتخذ الفيء دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وتعلم لغير الدين وأطاع الرجل امرأته وعق أمه وأدنى صديقه وأقصى أباه وظهرت الأصوات في المساجد وساد القوم فاسقهم وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور ولعن آخر هذه الأمة أولها فارتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلةً وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات تتابع كنظام قطع سلكه فتتابع»[٥] رواه الترمذي، وعن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بهم البلاء - وعد هذه الخصال - ولم يذكر ويعلم العلم لغير الدين وقال «وبرَّ صديقه وجفا أباه» وقال «شرب الخمر ولبس الحرير»[٦] رواه الترمذي وهذه الجملة كالعلة لإتيانها بغتةً ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ الساعة ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ الفاء جزائية لشرط محذوف والمعنى أن تأتيهم الساعة بغتة فكيف يكون لهم ذكرهم أي وقت مجيئها كيف يتذكرون إذ حينئذ لا ينفعهم الذكر.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا[٧] ٱللَّهُ﴾ الفاء للسببية أي إذا علمتَ سعادة المؤمنين

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٩، والطلاق باب ٢٥، وتفسير سورة ٧٩، باب ١، ومسلم في الجمعة حديث ٤٣، والفتن حديث ١٣٢ ـ ١٣٥.

(٢) انظر الحاشية التالية.

(٣) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الفتن باب ٥، والعلم باب ٢١، ٢٤، والنكاح باب ١١٠، والأشربة باب ١، والحدود باب ٢٠، ومسلم في العلم حديث ٨، ٩، ١٠.

(٤) أخرجه البخاري في العلم باب ٢.

(٥) أخرجه الترمذي في الفتن باب ٣٨.

(٦) أخرجه الترمذي في الفتن باب ٣٨، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٤٥١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٠٨٦٦.

(٧) عن أبي بكر الصديق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عليكم بلا اله إلا الله والاستغفار فأكثروا منها فإن إبليس قال أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء وهم يحسبون أنهم مهتدون - وعن يحيى بن طلحة بن عبيد الله أن عمر رأى طلحة حزيناً فقال له مالك قال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا نفس الله عنه كربه وأشرق لونه وأتى ما يسره وما منعني أن أسأله عنها إلا القدرة عليه حتى مات فقال عمر إني لأعلمها قال لا تعلم كلمة هي أعظم من كلمة أمر بها عبد لا إله إلا الله قال =

وشقاوة الكافرين فاثبت أنتَ يا محمد على ما أنتَ عليه من العلم بالوحدانية وتكميل النفس بإصلاح أحوالها وأفعالها النافع يوم القيامة ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ هضماً لنفسك وإظهاراً للتقصير في العبادة بالنسبة إلى جلال ربك وعظمته وليستن به أمتك وقد فعله ﷺ حيث قال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[(١)] رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي من حديث الأغر المزني، قلتُ: لعل غين القلب كناية عمّا يرى الصوفي في نفسه من ظلمات الإمكان بعدها يسند كمالاته إلى جناب الرحمن، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه معرفة الله تعالى حرام على من لم ير نفسه شرّاً من الكافر الفرنجي قيل عليه كيف يتصور ذلك مع ما يرى نفسه مؤمناً حقّاً لا أقل منه ويرى الكافر كافراً لا محالة ومعرفة فضل الإيمان على الكفر من ضروريات الدين، أجاب عنه بأن كل ممكن موجود فهي لا تخلو عن ظلمة الإمكان ونور الوجود المستعار من الرحمن فالعارف بالله يرى في نفسه غالباً جانب العدم والإمكان وما فيه من الوجود واتباعه من الكمالات يجده مستعاراً من الملك المنان امتثالاً لأمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] ويرى في من سواه غالباً جانب الوجود المستفاد من الرحمن فلا جرم يرى نفسه شرّاً من كل من سواه وهذه المعرفة لا تزاحم معرفة فضل الإيمان على الكفر باختلاف الألحاظ والحيثيات وسعة العلم والإدراكات بخلاف الغافل يرى وجوده وكمالاته مستنداً إلى نفسه وينادي أنا خير منه ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ أي استغفر لذنوبهم بالدعاء لهم والتحريض على ما يستدعي لغفرانهم وفي إعادة الجار وحذف المضاف إشعار لفرط احتياجهم وكثرة ذنوبهم وأنها جنس آخر، قال البغوي هذا إكرام من الله تعالى لهذه الأمة حيث أمر نبيهم ﷺ أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ قال ابن عباس متقلبكم مصرفكم ومنتشركم في أعمالكم في الدنيا ومثواكم مصيركم في الآخرة إلى الجنة أو النار، وقال مقاتل وابن جرير منصرفكم لاشتغالكم بالنهار ومثواكم مأواكم إلى مضاجعكم بالليل، وقال عكرمة متقلبكم من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم مقامكم في الأرض، وقال ابن كيسان متقلبكم من ظهر إلى بطن ومثواكم مقامكم في القبور والمعنى أنه عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها فاحذروه والخطاب للمؤمنين وغيرهم.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حرصاً منهم على الجهاد ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ تأمرنا بالجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي أمر بالجهاد قيل معنى محكمة مبينة لا يحتمل وجهاً إلا وجوب القتال، وقال قتادة كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة لأن وجوب

= فهي والله هي وعن عثمان بن عفان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات وهو يعلم ان لا إله إلا الله دخل الجنة ـ منه نوّر الله مرقده ـ ١٢ ـ.

(١) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٤١، وأبو داود في الوتر باب ٢٦، والترمذي في تفسير سورة ٤٧، باب ١، وابن ماجه في الأدب باب ٥٧، والدارمي في الرقاق باب ١٥.

القتال نَسَخَ ما كان قبل ذلك من الصلح والمهادنة ولا يرد عليه النسخ وهو ماض إلى يوم القيامة وكل سورة ذكر فيها القتال كانت هي أشد القرآن على المنافقين ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي ضعف وجبن ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ جبناً ومخافة ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي خير لهم ﴿طَاعَةٌ﴾ أي طاعة الله ورسوله في الجهاد ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي قول سمعنا وأطعنا ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي جد الأمر أي جد أصحاب الأمر على القتال فالإسناد إليه مجاز أو المعنى لزم وفرض القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وجملة لو صدقوا جزاء شرط، وقيل جزاء الشرط محذوف وهذه مستأنفة تقديره فإذا عزم الأمر لم يصدقوا الله ولو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب أي فهل يتوقع منكم أيها أصحاب الجبن ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن متابعة الرسول شرط مستغن عن الجزاء لوقوعه في جملة تدل على الجزاء ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي لأجل مخالفة الرسول ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ أي تخالفوا أقرباءكم المؤمنين المجاهدين في سبيل الله، وأن مع جملته فاعل لعسيتم والاستفهام للإنكار، يعني لا تكونوا بحيث يتوقع منكم الفساد في الأرض بالكفر والمعاصي وقطع الأرحام(١).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني المفسدين في الأرض والقاطعين الأرحام مبتدأ خبره ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي بعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن ملاحظته هذه الجملة في مقام التعليل للإنكار في قوله ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وقيل المراد بالذين في قلوبهم مرض المنافقون والمرض الشك والنفاق وقوله ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي فويل شديد لهم أفعل من الويل أو من الولي بمعنى القرب أو فعلى من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه أو يؤول إليه أمرهم، وطاعة وقول معروف مبتدأ محذوف الخبر أي وطاعة وقول معروف خير لهم أو حكاية عن قولهم أي يقولون طاعة أي أمرنا طاعة وقول معروف فلو صدقوا الله فيما قالوا إن أمرنا طاعة لكان خيراً لهم لكنهم كذبوا فهل عسيتم إن توليتم أمر الناس يعني تأمرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض بالظلم، نزلت في بني أمية وبني هاشم تدل عليه قراءة علي بن أبي طالب إن توليتم بضم التاء والواو على البناء للمفعول أي إن وليتم ولاة جائرةً خرجتم معهم في الفتنة وعاديتموهم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، قال ابن الجوزي أنه روى القاضي أبو يعلى في كتابه المعتمد الأصول بسنده عن صالح بن

---

(١) عن بريدة قال كنت جالساً عند عمر إذ سمع صائحاً فقال يا يرفأ انظر ما هذا الصوت فنظر ثم جاء فقال جارية من قريش تباع أمها فقال عمر ادع المهاجرين والأنصار فلم يمكث إلا ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة فحمد الله وأثنى عليه فقال أما بعد فهل تعلمون كان فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم القطيعة قالوا لا قال فإنها قد أصبحت فيكم ناشبة ثم قرأ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ثم قال وأي قطيعة أقطع من ابتياع أم امرء فيكم وقد أوسع الله لكم قالوا فاصنع ما بدا لك ـ فكتب في الآفاق أن لا يبتاع أم حر فإنها قطيعة رحم وأنه لا يحل ـ منه برّد الله مضجعه ـ ١٢ـ.

أحمد بن حنبل أنه قال قلتُ لأبي يا أبت يزعم بعض الناس أنا نحب يزيد بن معاوية فقال أحمد يا بني هل يسوغ لمن يؤمن بالله أن يحب يزيد ولم لا يلعن رجل لعنه الله في كتابه، قلتُ يا أبت أين لعن الله يزيد في كتابه قال حيث قال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي لا يتصفحونه ما فيه من المواعظ والزواجر فيتضح لهم الحق، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أيغفلون فلا يتدبرون القرآن ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ إقفال القلوب استعارة بالكناية شبه القلوب بالخزائن وأثبت لها ما يناسب الخزائن من الأقفال على وجه التخييل وأضاف الإقفال إلى القلوب للدلالة على أنها أقفال مناسبة لها مختصة بها لا تجانس الأقفال المعهودة وهذا الكلام كناية عن عدم الاستعداد ونفي قابلية القلوب للاتعاظ بالكلية فلا يفهمون مواعظ القرآن وإن تدبروا فرضاً، وتنكير قلوب لأن المراد قلوب بعض منهم أو للإشعار بأنها لإبهام أمرها في القساوة أو لفرط جهالتها كأنها مبهم مكنوزة، روى البغوي عن هشام بن عروة عن أبيه قال تلا رسول الله ﷺ «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» فقال شاب من أهل اليمن بل على قُلُوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها فما زال الشابُّ في نفس عمر حتى ولى فاستعان[1] به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ
﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ
﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ
اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ
أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ
﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ
اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ
مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ
أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾
إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا
يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾

---

(١) وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها فقال شاب عند النبي صلى الله عليه وسلم بلى والله عليها أقفالها حتى يكون الله هو يفكها فلما ولى عمر سأل عن ذلك الشاب ليستعمله فقيل قد مات ـ ١٢ ـ منه برّد الله مضجعه ـ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي على ما كانوا عليه من الكفر ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ قال عروة هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد ﷺ بعد ما عرفوه ووجدوا نعته في التوراة وقال ابن عباس والضحاك والسديُّ هم المنافقون ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي سهَّل لهم اقتراف الكبائر من السوال وهو الاسترخاء، وقيل حملهم على الشهوات من السول وهو التمني ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ قرأ أهل البصرة بضم الألف وكسر اللام وفتح الياء[1] على ما لم يسم فاعله من الماضي، وقرأ مجاهد بإسكان الياء على صيغة المضارع المتكلم من الافعال ورويت هذه القراءة عن يعقوب والمعنى وأنا أملي لهم أي امهلهم والواو للحال أو الاستئناف والباقون بفتح الألف أي أملى الشيطان يعني مدلهم في الآمال والأماني وجملة إنَّ الذين ارتدوا مستأنفة في جواب ما سبب ذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تسويل الشيطان وإمهال الله سبحانه ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي قال اليهود الذين كفروا بالنبي ﷺ بعدما تبين لهم نعته من التوراة للمنافقين أو قال المنافقون لهم أو أحد الفريقين للمشركين ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي في بعض أموركم أو في بعض ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد أو الموافقة لهم في الخروج معهم أن اخرجوا أو على التعاون على عداوة محمد ﷺ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ حال من فاعل قالوا، قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بكسر الهمزة على المصدر والباقون بفتحها على أنه جمع السر ومن إسرارهم قولهم لهذا الذي أفشاه ﴿فَكَيْفَ﴾ الفاء للسببية والاستفهام للتعجيب ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ﴾ الظرف متعلق بفعل محذوف تقديره فكيف يحتالون إذا توفتهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ حال من الملائكة ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ بمقامع من حديد ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفي على هذا التوجه ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ قال ابن عباس بما كتموا من التوراة وكفروا بمحمد ﷺ ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي ما يرضاه من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لذلك.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي نفاق، أم منقطعة بمعنى بل والهمزة والكلام متصل بقوله الشيطان سول لهم أو بقوله أم على قلوب أقفالها ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أي لن يظهر الله لرسوله والمؤمنين أحقادهم عليهم، أم منقطعة للإضراب عما سبق والاستفهام للإنكار على حسبانهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي لأعلمناكهم وأعرفناكهم جملة معترضة أو حال بتقدير ونحن لو نشاء لأريناكهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ بإعلامنا ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي بعلاماتهم التي نسمهم بها واللام لام الجواب كررت في المعطوف، قال البغوي قال أنس فما خفي على رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ جواب قسم محذوف ولحن القول إزالة الكلام عن جهته إلى تعريض وتورية والمعنى أنك تعرفهم فيما يعرضون من تهجين أمرك وأمر المسلمين والاستهزاء بهم والذم بصورة المدح، قال البغوي فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبيّ ﷺ إلا عرفه بقوله

---

(١) ويعقوب بإسكان الياء.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ الحسنة من القبيحة فإن حسن الأعمال وقبحها فيما سوى ما فيه قبح ذاتي كالكفر والزنى يتعلق بالنيات ولا يعلمها إلا الله فيجازيكم على حسب قصدكم ونيتكم ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ بأن نأمركم بالجهاد وجواب قسم محذوف ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ علماً بعد الوجود كما كنا نعلم قبل الوجود بأنه سيكون أو المعنى حتى نُميّز أو المعنى حتى يعلم أولياؤنا ﴿ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاق الجهاد ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها أو قبحها أو إخباركم عن إيمانكم وموالاتكم المؤمنين في صدقها وكذبها، قرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الله تعالى فيوافق قوله تعالى الله يعلم والباقون بالنون على التكلم ونبلوا[1] بسكون الواو على تقدير ونحن نبلوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي منعوا الناس عن الإيمان وإتباع الرسول ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي خالفوه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ هم قريظة والنضير والمطعمون يوم بدر كانوا اثنا عشر رجلاً من كفار مكة يطعمون عسكر الكفار في يوم نوبته ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من المضرة إنما يضرون أنفسهم ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فلا يجدون عليها ثواباً في الآخرة ولا يترتب عليه منفعة في الدنيا، قال ابن عباس هم المطعمون يوم بدر نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾ قال ابن عباس وعطاء: لا تبطلوها بالشك والنفاق أو العجب، وقال الكلبي بالرياء والسمعة، وقال الحسن بالمعاصي والكبائر، وأخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن أبي العالية قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضرُّ مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت هذه الآية فخافوا أن يبطل العمل بالذنب وكذا ذكر البغوي عنه، وقال مقاتل لا تمنوا على رسول الله بإسلامكم فتبطل أعمالكم.

مسألة: من شرع في صلاة أو صوم أو حج أو عمرة أو غير ذلك تطوعاً يجب عليه الإتمام ولا يجوز له الإفساد في ظاهر الرواية عن أبي حنيفة إلا بعذر كذا ذكر صاحب الهداية والقدوري وغيرهما، وهل الضيافة عذر لإفطار الصوم تطوعاً قيل نعم وقيل لا وقيل عذر قبل الزوال لا بعده إلا إذا كان في عدم الفطر عقوق الوالدين، فإن أفسد الصلاة أو الصوم بعد الشروع تطوعاً يجب عليه القضاء عند أبي حنيفة وعند مالك وفي رواية المنتقى عن أبي حنيفة يباح للمتطوع بالصوم الإفطار بغير عذر ويجب عليه القضاء، وقال الشافعي وأحمد يجب في العمرة والحج الإتمام والقضاء إن أفسد بخلاف الصلاة والصوم وغيرهما من النوافل فإنه يستحب عندهما الإتمام وله قطعهما ولا قضاء عليه. لنا هذه الآية فإنها وإن كانت واردة في

(١) وقع التسامح في العبادة هٰهنا والغرض أنه قرأ رويس ونبلو بإسكان الواو والباقون بالفتح ـ أبو محمد عفا الله عنه ـ.

النهي عن إبطال العمل بالشك والنفاق أو بالمعاصي أو بالرياء والسُّمعة والعُجب لكنها بصيغتها يعم الإبطال، قبل إتمامها بالإفساد لأن القدر المؤدي قربةٌ وعملٌ وكذا بعده بفعل ما يحبطه من الكبائر أو الرياء والسمعة أو العجب، ولنا أيضاً الأحاديث منها حديث عروة عن عائشة قالت أهديت لحفصة شاة ونحن صائمتان فأفطرتني فلمَّا دخل علينا رسول الله ﷺ ذكرنا ذلك له فقال: «أبدلا مكانه»[1] رواه أحمد من طريق سفيان بن حسين عن عروة عن عائشة والترمذي من طريق جعفر بن برقان عن عروة عنها بلفظ قالت كنتُ وحفصة صائمتين فعرض لنا طعام اشتهيناه فأكلنا منه فجاء رسول الله ﷺ فبدرتني إليه حفصة فقالت يا رسول الله إنا كنا صائمتين فعرض طعام اشتهيناه فأكلنا منه قال «اقضيا يوماً آخر مكانه»[2] وكذا أخرج أبو داود والنسائي عن زميل عن عروة عنها وأعله البخاري بأنه لا يعرف لزميل سماع من عروة ولا ليزيد سماع من زميل[3]، وقال الترمذي روى هذا الحديث صالح بن أبي الأخضر ومحمد بن علي بن أبي حفصة عن الزهري عن عروة عن عائشة، وروى مالك بن أنس ومعمر وعبيد الله بن عمرو وزياد بن سعد وغير واحد من الحفاظ عن الزهري عن عائشة مرسلاً ولم يذكروا فيه عروة وهذا أصح لأنه روي عن ابن جريج قال سألتُ الزهري أحدَّثك عروة عن عائشة قال لم أسمع من عروة في هذا شيئاً ولكن سمعنا في خلافة سليمان بن عبد الملك من ناس عن بعض من سأل عائشة عن هذا الحديث انتهى.

قال ابن همام قول البخاري مبني على اشتراط العلم بذلك والمختار الاكتفاء بالعلم بالمعاصرة ولو سلم إعلاله وإعلال الترمذي فهو قاصر على هذا الطريق فإنما يلزم لو لم يكن له طريق آخر لكن رواه ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة قالت أصبحتُ أنا وحفصة صائمتين متطوعتين الحديث، ورواه ابن أبي شيبة من طريق آخر غيرهما عن خصيف عن سعيد بن جبير أن عائشة وحفصة الحديث ورواه الطبراني في معجمه من حديث خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أن عائشة وحفصة كانتا صائمتين الحديث، ورواه البزار من طريق آخر عن الحماد بن وليد عن عبيد الله بن عمرو عن نافع عن ابن عمر قال أصبحت عائشة وحفصة صائمتين الحديث، لكن الحماد بن الوليد ضعيف وأخرج الطبراني من غير الكل في الأوسط حدثنا موسى بن هارون حدثنا محمد بن مهران الجمال قال ذكره محمد بن أبي سلمة المكي عن محمد بن عمرويه عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال أهديت لعائشة وحفصة هدية وهما صائمتان فأكلتا منها فذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اقضيا يوماً مكانه ولا تعودا» قال ابن همام فثبت هذا الحديث ثبوتاً لا مرد له ولو كان كل طريق من هذه الطرق ضعيفاً لتعددها وكثرة مجيئها كيف وبعض

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٢٣٨.

(٢) أخرجه الترمذي حديث ٧٣٥، وأحمد في المسند ٦/ ٢٦٣.

(٣) وفي الأصل ولا ليزيد سماع من عروة.

طرقه مما يحتج به، قلتُ: والمرسل عندنا حجة وما قال ابن الجوزي إن الأمر بالإبدال يوماً مكانه محمول على الاستحباب خروج عن مقتضاه بغير موجب بل هو محفوف مما يوجب مقتضاه ويؤكده وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فإن قيل كيف يقال هذه الآية مؤكدة لهذا الحديث مع أن المخالفة ظاهرة فإن الآية تدل على منع الإفطار بعد الشروع ولا دلالة فيها على وجوب القضاء والحديث يدل على جواز الإفطار مع وجوب القضاء، قلنا دلالة الآية على منع الإفطار دلالة على وجوب القضاء فإن منع الإبطال عبارة عن وجوب الإتمام ووجوب الشيء يقتضي وجوب قضائه بالمثل المعقول عند الفوات إن كان له مثل وليس في الحديث دلالة على جواز الإفطار بل على وجوب القضاء فقط ووجوب القضاء يترتب على وجوب الإتمام وحرمة الإفطار وقوله ﷺ «لا تعودا» صريح في حرمة الإفطار وهذا هو ظاهر الرواية عن أبي حنيفة رحمه الله.

وفي الباب أحاديث أخر منها ما رواه الدارقطني عن طلحة بن يحيى عن عمته عائشة عن عائشة أم المؤمنين قالت دخل علينا رسول الله ﷺ فقال إني أريد الصوم وأهدي له حيس فقال: «إني آكل وأصوم يوماً مكانه»[١]، قال الدارقطني لم يرد هذا اللفظ عن ابن عيينة غير محمد بن عمرو أبو العباس الباهلي ولم يتابع على قوله وأصوم يوماً مكانه ولعله شبه عليه، قال الحافظ لكن رواه النسائي عن محمد بن منصور عن ابن عيينة وكذا رواه الشافعي عن ابن عيينة وذكر أن ابن عيينة زادها قبل موته بسنة انتهى، قال الحافظ ابن حجر ابن عيينة كان في الآخر قد تغيّر ومنها. ما رواه الدارقطني بسنده عن محمد بن أبي حميد عن إبراهيم بن عبيد قال صنع أبو سعيد الخدري طعاماً فدعا النبيّ ﷺ وأصحابه فقال رجل من القوم إني صائم فقال رسول الله ﷺ «صنع لك أخوك أفطر وصم يوماً مكانه»[٢] قال الدارقطني هذا مرسل وقال ابن الجوزي محمد بن أبي حميد ليس بشيء وقال النسائي ليس بثقة وقال ابن حبان لا يحتج به. ومنها ما رواه الدارقطني عن جابر بن عبد الله قال صنع رجل من أصحاب رسول الله ﷺ طعاماً فدعا النبيّ ﷺ وأصحابه فلمّا أتى الطعام تنحى أحدهم فقال له النبيّ ﷺ «تكلف لك أخوك وصنع ثم تقول إني صائم كل وصم يوماً مكانه»[٣] فيه عمر بن حليف قال ابن عدي كان متهماً بوضع الحديث وكذا قال ابن حبان، ومنها ما رواه الدارقطني من حديث ثوبان قال كان رسول الله ﷺ صائماً في غير رمضان فأصابه غم أذاه فتقيأ فقاء فدعا بوضوء فتوضأ ثم أفطر فقلتُ يا رسول الله أفريضة الوضوء من القيء؟ قال «لو كان فريضة لوجدته في القرآن»، قال ثم صام الغد فسمعتُه يقول: «هذا مكان إفطاري أمس»[٤] فيه عتبة بن السكن قال

(١) أخرجه الدارقطني في سننه ٢/ ١٧٧.
(٢) أخرجه الدارقطني في سننه ٢/ ١٧٧.
(٣) أخرجه الدارقطني في سننه ٢/ ١٧٨.
(٤) أخرجه الدارقطني في سننه ١/ ١٥٩.

الدارقطني متروك الحديث، ومنها ما رواه الدارقطني بسنده عن محمد بن أبي حميد عن الضحاك بن حمزة عن منصور عن أم سلمة أنها صامت يوماً تطوعاً فأفطرت فأمرها رسول الله ﷺ أن تقضي يوماً مكانه[١]، قال يحيى الضحاك ليس بشيء وقال أبو زرعة محمد بن حميد كذاب.

احتج الشافعي وأحمد بأحاديث الأول: حديث جويرية أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة فقال لها «أصمتِ أمس؟» قالت لا، قال «أتصومين غداً؟ قالت لا، قال: «فأفطري»[٢] رواه البخاري، وروى أحمد عن أبي عمر أن رسول الله ﷺ دخل على جويرية فذكر الحديث نحوه. الثاني حديث عائشة أن النبيّ ﷺ كان يأتيها فيقول «أصبح عندكم شيء تطعمونيه؟» فنقول لا ما أصبح عندنا شيء فيقول «إني صائم» ثم جاءها بعد ذلك فقالت أهديت لنا هدية فخبأنا لك فقال «ما هي؟» قالت حيس، قال: «قد أصبحتُ صائماً»[٣] فأكل رواه مسلم، ورواه الدارقطني والبيهقي بلفظ أنه دخل عليها فقال «هل عندكم شيء؟» قلتُ لا، قال «فإني إذاً صائم»، قالت ودخل عليَّ يوماً آخر فقال «أعندكم شيء» قلتُ نعم، قال: «إذن أفطر وإن كنتُ قد فرضتُ الصوم»[٤] الثالث حديث أم سليم أن النبيّ ﷺ كان يصبح الليل وهو يريد الصوم فيقول أعندكم شيء أتاكم شيء قالت فنقول أو لم تصبح صائماً؟ فيقول: «بلى ولكن لا بأس أن أفطر ما لم يكن نذراً أو قضاء رمضان»[٥] رواه الدارقطني وفي سنده محمد بن عبيد الله العَرزمي ضعيف، الرابع حديث أبي جحيفة قال آخى النبيّ ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مبتذلة فقال لها ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا فجاء أبو الدرداء وصنع له طعاماً فقال كل فقال إني صائم، فقال أما إني لا آكل حتى تأكل فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال نم فنام ثم ذهب يقوم قال نم فلما كان آخر الليل قال سلمان قم الآن، فصليا فقال له سلمان إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقّاً ولأهلك عليك حقّاً فأعط كل ذي حق حقه فأتى النبيّ ﷺ فذكر له ذلك فقال النبيّ ﷺ «صدق سلمان»[٦] قلتُ هذه الأحاديث لا تدل إلا على جواز الإفطار للصائم وأما على عدم وجوب القضاء فلا وحديث جويرية إنما يدل على كراهة الإفراد بصوم الجمعة كما ورد في حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «لا تصوم الجمعة إلا وقبله يوم أو بعده يوم»[٧] متفق

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه ٢/١٧٦.
(٢) أخرجه البخاري في الصوم باب ٦٣.
(٣) أخرجه مسلم في الصيام حديث ١٦٩، ١٧٠.
(٤) أخرجه الدارقطني في سننه ٢/١٧٥.
(٥) أخرجه الدارقطني في سننه ٢/١٧٦.
(٦) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٢/٣٠٩.
(٧) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٩٥.

عليه، وفي لفظ نهى رسول الله ﷺ أن يفرد يوم الجمعة بصوم[١] رواه مسلم.

وللشافعي أحاديث أخر ضعاف: منها حديث أم هانيء وله طرق وألفاظ منها مارواه النسائي من حديث حماد بن سلمة عن سماك بن حرب عن هارون ابن أم هانيء عنها أن رسول الله ﷺ شرب شراباً فناولها لتشرب فقالت: إني صائمة لكن كرهتُ أن أرد سؤرك، فقال «إن كان قضاء من رمضان فاقضي يوماً مكانه وإن كان تطوعاً فإن شئتِ تقضي وإن شئت فلا تقضي»[٢]، وروى أحمد والترمذي وغيرهما من طرق عن سماك عن هارون عنها بلفظ كنتُ قاعدة عند رسول الله ﷺ فأتي بشراب فشرب منه ثم ناولني فشربتُ منه فقلتُ أذنبتُ قال «ما ذاك؟» قلتُ كنتُ صائمة فأفطرت، قال «أمن قضاء كنتِ تقضيه؟» قلتُ لا، قال «فلا تضرك»[٣]، وسماك بن حرب ليس بمعتمد عليه إذا انفرد كذا قال النسائي وقال البيهقي في إسناده مقال وقال ابن القطان هارون مجهول لا يعرف، قلتُ: وهارون قيل ابن أم هانيء وقيل ابن ابنه وقيل ابن بنته ولفظ أحمد والترمذي لا يدل على عدم وجوب القضاء، وروى أبو داود والدارمي وغيرهما من حديث جرير عن يزيد بن زياد عن عبد الله بن الحارث عن أم هانيء قالت لما كان يوم الفتح فتح مكة جاءت فاطمة فجلست عن يسار رسول الله ﷺ وأم هانيء عن يمينه، قالت فجاءت وليدة بإناء فيه شراب فناولته فشربتُ منه فقالتُ يا رسول الله ﷺ أفطرتُ وكنتُ صائمة، فقال لها «أكنتِ تقضين شيئاً؟» قالت لا، قال: «لا يضركِ إن كان تطوعاً»[٤] ورواه أحمد ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن حجة عن أم هانيء وهي جدته أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوم الفتح فأتي بإناء فشرب ثم ناولني فقلتُ: إني صائمة فقال: «إن المتطوع أمير نفسه فإن شئتِ فصومي وإن شئتِ فأفطري»[٥] ورواه من حديث أبي داود الطيالسي ثنا شعبة عن جعدة عن أبي صالح عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها فشرب ثم ناولها فشربت وقالت يا رسول الله إني كنتُ صائمة فقال رسول الله ﷺ «الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر»[٦] قال الذهبي جعدة عن أبي صالح لا يعرف وقال البخاري فيه نظر وذكر يوم الفتح علة أخرى للقدح في الحديث إذ لا شك أن يوم الفتح كان في رمضان فكيف يتصور قضاء رمضان في رمضان ولا التطوع فيه.

واختار ابن همام رواية المنتقى عن أبي حنيفة فقال يجوز للمتطوع في الصوم الإفطار بلا عذر لما احتج به الشافعي ويجب عليه القضاء بالإفساد لما احتج به أبو حنيفة جمعاً بين الأحاديث، وقال المراد بالإبطال في قوله تعالى ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ إخراجها من أن يترتب

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٩٤.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٣٤٣، ٤٢٤.
(٣) أخرجه الترمذي في الصوم باب ٣٤.
(٤) أخرجه أبو داود في الصوم باب ٧٢، والدارمي في الصوم باب ٣٠، وأحمد في المسند ٦/ ٤٢٤.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٣٤٣.
(٦) أخرجه الترمذي حديث ٧٣٢، وأحمد في المسند ٦/ ٣٤١.

عليه فائدة وجعلها كأنها لم توجد أصلاً وأما الإبطال بقصد القضاء فلا دلالة للآية على منعه، قلتُ المصدر في قوله تعالى ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟﴾ منكر تحت النفي فيشتمل كل إبطال ومن أفسد صلاته أو صومه بعد الشروع فلا شك أنه أبطل هذا العمل وأما القضاء فعمل آخر تدارك لهذا العمل فلا يجوز الإبطال بلا عذر بهذه الآية والأحاديث وإن دلت على جواز الإفطار لكن عند التعارض يجب تقديم الآية على أحاديث الآحاد لاسيما الآية محرمة والأحاديث مبيحة للفطر فيجب تقديم المحرم على المبيح احتياطاً، ولنا أيضاً القياس على الحج والعمرة النافلتين فإنه لا يجوز إفسادهما ويجب فيهما القضاء بالإفساد إجماعاً والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾ هذه الجملة متصلة بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية فيما سبق قبل هذه الآية نزلت في أصحاب القليب وحكمه عام في كل من مات على كفره.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ قرأ أبو بكر وحمزة بكسر السين والباقون بفتحها وتدعوا مجزوم بتقدير لا أي لا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء أو منصوب بتقدير أن في جواب لا تهنوا نهى الله سبحانه عن طلب الصلح ابتداءً لأنه دليل الجبن والضعف ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي الغالبون القاهرون بنصر الله تعالى الموعود للمؤمنين الصالحين حال من فاعل تدعوا ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معية بلا كيف فإن الإيمان يقتضي حب الله والمرء مع من أحب والواو للعطف فهو حال من فاعل تدعوا أو للحال من فاعل أعلون وكذا قوله ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم من وتره يتره إذا نقص حقه، قال ابن عباس ومقاتل وقتادة والضحاك لن يظلمكم أعمالكم الصالحة أي لا يبطلها.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي باطل لا يترتب عليها فائدة معتدة بها ما لم يكن فيها ذكر الله قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله»(١) ﴿وَلَهْوٌ﴾ يشغلكم عمّا يفيدكم في الحياة الدائمة ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ بالله ورسوله في الدنيا ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ عذاب الله بامتثال أوامره والانتهاء عن مناهيه ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي ثواب إيمانكم وتقواكم في الآخرة فحينئذ تكون حياتكم الدنيا مزرعة الآخرة ولا يكون لعباً ولهواً ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ فإنه غير محتاج إلى شيء إنما يأمركم بالطاعة والإيمان ليثيبكم عليها الجنة نظيره قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٧] وقيل معناه لا يسألكم الله ورسوله أموالكم كلها في الصدقات إنما يسألكم جزءاً يسيراً وهو ربع العشر أو أقل كشاة من مائة وعشرين شاة من نماء مال فطيبوا بها نفساً، وإلى هذا القول ذهب ابن عيينة ويدل عليه سياق الآية فهذه الجملة لدفع توهم نشأ ممّا ذكر من ذم الحياة الدنيا ومدح الإيمان والتقوى فإنه يوهم أن الله تعالى يأمر بصرف جميع متاع الدنيا في سبيل الله ولدفع ذلك الوهم قال ولا يسألكم أموالكم أي جميعها، ثم ذكر في مقام تعليل

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ١٤، وابن ماجه في الزهد باب ٣، والدارمي في المقدمة باب ٣٢.

عدم السؤال بالكل قوله ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي جميعاً ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي يجهدكم بطلب الكل والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في الحديث «أحفوا الشوارب»[١] أي استأصلوها في القطع عطف على الشرط ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ بها فلا تعطوها جزاء للشرط ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي يظهر بغضكم والضمير في يخرج لله تعالى ويؤيده القراءة بالنون أو للبخل فإنه سبب الأضغان، قال قتادة علم الله أن في مسألة الأموال خروج الأضغان.

﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ ها حرف تنبيه وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره أو هؤلاء منادى بحذف حرف النداء وخبر المبتدأ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أو هؤلاء اسم موصول وتدعون صلته والموصول مع الصلة خير لأنتم ﴿لِتُنفِقُوا۟﴾ ما فرض الله عليكم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي ناس يبخلون بما فرض الله عليهم من الزكاة وغيرها ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فإن نفع الإنفاق وضرر البخل إنما يعودان إليه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا يا رسول الله ما منّا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر»[٢] رواه البخاري والنسائي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللّهم أعط ممسكاً تلفاً»[٣] متفق عليه، وعن أسماء قالت قال رسول الله ﷺ: «أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك ولا توعي فيوعي الله عليك فارضخي ما استطعت»[٤] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى «أنفق يا ابن آدم أنفقُ عليك»[٥] متفق عليه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن صدقاتكم وطاعاتكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ فإنما أمركم بما أمركم لاحتياجكم في الدنيا والآخرة، جملة والله الغني وأنتم الفقراء في مقام التعليل للحصر في قوله إِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نفسه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ أي إن تعرضوا أيها العرب عن طاعة الله وطاعة رسوله والإنفاق في سبيله عطف على إن تؤمنوا ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ أي يقيم مقامكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ليؤمنوا ويتقوا ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ بل يكونوا أطوع لله منكم، قال الكلبي هي كندة والنخع، وقال الحسن هي العجم، وقال عكرمة فارس والروم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس باب ٦٣، ٦٤، ومسلم في الطهارة حديث ٥٢، ٥٣، ٥٤، وأبو داود في الترجل باب ١٦، والترمذي في الأدب باب ١٨، والنسائي في الطهارة باب ١٤، والزينة باب ٢، ٥٦، ومالك في الشعر حديث ١، وأحمد في المسند ٢/ ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ١٢، والنسائي في الوصايا باب ١، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٢.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٢٧٢، ومسلم في الزكاة حديث ٥٧، وأحمد في المسند ٥/ ١٩٧.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٢٢، ومسلم في الزكاة حديث ٩٠، والنسائي في الزكاة باب ٦٢، وأحمد في المسند ٦/ ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٣.

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ٢، والنفقات باب ١، والتوحيد باب ٣٥، ومسلم في الزكاة حديث ٣٦، ٣٧، وابن ماجه في الكفارات باب ١٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤٢، ٣١٤، ٤٦٤.

استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب على فخذ سلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومه ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من فارس(١)»(٢) رواه البغوي ورواه الترمذي والحاكم وصححاه وابن حبان. والحمد لله رب العالمين وصلّى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين.

قد اتفق ختم تفسير المظهري بختم سورة ختم الرسل محمد ﷺ والمسؤول من الله عزَّ وجلَّ أن يجعل ختمى على خير ما ختم عليه خيار أمّة محمد ﷺ. اللهم اجعل ثواب ختم هذا التفسير هدية إلى خير خلقه وختم رسلك محمد ﷺ وإلى أصحابه الكرام وأولاده العظام وأزواجه الطاهرات وأولياء أمته خصوصاً إلى حضرت شمس الدين حبيب الله المظهري الذي جعلتُ هذا التفسير على اسمه وإلى مشائخة الكرام وحضرات العظام وصلوات الله وسلامه على جميع اتباع محمد رسول الله ﷺ وهذا يوم الثلاثاء السابع والعشرين من الجمادى الأول من السنة الثامنة بعد الف ومائتين من هجرة النبي ﷺ ١٢٠٨ سنة هـ

وقد حصل الفراغ من تصحيح المسودة في يوم الاثنين الثامن والعشرين من الجمادى الأول سنة الثامن وخمسين بعد ألف وثلاثمائة سنة ١٣٥٨هـ والحمد لله على ذلك ونرجوا منه القبول وحسن الخاتمة وصلى الله علي جميع خلقه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) وفي الصحيحين عن أبي هريرة والطبراني عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من فارس ـ وروى أبو نعيم في الحلية عنه بلفظ لو كان العلم معلقاً بالثريا لتناوله قوم من أبناء فارس ـ رواه الشيرازي في الألقاب من حديث قيس بن سعد بن عبادة عنه صلى الله عليه وسلم وزاد الطبراني في حديث قيس لا تناله العرب لناله رجال (وفي لفظ ناس) من أبناء فارس، قال الشيخ محمد بن يوسف الصالحي الشافعي قال الشيخ الشافعي يعني جلال الدين السيوطي المراد بهذا الحديث أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله لا شك فيه لأنه لم يبلغ من أبناء فارس في العلم مبلغه ولا مبلغ أصحابه كان جد الإمام أبي حنيفة منهم ـ وقد بلغ من أولاد أبي حنيفة من الدين رجال مبلغاً رفيعاً منهم أبو علي شرف الدين القلندرالقاني والقطب الجمال والقطب برهان الهانسوي والقطب عبدالقدوس الكنكوهي رضي الله عنهم أجمعين ـ ١٢ ـ منه نوّر الله مرقده وبرّد الله مضجعه ـ.

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي في تفسير سورة ٤٧، باب ٣، وسورة ٦٢، باب ١، والمناقب باب ٧٠، وأحمد في المسند ٢/٢٩٧، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٦٩.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفتح
مدنيّة وهي تسع وعشرون آية وأربع ركوعات

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩)﴾

روى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليّ، فقلت ثكلتك أمك يا عمر نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن يكون نزل في القرآن فيما لبثت أن سمعت صراخاً يصرخ بي فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [(١)] وأخرج الحاكم وغيره من المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، قال نزلت سورة الفتح في شأن الحديبية بين مكة والمدينة من أولها إلى آخرها. واختلفوا في هذا الفتح؟

روي عن أبي جعفر الرازي عن قتادة عن أنس أنه فتح مكة فهي عدة بالفتح جيء بلفظ الماضي لأنها في تحققها بمنزل الكائنة ففيه معجزة والصحيح أنه صلح الحديبية، رواه أحمد وابن سعد وأبي داود والحاكم وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب ٣٥، وتفسير سورة ٤٨، باب ١، وفضائل القرآن باب ١٢، والترمذي في تفسير سورة ٤٨، باب ١، ومالك في القرآن حديث ٩، وأحمد في المسند ١/ ٣١.

عن مجمع بن حارثة الأنصاري قال شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ فلما انصرفنا عنها إلى كراع الغميم فإذا رسول الله ﷺ عند كراع الغميم فاجتمع الناس إليه فقرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أو فتح هو؟ قال: «والذي نفسي بيده إنه لفتح مبين»(١) وسنذكر قول أبي بكر الصديق ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية وكذا ذكر البغوي عن البراء.

ووجه تسميته فتحاً إما أنه مقدمة الفتح وإما أن معنى الفتح فتح المنغلق وذلك ما يصلح مع المشاركين بالحديبية وقيل الفتح بمعنى القضاء أي قضينا لك أن تدخل مكة من قابل، قال الشعبي فتح الحديبية فيه غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأطعموا نخلة خيبر وبلغ الهدي محله وظهرت الروم أي من عام قابل على فارس وخرج المؤمنون لظهور أهل الكتاب على المجوس، قال الزهري لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير وكثر بهم سواد الإسلام، قال الضحاك فتحاً مبيناً بغير قتال وكان الصلح من الفتح، وقال البيضاوي سماه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلح وتسبب بفتح مكة وفرغ به رسول الله ﷺ لسائر العرب فقرأهم وفتح مواضع وأدخل في الإسلام خلقاً عظيماً ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ علة غائية للفتح من حيث إنه مسبب عن جهاد الكفار والسعي في إزاحة الشرك وإعلاء الدين وتكميل النفوس الناقصة قهراً ليصير ذلك بالتدريج اختيار أو تخليص الضعفة عن أيدي الظلمة، وقيل اللام لام كي أي لكم يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة والفتح، وقال حسين بن الفضل اللام متعلق بقوله تعالى في سورة محمد ﷺ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] كما قيل كذلك في تعلق ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١] بقوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ [الفيل: ٥] في سورة الفيل وهذا بعيد جداً، وقيل اللام متعلق بمحذوف تقديره فاشكر ليغفر لك الله أو فاستغفر ليغفر لك الله كذا قال محمد ابن جرير حيث قال هو راجع إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] أي قوله ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] ليغفر لك الله ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي جميع ما فرط منك قديماً في الجاهلية قبل الرسالة وحديثاً، بعد الرسالة أي نزول السورة مما يصح أن يعاتب عليه وهذا لا يستلزم ارتكاب المعصية قال حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقال سفيان الثوري ما تقدم يعني ما علمت في الجاهلية وما تأخر كل شيء لم يعمله يذكر مثل ذلك على طريق التأكيد كما يقال أعط لمن رآه ومن لم يره وضرب من لقيه ومن لم يلق، وقال عطاء الخراساني ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ يعني ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك وما تأخر ذنوب أمتك بدعوتك ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ وعد بإتمام النعمة

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٥٤، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٩، والطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٤٤٥.

وإكمال الدين وإظهار كلمة الإسلام وهدم منارها يتم بحيث يحجوا أو يعتمروا مطمئنين لا يخالطهم أحد من المشركين الذي ذكر إنجازها في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] وتمام النعمة هذه مسبب للفتح فتح مكة وصلح الحديبية. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الملك والنبوة والرياسة، قيل معنى يهديك يهدي بك وقيل معنى يهديك يثبتك عليه أو المعنى ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى كمال الدين بحيث لا يجوز نسخه بعد ذلك.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ فإن قيل ينصرك الله معطوف على يغفر وهو مترتب على الفتح، إما لكونه مسبباً عن جهاد الكفار وبذل السعي، وإما لكونه سبباً للشكر والاستغفار؟ المقدرين فلا بد أن يكون النصر أيضاً مترتباً على الفتح وليس كذلك بل هو سبب للفتح سابق عليه قلنا: إن كان المراد بالفتح صلح الحديبية فالصلح امتثالاً لأمر الله تعالى سبب للنصر الذي هو سبب للفتح وإن كان المراد منه فتح مكة فالآية وعد بالفتح والوعد سبب للنصر السابق على الفتح كما لا يخفى.

﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ يعني معزاً يعز به المنصور فوصفه بوصف مبالغة أو المعنى نصراً فيه عز ومنعة. روى الشيخان في الصحيحين والترمذي والحاكم عن أنس قال: قال نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ إلى آخر الآية مرجعه من الحديبية وأصحابه فخالطوا الحزن والكآبة، فقال عليه السلام، نزلت عليَّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا فلما تلى نبيّ الله ﷺ قال رجل من القوم هنيئاً مرياً رسول الله قد بين الله لك ماذا يفعل بنا فنزلت ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ إلى قوله ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ والمراد بالسكينة الثبات والطمأنية على امتثال أمر الله تعالى من صلح الحديبية ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى يثبتوا حين تعلق النفوس وتدحض الأقدام حين جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ متعلق بأنزل، قال الضحاك يقيناً مع يقينهم يعني برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها، وقال الكلبي هذا في أمر الحديبية حين صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، قال ابن عباس بعث الله رسوله بشهادة أن لا إله إلا الله فلما صدقوه زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصوم ثم الحج ثم الجهاد ثم أكمل لهم دينهم فكلما أمروا بشيء فصدقوه ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني ليس الأمر بالصلح بالحديبية لضعف بالمسلمين بل لما يقتضيه علمه تعالى وحكمته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ مع ما عطف عليه من قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟﴾ أو بدل اشتمال من قوله ليزدادوا أو معطوف عليه بحذف العاطف متعلق بقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ﴾ أو بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا﴾ وجملة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ معترضة بينهما، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لأنه منتهى ما يطلب من جلب نفع أو دفع ضرر وعند الله حال من الفوز والجملة معترضة ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ عطف

على يدخل داخل في علة إنزال السكينة من حيث إن المنافقين والكفار غاظوا المؤمنين وطعنوا في دينهم حين امتثلوا أمر الله سبحانه في الصلح وغير ذلك وظنوا ظن السوء وكان ذلك سبباً لتعذيبهم وإن كان قوله ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ متعلقاً ﴿فَتْحًا﴾ فالأمر ظاهر. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ يعني ظانين أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين ولا يرجع النبي عليه السلام إلى المدينة سالماً أو أن له تعالى شريكاً فالمفعولان محذوفان، وقوله ظن السوء أي ظن الأمر السوء منصوب على المصدرية والسوء عبارة عن رداءِ الشيء وفساده يقال فعل سوء أي مسخوط فاسد ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ جملة دعائية يعني يجعل الله عليهم دائرة الهلاك والعذاب لا يتخطاهم أو دائرة ما يظنون ويتربصون بالمؤمنين، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السوء بالضم وهما لغتان غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه والمضموم جرى مجرى الشر وكلاهما في الأصل مصدران، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطف لما استحقوه في الآخرة عليها استوجبوه في الدنيا ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيدفع كيد من عادى بنبيه والمؤمنين بما شاء منه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً فلا يرد بأسه عن الكافرين ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبّر ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿شَاهِدًا﴾ على أمتك حال مقدرة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمطيعين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعصاة بالنار ﴿لِّتُؤْمِنُوا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة وكذا الأفعال الثلاثة المعطوفة عليه والضمير عائدة إلى الناس أجمعين وقرأ الباقون الأفعال الأربعة بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ والأمة والخطاب بالجمع بعد الخطاب بالإفراد شبه بالالتفات ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تعدوه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي تنزهوه عما لا يليق بشأنه أو اتصلوا له، والضمائر المنصوبة راجعة إلى الله سبحانه ومعنى تقووه دينه ورسوله قلتُ جاز أن يكون معناه أن تنسبوا القوة إليه دون غيره وتقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله، وقال البغوي ضمير تعزروه وتوقروه راجعان إلى رسوله وضمير تسبحوا إلى الله تعالى واستبعده الزمخشري لكونه مستلزماً لانتشار الضمائر، قلنا لا بأس به عند قيام القرينة وعدم اللبس ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ منصوبان على الظرفية لتسبحوه يعني تصلوا غدواً وعشياً أو تنزهوه دائماً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا بل يقاتلوا حتى يظفروا أو يموتوا ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنه هو المقصود ببيعة النبيّ ﷺ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حال أو استئناف على سبيل الاستعارة التخييلية يتمما المعنى المشاكلة فإنه إذا كان الله مبايعاً واشتهر المبايعة بصفقة اليدُ قد كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ ويبايعونه فتخيل اليد لتأكيد المشاكلة في المبايعة، وقال ابن عباس يد الله بالوفاء لما وعدهم بالخير فوق أيديهم، قلت يد الله على تأويل ابن عباس صفة من صفات الله تعالى لا يدرك كيفها ولا يجوز تخييلها بالجارحة وقال الكلبي نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة فضله غزوة الحديبية وبيعة الرضوان[1] وسبب ذلك على ما رواه عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد وقتادة والبيهقي عن مجاهد أيضاً وابن جرير عن ابن يزيد ومحمد بن عمرو عن شيوخه قالوا رأى رسول الله ﷺ أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وعرف مع المعرفين وكان ذلك الرؤيا بالمدينة قبل خروجه إلى الحديبية كذا قال البغوي ومحمد بن يوسف الصنابحي في سبيل الرشاد، وفي بعض الروايات عن مجاهد أنه رأى النبيّ ﷺ وهو بالحديبية والصحيح هو الأول، قال ابن سعد ومحمد بن عمر وغيرهما استنفر رسول الله ﷺ العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وروى أحمد والبخاري وعبد بن حميد وأبو داود والنسائي وغيرهم عن الزهري وابن إسحاق عن الزهري عن عروة عن مسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ دخل بيته فاغتسل ولبس ثوبين من نسج ضحاً وركب ناقته القصوٰى من عند بابه وخرج بأم سلمة معه وأم منيع أسماء بنت عمرو وأم عمارة الأشهلية، وخرج معه المهاجرون والأنصار ومن لحق به من العرب لا يشكون بالفتح للرؤيا المذكورة وليس معهم سلاح إلا السيوف في القرب وساق الهدي فسار رسول الله ﷺ يوم الاثنين لهلال ذي القعدة يعني سنة ست حتى نزل ذا الحليفة فصلّى الظهر ثم دعا بالبُدن وهي سبعون فجللت ثم أشعر منها عدة وهن موجهات إلى القبلة في الشق الأيمن ثم أمر ناجية بن جندب فأشعر وأبقى وقلدهن نعلاً نعلاً وأشعر المسلمون بدُنهم وقلدوها وكان معهم مائتا فرس، وبعث رسول الله ﷺ بشير بن سفيان عيناً له وقدم عباد بن بشير طليعة في عشرين فارساً ويقال جعل أميرهم سعد بن زيد الأشهلي ثم صلّى ركعتين وركب من باب المسجد بذي الحليفة فلما انبعث راحلة مستقبلة القبلة أحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً بهذا البيت.

ولبى لبيك إلخ فأحرم غالب أصحابه وأم المؤمنين أم سلمة بإحرامه ومنهم من لم يحرم إلا بالجحفة وسلك طريق البيداء ومر فيما بين مكة والمدينة بالأعراب من بني بكر

---

(١) انظر حديث غزوة الحديبية وبيعة الرضوان عند البخاري في الصلح باب ٦، ٧، والشروط باب ١٥، والمناقب باب ٢٥، والمغازي باب ٣٥، وتفسير سورة ٤٨، باب ١.

ومزينة وجهينة فاستنفرهم فتشاغلوا بأموالهم وقالوا فيما بينهم يريد محمد يغزوا بنا إلى قوم معد من الكراع والسلاح وإنما محمد وأصحابه أكلة جزور لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً، قوم لا سلاح معهم ولا عدو ثم قدم رسول الله ﷺ ناجية بن جندب مع فتيان من أسلم ومعهم هدايا المسلمين، ووقع في تلك المسير ما صاد قتادة حمار الوحش وكان غير محرم وما أهدي رسول الله ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء وقد مر حديثه في سورة المائدة ولما بلغ رسول الله ﷺ الجحفة أمر بشجرة فقم ما تحتها فخطب الناس، فقال: «إني كائن لكم فرطاً وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وسنة نبيه» ولما أبلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ اجتمعوا وتشاوروا يريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده ومعتمراً فتستمع العرب أنه دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا والله لا كان هذا ثم قدموا خالد بن الوليد على مائتي فارس إلى كراع الغميم واستنفر من الأحابيش وأجلبت ثقيف معهم وخرجوا إلى بلدج وضرب بها القباب والأبنية ومعهم النساء والصبيان فعسكروا هنا وأجمعوا على منع رسول الله ﷺ من دخول مكة ومحاربته ووضعوا العيون على الجبال وهم عشر أنفس يوحي بعضهم إلى بعض بالصوت فعل محمد كذا وكذا حتى ينتهي إلى قريش بلدج، ورجع بشر بن سفيان الذي بعثه رسول الله ﷺ عيناً له من مكة فلقي رسول الله ﷺ بغدير الأشطاط وراء عسفان فقال يا رسول الله هذه قريش سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم عوذ المطافيل قد لبسوا جلد النحور وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا يدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدموها إلى كراع الغميم فقال رسول الله ﷺ «يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا أن أظهر لي الله تعالى عليهم دخلوا وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وفيهم قوة فما تظن قريش فوالله لا زال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»، ثم قام رسول الله ﷺ في المسلمين فمحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال «أما بعد يا معشر المسلمين أشيروا علي أترون أن أميل على ذراري هؤلاء الذين عانوهم فنصيبهم فإن قعدوا موتورين وإن أبونا تكن عنقاً قد قطعه الله يعني أهلك الله جماعة منهم أم ترون أنا نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه»، فقال أبو بكر يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتال أحد ولا حرباً فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ووافقه على ذلك أسيد بن حضير.

وروى ابن أبي شيبة أن المقداد بن الأسود قال بعد كلام أبي بكر والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيه ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، فقال رسول الله ﷺ «فسيروا على اسم الله» ودنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فصف خيله فيما بين رسول الله ﷺ وبين القبلة فأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر فتقدم في خيله فقام بإزائه فصف أصحابه وحانت صلاة الظهر فأذن بلال، وأقام فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه

فقال خالد بن الوليد قد كانوا على غرة لو حملنا عليهم أصبنا منهم ولكن يأتي الساعة صلاة الأخرى هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم فنزل جبرائيل عليه السلام بين الظهر والعصر بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾ [النساء: ١٠٢] الآية فحانت صلاة العصر فصلّى رسول الله ﷺ صلاة الخوف وقد مر شرحها في سورة النساء، روى البزار بسند رجاله ثقات عن أبي سعيد الخدري ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا لما أمسى رسول الله ﷺ قال «اسلكوا ذات اليمين بين ظهور الحمض فإن خالد بن وليد في الغميم في خيل بقريش طليعة» كره رسول الله ﷺ أن يلقاه وكان بهم رحيماً قال «أيكم يعرف ثنية ذات الحنظل» فقال بريدة بن الحصيب أنا، وروى مسلم عن جابر وأبو نعيم عن أبي سعيد قال أبو سعيد خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان سرنا في آخر الليل حتى أقبلنا على عقبة ذات الحنظل قال رسول الله ﷺ مثل هذه الثنية الليلة كمثل باب الذي قال الله تعالى لبني إسرائيل ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] لا يجوز هذه الثنية الليلة أحد إلا غفر له، قالوا يا رسول الله نخشى أن ترى قريش نيراننا، فقال «لن يروكم» فلما أصبحنا صلّى بنا صلاة الصبح، ثم قال «والذي نفسي بيده لقد غفر الراكب أجمعين إلا رديلباً واحداً على جمل أحمر فإذا هو رجل من بني ضمرة»، قال جابر قلنا له تعال نستغفر لك رسول الله ﷺ فقال والله لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم فبينا هو في حيال سراوع إذ زلقت به بغلة فتردى فمات فما علم حتى أكلته السباع، قال مسور بن مخرمة ومروان فلما دنا رسول الله ﷺ من الحديبية وقعت يد راحلة فقال الناس حل حل فأبت أن تبعث وألحت فقال المسلمون خلأت القصوى فقال رسول الله ﷺ ما خلأت القصوى وما ذاك لها بعادة ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، ثم قال والذي نفس محمد بيده لا يسألون قريش اليوم خطة فيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيهم إياهم ثم زجرها فوثبت قال فعدل عنهم حتى نزل أقصى الحديبية على ثمد من ثماد الحديبية ظنون قليل الماء يتربضه الناس تربضاً فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكى الناس إلى رسول الله ﷺ قلة الماء فانتزع سهماً من كنانته فأمر به فغرز في الثمد بالرواء حتى صدروا بعطن، قال المسور فإنهم ليقترفون بآنيتهم جلوساً على شفير البئر والذي نزل بالسهم ناجية بن جندب سابق بُدن رسول الله ﷺ.

قال محمد بن عمر حدثني الهيثم عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه قال حدثني أربعة عشر رجلاً من أسلم من أصحاب رسول الله ﷺ أنه ناجية بن عجم وكان ناجية يقول دعاني رسول الله ﷺ حتى شكى إليه قلة الماء، فأخرج سهماً من كنانته ودفعه إليهُ ودعابدلو من ماء البئر فجئته به فتوضأ فمضمض فاه ثم مج في الدلو والناس في حر شديد وإنما هي بئر واحدة قد سبق المشركون إلى بلدح فغلبوا على مياهه فقال أنزل الدلو فصبها في البئر وأثرها بالسهم ففعلت فوالذي بعثه بالحق ما كدت أخرج حتى تغمدني وفارت كما تفور القدر حتى طمث واستوت بشفيرها يغترفون من جانبها.

وروى أحمد والبخاري وغيرهما عن البراء ومسلم عن سلمة بن أكوع وأبو نعيم عن ابن عباس والبيهقي عن عروة نحوها قصة صب الدلو وليس فيه ذكر السهم، وروى البخاري عن جابر ومسلم عن سلمة بن الأكوع قال «عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة قالوا يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا في ركوتك فأفرغنا في قدح وضع رسول الله ﷺ يديه في القدح فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا، قيل لجابر كم كنتم يومئذ؟ فقال لو كنا مائة ألف كفانا كنا خمس عشر مائة. ولما اطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية جاء بديل بن ورقاء وأسلم بعد ذلك في رجال من خزاعة منهم عمرو بن سالم وحراس بن أمية وخارجة بن كرز ويزيد بن أمية وكانت عيبته نصح رسول الله ﷺ بتمامه منهم المسلم ومنهم الوادع لا يخفون عنه بتمامه شيئاً فلما قدموا سلموا عليه، فقال بديل بن ورقاء جئناك من عند قومك كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعوهم قد نزلوا عداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل النساء والصبيان يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت، فقال رسول الله ﷺ «إنا ما جئنا لقتال أحد إنما جئنا لنطوف بهذا البيت فمن صدنا عنه قاتلنا وإن قريشاً قد أضرب بهم الحرب نهكتهم فإن شاؤوا ماددناهم مدة يأمنون فيها ويخلون فيما بيننا وبين الناس والناس أكثر منهم فإن أصابوني فذلك الذي أرادوا وإن ظهر أمري على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما يدخل فيه الناس أو يقاتلوا وقد جموا وإن هم أبوا فوالله لأجهدن على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذنّ الله أمره» قال بديل سأبلغهم ما تقول، فأتى قريشاً، وقال إنا قد جئنا من عند محمد نخبركم عنه، قال عكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاص وأسلما بعد ذلك ما لنا حاجة أن تخبرنا عنه ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها عامه هذا أبداً حتى لا يبقى رجل وأشار عليهم عروة بن مسعود الثقفي بعد ذلك بأن يسمعوا كلام بديل فإن أعجبهم قبلوه وإلا تركوه، فقال صفوان بن أمية والحارث بن هشام وأسلما بعد ذلك هات ما سمعته فحدثه بما قال النبي ﷺ، فقال عروة بن مسعود الثقفي أي قوم ألستم بالولد؟ قالوا بلى، قال ألست بالوالد قالوا بلى، وكان عروة لسبعة بيت عبد الشمس القرشية قال فهل تتهموني قالوا لا، قال ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما يلجوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني قالوا بلى قال فإن هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته فأتاه فجعل النبي ﷺ يكلم نحواً من قوله لبديل، فقال عروة يا محمد أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك وإن يكن الأخرى فإني والله لأرى وجوها أوباشاً من الناس وفي رواية اشواباً من الناس خليقاً أن يغروا ويدعوك فقال له أبو بكر الصديق امصص بظر اللات أنحن نفر منه وندعه قال من ذا؟ قالوا أبو بكر، فقال أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أخبرك به لأجبتك، وكان عروة قد استعان في حمل دية فأعانه الرجل بفريضتين والثلث وأعانه أبو بكر بعشر فرائض فكان هذا يد أبي بكر عند عروة، قال فجعل عروة يكلم النبيّ ﷺ فلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على

رأس النبيّ ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر كلما أهوى عروة يده إلى لحية النبيّ ﷺ ضرب يده بنصل السيف وقال أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسه فرفع عروة رأسه فقال من هذا؟ قالوا المغيرة بن شعبة، فقال يا عدو الله ما غسلت عنك عذرتك بعكاظ إلا أمس لقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر، وكان مغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبيّ ﷺ «أما الإسلام فاقبل وأما المال فلست منه في شيء»، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبيّ ﷺ بعينيه فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا رفع في كف رجل منهم فدلك بها وجههُ جلده وإذا أمر ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحادون النظر إليه تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي القوم والله لقد وفدت على الملوك وفدت على قيصر وكسرىٰ والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط تعظم أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم يدلك بها وجههُ وجلده وإذا امرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم أخفضوا أصواتهم عنده وما يحادون النظر إليه تعظيماً له وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقالت، قريش لا ولكن ترده عامنا هذا ويرجع إلى قابل فقال ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة، فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف فقام الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش فأتى رسول الله ﷺ فلما رأى رسول الله ﷺ قال «هذا من قوم يعظمون الهدي ويتألهون فابعثوا بالهدي في وجهه حتى يراها» فلما رأى الهدايا يسيل عليها من عرض الوادي في قلائدها قد أكل أوبارها من طول الحبس رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى فقال يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل صد الهدي في قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله فقالوا اجلس فإنما أنت رجل أعرابي لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدوا عن بيت الله من جاء معظماً والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو ليفرن الأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص دعوني آته فقالوا آته فلما أشرف عليهم قال النبيّ ﷺ «هذا مكرز وهو رجل غادر أو فاجر» فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه بنحو ما كلم بديلاً وعروة فرجع إلى أصحابه فأخبرهم بما رد عليه رسول الله ﷺ.

قال محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر وغيرهما بعث النبي ﷺ إلى قريش خراش بن أمية على جمل رسول الله ﷺ يقال له الثعلب ليبلغ عنه أشرافهم بما جاء لهم، فعقر عكرمة بن أبي جهل الجمل وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبر رسول الله ﷺ بما لقي، روى البيهقي عن عروة قال لما نزل رسول الله ﷺ الحديبية فزعت قريش لنزوله فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث رجلاً من أصحابه فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم فقال يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي قد عرفت

قريش عداوتي لها وليس بها من بني عدي من يمنعني ولكني أدلك على رجل أعز بمكة مني وأمنع عثمان بن عفان فدعا عثمان فقال اذهب إلى قريش وأخبرهم أنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عماراً وأدعهم إلى الإسلام وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخلهم ويبشرهم بالفتح ويخبر أن الله يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفي فيها بالإيمان فانطلق عثمان إلى قريش يمر عليهم ببلدح فقالوا أين تريد؟ قال بعثني رسول الله ﷺ إليكم لأدعوكم إلى الإسلام وإلى الله جل ثناؤه وتدخلوا في الدين كافة فإن الله مظهر دينه ومعز نبيّه وأخرى تكفون الذي يلي هذا الأمر غيركم فإن ظفر رسول الله ﷺ فذلك ما أردتم وإن ظفر رسول الله ﷺ كنتم بالخيار بين أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامون إن الحرب نهكتكم وأذهبت الأماثل وأخبر أن رسول الله ﷺ يخبر أنه لم يأت لقتال أحد إنما جاء معتمراً معه الهدي عليه القلائد ينحره وينصرف، فقالوا قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا أبداً فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا ولقيه أبان بن سعيد وأسلم بعد ذلك فرحب به أبان وأجاره وقال لا تقصر عن حاجتك ثم نزل عن فرس كان عليه فحمل عثمان على السرج وردف وراءه وقال أقبل وأدبر لا تخاف أحداً وبنو سعيد أعزة بالحرم فدخل به مكة فأتى عثمان أشراف قريش رجلاً رجلا فجعلوا يردون عليه أن محمداً لا يدخلها علينا أبداً ودخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين بمكة فقال إن رسول الله ﷺ يقول قد أظلكم حتى لا يستخفي بمكة بالإيمان ففرحوا بذلك وقال اقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام.

ولما فرغ عثمان من رسالته قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ وأقام عثمان بمكة ثلاثاً يدعو قريشاً وقال المسلمون وهم بالحديبية خلص عثمان من بيننا إلى البيت فطاف به فقال رسول الله ﷺ لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف وكان رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالحراسة بالليل فكانوا ثلاثة يتناوبون الحراسة أوس بن فوبي وعباد بن بشر ومحمد بن مسلمة فكان محمد بن مسلمة على حرس رسول الله ﷺ ليلة من الليالي وعثمان بمكة قد كانت قريش بعثت ليلا خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص وأمروهم أن يطوفوا بالنبيّ ﷺ رجاء أن يصيبوا منهم عزة، فأخذهم محمد بن مسلمة فجاء بهم رسول الله ﷺ وظهر قول النبيّ ﷺ إنه رجل غادر وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ وهم كرز بن جابر الفهري وعبد الله بن سهيل بن عمرو بن عبد الشمس وعبد الله بن حذافة السهمي وأبو الروم بن عمير بن عمرو وعمير بن وهب الحجبي وحاطب بن أبي بلتعة وعبد الله بن أمية دخلوا مكة في أمان عثمان، وقيل سراً فعلم بهم فأخذوا وبلغ قريشاً حبس أصحابهم الذين أمسكهم محمد بن مسلمة فجاء جمع من قريش إلى النبيّ ﷺ وأصحابه حتى تراموا بالنبل والحجارة وأسر المسلمون أيضاً اثني عشر فارساً، وقتل من المسلمين ابن زنيم وقد اطلع الثنية من الحديبية فرماه المشركون فقتلوه وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان ومن معه قتلوا دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم أن سلمة بن الاكوع والبيهقي عن عروة وابن إسحاق عن الزهري ومحمد بن عمر عن شيوخه قال سلمة بينا نحن قايلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فأخرجوا على اسم الله.

في صحيح مسلم عن سلمة قال بايعته أول الناس ثم بايع حتى إذا كان في وسط قال بايع يا سلمة قلت بايعتك قال وأيضاً فبايعته ثم بايع وبايع حتى إذا كان أخرج الناس، قال «ألا تبايعني يا سلمة» قلت يا رسول الله ﷺ بايعتك في أول الناس وفي وسط الناس قال وأيضاً فبايعته الثالثة. وفي صحيح البخاري عنه قيل على أي شيء كنتم تبايعونه قال على الموت، وفي صحيح مسلم عن جابر قال «بايعنا رسول الله ﷺ وعمر أخذ بيده تحت شجرة مثمرة فبايعنا غير جد بن قيس الأنصاري اختفى تحت بطن بعيره» وروى الطبراني عن ابن عمر والبيهقي عن الشعبي وابن مندة عن زيد بن حبيش قالوا لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدي فقال ابسط بيدك أبايعك فقال النبيّ ﷺ «فبايعني على ما في نفسك» زاد ابن عمر قال وما في نفسي قال أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهر الله أو أقتل فبايعه وبايعه الناس على بيعة أبي سنان، روى البيهقي عن أنس وابن إسحاق عن ابن عمر قال لما أمر رسول الله ﷺ بيعة الرضوان كان عثمان رسولُ رسول الله ﷺ إلى أهل مكة فبايع الناس فقال رسول الله ﷺ، «إن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك» فضرب بإحدى يديه على الأخرى فقال هذا يد عثمان وكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم وبعث قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن العزى وأسلما ومكرز بن حفص إلى النبيّ ﷺ، فقال سهيل إن الذي كان من حبس أصحابك وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأي ذي رأينا كنا له كارهين حتى بلغنا ولم نعلم به وكان من سفهائنا فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة والذين أسرت آخر مرة والذي ذكر من قتل عثمان ومن معه ظهر أنه كان باطلاً، فقال رسول الله ﷺ «إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابه» فقالوا انفصتا فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بالشتيهم بن عبد مناف التيمي فبعثوا من كان عندهم وهم عثمان والعشرة معه وأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم الذين أسرهم المسلمون. وفي الصحيحين عن سهيل بن حنيف وعند البخاري وأصحاب السنن عن مروان بن الحكم أن عثمان لما قدم من مكة هو ومعه رجع سهيل بن عمر وحويطب ومكرز إلى قريش فأخبروهم بما رأوا من سرعة أصحاب النبيّ ﷺ إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب اشتد عليهم فقال أهل الرأي منهم ليس خير من أن تصالح محمداً على أن ينصرف عنا عامه هذا ولا يخلص من البيت حتى يسمع من يسمع بمسيرة من العرب أنا قد صددناه ويرجع قابلاً فيقم ثلاثاً ينحر هديه وينصرف فأجمعوا على ذلك وقالوا لسهيل ائت محمداً فصالحه وليكن في صلحك أن لا يدخل عامه هذا فوالله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوة، فأتى سهيل رسول الله ﷺ فقال عليه السلام أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا وفي لفظ قال رسول الله ﷺ «سهل أمركم» وجلس رسول الله ﷺ متربعاً وقام عباد بن

بشر وسلمة وأسلم وهما مقنعان في الحديد فبرك سهيل على ركبتيه فكلم رسول الله ﷺ وأطال الكلام وتراجعا وارتفعت الأصوات وانخفضت، وقال عباد بن بشر لسهيل اخفض من صوتك عند رسول الله ﷺ فجرى القول حتى وقع الصلح فقال سهيل هات اكتب بيننا وبينك كتاباً فدعا رسول الله ﷺ عليًا كرم الله وجهه كما في حديث البراء عن البخاري والحاكم عن عبد الله بن مغفل أنه قال رسول الله ﷺ «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل أما الرحمٰن الرحيم فوالله لا أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون والله لا تكتبها فقال النبيّ «اكتب باسمك اللّهم»، ثم قال «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ» فقال سهيل والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ﷺ ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك اكتب محمد بن عبد الله فقال رسول الله ﷺ لعليٍّ «أمحه» فقال عليٌّ ما أنا بالذي أمحاه.

وذكر محمد بن عمر أن أسيد بن حضير وسعد بن عبادة أخذ بيد عليٍّ أن لا يكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا وبينهم وارتفعت الأصوات فقال النبيّ ﷺ «أرنيه» فأراه إياه فمحاه رسول الله ﷺ بيده وقال «اكتب محمد بن عبد الله»، ووقع في بعض طرق حديث البراء أن رسول الله ﷺ أخذ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضىٰ محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو وأصلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض، فقال رسول الله ﷺ لسهيل «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف»، فقال سهيل لا والله ولكن لك من العام المقبل فكتب فقال سهيل على أن لا يأتيك منا أحد بغير إذن وليه وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون سبحان الله أيكتب هذا كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً فقال رسول الله ﷺ نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاء منهم إلينا فيجعل الله فرجاً، قال البراء صالح على ثلاثة أشياء على أنه من أتاه من المشركين رده إليهم ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه إليه وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح والسيف والقوس ونحوه وقع الصلح على أن بينهم وبين رسول الله ﷺ عيبة مكفوفة وأنه لا أسلال ولا أغلال وأنه من أحب دخل في عقد محمد ومن أحب دخل في عقد قريش فتواثبت خزاعة وقالوا نحن في عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر وقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم ولما تقرر الصلح ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب (رض) إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ألست نبي الله حقاً؟ قال «بلى»، قال ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال «بلى»، قال أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار، قال «بلى»، قال على م نعطي الدنيّة في ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال رسول الله ﷺ «إني عبد الله ورسوله ولست أعصيه ولن يضيعني وهو ناصري»، قال أوليس كنت تحدثنا أنا نأتي البيت فنطوف حقاً، قال «بلى فأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قال لا، قال «فإنك آتيه ومطوف به» فذهب عمر إلى أبي بكر متغيضاً ولم يصبر فقال يا أبا بكر أليس هذا نبيُ الله حقاً؟ قال بلى، قال ألسنا على الحق

وهم على الباطل؟ قال بلى، قال أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال بلى، قال فعلامَ نعطي الدنيّة في ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم، قال أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بعزره حتى تموت فوالله إنه لعلى الحق وفي لفظ فإنه رسول الله فقال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله ﷺ قال أوليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به قال بلى، فأخبرك إنك تأتيه العام قال لا قال فإنك آتيه وتطوف به فلقي عمر من هذه الشروط أمراً عظيماً وقال كما في الصحيح والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ وجعل يردد على رسول الله ﷺ الكلام فقال أبو عبيدة بن الجراح ألا تسمع يا ابن الخطاب تقول بالقول نعوذ بالله من الشيطان قال عمر فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان.

روى ابن إسحاق وابن عَمرو الأسلمي قال عمر فما زلت أتصدق وأصوم وأعتق من الذي صنعت يومئذ، وروى أحمد والنسائي والحاكم في حديث عبد الله بن مغفل ذكر نحو ما تقدم قال فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا إلى وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأسماعهم ولفظ الحاكم بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ «هل جئتم في عهد أحد وهل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا لا، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾.

روى أحمد ومسلم وابن أبي شيبة عن أنس هبط على رسول الله ﷺ ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة من رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم وفي حديث الزهري عن مروان ومسور، وروى مسلم وأحمد وعبد بن حميد عن سلمة بن الأكوع قال لما سمعت قتل ابن زنيم اخترطت سيفي على أربعة رقود من المشركين فأخذت سلاحهم وجئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾ الآية فبينما الناس كذلك إذا أبو جندل بن سهيل بن عمر يرسف في قيوده قد خرج من أسفل حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين وكان أبوه سهيل قد أوثقه في الحديد وسجنه فقام إليه المسلمون يرحبونه ويهنونه فلما رأى أبو سهيل قام إليه فضرب وجهه بغصن شوك وأخذ بتلبيبه ثم قال يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده، فقال رسول الله ﷺ «إنا لم نقض الكتاب بعد»، قال فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً قال «فأجزه بي» قال ما أنا بمجيزه قال «بلى فافعل» قال ما أنا بفاعل، فقال مكرز وحويطب قد أجزناه لك فأخذاهُ ودخلا فسطاطاً وأجاراه وكف عنه أبوه، فقال أبو جندل معاشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت وكان قد عذب عذاباً شديداً فرفع رسول الله ﷺ صوته «أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله تعالى جاعل لك بمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً أنا قد عقدنا مع القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً وإنا لا نقدر» فمشى عمر بن الخطاب إلى جنب أبي جندل فقال له اصبر واحتسب فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب وجعل عمر يدني قائم السيف منه قال عمر رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال فضمن الرجل بأبيه وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ فرحوا وهم لا

يشكون في الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع دخل الناس من ذلك عظيم حتى كادوا يهلكون فزادهم أمر أبي جندل، ونفذت القضية شهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين وأبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عَمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمود بن سلمة وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومكرز بن حفص وهو مشرك، فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ «قوموا فانحروا ثم احلقوا» فوالله ما قام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات فاشتد ذلك عليه فدخل على أم سلمة فقال «هلك المسلمون أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا، فلم يفعلوا» فقالت يا رسول الله لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبيّ الله، اخرج ولا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو بحالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحداً حتى نحر بدنه رافعاً صوته «بسم الله الله أكبر» ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا فجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً قال ابن عمر وابن عباس حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون فقال رسول الله ﷺ «يرحم الله المحلقين» قالوا والمقصرين قال «يرحم الله المحلقين» قالوا يا رسول الله «والمقصرين» قال والمقصرين قالوا يا رسول الله ما بال المحلقين ظاهرت لهم الترحم؟ قال «لأنهم لم يشكوا»، قال ابن عمرو ذلك أنه تربص قوم وقالوا لعلنا نطوف بالبيت وأقام رسول الله ﷺ بالحديبية تسعة عشر يوماً ويقال عشرين ليلة ذكره محمد بن عمرو في أيام المقام بالحديبية، قال رسول الله ﷺ لكعب بن عجرة «لأرى الهوام تتساقط على وجهه» وهم محصورون قبل الصلح «أيؤذيك هوام رأسك» قال نعم وأمره بالحلق والفدية من صيام أو صدقة أو نسك ونزل حينئذ قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [البقرة: ١٩٦] الآية من سورة البقرة، وقد ذكر هناك مسائل للإحصار والحلق بعذر وما يتعلق به، روى مسلم عن سلمة بن الأكوع والبيهقي عن ابن عباس والبزار والطبراني والبيهقي عن أبي حبيش ومحمد بن عمرو عن شيوخه أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزل بمر الظهران ثم نزل بعسفان فأرسلوا من الزاد فشكى الناس الجوع وقالوا ننحر يا رسول الله الحمر فأذن لهم رسول الله ﷺ، فقال عمر يا رسول الله لا تفعل فإن يكن في الناس بقية ظهر كان أمثل كيف بنا إذا نحن لقينا العدو غداً جياعاً رجالاً لكن إن رأيت تدعو الناس ببقايا أزوادهم ثم تدعوا فيها بالبركة فإن الله سيبلغنا بدعوتك، فدعا رسول الله ﷺ ببقايا أزوادهم وبسط نطعاً وكان أعلاهم من جاء بصاع من تمر فاجتمع زاد القوم على النطع، قال مسلمة فتطاولت لأحرزكم محرزته كر نفسه عزة ونحن أربعة عشر مائة فقام رسول الله ﷺ فدعا بما شاء الله تعالى أن يدعو فأكلوا حتى شبعوا ثم حشوا أوعيتهم وبقي مثله فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله والله لا يلقى الله تعالى عبد مؤمن بهما إلا حجب من النار». قال الزهري في حديثه ثم جاء نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] حتى

بلغ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية قال فنهاهم أن يردوا النساء وأمر برد الصداق.

روى أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي عن المسور بن مخرمة والبيهقي عن الزهري أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة من الحديبية أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد حارية الثقفي حليف بني زهرة مسلماً قد خلت من قومه فكتب الأحبس بن شريف الثقفي وأزهر بن عبد عوف الزهري إلى رسول الله ﷺ كتاباً بعثهما وبعثا خنيساً بن جابر من بني عامر بن لؤي يذكران الصلح الذي بينهم وأن يرد إليهم أبا بصير فقدم العامري ومعه مولى له يقال له كوثر بعد أبي بصير بثلاثة أيام فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهما، وقال يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتُ لا يصلح في ديننا الغدر إن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً به حتى بلغا ذا الحليفة، فصلّى أبو يصير في مسجدها ركعتين صلاة المسافر ومعه زاد له من تمر يحمله يأكل ودعا العامري وصاحبه ليأكلا معه فنزلوا يأكلون التمر وعلى العامري سيفه وتحادثا ولفظ عروة فسل العامري سيفه ثم هذه فقال لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل فقال أبو بصير أصارم سيفك هذا؟ قال نعم، قال ناولني أنظر إليه إن شئت فناوله إياه فلما قبض عليه ضربه به حتى برد وخرج كوثر هارباً حتى أتى المدينة فدخل المسجد قال رسول الله ﷺ مالك قال قتل والله صاحبي وأُفلت منه ولم أكد وإني مقتول فاستغاث برسول الله ﷺ فأمنه، وأقبل أبو بصير فأناخ بعير العامري ودخل متوحشاً بسيفه فقال يا رسول قد وفيت ذمتك وأدى الله عنك وقد أسلمتني بيد العدو وقد امتنعت بديني من أن أفتن، فقال رسول الله ﷺ «ويل أمه مسعر حرب» لو كان له أحد وقدم بسلب العامري لرسول الله ﷺ ليخمسه فقال إني إذا خمسته رأوني لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه ولكن شأنك بسلب صاحبك واذهب حيث شئت. في الصحيح أن أبا بصير لما سمع قول رسول الله ﷺ ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد عرف أنه سيرده فخرج أبو بصير ومعه خمسة كانوا قدموا معه مسلمين من مكة حين قدمه على رسول الله ﷺ فلم يكن طلبهم أحد حتى قدموا سيف البحر فأقام بسيف البحريين العيصَ وذي المروة من أرض جنته على طريق عيرات قريش وبلغ المسلمين الذين قد حبسوا بمكة خبر أبي بصير فتسللوا إليه قال محمد بن عمرو كان عمر بن الخطاب هو كتب إليهم يقول رسول الله ﷺ لأبي بصير ويل أمه مسعر حرب لو كان له رجال وأخبرهم أنه بالساحل، وانفلت أبو جندل بن سهيل الذي رده عليه السلام إلى المشركين بالحديبية فخرج هو وسبعون راكباً ممن أسلموا فلحقوا بأبي بصير فلما قدم أبو جندل على أبي بصير سلم له الأمر لكونه قرشياً وكان أبو جندل يؤمهم واجتمع إلى أبي جندل حين سمع بقدومه ناس من بني غفار وأسلم وجهينة وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل كما عند البيهقي عن ابن شهاب لا تمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا من فيها وضيقوا على قريش فلا

يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه فأرسل قريش أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ أن يبعث إلى أبي بصير ومن معه وقالوا من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال من غير حرج أنت فيه، فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير وأبي جندل يأمرهما أن يقدما عليه ويأمر من معهما فمن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضوا لأحد مر بهم من قريش وعيراتها فقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي بصير وهو يموت فجعل يقرأه ومات وهو في يده فدفنه أبو جندل في مكانه وجعل قبره مسجداً، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعه ناس من أصحابه ورجع سائرهم إلى أهليهم فلما كان من أمرهم على الذين كانوا أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبا جندل من أبيه بعد القضية أن طاعة الله ورسول الله ﷺ خير لهم فيما أحبوا وفيما كرهوا لما دخل رسول الله ﷺ عام القضية قال هذا الذي وعدتكم، ولما كان يوم الفتح أخذ المفتاح وقال لعمر بن الخطاب هذا الذي قلت لكم، ولما كان في حجة الوداع وقف بعرفة فقال أي عمر هذا الذي قلت لكم قال أي رسول الله ما كان فتح أعظم من صلح الحديبية، وكان أبو بكر يقول ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله وبين ربه والعباد يعجلون والله لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أرادوا لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب لرسول الله ﷺ بدنه ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ودعا الحلاق فحلق رأسهُ وأنظر إلى سهيل يلتقطه من شعره يضعه على عينه وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم فحمد الله سبحانه أن هداه للإسلام ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي نقض البيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي لا يعود ضرر نكثه إلا عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أي ثبت على البيعة، قرأ حفص بضم الهاء تعظيماً للجلالة والباقون بالكسر ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالنون على التكلم، والباقون بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الله ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ يعني الجنة ورضوان الله تعالى ورؤيته ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ ابن عباس ومجاهد يعني الأعراب بني غفار ومزينة وجهينة والنخع وأسلم وهم الذين أبطؤوا من الخروج مع النبيّ ﷺ حين استنفرهم إذا أراد المسير إلى مكة عام الحديبية خوفاً من قتال قريش زعماً منهم قلة عدد المسلمين وضعفهم في عقيدتهم كما مر في القضية رجع النبيّ ﷺ سالماً اعتذر وأمن التخلف وقالوا ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ يعني لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله تعالى على التخلف فيه معجزة فإن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ بما يقول للمخلفون بعد ذلك ثم كذبهم الله في اعتذارهم فقال ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الاعتذار والاستغفار يعني أنهم لا يبالون استغفر لهم النبيّ ﷺ أو لم يستغفر الجملة بدل من قوله تعالى: سيقول ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يعني لأحد يمنعكم من مشيئة الله تعالى وقضائه فيكم ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الضاد والباقون بالفتح يعني ما يضركم كقتل أو هزيمة أو هلاك في المال أو الأهل أو عذاب في الآخرة على تخلفكم ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أي ضد ذلك به تعرض بالرد ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يعني ليس الأمر كما قلتم في الاعتذار بل الله يعلم أن قصدكم في التخلف إنما هو إظهار الموافقة لأهل مكة خوفاً منهم ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ أيها المخلفون ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ يعني يستأصلهم مشركو مكة فلا يرجعون إضراب ثان عطفه على مضمون الإضراب الأول يعني بل أظهرتم موافقة أهل مكة بل ظننتم أن لن ينقلبوا ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ زينه الشيطان بخلق الله تعالى ﴿وَظَنَنتُمْ﴾ أن محمداً وأصحابه أكلة رأس فلا يرجعون أو غير ذلك مما يظنون بالله ورسوله ﷺ من الأمور الباطلة ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ منصوب على المصدرية ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هلكى عند الله لفساد عقيدتكم وسوء ظنكم بالله ورسوله ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه تعريض إلى أنهم غير مؤمنين بالله ورسوله فإن الإيمان ينافي تلك الظنون والتخلف عن الرسول ﷺ وجزاء الشرط محذوف وما بعده تعليل أقيم مقامه أي لا يضرنا، ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ وضع المظهر موضع المضمر إيذاناً بأن من يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر مستوجب للسعير بكفره وتنكير سعير للتهويل.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ لا يجب عليه شيء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعني أن الغفران والرحمة صفات ذاتية له تعالى والتعذيب داخل تحت قضائه بالعرض.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ في القتال حتى نصيب من المغانم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ جملة يريدون بدل اشتمال من سيقولون قرأ حمزة والكسائي كلام الله على أنه جمع كلمة، قيل المراد بالمغانم خيبر خاصة، قال محمد بن عمرو أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالخروج يعني إلى خيبر فجدوا في ذلك من حوله فمن شهد الحديبية يغزون معه وجاء المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا

معه رجاء الغنيمة فقال عليه السلام لا يخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد وأما الغنيمة فلا، والظاهر أن معنىٰ الآية سيقولون المخلفون الذين تخلفوا من الجهاد في غزوة الحديبية حين ظنوا بالمسلمين ضعفاً وقلة إذا يرون بالمسلمين قوة وانطلقتم إلى المغانم لتأخذوها في زعمهم غالباً فسيقولون ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله يعني أمر الله لنبيه أن لا يسير معه أحد منهم كما في قوله ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ٨٣] كذا قال ابن زيد وقتادة، قلت لعل المخلفون لما رأوا من المؤمنين شدة رغبتهم في الجهاد وسمعوا بيعة الرضوان وأن الله أظفر المؤمنين على المشركين في بطن مكة حتى رضي المشركون على الصلح واطمأن المسلمون من أهل مكة وفرغوا الجهاد عامة العرب ندموا على التخلف وظنوا بغلبة المسلمين وأخذهم الغنائم قالوا ذلك حين عزم النبيّ ﷺ لجهاد أهل خيبر مع أن أهل خيبر كانوا أشد بأساً من أهل مكة حيث كان فيها عشر آلاف مقاتل وإنما حبس الله رسوله والمؤمنين من أهل مكة ترحماً بقريش كما حبس عنهم الفيل لما علم بعلمه القديم أن أكثرهم يؤمنون ويخرج منهم بسمات مؤمنات ولئلا يصيب المؤمنين معرة بغير علم من أن يطؤوا رجالاً من مؤمنين ونساء مؤمنات كانوا بمكة لم يعلموهم ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ جملة مستأنفة إخبار من الله تعالى بعدم اتباعهم بعد عزمهم طمعاً في الغنائم ولا يبدل القول لديه وفي معجزة إخبار بالغيب مرتين مرة بالقول ومرة بعدم الاتباع وقيل هذا نفي ومعناه النهي، ﴿كَذَٰلِكُمْ﴾ يعني قولاً مثل ما قلت لكم أيها المخلفون من الاخبار والنهي ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا بوحي غير متلو أن غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة لا نصيب لغيرهم فيها أو أنهم لن يخرجوا معك أبداً أو لا يصاحبهم في غزوة أبداً وليس المراد منه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ﴾ [التوبة: ٨٣] لأنها نزلت بعد ذلك سنة تسع في غزوة تبوك ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ أي المخلفون عطف على سيقولون ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ عطف على محذوف يعني لم يقل الله كذلك بل تحسدوننا يقولون ذلك حسداً أن يشرككم في الغنائم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ عطف على سيقولون يعني ليس الأمر كما زعمت المخلفون بل كانوا لا يعلمون من الله تعالى ما لهم وما عليهم في الدين ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني إلا تفقها قليلاً من أمور الدنيا وقال البغوي معناه إلا قليل منهم وهو من صدق الله ورسوله، قلتُ على هذا كان المختار عند النحويين الرفع على البدلية لأن الكلام غير موجب.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرر ذكرهم بهذا الاسم مبالغة في الذم وإشعاراً بكمال شناعة التخلف ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال كعب هم الروم يعني في غزوة تبوك، قلت وهذا القول يأبى عنه توصيف قوم بقوله يقاتلونهم أو يسلمون فإن غزوة تبوك مال أمره إلى القتال فإن النبيّ ﷺ سار إلى تبوك وأقام هناك بضعة عشر يوماً فلم يتحرك هرقل إلى مقابلته ولم يبعث إليه جيشاً رجع النبيّ ﷺ من غير قتال، قال سعيد بن جبير وقتادة هوازن وثقيف وغطفان يوم حنين، قلت ولم يصح أن النبيّ ﷺ دعا الأعراب يوم حنين وأيضاً

يكونوا أولي بأس شديد بالنسبة إلى عسكر الإسلام بل كانوا قليلاً في مقابلة جم غفير، وقال الزهري ومقاتل وجماعة هم بنو حنيفة أهل اليمامة وأصحاب مسيلمة الكذاب، قال رافع بن خديج كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعي أبو بكر الصديق (رض) إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم وهذا قول أكثر المفسرين ورجحه البيضاوي بقرينة قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ يعني بكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا غير كما يدل عليه قراءة أو يسلموا فإن أو حينئذ بمعنى إلى أن ولا شك أن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف وقتال غيرهم كأهل الروم ينتهي بالجزية فالآية دليل على إمامة أبي بكر فإنه دعى الناس لقتال أهل الردة، وقال ابن عباسُ وعطاء ومجاهد وابن جريج هم أهل الفارس فإنهم كانوا أشد بأس من غيرهم دعا الناس عمر بن الخطاب إلى قتالهم فالآية دليل على خلافة عمر المبنية على خلافة أبي بكر ومعنى يسلمون حينئذ ينقادون لإعطاء الجزية والجملتين المتعاطفتين بدل من ستدعون ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ لداعي ﴿يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ يعني الجنة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ تولياً ﴿كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ ذلك عام الحديبية ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦﴾ لتضاعف جرمكم قال البغوي فلما نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة كيف بنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ ضيق وشدة وعذاب في ترك الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الجهاد وغير ذلك ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي يعرض عن الطاعة بعد القدرة ﴿يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٧﴾ قرأ نافع وابن عامر ندخله ونعذبه بالنون على المتكلم، والباقون بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الله سبحانه.

﴿۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يعني بالحديبية هذه الجملة متصلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] الآية تأكيد لها وما بينهما معترضاتُ بهذه الآية سميت البيعة بيعة الرضوان والغرض من هذه الآية مدح المؤمنين والثناء عليهم ومما سبق حثهم على إيفاء ما بايعوا عليه، وفي الصحيحين عن جابر بن عبد اللّه قال كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض»(١) وروى مسلم عن أم بشر مرفوعاً: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»(٢).

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ من الصدق والوفاء ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ويعني ألقى عليهم الطمأنينة بالحضور عند ذكر الله تعالى والرضا بما أمر الله تعالى فوق الرضا بما تشتهيه نفوسهم ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا﴾ يعني فتح خيبر ﴿قَرِيبٗا﴾ قيل أقام النبيّ ﷺ بالمدينة بعد الرجوع من الحديبية عشر ليال كذا عند ابن عائد عن ابن عباسَ وعند سليمان التيمي خمسة عشر، وذكر

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب ٣٥، وأحمد في المسند ٣/٣٠٨.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٥٧، ٥٨، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ١٦٣، بلفظ: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة.

ابن عقبة عن ابن شهاب أقام بالمدينة عشرين ليلة في حديث المسور ومروان عند ابن إسحق أنه عليه السلام قدم المدينة في ذي الحجة فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم وكان فتح خيبر في سفر سنة سبع كذا في المغازي للواقدي، قال الحافظ إنه الراجح نقل الحاكم عن الواقدي ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ روىٰ البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر، وعن ابن عمر قال ما شبعنا من التمر حتى فتحت خيبر، قال الحافظ محمد بن يوسف الصالحي إن خيبر اسم ولاية مشتملة على حصون ومزارع ونخل كثيرة على ثلاثة أيام من الحديبية على يسار حاج الشام ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي الفتوح التي يفتح لهم إلى يوم القيامة فيه تسلية للمؤمنين انصرافهم من مكة بصلح ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني فتح خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ قال البغوي ذلك أن النبي ﷺ لما حاصر خيبر همت قبائل من بني أسد وغطفان أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة فكف الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، وقال ابن إسحاق كانت غطفان مظاهرين يهود خيبر على رسول الله ﷺ فبلغني أن غطفان لما سمعوا بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر خرجوا ليظاهروا يهود عليه فلما ساروا سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر، وروى ابن قانع والبغوي وأبو نعيم في العرفة عن سعيد بن شتيم عن أبيه(رض) أنه كان في جيش عيينة بن حصين في خيل غطفان لما جاء يمر خيبر قال فسمعنا صوتاً في عسكر عيينة أيها الناس أهليكم خولفتم فيه قال فرجعوا لا يتناظرون فلم تر لذلك بنا وما تراه كان إلا من قبل السماء، وقيل كف الناس عنكم يعني بأهل مكة بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ عطف على محذوفه لتكف أو فعجل أو لتأخذوا تقديره لتسلموا أو تغنموا لتكون أو علة لمحذوف تقديره وفعل ذلك لتكون الكفة أو الغنيمة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على صدقك فيما وعدتهم من فتح مكة وغير ذلك ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الثقة لفضل الله والتوكل عليه أو المعنى يثبتكم على الإسلام ويزيدكم بصيرة ويقيناً.

قصة غزوة خيبر: إنه ﷺ استخلف على المدينة سباع بن عرفطة كذا روى أحمد وابن خزيمة والحاكم عن أبي هريرة ولما تجهز النبيّ ﷺ والناس شق على يهود المدينة ولم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه، روى أحمد والطبراني عن أبي حدرد أنه كان لأبي شحم اليهودي عليه خمسة دراهم فلزمه فقال أجلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك قد وعد الله نبيه أن يغنم خيبر، فقال أبو شحم أتحسب أن قتال خيبر مثل قتال ما تلقون من الأعراب والتوراة فيها عشرة آلاف مقاتل وترافعا إلى رسول الله ﷺ فقال عليه السلام «أعطه حقه» فخرجت فبعت ثوبي بثلاثة دراهم الحديث، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى الصهباء وهي أدنى خيبر دعانا لأزواد فلم يؤت إلا السويق فترى فأكل وأكلنا معه ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلّى ولم يتوضأ رواه البخاري والبيهقي، قال محمد بن

عمرو ثم سار النبيُّ ﷺ حتى أتى إلى المنزلة التي وهي بسوق لخيبر صارت في سهم زيد بن ثابت فعرس رسول الله ﷺ بها ساعة من الليل وكانت يهود لا يظنون قبل ذلك أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وسلاحهم وعدوهم فلما أحسوا الخروج النبيّ ﷺ كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون محمد تغيرونا هيهات هيهات وكان ذلك شأنهم، فلما نزل رسول الله ﷺ بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ولم يصحح لهم ديك حتى طلعت الشمس فأصبحوا وأفئدتهم تخفق وفتحوا حصونهم وفي الصحيحين سار رسول الله ﷺ إلى خيبر فانتهى إليها ليلاً وكان عليه السلام إذا طرق قوماً لم يغتر عليهم حتى يصبح فإذا سمع أذاناً أمسك وإذا لم يسمع غار حتى يصبح فصلنا الصبح عند خيبر بغلس فلم يسمع أذاناً فلما أصبح ركب وركب المسلمون وخرج أهل قرية إلى مزارعهم بمكاتلهم ومساحيهم فلما رأوا رسول الله ﷺ قالوا محمد والخميس فأدبروا هاربين فقال رسول الله ﷺ ورفع يديه «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»(١) وابتدأ بأهل نطاة وصف رسول الله ﷺ ووعظهم ونهاهم عن القتال حتى يأذن لهم فعمل رجل من أشجع على يهودي وحمل عليه اليهودي فقتله فقال الناس استشهد فلان فقال رسول الله ﷺ بعد ما نهيت من القتال قالوا نعم فأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادى في الناس «لا تحل الجنة لعاص»(٢) وروى الطبراني عن جابر أن رسول الله ﷺ قال يومئذ «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإنكم لا تدرون ما تبتلون به فإذا لقيتم فقولوا اللّهم ربنا وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ثم الزموا الأرض جلوساً فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا»(٣) الحديث، قال ابن إسحاق ومحمد بن عمرو بن سعيد فرق رسول الله ﷺ الرايات وأذن للناس في قتال وحثهم على الصبر وأول حصن حاصره من النطاة ناعم وقاتل أشد القتال وقاتله أهل نطاة أشد القتال فلما أمسى تحول إلى الرجيع فكان رسول الله ﷺ يغدو على راياتهم حتى فتح الله الحصن عليهم، روى البيهقي وأبو نعيم ومحمد بن عمر أن المسلمين لما قدموا خيبر قدموا على ثمرة خضراء وهي دنيئة وخمة فأكلوا منها فأخذهم الحمى فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال «فرسوا الماء في الشنان فإذا كان بين الأذانين يعني من الصبح فاحذروا الماء واذكروا اسم الله» فكأنما نشطوا من العقل وبعد فتح ناعم حاصروا حصن الصعب بن معاذ، روى محمد بن عمر عن أبي أيسر كعب بن عمر أنهم حاصروه ثلاثة أيام وكان حصناً منيعاً، روى ابن إسحاق عن رجل من أسلم ومحمد بن عمر عن معتب الأسلمي قال أصابتنا معشر أسلم مجاعة حتى قدمنا خيبر وأقمنا عشرة أيام على حصن النطاة لا يفتح شيئاً فيها طعام فأرسلوا أسماء بن حارثة إلى رسول الله ﷺ فقال إن أسلم يقرأ عليك السلام ويقول أنا قد جهدنا من الجوع والضعف فادع

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ١٢، والأذان باب ٦، وصلاة الخوف باب ٦، والجهاد باب ١٣٠، والمناقب باب ٢٨، والمغازي باب ٣٨، ومسلم في الجهاد حديث ١٢٠، ١٢١.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) أخرجه بنحوه مسلم في الجهاد حديث ٢٠، وأبو داود في الجهاد باب ٩٧.

الله لنا فقال رسول الله ﷺ ما بيدي ما أقوتهم به قد علمت حالهم ثم قال: «اللّهم فافتح عليهم الأعظم حصناً فيها أكثره ودكاً» ودفع اللواء إلى حباب بن المنذر وندب الناس فما رجعنا حتى فتح الله حصن الصعب بن معاذ وما بخيبر حصن أكثر طعاماً وودكاً منه برز لحباب يوشع اليهودي فقتله حباب ثم برز له الزيال فبادره عمارة بن عقبة الغفاري فقال الناس بطل جهاده فقال عليه الصلاة والسلام ما بأس به يؤجر ويحمد، روى محمد بن عمرو عن جابر أنهم وجدوا في حصن الصعب من الطعام ما يكونوا يظنون من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودك ونادى منادي رسول الله ﷺ كلوا وامقلوا ولا تحملوا يعني لا تخرجوا به إلى بلادكم، روى البيهقي عن محمد بن عمرو قال لما تحولت اليهود من حصن الناعم وحصن الصعب بن معاذ إلى قلة الزبير يعني حصن الزبير بن العوام (رض) الذي صار في سهمه بعد وهو حصن على رأس قلة فأقام محاصرهم ثلاثة أيام فجاء اليهودي، يدعى غزال فقال يا أبا قاسم تؤمنني على أن أدلك على ما تستريح به من أهل ونخرج إلى الشق فإن أهل الشق قد هلكوا رعباً منك فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله فقال اليهودي إنك لو أقمت شهراً ما بالوا لهم ذبول تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمنعون منك فإن قطعت عنهم شربهم أصحروا لك، فسار رسول الله ﷺ إلى ذبولهم فقطعها فلما قطع عليهم مشاربهم خرجوا وقاتلوا أشد القتال وقتل من المسلمين يومئذ نفر وأصيب من اليهود ذلك اليوم عشرة واقتحمه رسول الله ﷺ وكان هذا آخر حصون النطاة فلما فرغ من النطاة تحول إلى الشق وأول حصن بدأ به منها حصن على قلعة يقال لها سموان فقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديداً، خرج رجل من اليهود يقال له غزول فقتله حباب بن المنذر فخرج رجل آخر من يهود فقتله أبو دجانة وأخذ درعه وسيفه وجاء به إلى رسول الله ﷺ فنقله رسول الله ﷺ ذلك، وأحجم اليهود عن البراز فكبر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه يقدمهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً فهرب من كان فيه من المقاتلة حتى صاروا إلى حصن النزال بالشق وجعل يأتي من بقي من خل النطاة إلى حصن النزال فغلقوه وامتنعوا فيه أشد الامتناع ورجف رسول الله ﷺ في أصحابه فقاتلهم وكانوا أشد أهل الشق رمياً للمسلمين بالنبل والحجارة ورسول الله ﷺ معهم حتى أصاب النبل ثياب النبيّ ﷺ وعلقت به فأخذ رسول الله ﷺ النبل فجمعها ثم أخذ لهم كفاً من حصى فحصب به حصنهم فرجف الحصن بهم ثم ساخ في الأرض حتى المسلمون فأخذوا أهله أخذاً، ولما فتح رسول الله ﷺ حصون النطاة والشق انهزم من سلم منهم إلى حصون الكتيبة وأعظم حصونها القموص وكان حصناً منيعاً ذكر ابن أبي عقبة أن رسول الله ﷺ حاصره قريباً من عشرين ليلة وكانت أرضاً وخمة، روى الشيخان عن سهل بن سعد والبخاري وأبو نعيم عن سلمة بن الأكوع وأبو نعيم عن عمر وابن عباس وسعد بن أبي وقاص الخدري وعمران بن حصين وجابر بن عبد الله ومسلم والبيهقي عن أبي هريرة وأحمد وأبو يعلى والبيهقي عن علي وأبو نعيم والبيهقي عن بريدة قال بريدة كان رسول الله ﷺ يأخذه الشقيقة فيمكث اليوم واليومين ولا يخرج فلما نزل خيبراً

أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فأرسل أبا بكر فأخذ راية رسول الله ﷺ فقاتل قتالاً شديداً ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول ثم رجع ولم يكن فتح وفي حديث علي أن الغلبة كانت لليهود في اليومين فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله عليه ليس بفرار يحب الله ورسوله ويأخذها عنوة» وقال بريدة: فتباطينا نفساً أن يفتح غداً ويأت الناس ليلتهم أيهم يعطى فلما أصبح غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يعطيها قال أبو هريرة، قال عمر فما أحببت الإمارة قط حتى كان يومئذ فلما أصبح رسول الله ﷺ وصلى صلاة الغداة، ثم دعا باللواء وقام قائماً قال ابن شهاب فوعظ الناس ثم قال «أين عليٌّ؟» قالوا تشتكي عينه فأرسلوا إليه قال سلمة فجئت به أقوده، فقال له رسول الله ﷺ «ما لك؟» قال رمدت حتى لا أبصر ما قدامي، قال «ادن مني» وفي حديث علي عند الحاكم فوضع رأسي في حجره ثم بزق في يده فدلك بها عيني قالوا فبرىء كأن لم يكن به وجع قط فما وجعهما حتى مضى لسبيله ودعا له وأعطاه الراية، قال يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا قال انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله وحق رسوله فواللَّه لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم» فخرج علي حتى ركزها تحت الحصن فاطلع يهودي من رأس الحصن فقال من أنت؟ قال علي، قال اليهودي غلبتم والذي أنزل التوراة على موسىٰ فما رجع حتى فتح الله على يديه، روى محمد بن عمرو عن جابر قال أول من خرج من حصون خيبر مبارز الحارث أخو مرحب فقتله علي رضى الله عنه ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن وبرز عامر وكان رجلاً طويلاً جسيماً فقال النبيّ ﷺ طلع عامر أترونه خمسة أذرع وهو يدعو إلى البراز فخرج إليه علي بن أبي طالب فقتله ثم برز ياسر «فبرز له علي بن أبي طالب فقال له الزبير بن العوام» أقسمت عليك إلاخليت بيني وبينه ففعل فقالت صفية لما خرج إليه الزبير قلت يا رسول الله يقتل ابني فقال رسول الله ﷺ بل ابنك يقتله إن شاء الله تعالى فقتله الزبير فقال عليه السلام فداك عم وقال «لكل نبي حواري وحواري الزبير».

وفي حديث سلمة بن الأكوع خرج مرحب يرتجز فقتله علي، وروى أحمد عن علي قال لما قتلت مرحباً جئت برأسه إلى رسول الله ﷺ، وروى البيهقي ومحمد بن عمرو عن جابر بن عبد اللَّه أن محمد بن مسلمة قتل مرحباً والصحيح ما في صحيح مسلم أن علياً قاتله وروى ابن إسحاق عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال خرجنا مع عليٍّ حين بعثه رسول الله ﷺ، فلما دنى من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فقربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده فتناول عليٌّ باباً كان عند الحصن فترّس به من نفسه فلم يزل بيده وهو يقاتل حتى فتح الله ثم ألقاه من يده حين فرغ فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فلم نقلبه.

وروى البيهقي من طريقين عن المطلب بن زياد عن ليث بن سليم عن أبي جعفر محمد ابن علي عن آبائه قال حدثني جابر بن عبد اللَّه أن علياً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد

عليه المسلمون فافتتحوها وأنه جرب ذلك فلم يحمله أربعون رجل ورجاله ثقات إلا ليث بن سليم هو ضعيف قال البيهقي وروي من وجه آخر ضعيف عن جابر قال اجتمع عليه سبعون رجلاً وكان جهدهم أن أعادوا الباب، وقال الصالحي قال ورواه الحاكم والله أعلم وأصاب من الغموض حصن أبي الحقيق سبايا منهم صفية بنت حيي بن أخطب جاء بلال بها وبأخرى معها فمر بهما على قتلى يهود فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها فلما رآها رسول الله ﷺ «قال أغربوا هذه الشيطانة» وأمر بصفية فخرجت خلفه وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ اصطفاها لنفسه وقال رسول الله ﷺ لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى «أنزعت منك الرحمة يا بلال جئت بامرأتين على قتلى رجالهما» وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن قمراً وقع في حجرها فعرضت رؤياها على زوجها فقال يا هذا ألا إنك تتمنين ملك الحجاز محمداً فلطم وجهها لطمة اخضرت عينها فيها فأتى رسول الله ﷺ بها وبها أثر منها فسألها فأخبرته هذا الخبر.

وفي رواية جاء دحية فقال يا نبيّ الله أعطيني جارية من السبي فقال اذهب فخذ جارية فأخذ صفية بنت حيي فجاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال يا نبيّ الله أعطيت دحية بنت حيي سيدة قريظة والنضير لا تصلح إلا لك، قال ادعوه بها فجاء بها فلما نظر إليها النبيّ ﷺ قال خذ جارية من السبي غيرها قال فأعتقها النبيّ ﷺ وتزوجها حتى إذا كان الطريق جهزها له أم سلمة فأهدتها له من الليل فأصبح النبيّ ﷺ عروساً فقال من كان عنده شيء في فليجيء به وبسط نطعاً فجعل الرجل يجيء بالتمر وجعل الآخر يجيء بالسمن قال وأحسبه قد ذكر السويق فحاسوا حيساً وكانت وليمة رسول الله ﷺ، قال ثابت يا أبا حمزة ما أصدقها قال نفسها أعتقها وتزوجها، وفي الصحيحين عن عبد اللّه بن أبي أوفى قال أصابتنا مجاعة ليالي خيبر فلما كان يوم خيبر وقعنا في الحمر الإنسية فانتحرناها فلما غلت القدر ونادى منادي رسول الله ﷺ أن ألقوا القدور ولا تأكلوا لحوم الحمر شيئاً، وعن ابن عباس قال نهى رسول الله ﷺ عن بيع المغانم حتى تقسم وعن الحبالى أن توطأ حتى يضعن ما في بطونهن قال أتسقي زرع غيرك وعن لحوم الحمر الأهلية وعن لحم كل ذي ناب من السباع رواه الدارقطني روى محمد بن عمرو عدة الحمر التي ذبحوها كانت عشرين أو ثلاثين، قال ابن إسحاق كان رسول الله ﷺ يأخذ الأموال مالاً مالاً ويفتحها حصناً حصناً حتى انتهوا إلى الحصنين الوطيح والسلالم وكانا آخر حصون خيبر فتحاً فجعل اليهود لا يطلعون من حصنهم حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق حين رأى أنه لا يبرز منهم أحد ولا أيقنوا بالهلكة، وقد حضرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوماً سألوا رسول الله ﷺ الصلح وأرسل كنانة بن أبي الحقيق رجلاً من اليهود يقال له شماخ فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بمن لديهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء

والكراع والحلقة وعلى التبر إلا ثوباً على ظهر إنسان فقال رسول الله ﷺ برئت ذمة الله وذمة رسوله أن تكتمون شيئاً فصالحوه على ذلك فقبضها رسول الله ﷺ الأول فالأول وجد من ذينك الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وخمسمائة قوس عربية بجعابها ووجد في الكثيبة خمسمائة قوس بجعابها، روى ابن سعد والبيهقي عن ابن عمر وابن سعد عن ابن عباس فذكر الصلح كما ذكرنا أن لا يكتموه شيئاً فإن فعلوا فلا ذمة لهم، قال ابن عباس فأتي بكنانة بن أبي الحقيق لزوج صفية والربيع أخوه وابن عمه قال رسول الله ﷺ ما فعل مسك حيي الذي جاء به النضير؟ وكان مسكاً مملوءاً من الحلي، قالا أذهبه النفقات والحروب، فقال العهد قريب والمال أكثر من ذلك فقال بهما رسول الله ﷺ إنكما إن كتمتماني شيئاً فإن اطلعت عليه استحللت به دماءكما وذراريكما قال نعم قال عروة ومحمد بن عمر فيما روى البيهقي عنهما فأخبر الله تعالى نبيه بموضع الكنز، وقال عليه الصلاة والسلام لكنانة إنك مفتر بأمر السماء فدعا رجلاً من الأنصار وقال اذهب إلى فراخ كذا وكذا فانظر نخلة عن يمينك ونخلة عن شمالك فأتني بما فيها فجاء بالآنية والأموال فقومت بعشرة آلاف دينار فضرب أعناقهما وسبى أهلهما بالنكث الذي نكثاه.

روى البخاري عن ابن عمر والبيهقي عنه وعن عروة وعن موسى بن عقبة أن خيبر لما فتحها رسول الله ﷺ قالوا دعنا يا محمد نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها فأعطاهم رسول الله ﷺ على أن لهم الشطر من كل زرع ونخل وشيء ما بدأ لرسول الله ﷺ في لفظ نقركم على ذلك ما شئنا في لفظ ما أقركم الله، وكان عبد اللّه بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرجها عليهم ثم يقمنهم الشطر فشكوا إلى رسول الله ﷺ ابن رواحة وأرادوا أن يرشوا ابن رواحة فقال يا أعداء الله أتطعموني السحت والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن أعدل عليكم فقالوا بهذا أقامت السموات والأرض فأقاموا بأرضهم على ذلك فلما كان زمن عمر غشوا المسلمين وألقوا عبد اللّه بن عمر من فوق بيت ففدعوا يديه ويقال بل سحروه بالليل وهو نائم على فراشه فكوع حين أصبح كأنه في وثاق وجاء أصحابه فأصلحوا من يديه فقام عمر خطيباً في الناس فقال إن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال نقركم ما أقركم الله وإن عبد اللّه بن عمر خرج إلى ماله هناك فعدى عليه من الليل ففدعت يداه وليس لنا هناك عدو غيرهم وهم تحتنا وقد رأيت إجلائهم فمن كان له هم بخيبر فليحضر حتى يقسمها فلما أجمع على ذلك قال رئيسهم وهو أحد بني أبي الحقيق لا تخرجنا دعنا نكون فيها كما أقرنا أبو القاسم وأبو بكر فقال عمر لرئيسهم أتراه سقط عنه قول رسول الله ﷺ كيف بك إذا خرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة فقاتلك هزيلة من أبي القاسم قال كذبت وأجلاهم عمر. روى الشيخان عن أنس وأحمد وابن سعد وأبو نعيم عن ابن عباس وغيرهم عن جابر وأبي سعيد وأبي هريرة والزهري أن زينب بنت

الحارث امرأة لسلام بن مثكم ابنة أخي مرحب أهدت لصفية شاة مسمومة مصلية وقد قالت أي عضو الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها الذراع، فأكثرت فيها من السم ثم سمت سائر الشاة فدخل رسول الله ﷺ على صفية ومعه بشر بن البراء بن معرور فقدمت الشاة المصلية فتناول النبيّ ﷺ الذراع فانتهس منها فلاكها وتناول بشر بن البراء عظماً فانتهس منه، قال ابن إسحاق أما بشر فساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظها، وقال ابن شهاب فلما اشترط رسول الله ﷺ لقمة اشترط بشر فقال رسول الله ﷺ ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة تخبرني أني بقيت فيها، فقال بشر بن البراء والذي أكرمك لقد وجدت كذلك في أكلتي فما منعني أن ألفظها إلا أني أعظمت أن طعاماً فلما سفت ما في فيك لم أكن لأرغب نفسي عن نفسك ورجوت أن لا تكون اشترطها وفيها بغي فلم يقم بشر من مقامه حتى عاد لونه كالطيلسان ومات واحتجم رسول الله ﷺ كامله يومئذ حجمه أبو هند وبقي رسول الله ﷺ حتى كان وجعه الذي توفي فيه فقال: «ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة المسمومة يوم خيبر حتى كان هذا أوان قطع أبهري» فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً فأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهودية أسممت هذه الشاة فقالت من أخبرك؟ قال أخبرتني هذا الذي في يدي وهي الذراع، قالت نعم، قال ماحملك على ما صنعت؟ قالت بلغت من قومي ما لم يخفك عليك فقلت إن كان ملكاً استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبر فتجاوز عنها، وروى عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري أنها أسلمت وتركها رسول الله ﷺ وجزم بإسلامها سليمان التيمي ولفظ بعد قولها وإن كنت كاذباً أرحت الناس منك وقد استبان بي أنك صادق وأنا أشهدك ومن حضرك أني على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله قال فانصرف رسول الله ﷺ عنها حين أسلمت، ووقع عند البزار من حديث أبي سعيد أن رسول الله ﷺ بعد سؤاله للمرأة اليهودية واعترافها بسط يده إلى الشاة وقال لأصحابه كلوا بسم الله قال فأكلنا وذكرنا اسم الله فلم يضر أحداً منا، قال الحافظ حماد الدين فيه نكارة وغرابة شديدة وذكر محمد بن عمر أن رسول الله ﷺ أمر بلحم الشاة فأحرق، وعن جابر أن رسول الله ﷺ لما مات بشر بن البراء أمر باليهودية فقتلت» رواه أبو داود وعن محمد بن عمر بأسانيد له فدفعها إلى أولياء بشر بن البراء فقتلوها، قال البيهقي يحتمل أنه تركها أولاً قال السهيلي تركها لأنه كان لا ينتقم لنفسه ثم قتلها ببشر قصاصاً قال الحافظ تركها لكونها أسلمت وإنما أخر قتلها حتى مات بشر لأن بموته يتحقق وجوب القصاص.

قصة قدوم جعفر؛ عن أبي موسى الأشعري قال لما بلغنا مخرج النبيّ ﷺ يعني من مكة ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه فألقتنا سفينتنا بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب (رض) فقال جعفر إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر فأسهم لنا وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئاً إلا لمن شهد معه إلا أصحاب سفينتنا، ولما قدم جعفر قال رسول الله ﷺ «والله لا أدري بأيهما

أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر» ولما نظر جعفر إلى رسول الله ﷺ خجل وقال رسول الله ﷺ لأصحاب جعفر «لكم هجرتان» وقبل رسول الله ﷺ جعفر بين عينيه رواه البيهقي.

قصة قدوم أبي هريرة والدوسيين وعن أبي هريرة قدمت المدينة ونحن ثمانون بيننا من دوس ثم جئنا خيبر وقد فتح رسول الله ﷺ النطاة وهو محاصر لكتيبة فأقمنا حتى فتح الله علينا فكلم المسلمين فأشركنا في سهمانهم رواه أحمد والبخاري في التاريخ والحاكم والبيهقي وابن خزيمة والطحاوي.

قصة فدك، فلما سمع أهل فدك بما صنع رسول الله ﷺ بخيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه الصلح أن يسيرهم ويحقن لهم دمائهم ويخلو الأموال ففعل على أنا إذا شئنا أخرجناكم فصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت خيبر للمسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب فأجلاهم عمر لما أجلى يهود خيبر.

قسمة خيبر: ولما كان فتح الوطيع والسلالم بالصلح فكان هذا لنوائب المسلمين وأعطىٰ منه رسول الله ﷺ الأشعري بين الدوسيين أصحاب السفينتين وهو المراد من قول موسى بن عقبة أن بعض خيبر كان صلحاً وكان مشاورة رسول الله ﷺ أهل الحديبية في إعطائهم ليس استنزالهم عن شيء من حقهم وإنما هي المشورة العامة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] قال ابن إسحاق وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق والنطاة والكثيبة وكانت الكثيبة خمس الله سهم النبيّ ﷺ وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وطعم أزواج النبيّ ﷺ وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدك بالصلح منهم محيصة بن مسعود أعطاه ثلاثين وسقاً من شعير وثلاثين وسقاً من تمر وكانت النطاة والشق في أسهم الغزاة جزاها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً نطاة من ذلك خمسة أسهم والشق ثلاثة عشر سهماً قسمت على أهل الحديبية من شهد خيبر منهم ومن غاب عنها ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد اللّٰه بن حرام قسم له كسهم من حضر كانوا ألفاً وأربعمائة رجلاً ومائتي فرس كان لفرس سهماً ولفارسه سهم وكان لكل رجل سهم وكان سهم رسول الله ﷺ كسهم أحدهم وكان لكل سهم من سهام خيبر ثمانية عشر رأساً جمع إلى رأس مائة سهم كان علي بن أبي طالب رأساً والزبير بن العوام رأساً وسرد ذلك ابن إسحاق إلى آخره، قال ابن سعد أمر رسول الله ﷺ فجزّأ غنائم خيبر خمسة أجزاء فكتب في سهم منها للّٰه وسائر السهمان إغفال وقسم أربعة أخمس على ثمانية عشر سهماً كل مائة رجل وللخيل أربعة أسهم.

قصة فتح وادي القرى: لما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى فدعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا ففتحها رسول الله ﷺ عنوة وغنمه بعالي أموال أهلها وأصاب المسلمون منها أثاثاً ومتاعاً فخمس رسول الله ﷺ ذلك وترك الأرض في أيدي اليهود وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر، ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ منصوب عطفاً على مغانم كثيرة يعني أوعدكم مغانم أخرى أو عطفاً على هذه يعني عجل لكم مغانم أخرى بعد هذا أو بفعل محذوف يفسره قد

أحاط الله بها يعني قضى لكم مغانم أخرى وعلى التقادير كلها قوله تعالى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ صفة أخرى وجاز أن يكون أخرى مرفوعاً على الابتداء ولم تقدروا عليها صفة له وقوله تعالى ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ خبر المبتدأ أو يكون لم تقدروا عليها خبر المبتدأ وقد أحاط الله حال من الضمير في عليها والمراد بمغانم فارس والروم وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم وكان قولاً لهم حتى قدروا عليها بالإسلام كذا قال ابن عباس والحسن والمقاتل وقال قتادة هي مكة وقال عكرمة حنين، وقال مجاهد كل ما فتح الله بعد ذلك وقد أحاط الله بها أي استولى فأظفركم أو أحاط الله بها علماً أن يفتحها لكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، وإن لم تقدروا عليها ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ ينصرهم ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ منصوب على المصدرية يعني سن الله سنة غلبة أوليائه وأنبيائه على أعدائه قال الله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] وقال ﴿إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [البقرة: ١٩٦] ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت تلك السنة قديماً في الأمم السابقة ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغيراً.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ قد مر فيما سبق من حديث أنس أن ثمانين رجلاً من أهل مكة في رواية سبعين هبطوا من جبل التنعيم فأخذوا فعفى النبيّ ﷺ عنهم فنزلت هذه الآية، ومن حديث عبد اللّه بن مغفل وفيه إذ خرج علينا ثلاثون شاباً الحديث ومن حديث مسلم بن أكوع اخترطت سيفي على أربعة الحديث ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ أبو عمرو بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الكفار والباقون بالتاء على الخطاب للمؤمنين ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازي كلا على

حسب ما فعل ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني أهل مكة ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أن تطوفوه ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ وهي ما يهدي إلى مكة من الإبل والبقر والشاة ﴿مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ﴾ معطوف على الضمير المنصوب في صدوكم وأن يبلغ معطوف على عن المسجد الحرام فتقدير عن من قبيل العطف على معمولي عامل واحد بحرف واحد وجاز أن يكون أن يبلغ متعلقاً بمعكوفاً بتقدير من ومعكوفاً حال من الهدي ﴿مَحِلَّهُۥ﴾ يعني الحرام فإنه موضع حلول أجله، احتج الحنفية على أنه لا يجوز ذبح الهدايا إلا في الحرم والمحصر يرسل الهدي إلى مكة وقد ذكرنا هذه المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ يعني لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين أو لم تعلموهم مؤمنين ورجال مبتدأ موصوف بصفات بعد لولا الامتناعية ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل اشتمال من المبتدأ بتقدير المضاف والخبر محذوف يعني هو موجودين بمكة وجواب لولا محذوف أغنى عنه جواب لو تزيلوا يعني لولا كراهة أن تطؤوا المؤمنين عند نصرنا وغلبتكم عليهم لعذبنا الذين كفروا بالقتل والأسر ﴿فَتُصِيبَكُم﴾ عطف على تطؤهم ﴿مِّنْهُم﴾ أي من جهنم ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ قال ابن زيد أثم فإن قتل الخطأ لا يخلوا عن إثم كما يدل عليه وجوب الكفارة وقال ابن إسحاق غرم الدية وقيل الكفارة، وقيل معناه الحرب وأطلق ههنا على المضرة مطلقاً تشبيهاً بالحرب ومن المضرة التأسف على قتل المؤمنين وتعبير الكفار بذلك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بأن تطؤهم أو تصيبكم على سبيل التنازع، أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنيد بن سبع قال قاتلت النبيّ ﷺ أول النهار كافراً وقاتلت معه آخر النهار مسلماً وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة وفينا نزلت ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه السياق أي كان ذلك المنع من دخول مكة عنوة ليدخل الله ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في دينه وجنته ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من أهل مكة فقد آمن كثير من المشركين يوم الفتح وقيل ذلك أو المعنى ليدخل الله المؤمنين المستضعفين في رحمته الدنيوية من العافية وطول البقاء ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي تفرقوا وامتاز المسلمون من الكفار ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي من أهل مكة في الدنيا بالقتل والأسر ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ظرف متعلق بقوله عذبنا أو صدوكم أو مفعول لمحذوف أي اذكر ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ حيث صدوا رسول الله ﷺ عن الطواف وأنكروا بسم الله الرحمان الرحيم وأنكروا محمداً رسول الله، قال مقاتل قال أهل مكة قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا فتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا واللات والعزى لا يدخلونها فهذه ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل من الحمية ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث اطمأنوا وامتثلوا أمر الله تعالى في المنع عن القتال مع قدرتهم عليه ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدي وابن زيد وأكثر المفسرين أنها لا إله إلا الله والله أكبر، وقال عطاء بن أبي رباح هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، قال عطاء الخراساني هي لا إله إلا الله محمد رسول

الله، وقال الزهري هي بسم الله الرحمان الرحيم والمآل واحد وإضافة الكلمة إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها والمراد كلمة أهل التقوى المراد بإلزامهم إياها ثباتهم عليها بترك الحمية ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ من كفار مكة ﴿وَأَهْلَهَا﴾ يعني كانوا أهلها في علم الله تعالى ولذلك اختارهم لتأييد دينه وصحبة نبيه ﷺ وهذه الآية وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨] يبطل مذهب الروافض حيث يدعون كفر الصحابة ونفاقهم دمرهم الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ حتى بما أضمره الصحابة(رض) من الإيمان وحب رسول الله ﷺ ﴿عَلِيمًا﴾ ولما وقع الصلح وتقرر الرجوع إلى المدينة بغير دخول مكة وقد كان رسول الله ﷺ رأى رؤيا أن يدخلها كما ذكرنا في القصة قال الصحابة(رض) أين رؤياك يا رسول الله ﷺ؟ فنزلت الآية:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ كذا ذكر البيهقي وغيره عن مجاهد والجملة جواب قسم محذوف أورد بصيغة الماضي والمراد به المستقبل ليدل على القطع في وقوعه، قال الجوهري الصدق والكذب يكونان في القول يعني الخبر إذا طابق الواقع كان صدقاً وإلا كذباً ويستعملان في الفعل أيضاً فالصدق بمعنى التحقيق قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٢٣] يعني حققوا العهد وفي هذه الآية أيضاً صدق فعل يعني حقق الله رؤيا الرسول ﷺ وعلى هذا الرؤيا بدل اشتمال من رسوله وجاز أن يكون رسوله منصوباً بنزع الخافض يعني حقق لرسوله الرؤيا أيضاً، قال الجوهري الصدق قد يتعدى إلى مفعولين قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وعلى هذا رسوله المفعول الأول والرؤيا مفعوله الثاني، وقال البيضاوي معناه صدقه في رؤياه، قال في المدارك حذف الجار وأوصل الفعل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالحق أي الحكمة البالغة حال من الرؤيا أو صفة لمصدر محذوف أي صدقاً متلبساً بالحق وهو القصد إلى التمييز بين الثابت على الإيمان والمتزلزل فيه وجاز أن يكون بالحق قسماً إما باسم الله تعالى وبنقيض الباطل وجوابه ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ وعلى الأولين هذا جواب قسم محذوف، وقال ابن كيسان لتدخلن من قول رسول الله ﷺ لأصحابه حكاية عن رؤياه فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك وجاز أن يكون من قول ملك الرؤيا حكاه الله تعالى وعلى التقديرين تقييده ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مع كون الرسول الله ﷺ والملك على يقين منه تأدباً بآداب الله تعالى حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤] قال أبو عبيدة أن بمعنى إذ مجازه إذ شاء الله، وقال الحسن بن الفضيل يجوز أن يكون الاستثناء من الدخول لأن بين الرؤيا وتصديقها كانت سنة وقد مات في تلك السنة فمجاز الآية ليدخلن المسجد الحرام كل واحد منكم إنشاء الله ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال من فاعل لتدخلن والشرط مفترض ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ يعني محلقين قوم منكم جميع شعور رؤوسهم ومقصرين آخرين بعض شعورها حالان من الضمير في آمنين أو حال مقدرة من فاعل لتدخلن ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة لآمنين أو استئناف يعني لا تخافون بعد ذلك ﴿فَعَلِمَ﴾ الفاء للسببية عطف على

محذوف تقديره آخر الدخول لحكمة فعلم من الحكمة في التأخير ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ﴾ عطف على آخر المقدر ﴿مِن دُونِ﴾ أي أقرب من ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدخول ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني فتح خيبر أو صلح الحديبية.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي متلبساً به أو السببية أو لأجله ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لم يعني جنس الأديان كلها بنسخ ما كان حقاً وإظهار فساد ما كان باطلاً بالحجج والآيات أو بتسليط المسلمين على أهلها في وقت من الأوقات ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ الباء زائدة ﴿شَهِيدًا﴾ حال من الله أو تميز من النسبة يعني كفى الله شاهداً أو كفى شهادة الله على ما وعد من الفتح أو على رسالة الرسول بإظهار المعجزات على يديه وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من دخول المسجد الحرام وكلتاهما تأكيدان لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١] وما بينهما معترضات ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ جملة مبنية للمشهود به ويجوز أن يكون رسول الله صفة ومحمد خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي أرسله بالهدى محمداً ومبتدأ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ معطوف عليه وما بعده خبرهما والموصول مبتدأ وما بعده خبره والجملة معطوف على الجملة ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ امتثالاً لأمر الله تعالى حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] وقال ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] وقال ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وأمثال ذلك كثيرة ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يتراحمون فيما بينهم ويتوادون حباً لله ولرسوله فإن محب المحبوب محبوب في الحديث القدسي «أين المتحابون في جلالي اليوم أظلهم تحت ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»(١) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً، وسيجيء قوله ﷺ «من أحبهم فبحبي أحبهم»(٢) ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] رغم أنف الروافض الذين يزعمون أن أصحاب محمد كانوا يتباغضون بينهم ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ يا محمد ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لاشتغالهم بالصلاة في كثير من الأوقات فإن الصلاة معراج المؤمنين حالان مترادفان من ضمير المنصوب في تراهم وكذلك ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الثواب بالجنة ورؤية الله تعالى ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ منه تعالى.

﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ مبتدأ وخبر والجملة خبر لما سبق ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ حال من الضمير المستكن في الظرف قال قوم هو نور وبياض وجوههم يوم القيامة يعرفون به أنهم سجدوا في الدنيا وهي رواية العوفي عن ابن عباس، وقال عطار بن أبي رباح والربيع بن أنس استنارت وجوههم في الدنيا من كثرة الصلاة، وقال شهر بن حوشب يكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر يعني في الآخرة، وقال قوم هو السمت الحسن والخشوع والتواضع وهي رواية الوالبي عن ابن عباس وهو قول مجاهد، وقال

---

(١) أخرجه مسلم في البر حديث ٣٨.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٥٨، وأحمد في المسند ٤/ ٨٧، ٥/ ٥٤، ٥٧.

الضحاك صفرة الوجه من السهر، وقال الحسن إذا رأتهم حسبتهم مرضى وما هم مرضى، وقال عكرمة وسعيد بن جبير هو أثر التراب على الجباه، وقال أبو العالية لأنهم كانوا يسجدون على التراب دون الأثواب يعني تواضعاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ قال البغوي ههنا تم الكلام، ثم ذكر الله سبحانه ما في الإنجيل عن نعتهم فقال ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ الخ وجاز أن يكون مثلهم في الإنجيل معطوفاً على مثلهم في التوراة يعني ذلك مذكور في الكتابين وكون قوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ﴾ الخ تمثيلاً مستأنفاً وجاز أن تكون تلك الإشارة مبهمة يفسرها قوله تعالى ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ الجملة مع ما عطف عليه صفات زرع قرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء والباقون بإسكانها وهما لغتان بمعنى فروع الزرع أي أول ما خرج من الحب ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي صار من الرقة إلى الغلظ ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق قرأ ابن كثير سؤقه بالهمزة والباقون بغير الهمزة ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بكثافته وغلظه وقوته وحسن منظره هذين المثلين ضربهما الله تعالى لأصحاب محمد ﷺ لكن الأول منهما يصدق على غير الصحابة أيضاً من خيار الأمة والثاني منهما مختص بالصحابة لا يشارك فيه أحد غيرهم فإن الله سبحانه أرسل محمداً ﷺ وحده كالزراع بذر في الأرض فآمن به أبو بكر وعلي وبلال ورجال متعددون بعدهم منهم عثمان وطلحة والزبير والسعد وسعيد وحمزة وجعفر وغيرهم حتى كان عمر متمم أربعين رجلاً كزرع أخرج شطأه، فكان الإسلام في بدو الأمر غريباً كاد الكفار يكونون عليه لامحائه لبداً لولا حماية الله تعالى فأزره الله تعالى بمجاهدات الصحابة من المهاجرين والأنصار حين سقوا زرع الدين بدمائهم في حياة النبيّ ﷺ وبعد وفاته لا سيما في خلافة أبي بكر وعمر فاستوى الدين على سُوقه وظهر على الدين كله واستغنى عن حماية غيرهم بحيث يعجب الزراع حتى قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال عليه الصلاة والسلام «لا تجتمع أمتي على الضلالة»(١) وقال «لا تزال من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ومن خالفهم»(٢) ولأجل هذه الخصوصية سبقوا في مضمار الفضل على كل سابق بحيث لا يمكن لأحد من الأفاضل أن يبلغ درجة أي منهم حتى قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»(٣) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري وروى أحمد نحوه من حديث أنس، وقال رسول الله ﷺ «ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة»(٤) رواه الترمذي عن بريدة وهذه الخصوصية هي مادة الفضل غالباً فيما بين الصحابة فمن كان أسبق إيماناً كأبي بكر

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن باب ٨.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٨، ومسلم في الإمارة حديث ١٧٠، ١٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ٥٢، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٢١، ٢٢٢.

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٥٨.

أو أكثر موازرة للدين حين ضعفه كعمر كان أفضل ممن ليس كذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠] وقال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقد استوفينا فضائل الصحابة عموماً وخصوصاً ونقلاً وعقلاً في السيف المسلول والله تعالى أعلم، قال البغوي هذا مثل ضربه الله عز وجل لأصحاب محمد ﷺ في الإنجيل أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون، قال قتادة مثل أصحاب محمد في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقيل الزرع محمد والشطأة أصحابه والمؤمنون، وروي عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال محمد رسول الله والذين معه أبو بكر أشداء على الكفار، عمر بن الخطاب رحماء بينهم عثمان بن عفان تراهم ركعاً سجداً علي بن أبي طالب يبتغون فضلاً من الله ورضواناً بقية العشرة المبشرة بالجنة كمثل زرع محمد ﷺ أخرج شطأه أبو بكر فآزره عمر فاستغلظ عثمان للإسلام فاستوى على سوقه علي بن أبي طالب استقام الإسلام بسيفه يعجب الزراع، في المدارك عن عكرمة أخرج شطأه بأبي بكر الخ نحو ما ذكر والله تعالى أعلم، قال البغوي قال عمر لأهل مكة بعدما أسلم لا يعبد الله سراً بعد هذا اليوم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ الضمير في بهم عائد إلى الذين معه أو إلى شطأ من حيث المعنى فإن المراد بالشطأ الذي خرج بعد الزرع الداخلون في الإسلام الجار والمجرور متعلق بمحذوف دل عليه السياق يعني جعلهم الله أشداء ورحماء وكثرهم وقواهم وقوى بهم الإسلام ليغيظ بهم الكفار يعني غيظاً للكافرين، قال أنس بن مالك (رض) من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب محمد ﷺ فقد أصابته هذه الآية، وعن عبد اللّه بن مغفل المزني قال: قال رسول الله ﷺ «الله الله في أصحابي الله الله لا تتخذوهم غرضاً من بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن أذاهم فقد أذاني ومن أذاني فقد أذى الله ومن أذى الله فيوشك أن يأخذه»(١) رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن سرك أن تكون من أهل الجنة فإن قوماً ينتحلون حبك يقرؤون لا يجاوز تراقيهم نبزهم الرافضة فإن أدركتهم فجاهدهم فإنهم مشركون»(٢) رواه البغوي والدارقطني وفي إسناده نظر، وقد ورد في فضائل الصحابة عموماً وخصوصاً ما لا يكاد يحصى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾ كلمة من للبيان والضمير يعود إلى ما يعود إليه ضميريهم ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩﴾﴾ [المائدة: ٩] تنكير مغفرة وأجر للتعظيم وقد انعقد الإجماع على أن الصحابة كلهم عدول وكلهم مغفور لهم والله أعلم»

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه قبل قليل.

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره ٦/٢١٧، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣١٦٣٥.

سورة الحجرات

آياتها ثماني عشرة آيةً وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ
أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ
فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ
إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)
وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ
تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾

روى البخاري وغيره من طريق ابن جريج عن أبي مليكة أن عبد اللّه بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر أمّر القعقاع بن معبد وقال عمر بل أمّر الأقرع بن الحابس فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافي وقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾[1] الآية، قرأ يعقوب لا تقدموا بفتح التاء والدال من التقدم بحذف إحدى التاءين والجمهور بضم التاء وكسر الدال من التقديم، قال البغوي هو أيضاً لازم بمعنى التقديم مثل بين وتبين وقيل إنه متعد والمفعول محذوف ليذهب الوهم إلى كل ما يمكن أي لا تقدموا قولاً ولا فعلاً أو متروك، ونزل الفعل منزلة اللازم يعني لا يصدر منكم التقديم ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بين يدي مستعارة مما بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه ففيه تمثيل للتقدم الزماني بالتقدم المكاني والمعنى لا تقولوا قولاً ولا تفعلوا شيئاً قبل أن

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب ٦٨، وتفسير سورة ٤٩، باب ٢، والنسائي في القضاة باب ٦.

يحكمانه، قال الضحاك يعني في القتال وشرائع الدين لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله، قال أبو عبيدة يقول العرب لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب أي لا تعجل بالأمر والنهر والنهي دونه، قيل المراد بين يدي رسول الله وذكر الله تعظيماً له وإشعاراً بأن التقديم على رسول الله كان تقديم على الله تعالى، فإنه من الله بمكان يوجب إجلاله إجلالاً به وسوء الأدب به سوء أدب بالله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وأخرج ابن المنذر عن الحسن أن ناساً ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر أمرهم أن يعيدوا ذبحاً فأنزل الله تعالى هذه الآية، كذا أخرج ابن الدنيا في كتاب الأضاحي بلفظ ذبح رجل قبل الصلاة فنزلت، وعن البراء بن عازب قال خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر قال: «إن أول ما ابتدأ في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل أن يصلّي فإنما هو لحم عجله لأهله ليس من النسك في شيء»(١) متفق عليه، وعن جندب بن عبد اللّٰه بلفظ: صلّى النبي ﷺ يوم النحر ثم خطب ثم ذبح قال: «من كان ذبح قبل أن يصلّي فليذبح مكانها أخرى»(٢) متفق عليه، وبما ذكرنا من الأحاديث احتج أبو حنيفة ومالك وأحمد على أنه لا يجوز ذبح الأضحية قبل صلاة الإمام خلافاً للشافعي حيث قال يجوز ذبح الأضحية بعد طلوع الشمس من يوم النحر إذ مضى قدر صلاة العيد والخطبتين صلّى الإمام أو لم يصل، وقال عطاء يجوز بعد طلوع الشمس فقط وهما محجوجان بما روينا ولا دلالة في الحديثين على ما قال مالك أن لا يجوز الذبح إلا بعد الصلاة وبعد ذبح الإمام ولعل مالك أخذ هذا القول من قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يعني لا تذبحوا قبل ذبح الرسول والإمام نائب الرسول ﷺ، قلنا الحديث بيان للآية فلا يشترط ما لا يستفاد من الحديث.

مسألة: قال أبو حنيفة يجوز لأهل السواد حيث لا يصلّى هناك صلاة العيد ذبح الأضحية بعد طلوع الفجر الثاني خلافاً للأئمة الثلاثة فإنهم قالوا لا يجوز إلا بعد حصول اليقين بصلاة الإمام عند أحمد والصلاة وذبحه عند مالك وبعد مضي قدر صلاة العيد والخطبتين بعد طلوع الشمس عند الشافعي لإطلاق النصوص، وجه قول أبي حنيفة إن التأخير لاحتمال تشاغل به عن الصلاة ولا معنى للتأخير في حق القرىٰ ولا صلاة عليه والله أعلم، وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة أن ناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبيّ ﷺ فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين إلا رجل كان يصوم صوماً فيصومه»(٣) رواه أصحاب الصحاح والسنن الستة، وروى أصحاب السنن الأربعة وعلقه البخاري عن عمار قال «من صام يوم الشك فقد عصى

(١) أخرجه البخاري في العيدين باب ١٠، ١٧.
(٢) أخرجه البخاري في الأضاحي باب ١٢، والعيدين باب ٢٣، والذبائح باب ١٢، ١٧، ومسلم في الأضاحي حديث ١ ـ ٣.
(٣) أخرجه البخاري في الصوم باب ٥، ١٤، ومسلم في الصيام حديث ٢١.

أبا القاسم عليه السلام»[١]، وقال عليه الصلاة والسلام «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً»[٢] وهو في الصحيحين، وعند أبي داود والترمذي وحسنه «وإن حال بينكم وبينه سحاب فكملوا العدة ثلاثين ولا تستقبلوا الشهر استقبالاً»[٣] والله أعلم.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون لو أنزل في كذا وكذا فأنزل الله ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في تضييع حقه وحق رسوله ومخالفة أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كرر النداء لاستدعاء مزيد الاستبصار والمبالغة في الألفاظ وزيادة اهتمام ما أمر به ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ إذا كلمتموه ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ يعني لا ترفعوا أصواتكم عنده ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً بأن تخاطبوه باسمه أو كنيته بل يجب عليكم بتجمله وتعظيمه ومراعاة آدابه وخفض الصوت بحضرته وخطابه بالنبيّ والرسول ونحو ذلك ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ أي كراهة أن تحبط أو لئلا يحبط فيكون علة للنهي وجاز أن يكون تقديره لأن تحبط متعلق بالنهي واللام للعاقبة فإن رفع الصوت فوق صوت النبيّ ﷺ والجهر عليه استخفافاً يؤدي إلى الكفر فعاقبته حبط العمل إذا قصد الإهانة نعوذ بالله منها وعدم المبالاة وترك المراقبة في آدابه لا يخلو من الحرمان من بركات صحبته فبطل عمل المصاحبة إذا لم يترتب عليه فائدته ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في أعمالكم، قال البغوي قال أبو هريرة وابن عباس لما نزلت هذه الآية كان أبو بكر لا يكلم النبيّ ﷺ إلا كأخي السرار، وقال ابن الزبير فيما مر من حديث رواه البخاري في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ قال فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، وروى مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك قال لما نزلت هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ جلس ثابت بن قيس في بيته وقال أنا من أهل النار واحتبس عن النبيّ ﷺ فسأل النبيّ ﷺ سعد بن معاذ فقال يا أبا عمر ما شأن ثابت اشتكى؟ فقال سعد إنه لجاري وما علمت له شكوى فأتاه سعد فذكره قول النبيّ ﷺ قال ثابت أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم أصواتاً على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار فذكر ذلك سعد لرسول الله ﷺ فقال: «بل هو من أهل الجنة».

وأخرج ابن جرير عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس وكذا ذكر البغوي أنه لما نزلت هذه الآية قعد ثابت في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عدي فقال ما يبكيك يا ثابت؟ قال هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في وأنا رفيع الصوت أخاف أن يحبط عملي وأن

---

(١) أخرجه أبو داود في الصوم باب ١٠، والترمذي في الصوم باب ٣، في الترجمة.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم باب ٥، ١١، ومسلم في الصيام حديث ٦ ـ ٩، ١٧.

(٣) أخرجه النسائي في الصيام باب ١٣، والدارمي في الصوم باب ١، وأحمد في المسند ٢٢٦/١.

أكون من أهل النار فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ وغلب ثابت البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد اللّه بن أبي ابن سلول فقال لها إذا دخلت بيت فرسي فشدي عليّ الضبة بمسمار فضربته بمسمار، وقال لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله ﷺ، فأتى عاصم رسول الله ﷺ فأخبره خبره فقال اذهب فادعه لي فجاء عاصم إلى المكان الذي رآه فلم يجده فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس فقال إن رسول الله ﷺ يدعوك فقال اكسر الضبة، فأتيا رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ «ما يبكيك يا ثابت؟» قال أنا صيّت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ، فقال رسول الله ﷺ «أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً أو تدخل الجنة»[1] فقال رضيت ببشرى الله ورسوله لا أرفع صوتي أبداً على رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾ أي يخفضونها، ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إجلالاً له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ والجملة خبر إن، في القاموس امتحن الله قلوبهم أي شرحها ووسعها وفيه أيضاً محنه كمنعه وضربه واختبره كامتحنه، قال البيضاوي أي جرّبها للتقوى ومرنها عليها يعني عاملها معاملة المختبر فوجدها مخلصة أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها فإن الامتحان سبب المعرفة، واللام صلة محذوف أو للفعل باعتبار الأصل أو المعنى ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل ظهور التقوى فإنه لا يظهر إلا بالاصطبار عليها أو أخلصه للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه أو ميز بريزه من خبثه ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بغضهم الأصوات تأدباً لرسول الله ولسائر طاعاتهم والتنكير للتعظيم والجملة خبرثان لإن أو استئناف لبيان ما هو جزاؤهم إخباراً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مؤتلفة من معرفتين والمبتدأ اسم الإشارة المتضمن لما جعل عنواناً لهم والخبر الموصول بصلة دلت على بلوغهم أقصى الكمال مبالغة في الاعتداد بغضهم والارتضاء له وتعريضاً بشناعة الرفع والجهر وإن حال المرتكب لهما على خلاف ذلك، قال البغوي قال أنس فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا - يعني ثابت بن قيس - الذي نزل فيه هذه الآية وقال له عليه السلام: «تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة» قال فلما كان يوم اليمامة من حرب مسيلمة الكذاب رأى ثابت في المسلمين انكساراً وانهزمت طائفة منهم فقال أف لهؤلاء وقال لسالم مولى حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل ذلك ثم ثبتا وقاتلا حتى استشهد ثابت وعليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته في المنام أنه قال له اعلم أن فلاناً رجلاً من المسلمين ينزع درعي فذهب به وهي في ناحية من العسكر عند فرس يستن به في طوله وقد وضع عليّ درعي برمة فأت خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعي وائتِ أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ وقل له إن عليّ دين حتى يقضي وفلان من رفيقي عتيق، فأخبر الرجل خالداً فوجد درعه والفرس على ما وضعه فاسترد الدرع وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٢١.

أنس لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه والله تعالى أعلم.

وأخرج الطبراني وأبو يعلى بسند حسن عن زيد بن أرقم قال جاء ناس من العرب إلى حجر النبي ﷺ فجعلوا ينادون يا محمد ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ الآية وما بعدها، قرأ الجمهور بضم الجيم وأبو جعفر بفتح الجيم وهما لغتان في جمع حجرة، وقال البغوي هي جمع حجر والحجر جمع حجرة فهي جمع الجمع والحجرة قطعة من الأرض أحاطتها الجدران من الحجر بمعنى المنع، والمراد حجرات نساء النبيّ ﷺ ومن ابتدائية فإن المناداة نشأت من جهة الوراء وفيه دلالة على رسول الله ﷺ كان داخل حجرة منها إذ لا بد أن يختلف المبدأ والمنتهى وإن مناداتهم كان من ورائها فإن تعدد القصة يحمل على أن مناداتهم وقع تارة وراء بعض وتارة وراء بعض آخر منها وإن اتحد القصة فمناداتهم من ورائها، إما بأنهم أتوه حجرة حجرة فنادوه من ورائها أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فإنهم كانوا أعراباً من أهل البادية أو المعنى لا يعقلون عظمتك ومراعاة الحشمة وحسن الأدب والظاهر منه أن بعضهم كانوا من العقلاء ولم يرتض بالتعجيل وإنما أسند فعل البعض إلى الكل مجازاً ويحتمل أن يراد بالنفي القلة إذ القلة تقع موقع النفي العام. أخرج الثعلبي من حديث جابر أن الذي ناداه عيينة بن حصن وأقرع بن حابس وفدا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً وقت الظهيرة وكان النبيّ ﷺ راقداً في بعض حجرات نسائه فقالا يا محمد اخرج علينا، وأخرج ابن جرير عن الأقرع بن حابس أنه أتى النبيّ ﷺ فقال يا محمد اخرج إلينا فنزلت، وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال يا محمد إن مدحي زين وإن شتمي شين فقال النبيّ ﷺ «ذاك هو الله» فنزلت هذه الآية وهذا مرسل وله شاهد مرفوع من حديث البراء دون نزول الآية.

وأخرج ابن جريج نحوه عن الحسن وذكر البغوي حديث قتادة وجابر بلفظ قال قتادة نزلت يعني هذه الآية وما بعدها في ناس من أعراب بني تميم جاؤوا إلى النبيّ ﷺ فنادوا على الباب، ويروى ذلك عن جابر قال جاءت بنو تميم فنادوا على الباب أخرج علينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين فخرج النبيّ ﷺ وهو يقول: «إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين»، فقالوا نحن ناس من بني تميم جئنا وشاعرنا وخطيبنا فقال النبيّ ﷺ لثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب النبيّ ﷺ «قم فأجبه» فقام فأجابه فقام شاعرهم فذكر أبياتاً فقال النبيّ ﷺ لحسان بن ثابت «قم فأجبه» فقام فأجابه فقام الأقرع بن حابس فقال إن محمداً ليؤتىٰ له بكل خير تكلم خطيبنا فكان شاعركم أشعر وأحسن قولاً ثم دنا من النبيّ ﷺ فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ «ما يضرك ما كان قبل هذا» ثم أعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم وقد كان تخلف في ركابهم عمرو بن الأهتم لحداثة سنه فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطاهم وأزرى به بعضهم وكثر اللغط عند رسول الله ﷺ فنزل فيهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآيات الأربع إلى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وذكر البغوي عن ابن عباس أنه قال بعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني العنبر وأمّر عليهم عيينة بن حصن الفزاري فلما علموا أنه توجه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم فسباهم عيينة وقدمهم على رسول الله ﷺ فجاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري، فقدموا وقت الظهيرة ووافقوا رسول الله ﷺ قائلاً في أهله فلما رأتهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يبكون وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة، فعجلوا قبل أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا حتى أيقظوه من نومه فخرج إليهم فقالوا يا محمد فادنا عيالنا فنزل جبرئيل عليه السلام فقال إن الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً، فقال لهم رسول الله ﷺ أترضون أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو وهو على دينكم فقالوا نعم فقال سبرة أنا لا أحكم بينهم إلا وعمي شاهد وهو الأعور بن بشامة فرضوا به، فقال الأعور أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم فقال ﷺ قد رضينا ففادى نصفهم وأعتق بعضهم وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾ يعني لو ثبت صبرهم يعني حبس نفوسهم عما تشتهيه الأهواء من التعجيل في قضاء الحوائج بخلاف ما يقتضيه العقل من تعظيم المحتاج إليه لا سيما من هو من الله بمنزلة من لا يوازيه أحد ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني صبراً مُغياً بالخروج إليهم، فيه إشعار إلى أن مطلق الخروج لا يصلح غاية للصبر بل ينبغي أن يصبروا حتى يتوجه إليهم ويفاتحهم بالكلام ﴿لَكَانَ﴾ الصبر ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول ﷺ الموجبتين للثناء والثواب وإسعاف المرام، قال مقاتل لكان خيراً لهم لأنك كنت تعتقهم جميعاً وتطلقهم بلا فداء ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فاقتصر على النصح والتقريع للمسيئين للأدب التاركين تعظيم الرسول ﷺ بناء على جهلهم وقلة عقلهم.

وذكر محمد بن يوسف الصالحي أن سرية عيينة بن حصن كان إلى بني تميم في المحرم سنة تسع بعث إليهم رسول الله ﷺ حين منعوا الزكاة وكان السبايا على ما ذكر محمد بن عمر إحدى عشر امرأة وثلاثين صبياً، وأخرج أحمد وغيره بسند جيد عن الحارث بن الضرار الخزاعي قال قدمت إلى رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فأقررت به ودخلت فيه ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فترسل إلى الأبان كذا وكذا ليأتيك فلما جمع الحارث الزكاة وبلغ الأبان احتبس الرسول فلم يأته فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة فدعى سروات قومه فقال لهم إن رسول الله ﷺ كان وقّت وقتاً يرسل رسوله ليقبض ما عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة ليقبض ما كان عنده فلما أن سار الوليد فرق فرجع فقال إن الحارث منع الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه إذا استقبل البعث، قال لهم إلى أين بعثتم قالوا إليك، قال ولِمَ؟ قالوا إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعت الزكاة

وأردت قتله قال لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتاني فلما دخل على رسول الله ﷺ قال منعت الزكاة وأردت قتل رسولي قال لا والذي بعثك بالحق فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وروى الطبراني نحوه من حديث جابر بن عبد اللّه وعلقمة بن ناجية وأم سلمة وابن جرير نحوه من طريق العوفي عن ابن عباس ومن طرق أخرى وسلمة وفي حديث أم سلمة عند الطبراني، وكذا ذكر البغوي أن الآية نزلت في وليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق مصدقاً وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فلما سمعه القوم تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ فحدثه الشيطان أنهم يرون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي فغضب رسول الله ﷺ وهمّ أن يغزوهم فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله لما سمعنا برسولك خرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلناه من حق الله عز وجل فبدا له الرجوع فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك بغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، قال البغوي فاتهمهم رسول الله ﷺ وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر وأمره أن يخفي عليهم، وقال له انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما يستعمل في الكفار» ففعل ذلك خالد ووافاهم فسمع منهم أذان صلاة المغرب والعشاء وأخذ صدقاتهم ولم ير فيهم إلا الطاعة والخير فانصرف إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾ يعني الوليد بن عقبة ﴿بِنَبَإٖ﴾ أي بخبر ارتداد القوم وتنكير الفاسق ونبأ لشيوع الحكم كأنه قال أي فاسق جاءكم بأي نبأ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالثاء المثلثة ثم الباء الموحدة ثم التاء المثناة من الفوق من التثبت بمعنى التوقف في الحكم ما لم يظهر الحال والباقون بالباء الموحدة ثم الياء المثناة من تحت ثم النون من التبين بمعنى طلب البيان وظهور الحال والقراءتان متقاربتان معنى، وتعليق التثبت والتبين بخبر الفاسق يقتضي جواز قبول خبر الواحد العدل لعدم المانع من قبول خبره والفسق في اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها وفي اصطلاح الشرع قد يطلق على الكافر لخروجه عن الإيمان وهو الغالب في محاورة القرآن وقد يطلق على من ارتكب الكبيرة أو أصر على الصغيرة ما لم يتب وهو المراد في هذه الآية إجماعاً، قلت: والوليد بن عقبة كان صاحباً لرسول الله ﷺ ولم يكن فسقه ظاهراً قبل هذا الكذب المبني على فساد ظنه واتهامه من كان له أعداء في الجاهلية فلعل المراد بالفاسق هاهنا من لم يظهر صدقه وعدالته فيدخل فيه مستور الحال أيضاً، أو المراد بالفاسق من كان مخبر الشيء يدل القرينة على كذبه وإن كان المخبر ظاهر العدالة فإن ارتداد بني المصطلق بعد إيمانهم عند رسول الله ﷺ طوعاً وقبولهم أحكامه أبعد احتمالاً من كذب الوليد عمداً أو زعماً فاسداً ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ أي كراهة أن تصيبوا أو لئلا تصيبوا بالقتل والقتال ﴿قَوۡمَۢا﴾ براء من العصيان ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ حال من فاعل تصيبوا يعني

جاهلين بحقيقة الأمر وحال القوم ﴿فَتُصْبِحُواْ﴾ أي تصيروا عطف على تصيبوا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ متعلق بقوله ﴿نَٰدِمِينَ ۝﴾ وهو خبر لتصبحوا يعني تصيروا نادمين على إصابتكم قوماً براء، والندامة نوع من الغم على ما صدر منك بحيث تتمنى أنه لم يصدر الظاهر من سياق الآية أن بعض المؤمنين كانوا زينوا رسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد والنبيّ ﷺ لم يطعهم وبعث خالد بن الوليد للتثبت وتبيين الحال، قال الله سبحانه خاطبهم بهذه الآية وأمرهم بالتثبت والتبيين كما فعله رسول الله ﷺ كيلا يصبحوا نادمين وبينهم على أنه لا ينبغي لهم تحريض النبي ﷺ وإلجاؤه إلى ما تهوى به نفوسهم بل يجب عليهم أن يطيعوه فيما أحبوا وفيما كرهوا يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي وقعتم في الإثم والهلاك، قال البيضاوي جملة لو يطيعكم حال من أحد ضميري فيكم وإن مع اسمه وخبره مقيداً بالحال المذكور ساد مسدّ مفعولي اعلموا والمعنى أن فيكم رسول الله في حال يجب تغيرها وهي أنكم تريدون أن يتبع رأيكم ولو فعل ذلك لعنتم ولما كان غضبهم على بني المصطلق إنما هو لما سمعوا من الوليد ارتدادهم بغضاً في الله لا لأنفسهم وكان ما سبق من الكلام موهماً لوقوعهم في الإثم واللوم استدرك الله سبحانه ببيان عذرهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ الظاهر من سياق الآية أن الفسوق أخف من الكفر وأقبح من العصيان فالمراد به الخروج من الجماعة وارتكاب البدعة في العقائد بحد لا يكفر فهو دون من الكفر وأخبث من عصيان الجوارح، ومعنى الآية لكن ما صدر منكم من ترك التثبت إنما كان لحبكم الإيمان وبغضكم الكفر فلا لوم عليكم ولا إثم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ جملة معترضة وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إشعاراً بأن من كان صفته مثل صفتكم فهم الراشدون.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ منصوبان على العلية من حبب وكره لا من الراشدون فإن الفضل فعل الله والراشدون كان مسبباً بفعله لكنه أسند إلى ضميرهم أو على المصدرية فإن تحبب الإيمان فضل من الله وإنعام، وقال بعض أئمة التفسير معنى قوله ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فلا تكذبوه فإن الله يخبره فيهتك ستر الكاذب وقوله ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ كلام مستأنف يعني لو يطيعكم الرسول فيما يخبرونه كاذباً لعنتم، وهذا التأويل يقتضي أن يكون قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الخ خطاباً بالوليد وأمثاله وليس كذلك فإن الكاذب غير مخاطب بالتثبت بل السامع مخاطب به، وقال بعضهم واعلموا أن فيكم رسول الله معناه كما مر أن لا تكذبوا ولو يطيعكم كلام مستأنف خطاب لبعض المؤمنين الذين زينوا رسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق والاستدراك خطاب لبعض آخر من المؤمنين الذين يريدون التثبت وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ وهذا القول يفيد جدالاً لاستلزامه انتشار الضمائر في كلام واحد من غير قرينة وأمر داع إليه والأحسن ما قال البيضاوي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾، يفضل وينعم بالتوفيق عليهم، أخرج الشيخان عن أنس أن النبيّ ﷺ ركب حماراً وانطلق إلى عبد اللّه بن أبي فقال إليك عني فواللّه لقد أذاني نتن

حمارك فقال رجل من الأنصار والله لحماره أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد اللّه رجل من قومه فشتما وغضب لكل واحد أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فنزلت فيهم ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مرفوع بفعل مضمر أعني اقتتل يفسره قوله تعالى: ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ يعني تقاتلوا أورد صيغة الجمع حملاً على المعنى فإن كل طائفة جمع ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ شرطية جزاؤه إنشاء ولذا عطف على الإنشائيات، وثنى الضمير هاهنا نظراً إلى لفظ الطائفتين والإصلاح أن يمنع المبطل منها من الظلم ويدفع شبهة ويدعوهما إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وترك التحاسد والتباغض ﴿فَإِنۢ بَغَتْ﴾ أي تعدت ﴿إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ وأبت الإجابة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا يمكن دفع ظلمها بالحبس والمنع بأن كان لها منعة ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ﴾ أي ترجع ﴿إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقال الرجل يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصر ظالماً قال: «تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه»(١) متفق عليه ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ إلى أمر الله بعد المقاتلة ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ فيه الإصلاح بالعدل هاهنا إشعاراً بأن المقاتلة الواقع قبل ذلك لا يجرمنكم على أن لاتعدلوا ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ في الأمور كلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ فيحسن جزاؤه القسط الجور والإقساط إزالة الجور بالعدل والهمزة للسلب ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ لانتسابهم إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ولما كان منشأ هذا الأصل هو النبيّ ﷺ كان أبا المؤمنين وأزواجه أمهاتهم وهذه الجملة تعليل وتقرير للأمر بالإصلاح ولذلك كرره مرتباً عليه فقال ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والفاء للسببية، قرأ يعقوب بين إخوتكم بالتاء الفوقانية على الجمع والباقون بالباء التحتانية على التثنية وخص الاثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينها الخلاف ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ولا تخالفوا أمره ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على تقواكم فإن التقوى سبب للتواصل والائتلاف والتراحم بينكم والتراحم موجب رحمة الله تعالى قال عليه الصلاة والسلام «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»(٢)، رواه المجدد رضي الله تعالى عنه، وفي الصحيحين «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»(٣) من حديث جرير بن عبد اللّه، قال البغوي يروى أنها لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ فاصطلحوا وكف بعضهم عن بعض، وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن أبي مالك قال ثلاث رجال من المسلمين فغضب قوم هذا لهذا وقوم هذا لهذا فاقتتلوا بالأيدي والنعال فأنزل الله تعالى تلك الآية ولعل هذه القصة بعينه هي السابقة، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وكذا ذكر البغوي عن السدي قال

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم باب ٤، والإكراه باب ٧، ومسلم في البر حديث ٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٣٢، والأيمان باب ٩، والمرضى باب ٩، والتوحيد باب ٢٥، ومسلم في الجنائز حديث ٩، ١١.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢، ومسلم في الفضائل حديث ٦٦.

كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها جعلها في علية له وإن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها وكان الرجل قد خرج فاستعان أهله فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال فنزلت فيهم فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم وفاؤوا إلى أمر الله. وأخرج ابن جرير وذكر البغوي عن قتادة قال ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار وكانت بينهما مداراة في حق بينهما فقال أحدهما للآخر لآخذن عنوة لكثرة عشيرته والآخر دعاه للتحاكم إلى النبيّ ﷺ فأبى فلم يزل الأمر حتى تدافعوا وحتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ولم يكن قتال بالسيوف.

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال كانت الخصومة بين الحيين فيدعوهم إلى الحكم فيأبون أن يجيبوا فأنزل الله تلك الآية ولعل هذه القصة ما ذكر قتادة روى البغوي وغيره عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[١] وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا ـ وأشار إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[٢] وفي الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، قال البغوي ويدل عليه ما روي عن الحارث الأعور أن علي بن أبي طالب (رض) سئل عن الجمل والصفين أمشركون هم؟ فقال لا من الشرك فروا فقيل منافقين هم؟ فقال لا إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً فما حالهم قال إخواننا بغوا علينا.

مسألة: إذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة وخرجوا عن إطاعة الإمام دعاهم إلى العود وكشف شبهتهم فإن أبدوا ما يجوز لهم القتال كان ظلمهم الإمام أو ظلم غيرهم ظلماً لا شبهة فيه يجب على الناس أن يعينوهم حتى ينصفهم الإمام ويرجع عن جوره كذا قال ابن الهمام وإن لم يبدوا ذلك وتحيزوا للقتال مجتمعين حل لنا قتالهم بدءاً، وقال الشافعي لا يجوز قتالهم حتى ابتدأوا بالقتال وهو قول مالك وأحمد وأكثر أهل العلم لأن قتل المسلم لا يجوز إلا دفعاً وهم مسلمون قال الله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ﴾ قلنا البغي في اللغة الطلب قال الله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ [الكهف: ٦٤] والمراد هاهنا طلب ما يخل من الجور والظلم والإباء عن قبول أحكام الشرع كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ [النساء: ٣٤] يعني لا تطلبوا عليهن ظلماً فلا يشترط في جواز قتالهم بداية

(١) أخرجه البغوي في تفسيره ٦/ ٢٢٥.
(٢) أخرجه مسلم في البر حديث ٣٢، وأبو داود في الأدب باب ٣٥، والترمذي في البر باب ١٨، وابن ماجه في الزهد باب ٢٣، وأحمد في المسند ٣/ ٤٩١.

القتال منهم وإنما شرطنا منعتهم لأنه إذا لم يكن لهم منعة نقدر على إلزامهم بالحبس والضرب ونحو ذلك فلا حاجة على القتال ولو شرطنا بداية القتال منهم فربما لا يمكن دفعهم لتقوى شوكتهم وتكثر جمعهم.

مسألة: يجهز على الجريح من البغاة ويتبع مولاهم إن كان لهم فيئة يخاف أن يلحق بالفيئة وإن لم يكن له فئة لا يجهز ولا يتبع، وقال الشافعي ومالك وأحمد لا يجهز ولا يتبع في الحالين لأن القتال إذا تركوه بالتولية والجراحة لم يبق قتلهم دفعاً ولا يجوز قتلهم إلا دفعاً لشرهم، روى ابن أبي شيبة عن عبد خير عن علي أنه قال يوم الجمل لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا ومن ألقى سلاحه فهو آمن وأسند أيضاً لا يقتل أسير، قلنا احتمال شرهم باق إذا خيف لحوقهم بالفيئة وأصحاب الجمل لم يكن لهم فيئة حين قال ذلك، وما رواه الحاكم في المستدرك والبزار في مسنده من حديث كوثر بن حكيم عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «هل تدري يا ابن أم عبد كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال الله تعالى ورسوله أعلم، قال «لا تجهز على جريحها ولا يقتل أسيراً ولا يقسم فيئها»[١] فأعله البزار بكوثر بن حكيم وتعقب الذهبي على الحاكم.

مسألة: ولا تسبى ذريتهم ولا يقسم مالهم إجماعاً بل يحبس مالهم حتى يتوبوا، روى ابن أبي شيبة أن علياً لما هزم طلحة وأصحابه أمر منادياً فنادى أن لا يقتل مقبل ولا مدبر يعني بعد الهزيمة ولا يفتح باب ولا يستحل فرج ولا مال، وروى عبد الرزاق نحوه وزاد وكان علي لا يأخذ مال المقتول ويقول من اعترف شيئاً فليأخذه وفي تاريخ واسط بإسناده عن علي أنه قال يوم الجمل لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تقتلوا أسيراً وإياكم والنساء وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم.

مسألة: ولا بأس أن تقاتلوا بسلاحهم إن احتاج إليه أهل العدل وكذا الكراع يقاتلون عليه، وقال الشافعي ومالك وأحمد لا يجوز استعمال سلاحهم وكراعهم لنا ما روى ابن أبي شيبة في آخر مصنفه في باب وقعة الجمل أن علياً قسم الجمل في العسكر ما أجافوا عليه من كراع وسلاح، قال صاحب الهداية وكان قسمة للحاجة لا للتمليك لانعقاد الإجماع على عدم تملك أموالهم.

مسألة: ما أتلف أهل البغي على أهل العدل في حال القتال من نفس أو مال فإن كان لهم منعة وتأويل مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية الشافعي في الجديد الراجح أنه لا يضمن وقال الشافعي في رواية الأخرى وأحمد يضمن، قال البغوي قال ابن شهاب كانت في تلك الفتنة دماء يعرف في بعضها القاتل والمقتول وأتلف أموال ثم صار الناس إلى أن سكت الحرب وجرى الحكم عليهم فما علمت اقتص من أحد ولا أغرم مالاً أتلفه.

مسألة: باغ قتل عادلاً مدعياً حقيقة يرثه وإن أقرأنه على الباطل لا يرث عند أبي حنيفة

---

(١) أخرجه ابن القيسراني في تذكرة الموضوعات ٩٣٦، وابن حجر في المطالب العالية ٤٤٥٩، ٤٤٦٠.

وعند أبي يوسف والشافعي لا يرث الباغي العادل سواء ادعى حقيقة أو أقرأنه على باطل وعادل قتل باغياً يرث إجماعاً.

مسألة: الخارجون عن إطاعة الإمام إذا لم يكن لهم تأويل سواء كان لهم منعة أو لا ويأخذون أموال الناس ويقتلونهم الطريق فهم قطاع الطريق وقد مر حكمهم في سورة المائدة: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٣٣].

مسألة: من كان خارجاً من حكم الإمام ولا منعة له يلزمه حكم الله بالحبس والضرب ونحو ذلك ولا يجوز قتله.

قال البغوي روي أن علياً سمع رجلاً يقول في ناحية المسجد لا حكم إلا لله، فقال علي كلمة حق أريد به الباطل لكم علينا ثلاث لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله عز وجل ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ولا نبدؤكم بقتال كذا قال محمد بلغنا عن علي (رض) فذكره نحوه والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وذكر البغوي عن ابن عباس أنه كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان إذا أتى رسول الله ﷺ وقد سبقوا بالمجلس وسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فسمع ما يقول فأقبل ذات يوم وفاتته ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاة أخذ أصحابه مجالسهم فضيق كل رجل مجلسه فلا يكاد يوسع أحد لأحد فكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلساً قام قائماً كما هو فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس ويقول تفسحوا فجعلوا يتفسحون له حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ بينه وبين رجل فقال له تفسح، فقال الرجل قد أصبت مجلساً فأجلس ثابت خلفه مغضباً فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال من هذا؟ قال أنا فلان فقال ثابت ابن فلانة فذكر أماً له كان يعير بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه واستحى فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن

﴿قَوْمٍ﴾ في القاموس القوم الجماعة من الرجال والنساء معاً أو الرجال خاصة وتدخله النساء على التبعية وفي الصحاح القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء واستدل بهذه الآية حيث عطف النساء عليه ويقول الشاعر[١]:

وما أدري لست أخال أدري أقوم آل حصن أم نساءُ

وفي عامة القرآن أريد به الرجال والنساء جميعاً وحقيقة للرجال لقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] كذا قال صاحب المدارك وقال البيضاوي هو مصدر نعت به فشاع في الجمع أو جمع لقائم كزائر وزور والقيام بالأمور وظيفة الرجال وحيث فسر بالقبيلتين كقوم هود وقوم فرعون وقوم نوح وقوم لوط فأما على التغليب أو الاكتفاء بذكر الرجال عن ذكرهن لأنهن توابع واختيار الجمع لأن السخرية تغلب في المجامع ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ﴾ أي من يسخر به ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من يسخر استئناف ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ عطف النساء على الرجال ولم يكتف بما سبق مبالغة في النهي ولأن السخرية والاستهزاء يكون في النساء غالباً لضعف عقلهن وجهلهن، قال البغوي روي عن أنس أنها نزلت في نساء رسول الله ﷺ عيرّن أم سلمة بالقصر وعن عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب قالت لها النساء يهودية بنت يهوديين وفي رواية فقال لها رسول الله ﷺ «هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد»[٢] ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز الطعن باللسان يعني لا يعب بعضكم بعضاً ﴿تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ التنابز التفاعل من النبز بمعنى اللقب، قال البيضاوي النبز مختص باللقب السوء، وفي القاموس التنابز التعاير والتداعي بالألقاب يعني لا تدع بعضكم بعضاً اللقب السوء، قال البغوي قال عكرمة هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق يا كافر، قال الحسن كان اليهودي والنصراني يسلم فيقال له بعد إسلامه يا يهودي يا نصراني فنهوا عن ذلك قال عطاء هو أن تقول لأخيك يا حمار يا خنزير، وروي عن ابن عباس (رض) قال التنابز أن يكون الرجل عمل السيآت ثم تاب عنها فنهى أن يعير بما سلف من عمله، أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبيرة بن الضحاك قال كان الرجل منها يكون له اسمان أو ثلاثة فيدعى ببعضها فعسى أن يكره فنزلت ﴿تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ قال الترمذي حسن وروى أحمد عنه بلفظ قال فينا نزلت بني سلمة ولا تنابزوا بالألقاب قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فيها إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعاه أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي بئس الاسم أن يقال له يهودي أو يا فاسق أو يا شارب الخمر بعد ما تاب، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر

---

(١) البيت من الوافر، وهو لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص٧٣، ورواية صدر البيت في الديوان:

وما أدري وسوف إخالُ أدري

(٢) أخرجه بنحوه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/٤٦٦.

إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك»[١] رواه البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «أيما رجل قال لأخيه كافر فقد باء بها أحدهما»[٢] متفق عليه وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «من رمى رجلاً بالكفر أو قال عدو الله وليس ذلك إلا جاء عليه»[٣] متفق عليه، وقيل معنى الآية أن السخرية واللمز والنبز فسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان فلا تفعلوا شيئاً توصفوا فيه باسم الفسوق، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[٤] متفق عليه ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة وعن سعد والطبراني عن عبد اللّه بن مغفل وعن عمر بن النعمان بن مقرن والدارقطني عن جابر وزاد الطبراني عن ابن مسعود «وحرمة ماله كحرمة دمه» ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نهي عنه من السخرية واللمز والنبز ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب وحد ضمير لم يتب نظرا إلى لفظة من وجمع ضميرهم الظالمون نظراً إلى معناها نسبة المحصن إلى الزنا يوجب حد القذف إجماعاً وسنذكر مسائل حد القذف في سورة النور إن شاء الله تعالى، ونسبة غير المحصن كالعبد والكافر إلى الزنا لا يوجب الحد لانحطاط درجتها بل يوجب التعزير لإشاعة الفاحشة، ونسبة المحصن إلى غير الزنا لا يوجب حد القذف ويوجب التعزير إن كانت النسبة إلى فعل اختياري يحرم في الشرع ويعد عاراً في العرف وإلا لا إلا أن يكون تحقيراً للأشراف فمن قال لمسلم يا فاسق يا كافر يا خبيث يا سارق يا فاجر يا مخنث يا خائن يا زنديق يا لص يا ديوث يا قرطبان يا شارب الخمر يا آكل الربا يعزر، قال ابن همام روي أنه عليه السلام عزر رجلاً قال لغيره يا مخنث ولو قال يا حمار يا خنزير يا كلب يا تيس يا حجام لا يعزر وقيل يعزر وقيل لا إلا أن يقر لعالم، أو علوي أو رجل صالح ولو قال يا لاعب بالنرد ويا عشار لا يعزر لأنها لا يعد عاراً عرفاً وإن كان محرماً شرعاً.

مسألة: لا يبلغ بالتعزير أدنى الحدود عند أبي حنيفة والشافعي عفى الله عنهما وأدنى الحدود عند أبي حنيفة رح أربعون سوطاً حد الشرب في العبد وعند أبي يوسف ثمانون حد الأحرار، وعند الشافعي وأحمد عشرون، وقال مالك للإمام أن يضرب في التعزير أي عدد أدى إليه اجتهاده، وقال أحمد يعزر في الوطء فيما دون الفرج بشبهة أكثر من أدنى الحدود ولا يبلغ أعلاها، وفي قبلة أجنبية أو شتم أو سرقة دون النصاب لا يبلغها أدنى في الحدود والله تعالى أعلم.

وذكر البغوي أن رسول الله ﷺ إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدم لهما إلى المنزل فيهيىء لهما وما يصلحهما من الطعام والشراب

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٧٣، ومسلم في الإيمان حديث ١١١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب ٤٤، والأيمان باب ٧، ومسلم في الإيمان حديث ١١٢.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٦، والفتن باب ٨، والأدب باب ٤٤، ومسلم في الإيمان حديث ١١٦.

فضم سلمان الفارسي (رض) إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فلم يهيىء لهما شيئاً فلما قالا له ما صنعت شيئاً قال لا غلبتني عيناي قالا له انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعاماً فجاء سلمان إلى رسول الله ﷺ وسأله طعاماً فقال رسول الله ﷺ انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له إن كان عنده فضل من طعام وإدام فليعطك وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ وعلى رحله فأتاه فقال ما عندي شيء فرجع سلمان إليهما وأخبرهما فقالا كان عند أسامة ولكن بخل، فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً فلما رجع قالا لو بعثنا إلى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ فلما جاء إلى رسول الله قال لهما ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ قالا والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحماً قال ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ الآية قال السيوطي رواه الثعلبي بغير إسناد وروى معناه الأصبهاني في الترغيب عن عبد الرحمن بن أبي ليلى وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قالوا زعموا أن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ نزلت في سلمان الفارسي أكل ثم رقد فنفخ فذكر رجلان أكله ورقاده والله تعالى أعلم ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ تعليل مستأنف للأمر والإثم الذنب الذي يستحق العقوبة عليه والهمزة بدل من الواو كأنه يثم الأعمال ويكسرها، والمراد بالظن هاهنا ما يقابل اليقين سواء كان جانب الوجود فيه راجحاً أو لا وتحقيق المقام أن الظن على أقسام منها ما يجب اتباعه وهو حسن الظن بالله تعالى والمؤمنين والمؤمنات وما يحصل بدليل شرعي فيه شبهة حيث لا قاطع فيه من العمليات وكذا في العلميات إن لم يعارضه قاطع من أحوال المبدأ والمعاد، ومنها ما يحرم اتباعه كسوء الظن بالمؤمنين والمؤمنات لا سيما بالصالحين منهم والظن في الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع ومنها ما ليس من القسمين المذكورين كالظن في الأمور المعاشية ونحوها، والإثم إنما هو بعض الظن يعني قسم الثاني منها والله سبحانه أمر بالاجتناب عن كثير من الظن احتياطاً ومبالغة في اجتناب الإثم فيجتنب عما هو إثم وعما هو يشبه به قال رسول الله ﷺ «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة»[1] الحديث.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ الجس في اللغة المس باليد والتجسس تفحص الأخبار باعتبار ما فيه من معنى الطلب كالتلمس والمراد هاهنا لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوا عوراتهم حتى لا يظهر عليكم ما ستره الله منها، عن أبي هريرة(رض) أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا لا تنافروا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو ينزل»[2]

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٩، والبيوع باب ٢، ومسلم في المساقاة حديث ١٠٧، ١٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا باب ٨، والفرائض باب ٢، والأدب باب ٥٧، ٥٨، ومسلم في البر حديث ٢٨، والترمذي في البر باب ٥٦، ومالك في حسن الخلق حديث ١٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤٥، ٢٨٧، ٤٦٥، ٥٠٤.

رواه مالك وأحمد وابن ماجه وأبو داود والترمذي وصححه وعن ابن عمر أن النبيّ ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورات المسلمين يتبع الله عوراته فيفضحه ولو في جوف رحله»[١] رواه الترمذي وحسنه وابن حبان، قال زيد بن وهب قيل لابن مسعود هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمراً؟ قال نهينا عن التجسس فإن يظهر لنا شيء نأخذ به ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره، قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[٢] متفق عليه، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله ﷺ رجلاً قال لا يأكل حتى يطعم ولا يرحل حتى يرحل فقال النبيّ ﷺ «اغتبتموه» فقالوا إنما حدثنا بما فيه قال «حسبك إذا ذكرت أخاك بما فيه»[٣] رواه البغوي ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه مع مبالغات الاستفهام الذي معناه الإنكار المستلزم لتقرير النفي وإسناد الفعل إلى أحد للتعليق وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ولم يقتصر عليه حتى جعله أخاً ولم يقتصر عليه حتى جعله ميتاً وتعقب ذلك بقوله ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك، وجملة فكرهتموه جزاء شرط محذوف تقديره إن صح ذلك إذ عرض عليكم هذا فقد كرهتموه ولا يمكنكم إنكار كراهته أو هي معطوف على الاستفهام المذكور فإن معناه نفي المحبة الموهوم عدم الكراهة فلدفع ذلك الوهم عطف عليه، وجاز أن تكون الفاء للسببية والماضي بمعنى المستقبل والمعنى أنه لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً إنكم تكرهونه، وقال مجاهد لما قيل لهم أيحب أحدهم أن يأكل إلخ فكأنهم قالوا لا فقيل كرهتموه فكأنه معطوف على محذوف والحاصل أنكم كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً عَن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم قلت من هؤلاء فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[٤] رواه البغوي، قال ميمون بينا أنا نائم إذ أنا بجيفة زنجي وقائل يقول كل قلت يا عبد الله ولم آكل قال بما اغتبت عبد فلان قلت والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً قال لكنك استمعت ورضيت وكان ميمون لا يغتاب أحداً ولا يدع أحداً أن يغتاب عنده، عن عائشة رضي الله عنها قلت للنبيّ ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا يعني قصيرة فقال «لقد قلت

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٤٢١، ٤٢٤.

(٢) أخرجه مسلم في البر حديث ٧٠، وأبو داود في الأدب باب ٣٥، والترمذي في البر باب ٢٣، والدارمي في الرقاق باب ٦، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٠ ٣٨٤، ٣٨٦.

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره ٦/ ٢٢٥، وشرح السنة ١٣/ ١٤٠، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٥٠٦.

(٤) أخرجه أبو داود حديث ٤٨٧٨، والبغوي في نفسيره ٦/ ٢٢٩، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٥٠، ٦/ ٩٦.

كلمة لو مزج بها البحر لمزجته»[١] رواه أحمد والترمذي وأبو داود، عن أبي سعيد وجابر قالا قال رسول الله ﷺ «الغيبة أشد من الزنا»، قالوا يا رسول الله وكيف الغيبة أشد من الزنا؟ قال «إن الرجل يزني فيتوب الله فيغفر له وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه»[٢].

فائدة: في كفارة الغيبة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن من كفارة الغيبة أن يستغفر لمن اغتابه تقول اللهم اغفر لنا وله»[٣] رواه البيهقي.

فائدة: عن خالد بن معدان عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ «من عيّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله يعني من ذنب قد تاب منه»[٤] رواه الترمذي وخالد لم يدرك معاذاً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما نهيتم عنه والندم على ما وجد منكم منه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يقبل توبتكم مبالغ في قبول التوبة حيث يجعل التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالعباد لا يرضى أن يقع بعضكم في عرض بعض، ذكر البغوي أنه قال مقاتل لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى أتى على ظهر الكعبة وأذن فقال عباد بن أسيد الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً، وقال سهيل بن عمرو إن يرد الله شيئاً يغيره وقال أبو سفيان إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخبر رسول الله ﷺ بما قالوا فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله تعالى: هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقر، وقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الآية ولم يقل يا أيها الذين آمنوا لأنهم لم يكونوا آمنوا في ذلك الوقت، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مليكة هذه القصة مختصراً وقال ابن عساكر في مبهماته وجدت بخط ابن بشكوال أن أبا بكر بن أبي داود أخرج في تفسير له أنها نزلت في أبي هند أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوه امرأة منهم فقالوا يا رسول الله تزوج بناتنا موالينا فنزلت الآية، وقال البغوي قال ابن عباس نزلت في ثابت بن قيس وقومه للرجل الذي لم ينفسح له ابن فلانة فقال النبي ﷺ من الذاكر فلانة؟ فقال ثابت أنا يا رسول الله، فقال انظر وجه القوم، فقال ما رأيت يا ثابت؟ فقال رأيت أبيض وأحمر وأسود فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والتقوى فنزلت في ثابت هذه الآية وفي الذي لم يفسح ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾ [المجادلة: ١١] ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يعني نوع البشر من آدم وحواء أو كل واحد منكم من أب وأم فلا مزية لأحد على غيره ولا وجه للتفاخر وجاز أن يكون تقريراً للأخوة المانعة من الاغتياب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٣٥، والترمذي في القيامة باب ٥١، وأحمد في المسند ٦/١٨٩.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٩١، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/٥٣٣، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٤٨٧٤، و٤٨٧٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/٥١١، والسيوطي في الدر المنثور ٦/٩٧.

(٣) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح ٤٨٧٧، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/٥٥٨.

(٤) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٥٣.

﴿وَقَبَآئِلَ﴾ كانت العرب تعتبر في النسب ست طبقات أعلاها الشعب وهي الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد وهي تجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطن تجمع الأفخاذ والفخذ تجمع الفصائل والفصيلة تجمع العشائر وليس بعد العشيرة حي يوصف به، وقيل الشعوب من العجم والقبائل من العرب والأسباط من بني إسرائيل، وقال أبو رواق الشعوب من الذين لا يعتزون إلى أحدٍ بل ينتسبون إلى المدن والقرى والقبائل من العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ حذف أحد التائين أي لتعرف بعضهم بعضاً في قرب النسب وبعده لا ليتفاخروا ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ قال قتادة في هذه الآية أن أكرم الكرم التقوى وألأم اللؤم الفجور، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ «الحسب المال والكرم التقوى»[1] رواه أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم، وقال ابن عباس كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى، وعن ابن عمر أن النبيّ ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه فلما خرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال ثم قام فخطب بهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها الناس رجلان برّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله» ثم تلا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ الآية ثم قال «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[2] رواه الترمذي والبغوي، وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان خير من فلان بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون»[3] وعن أبي هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم على الله؟ قال أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا ليس عن هذا نسألكم، قال فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك، قال فعن معادن العرب تسألون؟ قالوا نعم، قال فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» رواه البخاري وغيره، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[4] رواه مسلم وابن ماجه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ببواطنكم وفضائلكم.

ذكر البغوي أن نفراً من بني أسد قدموا على رسول الله ﷺ في سنة جدبة فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر فأفسدوا طرق المدينة بالقذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يغدون ويروحون إلى رسول الله ﷺ ويقولون أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٤٩، باب ٦، وابن ماجه في الزهد باب ١٤، وأحمد في المسند ٥/ ١٠.

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة ١٣/١٢٣، والسيوطي في الدر المنثور ٦/٩٨.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ١/٢٣٠، والسيوطي في الدر المنثور ٦/١١، ١٣٨.

(٤) أخرجه مسلم في البر حديث ٣٣، وابن ماجه في الزهد باب ٩، وأحمد في المسند ٢/٢٨٥، ٥٣٩.

وجئناك بالأثقال والعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان يمنون على النبيّ ﷺ ويريدون الصدقة ويقولون أعطنا فأنزل الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ الآية، قال السدي نزلت في الأعراب الذي ذكرهم الله في سورة الفتح وهم أعراب جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا يقولون آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم.

فلما استنفر لهم رسول الله ﷺ إلى الحديبية تخلفوا فنزلت ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ يعني صدقنا قُلْ يا محمد ﷺ ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ فإن الإيمان صفة القلب عبارة عن تصديقه والإقرار كن زائد عن الاختيار لاجراء الأحكام، قال رسول الله ﷺ «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١) كذا في الصحيحين من حديث عمر ابن الخطاب مرفوعاً في حديث سؤال جبرئيل، ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ والمراد بالإسلام الانقياد الظاهري وكان مقتضى نظم الكلام أن يقال لا تقولوا آمنا لكن قولوا أسلمنا أو يقال لم تؤمنوا ولكن أسلمتم فعدل عنه إلى هذا النظم احترازاً عن النهي عن القول بالإيمان وعن الجزم بإسلامهم مع فقد لشرط اعتباره عند الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حال من فاعل قولوا أو معطوف على لم تؤمنوا للتأكيد على نفي الإيمان في الماضي والتوقع في المستقبل وليس في لم تؤمنوا التوقع فلا يلزم التكرار ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في الإيمان بالقلوب مخلصين والامتثال كما يدل على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ أي لم يشكوا فيما جاء به الرسول ﷺ، وكلمة ثم للإشعار باشتراط عدم الارتباط في شيء من الأزمنة المتراخية إلى آخر أجزاء الحياة كاشتراط في بداية الإيمان فهي كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طاعة يجوز أن يكون مفعول جاهدوا محذوفاً منوياً يعني جاهدوا العدو المحارب أو الشيطان أو الهوىٰ وجاز أن يجعل لازماً مبالغة في الجهد وجاز أن يراد بالمجاهدة العبادات القلبية والسرية والبدنية والمالية، فهذه الآية لامتثال جميع الأوامر والانتهاء عن جميع المناهي إما عبارة إن كان المراد مطلق المجاهدة وإما دلالة إن كان المراد به القتال مع الكفار فإن من بذل نفسه وماله لإصلاح العالم وإخلائه من الفساد وإعلاء كلمة الله وإفشاء الدين، فإنه يصلح أولاً نفسه بإيتان المأمورات وانتهاء المناهي بالطريق الأولى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفين بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في ادعاء الإيمان جملة مستأنفة وجاز أن يكون الموصول مع صلته صفة للمبتدأ وهذه الجملة خبر له، فلما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله ﷺ يحلفون بالله أنهم مؤمنون صادقون وعرف الله غير ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الذي أنتم عليه بقولكم آمنا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من الله تعالى في

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١، وأبو داود في السنة باب ١٦، والترمذي في الإيمان باب ٤، والنسائي في الإيمان ٥، ٦، وابن ماجه في المقدمة باب ٩.

أتعلمون الله ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ عطف على الله يعني أن الله يعلم حقيقة اسراركم ولا يحتاج إلى إخباركم فعليكم بإصلاح بواطنكم، أخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى والبزار من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس وابن أبي حاتم مثله عن الحسن أن ناساً من العرب قالوا يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك وقاتلك بنو فلان، قال الحسن كان ذلك لما فتحت مكة ونزلت ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ منصوب بنزع الخافض أي بأن أسلموا وبتضمين الفعل معنى الاعتداد وكذا إسلامكم في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ وكذا أن هداكم في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ بخلق التصديق في قلوبكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله يعني إن كنتم صادقين في ادعاء الإيمان فللّه المنة عليكم وفيه إشارة إلى أن كلهم ليسوا صادقين فيما ادعوا ولذلك عقبه بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني ما غاب فيهما ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه ما في ضمائركم، قرأ ابن كثير بالتاء خطاباً للأعراب داخلاً في مقولة قل والباقون بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الأعراب فهو كلام مستأنف من الله تعالى.

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي وسعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبير نحوه وأنه قدم عشرة نفر من بني أسد على رسول الله ﷺ سنة تسع وفيهم طلحة بن حويلة ورسول الله ﷺ مع أصحابه فسلموا، وقال متكلمهم يا رسول الله إنا نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً ونحن لمن ورائنا سلم فأنزل الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

سورة مكيّة وهي خمس وأربعون آية وثلاث ركوعات

﴿قٓ والقرءان المجيد (١) بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب (٢)
أءذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد (٣) قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتب حفيظ (٤) بل
كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج (٥) أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنينها وزينها وما
لها من فروج (٦) والأرض مددنها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج (٧) تبصرة وذكرى
لكل عبد منيب (٨) ونزلنا من السماء ماء مبركا فأنبتنا به جنت وحب الحصيد (٩) والنخل باسقت
لها طلع نضيد (١٠) رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١١) كذبت قبلهم قوم نوح وأصحب
الرس وثمود (١٢) وعاد وفرعون وإخوان لوط (١٣) وأصحب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد (١٤)
أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد (١٥) ولقد خلقنا الإنسن ونعلم ما توسوس به نفسه
ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦) إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قول إلا
لديه رقيب عتيد (١٨) وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد (١٩) ونفخ في الصور ذلك يوم
الوعيد (٢٠) وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد (٢١) لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك
فبصرك اليوم حديد (٢٢) وقال قرينه هذا ما لدي عتيد (٢٣) ألقيا في جهنم كل كفار عنيد (٢٤) مناع للخير
معتد مريب (٢٥) الذي جعل مع الله إلها ءاخر فألقياه في العذاب الشديد (٢٦) ۞ قال قرينه ربنا ما أطغيته
ولكن كان في ضلل بعيد (٢٧) قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد (٢٨) ما يبدل القول لدي وما
أنا بظلم للعبيد (٢٩)﴾

﴿قٓ﴾ والصحيح أنه من الحروف المقطعة فقيل اسم للسورة وقيل اسم من أسماء القرآن، وقال القرطبي هو مفتاح اسم الله القدير والقادر والقاهر والقريب والقابض، وقيل إشارة إلى قضاء الأمر أو قضاء ما هو كائن والحق إنه رمز بين الله ورسوله ﷺ لا يعلم تأويله إلا الله وبعض الراسخين في العلم وقد مر الكلام في أوائل سورة البقرة، قال: قال عكرمة والضحاك هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضر من خضر السماء والسماء مقبية عليه وعليه كتفاها يقال هو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة ﴿والقرءان﴾ الواو للقسم، وقال ابن عباس كلمة ق قسم يعني حذف حرف القسم بإيصال الفعل إليه أو إضماره وهذه الواو للعطف ﴿المجيد﴾ أي ذو المجد والشرف على سائر الكتب

أو لكونه كلام المجيد أو لأنه من تعلمه وعلم معانيه وامتثال أحكامه بجد وجواب القسم محذوف تقديره لقد صدق الرسول المنذر لتبعثن أو نحو ذلك وقيل جوابه قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ وقيل قد علمنا، وقال أهل الكوفة جوابه ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ بمعنى قد عجبوا أي كفار مكة وعلى التقدير الأول هذا معطوف على محذوف تقديره والقرآن المجيد لقد صدق الرسول وقد أنكره الكفار بل عجوا ﴿أَن جَآءَهُم﴾ منصوب بنزع الخافض يعني عجبوا من أن جاءهم ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ ليعجبهم مما ليس هو بعجب وهو أن ينذرهم أحد من جنسهم أو من قومهم ممن عرفوا عدالته واعترفوا بها ومن كان كذلك لا يكون إلا ناصحاً لقومه خائفاً عليهم أن ينالهم مكروه وإذا علم أن أمراً مخافاً أظلهم لزمه أن ينذرهم فكيف ما هو غاية المخاف وقد قال لهم رسول الله ﷺ إذا اجتمع إليه بطون قريش «أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلاً يخرج بالوادي يريد أن يغير عليكم أنكم مصدقي» قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[(١)] الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس.

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ والفاء للتفسير فهو بيان لتعجبهم وهذا إشارة إلى اختيار الله تعالى محمداً ﷺ للرسالة وإضمار ذكرهم في عجبوا أو إظهاره هاهنا للتسجيل على كفرهم بذلك وجاز أن تكون الفاء للتعقيب وهذا إشارة إلى البعث بعد الموت فهو عطف لتعجبهم مما أنذروا به على عجبهم ببعث المنذر وللمبالغة في إنكار هذا التعجب وضع المظهر موضع المضمر، فإنهم مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السماوات والأرض وما بينهما أول مرة وإقرارهم بالنشأة الأولى أنكر والنشأة الأخرى مع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء وجاز أن يكون هنا إشارة إلى المبهم يفسره ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الظرف متعلق بمحذوف دل عليه ما بعده تقديره أنرجع إلى الحياة إذا متنا وصرنا تراباً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرجع ﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ عن الوهم والعادة أو الإمكان وإنما أورد هذا أولاً مبهماً وثانياً مفسراً لأنه أدخل في الإنكار أو الأول استبعاد لأن يتفضل عليهم مثلهم والثاني استقصاء بقدرة الله تعالى عما هو أهون عليه مما يشاهدون من صنعه ثم رد الله تعالى إنكارهم للبعث فقال ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ يعني ما تأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت يعني لا يعزب من علمنا شيء فلا يتعذر علينا جمع ما نقص منها وبعثهم بعد الموت ومن قال هذه الجملة جواب للقسم قالوا اللام محذوفة لطول الكلام ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي محفوظ من الشياطين ومن أن يندرس ويتغير وقيل معناه حافظ لتفاصيل الأشياء يعلم به من عنده من الملائكة وهذه الجملة حال من فاعل علمنا ثم رد الله تعالى إنكارهم نبوة النبيّ ﷺ فقال ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني النبوة الثابتة بالمعجزات إضراب من الإضراب الأول فإن التكذيب بالشيء الثابت بالأدلة القطعية فوق من التعجب والاستبعاد ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ظرف متعلق بكذبوا ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ الفاء للسببية المريج المضطرب الملتبس فإن تكذيبهم سبب لاضطرابهم

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٦، باب ٢، وأحمد في المسند ١/ ٣٠٧.

في القول، قال قتادة والحسن من ترك الحق مرج عليه أمره والتبس عليه دينه، وذكر الزجاج معنى اختلاط أمرهم أنهم يقولون مرة شاعر ومرة ساحر ومرة معلم ومرة مجنون ومرة مفتر والأقوال متناقضة غالباً ثم رد تكذيبهم وأرشدهم إلى الاستدلال على قدرته على البعث بخلق العالم فقال ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أكذبوا بالبعث فلم ينظروا حين كذبوا به ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ حال من السماء أو ظرف متعلق بلم ينظروا ﴿كَيْفَ﴾ حال من مفعول ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ ورفعناها بلا عمد ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب وجملة بنيناها وزيناها بتأويل المفرد بدل من السماء والاستفهام بكيف للتقدير والمعنى ألم ينظروا إلى بنائنا السماء فوقهم وتزييننا إياها بالكواكب متكيفة بكيفية بديعة راسخة ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي شقوق ومن زائدةٍ والجملة حال من مفعول بنيناها أي كائنة على حال ليس لها عيوب وشقوق ﴿والأرضَ﴾ منصوب بفعل مقدر يفسره ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها والجملة معطوفة على بنيناها فإن قيل جملة بنيناها بتأويل المفرد بدل من السماء كما ذكرنا ولا يتصور ذلك في المعطوف قلنا في الكلام حذف وإضمار تقديره إما أن يقال أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وإلى الأرض من تحتهم كيف مددناها وإما أن يقال والأرض مددناها تحتها وجاز أن يقال الجملة بتأويل المفرد معطوفة على السماء والمعنى ألم ينظروا إلى مددنا الأرض ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبال ثوابت ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ أي من كل صنف من النباتات ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن ذا بهجة وسرور.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ منصوبان على العلة الغائية فإن المقصود من خلق الأشياء كونها تبصرة وذكرى دالة على وجود الخالق القديم القدير العليم الواجب وجوده وصفاته الكمال المنزه عن النقص والزوال ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه بالتفكر في خلقه خص هذا العبد لكونه هو المنتفع به ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ كثير النفع ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ أي بذلك الماء في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ إضافة العام إلى الخاص على طريقة حق اليقين وكل الدراهم وعين الشيء يعني الحب الذي يحصد كالبر والشعير ونحر ذلك مما يزرع ويقتات به وإنما خص الحب بإضافة إلى الحصيد لأن المقصود من الحبوب والمنتفع به كمال الانتفاع ما يحصد ويقتات به وقيل هذه الإضافة من قبيل مسجد الجامع وصلاة الأولى بتأويل الصلاة الجامع وصلاة الساعة الأولى، فالمعنى حب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالبر والشعير ونحوهما ﴿وَٱلنَّخْلَ﴾ معطوف على جنات ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ طويلات أو حاملات من بسقت الشاة إذا حملت أفردها بالذكر لكثرة منافعها وفرط ارتفاعها قال رسول الله ﷺ «إن من الشجر شجرة لا تسقط ورقها وإن مثلها كمثل المسلم فأنبئوني ما هي فوقع الناس في شجر البوادي فقال رسول الله ﷺ «هي النخلة»[1] رواه البخاري من حديث ابن عمر وقال عليه الصلاة والسلام «أكرموا عمتكم النخل فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم وليس من

---

(١) أخرجه البخاري في العلم باب ٤، ٥.

الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران فأطعموا نساءكم الولد الرطب فإن لم يكن رطب فتمر»(١) رواه ابن أبي حاتم وأبو يعلى في مسنده، وابن عدي في الكامل والعقيلي وابن السني وأبو نعيم في الطب وابن مردويه عن علي(رض).

﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾ أي ثمر ومحل مسمى بذلك لأنه تطلع والطلع أول ما يظهر من قبل أن ينشق ﴿نَّضِيدٌ﴾ منضود بعضه فوق بعض والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر جملة لها طلع نضيد حال ثان من النخيل ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ علته للإنبات أو مصدر من غير لفظ فإن الإنبات رزق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء عطف على أنبتنا ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي أرضاً جدبة لانماء لها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الخروج للنبات من الأرض بعد سببها ﴿الخروجُ﴾ للأموات من القبور في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ما بين النفختين أربعون» قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيت، قالوا أربعون شهراً، قال أبيت، قالوا أربعون سنة، قال أبيت ثم ينزل الله من السماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة»(٢) وأخرج ابن أبي داود نحوه وفيه ما بين النفختين أربعون عاماً، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال يسيل واد من تحت العرش من ماء فيما بين الصيحتين ومقدار ما بينهما أربعون عاماً فينبت منه كل خلق بلي من إنسان أو طير أو دابة ولو مر عليهم مارٌّ قد عرفهم قبل ذلك ما عرفهم على وجه الأرض فينبتون ثم يرسل الأرواح فيزوج بالأجساد وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير: ٧] وأخرج أحمد وأبو يعلى والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «يبعث الناس يوم القيامة والسماء طش عليهم»(٣) ثم أورد تسلية للنبيّ ﷺ ووعيداً للكافرين بمثل ما أصاب أمثالهم بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي ذو طش أي قبل كفار مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أنذر قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فكذبوه فأخذهم الطوفان وهم ظالمون وأنجاه الله ومن آمن معه في الفلك المشحون ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ في القاموس الرس بابتداء الشيء والبئر المطوية بالحجارة وبئر كانت لبقية من ثمود كذبوا نبيهم درسوه في بئر والحفر ودفن الميت، وقال البغوي الرس البئر وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجر فهو رس وقيل الرس المعدن والجمع رسائس. واختلفوا في أصحاب الرس؟ فقال بعضهم كما قال صاحب القاموس هم بقية ثمود وقال البغوي روى أبو روق عن الضحاك أن بئراً كان بحضرموت في بلدة يقال لها حاصورا وإن أربعة آلاف ممن آمن لصالح نجوا من العذاب فأتوا بحضرموت معهم صالح فلما حضروه مات صالح فسمي حضرموت لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حاصورا وقعدوا على هذا البئرِ وأمروا عليهم رجلاً فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا ثم عبدوا

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٤/ ٢٥٦، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٤٢٤.
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣٩، باب ٣، وسورة ٧٨، باب ١، ومسلم في الفتن حديث ١٤١.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٢٦٧.

الأصنام وكفروا فأرسل الله إليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان وكان حمالاً فيهم فقتلوه في السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخربت قصورهم وفيهم قال الله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] قال سعيد بن جبير كان لأصحاب الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله وقال وهب بن منبه كانوا أهل بير وأصحاب مواش يعبدون الاصنام فوجه الله اليهم شعيباً عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي أذى شعيب عليه السلام فبينا هم حول البئر في منازلهم انهارت البئر فخسف الله بهم وبديارهم ورباعهم فهلكوا جميعاً، وقال قتادة والكلبي الرس بئرٍ بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله عز وجل، وقال كعب ومقاتل والسدي الرس بئر بأنطاكية قتل فيها حبيب النجار وهم الذين ذكرهم في سورة ياسين، وقيل هم أصحاب أخدود الذين حفروها وقال عكرمة هم رسوا نبيهم في البئر ﴿وَثَمُودَ﴾ كذبت المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾ [الشعراء: ١٤٢ ـ ١٤٤] ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣، ١٥٤] فجاء بناقة عشراء خرجت من صخرة فولدت ولداً مثلها وكانت تشرب الماء كله يوماً وتذر يوماً فقال صالح: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الشعراء: ١٥٦، ١٥٧] فقال لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥] فأنجى الله صالحاً والذين آمنوا معه وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وَعَادٌ﴾ كذبت المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء: ١٠٦ ـ ١٠٨] فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فصاروا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ وقومه العمالقة بعث الله إليه موسى وهارون، وقال: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النازعات: ١٧ ـ ٢٠] ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى وأدخل يده في جيبه خرجت بيضاء من غير سوء آية أخرى فكذب وتولى وقال أنا ربكم الأعلى فأوحى الله إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً واضرب بعصاك البحر فكان كل فرق كالطود العَظيم فسار في البحر موسى ببني إسرائيل وأنجى الله موسى وبني إسرائيل وأتبعهم فرعون وجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم فلما أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين فقال الله تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩١، ٩٢] ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾، كذبوا المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الشعراء: ١٦١ ـ ١٦٨] فأنجاه الله وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وأمطر الله عليهم حجارة من

طين مسومة عند ربك للمسرفين ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ كذب المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٧٧ ـ ١٨٩] إذ كانوا في حر شديد وكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حراً فأظلهم الله سبحانه وهي الظلة، فاجتمعوا إليها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا.

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ قال البغوي قال قتادة هو تبع الحميري كان من ملوك اليمن وكان سار بالجيوش حتى حير الحيرة وبنىٰ سمرقند سمي تبعاً لكثرة أتباعه وكل واحد منهم سمي تبعاً لأنه يتبع صَاحبه وكان هذا الملك يعبد النار فأسلم ودعى قومه إلى الإسلام فكذبوه، ذكر محمد بن إسحاق وغيره عن عكرمة عن ابن عباس وغيره قالوا كان تبع الآخر وهو أبو كرب أسعد بن مليك بن يكرب حين أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة وقد كان حين مر بها خلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها فجمع له هذا الحي من الأنصار حين سمعوا ذلك من أمره فخرجوا لقتاله فكان الأنصار يقاتلونه بالنهار ويقرونه باللّيل فأعجبه ذلك، وقال إن هؤلاء لكرام فبينما هو كذلك إذ جاءه حبران اسمهما كعب وأسد من أحبار بني قريظة عالمان وكانا ابني عم حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة فإنها مهاجر نبي يخرج من هذا الحي من قريش اسمه محمد ﷺ مولده مكة وهذه دار هجرته ومنزلك الذي أنت به يكون به من القتل والجراح أمر كبير في أصحابه وفي عدوهم، قال تبع من يقاتله وهو نبي؟ قالا يسير إليه فيقتتلون هاهنا فتناهى لقولهما عما كان يريد بالمدينة ثم إنهما دعواه إلى دينهما فأجابهما واتبعهما على دينهما وأكرمهما وانصرف عن المدينة وخرج بهما ونفر من اليهود عامدين إلى اليمن فأتاه في الطريق نفر من هذيل، وقالوا إنا ندلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة قال أي بيت قالوا بيت بمكة وإنما تريد هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه لم يرده أحد قط بسوء إلا هلك فذكر ذلك للأحبار فقالوا ما نَعْلَم لله في الأرض بيتاً غير هذا البيت فاتخذه مسجداً وانسك عنده وانحر واحلق رأسك وما أراد القوم إلا هلاكك لأنه ما ناداه أحد قط إلا هلك فأكرمه واصنع عنده ما يصنع أهله فلما قالوا له ذلك أخذ النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم صلبهم، فلما قدم مكة نزل الشعب شعب البطائح وكسا البيت الوصائل وهو أول من كسى البيت ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة وأقام به ستة أيّام وطاف به وحلق وانصرف فلما دنى من اليمن ليدخلها حالت حمير بين ذلك وبينه وقالوا لا تدخل علينا وقد

فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه وقال إنه دين خير من دينكم قالوا فحاكمنا إلى النار وكانت باليمن نار في أسفل جبل يتحاكمون إليها فيما يختلفون فيه فتأكل الظالم ولا تضر المظلوم، قال تبع أنصفتم فخرج القوم بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه فخرجت النار فأقبلت حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما يتلوان التوراة تعرق جباههما لم تضرهما ونكصت النار حتى رجعت إلى مخرجها الذي خرجت منه فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما فمن هنالك كان أصل اليهودية في اليمن. وذكر أبو حاتم عن الرقاشي قال كان أبو كرب أسعد الحميري من التابعة آمن بالنبيّ ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وذكر لنا أن كعباً كان يقول ذم الله قومه ولم يذمه، وكانت عائشة تقول لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً وقال سعيد بن جبير هو الذي كسا البيت روى البغوي بسنده عن سهل بن سعد قال سمعت النبيّ يقول «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم»[(١)] والبغوي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ما أدري تبع أكان نبياً أو غير نبي»[(٢)] انتهى كلام البغوي في سورة الدّخان.

﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد أو كل قوم منهم أو جميعهم ﴿كَذَّبَ﴾ أفرد الضمير للفظة كل ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ أورد صيغة الجمع لأن من كذب واحداً فقد كذب جميعهم أو لأنهم كانوا كلهم لا يؤمنون بالله وحده وكانوا ينكرون إرسال الرسل بالطريق الأولى ﴿فَحَقَّ﴾ وجب وحل ﴿وَعِيدِ﴾ أي وعيدي أي عذابي الموعود كل ذلك يحل بهؤلاء الكفار مكذبي الرسل أثبت الياء وصلاً ورش والباقون حذفوها في الحالين ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ في القاموس عيي بالأمر لم يهتد لوجه مراده أو عجز عنه ولم يطلق أحكامه والهمزة للإنكار والفاء للعطف والتعقيب على مضمون قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [ق: ٦] قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج: ٤٢] إلى آخره معترضات والمستفاد إنكار تعقب الخلق ما سبق ذكره، والمعنى بنينا السماء بلا فروج ومددنا الأرض وألقينا فيها رواسي وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا بها ما ذكر فلم نعي بخلقها أول مرة كما ترونه تعترفون كيف نعى بالإعادة وليس أوّل الخلق بأهون من إعادته والكفار مع اعترافهم بذلك وقيام الدليل لا يعترفون بالإعادة ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾ أي خلط شبهة والمراد به الشك وأصل اللبس الستر وفي حالة الشك يختلط الحق بالباطل ويستر الحق ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي معاد وقال رسول الله ﷺ «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون له عليّ من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الله

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٤٠، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٤٠٨٥.

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره ٦/ ١٤٨.

الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»[١] رواه البخاري، عن أبي هريرة وعن ابن عباس نحوه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ﴾ أي تحدث به ﴿نَفْسُهُۥ﴾ الوسوسة الصوت الخفي والمراد ما يخطر بالبال وما فيما توسوس موصولة والباء في به صلة يقال صوت بكذا والضمير عائد إلى ما أو مصدرية والباء للتعدية والضمير عائد إلى الإنسان ونعلم خبر مبتدأ محذوف والجملة الاسمية حال من فاعل خلقنا أو مفعوله أو كليهما، وتقديره ونحن نعلم ما تحدث به نفسه فإن الله تعالى خلق الإنسان ووسوسة ولكل شيء عرض وجوهر والخلق بالاختيار والإرادة مسبوق بالعلم ضرورة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الإنسان ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ الحبل العرق وإضافته إلى الوريد من قبيل شجرة الأراك ويوم الجمعة للبيان والجملة حال ثان من فاعل خلقنا والوريدان عرقان مكتنفان بصفحة العنق متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، قيل سمي وريدان لأن الروح يرده. واختلف أقوال العلماء في تصوير هذه الأقربية؟ فقال علماء الظاهر المراد قرب علمه منه، قال البيضاوي معناه نحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد ففيه تجوز لقرب الذات لقرب العلم لأنه موجبه وحبل الوريد مثل يضرب لكمال القرب يقال الموت أدنى لي من الوريد، قال البغوي معناه نحن أعلم به منه لأن أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً ولا يحجب عن علم الله شيء وعلى هذا التأويل يلزم جواز أن يقال الطبيب أقرب إلى المريض من حبل الوريد فإن المريض لا يعلم بعض أحواله من الصحة والمرض ما يعلمه الطبيب ولو بالاستدلال لاسيما اذا كان شيء عديم العلم والعقل يعلم بعض أحوالهُ وهو لا يعلم شيئاً من أحوال نفسه فيجوز أن يقال أنا أقرب من السماء من نفسه فالاقتصار في القول بأقربيته سبحانه إلى خلقه بهذا المعنى غير مرضي عندي، وقالت الصوفية العلية بل الله سبحانه أقرب إلى المخلوقات من أنفسها قرباً ذاتياً لا زمانياً ولا مكانياً ولا متكيّفاً بكيفية أصلاً يدرك ذلك القرب بنور الفراسة لا بالمشاعر أو الاستدلال وغاية ما يقال في هذا المقام أن العالم من حيث إنه محتاج في الوجود والبقاء إلى الواجب يشبه نسبته إلى الواجب بنسبة الظل إلى الأصل فإن الظل لا وجود له ولا بقاء إلا بوجود أصله فالأصل أقرب إلى الظل من نفسه والواجب أقرب إلى الممكن من نفسه بالذات ألا ترى أن الممكن ما لم ينتسب إلى الواجب لم يجب بالغير وما لم يجب لم يوجد وما لم يوجد لا يجوز حمله على نفسه حملاً أولياً فلا يقال زيد ما لم يوجد يجوز حينئذ سلبه عن نفسه إذ يشترط وجود الموضوع للحمل الإيجابي وإن كان حملاً أولياً فوجود الممكن أقرب إلى ذات الممكن من ذاته لجواز سلب الشيء عن نفسه ما لم يوجد، والمراد بالوجود هاهنا ما به الموجودية لا المعنى المصدرية فذات الله سبحانه أقرب

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢، باب ٨، وسورة ١١٢، باب ١، ٢، والنسائي في الجنائز باب ١١٧، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٧، ٣٥٠.

إلى الممكن من ذاته فهو أبعد في الوجدان وأقرب بالذات ولما كانت الصوفية ينسبون العالم إلى دائرة الظلال والظلال إلى الصفات والصفات إلى الذات وفي الظلال مراتب كثيرة كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام «إن لله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[١] كذا في الصفات قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] وقال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فبناء على هذا قال المجدد وقدس سره العزيز أنه سبحانه وراء الوراء ثم وراء الوراء ثم وراء الوراء في جهته القرب دون البعد يعني ظلال الصفات أقرب إلى الممكن من الممكن وصفات الله تعالى أقرب إلى الممكن من ذاته ومن الظلال والله سبحانه أقرب إلى الممكن من ذاته ومن الظلال ومن الصفات والله تعالى أعلم.

فائدة: هذا النوع من القرب المستفاد من هذه الآية يعم الخلائق كلها حتى الكافرين ولله سبحانه بخواص عباده قرب آخر لا يشارك النوع الأول من القرب إلا اشتراكاً اسمياً لا حقيقياً وذلك القرب أيضاً يدرك بالفراسة الصحيحة ويستفاد من الكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [القمر: ١٩] وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ [الشعراء: ٦٢] ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٥] وفي ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٨، ٩] ونحو ذلك، وقال عليه الصلاة والسلام «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل»[٢] ونحو ذلك وهذا القرب يسمى بالولاية ولها مراتب لا تعد ولا تحصى ولا يدل عليه كلمة لا يزال ويضاده البعد المختص بالكفار قال الله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨] ﴿ألا بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] -.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ أي يأخذ الملكان ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ الموكلان بالإنسان ومفعول يتلقى محذوف مراد يعني يتلقى عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ الجار والمجرور متعلق بقعيد وقعيد بدل من المتلقيان والتقدير عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أي مقاعد كالجليس بمعنى المجالس فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وقيل يطلق الفعيل على الواحد والكثير كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] والمراد بالقعيد اللازم الذي لا يبرح إلا القاعد الذي هو ضد القائم، وقال مجاهد القعيد الرصيد والظرف متعلق باذكر يعني اذكر إذ يتلقى أو متعلق بأقرب إيذاناً بأنه تعالى غني عن استحفاظ الملكين فإنه أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما لكنه لحكمة اقتضت وإلزام حجة يوم يقوم الأشهاد ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ الإنسان من فيه ﴿مِن قَوْلٍ﴾ من زائدة وقول مفعول به ﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾ ملك ﴿رَقِيبٌ﴾ يرقب عمله

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٩٣، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣، وأحمد في المسند ٤/ ٤٠١، ٤٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨، وأحمد في المسند ٦/ ٢٥٦.

ليكتب ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر معه الاستثناء مفرغ والمستثنىٰ صفة لقول، قال الحسن إنما الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين عند غائطه وعند جماعه، وقال مجاهد يكتبان عليه حتى أنينه في مرضه، وقال عكرمة لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يوزر فيه، روى البغوي بسنده عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيآت فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه لسبع ساعات لعله يسبح ويستغفر»(١) ورواه ابن راهويه في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان، لما ذكر الله تعالى استبعادهم البعث للجزاء وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ببيان مبدأ خلق العالم من بناء السماء والأرض ومبدأ خلق الإنسان ومعاشه بقوله، ولقد خلقنا الإنسان إلى هاهنا عقب ذلك قرب الموت وقيام الساعة تهديداً وتوعيداً.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي غمرته وشدته التي يغشى الإنسان ويزيل عقله جار جاءت وما عطف عليه أعني نفخ وجاءت وكشفنا، وقال بصيغة الماضي ومعناه المستقبل للدلالة على قربه وتحقق وقوعه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للتعدية والمعنى أحضرت سكرات الموت الأمر المتحقق الثابت فإن الدنيا وما فيها كأنها سراب لا تحقق لها وما كان بعد الموت فهو أمر ثابت لا مردّ له والوعد الحق الذي لا يحتمل تخلفه من الموت أو الجزاء فإن الإنسان خلق له وجاز أن يكون حالاً متلبساً بالحق ومستصحباً له والحق هو الموت وما بعده، وجاز أن يكون بالحق جملة مؤكدة لما سبق يعني هذا القول متلبس بالحق ﴿ذَٰلِكَ كُنتَ﴾ إشارة إلى الحق بمعنى الموت أو الجزاء ﴿مَا كُنتَ﴾ أيها الإنسان ﴿مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتفر عنه يعني تكره الموت وتنكر الجزاء وهذه الجملة بتقدير القول حال من مقدر تقديره جاءت سكرة موت الإنسان بالحق يقال له ذلك ما كنت منه تحيد فإن المراد بالموت موت الإنسان.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ نفخة البعث ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم يقول لجهنم إن كان ظرفاً لنفخ وإلا فهو إشارة إلى مصدر نفخ والمضاف محذوف يعني وقت ذلك النفخ ﴿يَوْمُ﴾ تحقق ﴿ٱلْوَعِيدِ﴾ والجملة مفعول يقال المحذوف يعني يقال ذلك يوم الوعيد، أخرج أبو نعيم في الحلية عن عكرمة قال إن الذين يفرقون في البحر فتقسم لحومهم الحيتان فلا يبقى منهم شيء إلا العظام فيلقها الأمواج على البر فيمكث العظام حتى تصير نخرة فتمر بها الإبل فيأكل ثم يسير الإبل فتبعرها ثم تجيء بعدهم قوم فينزلون منزلاً فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ثم تخمد ذلك النار فتجيء ريح فيلقي ذلك الرماد على الأرض، فإذا جاءت النفخة خرج أولئك وأهل القبور ﴿وَجَآءَتْ﴾ ذلك اليوم ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنة وكافرة ﴿مَّعَهَا﴾ محلها النصب على الحال من كل لإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم عن عثمان بن عفان في الاية قال سائق

(١) أخرجه البغوي في تفسيره ٦/ ٢٣٥، والقرطبي في تفسيره ٧/ ١٠.

يسوقها إلى أمر الله تعالى وشهيد يشهد عليها بما عملت، وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي هريرة قال السائق الملك والشهيد العمل ذكر السيوطي في كتاب البرزخ من حديث جابر مرفوعاً «فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيآت فانتشطا كتاباً معقوداً في عنقه ثم حضر معه أحدهما سائق وآخر شهيد» وأخرجه أبو نعيم وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا، وقال البغوي وقال الضحاك السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم الأيدي والأرجل وهو رواية العوفي عن ابن عباس.

﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ على إضمار القول يعني يقال له لقد كنت في الدنيا ﴿فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ الذي نزل بك هذا اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الحاجب لأمور المعاد، وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والألف بها وقصور النظر عليها والران واسوداد القلب المكنى عنه بقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة: ٧] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [البقرة: ٧٥] ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ نافذ تبصر ما كنت تنكره في الدنيا، قال البغوي روي عن مجاهد يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيآتك حديد ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي الملك الموكل عليه عطف على يقال المحذوف ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ أي حاضر، إما موصوفة والظرف صفة له وعتيد صفة بعد صفة وإما موصولة خبر مبتدأ والظرف صلتها وعتيد بدل منها أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، والإشارة إما إلى الشخص أو إلى ديوان عمله يعني هذا شيء كائن عندي حاضراً وهذا الذي هو كائن عندي حاضر أو هذا حاضر فيقول الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار أو الواحد وتثنية الفاعل بمنزلة تثنية الفعل للتأكيد أو الألف بدل من نون التأكيد الخفيفة للوصل مجرى الوقف ويؤيده ما قرىء بالنون الخفيفة ﴿فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معاند للحق ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي للزكاة المفروضة وكل حق وجب في ماله ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم لا يقر بتوحيد الله تعالى ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاك في الله وفي دينه ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الموصول مبتدأ متضمن معنى الشرط وخبره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ وهو النار أو الموصول بدل من كل كفار فألقياه تكرير للتأكيد الموصول مفعول يفسره فألقياه.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ يعني الملك الموكل به كذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل، قال سعيد بن جبير يقول الملك ذلك حين يقول الكافر رب إن الملك زاد عليّ في الكتابة فيقول الملك ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ يعني ما كسبته إلى الكفر والطغيان وما زدت عليه في الكتابة ولكون هذه الجملة جواباً بالمحذوف أعني قول الكافر هو المغاني وكذب علي استؤنفت هذه الجملة كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول بخلاف الأولى أعني ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ فإنها واجبة العطف ما قبلها للدلالة على جميع مفهوماتهما في الحصول أعني مجيء كل نفس وقول قرينه بما قال ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ وقال بعض المفسرين المراد بالقرين الشيطان الذي قيض لهذا الكافر يعني أن الكافر يقول أطغاني شيطاني فيقول الشيطان ربنا ما أضللته ولا أغويته ولكن كان في ضلال بعيد فأعنته فإن إغواء الشيطان إنما يؤثر فيمن كان مختل

الرأي مائلاً إلى الفجور كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] ولهذا ترى المخلصين الكرام الصوفية العلية شمروا ذيلهم وبذلوا جهدهم في مجاهدة أنفسهم وتزكيتها كيلا يتطرق إليهم الشيطان والله أعلم، لكن ما ذكره علماء العربية أن المعرفة إذا أعيدت فالثاني غير الأول كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥، ٦] معناه إن مع عسر واحد يسرين وإن الأصل في الإضافة العهد الخارجي يقتضي أن يكون المراد بقرينه ثانياً أيضاً الملك الموكل به كما قال سعيد بن جبير وغيره، وقال بعض المتأخرين المراد بالقرين في كلا القرينين الشيطان الذي قيض مع الكافر فهو له قرين ومعنى قوله هذا ما لدي عتيد هذا الشخص ما عندي وفي سلطاني عتيد لجهنم هيِّنة لها بإغوائي ومعنى قوله ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد أن ما أطغيته كرهاً ولكن كان في ضلال بعيد فاتبعني باختياره واستجاب لي دعوتي إياه إلى الكفر والمعاصي ولم يستجب دعوة رسلك ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي موقف الحساب بحيث لا فائدة فيه ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي فلم يبق لكم حجة وهو حال وفيه تعليل للنهي أي لا تختصموا عاملين بأن أوعدتكم والباء زائدة، وجاز أن يكون بالوعيد حالاً والمفعول به قوله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ يعني لا يتخلف قولي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلا تطمعوا غفراني، وقال الكلبي واختاره الفراء أن المعنى لا يكذب عندي ولا يغير القول عن وجهه لأني أعلم الغيب ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ليس المراد نفي مبالغة الظلم بل نفي أصل الظلم وإنما أورد صيغة المبالغة تعريضاً للمخاطبين يعني أن الكافرين في الظلم كما في قوله تعالى ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٥٠].

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا
تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ
ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى
ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ
﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ
نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ قرأ نافع وأبو بكر يقول بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الله سبحانه على نسق قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ والباقون بالنون على التكلم ولما سبق

من الله تعالى أنه يملأ جهنم من الجنة والناس فهذا سؤال منه تعالى لتصديق خبره وتحقيق وعده ﴿وَتَقُولُ﴾ يعني جهنم في الجواب ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قال عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان استفهام إنكار ومعناه قد امتلأت فلم يبق في موضع لم يمتلىء يعني لا يتصور المزيد على هذا الامتلاء الذي حصل والصحيح أنه استفهام للاستزادة لما روى الشيخان في الصحيحين عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله تعالى لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة»[1] وأخرج ابن أبي عاصم في السنة عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ «جهنم تسأل المزيد حتى يضع الجبار تعالى قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط»[2] وقال البغوي روي عن ابن عباس(رض) إن الله تعالى سبقت كلمته ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٩] فلما سيق أعداء الله إليها لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شيء، فتقول ألست قد أقسمت لتملأني، فيضع قدمه عليها ثم يقول هل امتلأت فتقول قط قط فليس مزيد، وقال البيضاوي هذا السؤال والجواب جيء بهما للتخييل والتصوير يعني أنها مع اتساعها تطرح فيها من الجنة والناس فوجاً فوجاً حتى تمتلىء لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ هذا على تقدير كون الاستفهام للإنكار أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد فراغ أو إنها من شدة زفيرها وحدتها وتشبثها بالعصاة كالمستكثر لهم والطالب للزيادة وهذين التوجهين على تقدير كون الاستفهام للاستزادة ولكن لا ضرورة إلى هذا التأويل والأولى الحمل على حقيقة السؤال والجواب ولا استبعاد في إنطاقها كإنطاق الجوارح، ويوم إما منصوب بتقدير اذكر مقدراً أو ظرف لنفخ وما عطف عليه على سبيل التنازع ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أي أدنيت عطف على نفخ ﴿الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، منصوب على الظرف أي مكاناً غير بعيد أو زماناً غير بعيد وعلى الحال وتذكيره لأنه صفة محذوف أي شيئاً غير بعيد أو لأن الجنة بمعنى البستان والغرض من هذا التقييد التوكيد كما يقال قريب غير بعيد وعزيز غير ذليل ﴿هَٰذَا﴾ الثواب أو الإزلاف مبتدأ خبره ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ ابن كثير بالياء على الغيبة والضمير للمتقين والباقون بالتاء على الخطاب للمتقين بإضمار القول يعني لهم هذا ما توعدون ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل من المتقين بإعادة الجار وجاز أن يكون هذا مبتدأ وما توعدون صفة ولكل أواب خبره والمعنى رجاع إلى الله عما سواه ظاهراً وباطناً وقيل رجاع من المعاصي إلى الطاعات، وقال سعيد بن المسيب الذي يذنب ثم يتوب وقال الشعبي ومجاهد الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها وقال الضحاك هو التواب وقال ابن عباس وعطاء

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ١٢، والتوحيد باب ٧، ٢٥، ومسلم في الجنة حديث ٣٧، ٣٨، والترمذي في الجنة باب ٢٠، وأحمد في المسند ٣/ ١٣.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١/ ٢٣٦.

المسبح كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى﴾ [سبأ: ١٠] وقال قتادة المصلي، وعن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال «صلاة الأوابين حين ترمض الفصال»(١) رواه مسلم ﴿حفيظٍ﴾ يعني دائم الحضور لا يغفل عن الله طرفة عين، وقال ابن عباس الحافظ لأمر الله وعنه أيضاً أنه هو الذي يحفظ ذنوبه حتى يرجع ويستغفر منها يعني لا يرى ذنوبه سهلاً، وقال قتادة، حفيظ لما استودعه الله من حقه، وقال الضحاك هو المحافظ على نفسه المتعهد لها، وقال الشعبي المراقب، وقال سهيل بن عبد اللّه هو المحافظ على الطاعات ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مخلص مقبل على الطاعة ومحل من مجرور على أنه بدل بعد بدل للمتقين أو بدل من موصوف أواب أو مرفوع على الابتداء خبره.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على تأويل يقال لهم ادخلوها فإن من معناه الجمع وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول أو صفة لمصدر أي خشية متلبسة بالغيب يعني خشي عقابه وهو غائب من الله تعالى يعني في الدنيا حين لم يره أو غائب عن عقابه أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد، قال الضحاك والسدي والحسن يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد وتخصيص الرحمن للإشعار بأنهم رجوا رحمته وخافوا عذابه أو بأنهم يخشون عذابه مع علمهم بسعة رحمته لا يغترون برحمته ولا يجترئون على معاصيه ووصف القلب بالإنابة لأن المعتبر إنما هي الإنابة بالقلب ﴿بِسَلَـٰمٍ﴾ أي متلبسين بسلامة يعني سالمين من العذاب والهموم وزوال النعمة أو بسلام يعني مسلماً عليكم من الله وملائكته ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الدخول بتقدير المضاف يعني وقت ذلك الدخول في الجنة ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ يوم تقدير الخلود كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] روى الشيخان عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت ويا أهل الجنة لا موت كل خالد فيما هو فيه»(٢) وروى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: «يقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت»(٣).

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ وهو مما لا يخطر ببالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له تمن فيتمنى ويتمنى فيقول هل تمنيت فيقول نعم فيقول لك ما تمنيت ومثله معه»(٤) رواه مسلم، وأخرج نهاد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ وذكر حديثاً طويلاً قال فيه «ثم يقول الله تعالى إني عهدت إلى عبادي أني لا أدخل الجنة رجلاً إلا جعلت له فيها ما اشتهت نفسه لكم فيها ما سألتم ومثله» وقال جابر وأنس والمراد بالمزيد

(١) أخرجه مسلم في المسافرين حديث ١٤٣، ١٤٤، وأحمد في المسند ٤/٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٢، ٣٧٥.
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤٢، ومسلم في الجنة حديث ٤٢، ٤٣.
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٥٠، ٥١.
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣٠١، وأحمد في المسند ٢/٣١٥.

النظر إلى وجه الله الكريم، أخرج مسلم وابن ماجه عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار قال فيكشف الحجاب فما اعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم»[١] ثم تلا هذه الآية، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وروى ابن خزيمة وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري وكعب بن عجرة وأبي بن كعب وابن مردوية وأبو الشيخ عن انسُ أبو الشيخ عن أبي هريرة وكذا عن أبي بكر الصديق وابن عباس وحذيفة وابن مسعود وغيرهم عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يبعث يوم القيامة منادياً ينادي الصوت يسمعه أولهم وآخرهم يا أهل الجنة إن الله وعدكم الحسنى وزيادة الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن»[٢] والله تعالى أعلم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي قبل قومك ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم﴾ أي من قومك للتصرف ﴿بَطْشًا﴾ قوة كعاد وفرعون وغيرهم وجملة هم أشد صفة لقرن ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ في القاموس نقب في الأرض أي ذهب كأنقب ونقب، قلت التشديد للتكثير والمعنى اذهبوا في البلاد للتصرف فيها والتمتع وحينئذ الفاء للسببية فإن شدة بطشهم سبب للتصرف في البلاد أو المعنى جالوا في الأرض كل مجال حذر الموت والفاء حينئذ لمجرد التعقيب ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ من زائدة محيص في محل الرفع على الفاعلية أو النصب على المفعولية بفعل محذوف، والاستفهام للإنكار تقديره بل كان لهم محيص أو هل وجدوا لهم محيصاً فكيف يغفل أهل مكة ويلههم الأمل وجاز أن يكون نقبوا معطوفاً على أهلكنا والضمير عائد إلى أهل مكة والمعنى إنهم ساروا في بلاد القرون الخالية فتشوا أخبارهم ورأو آثارهم فهل محيصاً حتى يتوقعوا مثلهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ السورة وإن كان ضمير نقبوا راجعاً إلى أهل مكة فيجوز أن يكون المشار إليه مصدر لقبوا يعني في سيرهم في البلاد ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ تذكرة وعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي قلب صاف عن الكدورات صالح لتجليات الصفات له لعينه غير متكفية بالذات مشتغل بالله فارغ عن غيره مصدق لحديث قدسي «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[٣] ولا يكون القلب هكذا إلا بعد الفناء المصطلح للصوفية، وقال ابن عباس معناه كان له عقل تسمية الحال باسم المحل وقيل المراد قلب واع يتفكر في حقائق الأمور وكان إن كان ناقصة بمعناه أو بمعنى صار فقلب اسمه وله خبر وإن كان تامة فقلب فاعله وله حال من الفاعل والجار والمجرور أعني لمن كان الخ متعلق بذكرى أو بالظرف المستقر أعني في ذلك ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ عطف على صلة من ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال من فاعل ألقى يعني أن السورة موعظة لمن كان له قلب سليم أو استمع القرآن وهو شهيد

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٩٧، والترمذي في الجنة باب ١٦، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣.
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٣.
(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٣٤.

حاضر قلبه ولو بتكلف لا بتغافل أو شاهد يصدقه فيتعظ بظواهره وينزجر بزواجره قلت فالأول بيان الكاملين، والثاني بيان المريدين المخلصين نظيره قوله عليه الصلاة والسلام «الإحسان أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» يعني يتصور الحضور بتكلف.

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أن اليهود أتت رسول الله ﷺ فسألت عن خلق السماوات والأرض فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والبحار يوم الاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من المنافع وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمداين والعمران والخراب وخلق الله يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه فخلق في أول ساعة الآجال حين يموت من مات وفي الثانية والتي الآفة على كل شيء ينتفع به الناس وفي الثالثة آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر الساعة»، قالت اليهود ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش»، قالوا قد أصبت لو أتممت، قالوا «ثم استراح» فغضب النبيّ ﷺ غضباً شديداً فنزلت[1] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ من تعب وإعياء ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اليهود إن الله تعالى أعيى فاستراح أو المشركون في أمر البعث فإنه من قدر على خلق العالم فهو قادر على بعثهم والانتقام منهم، وروى مسلم عن أبي هريرة من غير ذكر اليهود ولاذكر نزول الآية، ولفظه أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر الساعة من النهار بين العصر إلى الليل»[2] قلت لعل ذكر خلق التربة يوم السبت من خلط بعض الرواية والصحيح أن بدء خلق العالم من يوم الأحد وتمامه يوم الجمعة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ والسبت اليوم السابع فإن قيل قد صحّ من الأحاديث ما يدل على أن خلق آدم بعد خلق السماوات والأرض والملائكة والجن بزمان طويل وكان قبل ذلك سلطنة الجن وكان إبليس في الملائكة وكان له ملك الأرض وملك سماء الدنيا والجنة يعبد الله تارة في الأرض وتارة في السماء وتارة في الجنة وفسر قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١] أنه قد أتى على آدم أربعون سنة ملقى من طين بين مكة والطائف قبل أن ينفخ فيه الروح لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد به، كذا قال البغوي وغيره وهذا الحديث يدل على أن آدم خلق في آخر الساعة من جمعة خلق فيها الملائكة والفلكيات فكيف التوفيق؟ قلت لعل المراد بخلق آدم تقديره في اللوح

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في المنافقين حديث ٢٧، وأحمد في المسند ٢/ ٣٢٧.

المحفوظ يدل عليه وقوله «خلق في أول ساعة الآجال حين يموت من مات وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء ينتفع به الناس» فإنه لا يتصور ذلك بمعنى التقدير.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يعني صل متلبساً بحمد ربك ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ يعني صلاة العصر وروي عن ابن عباس قال قبل الغروب الظهر والعصر هذا لعل قول ابن عباس مبني على أن وقت الضروري للصلاتين واحد كما قال به مالك وغيره ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء وقال مجاهد المراد منه صلاة الليل، أي وقت صلّى يعني نوافل ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة بكسر الهمزة مصدر أدبر إدباراً وقرأ الآخرون بفتحها على أنه جمع دبر، قال البغوي قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والحسن والشعبي والنخعي والأوزاعي أدبار السجود ركعتان قبل صلاة المغرب وأدبار النجوم ركعتان قبل صلاة الفجر وهي رواية العوفي عن ابن عباس ورواه الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً هكذا قال أكثر المفسرين، ولم يظهر لي وجه إطلاق أدبار السجود على صلاة قبل صلاة المغرب مع أن وقت الغروب قبيلها ليس وقت السجود والظن أن يكون المراد من أدبار السجود النوافل الراتبة بعد الفرائض وجاز أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠] قل سبحان الله وبحمده، روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»[(١)] روى الشيخان عنه مرفوعاً «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»[(٢)] وهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمٰن سبحان الله وبحمده سبحان العظيم»[(٣)] وقال مجاهد قوله تعالى: ﴿أدبار السجود﴾ هو التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من سبح في دبر كل صلاة مكتوبة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وكبر الله ثلاثاً وثلاثين فذلك تسعة وتسعون ثم قال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»[(٤)] رواه مسلم والبخاري ونحوه أخرج مالك وابن خزيمة.

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ صيغة أمره ما بعده بتأويل المفرد أو بتقدير المضاف مفعول به يعني اسمع ما يتلى عليك أو اسمع حديث ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ فائدة قوله تعالى استمع التنبيه والتهويل وتعظيم

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٥٩، ومالك في القرآن حديث ٢١، وأحمد في المسند ٢/٣٠٢، ٣١٠، ٣٧٥، ٥١٥.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٥٨، والدعوات باب ٦٦، والأيمان باب ١٩، ومسلم في الذكر حديث ٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٦٥، ومسلم في الذكر حديث ٢٨، والمساجد حديث ١٤٦.

المخبر به والظرف على التأويل الأول متعلق بفعل محذوف دل عليه يوم الخروج تقديره يخرج الناس كلهم من القبور يوم ينادي، قال النقاش عن أبي ربيعة عن البزي وابن مجاهد عن قنبل ينادي بالياء في الوقف فقط والباقون يقفون بغير ياء ﴿ٱلْمُنَادِ﴾ اثبت الياء في الحالين ابن كثير وفي الوصل خاصة نافع وأبو عمر والباقون حذفوها في الحالين قال مقاتل ينادي إسرافيل بالحشر أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء، وكذا أخرج ابن عساكر عن زيد بن جابر الشافعي في هذه الآية قال يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فيقول يا أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المتقطعة إن الله يأمركم أن تجتمع لفصل الخطاب ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ متعلق بيناد يعني من صخرة بيت المقدس وهو قريب من القبور لكونها من الأرض وهما في وسط الأرض، وقال الكلبي هي أقرب الأرض إلى السماء ثمانية عشر ميلاً ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ بدل من يوم يناد أي الأموات يسمعون بإذن الله تعالى فإن الأموات والجمادات في الاستماع إذا أراد الله تعالى كالأحياء فإن الموجودات لا تخلو عن نوع من الحياة كما حققناه في تفسير سورة الملك وكذا انعقد الإجماع على عذاب القبر على الروح والجسد جميعاً أخرج الشيخان عن أنس أن النبيّ ﷺ وقف على قتلى بدر فقال «يا فلان بن فلان يا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» قال عمر يا رسول الله كيف تكلم أجراماً لا أرواح فيها فقال «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليّ شيئاً»[(١)] وقال القرطبي نفخة الإحياء تمتد وتطول فيكون أوائلها للإحياء وما بعدها للإزعاج من القبور فلا يسمعون ما كان للإحياء ويستمعون ما كان للإزعاج، وقال السيوطي يحتمل السماع من أول وهلة للأرواح وهي في الصور، قلت ما ذكر من كلام إسرافيل خطاب للعظام والجلود لا للأرواح فلا فائدة في سماع الأرواح والله تعالى أعلم.

﴿الصيحةَ﴾ يعني صيحة إسرافيل المذكور، وقال البيضاوي ولعله في إعادة نظير كن يعني أمر تكويني لا يشترط فيه السماع، قلت: لكن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ صريح في إثبات السماع فالأولى ما قلت ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بالصيحة والمراد به البعث للجزاء ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ في الآخرة ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ قرأ الكوفيون وأبو عمرو بتخفيف الشين بحذف إحدى التائين والباقون بالتشديد بإبدال التاء شيناً والإدغام وأصله يتشقق ﴿ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أي عن الأموات إذا دعوا إلى الحساب والظرف أعلى يوم تتشقق متعلق بفعل دل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ تقديره يحشرون يوم تشقق الأرض عنهم ﴿سِرَاعًا﴾ جمع سريع حال من الضمير المرفوع في الفعل المقدر يعني يحشرون سراعاً، وقيل من الضمير المجرور في عنهم يعني تشقق الأرض عنهم حال

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٨٧، والمغازي باب ٨، ١٢، ومسلم في الجنة حديث ٧٦، ٧٧.

كونهم مسرعين في الخروج ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحشر دفعة واحدة المفهوم مما سبق ﴿حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾، الظرف متعلق بيسير قدم عليه للاختصاص فإن ذلك لا تيسير إلا على العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ يعني كفار مكة في تكذيبه فيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ تجبرهم على الإسلام إنما بعثت مذكراً وداعياً، أخرج ابن جرير من طريق عمرو بن قيس الملائي عن ابن عباس قال قالوا يا رسول الله ﷺ لو خوفتنا فنزلت ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ثم أخرج عن عمر مثله مرسلاً، قرأ ورش وعيدي وصلاً فقط والباقون يحذفونها في الحالين يعني لا ينفع تذكيرك بالقرآن إلا من يخاف ما أوعدت به من عصاني من العذاب يعني المسلمين والله تعالى أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الذاريات

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ
۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ
ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣
ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ
حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا
تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١﴾ مصدر يعني الرياح تذرو التراب وغيره أو النساء والمولود فإنهن يذرين أولاداً أو الأسباب التي تذري الخلائق من الملائكة وغيرها، قرأ أبو عمرو بإدغام التاء في الذال ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ أي ثقلاً مفعول به يعني الرياح الحاملات للسحاب أو النساء الحاملات النطف والأجنة أو السحب الحاملة للمطر أو أسباب ذلك ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾ صفة مصدر محذوف يعني جرياً سهلاً وهي الرياح الجارية في مهابها والنساء الجاريات في خدمة الأزواج يسراً لكونهن حاملات أو السفن الجارية في البحر سهلاً أو الكواكب التي تجري في منازلها ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ مفعول به يعني الرياح التي تقسم الأمطار بتصرف السحاب أو الملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها أو ما يعمها من أسباب القسمة فإن حملت على ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الأقسام بها باعتبار ما بينها من التفاوت في الدلالة على كمال القدرة وإلا فالفاء للترتيب افعال وجواب القسم ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث ما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية، ﴿لَصَادِقٌ﴾ يعني وعد صادق كعيشة راضية أي ذات رضاء ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾ أي الجزاء من الثواب والعقاب ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لكائن لا محالة من الله سبحانه كأنه استدلال بما أقسم به من الأشياء والعجيبة الدالة على كمال قدرة الصانع المختار على الاقتدار على البعث الذي أوقعه جواباً للقسم ثم عطف على الجملة القسمية الأخرى فقال ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ جمع حبيكة كطريقة وطرق أو حباك كمثال ومثل في القاموس الحبك الشداد الإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب وحبك الرمل بضمتين حروفه الواحدة حباك ككتاب ومن الماء والشعير الجعد المنكسر منها ومن السماء طريق النجوم، قال البغوي قال ابن عباس وقتادة وعكرمة ذات الخلق الحسن المستوي يقال

للنساج إذا نسج الثوب فأجاد ما أحسن حبكه، وقال سعيد بن جبير ذات الزينة قال الحسن حبكت بالنجوم، قال مجاهد هي المتقن البنيان، وقال مقاتل والكلبي والضحاك ذات الطرتق كحبك الماء إذا ضربته الريح وحبك الرمل والشعر الجعد ولكنها لا يرى لبعدها من الناس، قال البيضاوي معناه ذات الطرائق والمراد إما الطرائق المحسوسة التي هي مسير الكواكب أو المعقولة التي يسلكها النظار ويتوسل بها إلى المعارف أو النجوم فإن لها طرائق أو أنها تزينها كما يزين المواشي طرائق الوشي وجواب القسم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ يا كفار مكة ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ في الرسول يعني قولهم تارة إنه شاعر وتارة إنه ساحر وتارة إنه مجنون أو في القرآن إنه سحر أو كهانة أو أساطير الأولين أو شعر قاله من تلقاء نفسه أو في القيامة فبعضهم شك فيه وبعضهم استحاله وأنكره، قال البيضاوي: لعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بالطريق للسماوات في تباعدها واختلاف غاياتها وجاز أن يكون خطاباً لأهل مكة يعم المؤمنين والكفار يعني منكم مصدق ومنكم مكذب ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ أي يصرف عن الرسول والقرآن ﴿مَنْ أُفِكَ﴾، أي صرف في علم الله تعالى يعني من حرمه الله تعالى عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن، وجاز أن يكون ضمير عنه راجعاً إلى القول المختلف ويكون عن بمعنى من يعني يصدر إفك من أفك عن القول المختلف سببه ذلك أن كفار مكة إذا أراد رجل الإيمان يتلقونه ويقولون إنه ساحر كاذب كاهن مجنون فيصرفونه عن الإيمان وهذا معنى قول مجاهد وهذه الجملة معترضة لبيان خيبة من لم يؤمن ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي الكذابون وهم أصحاب القول المختلف من الكفار، والخرص الظن والتخمين من غير دليل موجب لليقين وكلما كان مبنياً على دليل صحيح لا يتصور فيه الاختلاف وذكرهم بعنوان الخراصين والجملة في الأصل دعاء بالقتل أجري مجرى اللعن ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ أي جهل وغفلة يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ محمداً ﷺ استعجالاً إنكاراً أو استهزاء ﴿أَيَّانَ﴾ أي متى ﴿يومُ الدين﴾ يوم الجزاء جملة يسألون في محل النصب على الحالية من الخراصين وجاز أن يكون لبيان علة لعنهم ﴿ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي يحرقون بالنار كما يفتن الذهب بالنار وعلى بمعنى الباء والظرف إما بدل من يوم الدين والمعنى يسألون متى يوم تعذبنا بالتاء يا محمد فحينئذ محله الرفع على الابتداء وفتح للإضافة إلى غير متمكن، وجاز أن يكون جواباً من الله تعالى لسؤالهم يوم حينئذ خبر لمبتدأ محذوف أي هو يوم هم على النار يفتنون أو منصوب على الظرفية بفعل محذوف يعني يقع الدين يوم هم يفتنون فعلى تقدير كونه داخلاً في السؤال قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤] مرتبط بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ يعني يقال لهم ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي عذابكم أو جزاء كفركم وعلى التأويل الثاني حال من الضمير المرفوع في يفتنون بتقدير مقولاً لهم هذا القول ﴿هَٰذَا﴾ بدل من فتنتكم موصوف لقوله ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا تكذيباً وجاز أن يكون هذا مبتدأ والموصول خبر يعني هذا هو الذي كنتم تستعجلون والجملة تعليل لقوله ذوقوا.

ثم ذكر الله سبحانه حال المؤمنين المصدقين النبيّ ﷺ والقرآن ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ أي أنهار جارية ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ من الخير والكرامة حال من الضمير في الظرف يعني قابلين لما أعطاهم ربهم راضين به يعني كل ما يأتيهم يكون حسناً مرضياً مقبولاً ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي قبل دخول الجنة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ عابدين لله تعالى بالحضور والإخلاص طالبين رضاه خالصة سبحانه يطلب رضاهم فهذه الجملة تعليل لما سبق ثم فسر إحسانهم وعللها بقوله ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ ما زائدة ويهجعون خبر لكان والهجوع النوم ليلاً وقليلاً منصوب على الظرفية ومن الليل صفة له مبينة أو على المصدرية ومن للتبعيض ومعناه كانوا ينامون زماناً قليلاً كائناً من الليل أو هجوعاً قليلاً في بعض الليل، وجاز أن يكون ما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية، وعلى التقديرين قليلاً إما منصوب على أنه خبر كان وما يهجون بدل اشتمال من الضمير المرفوع في كانوا أو إما منصوب ظرف مستقر في محل النصب على الخبر وما يهجعون فاعل للظرف والمعنى كان ما يهجعون فيه أو هجوعهم قليلاً كائناً من الليل أو كانوا قليلاً من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه ويصلون أكثر الليل، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس معناه كانوا أقل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً إما من أولها إما من أوسطها أو من آخرها يعني كان الليل الذي ينامون فيه كله قليلاً كذا قال مطرف بن عبد اللّه، وقال الضحاك ومقاتل كانوا من الناس قليلاً من الليل يهجعون يعني لا ينامون فعلى هذا قليلاً خبر كان وجملة من الليل ما يهجعون مستأنفة وما نافية، قال البيضاوي وغيره هذا لا يجوز لأن ما بعد ما لا تعمل فيما قبلها ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ يعني في الأسحار ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ السحر السدس الآخر من الليل، وفي القاموس قبيل الصبح وطرف كل شيء، يعني أنهم مع قلة هجوعهم وكثرة صلاتهم بالليل إذا سحروا أخذوا في الاستغفار هضماً لأنفسهم واستقصاراً لعملهم كأنهم أسلفوا في ليلتهم الجرائم ووقع عنهم التقصير في الطاعات وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم أحقاء بذلك لوفور علمهم بالله العظيم وخشيتهم من الله تعالى اللهم إني أسألك خشية العالمين وعلم الخائفين منك ويقين المتوكلين عليك، قال الحسن معناه لا ينامون من الليل إلا قلة وربما نشطوا فمدوا إلى السحر ثم أخذوا في الاستغفار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل فيقول أنا الملك من الذي يدعوني فأستجيب له من الذي يسألني فأعطيه من الذي يستغفرني فأغفر له»[١] متفق عليه وفي رواية مسلم «ثم يبسط يديه ويقول من يعترض غير عدوم ولا ظلوم حتى ينفجر الفجر»[٢] وقد صح عن النبيّ ﷺ أنه كان إذا قام من الليل يتهجد يستغفر يقول «اللّٰهم لك الحمد أنت قيم

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد باب ١٤، والدعوات باب ١٤، والتوحيد باب ٣٥، ومسلم في المسافرين حديث ١٦٨، ١٦٩.

(٢) أخرجه مسلم في المسافرين حديث ١٧٢.

السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق وعدك الحق بقاؤك حق وقولك حق والنار حق والنبيّون حق ومحمد حق والساعة حق اللهَّم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت أنت ربنا وإليك المصير فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إلٰه إلا أنت ولا إله غيرك»(١) متفق عليه من حديث ابن عباس، وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «من تعارّ من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال رب اغفر لي أو قال ثم دعا استجيب له فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته»(٢) رواه البخاري، وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت سبحانك اللهّم وبحمدك أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك اللهمَّ زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»(٣) رواه أبو داود.

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ يعني يعطون من أموالهم السائلين الذين يسألون الناس والمحرومين يعني المتعففين عن السؤال الذين يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء من التعفف فالمحسنين يعطونهم إذ يعرفونهم بسيماهم بفقد أحوالهم كذا قال قتادة والزهري وغيرهما، وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب المحروم الذي ليس له سهم من الغنيمة ولا يجري عليه من الفيء شيء، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد ابن الحنفية أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأصابوا غنماً فجاء قوم بعدما فرغوا يعني من القسمة فأعطاهم الغانمون منها فنزلت هذه الآية، وقال زيد بن أسلم المحروم هو المصاب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته كذا قال محمد بن كعب القرظي وقرأ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٦، ٦٧] ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ قال أكثر المفسرين هذه الجملة وما عطف عليه متصل بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ وما بينهما معترضات وعندي هي معطوفة على ما سبق في تفسير المحسنين والثناء عليهم لكن فيه وضع المظهر موضع المضمر الراجع إلى المحسنين إيذاناً لتحصيل الإيقان بالاستدلال والتفكر في الآيات تقديره وفي الأرض آيات لهم فإنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يجروا عليها صماً وعمياناً بل ينظرون بأبصارهم ويتفكرون في خلق الأرض ودحوها كالبساط وارتفاع بعضها على الماء ليسكن عليها عباد الرحمن واختلاف أجزائها في الكيفيات والمنافع وما خلق الله فيها من المعادن والنباتات والحيوانات والعيون والأنهار ويستدلون بها على وجود الصانع الواجب

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد باب ١، والدعوات باب ٩، والتوحيد باب ٨، ٢٤، ومسلم في المسافرين حديث ١٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في التهجد باب ٢١، والترمذي في الدعوات باب ٢٦، وابن ماجه في الدعاء باب ١٦، والدارمي في الاستئذان باب ٥٣، وأحمد في المسند ٥/٣١٣.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٩٩، والترمذي في الدعوات باب ٨٩.

وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط رحمته وحكمته ثم ينظرون ببصائرهم ما يترشح عليها وعلى ما فيها من الله تعالى وبركات وجودها وبقائها ورحمته ويسأل من فيها ما يحتاج إليه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن: ٢٩، ٣١] ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ عطف على في الأرض يعني وفي أنفسكم أيها الناس آيات لهم فإن في العالم الصغير أعني نفس الإنسان كائن من الآيات كما في العالم الكبير من بدء خلقه إلى مماته حيث كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم كسيت لحماً ثم نفخ فيه الروح ثم يسر الله سبيله إلى الخروج ثم هدى إلى سبيل معاشه رضيعاً وفطاماً واكتساب أقواته والتغذي بالأكل والشرب ودفع الفضول بالبول والغائط وسبيل إبقاء نوعه بالنكاح وإلى سبيل معاده بإرسال وإنزال الكتب، وأظهر فيه بدائع صنعه من اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع والعقول والأفهام واختلاف استعداداتهم في قبول الحق وسلوك سبيل الرشاد وصعود مدارج القرب ومعارج العرفان فينظر العارف بعض هذه الأمور بالإبصار ويقول تبارك الله أحسن الخالقين وبعضها بالبصائر وينظر بالبصائر ما يتجلى على السرائر من التجليات الذاتية والصفاتية والظلالية ولا يتطرق إليه مجال المقال وعبر عنه بالحديث القدسي «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»(١) الحديث فيقول العارف الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أيها الخراصون ما يبصره المحسنون الموقنون والفاء للعطف على محذوف تقديره أتنكرون قدرة الله على البعث فلا تبصرون وهذه الجملة معترضة.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال ابن عباس ومقاتل يعني المطر الذي سبب رزق وهذا مبني على ما ورد في الشرع أن المطر ينزل من السماء، وقال البيضاوي قيل المراد بالسماء السحاب وبالرزق المطر وهذا مبني على مذهب الفلاسفة وقال أيضاً أسباب رزقكم أو تقديره عندي أن رزقكم خطاب للمحسنين الموقنين على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وفي السماء عطف على في الأرض وفي أنفسكم عطف مفرد على مفرد ورزقكم بدل من الآيات، وجاز أن يكون عطف جملة على جملة والمراد بالرزق إما الحظ والنصيب كما في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢] المراد بالرزق هاهنا إما الآيات الدالة على الله سبحانه من الشمس والقمر والكواكب وحركاتها وما يترتب عليها من اختلاف الفصول والمنافع والمضار بدليل ذكر الآيات في الأرض والأنفس فإن الاستدلال بها والتفكر فيها حظ المحسنين الموقنين لا غير وكذا ما يترتب على الاستدلال بها والتفكر فيها من الرحمة والبركات وما ينزل على العارف من التجليات فإن كل ذلك رزق المحسنين وحظ للموقنين دون من ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة وهم يعمهون، قال العارف الرومي قدس سره «في بدن جان توزيست في السماء رزقكم روذى كسيت» أبيات بالفارس وأما الرزق المأكول وحينئذ يراد بالآية التنبه والإشعار بأن رزقكم

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

بيد الله مكتوب في السماء فينبغي أن لا تطلبوا الرزق من غير الله تعالى واعبدوا الله مخلصين له الدين من غير رياء وسمعة قائلين لانسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً فعلى هذا التقدير أيضاً في الآية إشارة إلى تفسير المحسنين والثناء عليهم يعني هم يتفكرون في خلق السماوات والأرض ويخلصون لله الأعمال موقنين بأن رزقهم في السماء متوكلين على الله ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ عطف على رزقكم، قال البغوي قال عطاء وما توعدون من الثواب والعقاب وقال مجاهد من الخير والشر، وقال الضحاك من الجنة والنار قلت تفاسير هؤلاء الكرام مبنى على ان الخطاب عام للمؤمنين والكافرين ولا يصح هذا التأويل إلا بأن يقال مكتوب في السماء وما توعدون لأن يقال كائن في السماء وما توعدون فإن الجنة فوق سبع سماوات دون النار فإنها تحت الأرضين السبع كما نطقت به الأحاديث وعلى ما قلت من التأويل أن الخطاب مختص بالمحسنين يصح القول بأن ما توعدون من الثواب والجنة كائن في السماء، وقيل وما توعدون كلام مستأنف وما موصولة أو مصدرية مبتدأ وخبره ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ وعلى هذا فالضمير المنصوب لما وعلى الأول يحتمل له ولما ذكر سابقاً من البعث والجزاء والرزق والوعد والوعيد ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي مثل بالرفع على أنه صفة لحق والباقون بالنصب على أنه حال من المستكن في لحق أو وصف لمصدر محذوف يعني إنه لحق حقاً مثل نطقكم، وقيل إنه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت بمعنى شيء وإن مع جملتها إن كانت ما زائدة ومحله الرفع شبه الله سبحانه الرزق وغيره مما وعد وأخبر به ينطق الإنسان، قال البغوي ما أنكم تنطقون فتقولون لا إله إلا الله يعني المراد بالنطق المنطوق والخطاب إن كان للمحسنين فمنطوقه غالباً لا إله إلا الله وإن كان الخطاب عاماً فشبه تحقق ما أخبر عنه بتحقق نطق الآدمي كما يقال إنه لحق كما أنت هاهنا وإنه لحق كما أنت تتكلم والمعنى أنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة، وقال بعض الحكماء يعني أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره، حكى في المدارك عن الأصمعي أنه قال أقبلت من جامع البصرة فطلع عليّ أعرابي فقال ممن الرجل قلت من بني أصمع قال من أين أقبلت قلت من موضع يتلى فيه كلام الله الرحمن قال أتْلُ عليّ فتلوت والذّاريات فلما بلغت قوله في السماء رزقكم قال حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر وعمد إلى قوسه وسيفه فكسرهما وولى، فلما حججت مع أمر الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بصوت رفيق فالتفت فإذا أنا بالأعرابي فسلّم عليّ واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح قال قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال وهل غير هذا فقرأت فورب السماء والأرض إنه لحق فصاح فقال سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه يعني مقتضى البلاغة أن يؤكد الكلام على حسب إنكار المخاطب فالله سبحانه أورد الكلام بكمال المبالغة في التأكيد حيث أقسم عليه وأكد بكلمة إن ولام التأكيد والإخبار بأنه حق والتشبيه بما هو أجلى البديهيات وليس هذه الإشارة إلى أن الناس كأنهم في غاية الإنكار في تقدير الرزق الموعود

كادحين في اكتساب ما التزم الله سبحانه على نفسه بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] غافلين عما كلفهم الله به وعلق به الثواب والعقاب الأبدي لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾
فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا
تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾
وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا
جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ
وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ استفهام للتقرير يعني قد أتاك والغرض منه تفخيم شأن الحديث والتنبيه على أنه أوحي إليه قبل ذلك ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ضيف في الأصل مصدر ولذا يطلق على الواحد والمتعدد، قال البغوي اختلفوا في عددهم فقال ابن عباس وعطاء كانوا ثلاثة جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، وقال محمد بن كعب كان جبرئيل ومعه سبعة، وقال الضحاك كانوا تسعة، وقال مقاتل كانوا اثني عشر ملكاً، وقال السدي كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الوضاء وجوههم ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن إبراهيم عليه السلام أكرمهم قبل أن يعرفهم حيث خدمهم بنفسه وأهله وعجل إليهم قراهم وذلك سنة المرسلين ودأب المهتدين قال رسول الله ﷺ «من كان يؤمن الله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»(١) وفي رواية «فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»(٢) رواه أحمد والشيخان في الصحيحين والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وفي الصحيحين من حديث أبي شريح الكعبي بلفظ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما بعد ذلك فهو صدقة ولا

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٧٦، ٧٧، والدارمي في الأطعمة باب ١١.
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٢٣، والنكاح باب ٨٠، والأدب باب ٣١، ٨٥، ومسلم في الإيمان حديث ٧٥، وأبو داود في التطوع باب ٢٥، وابن ماجه في الأدب باب ٤، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٧، ٤٣٣، ٣/ ٩٤، ٥/ ٧٥، ٦/ ٦٩.

يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه»(١) وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»(٢) وقيل سماهم مكرمين لأنهم كانوا ملائكة كراماً على الله تعالى قال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] ﴿إِذْ دَخَلُوا۟﴾ الظرف متعلق بالحديث أو الضيف أو المكرمين والضمير راجع إلى الضيف من حيث المعنى ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على إبراهيم عليه السلام ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي نسلم عليك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلَـٰمٌ﴾ أي عليكم سلام عدل إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى تكون تحية أحسن من تحيتهم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦] وجملة قال سلام استئناف كأنه في جواب ماذا قال إبراهيم حين سلموا عليه قرأ حمزة والكسائي سلم بكسر السين وسكون اللام بغير ألف والباقون بفتح السين واللام وألف بعدها المعنى واحد ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون لا نعرفكم، قال ابن عباس قال في نفسه هؤلاء قوم منكرون لا نعرفهم قال أبو العالية أنكر سلامهم في ذلك الزمان في تلك الأرض لأن السلام علم الإسلام ﴿فَرَاغَ﴾ أي ذهب وقال عطف على قال ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ مبادرة في القرى ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ مشوي لأنه كان عامة ماله البقر ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضع بين أيديهم ليأكلوا فلم يأكلوا قَالَ إبراهيم ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ الهمزة للإنكار إن كان بعدما رأى أنهم لا يأكلون وإن كان في أول الأمر فالهمزة للعرض والحث على الأكل على طريقة الأدب ﴿فَأَوْجَسَ﴾ يعني أضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي خوفاً لما رأى إعراضهم عن طعامه عن ابن عباس أنه وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله ﴿ بِغُلَـٰمٍ﴾ يعني إسحاق عليه السلام ﴿عَلِيمٍ﴾ يكمل علمه إذا بلغ ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي صيحة، قيل لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان وإنما هو كقول القائل أقبل يشتمني أي أخذت تصيح، وعلى هذا التأويل قوله في صرة في محل النصب على المفعولية وإن كان المراد الإقبال من مكان إلى مكان فهي في محل النصب على الحال ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ قال ابن عباس لطمت وجهها يعني جمعت أصابعها فضربت وجهها كما هو عادة النساء عند التعجب إذا أنكرن شيئاً، وقيل وجدت حرارة دم الحيض فلطمت وجهها من الحياء ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ يعني أتلد عجوز عقيم وكانت سارة لم تلد قبل ذلك وكانت بنت تسعين سنة.

﴿قَالُوا۟﴾ أي الملائكة ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ يعني قال ربك قولاً مثل ذلك الذي قلنا وإنما نخبرك من الله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما كان وما يكون فيكون قوله حقاً وفعله محكماً ولما علم إبراهيم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٣١، ٨٥، والرقاق باب ٢٣، ومسلم في اللقطة حديث ١٤، ١٥.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٠، والاستئذان باب ٩، ١٩، ومسلم في الإيمان حديث ٦٣، وأبو داود في الأدب باب ١٣١، والنسائي في الإيمان باب ١٢، وأحمد في المسند ١٦٩/٢.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي ما شأنكم وفيم أرسلتم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يعني قوم لوط كانوا يعملون الخبائث التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ويقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر فأرسل الله إليهم أخاهم لوطاً فكفروا به وقالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين قال رب نجني من القوم الظالمين وانصرني على القوم المفسدين فأرسل الله إليهم الملائكة ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ متحجر وهو السجيل ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة على كل واحد منها اسم من يهلك به ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الفجور قال ابن عباس يعني للمشركين فإن الشرك أسرف الذنوب وأعظمها ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي في قرى قوم لوط وإضمارها مع عدم سبق ذكرها لكونها معلوماً بالسياق ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بلوط عليه السلام وذلك قوله تعالى قالوا يعني الملائكة ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ﴾ [هود: ٨١] ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا﴾ أي في قرى قوم لوط ﴿غَيْرَ﴾ أهل ﴿بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

يعني لوطاً وبناته وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ علامة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ المعتبرين بها وهي تلك الحجارة الواقعة في تلك القرى أو صخر منضود فيها أو ماء أسود منتن.

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ عطف على قوله وتركنا فيها على معنى وجعلنا في إرسال موسى آية وهذا كقوله علفتها تبناً وماء بارداً يعني وسقيتها ماء بارداً وهذا أقرب وأنسب مما قيل إنه معطوف على قوله وفي الأرض لبعده وعدم المناسبة في القصة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ هذا الظرف متعلق بما تعلق به في موسى يعني جعلنا في موسى وقت إرسالنا إياه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة ظاهرة يعني معجزاته كالعصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين وفلق البحر ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض فرعون عن الإيمان ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ أي بجمعه وجنوده الذين كان ينضو بهم ﴿وَقَالَ﴾ فرعون هو أي موسى ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ قال أبو عبيدة أو بمعنى الواو والظاهر أنها بمعناه فإنه لما رأى على يديه الخوارق قال ساحر ولما سمعه يقول ما لا يدركه عقله السقيم زعم أنه مجنون وبين كلاميه منافاة، وقال البيضاوي كأنه جعل ما ظهر منه من الخوارق منسوباً إلى الجن وتردوني أنه هل حصل ذلك باختياره وسعيه أو بغيرهما يعني إن كان باختياره فهو ساحر وإلا فهو مجنون ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فأغرقناهم في اليم ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي آت بما يلام عليه من الكفر والعناد والتكبر والجملة حال من الضمير المنصوب في أخذناه ﴿وَفِى عَادٍ﴾ يعني تركنا في إهلاك عاد آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وهي التي لا خير فيها ولا بركة ولا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً وكانت دبوراً لقوله عليه الصلاة والسلام «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ يعني جعلت الأشياء كالرماد من الرم وهي البلى والتفتت ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ يعني وتركنا في إهلاك ثمود آية ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ قال لهم صالح لما عقروا الناقة

﴿تَمَتَّعُواْ﴾ في دياركم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يعني ثلاثة أيام ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ استكبروا عن امتثاله واتباع صالح والإيمان به ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ قرأ الكسائي الصعقة بإسكان العين من غير ألف والباقون بالألف بعد العين والصاعقة الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب والصعق محركة شدة الصوت كذا في القاموس أخذتهم بعد مضي الأيام الثلاثة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي يرون ذلك العذاب عياناً فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ للهرب بعد نزول العذاب، قال قتادة لم ينهضوا من تلك الصرعة ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أي ممتنعين منه أو منتقمين منا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي قوم بالجر عطفاً على ثمود يعني تركنا في إهلاك قوم نوح آية والباقون بالنصب على أنه مفعول بفعل محذوف دل عليه السياق تقديره وأهلكنا قوم نوح ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي من قبل قوم لوط وفرعون وجنوده وعاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن الاستقامة بالكفر والمعاصي.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ أي بقوة وقدرة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس أي قادرون ومطيقون من الوسع بمعنى الطاقة كما في قوله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] والجملة حال من فاعل بنينا وجملة والسماء عطف على وفي موسىٰ، وقال الضحاك عنى به الأغنياء كما في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣] وفي رواية عن ابن عباس إنا لموسعون الرزق على خلقنا، وقيل معناه لموسعون السماء أو ما بنيناها وبين الأرض ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي مهدناها ليستقروا عليها والتركيب نحو ما سبق ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ نحن ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صنفين قلت ليس المراد تعين تعدد التثنية بل المراد تعدد أصناف المخلوقات يعني خلقنا من كل شيء أصناف ذات عدد فوق الواحد أدناه المثنى بل كل فرد منه ذو جهتين خير من وجه وشر من وجه معدوم بالذات واجب بالغير عاجز بالذات قادر بالغير ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكي تذكروا وتعلموا أن التعدد من خواص الممكنات والواجب بالذات لا يقبل التعدد والانقسام واجب وجوده لا يصادم وجوده العدم قادر لا عجز له ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ من كل شيء ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالتوجه والمحبة والاستغراق وامتثال الأوامر وكسب السعادات حتى تخلصوا من النقائص والشرور وتفوزوا بالخيرات وتصعدوا مصاعد القرب والكمال والفاء للسببية فإن التذكر والتدبر في شأن الممكنات والواجب تعالى يوجب الفرار منها إليه تعالى، وهذه الجملة بتقدير القول من كلام

الرسول ﷺ ليرتبط بما بعده يعني قل يا محمد ففروا ﴿إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من عذابه المترتب على غضبه وهجرانه وبعده وعصيانه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بين كونه نذيراً من الله تعالى بالمعجزات أو مبين ما يجب أن يحذر عنه ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ شريكاً له في وجوب الوجود أو في استحقاق العبودية أو في كونه مقصوداً لكم ومحبوباً مشتغلاً به ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ للتأكيد أو الأول لتحذير الخواص عن مطلق التوجه والمحبة بغيره تعالى والثاني لتحذير العوام عن الشرك والمعاصي كما يدل عليه السياق يعني إن لم تقدروا على الفرار من كل شيء حتى من أنفسكم إلى الله تعالى فلا تجعلوا مع الله إلهاً آخر في العبادة وامتثال الأوامر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي شأنك مع قومك كذلك الشأن للرسل من قبلك مع أقوامهم ولما كان في التشبيه إبهاماً فسره بقوله ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ الضمير عائد إلى كفار مكة والمراد بالموصول كفار الأمم السابقة مفعول لأتى وفاعله ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ من زائدة في النفي للاستغراق ﴿إِلَّا قَالُوا۟﴾ استثناء مفرغ والمستثنى في محل النصب على الحالية من فاعل أتى أو مفعوله أو كليهما يعني ما أتاهم رسول في حال إلا حال قولهم ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة مقوله، قالوا يعني قالوا هذا ساحر أو مجنون كما يقول لك قومك وجاز أن يكون مشار إليه بذلك تكذيبهم الرسول وتسميتهم إياه ساحراً أو مجنوناً وجملة ما أتى علة للتشبيه ﴿أَتَوَاصَوْا۟﴾ أي الأولون والآخرون من الكفار به بهذا القول يعني أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوا جميعاً والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ إضراب عن التواصي من جميعهم بهذا القول لتباعد أيامهم إلى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه وقوله كذلك إلى قوله طاغون معترضات لتسلية النبيّ ﷺ وقوله فتول عنهم أي عن الكفار عطف على قل المقدرة يعني قل ففروا الخ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عن مجادلتهم بعدما كررت عليهم الدعوة فأبوا للإصرار والعناد ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ على الإعراض بعدما بذلت جهدك في البلاغ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن منيع وابن راهويه والهيثم بن كليب في مسانيدهم من طريق مجاهد عن علي عنه قال لما نزلت فتول عنهم فما أنت بملوم لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلاك إذ أمر النبيّ ﷺ أن يتولى عنا فنزلت ﴿وَذَكِّرْ﴾ الآية فطابت أنفسنا، وأخرج ابن جرير عن قتادة قال ذكر لنا أنه لما نزلت فتول عنهم الآية اشتد على أصحاب رسول الله ﷺ ورأوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله تعالى وذكر الآية كذا ذكر البغوي قول المفسرين وقوله تعالى ذكر عطف على قوله تولّ يعني لا تدع التذكير والموعظة ﴿ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾، تعليل لقوله تعالى ذكر يعني أن الذكر ينفع المؤمنين ويزداد لهم البصيرة وإن لم ينتفع الكفار أو المعنى تنفع من قدر الله إيمانه.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي إلا لآمرهم بعبادتي وأدعوهم إليه يعني للتكليف يؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١] كذا ذكر

البغوي قول علي (رض) قال مجاهد إلا ليعرفوا والكفار أيضاً يعرفون وجوده تعالى حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقيل معناه إلا ليكونوا عباداً لي أو ليخضعوا إلي ويتذللوا ومعنى العبادة في اللغة التذلل والانقياد وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله تعالى متذلل لمشيئته لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق له، وقيل إلا ليوحدون أما المؤمنون فيوحدون في الشدة والرخاء أما الكافرون فيوحدون في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] قال صاحب المدارك الكفار كلهم يوحدون الله في الآخرة قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣] وإشراكهم في الدنيا وهي بعض أحيان وجودهم لا ينافي كونهم مخلوقين للتوحيد، قلت والقول ما قال علي(رض) ما سواه أقوال ضعيفة واهية والذي حملهم على ما قالوا إن ظاهر الآية يقتضي أنهم خلقوا مراداً منهم الطاعة وتخلف مراد الله تعالى محال وقد قال رسول الله ﷺ «كلُّ ميسر لما خلق له»[1] وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال الكلبي والضحاك وسفيان: هذا خاص لأهل الطاعة من الفريقين يدل عليه قراءة ابن عباس ما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون، وعندي تأويل الآية ما خلقت الجن والإنس إلا مستعدين للعبادة صالحين لها نظيره قوله ﷺ «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول فطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله»[2] متفق عليه من حديث أبي هريرة، وهذا التأويل يناسب تأويل علي(رض) ومقتضى هذه الآية ذم الكفار لأجل إضاعتهم الفطرة السليمة هي أصل الخلقة ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ المراد أن شأنه تعالى مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل رزقهم وكسب طعامهم والله تعالى منزه عن ذلك، وقيل معناه ما أريد منهم أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم وأن يطعموا أحداً من خلقي وينافي هذا التأويل إسناد الإطعام إلى نفسه واجب بأن الخلق عيال الله ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه كما جاء في الحديث «يقول الله يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي»[3] رواه مسلم من حديث أبي هريرة في حديث ذكر فيه مرضت فلم تعدني واستسقيتك فلم تسقني قلت هذا قول بالتجوز ومع ذلك يرد عليه أن الله تعالى أراد

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في تفسير سورة ٩٢، باب ٣، ٤، ٥، ٧، والأدب باب ١٢٠، والقدر باب ٤، والتوحيد باب ٥٤، ومسلم في القدر حديث ٦، ٧، ٨.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٧٩، ٩٢، وتفسير سورة ٣٠، باب ١، والقدر باب ٣، ومسلم في القدر حديث ٢٢، ٢٤.

(٣) أخرجه مسلم في البر حديث ٤٣.

من المؤمنين وأمر الناس أجمعين بأداء زكاة أموالهم رزقاً للفقراء وأن يطعموا أنفسهم وأهليهم ومن وجب عليهم نفقاتهم فكيف يقال ما أريد منهم أن يرزقوا اللهمَّ إلا أن يقال المقصود من إيجاب الزكاة امتثال الأمر وفعل الأداء دون الترزيق، ومن هاهنا قال أبو حنيفة لا يجب الزكاة على الصبي والمجنون ولكن هذا الجواب لا يستقيم في العشر والخراج ونفقة الآباء والأولاد والزوجات فإن المقصود إيصال الرزق إلى العباد ولذا تجري فيها النيابة ويتأدى بأداء ولي الصبي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ لجميع خلقه مستغن عنه ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ على الترزيق وعلى كل ما أراد ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ شديدة المبالغ في القدرة، قيل في تأويل الآية أن قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٧] الخ من كلام رسول الله ﷺ مقدر بقل يعني قل يا محمد ما أريد منهم أي من الناس من رزق نظيره ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الإنعام: ٩٠] قال بعض المحققين قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ بتقدير قل عطف على ذكر وإلى قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ داخل في مقولة قل لا يقال كيف يصح ما خلقت الجن الخ كلاماً للرسول لأنا نقول هو على طريقة قول الملك للسفير قل إن الملك أمركم بكذا فيقول السفير بقول الملك إني آمركم بكذا أو أن الأمير يأمركم بكذا ومثل هذا متعارف ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك والمعاصي وإضاعة الفطرة السليمة ووضع الكفران موضع العبادة التي كفلوا بها وخلقوا مستعدين لها ﴿ذَنُوبًا﴾ أي نصيباً من العذاب وهو في الأصل الدلو العظيم الذي له ذنب واستعير للنصيب أخذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلاء، وقال الزجاج الذنوب في اللغة النصيب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾ أي مثل نصيب نظرائهم من الأمم السابقة كعاد وثمود وفرعون وقوم نوح وقوم لوط والفاء للسببية تعليل لقوله فتولّ عنهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ الفاء أيضاً للسببية يعني إذا سمعت وعيدي لكفار فهو يكفيك للتسلية فلا تستعجلوني في تعذيبهم وجاز أن يكون هذا خطاباً بالكفار جواباً لقولهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ يعني يوم القيامة، وقيل يوم بدر الفاء للسببية مسبب لتحقق الوعيد والله تعالى أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الطور

آياتها تسع وأربعون وفيها ركوعان

﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥)
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ
الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ
جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥)
اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ
(١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
(١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ
(٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا
عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾

﴿وَالطُّورِ (١)﴾ وهو الجبل بالسريانية والمراد به طور سينين جبل بمدين سمع موسىٰ فيها كلام الله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢)﴾ السطر ترتيب الحروف المكتوب والمراد به مكتوب ﴿فِي رَقٍّ﴾ الرق الجلد الذي يكتب استعير لما كتب فيه الكتاب ﴿مَّنشُورٍ (٣)﴾ لأجل التلاوة صفة لرق والظرف متعلق بمسطور وتقيد الكتاب بكونه مكتوباً في رق منشور يأبى كونه لوحاً محفوظاً فالمراد به إما القرآن أو جنس ما كتب فيه الشرائع، وقال الكلبي هو ما كتب الله بيده لموسى من التوراة وموسى يسمع صرير القلم ومقتضى هذا القول مناسبته وعطفه على الطور، وقيل المراد به دواوين الحفظة يخرج لهم يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)﴾ هو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة يقال له الصراح حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض، روى مسلم عن أنس في حديث المعراج وقال عليه السلام «في السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف لا يعودون إليه»[1] قال البغوي

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٦٤.

يطوفون به ويصلون فيه ثم لا يعودون إليه أبداً عمارته كثرة غاشية من الملائكة، قال البيضاوي المراد به الكعبة وعمارتها بالحجاج والمجاورين أو قلب المؤمن وعمارته بالمعرفة والإخلاص ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ يعني السماء قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾، في القاموس سجر التنور حمأه والنهر ملأه وقال محمد بن إسحاق والضحاك يعني الموقد المحمىٰ بمنزلة التنور المسجور وهو قول ابن عباس وذلك ما روي أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزداد بها في نار جهنم، وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يركبن رجل بحراً إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً فإن تحت البحر ناراً أو تحت النار بحراً»(١) وعن يعلى بن أمية أن النبي ﷺ قال «البحر جهنم»(٢)، وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي من طريق سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب (رض): قال ما رأيت يهودياً أصدق من فلان زعم أن نار الله الكبرى هي البحر فإذا كان يوم القيامة جمع الله فيه الشمس والقمر والنجوم ثم بعث عليه الدبور فسعرته، وأخرج أبو الشيخ عن كعب في قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ قال: البحر يسجر فيصير نار جهنم، وأخرج البيهقي في الشعب عن وهب قال إذا قامت القيام أمر بالفلق فيكشف عن سقر وهي غطاؤها فيخرج منه نار فإذا وصلت إلى البحر المطبق على شفير جهنم وهو البحر المسجور أسرع من طرفة عين وهو حاجز بين جهنم والأرضين السبع فيدعها جمرة واحدة، وقال مجاهد والكلبي المسجور المملوء ويقال سجرت الإناء إذا ملأته، وقال الحسن وقتادة وأبو العالية هو اليابس الذي قد ذهب ماؤه، وقال الربيع بن أنس المختلط العذب بالملح، وروى الضحاك عن النزال بن سبرة عن علي أنه قال في البحر المسجور وهو بحر تحت العرش عمقه كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر العباد بعد النفخة الأولى منه أربعون صباحاً فينبتون في قبورهم وهذا قول مقاتل أقسم الله تعالى بهذه الأشياء وجواب القسم ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾ بالكفار ﴿مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ يدفعه الجملة صفة لواقع، قال جبير بن مطعم قدمت المدينة لأكلم رسول الله ﷺ في أسارى بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ والطور إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ فكأنما صدع قلبي حين سمعته ولم أكن أسلم يومئذ قال فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن إلا أن أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾ أي تدور كدوران الرحى وتتكفئ بأهلها تكفأ السفينة، وقال قتادة تتحرك، وقال عطاء الخراساني تختلف أجزاؤها بعضها في بعض وقيل تضطرب وكل ذلك جاء معاني مور في اللغة الذهاب المجيء والتردد والدوران والاضطراب كذا في

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٣٣٤، ٦/ ١٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢٢٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٣٣٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨٦، والقرطبي في تفسيره ١٠/ ٣٩٣، والطبري في تفسيره ١٥/ ١٥٧، وابن كثير في تفسيره ٥/ ١٥٠، ٦/ ٢٩٨.

القاموس، وهذه الآية تدل على أن السماء غير متحرك كالأرض والجبال خلافاً للفلاسفة والظرف متعلق لواقع ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ عطف على تمور يعني تسير عن وجه الأرض فتصير هباء ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي إذا وقع ذلك الفاء للسببية فإن وقوع العذاب الغير المدفوع سبب للويل ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالعذاب ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ غافلين لاهين ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ بدل من يوم تمور ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي دفعاً بعنف وجفوة وذلك أن خزنة جهنم يغلّون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ثم يدفعون إلى النار دفعاً على وجوههم ويزعجون إزعاجاً حتى إذا دنوا منها يقول لهم خزنتها ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ وجاز أن يكون يوم يدعون ظرفاً ليقول مقدر هاهنا وهذه الجملة بتقدير يقول لهم حال من المكذبين ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ عطف على ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للتعقيب والمعنى أي يتعقب مشاهدة النار كونها سحراً يعني كنتم تقولون للوحي وما يشهد من المعجزات هذا سحر وهذا مصداقه فلو كان ذلك سحراً فهذا أيضاً سحر على زعمكم وتقديم الخبر لأنه المقصر بالإنكار والتوبيخ ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ هذه النار كما كنتم لا تبصرون ما يدل عليه في الدنيا وتقولون إنما سكرت أبصارنا وهذا الكلام تهكم بهم ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ كلمة أو للتسوية والجملتان بتقدير مستويا لكم صبركم وعدمه حال من الضمير المستكن في اصلوها. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ سواء مصدر بمعنى الفاعل خبر مبتدأ محذوف الأمران مستويان عليكم والجملة تأكيد لما سبق ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليل للاستواء فإنه لما كان جزاء الكفر واجب الوقوع بإيجاب الله تعالى ووعيده كان الصبر وعدمه سيّان في عدم النفع.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ وتنكيرهما للتعظيم يعني جنات عظيم ونعيم فخيم ﴿فَٰكِهِينَ﴾ ناعمين متلذذين حال من الضمير في الظرف ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إبهام ما أتاهم وإسناده إلى ربهم للتفخيم والتعظيم يعني ناعمين بشيءٍ عظيم أو بالذي هو عظيم الشأن أنهم أكرم الأكرمين وأعظم العظماء ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ عطف على أتاهم إن جعل ما مصدرية أو على في جنات أو حال من فاعل أتى أو من مفعوله أو كليهما ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ بتقدير يقال لهم خبر بعد خبر لأن أو حال من المستكن في الظرف أو الحال ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي أكلاً وشرباً هنيئاً أو طعاماً وشراباً هنيئاً والهنيء ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقبه خامة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسببه أو مقابلته، وقيل الباء زائدة وما فاعل لهنيئاً والمعنى هنيئكم هنيا ما كنتم تعملون أي جزاؤه وحينئذ هنيئاً جملة معطوفة على كلوا مقولة قال المقدر ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من المستكن في الظرف أي في جنات أو في فاكهين أو من الضمير في كلوا وأشربوا على التنازع ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متعلق بمتكئين ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي مصطفة ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ عطف على خبر إن أو على أن الماضي في معنى المستقبل ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ الباء للإلصاق فإن التزويج معنى الوصل أو للسببية يعني صيرناهم أزواجاً بسببهن ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو أتبعناهم بقطع الألف وإسكان التاء والعين من الأفعال وضمير المتكلم مع الغير تعظيماً والباقون بوصل الألف وفتح التاء والعين من الافتعال وتاء التأنيث الساكنة ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ قرأ أبو عمر وابن عامر ويعقوب ذرياتهم للمبالغة في كثرتهم فكسر أبو عمرو التاء منصوباً

على أنه مفعول ثان لأتبعناهم وضم ابن عامر ويعقوب مرفوعاً على الفاعلية وقرأ الباقون ذريتهم بالتوحيد مرفوعاً على الفاعلية والذرية يقع على الواحد والكثير ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حال من الضمير المنصوب أو من الذرية أو منهما وتنكيره للإشعار بأنه يكفي للإلحاق المتابعة في أصل الإيمان بل يكفيه الإيمان الحكم كإيمان الصغير والمجنون تبعاً لغير الأبوين ديناً ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ذرياتهم بالجمع وكسر التاء والباقون بالتوحيد وفتح التاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله يرفع ذرية المؤمنين في درجة وإن كانوا دونه في العمل ليقربهم عينه ثم قرأ هذه الآية»[١] رواه الحاكم والبيهقي في سننه والبزار وأبو نعيم في الحلية وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وعن علي(رض) قال سألت خديجة النبيّ ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ «هما في النار» فلما رأى الكراهة في وجهها، قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما» قالت: يا رسول الله فولدي منك؟ قال في الجنة، ثم قال رسول الله ﷺ «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٢] رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وفيه مجهول وانقطاع.

فصل

هذا الحديث يدل على أن أطفال المشركين في النار والصحيح أنهم في الجنة وهذا الحديث ضعيف فيه مجهول وانقطاع، وكذا ما روى أحمد عن عائشة أنها ذكرت لرسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «إن شئت أسمعتك تصاعدهم في النار»[٣] سنده ضعيف جداً، وقيل هذا الحديث منسوخ في حق أطفال المشركين لما روى ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة قالت سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «هم من آبائهم» ثم سألت بعد ذلك فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين» ثم سألته بعدما استحكم الإسلام فنزلت ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فقال: «هم على الفطرة» أو قال «في الجنة»[٤] وما روى ابن أبي شيبة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «سألت ربي اللاهين من ذريات البشر فأعطانيهم»[٥] قال ابن عبد البر هم الأطفال لأن أعمالهم كاللهو واللعب من غير عقل ولا عزم، وأخرج ابن جرير عن سمرة قال سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «خدم أهل الجنة»[٦] وأخرج مثله عن ابن مسعود موقوفاً وكذا روى

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٩٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٣٤، ١٣٥، والبغوي في تفسيره ٩/ ٢٥١، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٦٢٣، وابن كثير في تفسيره ٥/ ٥٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٢٠٨، بلفظ: «إن شئت أسمعتك تضاغيهم في النار».

(٤) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٦٨، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٦٧.

(٥) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢١٩، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٤٤٤.

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٧/ ٢٩٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢١٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٦٦، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٣٠٨، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٦٨.

الطيالسي عن أنس مرفوعاً معناه وقال بعض العلماء أطفال المشركين يمتحنون لأنه سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين»[١] متفق عليه من حديث أبي هريرة والله أعلم.

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ قرأ ابن كثير بكسر اللام من باب سمع يسمع والباقون بفتح اللام من ضرب يضرب وكلاهما لغتان في ألت يألت يعني ما نقصنا الآباء ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم﴾ من للتبعيض أي بعض ثواب أعمالهم ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ من زائدة وشيء في محل النصب على أنه مفعول ثاني لألتنا ومن عملهم خال عنه قدم عليه لتنكيره يعني لا ينقص ثواب الآباء بإعطاء الأبناء في إلحاقهم بهم والجملة معطوفة على ألحقنا ولما كان هاهنا مظنة سؤال السائل يسأل أن هذا شأن من آمن واتبعه ذريته بإيمان فما شأن من كسب سيئة قال الله تعالى ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ قال مقاتل كل امرىء كافر بما عمل من الشرك مرتهن محبوس في النار لا يجاوز جزاء السيئة ممن كسب إلى غيره فلا يلحق بالكافر والفاسق ذريته من غير أن يعملوا ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ عطف على زوجناهم يعني زدناهم يعني المتقين وقتاً بعد وقت ﴿بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ من أنواع التنعم ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ من النزع يعني الأخذ من يد الغير والتفاعل هاهنا بمعنى المجرد من عاقبة اللص وترافعنا إلى القاضي وجعلنا من المزيد فيه للدلالة من الكثرة يعني ينزعون إلى أهل الجنة من يد الساقي ﴿فِيهَآ﴾ أي في الجنة ﴿كَأۡسٗا﴾ الكأس الإناء بما فيها من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً يقال كأس حال، ويقال شربت كأساً والمراد هاهنا كأس مملوء من شراب ﴿لَّا لَغۡوٞ﴾ وهو الباطل قال قتادة وقال مقاتل بن حيان لا فضول ﴿فِيهَآ﴾ وقال سعيد بن المسيب لا رفث فيها، وقال ابن زيد لاسباب ولا تخاصم فيها، وقال القتيبي لا تذهب عقولهم فيلغوا ويرفثوا ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ قال الزجاج لا يجري بينهم ما يلغ ولا ما فيه إثم كما يجري في الدنيا بشرب الخمر وقيل لا ياثمون في شربها قرأ ابن كثير وأبو عمرو لا لغو ولا تأثيم بالفتح فيها إعمالاً للا والباقون بالرفع فيهما الفاء لعمل لا لأجل التكرير ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ لأجل الخدمة ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي مماليك مخصوص بهم أخرج ابن أبي الدنيا عن أنس(رض) قال: قال رسول الله ﷺ «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة من يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم»[٢] وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة إن أدنى أهل الجنة منزلة وليس فيها أدنى من يغدو ويروح عليه خمسة آلاف خادم ليس منهم خادم إلا ومعه ظرف ليس مع صاحبه» ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ مستور في الصدف شبهوا باللؤلؤ في بياضهم وصفائهم وحسنهم، قال البغوي روي عن الحسن أنه تلا هذه الآية وقال قالوا يا

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في القدر باب ٣، والجنائز باب ٩٣، ومسلم في القدر حديث ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٢٨.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٤٠١، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/٥٤١، والسيوطي في الدر المنثور ٦/٢٢.

رسول الله الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم وعن قتادة أيضاً ذكر لنا أن رجلاً قال يا نبي الله ﷺ هذا الخادم فكيف المخدوم؟ قال «فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»(١) وأخرج عبد الرزاق وابن جرير في تفسيرهما من مرسل قتادة نحوه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يعني يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله في الدنيا، قال ابن عباس يتذاكرون ما كانوا فيه من التعب والخوف في الدنيا وأقبل صيغة ماض بمعنى المستقبل حال بتقدير قدمن الضمير المجرور في يطوف عليهم ﴿قَالُوٓا﴾ يعني يقولون جملة مستأنفة كأنها في جواب ماذا يقول المسؤولون ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي قبل هذا في الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين من عذاب الله ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالتوفيق والمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم وقال الحسن السموم اسم من أسماء جهنم ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ أي قبل ذلك في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده أي الله تعالى ونسأله الوقاية ﴿إِنَّهُۥ﴾ قرأ نافع والكسائي بفتح الهمزة يعني ندعوه بأنه والباقون بالكسر على الاستئناف ﴿هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ أي المحسن وقال ابن عباس اللطيف وقال الضحاك الصادق فيما وعد ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

﴿فَذَكِّرْ﴾ الفاء للسببية فإن تحقيق الوعد والوعيد من الله تعالى باعث على التذكير والموعظة ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ الفاء للتعليل يعني ذكر الناس لأنك نبي من الله ولست ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي متلبساً بنعمة ربك حال من الضمير المرفوع فإن قوله ما أنت ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ في معنى انتفى كونك كاهناً أو مجنوناً والمراد بنعمة ربك النبوة والعقل السليم يعني نبوتك ودينك يتلقى الكهانة وعقلك السليم البالغ ينافي الجنون والآية نزلت في الذين اقتسموا أعقاب مكة يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر، أخرج ابن جرير عن

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٩.

ابن عباس أن قريشاً اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم احبسوه في أوثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء ما زهير والنابغة فإنما هو كأحدهم فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ صفة شاعر أو خبر بعد خبر المبتدأ محذوف أي هو منتظر به ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي ما يتعلق النفوس من حوادث الدهر أو حوادث الموت يعني الحوادث التي تفضي إلى الموت قالت الكفار: إنه يموت ويهلك كما هلك من قبله من الشعراء ويتفرق أصحابه وإن أباه مات شاباً ونحن نرجو أن يكون موته موت أبيه أو المنون مفعول من منه إذا قطعه يكون بمعنى الدهر وبمعنى الموت سميا بذلك لأنهما تقطعان الأجل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ حتى يأتي أمر الله فيكم فتعذبوا بالسيف يوم بدر.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ التناقض في القول فإن الكاهن يكون ذا فطانة ودقة نظر والمجنون مغطى عقله والشاعر ذا كلام موزون منتسق بليغ متخيل ولا يتأتى ذلك من المجنون وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بأحلامهم فأزرى الله بعقولهم حتى قال إنهم لا يتميزون بين الفطان والمجنون ولا يعرفون الحق من الباطل ﴿أَمْ هُمْ﴾ يعني بل هم ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد فإنهم إذاً لا يجدون سبيلاً إلى الإنكار في القرآن والنبي ﷺ بظهور الحجة وسطوع البرهان يقولون فيه قولاً آخر مناقضاً للأول ﴿أَمْ﴾ أي بل ﴿يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي القرآن تقوله محمد ﷺ يعني اختلقه من تلقاء نفسه وليس من عند الله وليس الأمر كذلك ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن عناداً أو استكباراً فيرمون بهذه المطاعن كذباً ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أي مثل القرآن في البلاغة وأخبار الغيب ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ فيما قالوا إنه كاهن أو مجنون أو شاعر تقوله إذ فيهم كثير من الكهنة والمجانين والشعراء فهو رد للأقوال الثلاثة المذكورة بالتحدي ويجوز أن يكون رداً للتقول فقط فإن سائر الأقوال ظاهر الفساد وهذا شرط مستغن عن الجزاء ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ قال ابن عباس يعني من غير رب خلقهم وذلك محال فإن الحادث الذي لم يكن موجود قبل ذلك لا يتصور وجوده من غير موجد وقيل معناه أم خلقوا من أجل لا شيء من العبادة والمجازاة يعني خلقوا عبثاً وتركوا سدى لا يؤمرون ولا ينهون كذا قال ابن كيسان والزجاج ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم وذلك في البطلان أظهر من أن يخلقوا من غير شيء وهذه الجملة تؤيد التأويل الأول لما قبلها ولذلك عقبه بقوله ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ بما يجب به الإيقان ويدل عليه البرهان من أن الله خلقهم وخلق السماوات والأرض ولو أيقنوا به لما أعرضوا من عبادته.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي خزائن رزقه فيرزقوا النبوة من يشاء أو خزائن علمه فيعلمون من هو أحق بالنبوة من غيره وبقضية الحكمة ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ المسلطون القاهرون على الأشياء يجعلونها على حسب مشيئتهم ولا يكونوا تحت أمر ونهي، قرأ قنبل وحفص بخلاف عنه وهشام بالسين وحمزة بخلاف عن خلال بين الصاد والزاء والباقون بالصاد

خالصة ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرتقى إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ صاعدين ﴿فِيهِ﴾ أي كلام الملائكة وما يوحي إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن أو يعلموا ما هو حق من الله تعالى فيستمسكون به ولا يتبعوا بمحمد ﷺ فإن ادعوا ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة يصدق استماعه ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ﴾ أي لله تعالى بنات كما يقولون الملائكة بنات الله ﴿وَلَكُمُ﴾ أيها الناس ﴿الْبَنُونَ﴾ فيه تسفيه لهم وإشعار بأن من هذا رأيه لا يعد من العقلاء فضلاً ممن يرتقي بروحه إلى عالم الملكوت فيطلع على الغيب ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي من التزام غرم ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ فلذلك لا يتبعونك مع ظهور الداعي إلى الاتباع ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ قال ابن عباس المراد منه اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيبات ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه وقيل معناه عندهم علم ما غاب عنهم حتى علموا أن ما جاء به محمد ﷺ من البعث وأمر القيامة والثواب والعقاب مع كونه ممكناً في نفسه واجباً ثبوته بالبرهان باطل غير واقع، وقال قتادة هذا جواب لقولهم نتربص به ريب المنون يعني أعندهم علم الغيب بأن محمد ﷺ يموت قبلهم ولا يبقى له أثر ومعنى قوله فهم يكتبون أي يحكمون والكتاب الحكم كذا قال القعنبي ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ بك ليهلكوك وهو كيدهم في دار الندوة قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠] ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يعني يحيق بهم الكيد أو يعود إليهم وبال كيدهم وجزاؤه وهو قتلهم يوم بدر وعذابهم بالنار في الآخرة وضع الموصول موضع الضمير للتسجيل على كفرهم والدلالة على أنه هو الموجب للحكم المذكور ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يمنعهم من عذاب الله وينصرهم ويرزقهم ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. عن إشراكهم أو عن شركة ما يشركون، قال الخليل ما في هذه السورة من أم كله استفهام يعني الإنكار وليس بعطف.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا﴾ أي قطعة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ هذا جواب لقولهم فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴿يَقُولُوا﴾ هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ تراكم بعضها على بعض كما أن عاداً لما رأوا عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا يعني لو عذبناهم بإسقاط بعض من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم حتى يهلكوا لكن الحكمة لا تقتضي استئصالهم ﴿فَذَرْهُمْ﴾ ولا تسأل نزول العذاب عليهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ أي يوم عذابهم ﴿الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ قرأ عاصم وابن عامر بضم الياء على البناء للمفعول أي يوم يهلكهم الله تعالى من أصعق والباقون بفتح الياء على البناء للفاعل من صعق يصعق أي يوم يموتون، قال البيضاوي هو عند النفخة الأولى، قلت هذا ليس بشيء فإنه جعل غاية لقوله ذرهم وذا لا يتصور إلا أن يراد يوم يموتون ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ إغناء ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله يوم لا يغني بدل من يومهم ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يحتمل العموم والخصوص ﴿عَذَابًا﴾ في الدنيا ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي قبل ذلك اليوم يوم موتهم، قال ابن عباس يعني القتل يوم بدر، وقال مجاهد الجوع والقحط سبع سنين، وقال البراء بن عازب يعني عذاب القبر، قلت: هذا على تقدير أن يراد بيومهم

الذي فيه يصعقون يوم نفخة الصعق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وإبقائك في عنائهم، وقيل معناه واصبر إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال الزجاج: يعني إنك بحيث نراك ونحفظك فلا يصلون إليك بمكروه، والحاصل إنك بحفظنا وجمع العين لجمع الضمير وجمع الضمير للتعظيم أو يقال جمع العين للمبالغة والدلالة على كثرة أسباب الحفظ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ عطف على واصبر ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ قال سعيد بن جبير وعطاء أي قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهمَّ وبحمدك فإن كان المجلس خيراً ازددت خيراً وإن كان غير ذلك كان كفارة له، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم سبحانك اللهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك كان كفارة لما بينهما»(١) رواه البغوي ورواه الترمذي والبيهقي في الدعوات الكبير «إلا غفر له ما كان في مجلسه»(٢) وعن رافع بن خديج قال: كان رسول الله ﷺ بآخر عمره إذا اجتمع إليه أصحابه فأراد أن ينهض قال: «سبحان الله وبحمدك أشهد أن لا إلٰه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوأً أو ظلمت نفسه فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوأً قال قلنا يا رسول الله إن هذه كلمات أحدثتهن قال أجل جاءني جبرئيل فقال يا محمد هن كفارات المجلس»(٣) رواه النسائي واللفظ له وصححه الحاكم، وأخرجه الطبراني في المعاجم الثلاثة مختصراً بسند جيد، وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال: «كلمات لا يتكلم بها أحد في مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن كما يتختم بالخاتم على الصحيفة سبحانك اللهمَّ وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»(٤) رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه، وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروالله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كانت عليهم ترة إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم»(٥) رواه أبو داود والترمذي وحسنه واللفظ له وابن أبي الدنيا والبيهقي، وفي رواية أبي داود «ومن قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليهم من الله ترة ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترةوما مشى أحد يمشي لا يذكر الله فيه إلا كان عليه ترة»(٦) وقال ابن عباس معنى الآية صل الله حين تقوم من منامك، وقال الضحاك والربيع «إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهمَّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك»(٧) رواه أبو

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة ٥/ ١٣٤، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٢٤٣٣.
(٢) أخرجه الترمذي حديث ٣٤٣٣، وأحمد في المسند ٢/ ٤٩٤.
(٣) أخرجه بنحوه الدارمي في الاستئذان باب ٢٩، وأحمد في المسند ٤/ ٤٢٠، ٤٢٥.
(٤) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٢٧.
(٥) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٢٥، ٩٨، وأحمد في المسند ٢/ ٤٣٢، ٤٤٦، ٤٥٣، ٤٨١، ٤٨٤.
(٦) انظر الحاشية السابقة.
(٧) أخرجه الترمذي في الصلاة باب ٦٥، والوتر باب ١٩، والنسائي في الافتتاح باب ١٨، وابن ماجه في الإقامة باب ١، والدارمي في الصلاة باب ٣٣، وأحمد في المسند ٣/ ٥٠، ٦٩.

داود والترمذي ورواه ابن ماجه عن أبي سعيد وقال الترمذي هذا الحديث لا نعرفه إلا من حارثة وقد تكلم فيه من قبل حفظه، وقال الكلبي المراد بالآية الذكر باللسان حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل في الصلاة عن عاصم بن حميد سألت عائشة بأي شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ إذا قام من الليل؟ قالت كان إذا قام كبر الله عشراً وحمد الله عشراً وسبح الله عشراً واستغفر عشراً وقال: «اللهمَّ اغفر لي واهدني وارزقني وعافني» ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة[١]، رواه البغوي ورواه أبو داود عن شريق الهذلي عن عائشة بلفظ كان إذا ذهب من الليل كبر عشراً وحمد الله عشراً وقال سبحان الله وبحمده عشراً وقال سبحان الملك القدوس عشراً واستغفر عشراً وهلل عشراً ثم قال اللهمَّ إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشراً»[٢] ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أي صلّ له قال مقاتل يعني صلاة المغرب والعشاء، قلت والظاهر أنه صلاة التهجد خص صلاة الليل بالذكر لأن العبادة في الليل أشق على النفس وأبعد عن الرياء ولذلك قدم الظرف على الفعل ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني إذا أدبرت النجوم وغابت بطلوع الصبح، وقال الضحاك المراد به صلاة الفجر، وقال أكثر المفسرين المراد به ركعتان قبل صلاة الفجر عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[٣] رواه مسلم، وعنها قالت لم يكن النبيّ ﷺ أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر[٤] متفق عليه، وعن جبير بن مطعم قال سمعت رسول الله ﷺ قرأ في المغرب بالطور رواه البغوي.

---

(١) أخرجه البغوي في تفسيره ٦/ ٢٥٤.

(٢) أخرجه أبو داود حديث ٥٠٨٥، وابن السني في عمل اليوم والليلة ٧٥٧، والبخاري في التاريخ الكبير ١/ ٤٥٧، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ١٤٧.

(٣) أخرجه مسلم في المسافرين حديث ٩٦، والترمذي حديث ٤١٦، والنسائي في قيام الليل باب ٥٦.

(٤) أخرجه البخاري في التهجد باب ٢٧.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النجم

آياتها اثنان وستون وثلاث ركوعات وهي مكيَّة

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ
يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ
قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ
(١٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ
(١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ (١٨)﴾.

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١)﴾ قال ابن عباس في رواية الوالبي والعوفي يعني الثريا إذا سقطت وهويه مغيبه والعرب تسمي الثريا نجماً وجاء في الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً «ماطلع النجم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا رفع»[١] وأراد بالنجم الثريا ذكره البغوي ورواه أحمد بلفظ «ما طلع النجم صباحاً قط وتقوم عاهة إلا ورفعت عنهم أو خفت»[٢] وسنده ضعيف، وقال مجاهد نجوم السماء كلها حين تغرب واللام للجنس سمي الكواكب نجماً بطلوعه وكل طالع نجم يقال نجم السن والقرآن والسنة، وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه الرجوم من النجوم يعني ما يرمى به الشياطين عن استراقهم السمع، وقال أبو حمزة الثمالي النجوم إذا انتثرت يوم القيامة، وقال ابن عباس في رواية عطاء المراد بالنجم القرآن فسمي نجماً لأنها نزلت نجوماً متفرقة في ثلاثة وعشرين سنة يسمى التفريق تنجيماً والمفرق منجماً، وقال الكلبي الهوي النزول من أعلى إلى أسفل، وقال الأخفش النجم هو النبت الذي لا ساق له ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [الرحمن: ٦] وهويه سقوطه على الأرض، وقال جعفر الصادق(رض) يعني محمداً ﷺ إذا نزل من السماء ليلة المعراج والهوي النزول، وقيل المراد بالنجم المسلم وبهويه دفنه في القبر، والظرف لا يجوز أن يكون متعلقاً بفعل قسم مقدر لأن القسم لا يتعدى بذلك الوقت ولا أن يكون الظرف صفة نجم لأنه جثة وظرف الزمان لا يكون صفة للجثة بل هو متعلق بحدث مقدر مضاف إلى

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٤١.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٨٨.

النجم تقديره وتحرك النجم إذا هوى، وقيل إذا هاهنا اسم وليس بظرف وهو بدل اشتمال من النجم مقسم به ووجه تعين هذا الوقت للقسم أن وقت الهوي أفضل أوقات النجم لأنه إن كان المراد بالنجم الثريا أو مطلق النجم فإن أريد بهويه سقوط شعلة منه لرجم الشياطين فلا شك أن رجم الشياطين مقصود من خلقة النجوم وإن أريد به انتشاره يوم القيامة ذلك وقت إتمام المقاصد التي قصد بالنجوم وإن أريد به غروبه فغروبه أوضح دليل على إمكانه ووجود صانعه، ولذا استدل الخليل عليه السلام بالأفول من الكواكب والقمر والشمس حيث قال ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ۝٧٦﴾ [الأنعام: ٧٦] وإن أريد به نجم القرآن وبهويه نزوله أو بالنجم محمد ﷺ وبهويه نزوله من السماء ليلة المعراج فلا شك أن نزول القرآن لهداية الناس ونزول محمد ﷺ بعد عروجه لهداية الخلق نعمة جليلة من الله تعالى لا نظير لهما وإن أريد بالنجم المسلم وبهويه دفنه في القبر فلا شك أن دفن المسلم مع إيمانه سالماً عن تسويلات النفس والشيطان غانماً بنعمة الإيمان والأعمال الصالحة وقت كماله وزوال خطر زواله والله تعالى أعلم.

وجواب القسم ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ محمد ﷺ عن طريق الهدى ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ في اتباع طريق الباطل قيل الضلال ضد الهداية والغي ضد الرشد يعني هو مهتد راشد وليس كما تزعمون يا معشر قريش وتنسبونه إلى الضلال والغي ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ بالقرآن ولا بغيره عطف على ما ضل ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ صفة لمصدر محذوف يعني نطقاً ناشئاً عن الهوى يعني لم يتقول القرآن من تلقاء نفسه كما يتقول الشعراء وكذا كل ما يتكلم ليس منشؤه الهوى النفسانية بل مستند إلى الوحي جلي أو خفي وإن كان باجتهاد مأمور من الله تعالى مقرر من الله عليه فهو ليس عن الهوى البتة ﴿إِنْ هُوَ﴾ الضمير راجع إلى القرآن المعهود في الذهن والمدلول فيما سبق من الكلام ﴿إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ فليس في هذه الآية ما يدل على أنه ﷺ ما كان يتكلم بالاجتهاد والجملة تعليل بقوله ما ينطق ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ يعني محمداً ﷺ الضمير المنصوب مفعول أول لعلم والقرآن أو ما يوحىٰ إليه عليه السلام مطلقاً من حيث إنه اسم لكلام تام قائم مقام مفعوليه الثاني والثالث وفاعله ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ جمع قوة والمراد به الله سبحانه القوي المتين ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ المرة القوة الشدة والأصالة والإحكام كذا في القاموس والله سبحانه شديد البطش يحكم أصل كل شيء وجملة علمه مع ما عطف عليه حال من الضمير المستكن في يوحي أو صفة بعد صفة ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ عطف على علمه والاستواء من المتشابهات قال السلف في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] أن الاستواء معلوم بلا كيف، وقال سهيل بن عبد الله التستري لا يجوز لمؤمن أن يقول كيف الاستواء لمن خلق الاستواء ولنا عليه الرضا والتسليم، وقال مالك بن أنس الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والسؤال عنه بدعة، وحاصل الآية أنه كان لله تعالى إذا علم محمداً ﷺ نسبته به عليه السلام مجهول الكيفية كنسبته مع العرش المجيد والكعبة الحسناء وقد تظهر تلك النسبة للصوفية الكرام وتظهر على وجه أكمل منه يوم يرونه كما يرون القمر ليلة البدر.

﴿وَهُوَ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني كان محمد ﷺ إذا يوحى إليه في كمال رفعة استعداده وعلوّ مرتبته والأفق الناحية على منتهى دائرة الإمكان حيث يكون وراء ذلك دائرة الوجوب التي لا يتصور هناك للسالك سير قدمي والجملة حال من الضمير المنصوب في علمه ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ بحذف المضافين إن كان مقدار قربه قاب قوسين أو أدنى وجملة ثم دنى عطف على علمه، قال البغوي روينا في قصة المعراج عن شريك بن عبد اللّه بن أنس «ودنىٰ الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه ﷺ قاب قوسين أو أدنى» قال الشيخ محمد حياة السندي في رسالته هذا حديث غريب ومثله عن ابن عباس رواه أبو سلمة عنه وأو هاهنا ليس للشك بل بمعنى بل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] يعني بل يزيدون، قالت الصوفية العلية المراد بقوسين قوس الوجوب وقوس الإمكان فالصوفي في مرتبة دنوه قاب قوسين يبقى في نظره مرتبتي الوجوب والإمكان كلتيهما وفي دنوه أدنى من قوسين يسترُ عن بصيرته قوس الإمكان مطلقاً لا يرى نفسه عيناً ولا أثراً والقاب والقيبة والقاد والقيد عبارة عن المقدار وهاهنا كناية عن كمال القرب وأصله أن الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء والعهد خرجا بقوسيهما وألصقا بينهما يريدان بذلك أنهما متظاهران يحامي كل واحد منهما عن صاحبه ومراتب الدنو والتدلي وما كنى بقاب قوسين أو بما هو أدنى منه درجات قرب للعهد من الله تعالى في تجلياته سبحانه يدركه الصوفي ومن لم يذق لم يدر وقد ذكروا هذه الدرجات في كتب التصوف في كلماتهم أكثر مما تحصى، وقال الضحاك معناه دنى محمد من ربه فتدلى يعني فأهوى للسجود وهذا يستلزم انتشار الضمائر ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ من القرآن وغيره من الوحي الغير المتلو وضمائر أوحى وعبده وأوحى راجعة إلى شديد القوى وهذا التفسير مروي عن أنس وابن عباس وغيرهما من السلف ولا غبار عليه من حيث العربية وقالت عائشة واختاره أكثر المفسرين أن المراد بشديد القوى جبرئيل عليه السلام ذو مرة، قال ابن عباس في رواية أي ذو منظر حسن، وقال قتادة ذو خلق طويل حسن فاستوى جبرئيل وهو يعني محمد ﷺ عطف على الضمير المرفوع المستتر في استوى على ما أجازه الكوفيون قال البغوي استوى جبرئيل ومحمد عليهما السلام ليلة المعراج، وقيل ضمير هو راجع إلى جبرئيل كان يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي النبيين فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورة التي خلقها فأراه مرتين في الأرض ومرة في السماء فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى والمراد بالأعلى جانب الشرق وذلك أن محمداً ﷺ بحراء فطلع له جبرئيل من المشرق في الأفق إلى المغرب فخر رسول الله ﷺ مغشياً عليه فنزل جبرئيل في صورة الآدميين وضمه ﷺ إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وأما في السماء فعند سدرة المنتهى ليلة المعراج ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمد ﷺ قوله تعالى ثم دنى يعني جبرئيل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض فتدلى فنزل إلى محمد ﷺ لما خرّ رسول الله ﷺ مغشياً عليه فكان منه قاب قوسين أو أدنى يعني

بل أدنى، والقوس ما يرمى به في قول مجاهد وعكرمة وعطاء عن ابن عباس فأخبر أنه كان بين جبرئيل وبين محمد ﷺ مقدار قوسين قال معناه حيث الوتر من القوس.

وقال ابن مسعود قاب قوسين قدر ذراعين وهو قول سعيد بن جبير وشفيق بن سلمة والقوس الذراع يقاس بها كل شيء كذا روى البخاري في تأويل الآية عن عائشة (رض)، وقال البغوي وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة قيل في الكلام تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى فدنى لأن التدلي سبب الدنو والظاهر أن الدنو أعم مطلقاً من التدلي فإن الدنو لا يقتضي وصول الشيء إلى منتهى مسافة يريد قطعها إلى تحت بخلاف التدلي فإنه مأخوذ من الدلو فإن التدلي وصول الدلو إلى قعر البئر وأيضاً يعتبر في التدلي الوصول إلى المنتهى مع بقاء تعلقه بالمبدأ يقال أدلى رجله من السرير وأدلى دلوه والدوالي للثمر المعلق فأوحى جبرئيل إلى عبده يعني عبد الله وما أوحىٰ الله إليه. وهذا التأويل يأباه العربية والمعقول بوجوه: أحدها أن قصة جبرئيل هذه حكاية حال والكلام في أن القرآن ليس شيئاً منهما مما نطق محمد ﷺ من تلقاء نفسه بل كله مما أوحي إليه من ربه وجملة شديد القوى مع ما عطف عليه من قوله فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى حال من الضمير المستكن في قوله إلا وحي يوحى وزمان الحال يتحد مع زمان صاحبه فتقتضي الكلام وقوع تلك القصة في كل مرة أوحي إليه شيء من القرآن وإلا لا يجوز وقوعه حالاً أو لا يجوز القول بأن القرآن كله كذلك، ثانيها أنه يلزم حينئذ انتشار الضمائر في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ ورجوع ضمير عبده إلى الله سبحانه قرينة لكونه ضمير أوحي راجعاً إلى الله تعالى، ثالثها أن الدنو أو التدلي من جبرئيل عليه السلام وكونه قاب قوسين أو أدنى ليس كمالاً للنبيّ ﷺ فإن النبيّ ﷺ كان أفضل من جبرئيل عليه السلام، قال رسول الله ﷺ «وزيراي في السماء جبرئيل وميكائيل»(١) ووجه القول بالتأويل الثاني إنما هو استبعاد الاستواء والدنو والتدلي إلى الله تعالى ولما كان القرآن ناطقاً بأن منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فلا وجه للقول بهذا التأويل البعيد والاستواء والدنو والتدلي وكونه قاب قوسين أو أدنى بلا كيف على ما يليق بالتنزيه مشهود لأرباب القلوب كمشاهدة القمر ليلة البدر فالأوجه في القول ما قالوا والله تعالى أعلم، قال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أنه أوحي إليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٤] إلى قوله و﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] وقيل أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت وعلى الأمم حتى يدخلها أمتك والظن أن ما أوحي عام ولا وجه للتخصيص ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي فؤاد محمد ﷺ ﴿ مَا يَرَىٰ﴾ قال ابن مسعود رأى محمد ﷺ جبرئيل له ستمائة جناح وكذا روي عن عائشة(رض) وأنكرت عائشة رؤية النبيّ ﷺ به.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٦٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٢٦٧٩، ٣٦١٤٨، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٩٤.

روى البخاري عن مسروق قال قلت لعائشة يا أماه هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت لقد يقف شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب من حدثك أن محمد رأى ربه فقد كذب ثم قرأت ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤] ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الوحي فقد كذب ثم قرأت ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٤] الآية ولكن رأى جبرئيل في صورته مرتين[١]، وقال ابن عباس ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ إن محمد ﷺ رأى ربه جل وعلا بفؤاده مرتين كذا روى مسلم عنه، وفي رواية الترمذي قال ابن عباس رأى محمد ربه قال عكرمة قلت أليس الله يقول ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقال ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره وقد رأى محمد ربه مرتين، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه ﷺ سئل هل رأيت ربك؟ قال «رأيت بفؤادي»[٢]، وقال أنس والحسن وعكرمة رأى محمد ﷺ ربه يعني بعينه قال البغوي قال عكرمة عن ابن عباس قال إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة واصطفى موسى بالكلام واصطفى محمد ﷺ بالرؤية، وروى الترمذي عن الشعبي أن كعب الأحبار قال لابن عباس: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسىٰ فكلم موسى مرتين ورأى محمد ﷺ مرتين، قلت: المراد بالرؤية المختلف فيها إما الرؤية بالبصر وإما الرؤية القلبية المعبر عنها بالمشاهدة فغير مختص بالنبيّ ﷺ بل يتشرف أولياء أمته ﷺ أيضاً وقد ادعى بعض الأولياء الرؤية البصرية وذلك خلاف إجماع في حق غير النبيّ ﷺ وهذا الدعوى مبني على الاشتباه، ووجه الاشتباه أن الصوفي قد يرى ربه بقلبه وهو يقظان ويتعطل حينئذ بصره لكنه يزعم في غلبة الحال أنه يراه ببصره وإنما هو يراه بقلبه وبصره معطل وقوله عليه السلام «رأيته بفؤادي» لو ثبت لا يدل على نفي الرؤية بالبصر إلا بالمفهوم، قلت وقول ابن مسعود وعائشة شهادة على النفي وشهادة الإثبات أرجح وما احتج به عائشة على نفي رؤيته ﷺ فلا يخفى ضعفه وأما قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فقد ذكرنا في تفسير تلك الآية في سورة الأنعام أن الدرك أخص من الرؤية ونفي الدرك لا يستلزم نفي الرؤية قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢] وأيضاً مفهوم الآية سلب عموم الدرك لا عموم سلب الدرك وأما قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] ترديد بين الوحي من وراء الحجاب والوحي بلا حجاب فلا استدلال به والله تعالى أعلم، وروى مسلم عن أبي

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٧، وتفسير سورة ٥٣، باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٢٨٢، وأحمد في المسند ١/ ٣٩٥، ٤٠٧، ٦/ ٥٠.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٥، بلفظ: «رأيته بفؤادي مرتين».

قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنّىٰ أراه»[١] أنىٰ بفتح الهمزة للاستفهام يعني كيف أراه في بعض الروايات نوراني منسوب إلى النور أراه فعلى الرواية الثانية يثبت الرؤية وعلى الرواية الأولى ليس الحديث صريحاً في نفي الرؤية مطلقاً، قلت: وبعد ثبوت رؤيته ﷺ ربه بالعين كما يدل عليه حديث ابن عباس وكعب أيضاً أن المراد بالرؤية في الآية الرؤية القلبية فإنها هي المتصورة عند كل وحي يوحى إليه دون الرؤية البصرية فإنها مختصة بليلة المعراج.

قرأ أبو جعفر وهشام عن أبي عباس كذب بتشديد الذال من التكذيب يعني ما كذب قلب محمد ﷺ ما رأى بعينه أو بقلبه بل صدقه وأيقنه وهو حققه فإن الأمور القدسية تدرك أولاً بالقلب ثم ينتقل منه إلى البصر والبصيرة فإن ابصر مثل ما أدرك بالقلب وإن قصر بصره أو بصيرته عما أدركه القلب ورأى بخلافه كذبه وهذا هو المصداق الفارق بين العلوم الحقة الفائضة من الرحمٰن وبين الخيالات الوهمية وملتبسات الشيطانية فإن الصوفي قد يلتبس عنده العلوم والإلهامات والمكاشفات القدسية المفاضة عليه من الله سبحانه بما يتخيله الوهم والخيال وبما ألقى الشيطان في أمنيته، والفارق بينهما أن يرجع الصوفي إلى قلبه فإن صدقه قلبه واطمأن به ورأى في قلبه منه برد اليقين علم أنه من الله سبحانه وإن كذبه قلبه واضطرب عنده وأبى عرف أنه من النفس أو الشيطان، قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءك في صدرك شيء فدعه»[٢] رواه أحمد عن أبي أمامة وقال عليه السلام «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون»[٣] وقرأ الجمهور بتخفيف الذال والكذب يجيء متعدياً بمعنى كذب له ومجازه ما كذب الفؤاد لمحمد ﷺ فيما رأى يعني أخبره على ما في نفس الأمر فان قيل هذه الآية يقتضي أن تصديق القلب يغاير رؤية القلب؟ قلنا نعم وتحقيق المقام أن قلب المؤمن يدرك الله سبحانه وصفاته بمعية ذاتية غير متكيفة مترتبة على محبة ذاتية غير متكيفة ولا يراه بل رؤية مقتصرة على مراتب الظلال بل القلب لا يرى شيئاً من ذوات الممكنات أيضاً فإن حصول الأشياء في الأذهان إنما هي بأشباهها وظلالها لا بأنفسها وما يرى ذات شيء مما يراه إلا بتوسط الباصرة فرؤية الله سبحانه تيسير للمؤمنين في الآخرة بتوسط الحاسة لا في الدنيا إلا ما ذكرنا من الخلاف في حق النبيّ ﷺ خاصة ودركه تعالى مختص بالقلوب دون الأبصار فإنه تعالى لا تدركه الأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة فرؤية القلب سواء كانت بتوسط البصر أو بلا توسط قد يعتبر به الغلط بتخليط الوهم أو

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٩١، والترمذي في تفسير سورة ٥٣، باب ٧، وأحمد في المسند ٥/ ١٥٧، ١٧١، ١٧٥.

(٢) روي الحديث بلفظ: «إذا حاك في صدرك شيء فدعه» أخرجه أحمد في المسند ٥/٢٥١، ٢٥٢، والحاكم في المستدرك ١/ ١٤، ٢/ ١٣، ٤/ ٩٩.

(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ١٣١، ١٦٠، ٧/ ٤٢، ٦٠، ٢٩٨.

تلبيس الشيطان أو زيغ البصر وطغيانه عما يراه وأما دركه البسيط فلا يعتبر به شيء من ذلك ويتفرع عليه الاطمئنان بالحق وتصديقه والإباء عن الباطل وتكذيبه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ معطوف على محذوف، قرأ حمزة والكسائي أفتمرونه على وزن تدعونه بمعنى تغلبونه في المرأ يقال ماريته فمريته بمعنى جادلته فغلبته وعلى هذا التقدير الكلام أتمارونه فتمرونه ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ عدي بعلى لأن الفعل بمعنى الغلبة، وقيل تمرون تجحدون يقال مريت الرجل حقه يعني جحدته والمعنى أتجادلون محمداً فتجحدون صدقه على ما يرى والتعدية بعلى حينئذ أيضاً لتضمن الفعل مع الغلبة فإن المجادل والجاحد يقصدان بفعلهما للغلبة على الخصم وقرأ جمهور القراء أفتمارونه من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة أي استخرج لبنها فإن كلا من المتجادلين يمري ما عند صاحبه يستخرجه وتقدير الكلام حينئذ تنكرون قول محمد فتمارونه عن ما يرى، والاستفهام للتوبيخ والإنكار يعني لا ينبغي الإنكار والجدال فيما يدعي محمد ﷺ رؤيته وأورد صيغة المضارع استحضاراً للحال الماضي وحكاية عنه وجاز أن يراد به التوبيخ على إنكار كل ما أراه محمد ﷺ في الحال أو الاستقبال.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ يعني والله لقد رأى محمد ﷺ ربه جل وعلا أو جبرئيل على صورته التي خلق عليها على اختلاف القولين المذكورين ﴿نَزْلَةً﴾ فعلة من النزول كجلسة من الجلوس منصوب على الظرفية من رآه تقديره وقت نزلة أخرى أو على المصدرية تقديره نازلا نزلة أخرى وفي إيراد نزلة إشعار بأن الرؤية في هذه المرة كانت أيضاً بالنزول والدنو فإن رؤية البشر الممكن الواجب جل سلطانه إنما يتصور إذا كان البشر الرائي في الأفق الأعلى والدرجة الإنس من درجات الإمكان والله تعالى يتنزل من مراتب التنزيه إلى نوع من درجات التشبيه فيرى من وراء حجب الظلال أو الصفات ولا يذهب عليك من مقالتي هذا حدوث أمر في جانبه تعالى ذلك علواً كبيراً بل النزول والعروج كلها في مرتبة العلم يظهر بحدوث صفاء في مرآة قلب المتجلى له وقد مر البحث عن مثله في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ﴿أُخْرَىٰ﴾ هذا يدل على تعدد الرؤية ولا يدل على الانحصار في المرتين فما روي عن ابن عباس وكعب الأحبار أنه رأى ربه مرتين محمول على بيان أدنى ما يتصور فيه التعدد وهذه الآية حكاية عن رؤية النبيّ ﷺ ربه ليلة المعراج ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ والظاهر أن ما حكي عن ابن عباس وكعب رؤيته ﷺ ربه بعينه هو هذه الرؤية وقوله عند سدرة المنتهى ظرف متعلق يراه أو إضافة السدر إلى المنتهى إضافة موصوف إلى صفة نحو جانب الغرب ومسجد الجامع أجازه الكوفيون وتأويله عند البصر بين سدرة المكان منتهى وجعل المنتهى صفة لها لأنه ينتهي إليها ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ويهبط به من فوقها فيقبض منها وينتهي إليها علم الخلائق وما خلقها غيب ويدل عليه ما يورد عليك من حديث ابن مسعود وكعب.

قصة المعراج

في الصحيحين[(١)] عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبيّ ﷺ قال: «بينما أنا في الحطيم مضطجعاً إذ أتاني آتٍ فشق بين هذه وهذه يعني من ثغرة نحره إلى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد» وفي رواية «ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملىء إيماناً وحكمة ثم أتيت بداية دون البغل وفوق الحمار يقال له البراق ليضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبرئيل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل من هذا؟ قال جبرئيل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل وقد أرسلت إليه؟ قال نعم، قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فذكر نحو ما ذكر في السماء الدنيا وكذا ذكر كل السماء، قال فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة قال هذا يحيى وهذا عيسى فسلم فسلمت عليهما فردا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح وذكر في السماء الثالثة يوسف وفي الرابعة إدريس وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى كل قال مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، قال عليه السلام «فلما جاوزت بكى يعني موسى قيل له ما يبكيك؟ قال أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي ثم صعد بي إلى السماء السابعة فذكر الاستفتاح وغير ذلك نحو ما مر وذكر هناك إبراهيم، قال جبرئيل هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قال هذه سدرة المنتهى فإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران قلت ما هذا يا جبرئيل؟ قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع بي إلى البيت المعمور ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن فقال هي الفطرة أنت عليها وأمتك ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم فرجعت ومررت على موسى فقال بما أمرت؟ قلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فرجعت فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال بما أمرت قلت أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قلت سألت ربي حتى استحييت ولكني

(١) انظر البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥، وبدء الخلق باب ٦، ومناقب الأنصار باب ٤٢، والتوحيد باب ٣٧، ومسلم في الإيمان حديث ٢٦٤، ٢٦٥.

أرضى وأسلم قال فلما جاوزت نادى منادي أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي».

وروى مسلم عن ثابت البناني عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار دون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء» وقال ابن جرير عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ «انتهينا إلى بيت المقدس قال جبرئيل بأصبعه فخرق بها الحجر وشد به البراق قال رسول الله ﷺ ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبرئيل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبرئيل اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء» وساق مثل معنى ما ذكر من الحديث «قال فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير وقال في السماء الثالثة فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا بي بخير ولم يذكر بكاء موسى وقال في السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه وفي رواية قال جبرئيل هذا البيت المعمور يصلّي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لا يعودوا آخر ما عليهم ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى فإذا أوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشَّها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها وأوحى إلي ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى قال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي فقلت يا رب خفف عن أمتي فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت حط عني خمساً، قال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، حتى قال يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فلذلك خمسون من هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عمل بها كتبت له عشراً ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم يكتب له بشيء فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله ﷺ فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه. وفي الصحيحين عن ابن عباس عن أبي ذر يحدث عن النبيّ ﷺ فقال: «ففرج عني سقف بيتي وأنا بمكة فذكر شق الصدر نحو ما ذكر ولم يذكر البراق، قال ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء فلما جئت إلى السماء الدنيا فقال جبرئيل لخازن السماء افتح فذكر نحوه، فلما فتح علونا السماء الدنيا إذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح قلت لجبرئيل من هذا قال هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى، فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه قال وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السادسة.

قال ابن شهاب فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حية الأنصاري كانا يقولان قال النبيّ ﷺ ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، وقال ابن حزم وأنس ففرض الله على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى قال ما فرض الله لك قلت خمسين صلاة قال فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق فراجعه فوضع شطرها فرجعت إلى موسى فقلت وضع الله شطرها فقال ارجع إلى ربك فإن أمتك لا يطيق فراجعته فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لديَّ، فرجعت إلى موسى فقال راجع ربك، فقلت استحييت من ربي فانطلق بي حتى انتهى بي إلى السدرة وغشيها ألوان لا أدري ما هي ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذا اللؤلؤ وإذا ترابها المسك، وروى معمر عن قتادة عن أنس أن النبيّ ﷺ أتي البراق ليلة أسري به مسرجاً ملجماً فأصعب عليه فقال جبرئيل: أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقاً. وروى مسلم عن ابن مسعود قال لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى السدرة المنتهى وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يعرج بها من الأرض فيفيض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، وذكر البغوي أنه قال هلال بن يسار سأل ابن عباس كعباً عن سدرة المنتهى وأنا حاضر فقال إنها سدرة في أصل العرش وإليها ينتهي علم الخلائق وما خلقها غيب لا يعلمه إلا الله، قلت ومعنى قوله إليها ينتهي علم الخلائق يعني أن بعض المخلوقات يعني الملائكة يحضرون إلى سدرة المنتهى ولا يتجاوزها أحد من الخلائق فما ورائها غيب من كل وجه وأما سدرة المنتهى فهي وإن كان غيباً بالنسبة إلى البشر فليس يغيب بالنسبة إلى بعض الملائكة، وروى البغوي بسنده عن أسماء بنت أبي بكر قالت سمعت النبيّ ﷺ يذكر سدرة المنتهى قال: «يسير الراكب في ظل الغصن مائة عام ويستظل في الغصن منها مائة ألف راكب فيها فراش من ذهب كأن ثمرها القلال»، وقال مقاتل هي شجرة تحمل الحلي والحلل والثمار وجميع الألوان لو أن ورقة منها وضعت في الأرض أضاءت لأهل الأرض وهي طوبى التي ذكرها الله في سورة الرعد، ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ وإضافة جنة إلى المأوى أيضاً من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة جوزها الكوفيون ويؤوله البصريون بجنة المكان المأوى، قال عطاء عن ابن عباس معناه جنة يأوى إليها جبرئيل والملائكة وقال مقاتل والكلبي تأوي إليها أرواح الشهداء وجنة المأوي مبتدأ أو فاعل للظرف والجملة صفة لسدرة إن كانت الإضافة للعهد الذهني في قوة النكرة وإلا فهي حال عنها ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ الظرف متعلق يراه الموصول مع الصلة فاعل يغشى استعمال الموصول للتفخيم وصيغة المضارع بمعنى الماضي والمعنى غشيها ما لا يستطيع أحد أن ينعتها لحسنها أو لكثرة عددها أو لعدم درك كنهها وقد مر في حديث المعراج عن أنس فلما غشيتها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق يستطيع أن ينعتها من حسنها، وروى مسلم عن ابن مسعود قال: «إذ يغشى السدرة ما يغشى قال فراش من ذهب» وكذا ذكر البغوي قول ابن عباس قال البغوي عن الحسن قال غشيها نور رب العزة فاستنارت قلت لعل نور رب العزة كعزة كذا كنى عنها بفراش من ذهب وقال مقاتل تغشيها الملائكة أمثال الغربان.

وقال السدي من الطيور وروي عن أبي العالية عن أبي هريرة(رض) أو غيره قال غشيها نور الخلائق وغشيتها الملائكة من حب الله أمثال الغربان حتى يقعن على الشجر، قلت: ولا منافاة بين تغشية نور رب العزة وتغشية الملائكة فإن تغشية الملائكة إنما هي لأجل تغشية نور رب العزة كما يدل عليه قوله غشيها من الملائكة من حب الله أمثال الغربان وتغشية النور من قبيل التجليات النورية والله تعالى أعلم قال البغوي يروى في الحديث رأيت على كل ورقة منها ملكاً قائماً يسبح الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ يعني ما مال بصر النبيّ ﷺ يميناً ولا شمالاً وما أخطى في النظر بل أثبته إثباتاً صحيحاً ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي ما جاوز عن المحبوب إلى غيره:

آه مـن الـعـشـق وحـالاتـه أحـرق قـلـبـي بـحـراراتـه

مـا نـظـر الـعـيـن إلى غـيـركـم أقـسـم بـالله وآيـاتـه

قيل معناه ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ أي لقد رأى محمد ﷺ ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ مفعول لرأى ومن آيات ربه حال منه مقدم عليه ومن للتبعيض يعني والله لقد رأى محمد الكبرى من آيات ربه وجاز أن يكون من زائدة وآيات ربه مفعول به الكبرى صفة لها، وجاز أن يكون المفعول محذوفاً تقديره لقد رأى شيئاً من آيات ربه الكبرى والمراد بالآيات العجائب الملكوتية التي رآها في ليلة المعراج في مسيره وعوده من البراق والسماوات والأنبياء والملائكة والسدرة المنتهى وجنة المأوى، روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ قال رأى جبرئيل في صورته له ستمائة جناح، وروى البخاري عنه ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ قال رأى رفرفاً أخضر سد الأفق، وإنما وصف تلك الآيات بالكبرى لتجليات مخصوصة في تلك الآيات وكونها مهبط الرحمة والبركة وإلا فكل ممكن آية كبرى على وجود صانعه ودليل واضح مكتفي لا يحقر منها شيء قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] فإن قيل هذه الآية تؤيد قول من قال إن النبيّ ﷺ إنما رأى مرتين جبرئيل عليه السلام دون الله سبحانه لأن رؤية الآيات غير رؤية الذات؟ قلنا: رؤية الآيات لا تنافي رؤية الذات بل الآيات قد يتجلى فيها الذات كما أن الشمس تتجلى في المرآة. فإن قيل قد ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ يعني ما جاوز بصره عن المحبوب إلى غيره فكيف يتصور رؤية الآيات؟ قلت: المقصود من رؤية الآيات إنما هي الذات ومن ثم تكون الآيات مرآة للذات فحين رأى الآيات جاوز نظره عنها إلى الذات وحين رأى الذات لم يتجاوز عنه إلى غيره أصلاً.

مسألة

أجمع المؤمنون من أهل السنة والجماعة أن معراجه ﷺ في اليقظة حق فقيل مسراه ﷺ من المسجد الحرام إلى الأقصى قطع ثابت بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾

[الإسراء: ١] الآية فيكفر جاحده وأما معراجه إلى السماء السابعة وما فوقها فثبت بأحاديث صحاح فيفسق جاحده ولا يكفر والصحيح أن معراجه ﷺ إلى السدرة المنتهى قطع ثابت بهذه الآية يكفر جاحده. فإن قيل ما رواه الشيخان في الصحيحين عن شريك ابن عبد الله قال سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام وساق حديث المعراج بقصته قال فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان قال هذا النيل والفرات ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر قال ما هذا يا جبرئيل؟ قال هذا الكوثر الذي هيأ لك ربك وساق الحديث، وقال ثم عرج بي إلى السماء السابعة وقال: قال موسى رب لم أظن أن يرفع علي أحد ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه ما أوحى، أوحى الله خمسين صلاة كل يوم وليلة قال فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ثم أجبته موسى عند الخمس، فقال يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا عنه وتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبيّ ﷺ إلى جبرئيل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبرئيل فرفعه عند الخامسة فقال يا رب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فخفف عنا فقال الجبار يا محمد فقال لبيك وسعديك، قال إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك، فقال موسى ارجع إلى ربك فاسأله فليخفف عنك أيضاً قال رسول الله ﷺ قد والله استحييت من ربي مما اختلف إليه، قال فاهبط باسم الله فاستيقظ وهو في المسجد الحرام.

هذا لفظ البخاري، ورواه مسلم مختصراً يدل على كون المعراج في المنام؟ قلنا: طعن بعض أهل الحديث على هذا الحديث وقالوا وجدنا لمحمد بن إسماعيل ولمسلم في كتابيهما شيئاً لا يحتمل مخرجاً إلا هذا وأحال الآفة فيه إلى شريك بن عبد الله وذلك أنه ذكر فيه أن ذلك قبل أن يوحى إليه، واتفق أهل العلم على أن المعراج كان بعد الوحي بنحو من اثني عشر سنة قبل الهجرة بسنة، وقال بعض أهل الحديث إن هذا كان رؤيا في المنام أراه عز وجل قبل الوحي وهو في المسجد الحرام ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي قبل الهجرة تحقيقاً لرؤياه من قبل كما أنه رأى فتح مكة في المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقه سنة ثمان ونزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] والله تعالى أعلم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ
ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا
تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا
يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ
لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا
ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا
تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

ولما ذكر الله سبحانه رؤية النبيّ ﷺ ربه وآيات ربه وتعلمه ﷺ منه تعالى وتصديق قلبه أردفه بذلك تقبيح الكفار بقصر نظرهم على مجازه لا حقيقة لها فقال ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أنظرتم ما تعبدونه فرأيتم ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها ويزعمون الملائكة بنات الله ويزعمون الأصنام هياكل الملائكة ويقولون الأصنام استوطنها جنيات هن بنات الله واشتقوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فاشتقوا من الله اللات ومن العزيز العزى تأنيث الأعز، وقيل اللات أصله لوية على وزن فعلة من لوى يلوي لأنهم كانوا يلوون عليها أي يطوفون حولها قلبت الواو ألفاً وحذفت الياء على خلاف قياس ووضعت تاء التأنيث مكانها فكتبت طويلاً، قرأ ابن عباس ومجاهد وأبو صالح ورويس بتشديد التاء على أنه سمي به لأنه صورة رجل كان يلت السويق بالسمن ويطعم الحاج فلما مات كانوا عكوفاً على قبره ثم كانوا يعبدونه وقال قتادة كانت اللات صنماً لثقيف بالطائف، وقال ابن زيد كانت بيت بنخلة تعبده قريش. وأما العزى قال مجاهد هي شجرة بغطفان كانوا يعبدونها وقال ابن إسحاق كانت بيتاً بنخلة وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان حلفاء بني هاشم كانت أعظم أصنام قريش وجميع كنانة كان عمرو بن لحي قد أخبرهم أن الرب يشتي بالطائف عند اللات ويصيف بالعزى فعظموهما وبنوا لهما بيتاً وكانوا يهدون إليه كما يهدون إلى الكعبة، وروى البيهقي عن أبي الطفيل بعث رسول الله ﷺ يوم فتح مكة خالد بن الوليد فأتاها خالد فقطع السمرات وهدمها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال هل رأيت شيئاً قال لا قال فإنك لم تهدمها فرجع خالد وهو مستيقظ فلما رأت السدنة خالداً انبعثوا في الحيل وهم يقولون يا عزى خليه يا عزى عوديه وإلا فموتي برغم فخرجت إليه سوداء عريانة ناشرة الرأس تحثو التراب على رأسها ووجهها فجرد سيفه وهو يقول كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك فضربها بالسيف فخبر بها باثنين ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره قال نعم تلك العزى قد يئست أن تعبد ببلدكم أبداً.
وقال الضحاك هي صنم بغطفان وضعها سعد بن ظالم الغطفاني وذلك أنه قدم مكة فرأى الصفا والمروة ورأى أهل مكة يطوفون بينهما فعاد إلى بطن نخلة وقال لقومه: إن لأهل مكة الصفا والمروة وليست لكم ولهم إله يعبدونه وليس لكم قالوا فما تأمرنا قال أنا أصنع لكم كذلك فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة نقلها إلى النخلة فوضع الذي أخذ من

الصفا فقال هذا الصفا ثم وضع الذي أخذ من المروة فقال هذه المروة ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها إلى شجرة فقال هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة فأمر برفع الحجارة وبعث خالد بن الوليد إلى العزى فقطعها.

﴿وَمَنَوٰةَ﴾ قرأ ابن كثير بمد وهمزة على أنه مفعلة من النوء كأنهم يستمطرون الأنواء عندها تبركاً بها أصله منواة قلبت الواو ألفاً بعد ثقل حركتها إلى ما قبلها والباقون بلا مد وهمزة فهي فعلة من مناة إذا قطعه فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين، قال قتادة هي لخزاعة كانت بقديد وقالت عائشة(رض) في الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت حذو قديد، وقال ابن زيد بيت كان بالمشال تعبده بنو كعب وقال الضحاك صنم لهذيل وخزاعة يعبدها أهل مكة وقال بعضهم اللات والعزى ومناة كانت في جوف الكعبة يعبدونها. ذكر محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد أنه بعث رسول الله ﷺ حين فتح مكة سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة وهو بالمشلل وهو الجبل الذي يهبط منه إلى قديد لست بقين من رمضان في فتح مكة وكانت مناة للأوس والخزرج وغسان فخرج سعد في عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعليها سادن فقال السادن ما تريد؟ قال هدم مناة، قال وأنت ذاك فأقبل سعد يمشي إليها وتخرج امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها فقال السادن مناة دونك بعض غضبانك ويضربها سعد بن زيد الأشهلي فقتلها ويقبل إلى الصنم معه أصحابه فهدموه.
اختلف القراء في الوقف على اللات ومناة فوقف بعضهم عليهما بالهاء وبعضهم بالتاء، وقال بعضهم ما كتب في المصحف بالتاء يعني اللات يوقف بالتاء وما كتب بالهاء يعني مناة يوقف عليه بالهاء ﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾ صفة لمناة أي الثالثة للصنمين المذكورين ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صفة لمناة بعد صفة للتأكيد أو الأخرى من التأخر في الرتبة واللات والعزى ومناة منصوبان على أنها مفعول أول لرأيتم ومفعوله الثاني محذوف تقديره أنظرتم ما تعبدونه فرأيتم اللات والعزى ومناة بنات الله تعالى البتة مستحقة للعبادة يعني ليس كذلك والله تعالى أعلم، قال الكلبي كان المشركون بمكة يقولون الأصنام والملائكة بنات الله وكان الرجل منهم إذا بشر بالأنثى كره فقال الله تعالى منكراً عليهم ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ قال ابن عباس وقتادة أي قسمة جائرة حيث جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم، وقال مجاهد ومقاتل أي قسمة عوجاً، وقال الحسن غير معتدل، قرأ ابن كثير ضئزى بالهمزة من ضئزه إذا ظلمه على أنه مصدر لعت به مبالغة يعني قسمة ظالمة والباقون بالياء، قال الكسائي يقال ضاز يضيز ضازاً وضاز يضوز ضوزاً وضاز يضاز ضازاً إذا ظلم ونقض، قلت: ليس هذا ضاز ويضوز بل هو يائي من ضاز يضيز على وزن باع يبيع أو ضاز يضاز على وزن نال ينال وأصل ضيزى فُعلى بضم الفاء لأنها صفة والصفات لا تكون إلا على فعلى بضم الفاء كحبلى وأنثى أو فعلى بفتح الفاء نحو غضبى وسكرى وعطشى وليس في كلام العرب فعلى بكسر الفاء في النعوت وإنما يكون في الأسماء كذكرى وشعرى وإنما كسر الضاد هاهنا لئلا تنقلب الياء واواً فيلتبس بناؤه كذا قالوا في جمع الأبيض بيض والأصل بضم الفاء مثل حمر وصفر.

﴿إِنْ هِيَ﴾ الضمير للأصنام فإن كان المراد بالأصنام أجرام الحجارة فالمعنى ما تلك الحجارة باعتبار الألوهية شيئاً مستحقاً للألوهية ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ جملة سميتموها الخ وجملة ما أنزل الله صفتان لأسماء والضمير للأصنام مبتدأ والمستثنى المفرغ خبره والمعنى ما تلك الحجارة آلهة لا آلهة اسمية باصطلاحكم من غير داع إليه وما جعل الله على ألوهيتها واستحقاقها للعبادة حجة، وجاز أن يكون الضمير للأصنام باعتبار ما يدعي الكفار أنها حقائق ملكيته أو غير ذلك حالة فتلك الأصنام وهي بنات الله وشفعاء فالمعنى ما هي شيئاً في الواقع إلا أسماء بلا مسمى تخيلتم وجودها وسميتموها بأسماء مثل اللات والعزى وبنات الله وشفعاء وحالة في الأصنام ما أنزل الله على وجودها برهاناً، وجاز أن يكون الضمير راجعاً إلى الأسماء المذكورة، والمعنى ليست الأسماء المذكورة من اللات والعزى شيئاً إلا أسماء مجعولة لكم من غير استحقاق ومنشأ انتزاع فإنهم يطلقون اللات باعتبار استحقاقها الألوهية والعكوف عليها والعزى بعزتها ومناة لاستحقاقها التقرب إليها بالقرابين، وجاز أن الضمير راجعاً إلى الصفة التي يصفونها بها من كونها آلهة وبنات الله وشفعاء يعني ليست تلك الصفات التي تصفونها بها إلا أسماء من غير حقيقة وصدق في نفس الأمر ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي الكفار في تسميتها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الحاصل بتقليد الآباء من غير دليل صحيح أو المعنى إلا توهماً بإطلاق ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ يعني ما تشتهيه أنفسهم الجملة بيان أو بدل من قول ما أنزل الله بها من سلطان فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وإشارة إلى ترك مخاطبة هؤلاء السفهاء كما يصرح فيما بعد بقوله فأعرض عمن تولى ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي ما يهتدى به إلى الحق القطع يعني الرسول والكتاب فلم يتبعوه وتركوه والجملة معترضة ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أم منقطعة ومعنى بل فيه للابتداء ومعنى الهمزة للإنكار يعني ليس للإنسان كل ما يتمناه والمراد نفي طمعهم في شفاعة الأصنام وقولهم ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ونحوها ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ الفاء للسببية والجملة تعليل للنفي المفهوم مما سبق يعني ليس للإنسان كل ما يتمناه بأن الدار الآخرة والدار الأولى كل واحدة منهما مملوكة لله مختص به يعطيهما من يشاء ويمنعهما ممن يشاء لا دخل في منعه وإعطائه لتمني متمن ولا لشيء آخر غير إرادته تعالى ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ كائن ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ من الغناء ولا ينفع في حين من الأحيان ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من الملائكة أن يشفع أو من الناس أن يشفع له ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ بشفاعة له مع كونهم عباد الله المكرمين المقربين فكيف يرجون هؤلاء شفاعة الأصنام والآية رد لقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وقال البغوي معناه كم من ملك في السماوات ممن يعيدهم هؤلاء الكفار ويرجون شفاعتهم عند الله يعني شفاعتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني كفار مكة والتعبير بالموصول لبيان جهلهم ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي كل واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ حيث يقولون إنها بنات الله لما كان هذا القول في

غاية الاستبعاد وجرياً بالإنكار أورد الكلام بالاستئناف والتأكيد بأن واللام جريا للسامع مجرى المنكر ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بهذا القول ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ الجملة حال من فاعل يسمون ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي لهؤلاء الكفار الجهال ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الحاصل بالتقليد أو التوهم الباطل من غير دليل وهذه الجملة بيان وتأكيد لقوله وما لهم به من علم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ إما منصوب على المصدرية ومن الحق ظرف لغو متعلق بلا يغني وإما منصوب على المفعولية ومن الحق حال منه والمراد بالحق العلم لأنه عبارة عن الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع والواقع هو الحق، والمعنى أن الظن لا يغني من العلم شيئاً من الغناء أو لا يفيد شيئاً من العلم يعني لا يقوم الظن الحاصل بالتقليد ونحوه مقام العلم الحاصل بدليل قطع سمعي أو عقلي فلا يجوز للعاقل اتباع الظن بل يجب طلب اليقين والجملة معترضة لتقبيح الكفار في اتباع الظن ولما كان صلابتهم في اتباع الظن والتقليد أمارة إنكارهم لهذه الجملة أورد هذه الجملة بالتأكيد. فإن قيل جاز في الشرع اتباع الظن في العمليات وغالباً مسائل الفقه مستنبطة من الأدلة الظنية وأيضاً ثبت بأحاديث الآحاد ونحو ذلك كثير من القصص الماضية وتفاصيل نعم الجنة وعذاب جهنم وتفاصيل أخبار يوم المعاد فلو كان الظن لا يفيد شيئاً من العلم لكان تعليمها عبثاً ولا يجوز القول بها ولا العمل بالفقه والاعتقاد بها؟ قلنا معنى هذه الآية أنه لا يجوز اتباع الظن فيما يعارضه العلم الحاصل بدليل قطعي وإن الظن لا يفيد فائدة العلم إذ لا شك أن الأضعف لا يصادم الأقوى فمقتضى هذه الآية أن العقائد الحقة الثابتة بالأدلة القطعية العقلية أو الآيات المحكمات والأخبار المتواترات السمعية لا يجوز تركها باتباع الظن ويجب ما أمكن تحصيل العلم من الأدلة القطعية والعمل بها وفيها لا يوجد دليل قطعي فالعقل يحكم الجزم والاحتياط يوجب العمل بدليل ظني أي ما يفيد غلبة الظن بطريق صحيح مثلاً إذا ثبت بدليل ظني أن الوتر واجب وأن صلاة الضحى سنة وأن البنج حرام وأن البيع بشرط فاسد ممنوع وليس هاهنا دليل قطعي يعارض هذا الظن، فالعقل يحكم أن لا يترك الوتر ولا يشرب البنج، ولا يباع بالشرط الفاسد مخافة العذاب وأن يصلّي الضحى رجاء للثواب لأن احتمال جلب المنفعة عند تيقن عدم المضرة كان للإتيان واحتمال المضرة كان للاجتناب كما أن احتمال الحية في الحجر كاف للاجتناب عن وضع الأصابع هناك وأيضاً ثبت بالأدلة القطعية من الأحاديث المتواترة بالمعنى بإجماع الأمة وبقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] وقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وجوب اتباع أحاديث الآحاد والقياس عند عدم معارضته ما هو أقوى منه فالظن في المسائل الفقهية إنما هي في الطريق وبعد ثبوت الظن الصحيح وجوب العمل بها ثابت بدليل قطعي وأخبار المبتدأ والمعاد الثابتة بالنصوص الظنية قطعيات في القدر المشترك منها موجبة للعلم وأما تفاصيلها فغير معارضة بدليل أقوى منه فيجوز استفادة الترغيب أو للترهيب منها والله تعالى أعلم. وقيل المراد بالحق في الآية العذاب واللام في الظن للعهد ومعنى الآيتان ظن الكفار الحاصل بتقليد الآباء أو التوهم لا

يدفع شيئاً من العذاب أو لا يدفع العذاب شيئاً من الدفع ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني القرآن أو الإيمان أو عن الإشتغال بذكر الله ﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾ شيئاً ﴿إِلَّا﴾ شهوات ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ انهمك فيها بحيث كان منتهى همته مبلغ علمه الدنيا فحسب الفاء للسببية والموصول وضع موضع المضمر لتأكيد سببية الأعراض يعني إذا حملت جهلهم وسفاهتهم وسخافات عقلهم أنهم يتبعون الظن ويتركون ما جاءهم من ربهم الهدى ويختارون عبادة حجارة لا تضر ولا تنفع ويتولون عن الاشتغال بالرحمن الواحد القهار فأعرض عنهم حيث لا تفيد دعوتك فيهم فإنهم كالأنعام بل هم أضل ولما كان بعض حركاتهم وسكناتهم مفيدة في الدنيا دالة على إدراكاتهم موهمة لهم نصيباً من العقل، قال الله تعالى لدفع ذلك الوهم قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني أمر الدنيا وكونها شبهة ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ يعني لا يتجاوز علمهم وعقلهم من العلم بالأمور المعاشية والتعقل بها وذلك غير معتد به عند الله اعلم أن العلم والعقل كل منهما مخلوقة لله تعالى على حسب ما أراد وليست الأسباب إلا أسباباً عادية وليست الأسباب أسباباً حقيقة كما زعمته الفلاسفة فالله تعالى أنشأ يخلق العلم بعدما أراد الآيات وإلا فلا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيجازي كلاً على حسب الضلالة واهتدائه هذه الجملة وعد ووعيد تعليل لما سبق من الأمر بالإعراض يعني لا تهتم بهم نحن نكفيهم للجزاء.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً عطف على الجملة السابقة يعني هو الأعلم بهم وهو إلهكم وخالقهم يفعل بهم ما يشاء وما تقتضيه الحكمة ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ اللام متعلق بمضمون الجملتين السابقتين يعني خلق العالم وميز الضال من المهتدي وحفظ أحوالهم ليجزي الذين أساؤوا بالشرك والعصيان بسبب أعمالهم من الإشراك والمعاصي ويجزي الذين أحسنوا أعمالهم بالإخلاص بالحسنى أي بالمثوبة الحسنى يعني الجنة أو بالأحسن من أعمالهم وهي الإخلاص أو لسبب الأعمال الحسنى ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ بدل من الذين أحسنوا أو خبر لمبتدأ محذوف أي هم الذين يجتنبون ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف كبير الإثم على صيغة الآخر أو على إرادة الجنس فهو إضافة صفة إلى موصوفها نحو أخلاق ثياب والمراد بكبير الإثم الشرك فإن الشرك لظلم عظيم وقرأ الباقون كبائر بصيغة الجمع أضاف أفراد الكبائر إلى جنسه على طريقة كرام البشر وجياد الدرهم وقد ذكر تحقيق الكبائر من الذنوب في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ إما عطف تفسيري أو المراد أفحش من الكبائر خصوصاً قيل أريد به ما شرع فيه الحد ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ يعني ما صدر من العبد بلا إصرار ثم تاب عنه ولا يكون له عادة وإقامة عليه بل حيناً بعد حين يقال فلان يفعل كذا أي حيناً بعد حين كذا قال الجوهري، قال البغوي وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عن عطاء عن ابن عباس، قال السدي قال أبو صالح سئلت عن قول الله عز وجل ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ فقلت هو الرجل يلم بالذنب أي

يقربه ثم لا يعاوده فذكرت ذلك لابن عباس فقال لقد أعانك عليها الملك الكريم، قال البغوي وروينا عن عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ:

إن تـغـفـر الـلّـهـم تـغـفـر جـمـا وأي عـبـد لـك لا ألـمـا[١]

فالاستثناء متصل كما هو الأصل، قيل اللمم الصغار من الذنوب كذا في القاموس فهو كالنظرة والغمزة والقبلة وما كان دون الزنا، قال البغوي وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي ورواته طاوس عن ابن عباس، روى البخاري عن ابن عباس قال ما رأيت أشبه باللمم بما قال أبو هريرة عن النبيّ ﷺ «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدركه ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تمني وتشتهي والفرج يصدق ذلك ويكذبه»[٢] ورواه سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ وزاد «العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا» وقال الحسن بن الفضل اللمم النظرة من غير تعمد فهو مغفور فإن عاد النظرة فليس بلمم وعلى هذا اللمم أخص من صغائر الذنوب، وقال سعيد بن المسيب ما لمّ على القلب أي خطر وهذا يناسب ما قال الجوهري من قولك ألممت بكذا أي أنزلت به وقاربته من غير موافقة وعلى هذه الأقوال الاستثناء منقطع، وقال الكلبي اللمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة فذلك الذي تكفره الصلاة ما لم تبلغ الكبائر والفواحش والوجه الآخر هو الذنب العظيم الذي يلم به المسلم مرة فيتوب منه، قلت: وقول الكلبي هذا ليس قولاً مغايراً للأقوال وإلا يلزم عموم المشترك أو الجمع بين الحقيقة والمجاز بل هو اختيار للقولين الأولين على وجه الاحتمال كما روى القولين المذكورين عن أبي هريرة وابن عباس(رض) والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ يغفر لمن يشاء ما يشاء من الذنوب صغائرها وكبائرها بتوبة وبلا توبة عقب الله تعالى وعيد المسيئين ووعد المحسنين بهذه الآية لئلا ييئس صاحب الكبيرة من رحمته ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى كما قال به أهل الهواء من المعتزلة، أخرج أبو نعيم عن علي (رض) قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تبارك وتعالى أوحىٰ إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عند الحساب يوم القيامة ما أشاء أن أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيتي من أمتك لا تلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي»[٣] والله تعالى أعلم، ثم عقب ذلك قوله ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي بصنيعكم وسعادتكم وشقائكم وما يصير إليه أمركم وأفعل هاهنا بمعنى الفعيل إذ لا علم لأحد غير الله تعالى بما يصدر من الإنسان قبل وجوده كما

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٥٣، باب ٩.
(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان باب ١٢، والقدر باب ٩، ومسلم في القدر حديث ٢٠.
(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ١٩٥.

يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ أي أنشأ أباكم آدم ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ فإن علمه تعالى بالأشياء قديم وقد قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» قال «وعرشه على الماء»[١] رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر، وقال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال ما اكتب؟ قال أكتب القدر فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[٢] رواه الترمذي من حديث عبادة بن الصامت، وقال هذا حديث غريب إسناده، وقال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل ففيم العمل يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار»[٣] رواه مالك والترمذي وأبو داود من حديث عمر بن الخطاب.

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ معطوف على إذ أنشأكم وكلا الظرفين متعلق بأعلم. عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[٤] متفق عليه ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا تثنوا عليها بزكاء العمل وزيادة الخير أو بالطهارة عن المعاصي والرذائل إذ لا علم لكم بعواقب أموركم، قال الحسن علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة فلا تزكوا أنفسكم فلا تبروها عن الآثام ولا تمدحوها بحسن أعمالها وكذا قال ابن عباس قال الكلبي ومقاتل كان الناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخرج الواحدي والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبي صغير هو صديق فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو

---

(١) أخرجه مسلم في القدر حديث ١٦.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٦، والترمذي في القدر باب ١٧، وتفسير سورة ٦٨، وأحمد في المسند ٥/ ٣١٧.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٦، والترمذي في تفسير سورة ٧، باب ٢، ومالك في القدر حديث ٢.

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٨، وبدء الخلق باب ٦، وأحاديث الأنبياء باب ١، والقدر باب ١، ومسلم في القدر حديث ١.

سعيد» فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾ الآية ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ فإنه يعلم من يختم له منكم على التقوى وإخلاص العمل قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام.

﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الاستفهام للتعجب والفاء للعطف على محذوف يعني أنظرت يا محمد ﴿الَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ عن اتباع الحق والثبات عليه يعني الوليد بن المغيرة كان قد اتبع النبيّ ﷺ على دينه فعيره بعض المشركين وقال لم تركت دين الأشياخ وضللتهم قال إني خشيت عذاب الله فضمن الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله فرجع الوليد إلى الشرك ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ الذي عيّره بعض ذلك المال الذي ضمنه ومنعه فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ أدبر عن الإيمان وأعطى صاحبه ﴿قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ أي بخل بالباقي كذا قال البغوي، وأخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه قال إن رجلاً أسلم فلقيه بعض من يعيره فقال تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار، قال إني خشيت عذاب الله، قال أعطني شيئاً وأنا أحمل كل عذاب كان عليك، فأعطاه شيئاً فقال زدني فتفاسر حتى أعطاه شيئاً وكتب له كتاباً وأشهد له ففيه نزلت ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الآية، وقال مقاتل أعطى الوليد قليلاً من الخير بلسانه ثم أكدى قطعه وأمسك ولم يتم على العطية، وقال السدي نزلت في العاص بن وائل السهمي وذلك أنه ربما يوافق النبي ﷺ في بعض الأمور وقال محمد بن كعب القرظي نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال ما يأمرنا محمد إلاّ مكارم الأخلاق فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ من الإقرار بالحق وأكدى أي لم يؤمن ومعنى أكدى قطع وأصله من الكدية وهي حجر صلب يظهر في البئر يمنع من الحفر يقول العرب أكدى الحافر وأجبل إذا بلغ في الحفر الكدية والجبل ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ استفهام للإنكار ﴿فَهُوَ يَرَىٰ﴾ الفاء للسببية يعني إن كان عنده علم الغيب فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه إذا أشركه لما أخذ من ماله.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ أي لم يخبر ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ يعني أسفار التوراة ﴿و﴾ صحف

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ ما أمره الله به وأتمه حتى قام بذبح ابنه وبلغ رسالات به واحتمل من الخلق أذى حتى صبر على نار نمرود وابتلاه ربه بكلمات فأتمهن والتوصية الإتمام، وروى البغوي بسنده عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال: «وإبراهيم الذي وفى قال صلّى أربع ركعات أول النهار»(١) وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم لم سمي إبراهيم خليل الله الذي وفى إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون حتى ختم الآية»(٢) وروى الترمذي عن أبي الدرداء وأبي ذرعن رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى أنه قال «يا ابن أدم اركع لي أربع ركعات أول النهار أكفك آخره»(٣) رواه أبو داود والدارمي عن نعيم الغطفاني وأحمد عنهم وقدم موسى لأن صحفه يعني التوراة كان أشهر، وأم قيل منقطعة لأن من شرط المتصلة أن يليه أحد المتساويين والآخر الهمزة وهاهنا ليس كذلك، قلت: جاز أن يقال في تأويل الآية أعنده علم الغيب بتوسط الأنباء أو بلا توسط بأنه يتحمل عنه غيره أم ليس عنده علم الغيب الحاصل بتوسط الأنباء والكتب أيضاً بأنه لا يتحمل أحد عن غيره والاستفهام للانكار يعني ليس عنده علم الغيب يتحمل أحد عن غيره وعنده علم حصل بالتواتر والشهرة بما في الكتب السماوية بعدم التحمل ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أي لا تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ نفس حاملة ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ يعني لا يؤخذ نفس بإثم غيره أن مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشأن محذوف والجملة خبره وهي مع اسمها وخبرها في محل الجر بدلاً مما في صحف موسى أو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو كأنه قيل ما في صحفها فأجاب به. قال البغوي روى عكرمة عن ابن عباس قال كانوا قبل إبراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره وكان الرجل يقتل بقتل أبيه وابنه وأخيه وامرأته وعبده حتى جاء إبراهيم فنهاهم عن ذلك وبلغهم عن الله أن لا تزر وازرة وزر أخرى، قلت: لم يكن ذلك حكماً شرعياً بل حكماً جاهلياً كما كان قبل مبعث النبيّ ﷺ أيضاً في الأوس والخزرج كان أحد الحيين شريفاً ذا ثروة من الأخرى فكانوا يقتلون بامرأة من الشريف رجلاً من الآخر وبعبد حر وبواحد اثنين حتى نزلت ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقد ذكرنا القصة في سورة البقرة، وهذه الآية لا يخالف قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] وقوله ﷺ «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»(٤) أخرجه أحمد ومسلم من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه فإن ذلك للدلالة والتسبب الذي هو وزره ولذا ورد في الحديث «من غير أن

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٣٩، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١١٧، والطبري في تفسيره ١/٤١٧، ٢٧/٤٣.

(٣) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٧٥، والدارمي في الصلاة باب ١٥٠.

(٤) أخرجه مسلم في العلم حديث ١٥، وأحمد في المسند ٤/٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١.

ينقص من أوزارهم شيئاً» وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وقوله ﷺ «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»(١) متفق عليه من حديث ابن عمر محمول على ترك الأمر بالمعروف نحو قوله ﷺ «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوه على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»(٢) رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث أبي بكر الصديق.

مسألة: اختلف أقوال السلف في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه وقد ورد في الصحيحين عن عبد الله بن مليكة قال توفيت بنت لعثمان بن عفان بمكة فجئنا لنشهدها وحضر ابن عمر وابن عباس فقال ابن عمر لعمر بن عثمان وهو مواجهه ألا تنتهي عن البكاء فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه» فقال ابن عباس قد كان يقول بعض ذلك ثم حدث وقال لما أن أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول واأخاه واصاحباه فقال عمر يا صهيب أتبكي علي وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه» فقال ابن عباس فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة فقالت يرحم الله عمر لا والله ما حدث رسول الله ﷺ إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه ولكن إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه وقالت عائشة حسبكم القرآن ولا تزر وازرة وزر أخرى، قال ابن عباس عند ذلك والله أضحك وأبكى(٣) قال ابن أبي مليكة فما قال ابن عمر شيئاً، قلت وتخطئة عائشة عمر(رض) ضعيف وقد كان عمر أفقه من عائشة وكانت شهادته شهادة الإثبات وتأيد حديث عمر بأحاديث أخر منها حديث المغيرة بن شعبة، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه»(٤). ومنها حديث أبي بكر الصديق عن النبيّ ﷺ أخرجه أبو يعلى بلفظ: «الميت ينضح عليه الحميم ببكاء الحي»(٥)، ومنها حديث أنس وعمران بن حصين عن ابن حبان في صحيحه وحديث سمرة بن جندب عند الطبراني في الكبير وحديث أبي هريرة عند أبي يعلى فظهر أن الحديث صحيح بقي الكلام في تعارض الحديث بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فقال بعض العلماء إن التعذيب بالبكاء مختص بالكافر أو بمن أوصى به لا بسبب البكاء والباء للحال أي يعذب حال بكائهم عليه والقولان عن عائشة لا يصحان لأن القول باختصاص التعذيب بالكافر لا يدفع التعارض لأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يعم المؤمن والكافر وألفاظ الحديث ببعض طرقها يأبى عن كون الباء للحال ألا ترى أن قوله «ينضح الحميم ببكاء الحي» صريح في التعذيب في الآخرة فإن الحميم إنما هو في الجحيم لا في الغير

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن باب ١٩، وأحمد في المسند ٢/ ١١٠.
(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم باب ١٧، والترمذي في الفتن باب ٨، وأحمد في المسند ١/ ٧.
(٣) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٣٣، ومسلم في الجنائز حديث ٢٣.
(٤) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٣٤، ومسلم في الجنائز حديث ٢٨، والترمذي في الجنائز باب ٢٣، وأحمد في المسند ٢/ ٦١، ٤/ ٢٤٥، ٢٥٢.
(٥) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٤٢٤٣٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٦.

فكيف يتحد زمان التعذيب زمان بكاء الحي فلا يتصور كونه حالاً، وقيل المراد بالتعذيب توبيخ الملائكة له بما يندب به أهله الحديث الترمذي والحاكم وابن ماجه مرفوعاً «ما من ميت يموت فتقوم نادبة فتقول واجبلاه واسيداه وشبه ذلك من القول إلا وكل به ملكان يلهزانه وهكذا كنت»(١) قلت وهذا التأويل أيضاً لا يدفع التعارض فإن التوبيخ بفعل غيره أيضاً مما يمنعه لا تزر وازرة وزر أخرى، وقيل المراد بالتعذيب تألم الميت بما يقع من أهله لحديث الطبراني وابن أبي شيبة عن قيلة بنت محترمة أنها ذكرت عند رسول الله ﷺ ولداً لها مات ثم بكت فقال رسول الله ﷺ: «أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبه فيا عباد الله لا تعذبوا أمواتكم»(٢) وهذا القول عليه ابن جرير واختاره الأئمة آخرهم ابن تيمية، وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه رأى نسوة في جنازة فقال ارجعن مأزورات غير مأجورات إنكن لا تفتن الأحياء وتؤذين الأموات، والقول الصحيح في دفع التعارض أن الحديث فيمن كان النوح من سنته أو فيمن أوصى به أو فيمن لم يوص بتركه إذا علم أن من شأن أهله أنهم يفعلون فيكون التعذيب على وزره دون وزر غيره واختار البخاري هذا القول.

﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي إلا سعيه يعني كما لا يؤخذ أحد بذنب غيره لا يثاب بفعل غيره أيضاً عطف على أن لا تزر كلا الحكمين كانا في صحف إبراهيم وموسى ومستدلا بهذه الآية، قال الشافعي لا يثاب أحد بعمل غيره وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد وجمهور الخلف والسلف بخلاف ذلك فقال ابن عباس الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور: ٢١] وقال عكرمة إنها خاصة بقوم إبراهيم وموسى فأما هذه الأمة فلها ما سعت وما سعى لها، وقال الربيع بن أنس المراد بالإنسان هاهنا الكافر وهذا ليس بشيء فإن الكافر لا يثاب بعمل نفسه أيضاً حيث قال الله تعالى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [التوبة: ١٧] وقيل اللام هاهنا بمعنى على أي ليس على الإنسان إلا ما سعى وعلى هذا يكون عطف لا تزر وازرة وزر أخرى عطفاً تفسيرياً. احتج الجمهور على وصول الثواب من غيره بالأحاديث والإجماع أما الأحاديث فمنها حديث أبي سعيد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا قبض الله روح عبده المؤمن صعد ملكان إلى السماء قالا ربنا وكلتنا بعبدك المؤمن نكتب عمله وقد قبضته إليك فأذن لنا أن نسكن الأرض فيقول أرضي مملوءة من خلقي يسبحون ولكن قوما على قبر عبدي فسبحاني وهللاني وكبراني إلى يوم القيامة واكتباه لعبدي»(٣) أخرجه أبو نعيم، وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز باب ٢٤.
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٢٤٢.
(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٢٥٣.

له»[(١)] رواه مسلم وكذا أخرج أحمد عن أبي أمامة، وجه الاحتجاج بهذا الحديث أن الصدقة الجارية وعلم ينتفع به وإن كانا من سعيه ولكن دعاء الولد ليس من عمله وهو ينفعه وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يا رب أني لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك»[(٢)] رواه الطبراني وروي نحوه عن أبي سعيد مرفوعاً وحديث ابن عباس قال قال النبيّ ﷺ: «ما الميت في قبره إلا شبه الغريق المتفوت ينتظر دعوة ملحقة من أب وأم أو ولد أو صديق ثقة فإذا ألحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن الله ليدخل على القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم»[(٣)] رواه البيهقي والديلمي وحديث مرفوعاً «أمتي أمة مرحومة تدخل قبورها بذنوبها وتخرج من قبورها لا ذنوب عليها يمحص عنها باستغفار المؤمنين لها»[(٤)] رواه الطبراني في الأوسط، قال السيوطي وقد نقل غير واحد الإجماع على أن الدعاء ينفع الميت ودليله من القرآن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

قلت: والظاهر أن انتفاع الأموات والأحياء بدعاء الأحياء غير مختصة بهذه الأمة وقد قال نوح عليه السلام: ﴿ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٠] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] وقال يوسف لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: ٩٧، ٩٨] وقال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف: ١٥١] فانظر أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ المذكور في صحف إبراهيم وموسى أنه لا يصل لأحد ثواب حسنات غيره من الصلاة والصوم والصدقة والحج ونحو ذلك ويكون من خصوصيات هذه الأمة المرحومة نسخ ذلك الحكم بقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ من الأحاديث حديث عائشة أن رجلاً قال يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها لم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها قال «نعم»[(٥)] متفق

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية حديث ١٤، وأبو داود في الوصايا باب ١٤، والترمذي في الأحكام باب ٣٦، والنسائي في الوصايا باب ٨، وأحمد في المسند ٢/٣١٦، ٣٥٠، ٣٧٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٥٠٩، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢١٠، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٢٣٥٤.

(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/٣٦٧، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٢٧٨٣.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٤٤٤، والطبراني في المعجم الكبير ١/١٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٤٤٥٤، ٣٧٩٠٦.

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٩٥، والوصايا باب ١٩، ومسلم في الزكاة حديث ٥١، والوصية حديث ١٢، ١٣، وأبو داود في الوصايا باب ١٥، والنسائي في الوصايا باب ٧، وابن ماجه في الوصايا باب ٨.

عليه، وحديث ابن عباس «أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب فأتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن أمي ماتت وأنا غائب فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال «نعم» قال فإني أشهدك أن حائطي صدقة عنها»[١] رواه البخاري، وأخرج أحمد وأربعة عن سعد بن عبادة أنه قال يا رسول الله إن أمي ماتت فأي صدقة أفضل قال «الماء» فحفر بئراً وقال هذه لأم سعد[٢]، وأخرج الطبراني بسند صحيح عن أنس نحوه وحديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «إذا تصدق أحدكم بصدقة تطوعاً فليجعلها عن أبويه فيكون لهما أجرها ولا ينقص من أجره شيئاً»[٣] وأخرج الديلمي نحوه من حديث معاوية بن جندة وحديث أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أهل بيت يموت منهم فيتصدقون عنه بعد موته إلا أهدا له جبرئيل على طبق من نور ثم يقف على شفير القبر فيقول يا صاحب القبر العميق هذه هدية أهداها إليك أهلك فاقبلها فيدخل عليه فيفرح بها ويستبشر ويحزن جيرانه الذين لا يهدى إليهم شيء» رواه الطبراني في الأوسط وحديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «من حج عن والديه بعد وفاتهما كتب الله لهما عتقاً من النار وكان للمحجوج عنهما أجر حجة تامة من غير أن ينقص من أجورهما شيء»[٤] وقال ﷺ: «ما وصل ذو رحم رحمه بأفضل من حجة يدخلها عليه بعد موته في قبره»[٥] رواه البيهقي والأصبهاني بسند فيه مجهولان، وعن زيد بن أرقم عن النبيّ ﷺ «من حج عن أبويه ولم يحجا فيرى عنهما وبشرت أرواحهما في السماء وكتب عند الله برّاً» أخرجه أبو عبد الله الثقفي وحديث عقبة بن عامر أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت أحج عن أمي وقد ماتت قال: «أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته قالت بلى فأمرها أن تحج»[٦]، رواه الطبراني وحديث أنس قال جاء إلى النبي ﷺ قال: إن أبي مات ولم يحج حجة الإسلام فقال «أرأيت لو كان على أبيك دين كنت تقضيه عنه»؟ قال نعم قال: «فإنه دين عليه فاقضيه»[٧] رواه البزار والطبراني بسند حسن، وحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من حج عن ميت فللذي حج عنه مثل أجره»[٨] رواه الطبراني في الأوسط وحديث عطاء وزيد بن أسلم مرسلاً قال جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله أعتق عن أبي وقد مات قال «نعم»[٩] رواهما ابن أبي شيبة، وحديث ابن عباس أنه ﷺ سمع رجلاً يقول لبيك عن شبرمة قال النبيّ ﷺ «ومن شبرمة» قال أخ لي أو قريب قال «أحججت

(١) أخرجه البخاري في الوصايا باب ١٥، ٢٠.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٨٥.
(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٣٨.
(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٣٩.
(٥) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.
(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٢٣٧.
(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ١٤٩.
(٨) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٨٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢٣٤١، ١٢٣٤٢.
(٩) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ١٧٠٥٢.

عن نفسك»؟ قال لا، قال: «حج عن نفسك ثم عن شبرمة»[١] رواه أبو داود وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وقال البيهقي إسناده صحيح، وحديث عمرو بن العاص أنه قال يا رسول الله إن العاص أوصى أن يعتق عنه بأمه نسمة فأعتق هشام منها خمسين قال «لا إنما يتصدق ويحج ويعتق عن المسلم وكان مسلماً بلغه»[٢] رواه أبو الشيخ، وحديث الحجاج بن دينار قال: قال رسول الله ﷺ «إن من البر بعد البر أن تصلي عنهما مع صلاتك وتصوم عنهما مع صيامك وتصدق عنهما مع صدقتك»[٣] رواه ابن أبي شيبة وقد مر حديث بريدة أن امرأة قالت يا رسول الله إن كان على أمي صوم شهرين أفيجزىء أن أصوم عنها قال نعم قالت فإن أمي لم تحج قط أفيجزىء أن أحج عنها؟ قال نعم» رواه مسلم، وحديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[٤] متفق عليه وحديث علي (رض) مرفوعاً: «من مر على المقابر وقرأ قل هو الله أحد أحد عشر مرة ووهب أجره للأموات أعطى من الأجر بعدد الأموات» رواه أبو محمد السمرقندي وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من دخل المقابر ثم قرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وألهاكم التكاثر ثم قال إني جعلت ثواب ما قرأت من كلامك لأهل المقابر من المؤمنين والمؤمنات كانوا شفعاء له إلى الله»[٥] رواه أبو القاسم سعد بن علي، وحديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل المقبرة فقرأ سورة يسۤ خفف الله عنهم وكان له بعدد من فيها حسنات»[٦] أخرجه عبد العزيز صاحب الخلال بسنده وقال السيوطي قد ورد قراءة الفاتحة عند رأس الميت وخواتيم البقرة عند رجله من حديث ابن عمر مرفوعاً وقت الدفن وفواتح البقرة وخواتمها عن حديث العلاء بن اللجلاح مرفوعاً وقال القرطبي في حديث «اقرأوا على موتاكم يس»[٧] فقال الجمهور في حال موته قال ابن عبد الواحد المقدسي عند القبور وقال المحب الطبري في الحالتين وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال يتبع بعد موته العتق والحج والصدقة، وأخرج عن أبي جعفر أن الحسن والحسين كان يعتقان عن علي بعد موته وأخرج ابن سعد عن القاسم بن محمد عن عائشة أعتقت عن أخيها عبد الرحمٰن رقيقاً من تلاده ترجوا أن ينفعه بذلك بعد موته.

وقال الحافظ شمس الدين بن عبد الواحد ما زالوا في كل مصر يجتمعون ويقرؤون لموتاهم من غير نكير فكان ذلك إجماعاً، وأخرج الخلالي عن الشعبي كانت الأنصار إذا

---

(١) أخرجه أبو داود في المناسك باب ٢٦.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ٣٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم باب ٤٢، ومسلم في الصيام حديث ١٥٣، وأبو داود في الصوم باب ٤١، وأحمد في المسند ٦/ ٦٩.

(٥) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٣٧٣.

(٦) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٧) أخرجه البغوي في تفسيره ٦/ ١٧، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٧٨.

مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرؤون القرآن، وفي الإحياء عن أحمد بن حنبل قال إذا دخلتم المقابر فاقرأوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم، وقال البيضاوي في توجيه الآية إنه ما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت فلأن التأدي له كالنائب عنه، وقال بعض العلماء في توجيهها إن انتفاع المؤمن بسعي غيره مبني على إيمانه وهو سعي نفسه فكان سعي غيره تابعاً لسعي نفسه قائماً بقيامه والله تعالى أعلم ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ في ميزانه يوم القيامة إن كان مؤمناً وأما الكافر فيحبط أعمالهم بفوات شرطها وهي النية الخاصة لله تعالى أو يقال الكافر يثاب عليه في الدنيا من أريته الشيء، قلت: والأولى أن يقال السعي هاهنا بمعنى القصد، قال في القاموس سعى يسعى سعياً كرعى قصد وعمل ومشى وعدى وتم وكسب، وقال بعض المحققين السعي المشي السريع ويستعمل للجد في العمل ومعنى الآية ليس للإنسان إلا ما قصد وأراد بفعله فهذه الآية تفيد ما يفيد قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإن لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى الدنيا يصيبها أو المرأة نكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[(١)] متفق عليه من حديث عمر بن خطاب(رض)، فلا تدل هذه الآية على أن عمل أحد لا يفيد غيره كيف وصلاة الجنازة والصلاة على النبيّ ﷺ أمران واجبان وضعتا لانتفاع غير الفاعل والله تعالى أعلم.

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي المؤمن ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ الأتم والأكمل ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ هذا وما عطف عليه كله في صحف إبراهيم وموسى والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء، روى البغوي بسنده عن أبي بن كعب عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ قال لا فكرة في الرب»[(٢)] يعني الفكرة تنتهي إلى الله ويتلاشئ هناك، قال البغوي وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة»[(٣)] كذا ذكر البغوي وروى أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس «تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك»[(٤)].

قلت: يعني الفكرة لا تصل إلى كرسيه فكيف إلى ذاته وهو أجل وأرفع وفي رواية له عنه «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره» وروى أبو نعيم في الحلية عنه «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله»[(٥)] وروى أبو الشيخ عن أبي ذر «تفكروا

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه أكثر من مرة.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٠.

(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ١٦٢، والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ١١٠، ٦/ ١٣٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٥٧٠٦.

(٤) أخرجه ابن حجر في فتح الباري ١٣/ ٣٨٣، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٣٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٥٧٠٤.

(٥) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٥٧٠٥، ٥٧٠٨، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٧١.

في خلق الله ولا تفكروا في الله» قلت: الفكر عبارة عن ترتيب مقدمات لتحصيل مطلوب فترتيب المقدمات لا يتصور إلاّ في آلاء الله وآياته وآثاره والمطلوب ذاته وهناك تنتهي الفكرة فإنه ليس وراء العباد أن قربه وذاته هو الصمد الذي لا يتعمق فيه النظر ونفي الفكرة في ذاته تعالى لا ينافي الوصول إليه بلا كيف بل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يقتضي نهاية السير إلى الذات البحت في الله في اصطلاح الصوفية إنما هو السير في الصفات والشيون والاعتبارات دون الذات البحت المعبر باللاتعين لكن هاهنا سير نظري على ما حققه المجدِّد وقال أكثر المفسرين معنى الآية أن منتهى الخلق ومصيرهم إلى الله تعالى، وقيل منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الآمال والله تعالى أعلم ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ يعني خلق كل ما يعمله العباد حتى الضحك والبكاء قال عطاء بن أبي مسلم يعني أفرح وأحزن، وقال مجاهد أضحك أهل الجنة في الجنة وأبكى أهل النار في النار، وقال الضحاك أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر، روى البغوي بسنده عن جابر بن سمرة قال: «كان أصحاب النبيّ ﷺ يحلون فيتناشدون الشعر ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم معهم إذا ضحكوا يعني النبيّ ﷺ» ورواه مسلم بلفظ كانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم ﷺ[(١)] وفي رواية الترمذي يتناشدون الشعر.

روى البغوي في شرح السنة عن قتادة قال سئل ابن عمر هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون قال نعم والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبل وقال بلال بن سعد يشتدون بين الأغراض ويضحك بعضهم إلى بعض فإذا كان الليل كانوا رهباناً، وروى البخاري عن عائشة ما رأيت النبي ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم[(٢)]، وفي الصحيحين عن جرير قال ما حجبني النبيّ ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم[(٣)] وروى الترمذي عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ[(٤)]، وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال أبو القاسم ﷺ «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً»[(٥)] وكذا روى أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي ذر وزاد «وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصمدات تجأرون إلى الله»[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤٦، باب ٢، والأدب باب ٦٨، وأحمد في المسند ٦/ ٦٦.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٦٢، والأدب باب ٦٨، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٣٥.

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١٠، وأحمد في المسند ٤/ ١٩٠، ١٩١.

(٥) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الكسوف باب ٢، وتفسير سورة ٥، باب ١٢، والنكاح باب ١٠٧، والرقاق باب ٢٧، والأيمان باب ٣، ومسلم في الصلاة حديث ١١٢، والكسوف حديث ١، والفضائل حديث ١٣٤.

(٦) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٩، وابن ماجه في الزهد باب ١٩، وأحمد في المسند ٥/ ١٧٣.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ ما لا روح فيه كالنقطة لنطفة جعله حيواناً والبذر جعله شجراً وقيل أمات الآباء وأحيا الأبناء، وقيل أمات الكافر بالنكرة وإحياء المؤمن بالمعرفة ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ من كل حيوان ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي تصب في الرحم يقال مني الرجل وأمنى قاله الضحاك وعطاء بن أبي رباح وقال آخرون إذا يقدر قال منيت الشيء إذا قدرته ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو النشاءة بالمد والباقون بسكون الشين بلا مد وهما مصدران من نشأ ينشأ يعني الخلق الثاني البعث بعد الموت يوم القيامة أورد كلمة على وهي للوجوب على المجاز لتأكيد الوعد ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ الناس بالأموال وما يدخرونه بعد الكفاية، قال في القاموس تغنى اكتفى بنفقته وفضلت فضله فادخرها والظاهر أن التقدير أغنى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أفقر فحذف أفقر استغناء منه بدلالة الحال، وقال الضحاك أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال وأقنى بالإبل والبقر والغنم، وقال قتادة والحسن أقنى أخدم وقال ابن عباس أغنى وأقنى يعني أعطى فأوصى، وقال مجاهد ومقاتل أقنى أرضى بما أعطى وقنع قال ابن زيد أغنى أكثر وأقنى أقل وقرأ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال الأخفش أقنى أفقر ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ وهو كوكب خلف الجوزاء وهما شعريان يقال لأحدهما العبور وللأخرى القميصا سميت بذلك لأنها أحقر من الأخرى والمختبرة بينهما، وأراد هاهنا الشعرىٰ في العبور وكانت خزاعة تعبدها وأول من سن لهم ذلك رجل من أشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها وخالف قريشاً في عبادة أوثان ولما خالف رسول الله العرب في الدين سموه ابن أبي كبشة لمناسبة مخالفة القوة، وتخصيصها في الذكر هاهنا للإشعار بأنها مخلوقة لله تعالى لا يستحق العبادة مثل اللات والعزى ولعل قوماً عبدوها في زمن إبراهيم عليه السلام أيضاً ولذلك ورد التخصيص بذكرها في صحف إبراهيم وموسى ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهو قوم هود أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح عليه السلام أهلكوا بريح صرصر وكان لهم عقب كانوا عاد الأخرى قرأ نافع وأبو عمرو عاد لولى بحذف الهمزة وإبقاء ضمتها على اللام وإدغام التنوين فيها وأتى قالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو والباقون يكسرون التنوين ويسكنون اللام ويخففون الهمزة بعدها ويجوز في الابتداء بقوله عز وجل الأولى علىٰ مذهب أبي عمرو ثلاثة أوجه الأولى بإثبات همزة الوصل وضم اللام بعدها والثاني لولى بضم اللام وحذف همزة الوصل قبلها استغناء عنها بتلك الحركة وهذان وجهان جائزان في مذهب ورش في مثل هذه الكلمة والثالث الأولى كقراءة الجمهور بإثبات همزة الوصل وإسكان اللام وتحقيق همزة فاء الفعل، وكذلك يجوز في الابتداء بهذه الكلمة على مذهب قالون ثلاثة أوجه أيضاً الأول بإثبات همزة الوصل وضم اللام وهمزة ساكنة عوض الواو والولى بضم اللام وحذف همزة الوصل وهمزة الواو كوجه أبي عمرو الثالث قال الداني وهو عندي أحسن الوجوه واقتبسها بمذهبنا.

﴿وَثَمُودَا﴾ قرأ عاصم وحمزة بغير تنوين ويقفان بغير ألف والباقون بالتنوين ويقفون بالألف وهم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ منهم أحداً ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أهلكهم

﴿مِن قَبۡلُ﴾ عاد وثمود ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ من الفريقين لطول دعوة نوح إياهم وعتوهم على الله المعصية والتكذيب وإيذائهم نوحاً عليه السلام يضربه حتى لا يكون به حراك ويتنفر الناس عنه ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ أي القرى التي ائتفكت أي انقلبت بأهلها وهي قرى قوم لوط ﴿أَهۡوَىٰ﴾ أي أسقط أهوائها جبرئيل عليه السلام بعد رفعها إلى السماء ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ يضع الحجارة المنضودة المسومة فيه تهويل وتعظيم لما أصابهم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي تشكك وتجادل وقال ابن عباس تكذب خطاب لكل احد يعني لا يجوز الشك والمجادلة في آلاء ربك الباهرة والنعماء الظاهرة والقدرة القاهرة بعدما سمعت أحوال الأمم السابقة، قيل أراد بالخطاب الوليد بن مغيرة ﴿هَٰذَا﴾ يعني محمد ﷺ أو القرآن ﴿نَذِيرٌ﴾ مبين ﴿مِّنَ﴾ جنس ﴿ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ أي المنذرين الأولين وقال الأولى على تأويل الجماعة أي من جنس النذرات الأولى قرأ حمزة والكسائي أواخر هذه السورة من قوله تعالى إذا هوى إلى النذر الأولى بالإمالة وأمال أبو عمرو من ذلك ما كان فيه راء كأخرى وشعرى وتتمارىٰ وما عدى ذلك بين بين وورش جميع ذلك بين بين والباقون بإخلاص الفتح ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ يعني دنت الساعة الموصوفة بالدنو في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الجملة حال من الآزفة ﴿كَاشِفَةٌ﴾، أي مظهرة نظيره قوله تعالى ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] إلا هو صفة لموصوف محذوف أي نفس كاشفة وجاز أن تكون التاء فيه للمبالغة ويجوز أن تكون الكاشفة مصدراً كالباقية والعافية والمعنى ليس لها من دون الله كشف لا يكشفها ولا يظهرها غيره، وقال عطاء وقتادة والضحاك ليس لها نفس قادرة على كشف أهوالها وشدائدها إذ غشيت إلا الله تعالى يكشف عمن شاء من المؤمنين ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي القرآن عطف على محذوف تقديره أتسمعون فمن هذا الحديث ﴿تَعۡجَبُونَ﴾ إنكار أو استفهام للتوبيخ ﴿وَتَضۡحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبۡكُونَ﴾، خشوعاً أو تضحكون بما تفرحون من اللذات الدنيوية ولا تبكون تحزناً على ما قصرتم في الطاعة أو أفرطتم في المعصية ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١﴾ أي لاهون غافلون والسمود الغفلة عن الشيء واللهو يقال دع منا سمودك أي لهوك هذا رواية الوالبي والعوفي عن ابن عباس، وقال عكرمة السمود عنه الغناء بلغة أهل اليمن كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا وقال الضحاك أشرون بطرون، وقال مجاهد غضاب معرضون وقيل معناه مستكبرون من سمد البعير في مسيرة إذا رفع رأسه كذا أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال كانوا يمرون على رسول الله ﷺ وهو يصلّي شامخين فنزلت ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١﴾ قال في النهاية شمخ بأنفه أي ارتفع تكبراً ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾ خضوعاً وتواضعاً لله وتصديقاً بوعده ووعيده واعتباراً ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾ أي اعبدوه دون غيره، الفاء للسببية عطف على أزفت الآزفة عن ابن عباس قال: «سجد النبيّ ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»[1] رواه البخاري، وعن ابن مسعود أن النبيّ ﷺ «قرأ والنجم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٣، باب ٤.

فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال يكفيني هذا قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافراً»[١] متفق عليه وزاد البخاري في رواية وهو أمية بن خلف، وفي لفظ البخاري أول سورة نزلت فيها سجدة النجم فسجد رسول الله ﷺ[٢] الحديث وعن زيد بن ثابت قال «قرأت على رسول الله ﷺ والنجم فلم يسجد فيها»[٣] متفق عليه، احتج بهذا الحديث من قال إن سجود التلاوة غير واجب وأجيب بأنه صلى الله تعالى عليه وأصحابه وسلم لعله لم يكن حينئذ على وضوء أو يكون حينئذ مانع من السجدة ولا يدل الحديث على نفي السجود مطلقاً لكن هذا تأويل بعيد ولو كان تأخير السجود لعذر لبينه النبيّ ﷺ ويدل على عدم وجوب السجدة وقول عمر بن الخطاب (رض) إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء وقد ذكرنا مسائل سجود التلاوة واختلاف الأئمة فيه في سورة الانشقاق والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٢٩، وأبو داود في السجود باب ٣.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٣، باب ٤.

(٣) أخرجه أبو داود في السجود باب ٢، والترمذي في الجمعة باب ٥٢، والدارمي في الصلاة باب ١٦٤، وأحمد في المسند ٥/ ١٨٣، ١٨٦.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القمر

مكيَّة وهي خمس وخمسون آية وثلاث ركوعات

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ
وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾
حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ
يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴿٧﴾ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴿٨﴾ كَذَّبَتۡ
قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ
بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾
تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾
وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا
صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾
وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾﴾

روى البغوي عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأى حراء بينهما[١] وكذا أخرج الشيخان في الصحيحين، وقال البغوي قال شيبان عن قتادة فأراهم انشقاق القمر مرتين كذا أخرج الترمذي بلفظ فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ إلى قوله ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ وأخرج الشيخان والحاكم واللفظ له عن ابن مسعود قال رأيت القمر منشقاً شقتين بمكة قبل مخرج النبيّ ﷺ فقالوا سحر القمر فنزلت ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[٢] وكذا أخرج البغوي من طرق البخاري بلفظ انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ اشهدوا[٣]، وقال البغوي وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله انشق القمر بمكة وقال انشق القمر ثم التأم بعد ذلك، وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٣٦، ومسلم في المنافقين حديث ٤٦.
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٤، باب ١، والمناقب باب ٢٧، ومسلم في المنافقين حديث ٤٨.
(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٤، باب ١، ومسلم في المنافقين حديث ٤٧.

قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقال سحركم ابن أبي كبشة فاسألوا السفار فسألوهم فقالوا نعم قد رأيناه فأنزل الله تعالى ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ أي دنت ﴿ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ يعني قد حصل من آيات اقترابها انشقاق القمر ﴿وَإِن يَرَوۡاْ﴾ يعني الكفار ﴿ءَايَةٗ﴾ معجزة دالة على صدق النبيّ ﷺ ﴿يُعۡرِضُواْ﴾ عن التأمل والإيمان ﴿وَيَقُولُواْ﴾ هذا ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ أي ذاهب سوف يذهب ويبطل من قولهم مر الشيء واستمر بمعنى ذهب كقولهم قر واستقر كذا قال مجاهد وقتادة، وقال أبو العالية والضحاك مستمر بمعنى قوي شديد يعلو كل سحر من قولهم مر الحبل إذا صلب واشتد وأمررته إذا أحكمت فتله واستمر الشيء إذا قوي واستحكم، وقيل معناه سحر مطرد يوجد متتابعاً كثيراً وقيل معناه مستبشع من استمر إذا اشتدت مرارته والجملة الشرطية معترضة لبيان عادة الكفار وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ عطف على انشق يعني كذبوا النبيّ ﷺ والقرآن وما عاينوا من قدرة الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ ولم يتبعوا الوحي بعد ظهوره ذكرهما بلفظ الماضي للإشعار بأنهما من عادتهم القديمة ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ أي منتبه أي غاية من خذلان أو نصر في الدنيا وسعادة أو شقاوة في الآخرة فإن الشيء إذا انتهى إلى غاية ثبت واستقر وكذا قال مقاتل لكل حديث منتهى، وقيل معناه كل أمر مقدر مستقر يعني كاين واقع لا محالة وكل أمر وعد الله واقع كأئن لا محالة وقال الكلبي لكل أمر حقيقة ما كان منهم في الدنيا فسيظهر وما كان منه تعالى في الآخرة فسيعرف، وقال قتادة وكل أمر مستقر في الخير يستقر بأهل الخير وكل أمر مستقر في الشر يستقر بأهل الشر، وقيل كل أمر من خير أو شر مستقر قراره فالخير مستقر بأهله في الجنة والشر مستقر بأهله في النار وقيل يستقر قول المصدقين والمكذبين حتى يعرفوا حقيقة الثواب والعقاب قرأ أبو جعفر مستقر بالجر على أنه صفة أمر وكل معطوف على الساعة يعني اقتربت الساعة واقتربت كل امر مستقر بأهله ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم﴾ يعني كفار مكة في القرآن ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾، ما موصولة أو موصوفة أصله مزتجر بقلب تاء الافتعال مع الزاء وإلا للتناسب وكذا مع الذال فإن التاء حرف مهموس والدال والذال والزاء مهجورات ومخرج التاء والذال واحد مصدر ميمي بمعنى الازدجار يعني جاءهم ما فيه نهي وعظة بحيث يقتضي الانتهاء من المعاصي والاتعاظ فإن هلاك الأمم الطاغية الماضية المواعيد بالنار يقتضي ذلك ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾ غايتها لا خلل فيها بدل من ما فاعل جاء أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نفي أو استفهام للإنكار أي فلم تغن النذر أو فأي غناء يغني النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر أي الرسول أو المصدر منه أو مصدر بمعنى الإنذار.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ حيث لا ينفعهم إنذارك نسختها آية القتال ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ قرأ البزي الداعي بإثبات الياء وصلاً ووقفاً وأبو عمرو ورش في الوصل فقط ويوم منصوب باذكر، والجملة مستأنفة وجملة يخرجون حال من مفعول يدعوا المحذوف تقديره يوم يدعوهم الداعي يخرجون أو الظرف متعلق بيخرجون وجملة تخرجون مستأنفة وذلك يوم القيامة،

الداعي إسرافيل عليه السلام يقف على صخرة بيت المقدس يقول يا أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المنقطعة إن الله يأمركن أن تجمعين لفصل الخطاب رواه ابن عساكر عن زيد بن جابر الشافعي ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ قرأ ابن كثير بإسكان الكاف والباقون بضمة أي شيء منك فظيع لم تعهد مثله تنكره النفوس استعظاماً ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب خاشعاً بفتح الخاء وألف بعد وكسر الشين على الإفراد والتذكير لأن فاعله ظاهر غير حقيق التأنيث وقرأ ابن مسعود(رض) خاشعة على الأصل وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر خشعاً على صيغة جمع التكسير وحسن ذلك ولا يحسن مررت برجال قائمين غلمانهم لأنه ليس على صيغة يشبه الفعل يعني ذليلاً أبصارهم حال من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة الجملة أيضاً حال من فاعل يخرجون ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، قرأ ابن كثير الداعي بإثبات الياء في الحالين ونافع وأبو عمرو في الوصل فقط يعني مسرعين مادي اعناقهم إلى صوت الداعي أو ناظرين إليه ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب شديد جملة مستأنفة.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام تنازع الفعلان في المفعولية فأعمل الثاني وحذف من الأول والمعنى كذبت قوم نوح نوحاً عليه السلام فكذبوه تكذيباً بعد تكذيب كلما مضى منهم قرن مكذب جاء قرن آخر فكذبوه وهذا إلى ألف سنة إلا خمسين عاماً، وجاز أن يقدر المحذوف غير المذكور فلا يكون من باب التنازع والمعنى كذبوه بعد ما كذبوا الرسل وجاز أن ينزل الفعل منزلة اللازم ولا يقدر المفعول فلا يكون من باب التنازع والمعنى صدر التكذيب قبلهم من قوم نوح فكذبوا نوحاً والفاء حينئذ للتفصيل بعد الإجمال ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على كذبوا ﴿مَجْنُونٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ إما عطف على مجنون يعني قالوا هو مجنون وازدجرته الجن فخبطته وذهب بعقله كذا قال مجاهد أو عطف على قالوا يعني وازدجروه عن التبليغ بأنواع الأذية وقالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين، أخرج عبد بن حميد عن مجاهد واحداً منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه فيفيق ويقول اللّهم اغفر لي ولقومي فإنهم لا يعلمون وكذا أخرج أحمد في الزهد من طريق مجاهد عن عبيد بن عمير ﴿فَدَعَا﴾ نوح ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ بعدما أوحي إليه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ أي بأني مغلوب غلبني قومي ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ أي فانتقم لي منهم لعذاب تبعتهم وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ منصب انصباباً شديداً لم ينقطع أربعين يوماً وقيل معناه بماء طبق ما بين السماء والأرض ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ تميز من النسبة والمعنى فجرنا عيون الأرض لكن غير للمبالغة كأنه قال جعلنا الأرض كلها عيوناً منفجرة ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ ويعني الافتعال بمعنى التفاعل وذلك يقتضي تعدد الفاعل لكن الماء

اسم يطلق على الواحد والكثير وأريد هاهنا فالتقى الماءان يعني ماء السماء وماء الأرض كذا قرأ عاصم الجحدري ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ أي على حسب أمر قد قدره الله تعالى في الأزل وكتب في اللوح أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر ما أنزل من السماء على قدرنا أخرج من الأرض أو على أمر قدره الله وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ﴾ يعني نوحاً ﴿عَلَىٰ﴾ سفينة ﴿ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ﴾ أخشاب عريضة ﴿وَدُسُرٖ﴾ أي مسامير دسار أو دسير ذكر النعت وأقيمت مقام الاسم ﴿تَجۡرِي﴾ حال من ذات ألواح ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي محفوظة بحفظنا ﴿جَزَآءٗ﴾ أي فعلنا ذلك جزاء أو جزينا قوم نوح جزاءً ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي لأجل نوح لأنه نعمة كفروها فإن كل نبي نعمة من الله ورحمة على أمته وقيل من بمعنى ما أي جزاء لما كان كفر من أيادي الله ونعمة عند الكافرين أو المعنى حاجزاً لما صنع بنوح وأصحابه أو المعنى فعلنا ذلك أي أغرقنا قوم نوح وأنجينا نوحاً جزاء وثواباً لنوح عليه السلام.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ أي الفعلة المذكورة يعني أبقينا قصتها ﴿ءَايَةٗ﴾ على قدرتنا وصدق الأنبياء يعتبر بها من بعدهم وقال قتادة الضمير المنصوب عائد إلى السفينة ولقد أبقى الله السفينة بأرض الجزيرة، وقيل بالجودي دهراً طويلاً حتى نظرها أوائل هذه الأمة وهذه جملة معترضة وكذا قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ أي معتبر، الاستفهام للإغراء والتحريض على الادكار والاتعاظ والفاء للسببية أصله مدتكر مفتعل من الذكر قلبت التاء دالاً للتناسب ثم أدغمت الدال في الدال لقرب المخرج ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾ الاستفهام للتعظيم والتهويل والفاء للسببية فإن القصة السابقة سبب للتهويل ونذر جمع نذير، وقال الفراء الإنذار والنذر مصدران كالإنفاق والنفقة والإيقان واليقين وكيف خبر كان قدمت لاقتضائها صدر الكلام قرأ ورش عذابي ونذري بإثبات الياءات في ستة مواضع من هذه السورة ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا﴾ أي سهلنا ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ أي للإذكار والاتعاظ بأن ذكرنا فيه أنواع المواعظ والعبر والوعيد وأحوال الأمم السابقة للاعتبار والمعنى يسرنا القرآن للحفظ بالاختصار وعذوبة اللفظ ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾ قوم هود عليه السلام هوداً وجميع الأنبياء ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾ أي إنذاراتي لهم بالعذاب قبل نزوله أو لمن بعدهم في تعذيبهم ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ بارداً شديد الهبوب وشديد الصوت ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾ شؤم على الأعداء ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾، أي استمر شؤمه أو استمر عليهم حتى أهلكهم الله أو على صغيرهم وكبيرهم فلم يبق منهم أحداً أو أشد مرارته قال البغوي قيل كان يوم الأربعاء آخر شهر ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي تقلعهم من أماكنهم ثم ترمى بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم وقال البيضاوي: روي أنهم دخلوا في الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح منها وصرعتهم موتى، وقال البغوي روي أنها كانت تنزع الناس من قبورهم ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ﴾ أي أصول ﴿نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ منقلع من مكانه ساقط على الأرض ذكر الصفة حملاً على اللفظ والتأنيث في قوله: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧] ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ [ق: ١٠] للمعنى قال البغوي إنما قال أعجاز نخل هي أصولها التي قطعت فروعها لأن الريح كانت تبين رؤوسهم من أجسادهم فتبقى الأجسام

بلا رؤوس ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦)﴾ كرر للتهويل وقيل الأول لما حاق بهم في الدنيا والثاني لما يحيق بهم في الآخرة كما قال أيضاً في قصتهم لنذيقهم الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ
عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ
فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩)
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ
(٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن
ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ
(٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ
أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ
(٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ
وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا
أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ
فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ
عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣)﴾ بالإنذارات والمواعظ والرسل ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا﴾ آدمياً منصوب على المفعولية بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿مِّنَّا﴾ صفة لبشر أي من جنسنا أو من جملتنا لا فضل له علينا بالمال والجاه ﴿واحداً﴾ بدل من بشر أو عطف بيان له أي منفردا لا تبع له أو من آحادنا دون أشرافنا ﴿نَّتَّبِعُهُ﴾ الاستفهام للإنكار والإنكار على كون متبوعهم مثلهم في الجنسية ودونهم في الانفراد لا على فعل الإتباع فإنه لو كان المتبوع من الملائكة أو ملوك البشر لم ينكروا إتباعه فلا بد تقدير الفعل مؤخراً من المفعول في الإضمار والتفسير تأكيداً لإنكار الإتباع ﴿إِنَّا إِذًا﴾ أي إذا نتبعه ﴿لَّفِي ضَلَالٍ﴾ أي خطأ ذهاب عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ قال وهب معناه بعد من الحق، وقال الفراء جنون يقال ناقة مسعورة إذا كانت خفيفة الرأس هائمة على وجهها، وقال قتادة معناه عناء أو عذاب مما يكره منا من طاعة وقيل سعر جمع سعير قال ابن عباس معناه عذاب، وقال الحسن شدة عذاب وكأنهم عكسوا قول صالح عليه السلام لما قال إن تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعير ونيران فقالوا إن اتبعناك إنا إذا لفي ضلال وسعير ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾ الكتاب والوحي ﴿مِن بَيْنِنَا﴾ وفينا من هو أحق بذلك يعنون أنه لم يلق عليه الذكر من بيننا ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ يكذب على الله ﴿أَشِرٌ﴾ بطر منكر يريد أن يتعظم علينا بادعاء النبوة إضراب من نفي الفضيلة إلى ادعاء الرذيلة فيه عليه السلام

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ حين ينزل هم العذاب وقال الكلبي يعني يوم القيامة ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أهم أم صالح عليه السلام قرأ ابن عامر وحمزة ستعلمون عذابنا الخطاب على الالتفات والباقون بالياء على الغيبة والجملة استئناف في جواب ما شأنهم ولما سألوا معجزة من الصالح عليه السلام على صدقه وقالوا تعنتاً أن يخرج لهم ناقة حمراء عشراء من صخرة عينوها قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ أي مخرجوها وباعثوها ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي لأجل امتحانهم أو حال كونها امتحاناتهم ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي فانتظر يا صالح ما يصنعوا بها ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذاهم أو اصبر على ارتقابهم ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ﴾ أي مقسوم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعني بين قومك وبين الناقة لها يوم ولهم يوم أورد ضمير الجمع المذكر العاقل تغليبا ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ أي نصيب من الماء ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره من كان نوبته فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها وإذا كان يوم نوبتهم حضروه دون الناقة واحتضر وحضر بمعنى واحد، وقال مجاهد يحتضرون الماء إذا غابت الناقة فإذا جاءت الناقة حضروا اللبن ﴿فَنَادَوْا۟﴾ ثمود ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فتناول الناقة بسيفه ﴿فَعَقَرَ﴾ فعذبناهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ثم بين عذابهم فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بهم جبرئيل عليه السلام ﴿فَكَانُوا۟﴾ أي صاروا ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ قال ابن عباس المحتظر الرجل يجعل لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم، وقيل هو الشجر اليابس الذي يتخذه من الحظير لأجل الحظيرة أو الحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء وقال قتادة معناه كالعظام النخرة المحترقة، وقال سعيد بن جبير هو التراب يتناثر من الحائط ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى الصغار وقيل الحصباء هي الحجر الذي دون ملأ الكف وقد يكون الحاصب الرامي فيكون على هذا إنا أرسلنا عليهم حاصباً يحصبهم أي يرميهم بالحجارة ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ استثناء من الضمير المجرور في عليهم ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾ يعني آل لوط ﴿بِسَحَرٍ﴾ أي في سحر وهي آخر الليل أو مسحرين الجملة تعليل للاستثناء ﴿نِّعْمَةً﴾ أي إنعاماً علة لنجينا ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ صفة لنعمة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نعمة الله بالإيمان والطاعة يعني من وحد الله وشكر نعمة نجزيه جزاء. . .

كما جزينا آل لوط ولم نعذبهم مع المشركين كذا قال مقاتل ﴿أَنذَرَهُم﴾ يعني أنذر لوط قومه ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أي أخذتنا إياهم بالعذاب إن لم يؤمنوا مفعول ثاني لأنذر ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ يعني كذبوا لوطاً وشكوا بالإنذار ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ﴾ أي طلبوا لوطاً أن يعرض ﴿عَن ضَيْفِهِۦ﴾ ويسلمهم إليهم حين قصدوا الفجور بهم وكانوا الملائكة فيهم جبرئيل عليه السلام على صورة الأمارد أرسلهم الله على قوم لوط ليرسلوا عليهم حجارة من طين مسومة للمسرفين فلما قصد قوم لوط داره وعالجوا الباب ليدخلوا قالت الرسل للوط خلّ بينهم وبين الدخول فإنا رسل ربك لن يصلوا إليك فدخلوا الدار. وقال البغوي وأخرج ابن إسحاق وابن عساكر

من طريق جرير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس إن لوطاً أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأى الملائكة ما على لوط قالوا إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فصعقهم جبرئيل بجناحه بإذن الله فتركهم عمياً يترددون متحيرين لا يهتدون إلى الباب فأخرجهم لوط عمياناً لا يبصرون وذلك قوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي صيرناها كسائر الوجه لا يرى له شق كذا قال أكثر المفسرين، وقال الضحاك طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل فقالوا قد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا فلم يروهم فرجعوا فقال الله تعالى على ألسنة الرسل ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي ما أنذرتكم به على لسان لوط من العذاب ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾ أي جلاهم وقت الصبح ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿عَذَابٌ﴾ رمي الحجارة ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي يستقر بهم بعد الموت عذاب القبر حتى يسلمهم إلى النار المؤبدة ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وفائدة التكرير بعد كل قصة أن يستأنفوا تنبيهاً واتعاظاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ يعني موسى وهارون عليهما السلام ومن معهما، وقيل هي الآيات التي أنذرهم بها موسى واكتفى بذكر آل فرعون عن ذكره للعلم بأنه أولي بذلك ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني الآيات التسعة ﴿كُلِّهَا﴾ عن صفوان بن عسال قال: قال يهودي لصاحبه اذهب بنا إلى هذا النبي فقال له صاحبه لا تقل نبي إنه لو سمعك لكان له أربع أعين فأتيا رسول الله ﷺ فسألا عن تسع آيات بينات فقال رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تولوا للفرار يوم الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت قال فقبلا يديه ورجليه، وقالا نشهد أنك نبي، قال فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالا إن داود عليه السلام دعى ربه أن لا يزال في ذريته نبي وإنا نخاف إن تبعناك أن يقتلنا اليهود»[1] رواه أبو داود والترمذي والنسائي ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ بالعذاب يعني أغرقناهم في اليم ثم أدخلناهم في النار ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ غالب لا يغلب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ على الانتقام لا يعجزه ما أراد ولا يمنعه شيء عما أراد.

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يعني كفار قومكم أيها المؤمنون من قريش ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ يعني من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون المذكورين بحلول العذاب بهم قوة وعدداً أو مكانة وديناً عند الله والاستفهام للإنكار يعني ليسوا خيراً منهم فكيف آمنوا من مثل ما حل بهم من العذاب ﴿أَمْ لَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ وأمان من العذاب ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي في الكتب السماوية أن من كفر منكم وكذب الرسل لا يعذب حتى أمنوا من العذاب ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي

(١) أخرجه الترمذي في تفسيرة سورة ١٧، باب ١٥، والاستئذان باب ٣٣، والنسائي في التحريم باب ١٨، وأحمد في المسند ٤/ ٢٣٩، ٢٤٠.

هؤلاء الكفار ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ أي جماعة أمرنا مجتمع ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نرام ومنتصر من الأعداء لا تغلب أو متناصر بعضنا بعضاً، والتوحيد حملاً على لفظ الجميع وموافقة لرؤوس الآي، أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قالوا يوم بدر نحن جميع منتصر فنزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قرأ يعقوب سنهزم بالنون على صيغة المتكلم المعروف والجمع منصوباً على المفعولية والباقون على صيغة الواحد الغائب المجهول والجمع مرفوعاً على أنه مسند إليه أورد الدبر مفرداً في محل الإدبار بإرادة الجمع الجنس موافقة لرؤوس الآي كما يقال ضربنا منهم الرأس أو لأن كل واحد منهم يولي دبره.

روى البخاري عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر «أنشدك عهدك ووعدك اللّهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم» فقال أبو بكر وأخذ بيده حسبك يا رسول الله ألححت على ربك فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) كنت لا أدري أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبيّ ﷺ يثب في درعه ويقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر)(١) ذكره البغوي، قول سعيد بن المسيب قال سمعته من عمر وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم من مرسل عكرمة ورواه الطبراني في مجمعه الأوسط ﴿بَلِ السَّاعَةُ﴾ اضراب على طريقة الانتقال إلى الأهم ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ وجميعاً للعذاب وما يحيق بهم في الدنيا فمن طلائعه وكان ليس بعذاب بالنسبة إلى ما يحيق بهم يوم القيامة ولذلك لا يعذب بعض الكفار في الدنيا مع استحقاقهم جميعاً للعذاب ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى﴾ أي أشد داهية والداهية أمر فظيع لا يهدى إلى دفعه ﴿وَأَمَرُّ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكافرين تعميم بعد تخصيص لبيان حال الكفار مطلقاً بعد التخصيص بذكر كفار مكة ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ نيران في الآخرة وقيل معنى الآية في ضلال أي ذهاب من طريق الجنة في الآخرة وسعر أي نار مسعرة كذا قال الحسن بن فضل وقال قتادة في عناء وعذاب ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ أي يجرون ﴿فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يقال لهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي حر النار وألمها فإن مسها سبب لألمها ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ والجملة معترضة بين ذكر الكفار نزلت رداً لمخاصمة قريش.

روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة، قال جاءت مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ يعني خلقنا كل شيء بتقدير سابق أو مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظ معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه، قال الحسن قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له أي تقتضيه الحكمة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وكان

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٨٩، وتفسير سورة ٥٤، باب ٥، ٦، وأحمد في المسند ١/ ٣٢٩.

عرشه على الماء»[1]. رواه مسلم، وروى البغوي بسنده عن طاوس بن مسلم اليماني قال أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شيء بقدر حتى العجز والكيس، وعن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله بعثني بالحق ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر»[2] رواه الترمذي وابن ماجه، عن ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون في أمتي خسف ومسخ وذلك على المكذبين بالقدر»[3]. رواه أبو داود وروى الترمذي نحوه، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا لا تعودوهم وإن ماتوا لا تشهدوهم»[4] رواه أحمد وأبو داود، وعن أبي خزامة عن أبيه قال قلت يا رسول الله أرأيت رقى نسترقي بها ودواء نتداوى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»[5] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وفي الباب أحاديث كثيرة وانعقد عليه إجماع الصحابة ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾ في تكوين الأشياء وإعدامها وإعادتها ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي إلا فعلة واحدة وهي الإيجاد والإمحاء بلا معالجة ومعناه أو إلا كلمة واحدة وهي قوله تعالى: كن في الإيجاد والصيحة في الإعدام والبعث كائنة في اليسر والسرعة ﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ قال الكلبي عن ابن عباس وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر نظيره قوله تعالى ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ جمع شيع معناه المثل كذا في القاموس يعني أهلكنا أشباهكم في الكفر ممن قبلكم يا أهل مكة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ بالاعتبار ممن قبله الفاء للسببية، والاستفهام للحث والتحريض بمعنى الأمر يعني لقد أهلكنا يا أهل مكة أشباهكم فاذكروا واتعظوا متصل بما سبق في توبيخ أهل مكة وما بينهما معترضات ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾ صفة لشيء فعله المكلفون ثابت مكتوب ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي في صحائف الحفظة التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فيجازي بها يوم القيامة أو في اللوح المحفوظ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من أعمال المكلفين أو من الخلائق وأعمالهم وآجالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أي مسطور مكتوب في صحائف الحفظة أو في اللوح المحفوظ فهذه الجملة بيان وتفسير وتأكيد لما سبق أو المراد بأحد الجملتين كونها مكتوباً في صحائف الحفظة وبالأخرى في اللوح المحفوظ والله تعالى أعلم ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي

---

(١) أخرجه مسلم في القدر حديث ١٦.
(٢) أخرجه الترمذي في القدر باب ١٠، والإيمان باب ٤، وابن ماجه في المقدمة باب ٩، ١٠.
(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم باب ١٠، والترمذي في الفتن باب ٢١، ٣٨، والقدر باب ١٦.
(٤) أخرجه أبو داود حديث ٤٦٩١.
(٥) أخرجه الترمذي في الطب باب ٢١، والقدر باب ١٢، وابن ماجه في الطب باب ١، وأحمد في المسند ٣/ ٤٢١.

أنهار الجنة من الماء والخمر والعسل واللبن، أورد لفظ المفرد اكتفاء باسم الجنس موافقة لرؤوس الآي وقال الضحاك يعني في الضياء السعة ومنه النهار، قال البغوي قرأ الأعرج ونهر بالضمتين جمع نهار يعني لا ليل لهم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في مكان لا لغو فيه ولا تأثيم يعني الجنة أو في مكان مرضي قال الجوهري يعبر عن فعل فاضل ظاهراً وباطناً بالصدق ومنه قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] وقوله تعالى: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] قال البغوي قال الصادق (رض) مدح الله المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي عند الله مالك الأشياء كلها وملكها قادر لا يعجزه شيء عندية غير متكيفة لا تدركه العقول والأفهام إلا من فتق الله غشاوة بصيرته من الكرام وفائدة التكبير فيها الإيماء إلى ما من شيء إلا تحت ملكه وقدرته والله تعالى أعلم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الرحمن

آياتها ثمان وسبعون آية وثلاث ركوعات وهي مكيَّة

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ (٤) ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ
بِحُسۡبَانٖ (٥) وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ (٦) وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ
(٨) وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ (٩) وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٞ
وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ (١١) وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ
ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ (١٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(١٦) رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ (١٩) بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا
يَبۡغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)
وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ (٢٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ (٢٦) وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ
رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي
شَأۡنٖ (٢٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)﴾

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (٢)﴾ جواب لقول الكفار وما الرحمن فذكر الله تعالى أنه مولى النعم الدنيوية والأخروية كلها من بدء الخلق إلى أبد الآبدين على ما يقتضيه لفظ الرحمن المبني على كمال المبالغة في الرحمة وقدم في الذكر ما هو أصل النعم الدينية وأجلها وهو تنزيل القرآن وتعليمه فإنه أساس الدين وفيه صلاح الدارين، ثم ذكر بعده خلق الإنسان إشارة إلى أن الإنسان إنما خلق لأجل تلقي القرآن ولذلك علمه البيان ولما كان إشراكهم وعبادتهم لغير الله تعالى وقولهم وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا دليلاً على إنكارهم آلاء الله تعالى كرر التوبيخ عليهم في السورة إحدى وثلاثين مرة بعد ذكر بعض الآلاء إيقاظاً وتنبيهاً وأما بعد الوعيد على الكفران زجراً ومنعاً عما هم عليه وأما بعد الوعد لمن خاف مقام ربه وشكر نعمائه تحريضاً وتطميعاً، وقيل هذه الآية رد لقول الكفار: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾ [النحل: ١٠٣] والمعنى أنه لا يستطيع البشر على تعليم مثل هذا القرآن البليغ المعجز بل علمه الرحمان الذي هو المنعم بالنعم الدنيوية والأخروية كلها بمقتضى رحمته وهذا أجل النعم المفضية إلى صلاح الدارين رحمٰن مبتدأ والجملة خبره ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ قال ابن عباس وقتادة يعني آدم عليه السلام علمه البيان يعني أسماء كل شيء علمه اللغات كلها فكان

آدم يتكلم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية وقال أبو العالية والحسن المراد جنس الإنسان ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ باللسان والكتابة والفهم والإفهام حتى يتميز عن سائر الحيوانات وصار قابلاً للوحي وتنزيل القرآن، وقال السدي علم كل قوم لسانهم الذين يتكلمون به وجاز أن يقال خلق الإنسان يعني محمداً ﷺ علمه البيان يعني القرآن فيه بيان ما كان وما يكون من الأزل إلى الأبد مطابقاً لبيان من مضى من الرسل هداية للناس وآية على نبوته، كذا قال ابن كيسان، فعلى هذا الجملتان الأخيرتان بيان وتفصيل للأولى ولهذا لم يورد العاطف بينها وكلها أخبار مترادفة للرحمٰن، قيل: ترك العاطف لكون كل منها مستقلاً بالخبرية وقيل بمجيئاً على نهج التحديد.

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ الحسبان إما مصدر كغفران وسبحان وكقرآن ورجحان ونقصان من حسبتُ حسباناً أو جمع للحساب كالشّبان والركبان والمعنى الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر معلوم في منازلهم يتنسق بتلك أمور الكائنات السفلية ويختلف الفصول والأوقات ويعلم السنون والحساب وأوقات الصلاة والصيام والحج والزكاة وآجال الديون ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ أي ما ليس له ساق من النبات ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ ما له ساق يبقى في الشتاء ﴿يَسْجُدَانِ﴾ أي ينقادان لله طبقاً فيما يريد منهما انقياد الساجدين المكلفين طوعاً يقال سجودهما سجود ظلهما، قال الله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] والجملتان خبران آخران للرحمٰن وكذا ما بعدهما مما عطف عليهما وكان حق النظم في الجملتين أن يقال وأجرى الشمس والقمر بحسبان وأسجد النجم والشجر والشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان له الوجوب العائد في الخبر لكن حذف العائد منهما لوضوحه وأدخل العاطف بينهما وبين ما بعدهما لاشتراكهما في الدلالة على وجود الصانع يحكم الذي يقدر ويدبر ويغير أحوال الأجرام العلوية والسفلية على نهج بديع وأسلوب حكيم ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿رَفَعَهَا﴾ أي خلقها مرفوعة ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ قال مجاهد أراد بالميزان العدل والمعنى أمر بالعدل وأثبته في الذمم حتى انتظم أمر العالم واستقام، وقال الحسن وقتادة والضحاك أراد ما يوزن الأشياء ويعرف به المقادير من الميزان والمكيال والذراع ونحو ذلك فإنها سبب الإنصاف والانتصاف وأصل الوزن التقدير ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ إما مضارع منصوب بأن في قوة المصدر متعلق بوضع بتقدير اللام يعني وضع الميزان لأن لا تجاوزوا الحق في الميزان ولا تظلموا وإما صيغة نهي وأن مفسرة تقديره أمر أن لا تطغوا في الميزان ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ معطوف على تطغوا على تقدير كونه نهياً وعلى تقدير كونه مضارعاً معطوف على وضع بتقدير قال ﴿ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي قوموا وزنكم بالعدل ولا تنقصوا أمر الله تعالى بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة ومن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان ثلاث مرات ولم يكتف بالضمير تشديد للتوصية وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه فويل للمطففين.

مسألة: من اشترى مكيلاً مكايلة أو موزوناً موازنة فاكتاله أو اتزنه ثم باعه مكايلة أو موازنة لم يجز للمشتري الثاني أن يبيعه ولا أن يأكله حتى يعيد الكيل أو الوزن لأنه يجعل بأن يزيد على المشروط وذلك للبائع والتصرف في مال الغير حرام يجب التحرز عنه «وقد نهى النبيّ ﷺ عن بيع الطعام حتى يجري فيه الصاعان صاع البائع وصاع المشتري»[1] رواه ابن ماجه وابن إسحاق من حديث جابر وأعل بعبد الرحمٰن بن أبي ليلى ورواه البزار من حديث أبي هريرة وله طريقان ضعيفان عن أنس وابن عباس وروى عبد الرزاق عن يحيى بن كثير أن عثمان بن عفان وحكيم بن حزام كانا يبتاعان الثمر ويجعلان في الغرائر ثم يبيعانه بذلك الكيل فنهاهما رسول الله ﷺ أن يبيعا حتى يكيلا لمن ابتاعه منهما، قال ابن همام هذا الحديث حجة لكثرة طرقه وقبول الأئمة إياه فإنه قد قال بقولنا هذا مالك والشافعي وأحمد.

مسألة: ولا معتبر بكيل البائع قبل البيع وإن كان بحضرة المشتري لأنه ليس صاع البائع والمشتري وهو المشروط ولا بكيله بعد البيع بغيبة المشتري لأن الكيل من باب التسليم لأنه يصير به المبيع معلوماً ولا تسليم إلا بحضرته ولو كال البائع بعد البيع بحضرة المشتري قيل لا يكتفى به بظاهر الحديث فإنه اعتبر صاعين والصحيح أنه يكتفي به لأن المبيع صار معلوماً بكيل واحد ولتحقق معنى التسليم، ومحل الحديث اجتماع الصفتين كما إذا اشترى المسلم إليه من رجل كراً وأمر رب السلم أن يقبضه فإنه لا يصلح إلا بصاعين لاجتماع الصفتين بشرط الكيل لشراء المسلم إليه لنفسه وقبض رب السلم.

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ منصوب بفعل مضمر تفسيره ﴿وَضَعَهَا﴾ أي خلقها وخفضها مدحوة ﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي للخلق، في القاموس الأنام كسحاب وسباط سائر الخلق والجن والإنس أو جميع ما على وجه الأرض، قال البيضاوي وقيل الأنام كل ذي روح قلت: الظاهر أن المراد به هاهنا الجن والإنس لأن الخطاب معهما كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ قال ابن كيسان يعني ما يتفكهون به من النعم التي لا تحصى الجملة تعليل لمضمون قوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الثمر ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ وهو ما يؤكل من البذور كالحنطة والشعير وسائر ما يتغذى به ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ وهو ورق الزرع والنبات اليابس كالتبن ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ أي الرزق وهو اللب كذا قال أكثر المفسرين من قولهم خرجت أطلب ريحان الله، قال ابن عباس كل ريحان في القرآن فهو الرزق، وقال الحسن وابن زيد وهو ريحانكم الذي يشم وهو فعيلان من الروح فقلب الواو ياء وأدغم ثم خفف، وقيل أصله روحان قلب واوها ياء للتخفيف، قرأ العامة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان يرفع الاسماء الثلاثة عطفاً على الفاكهة، وجاز أن يكون الريحان معطوفاً على ذو العصف بتقدير ذو فحذف المضاف وأعرب المضاف إليه بإعرابه وقرأ حمزة والكسائي والريحان بالجر عطفاً

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات باب ٣٧.

على العصف وما عداه بالرفع عطفاً على الفاكهة وقرأ ابن عامر والحبة والنخل ذات الأكمام والحب والعصف والريحان، بنصب الثلاثة عطفاً على الأرض وضعها على تقدير وخلق النخل ذات الأكمام وخلق الحب والعصف وخلق الريحان ويجوز أن يراد ذا الريحان فحذف المضاف وأعرب المضاف إليه بإعرابه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى الأنام وقوله أيها الثقلان وقيل خطاب للواحد بلفظ التثنية على عادة العرب يخاطبون كذلك نظيره قوله تعالى ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤] والفاء للسببية والاستفهام لتقرير الآلاء وإنكار تكذيبهما فإن ذكر الآلاء سبب لإقرارها وشكر منعمها والرد عن تكذيبها وكذا الوعيد على الكفران والوعد سببان للإقرار والشكر، روى الحاكم عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال: «ما لي أراكم سكوتاً والجن كانوا أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة فبأيّ الآء ربكما تكذبان إلا قالوا ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»[١].

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي طين يابس به صلصلة أي تردد صوت وقيل الصلصال السنن من الطين ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي الطين المطبوخ بالنار وهو الخذف قيل الفخر المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ومنه الفخار بمعنى الحراء لصوته إذا نقر كأنه تصور بصورة من يكثر التفاخر به، ولا اختلاف بين هذه وبين من حمأ مسنون ومن طين لازب ومن تراب لاتفاقها معنى لأنه تفيد أنه خلق من تراب ثم جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصال ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ اللام للجنس يعني جنس الجن وقيل هو علم لأبي الجن وقال الضحاك هو إبليس ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ بيان لمارج وهو الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه وهو في الأصل للمضطرب من مرج إذا اضطرب، وقال مجاهد هو ما اختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي تعلو النار إذا وقدت من قولهم مرج أمر القوم إذا اختلط الجملة خبر آخر للرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما أفاض عليكما من أطوار خلقتكما حتى صرتما أفضل المركبات وخلاصة الكائنات ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربيهما خبر آخر للرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما في ذلك من الفوائد لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك.

﴿مَرَجَ﴾ أي أرسل ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ الملح والعذب من مرجت الدابة إذا أرسلتها خبر آخر للرحمٰن ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ حال من البحرين، أي يتجاوزان ويتماس سطوحهما ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى حال آخر ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ حال أخرى أي لا يبغي أحدهما على الأخرى بالممازجة وإبطال الخاصية، وقال قتادة لا يطغيان على الناس بالغرق، وقال الحسن مرج

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٣، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٨٢٣، ٤١٤٦.

البحرين يعني بحر الروم وبحر الهند وعن قتادة أيضاً بحر الفارس وبحر الروم بينهما برزخ يعني الجزائر، وقال المجاهد والضحاك بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كل عام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما في ذلك من المنافع وظهور قدرة الله تعالى جملة معترضة وقوله تعالى ﴿يُخْرِجُ﴾حال أخرى من البحرين قرأ نافع وأبو عمر ويعقوب يخرج بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول من الإخراج والباقون بفتح الياء وضم الراء من المجرد ﴿مِنْهُمَا﴾ أي من البحرين العذب والملح قيل الدر إنما يخرج من الملح دون العذب فقيل في جوابه إنه يخرج من مجتمع الملح والعذب وقيل لأنهما لما اجتمعا صارا كالشيء الواحد فكان المخرج من أحدهما كالمخرج منهما وقيل: إنه جائز في كلام العرب أن يذكر شيئين ثم يخص أحدهما بفعل كما قال الله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وكان الرسل من الإنس دون الجن وإن كان المراد بالبحرين بحر السماء وبحر الأرض كما قال مجاهد والضحاك فالوجه أنه إذا مطرت السماء فتحت الأصداف أفواهها فحيثما وقعت وقعت قطرة كانت لؤلؤاً كذا قال ابن جرير ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ قرأ أبو بكر ويزيد بلا همزة والباقون بهمزة وهي كبار الدرر ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ صغارها كذا في القاموس، وقال مقاتل ومجاهد على الضد يعني اللؤلؤ صغار الدرر والمرجان كبارها وقيل المرجان الخزر الأحمر فهو نوع من الجواهر يشبه النبات والحجر وقال عطاء الخراساني هو البسد ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَلَهُ﴾ تعالى ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الكبار جمع جارية ﴿ ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ قرأ حمزة وأبو بكر بخلاف عنه بكسر الشين أي اللائي ابتدأن وأنشأن السير والباقون بفتح الشين أي المرفوعات اللاتي رفع خشبها بعض على بعض وقيل المنشئات المسخرات ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بالمنشئات وهي صفة للجوار وقوله ﴿ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ صفة يعني كالجبال جمع علم وهو الجبل الطويل الجملة معطوفة على ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ خبر للرحمن بتبعيتها وإنما جعلها تابعة لها لكون الجواري تابعة للبحر ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي على الأرض من الحيوانات أو المركبات أو من كل شيء حتى الجبال والبحار والمعادن ومن للتغليب أو من الثقلين ﴿ فَانٍ﴾ يوم القيامة، أو قيل ذلك متى شاء الله تعالى أو فان في حد ذاته موجود بوجود مستعار من الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ﴾ قيل هو من المتشابهات ﴿رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ أي ذو العظمة والسلطان والاستغناء المطلق ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الفضل العام قلت عطف بقاء وجه ربك على فناء من الأرض وتخصيص ذكر الفناء بهم يقتضي أن المراد بالوجه هاهنا الجهة حتى يحصل المناسبة والمقارنة بين المعطوف والمعطوف عليه. فإن قيل معنى العطف هاهنا على المقابلة بين فناء الخلق وبقاء الخالق دون المقارنة؟ قلنا لو كان كذلك لم يفد تقييد الفناء بمن على الأرض فالمعنى كل من على الأرض من الثقلين فإنه في حد ذاته لا يعبأ به ويبقى من جهاته جهته إلى ربه وتوجهه إليه فإنه لا يطرأ عليه فناء قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧] وهذه الصفة من عظيم صفات الله تعالى، روى الترمذي عن أنس وأحمد والنسائي والحاكم بسند صحيح عن ربيعة بن عامر قال: قال

رسول الله ﷺ «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام»[١] وفي الحصن الحصين أنه ﷺ مر برجل وهو يقول يا ذا الجلال والإكرام فقال عليه الصلاة والسلام «قد استجيب لك فسل»[٢] والإلظاظ به من كريم صفات الإنسان الجملتان خبران آخران للرحمن والعائد في الجملة الأولى محذوف وفي الثانية وضع المظهر موضع المضمر والتقدير كل من عليها فان بإفنائه أو بقهرمانه ويبقى وجهه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ منها توفيقه للتوجيه إليه تعالى ومنها ما ذكر من بقاء الرب وإبقاء ما لا يحصى مما على صدد الفناء رحمة وفضلاً ومنها ما يترتب على فناء الكل من الإعادة والحياة الدائمة والنعيم المقيم.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن حوائجهم من المغفرة والعافية وتوفيق العبادة والتجليات والبركات والرزق وغير ذلك، وقيل المراد بمن في السماوات والأرض الموجودات كلها وأورد كلمة من تغليباً فإنها كلها مفتقرة إلى الله تعالى في ذواتها وصفاتها وسائر ما يهمها ويهمن لها والمراد بالسؤال ما يدل على الحاجة إلى تحصيل الشيء نطقاً كان أو غيره ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ أي وقت منصوب على الظرفية بيسأله أو بمقدر دل عليه ما بعده وما قبله يعني يعطي مسؤولهم ويحدث أمور كل يوم ﴿هُوَ﴾ يعني الله تعالى ﴿فِى شَأْنٍ﴾ دائماً ومن شأنه أن يحيي ويميت ويرزق ويعز قوماً ويذل آخرين ويشفي مريضاً ويمرض صحيحاً ويفك عانياً ويرهن فارغاً ويفرج مكروهاً ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويغفر ذنباً للمؤمنين، ويدخل جهنم الكافرين ويعذبهم بأنواع التعذيب ويدخل الجنة من خاف مقام ربه ويكرمهم بأنواع التكريم أي ما لا يحصى من إنعامه وإحداثه في خلقه ما يشاء قال رسول الله ﷺ «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين»[٣] رواه ابن ماجه وابن حبان.

في الصحيح من حديث أبي الدرداء وأخرج ابن جرير مثله من حديث عبد الله بن منيب والبزار مثله من حديث ابن عمر، وروى البغوي بسنده عن ابن عباس قال إن مما خلق الله عز وجل لوحاً في درة بيضاء دفتاه ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ قال الحسين بن الفضل هو سوق المقادير إلى المواقيت، قال أبو سليمان الداراني في هذه الآية كل يوم له إلى العبيد برّ جديد، وقال سفيان بن عيينة الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة فالشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة الدنيا الاختيار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٩١، وأحمد في المسند ٤/ ١٧٧.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٣٦، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٢٤٣٢، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/ ٤١، والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٦٥، ٦/ ١٥٣.
(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة الدنيا الاختيار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب، وقيل شأنه جل ذكره أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاث عساكر عسكراً من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا وعسكراً من الدنيا إلى القبور ثم يرتحلون جميعاً إلى الله عز وجل قال مقاتل نزلت الآية في يهود حيث قالوا إن الله لا يفضي يوم السبت شيئاً ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما يسعف سؤالكما وما يخرج لكما من مكمن العدم حيناً فحيناً ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الرب والباقون بالنون على التكلم قيل معناه سنجرد لجزائكم وذلك يوم القيامة فإنه تعالى لا يفعل فيه غيره قيل إنه تهديد مستعار من قولك لمن تهدده سأفرغ لك فإن المتجرد للشيء كان أقوى عليه وليس المراد منه الفراغ من شغل فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن كذا قال ابن عباس والضحاك، وقيل معناه سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم، وقيل: إن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور ثم قال سنفرغ لكم مما وعدناكم وأخبرناكم يعني نحاسبكم وننجز لكم ما وعدناكم فيتم ذلك ونفرغ منه وإلى هذا ذهب الحسن ومقاتل ﴿أَيُّهَ﴾ قرأ ابن عامر أيها بضم الهاء والباقون بفتح الهاء ووقف أبو عمرو والكسائي بالألف والباقون بغير الألف ﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي الإنس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض أحياءاً وأمواتاً، وقال جعفر الصادق بن محمد الباقر (رض) لأنهما مثقلان بالذنوب وقيل لأنهما مثقلان بالتكليف والمناسب لهذه المعاني لثقلين التأويلات المذكورة في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أعني التهديد أو إتمام الوعد والوعيد وإنجازهما، وقال أهل المعاني كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل قال النبيّ ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي»(١) فجعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما فإنهما مستعدان لصعود مدارج القرب والتجليات والمناسب لهذا المعنى أن يقال في تأويل قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أنا نخلو بكم خلوة لا يكون يقره من يخلو به هناك مدخل، عن أبي ذر العقيلي قال: قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة؟ قال بلى، قلت وما آية ذلك في خلقه؟ قال يا «أبا ذر أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به، قال: بلى، قال فإنما هو خلق من خلق الله والله أجل وأعظم» رواه أبو داود، وأحسن قول الشاعر بالفارسية.

جباني مختصر خواتم كدوري بين جاه من وجائي توباشد ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الأمر ظاهر على تأويل المتأخرين كان المراد بالفراغ التهديد ونحو ذلك فالمعنى أنه فلا تكذبان بالآء ربكما فإن التكذيب يوجب التعذيب والمراد بالآلاء كل نعمة بالإنسان وإن لم يكن شيئاً منها مذكوراً في الآية وقيل التهديد أيضاً نعمة ينزجر به المكلف وهذا تكلف.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ
لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ
بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾
فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى
ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ
﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ
جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين من الله فارين من قضائه ﴿فَٱنفُذُوا۟ۚ﴾ فاخرجوا أمر تعجيز، وقيل معناه إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السماوات والأرض فاهربوا واخرجوا والمعنى حيثما كنتم يدركم الموت وقيل يقال هذا يوم القيامة، أخرج ابن جرير وابن مبارك عن الضحاك قال إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها فتكون الملائكة على أرجائها حين يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفوا صفاً دون صف فينزل الملك الأعلى بجنبه اليسرى جهنم فإذا رآها أهل الأرض ندوا فلا يأتوا قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا إلى المكان الذي كانوا فيه وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٢، ٢٣] وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ﴾ [الحاقة: ١٦، ١٧] يعني ما تشقق منها فبينما كذلك إذا سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ أي لا تقدرون على النفوذ والخروج ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي إلا بقوة وقهر وأنّى لكم ذلك أو المعنى إلا بسلطان مني فإنه لا قدرة لأحد إل امستفادة من الله تعالى لا حول ولا قوة إلا بالله كما أن النبيّ ﷺ نفذ ببدنه ليلة المعراج من السماوات السبع إلى سدرة المنتهى والصوفي ينفذ من دائرة الإمكان إلى مدارج القرب بحول الله وقوته، وقيل معناه حيثما توجهتم كنتم في ملكي وسلطاني أي إلى سلطاني كقوله ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي إلي، وروي عن ابن عباس قال: معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموا ولن تعلموا إلا بسلطان أي بينة من الله عز وجل نصبها ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التكذيب يوجب التعذيب وأنتم لا تقدرون على الفرار منه، وقيل من آلاء الله التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة

ومنها ما نصب من المصاعد العقلية والمعارج الثقلية وأسباب الترقيات فينفذون لها إلى ما فوق السماوات، قال البغوي وفي الخبر يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ﴾ الآية فذلك قوله عز وجل ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ﴾ يعني حين بعثتم من القبور قرأ ابن كثير بكسر الشين والباقون بضمها وهما لغتان وهو اللهب الذي لا دخان فيه كذا قال أكثر المفسرين، وقال مجاهد هو اللهب الأخضر المنقطع من النار ﴿مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالجر عطفاً على النار والباقون بالرفع عطفاً على شواظ قال سعيد بن جبير والكلبي: النحاس الدخان وهو رواية عن ابن عباس فمعنى الرفع يرسل شواظ تارة ونحاس أخرى ويجوز أن يرسلا معاً من غير أن يمتزج أحدهما الأخرى، عن ابن جرير يرسل شواظ من نار وشيء من نحاس، وجاز أن يكون نحاس في محل الرفع مجروراً للجوار وحكي أن الشواظ لا يكون إلا من النار والدخان جميعاً، وقال المجاهد وقتادة النحاس هو الصفر المذاب يصب على رؤوسهم وهو رواية العوفي عن ابن عباس وقال ابن مسعود النحاس المهل ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي لا تمنعان من الله فلا يكون لكم منه تعالى ناصر حين يسوقكم إلى المحشر ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فإن التكذيب يوجب التعذيب وقيل من الآلاء التهديد على موجبات العذاب فيجتنب منها والتميز بين المطيع والعاصي بالجزاء.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ﴾ أي انفرجت ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ فصارت أبواباً لنزول الملائكة الفاء تدل على أن إرسال شواظ من نار يكون قبل انشقاق السماء فهذا الانشقاق ليس للإفناء بل لنزول الملائكة بعد البعث من القبور كما ذكرنا في حديث الضحاك ﴿فَكَانَتۡ﴾ عطف على انشقت يعني كانت السماء حينئذ ﴿وَرۡدَةٗ﴾ أي كلون الورد الأحمر، وقيل كلون الفرس الورد وهو بين الكميت والأشقر كذا في القاموس وقال البغوي هو الأبيض الذي يضرب الحمرة أو الصفرة، قال قتادة السماء اليوم أخضر أو يكون لها يومئذ لون آخر إلى الحمرة، قيل: إنها تتلون ألواناً يومئذ كلون الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي أول الشتاء أحمر فإذا اشتد الشتاء كان أغبر فشبه السماء في تلونها انشقاقها لهذا الفرس في تلونه، أخرج البيهقي عن ابن مسعود قال السماء تكون ألواناً تكون كالمهل وتكون وردة كالدهان وتكون واهية وتشقق فيكون حالاً بعد حال ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ جمع دهن صفة وردة شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل وشبه الورد في اختلاف ألوانها بالدهن وأختلاف ألوانه كذا قال الضحاك ومجاهد وقتادة والربيع، وقال عطاء بن أبي رباح كالدهان كعصر الزيت يتلون في الساعة ألواناً وقال مقاتل كدهن الورد الصافي، وقال ابن جريج تصير السماء كدهن الزيت وذلك حين يصيبها حر جهنم وقال الكلبي كالدهان كالأدم الأحمر وجمعه أدهنته ودهن وجاز أن يكون خبراً بعد خبر لكانت يعني كانت السماء متلونة كلون الورد الأحمر وكلون الفرس الورد وكانت مذابة كالدهن وهو اسم لما يدهن به وجواب الشرط محذوف المعنى فما أعظم الهول وجاز أن يكون قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ معترضة بين الشرط والجزاء والجزاء قوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ الضمير راجع إلى قوله ﴿إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ لتقدمهم رتبة يعني

لا يسألون هل عملتم كذا حتى يدخلهم جهنم بعد السؤال لأن الله تعالى أعلم بهم منهم والكرام الكاتبون من الملائكة كتبوا عملهم والملائكة العذاب يعرفونهم بسيماهم كما سيجيء فيما بعد وهذا لا ينافي سؤالهم لم عملتم كذا بعدما نهتكم يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] كذا قال مجاهد عن ابن عباس، ونحو ذلك قال الحسن وقتادة وهو المعنى لما روي عن ابن عباس في الجمع بين الآيتين حيث قال إنه لا يسألون سؤال شفعة ورحمة وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ وعن عكرمة عن ابن عباس في الجمع بين الآيتين إن في القيامة مواطن يسألون في بعضها، ولا يسألون في بعضها وقال أبو العالية معناه لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ جملة مستأنفة كأنها في جواب سائل يقول إذا لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان فبم يعرف ملائكة العذاب المجرمين فقال يعرفهم بسيماهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] أخرج المختفي في الديباج عن ابن عباس مرفوعاً أخبرني جبرئيل أن لا إله إلا الله أنس للمسلم عند موته وفي قبره وحين يخرج من قبره يا محمد لو تراهم حين يقومون من قبورهم هم ينفضون رؤوسهم هذا يقول لا إله إلا الله والحمد لله فتبيض وجهه وهذا ينادي يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله مسودة في وجوههم.

وروى أبو يعلى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥] الآية، قال يعرف يوم القيامة بذلك لا تستطيعون القيام إلا كما يقوم المتخبط، وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو يعلى عن أبي هريرة مرفوعاً «يبعث الله تعالى يوم القيامة قوماً من قبورهم تأجج أفواههم ناراً فقيل من هم يا رسول الله؟ قال: قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾» وأخرج البزار عن أبي هريرة ونحوه عن جابر يحشر المتكبرون يوم القيامة في صورة الذر وفي الباب أحاديث كثيرة وأخرج الأربعة والحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً «من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش»[١] وفي الصحيحين نحوه، وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله»[٢] وروى أبو نعيم عن عمر والبيهقي عن ابنه نحوه، وأخرج ابن خزيمة وابن حبان وابن عمر يبعث ملقي النخامة في القبلة يوم القيامة وهو في وجهه وأخرج الطبراني في الأوسط عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً «ذو الوجهين في الدنيا يأتي يوم القيامة وله وجهان من نار»[٣] والطبراني

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، والترمذي في الزكاة باب ٢٢، وابن ماجه في الزكاة باب ١٦، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٨، ٤٤١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الديات باب ١.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٩٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٦٠٣.

وابن أبي الدنيا عن أنس مرفوعاً: «من كان ذا اللسانين جعل الله يوم القيامة له لسانين من نار»[(١)] والأربعة والحاكم وابن حبان عن أبي هريرة مرفوعاً «من كان عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل» وفي لفظ «ساقط»[(٢)]، وحديث «يحشر أمتي أفواج صف على صورة القردة»[(٣)] الحديث ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨] في سورة عم يتساءلون وورد في الأحاديث الصحاح يحشر الناس حاملين على أعناقهم ما أخذوه بعير[(٤)] حق وفي الصحيحين مرفوعاً في الغلول «يجيء يوم القيامة وعلى رقبته بعير» الحديث ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أخرج البيهقي عن ابن عباس هذه الآية قال يجمع بين رأسه ورجله ثم يقصف كما يقصف الحطب، وأخرج هناد عن الضحاك في الآية قال يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التكذيب بآلاء يفضي إلى ما ذكر من التعذيب ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي المشركون يكذبونها في الدنيا الموصول مع الصلة صفة لجهنم والجملة مقولة ليقال المقدر وجملة يقال إما مستأنفة أو حال بمعنى أنه يؤخذ نواصيهم وأقدامهم في حال يقال لهم هذه جهنم التي كنتم تكذبونها ﴿يَطُوفُونَ﴾ أي المجرمون ﴿بَيْنَهَا﴾ أي جهنم يحرقون فيها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿ءَانٍ﴾ بالغ إلى النهاية في الحرارة يعني يسعون بين الحميم والجحيم، أخرج الترمذي والبيهقي عن أبي الدرداء مرفوعاً «يلقى على أهل النار الجوع فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ويغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يخيرون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا أدنيت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت في بطونهم» الحديث، وروى أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] قال: «كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه»[(٥)] الحديث، وقال كعب الأحبار إن واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق به في الأغلال فيغمسون في ذلك الوادي حتى تتخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار فذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التكذيب بآلاء الله يوجب التعذيب قيل

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٩٥، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٧١، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٦٠٤.

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٣٨، والترمذي في النكاح باب ٤٢، والدارمي في النكاح باب ٢٤.

(٣) أخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك ١/ ٨٥، ٤/ ٦٠٧.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٨٩، والزكاة باب ٣، والهبة باب ١٧، والأحكام باب ٢٤، ومسلم في الإمارة حديث ٢٤، والنسائي في الزكاة باب ٦، ٦١، وأحمد في المسند ٢/ ٤٢٦.

(٥) أخرجه الترمذي في جهنم باب ٤، وتفسير سورة ٧٠، وأحمد في المسند ٣/ ٧١.

من قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ إلى هاهنا مواعظ ومزاجر وتخويف وكل ذلك نعمة من الله لأنها تزجر من المعاصي والظاهر أن هذا القول تكلف، والمراد بالآلاء كل نعمة لواحد منهم من الإيجاد والإبقاء والترزيق والهداية ونحو ذلك أورد الله سبحانه التوبيخ بهذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة ثماني مرات بعد ذكر عجائب الخلقة وبدائع الصنعة على عدد الصفات الثمانية الحقيقية لله تعالى إلى قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وتنبيهاً على أنه لا ينبغي تكذيب آلاء من هذا شأنه في الخلق والقدرة وسبع مرات عدد أبواب جهنم بعد ذكر الوعيدات من قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ تنبيهاً على أنه لا ينبغي كفران آلاء قادر منتقم كذلك خوفاً من انتقامه وثماني مرات بعد ذكر نعيم الجنة عدد أبواب الجنة وكذلك ثمان أخر بعد ذكر جنته أخرى تنبيهاً على أنه لا ينبغي كفران آلاء قادر منعم كذلك طمعاً في إنعامه والله تعالى أعلم.

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في كتاب العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق(رض) فكر ذات يوم في القيامة والموازين والجنة والنار فقال وددت أني كنت خضراً من هذه الخضر يأتي علي بهيمة تأكلني وأني لم أخلق فنزلت ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق والمقام إما ظرف والمعنى خاف الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب أو موقف القائم عند ربه للحساب، وقال قتادة إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا لله ودانوا بالليل والنهار أو مصدر ميمي والمعنى خاف قيام ربه على أحواله من قام عليه إذا راقبه كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وقيامه عند ربه للحساب فالإضافة إلى الرب للتفخيم والتهويل، وقيل لفظ المقام مقحم والمعنى لمن خاف ربه جنتان مبتدأ خبره لمن خاف أو فاعل للظرف والجملة الظرفية معطوفة على قوله ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ فإنها مع ما يليها بيان الجزاء للأشرار وهذه مع ما بعدها بيان الجزاء للخيار وكلتاهما بيان لقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ الذي هو خبر للرحمن، قال الضحاك هذا يعني الإنعام بالجنتين لمن راقب الله في السر والعلانية بعلمه ما عرض له من محرم تركه من خشية الله تعالى وما عمل من خير أفضى به إلى الله تعالى لا يحب أن يطلع عليه أحد والآية تحتمل المعنيين أحدهما وهو الظاهر أن لمجموعهم جنتان، قال مقاتل جنته عدن وجنته نعيم وقيل جنة للخائفين من الإنس وجنة للخائفين من الجن فإن الخطاب للفريقين وثانيهما أن لكل واحد من الخائفين جنتان، قال محمد بن علي الترمذي جنة لخوفه ربه وجنة لتركه شهوته وقيل جنة بعقيدته وأخرى لعمله أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه، وهذا التأويل مستبعد جداً ويلزم منه أن يكون عدد الجنات على ضعف عدد الخائفين بل على ضعف ضعفهم لأن قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ معطوف على هذه الجملة فيكون لكل واحد من خاف مقام ربه أربع جنات، وقد ورد في الأحاديث أن الجنات كلها أربعة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «جنتان من فضة آنيتها وما فيهما وجنتان

من ذهب آنيتها وما فيهما وما بين القوم وأن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[١] رواه الشيخان في الصحيحين، ورواه البغوي عن عبد الله بن قيس عن النبيّ ﷺ.

وروى أحمد والطيالسي والبيهقي عن أبي موسى مرفوعاً بلفظ «جنات الفردوس أربع جنتان من ذهب حليهما وآنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة حليهما وآنيتهما وما فيهما وما بينهم أن ينظروا ربهم»[٢] الحديث نحوه، روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»[٣] ورد أيضاً بسنده عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فقلت وإن زنى وإن سرق يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت الثالثة وإن زنى وإن سرق يا رسول الله قال: وإن رغم أنف أبي الدرداء»[٤] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ﴾ وأصله ذوو للمذكر وذات أصله ذوات للمؤنث وتثنيته ذواتا على الأصل ويقال في الجمع أيضاً ذوات تخفيفاً ولا يستعمل شيئاً منها إلا مضافاً فإنها وضعت ليتوصل بها إلى الوصف بأسماء أجناس وهاهنا صفة للجنتان ﴿أَفْنَانٍ﴾ جمع فنن وهي الغصنة التي يتشعب من فروع الشجر وتخصيصها بالذكر لأنها تورق وتثمر وتمد الظل، وهو قول مجاهد والكلبي وقال عكرمة ظل الأغصان على الحيطان، قال الحسن ذواتا ظلال أو جمع فن والمراد به ألوان الفواكه وأنواع الأشجار والثمار من قولهم أفنن فلان في حديثه إذا أخذ في فنون منه وضروب وهو قول سعيد بن جبير والضحاك والمروي عن ابن عباس ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شاؤوا إلى الأعالي والأسافل والجملة صفة لجنتان يعني في كل واحدة من الجنة عين يعني شيء من هذا الجنس لا أن في كل واحدة منهما أدنى مجموعهما عينان فحسب لا مزيد عليهما، وكيف قد قال الله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] فلا بد أن يكون من كل نوع من الأنواع الأربعة أنهاراً كثيرة وذكر البغوي عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش التي ذكرها الله تعالى يفجرونها تفجيراً والأخرى الزنجبيل والأخريان نضاختان من فوق إحديهما التي ذكر سلسبيلاً والأخرى التسنيم»[٥] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفان غريب ومعروف وقيل رطب ويابس

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٤، وتفسير سورة ٥٥، باب ١، ٢، ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/٤١٦.

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره ٧/٩، والحاكم في المستدرك ٤/٣٠٨.

(٤) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٥) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠١.

والجملة صفة أخرى لجنتان، قال البغوي قال ابن عباس ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو، كذا أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عنه، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في مسنده وهناد في الزهد والبيهقي عن ابن عباس قال ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ منصوب على المدح لمن خاف أو حال منه لأن في معنى الجمع ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ صفة لفرش والإستبرق ما غلظ من الديباج، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن مسعود قال أخبرتم بالبطائن فيكف بالظواهر، وذكر البغوي نحوه عنه وعن أبي هريرة، وأخرج أبو نعيم عن سعيد بن جبير قال ظواهرها من نور جامد، وذكر البغوي أنه قيل لسعيد بن جبير البطائن من إستبرق فما الظواهر قال هذا كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وذكر البغوي عن ابن عباس قال وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس في الأرض أحد يعرف ما الظواهر ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ حال من الضمير المستتر في لمن خاف اسم بمعنى مجني وهو ما يجتنى من الثمار يعني ثمارها دانية لا يصعب تناولها، وأخرج سعيد بن المنصور والبيهقي وهناد عن البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] قال إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً أو مضطجعين على أي حال شاؤوا، وذكر البغوي عن ابن عباس قال تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً، وذكر عن قتادة أنه قال لا ترد أيديهم عنها بعد ولا شوك ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ﴾ أي في أماكن الجنة وقصورها التي دلت عليها الجنتان أو في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفواكه والفرش ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي نساء قصرت أبصارهن على أزواجهن كذا أخرج البيهقي عن مجاهد ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يجامع الإنسيات إنس ولا الجنيات جن، وأصل الطمث الدم ومنه يقال للحيض، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طرق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ قال لم يدمهن يعني بالجماع جملة لم يطمثهن حال من قاصرات الطرف وهو فاعل للظرف المستقر والجملة الظرفية صفة للجنتان، وقال الزجاج وغيره فيه دليل على أن الجن يتغشى كما يتغشى الإنس وقال مجاهد إذا جامع الرجل فلم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه قال مقاتل في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنهن خلقن في الجنة فعلى قوله هؤلاء. . . من حور الجنة، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن الشعبي قال هن نساء أهل الدنيا خلقهن الله في الخلق الأخرى كما قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧] لم يطمثهن حين عدن في الخلق الآخر إنس قبلهم ولا جان، وذكر البغوي قول الكلبي نحوه قرأ أبو عمرو عن الكسائي لم يطمثهن بضم الميم وأبو الحارث عنه في الثاني كذلك قال الداني هذه قراءتي والذي نص عليه أبو الحارث كرواية الدوري، وقال البغوي قرأ الكسائي إحداهما بالضم فإن كسر الأولى ضم الثانية وإن ضم الأولى كسر الثانية لما روى أبو إسحاق السبيعي قال: كنت

أصلي خلف أصحاب علي (رض)... فأسمعهم يقرؤون لم يطمثهن بالرفع يعني بالضم وكنت أصلي خلف أصحاب عبد الله بن مسعود فأسمعهم يقرؤون بكسر الميم فكان الكسائي يضم إحدايهما ويكسر الأخرى لئلا يخرج عن هذين الأثرين وقرأ الجمهور بكسر الميم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قال مرادف للجملة السابقة، أخرج البيهقي عن أبي صالح والسدي في هذه الآية قال بياض اللؤلؤ وصفاء الياقوت والمرجان قال صفاء لهن كصفاء الدر في الأصداف والذي لا تمسه الأيدي، وذكر البغوي عن قتادة قال صفاء الياقوت في بياض المرجان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يتفلون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون»(١) وفي رواية «لا يسقمون آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم من الإلوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ولا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشياً»(٢) متفق عليه، وأخرج الترمذي وصححه هو والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «أول زمرة تدخل الجنة كالقمر ليلة البدر والزمرة الثانية كأحسن كوكب دري في السماء لكل امرىء منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ ساقهن من وراء الحلل»(٣) وأخرج الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود قال إن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء وذكر البغوي نحوه عن عمر بن ميمون، وأخرج أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ كأنهن الياقوت والمرجان قال: «ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة ولأن أدنى لؤلؤ عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وأنه يكون عليها سبعون ثوباً ينقدها بصره فيرى مخ ساقها من وراء ذلك(٤)، وروى البغوي بسنده عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ أن المرأة من أهل الجنة ليرى ساقها من وراء سبعين حلة من حرير ومخها إن الله يقول ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو دخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العمل في الدنيا ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾

---

(١) انظر الحاشية التالية.

(٢) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨، وأحاديث الأنبياء باب ١، ومسلم في الجنة حديث ١٤، ١٦، والترمذي في القيامة باب ٦٠، والجنة باب ٥، ٧، وابن ماجه في الزهد باب ٣٩، والدارمي في الرقاق باب ١٠٢، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٥٣، ٢٥٧، ٣١٦، ٤٠٠، ٤٧٣، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥٠٧، ٣/ ١٦، ٣٤٥، ٣٨٣.

(٣) أخرجه الترمذي في الجنة باب ٥، ٧.

(٤) أخرجه الترمذي في الجنة باب ٢٣، وأحمد في المسند ٣/ ٧٥.

في الثواب في الآخرة، روى البغوي بسنده عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ ثم قال هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال عليه السلام «يقول الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»(١) وقال ابن عباس هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي الجنتين المذكورين ﴿جَنَّتَانِ﴾ عطف على جنتان وقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ عطف المفرد على المفرد ومن دونهما حال مقدم عليه والمعنى لمن خاف مقام ربه أربع جنات ولم يفعل هكذا ليدل على أن كون الأولين أفضل من الأخريين وجاز أن يكون من دونهما جنتان جملة معطوفة على جملة تقديره ومن دونهما جنتان لأربابهما، قال ابن عباس من دونهما في الدرجة، وقال ابن زيد من دونهما في الفضل، قال أبو موسى جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين رواه الحاكم والبيهقي عنه، وأخرج البيهقي عن أبي موسى عن النبيّ ﷺ قال: «جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»(٢) كذا ذكر البغوي قول ابن جريج وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال كان عرش الله على الماء ثم اتخذ لنفسه جنة ثم اتخذ فيها أخرى ثم أطبقها بلؤلؤة واحدة قال ومن دونهما جنتان، قال البغوي وقال الكسائي من دونهما أي أمامهما وقبلهما يدل عليه قول الضحاك الجنتان من ذهب والأخريان من ياقوت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة فيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على الأرض وعلى الأولين الأشجار والفواكه دلالة على ما بينهما من التفاوت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوارتان بالماء وهو أيضاً أقل مما وصف به الأولين، لأنه ذكر هناك تجريان يعني من فوق من العرش وهاهنا نضاختان من تحت، أخرج ابن أبي حاتم عن البراء بن عازب قال عينان تجريان هما خير من نضاختان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ قال بعضهم ليس النخل والرمان من الفاكهة فإن العطف يدل على المغايرة والفاكهة

(١) أخرجه القرطبي في تفسيره ١٧/ ١٨٣.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٥، ١١/ ٨٤.

ما يقصد منها التفكه لا غير وثمرة النخل غذاء وثمر الرمان دواء، ولهذا قال أبو حنيفة من حلف لا يأكل فاكهة فأكل رطباً ورماناً لا يحنث وقال أكثرهم هما من الفاكهة وإنما عطف تخصيصها بعد تعميم لمزيد فضلها كما عطف جبرئيل وميكائيل على الملائكة، روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر ورقها ذهب أحمر سعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها أمثال القلال أو الدلاء أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم، وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال إن التمر من ثمر الجنة طولها اثني عشر ذراعاً ليس لها عجم وأخرج أيضاً عنه قال الرمانة من رمان الجنة يجتمع حولها بشر كثير يأكلون منها فإذا جرى على ذكر أحدهم شيء يريده وجده في موضع يره حيث يأكل، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها مثل البعير المقتب»[١].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ أي خيرات بالتشديد فخففت لأن خير الذي بمعنى أخير لا يجمع والجملة صفة أخرى لجنتان أي في أماكنها وقصورها قال البغوي روى الحسن عن أبيه عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ قال خيرات الأخلاق حسان الوجوه»[٢] رواه الطبراني، وأخرج ابن المبارك عن الأوزاعي قال خيرات بذيات اللسان ولا يعزن ولا يؤدين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ﴾ وحوراء بالتحريك أن تشتد بياض العين وسواد سوادها وتشتد سود حدقتها وبرق جفونها.ويبيض ما حولها إلا شدة بياضها وسوادها في شدة بياض الجسد أو أسوداد أو العين كلها مثل الظباء ولا يكون في بني آدم بل يستعار لها كذا في القاموس، أخرج البيهقي عن أم سلمة قال قلت يا رسول الله «أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قال «بياض ضخام شعر العين بمنزلة الحوراء جناح النسر»[٣] وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عمر قال لشفرات من حور العين أطول من جناح النسر وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «خلق الحور العين من الزعفران»[٤] وأخرج البيهقي مثله عن أنس مرفوعاً وعن ابن عباس ومجاهد موقوفاً وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال إن الله تبارك تعالى لا يخلق الحور العين من تراب إنما خلقهن من مسك وكافور وزعفران وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن حوراء بزقت في بحر لعذب ذلك البحر

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٥٠، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٥/ ٤٦٢.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٤٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٩، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٥١، والطبري في تفسيره ٢٧/ ٩٢.

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٩، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٩٤٦٥.

من عذوبة ريقها»[١] وأخرج عن ابن عباس قال: إن امرأة من نساء أهل الجنة لو بصقت في سبعة أبحر لكانت تلك الأبحر كلها أحلى من العسل وعن أنس عن النبيّ ﷺ «لقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينها ولملأت ما بينها ريحاً ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[٢] رواه البخاري، وأخرج ابن أبي الدنيا عن كعب لو أن يداً من الحور دليت من السماء لأضاءت بها الأرض كما يضيء الشمس لأهل الدنيا ﴿مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ يعني محبوسات مستورات في الحجال، قال البغوي قصرن طرفهن وأنفسهن على أزواجهن فلا تبغين بهم بدلاً، وروى البيهقي عن مجاهد في هذه الآية قال محبوسات لا يبرحنه والخيمة لؤلؤة وفضة وأخرج البيهقي عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي دخلت الجنة موضعاً يسمى البيدح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأصفر والياقوت الأحمر فقلن السلام عليك يا رسول الله، قلت يا جبرئيل ما هذا النداء؟ قال هؤلاء المقصورات في الخيام استأذن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن الخالدات فلا نظعن أبداً وقرأ رسول الله ﷺ ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾»[٣] والخيام جمع خيمة روى البغوي بسنده عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤ مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون»[٤] وفي الصحيحين نحوه عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً، وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس قال الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مضارع من ذهب وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ الخيمة درة مجوفة وأخرج مثله عن عمر موقوفاً وابن جرير مثله عن أبي مجلز مرسلاً، وقال ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال الخيمة لؤُلؤة فيها سبعون باباً من در وأخرج هناد عن عمر بن ميمون قال الخيمة درة مجوفة ومثله عن مجاهد وابن أحوص، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن ابن مسور لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة ولكل خيمة أربعة أبواب ندخل عليه كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم يكن قبل ذلك لا مرحات ولا طمحات ولا بخرات ولا دفرات حور عين كأنهن بيض مكنون ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ﴾ يعني قبل أصحاب الجنتين دل عليهم ذكر الجنتين ﴿وَلَا جَآنّٞ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٥٣٥، وابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٤٧.
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٥١.
(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٤٣.
(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٥، باب ٢، ومسلم في الجنة حديث ٢٣.

فائدة: نساء الدنيا خير من الحور العين لحديث أخرج البيهقي عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم حور العين؟ قال «نساء الدنيا أفضل من حور العين كفضل الظهارة على البطانة» قلت وبم ذلك؟ قال «بصلاتهن وصيامهن ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب يقلن ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً ألا نحن الناعمات فلا نبأس أبداً ألا نحن المقيمات فلا نطفن أبداً ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً طوبى لمن كنا له وكان لنا»، قلت يا رسول الله المرأة تزوج الزوجين والثلاثة والأربعة في الدنيا ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها منهم قال «إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً في دار الدنيا فزوجته إياه فقالت أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»[1] وأخرج هناد عن حبان بن جبلة قال إن نساء أهل الجنة إذا دخلن الجنة فضلن على الحور العين بأعمالهم في الدنيا ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من قوله ولمن خاف مقام ربه والمعنى لمن خاف مقام ربه جنتان كذا حال كونهم متكئين فيها على كذا لهم من دون هاتين الجنتين جنتان أخريان كذا حال كونهم متكئين على كذا أو حال من أربابهما المقدر يعني حال كون أربابهما متكئين ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ في القاموس الرفرف ثياب خضر يتخذ منها المجالس وبسط وفضول المجالس الفرش والوسادة، وفي الصحاح ضرب من الثياب شبه بالرياض، وقيل طرف الفسطاط والخباء الواقع على الأرض دون الأطناب والأوتاد وأخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ قال المجالس، وأخرج هناد والبيهقي عن سعيد بن جبير قال رياض الجنة، قال البغوي قيل الرفرف البسط وهو قول الحسن ومقاتل والقرطبي روى العوفي عن ابن عباس قال الرفرف فضول المجالس والبسط وقال قتادة هو مجالس خضر فوق الفرش، وقال ابن كيسان هي المرافق، وقال ابن عيينة الزرابي، وقال غيره كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ عطف على خضر في القاموس عبقر موضع كثير الجن وثيابها غاية الحسن والعبقري الكامل من كل شيء والسيد والذي ليس فوقه شيء والشديد وضرب من البسط، وقال البيضاوي منسوب إلى عبقر يزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب والمراد به الجنس ولذلك جمع حسان حملاً على المعنى وكذا ذكر في الصحاح، وأخرج البيهقي عن ابن عباس عبقري حسان قال الزرابي قال القتيبي كل ثوب موشى عند العرب عبقري، وقال أبو عبيدة هو منسوب إلى الأرض يعمل بها الوشي، قال الخليل كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم عند العرب عبقري ومنه قول النبيّ ﷺ وسلم في عمر(رض)«**فلم أر عبقرياً يفري فريه**» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ قرأ ابن عامر ذو الجلال بالواو إجراء على الاسم والباقون بالياء

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٤/٥٣٦، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٤١٧، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/٥٤٤، والسيوطي في الدر المنثور ٦/١٥١.

والمعنى أنه تعالى اسمه من حيث إنه مطلق على ذاته فما ظنك بذاته، وقيل الاسم بمعنى الصفة أو مقحم روى البغوي بسنده عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا أسلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول «اللَّهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» ورواه مسلم أيضاً[1].

تم الجزء السادس ويليه إن شاء الله تعالى الجزء السابع

(١) أخرجه مسلم في المساجد حديث ١٣٥، ١٣٦.

فهرس المحتويات

تفسير سورة فصلت

تفسير سورة الشورى

تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان

تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

تفسير سورة محمد

تفسير سورة الفتح

تفسير سورة الحجرات

تفسير سورة ق

تفسير سورة الذاريات

تفسير سورة الطور

تفسير سورة النجم

تفسير سورة القمر

تفسير سورة الرحمن